BOBST LIBRARY
3 1142 02748 6326

DATE DUE

al-Nuwayrī, Aḥmad ibn ʿAbd al-Wahhāb
[Nihāyat al-arab fī funūn al-adab]

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر الثالث

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م

AE.
90
.A7
N8
v. 3-4
c.1

فهرس

السفر الثالث

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

للنويرى

القسم الثانى من الفن الثانى

فى الأمثال المشهورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم، والمشهور من أمثال العرب، وأوابد العرب وأخبار الكهنة، والزجر، والفأل، والطيرة، والفراسة والذكاء، والكايات والتعريض، والأحاجى، والألغاز وفيه خمسة أبواب

الباب الأول : صحيفة

فى الأمثال ١

ما تمثّل به من أقوال النبىّ صلى الله عليه وسلم ٢

ومن كلام أبى بكر الصديق رضى الله عنه ٤

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٥

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه ٥

ومن كلام على بن أبى طالب كرّم الله وجهه ٦

ومن كلام عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ٦

صحيفة

ومن أمثال العرب المرتبة على حروف المعجم :

حرف الهمـــزة ٦
« الباء ١٨
« التاء ١٩
« الثاء ٢١
« الجيم ٢١
« الحـاء ٢٤
« الخـاء ٢٦
« الدال ٢٧
« الذال ٢٨
« الراء ٢٩
« الزاى ٣٠
« السين ٣١
« الشين ٣٢
« الصـاد ٣٣
« الضـاد ٣٥
« الطاء ٣٦
« الظاء ٣٦
« العين ٣٧
« الغين ٣٩
« الفاء ٤٠

صحيفة

حرف القاف ٤٢
« الكاف ٤٤
« اللام ٤٦
« الميم ٤٨
« النون ٥١
« الهاء ٥٢
« الواو ٥٣
ما جاء فيما أوله (لا) ٥٤
حرف الياء ٥٧
ومما يتمثل به من أشعار الجاهلية :
امرؤ القيس بن حجر ٥٨
زهير بن أبى سلمى ٥٩
النابغة الذبيانى ٥٩
طرفة بن العبد ٦٠
أوس بن حجر ٦٠
بشر بن أبى خازم ٦١
المتلمس وهو جرير بن عبد المسيح ٦١
الأفوه الأودى ٦١
تميم بن أبى مقبل ٦٢
حميد بن ثور ٦٢
عدى بن زيد ٦٢

صفحة

الأسود بن يعفر ٦٣
علقمة بن عبدة ٦٣
عمرو بن كلثوم ٦٤
الحارث بن حلّزة ٦٤
حاتم الطائىّ ٦٤
المرقش الأصغر ٦٤
النمر بن تولب ٦٤
مهلهل بن ربيعة ٦٥
طفيل الغنوىّ ٦٥
عروة بن الورد ٦٥
الأعشى ميمون بن قيس ٦٥
لقيط بن معبد ٦٦
تأبط شرّا ٦٦
المثقب العبدىّ ٦٦
الممزق العبدىّ ٦٦
أفنون التغلبىّ ٦٦
الأضبط بن قريع السعدىّ ٦٧
سويد بن أبى كاهل ٦٧

ومما يمثل به من أشعار المخضرمين :

لبيد بن ربيعة ٦٧
كعب بن زهير ٦٨

صفحة

النابغة الجعدى ٦٨
أمية بن ابى الصلت الثقفى ٦٨
حسان بن ثابت ٦٩
الحطيئة ٦٩
متمم بن نويرة ٦٩
أبو ذؤيب الهذلى ٦٩
الخنساء ٧٠
عمرو بن معد يكرب ٧٠
معن بن أوس ٧٠
زياد بن زيد ٧٠
أيمن بن خريم بن فاتك الأسدى ٧١

ومما يتمثل به من أشعار المتقدمين فى صدر الاسلام :

القطامى ٧١
الطرماح بن حكيم بن الحكم ٧١
الكميت بن زيد الأسدى ٧١
المساور بن هند ٧٢
عدى بن الرقاع ٧٢
الفرزدق واسمه همام بن غالب ٧٢
جرير بن الخطفى ٧٣
الأخطل واسمه مالك بن غياث ٧٣
الصلتان العبدى ٧٤

صحيفة

كثيّر عزة ٧٤

جميـــل ٧٥

عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ٧٥

ومما يتمثل به من أشعار المحدثين :

ابراهيم بن هرمة ٧٦

بشار بن برد ٧٦

أبو العتاهية ٧٧

سلم بن عمرو الخاسر ٧٨

صالح بن عبد القدوس ٧٩

ابن ميّـادة ٨٠

أبو نواس الحسن بن هانئ ٨٠

أبو عيينة المهلبيّ ٨١

عبد الله بن أبي عتبة المهلبيّ ٨١

العباس بن الأحنف ٨١

مسلم بن الوليد ٨٢

منصور النمرى ٨٢

العتابيّ ٨٣

أشجع السلميّ ٨٣

الجرهميّ ٨٤

محمود الوراق ٨٥

محمود بن حازم الباهليّ ٨٥

صحيفة

السموءل بن عادياء ٨٥
محمد بن أبي ذرعة الدمشقي ٨٦
أبو الشيص ٨٦
علي بن جبله بن عبد الرحمن الأنباري ٨٦
اللجلاج الحارثي ٨٦
عبد الصمد بن المعذّل ٨٦
الحمدوني ٨٧
العتبي ٨٧
أبو سعيد المخزومي ٨٧
دعبل بن علي الخزاعي ٨٨
اسحاق بن إبراهيم الموصلي ٨٨
المؤمل بن أميل ٨٨
ابراهيم بن العباس ٨٨
أبو علي البصير ٨٩
سعيد بن حميد ٨٩
علي بن الجهم ٨٩
ابن أبي فنن ٩٠
يزيد بن محمد المهلبي ٩٠
عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ٩٠
أحمد بن أبي طاهر ٩٠
أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ٩١

صحيفة

أبو عبادة البحترى ٩٣
ديك الجن ٩٥
ابن الرومى ٩٥
عبد الله بن المعتز ٩٦
عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ٩٦
ابن طباطبا العلوى ٩٧
منصور الفقيه المقرئ ٩٧
ابن بسام ٩٨
جحظة ٩٩
الصنوبرى ٩٩
أبو الفتح كشاجم ١٠٠

ومما يتمثل به من أشعار المولدين :

أبو فراس الحمدانى ١٠٠
أبو الطيب المتنبى ١٠١
السرى بن أحمد بن السرى الموصلى ١٠٣
أبو بكر محمد بن هاشم الخالدى ١٠٣
أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدى [أخوه] ١٠٤
الخباز البلدى ١٠٤
أبو اسحاق الصابئ ١٠٤
عبد العزيز عمر بن نباته ١٠٤
ابن لنكك البصرى ١٠٥

صحيفة

أبو الحسن عبد الله بن محمد بن محمد السلامى ١٠٥
أبو الفرج الببّغاء ١٠٦
ابن سكرة الهاشمىّ ١٠٦
ابن الحجاج ١٠٦
أبو الحسن الموسوىّ النقيب ١٠٧
أبو طالب المأمونى ١٠٨
ابن العميد ١٠٨
الصاحب بن عباد ١٠٨
الحسن بن علىّ بن عبد العزيز القاضى ١٠٩
أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمىّ ١٠٩
بديع الزمان أبو الفضل الهمذانىّ ١١٠
اسماعيل الناشئ ١١٠
أبو الفتح على بن محمد البستى ١١٠

الباب الثانى من القسم الثانى من الفن الثانى :

أوابد العرب ١١٢
البحيرة ١١٢
الوصيلة ١١٢
السائبة ١١٣
الحامى ١١٣
الأزلام ١١٣
الميسر ١١٤

صحيفة

نكاح المقت ١١٦
رمى البعرة ١١٦
ذبح العتائر ١١٦
عقد السلع والعشر ١١٦
ذبح الظبى ١١٦
حبس البلايا ١١٧
خروج الهامة ١١٧
إغلاق الظهر ١١٧
التعمية والتفقئة ١١٧
بكاء المقتول ١١٧
رمى السن فى الشمس ١١٨
خضاب النحر ١١٨
التصفيق ١١٨
جز النواصى ١١٨
كى السليم عن الجرب ١١٩
ضرب الثور ١١٩
كعب الأرنب ١١٩
حيض السمرة ١٢٠
الطارف والمطروف ١٢٠
وطء المقاليت ١٢٠
تعليق الحلى على السليم ١٢٠

صحيفة

ذهاب الخدر ١٢٠

الحلأ ١٢١

التعشير ١٢١

عقد الرتم ١٢١

دائرة المهقوع ١٢١

شق الرداء والبرقع ١٢٢

نوء السماك ١٢٢

النسىء ١٢٢

وأد البنات ١٢٢

الباب الثالث :

فى أخبار الكهنة ويتصل به الزجر والفأل والطيرة والفراسة والذكاء :

أخبار الكهنة ١٢٤

الزجر ١٣٠

الفأل والطيرة ١٣٩

الفراسة والذكاء ١٤٤

الباب الرابع :

فى الكنايات والتعريض ١٤٧

الباب الخامس :

فى الألغاز والأحاجى ١٥٧

ومما يتصل بهذا الباب مسائل العويص ١٦٦

صحيفة

القسم الثالث من الفن الثانى

فى المدح، والهجو، والمجون، والفكاهات، والملح والخمر، والمعاقرة والندمان، والقيان، ووصف آلات الطرب

وفيـــه خمسة أبواب

البـاب الأوّل :

فى المدح وفيه ثلاثة عشر فصلا ١٦٨

ذكر ما قيل فى الافتخار ١٩٦

ذكر ما قيل فى الجود والكرم وأخبار الكرام ٢٠٠

ذكر من انتهى اليهم الجود فى الجاهلية وذكر شئ من أخبارهم ٢٠٤

وفى أخبار الكرام ٢٠٧

ذكر ما قيل فى الإعطاء قبل السؤال ٢١٦

ذكر ما قيل فى الشجاعة والصبر والإقدام ٢١٧

ومما قيل فى الصبر والإقدام ٢٢٢

ذكر ما قيل فى وفور العقل ٢٢٩

ذكر ما قيل فى حدّ العقل وماهيته وما وصف به ٢٣٢

ذكر ما قيل فى الصدق ٢٣٦

ذكر ما قيل فى الوفاء والمحافظة والأمانة ٢٣٨

ذكر ما قيل فى التواضع ٢٤٤

ذكر ما قيل فى القناعة والتزاهـة ٢٤٦

ذكر ما قيل فى الشكر والثناء ٢٤٧

ذكر ما قيل فى الوعد والإنجاز ٢٥٤

صحيفة

ذكر ما قيل فى الشفاعة ٢٥٧
ذكر ما قيل فى الاعتذار والاستعطاف ٢٥٨

الباب الثانى — فى الهجاء وفيه أربعة عشر فصلا :

ذكر ما قيل فى الهجاء ومن يستحقه ٢٦٧
ومما قيل فى الهجاء من النظم ٢٧٢
ومما يذم به الرجل أن يكون ثقيلا ٢٨٥
ومما هجى به أهل الوقت على الإطلاق ٢٨٦
ومما قيل فى هجاء بعض العشيرة ومدح بعضهم ٢٨٦

ذكر ما قيل فى الحسد :

ومما يذم به الرجل أن يكون حسودا ٢٨٧
ومن أخبار الحسدة ٢٨٩
ومما قيل من الشعر فى تفضيل المحسود ومدحه وهجاء الحاسد وذمه ... ٢٨٩
ذكر ما قيل فى السعاية والبغى والغيبة والنميمة ٢٩١
ومما قيل فى الغيبة والنميمة ٢٩٤
ذكر ما قيل فى البخل واللؤم ٢٩٧
ومن أخبار البخلاء ٣٠٠
احتجاج البخلاء وتحسينهم للبخل على قبحه ٣١٨
ومن نوادر البخلاء ٣٢٧
ذكر ما قيل فى التطفيل ويتصل به أخبار الأكلة والمؤاكلة ٣٢٨
ذكر آداب الأكل والمؤاكلة ٣٤٣

صحيفة

ذكر الاقتصاد فى المطاعم والعفة عنها ٣٤٦

ذكر أخبار الأكلة ٣٤٩

ذكر ما قيل فى الجبن والفرار ٣٥٣

ومن أخبار الفرّارين الذين حسنوا الفرار على قبحه ٣٥٧

ذكر ما قيل فى الحمق والجهل ٣٦٠

ومن صفات الأحمق وعلامته ٣٦٣

ذكر ما قيل فى الكذب ٣٦٧

ذكر ما قيل فى الغدر والخيانة ٣٧١

ذكر أخبار أهل الغدر وغدراتهم المشهورة ٣٧٣

ذكر ما قيل فى الكبر والعجب ٣٧٨

ومما هجى به أهل الكبر ٣٨٤

ذكر ما قيل فى الحرص والطمع ٣٨٤

ذكر ما قيل فى الوعد والمطل ٣٨٧

ذكر ما قيل فى العِىّ والحصر ٣٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثانى من الفن الثانى

فى الأمثال المشهورة

(١)

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، والمشهورِ من أمثال العرب ، وأوابد العرب ، وأخبار الكهنة ، والزجر ، والفال ، والطيرة ، والفراسة ، والذكاء ، والكنايات ، والتعريض ، والأحاجى ، والألغاز . وفيه خمسة أبواب :

الباب الأوّل

من هذا القسم

(فى الأمثال)

ضرب الله عز وجل الأمثال فى كتابه العزيز فى آى كثيرة ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ وتكرر ذكر الأمثال .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضرب الله مثلاً صراطا مستقيما ، وعلى جَنْبَى الصراط أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى رأس الصراط داعٍ يقول ادخلوا الصراط ولا تعرّجوا" فالصراط : الإسلام ، والستور : حدود الله تعالى ، والأبواب : محارم الله ، والداعى : القرآن .

قال المبرّد : المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر شبّه به حال الثانى بالأوّل، والأصـل فيه التشبيه . قال : وقولهم مثّـل بين يديه ، إذا انتصب ؛ معناه أشبه الصورة المنتصبة . وفلان أمثل من فلان، أى أشبه .

والمثال : القصاص، لتشبيه حال المقتصّ منه بحال الأوّل .

وقال ابن السِّكِّيت : المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له و يوافق معناه .

وقال إبراهيم النظّام : يجتمع فى المثل أربع لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ، و إصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة .

وقال ابن المقفّع : إذا جُعل الكلام مثلا كان أوضحَ للمنطق، وآنقَ للسمع، وأوسعَ لشعوب الحديث .

وأوّل ما نبدأ به من ذلك ما مُثّل به من أقوال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم وهو مما لم يُسبق إليه :

"إيّاكم وخَضْراءَ الدِّمَن" فقيل له : وما ذاك يارسول الله؟ فقال : "المرأةُ الحَسْناءُ فى مَنْبِتِ السُّوء" .

"كلُّ الصيدِ فى جَوْفِ الفَرَا" قاله لأبى سفيان يتألّفه على الإسلام .

"مات فلان حَتْفَ أنفه" .

"لا ينتطح فيه عَنْزَان" .

"إن المُنْبَتَّ لا أرْضًا قطَع ولا ظَهْرًا أبْقَى" . المنبتُّ : المنقطع عن أصحابه فى السفر؛ والظهر : الدابّة، قاله فى الغلوّ فى العبادة .

"الآنَ حَمِيَ الوَطِيس" : ضربه فى الحرب .

"يا خَيْلَ اللهِ اركَبِي"(١) .

(١) أى يا فرسان خيل الله اركبى، وهذا من أحسن المجازات وألطفها .

"اشتدّى أزمةُ تنفرجى" .

وقوله صلى الله عليه وسلم: "الناس كأسنان المُشْط وإنما يتفاضلون بالعافية" .

"الناس كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا" .

"النَّاسُ كَإِبِلٍ، مِائَةٍ لا تَجِدُ فيها راحِلَةٌ" .

"المؤمن هَيِّنٌ لَيِّنٌ(١)، كالجمل الأنِف إن قِيد انقاد، وإن أُنيخ على صخرة استناخ".

"المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدّ بعضه بعضا" .

"أصحابى كالنجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم" .

"مثل أصحابى كالملح لا يصلح الطعام إلا به" .

"أُمّتى كالمطر، لا يُدْرَى أوّلُه خير أم آخره" .

"مثل أبى بكر كالقَطْر أين وقع نفع" .

"عُمّالكم كأعمالكم وكما تكونوا يولّى عليكم" .

وقال لما كتب كتاب المهادنة بينه وبين سُهَيل بن عمرو: "والعقد بيننا كَشُرْج العَيْبَة" يعنى إذا انحلّ بعضه انحلّ جميعه .

"المرأة كالضِّلَع العوجاء إن قوّمتها كسرتها، وإن داريتها استمتعت بها".

"المتشبّع بما لم يُعْطَه كلابس ثَوْبَىْ زُور" .

"الدالّ على الخير كفاعله" .

"لو توكلتم على الله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا" .

"وعد المؤمن كالأخذ باليد" .

"مَثَل المؤمن كالنحلة، لا تأكل إلا طيّبا ولا تُطعِم إلا طيّبا" .

"مَثَل المؤمن كالسُّنْبُلَة تميل أحيانا، وتعتدل أحيانا" .

(١) قال ابن الأعرابى : العرب تمدح بالهين اللين مخففين وتذم بهما مثقلين ولم يذكر غيره هذا الفرق .

"مَثَل الجليس الصالح كالعطّار، إن لم تُصِبْ من عطره أصبت من ريحه، ومثل الجليس السوء كالكير إن لم يحرق ثوبك آذاك بدُخَانه" .

"علم لا ينفع كنز لا يُنفَق منه" .

وقال : "المؤمن مِرْآة أخيه" .

"قد جدَع الحَلالُ أنْفَ الغَيْرَة" .

"الأعمـال بالنيّات ولكل آمرئ ما نوى" .

"نيّة المرء خير من عمله" .

"إن من الشِّعْر لحكمةً وإن من البيان لَسِحْرًا" .

"من كثّر سواد قوم فهو منهم" .

"الأعمـال بخواتمها" .

"ساقى القوم آخرهم شربا" .

"المرء على دِين خليله فلينظر آمرؤ مَنْ يُخَالّ" .

"المستشير معانٌ والمستشار مؤتمن" .

ومن كلام أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه

إن الله قرن وعده بوعيده .

ليست مع العَزَاء مصيبة .

الموت أهون مما بعده وأشدّ مما قبله .

ثلاثٌ مَنْ كنّ فيه كنّ عليه : البغى، والنَّكْثُ، والمكر .

ذلّ قوم أسندوا أمرهم إلى آمرأة .

احرص على الموت تُوهَبْ لك الحياة؛ قاله لخالد بن الوليد حين بعثه الى أهل الرِّدّة.

كثيرُ القول يُنْسِى بعضُه بعضا، وإنما لك ما وُعِى عنك .

لا تكتم المستشارَ خبرا فتُؤتَى من قبَل نفسك .

خير الخَصْلتين لك أبغضهما اليك .

صنائِع المعروف تقِى مَصارِعَ السوء .

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه

مَنْ كتم سرَّه كان الخِيار فى يده .

أشقَى الوُلَاة من شَقِيتْ به رَعِيَّتُه .

اتقوا مَنْ تَبْغَضُه قلوبُكم .

أعقلُ الناسِ أعذَرُهم للناس .

اجعلوا الرأسَ رأسين .

أخيفوا الهوامّ قبل أن تخيفكم .

لو أن الشكرَ والصبرَ بَعيران لما باليت أيّهما رَكِبْتُ .

مَنْ لم يعرف الشرّ كان أجدَرَ أن يقع فيه .

ما الخمر صِرْفا بأذهب للعقول من الطمع .

الى الله أشكو ضعف الأمين وخيانة القوىّ .

اقتصاد فى سُنَّة خير من اجْتهاد فى بِدْعة .

لا يكن حبُّك كَلَفا ، ولا بُغْضُك تَلَفا .

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه

ما يَزَعُ اللهُ بالسلطان أكثرُ مما يَزَعُ بالقرآن .

الهدية من العامل اذا عُزِل مثلها منه اذا عَمِل .

أنتم الى إمام فعَّال ، أحوجُ منكم الى إمام قوّال ؛ قاله يوم صعد المنبر فأُرْتِجَ عليه .

وقال يوم قُتل : لأن أُقْتَل قبل الدماء ، أحبُّ الىّ من أن أُقتَل بعد الدماء .

ومن كلام علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه

من رضى عن نفسه كثر الساخط عليه ؛ ومن ضيَّعه الأقربُ أُتيح له الأبعد؛ ومن بالغ فى الخصومة أَثِم، ومن قصّر فيها ظلم .

رأى الشيخ خير من مشهد الغلام .

الناس من خوف الذلّ فى الذلّ .

إن من السكوت ماهو أبلغ من الجواب .

ومن كلام عبد الله بن عباس رضى الله عنهما

لكل داخل دهشة فابدءوه بالتحية؛ ولكل طاعم حشمة فابدءوه باليمين .

ومن أمثال العرب ما نقلته من كتاب "الأمثال" للميدانىّ . [والميدانىّ[1] : هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميدانىّ النيسابورىّ — والميدانىّ : بفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة نسبة الى ميدان زياد، وهى محلة بنيسابور؛ توفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة] ووضعته على حروف المعجم .

فمن ذلك ما جاء منها على حرف الهمزة :

حرف الهمزة

تقول العرب : «إِنَّ المُوَصَّيْنَ بَنُو سَهْوَان» قال الميدانىّ : يُضرَب لمن يسهو عن طلب شىء أمر به ، وبنو سهوان : بنو آدم عليه السلام حين عُهد اليه فسها ونسى .

وقولهم : « إِنَّ الرَّثِيئَةَ تَفْثَأُ الغضب » قال : الرثيئة : اللبن الحامض يخلط بالحلو، والفَثْءُ : التسكين؛ وزعموا أن رجلا نزل بقوم وكان ساخطا عليهم،

(١) هذه زيادة فى إحدى النسخ .

وكان جائعا فسقوه الرثيئة فسكن غضبه ، فقال هذا المثل . يضرب فى الهدية تورث الوفاق .

وقولهم : « إن الحديد بالحديد يُفْلَح » أى يستعان فى الأمر الشديد بما يشاكله ويقاويه .

وقولهم : « إن السلامة منها تَرْكُ مافيها » فى اللُّقَطَة وذم الدنيا[1] .

والنفس تَكْلَفُ بالدنيا وقد علمتْ * أن السلامةَ منها تركُ ما فيها

وقولهم : « إن العَصَا من العُصَيَّة » يقال : إن أول من قال ذلك الأفعَى الجرهمىّ ، ذلك أن نزارا لما حضرته الوفاة جمع بنيه : مضر ، وإيادا ، وربيعة ، وأنمارا ، فقال : يابنىّ ، هذه القبة الحمراء — وكانت من أدم — لمضر ؛ وهذه الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة ؛ وهذه الخادم — وكانت شمطاء — لإياد ؛ وهذه البدرة والمجلس لأنمار ، فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون ؛ فأتوا الأفعَى الجرهمىّ ومنزله بنجران . فتشاجروا فى ميراثه ، فتوجهوا اليه ؛ فبينما هم فى سيرهم إذ رأى مضر أثر كلأ قد رعى ، فقال : إن البعير الذى رعى هذا أعور ، وقال ربيعة : إنه لأزور ، وقال إياد : إنه لأبتر ، وقال أنمار : إنه لشرود ، فساروا قليلا ، فاذاهم برجل يُوضِع[2] جمله فسألهم عن البعير ، فقال مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ، وقال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم ، وقال إياد : أهو أبتر ؟ قال : نعم ، وقال أنمار : أهو شرود ؟ قال : نعم ، هذه والله صفة بعيرى فدلونى عليه ! فقالوا : والله ما رأيناه ، فقال : هذا والله الكذب ! كيف أصدقكم وأنتم تصفونه بصفته ! فساروا حتى قدموا نجران ،

(١) فى الميدانى : وهذا فى بيت أوله . والنفس الخ .

(٢) فى الميدانىّ : ينشد جمله .

فلمـا نزلوا، نادى صاحب البعير، هؤلاء أصحاب جملى وصفوا لى صفته ثم قالوا : لم نره؛ فاختصموا إلى الأفعى، فقال لهم : كيف وصفتموه وأنتم لم تروه؟ فقال مضر: رأيتـه قد رعى جانبا وترك جانبا، فعلمت أنه أعور؛ وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة والثانية فاسدة، فعلمت أنه أزور لأنه أفسدها بشدّة وطئه؛ وقال إياد : عرَفت أنه أبتر باجتماع بعره ولو كان ذيّالا لمصع به؛ وقال أنمار : عرفت أنه شرود، لأنه يرعى فى المكان الملتفّ نبته ثم يجوزه إلى مكان أرقّ منه؛ فقال الأفعى : ليسوا بأصحاب جملك فاطلبه، ثم سألهم : من أنتم ؟ فأخبروه بخبرهم، وبما جاءوا له، فأكرمهـم، وقال : أتحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى ؟ ثم أنزلهم وذبح لهم شاة، وأتاهم بخمر؛ وجلس لهم الأفعى بحيث لا يرى؛ فقال ربيعة : لم أر كاليوم أطيب لحما لولا أن شاته غذيت بلبن كلبة ؛ وقال مضر : لم أر كاليـوم أطيب خمرا لولا أن حُبْلتها[1] نبتت على قبر؛ فقـال إياد : لم أر كاليـوم رجلا أسرَى لولا أنه ليس لأبيه الذى يدعى له ؛ فقال أنمار : لم أر كاليوم كلاما أنفع فى حاجتنا من كلامنا ، وكان كلامهم بإذنه، فدعا قهرمانه ، فقال : ما هـذه الخمر، وما أمرها ؟ قال : هى من حُبْـلة غرستها على قبر أبيك؛ وقال للراعى : ما هـذه الشاة؟ فقال : هى عَناق أرضعتها بلبن كلبـة وكانت أمها ماتت ؛ ثم أتى أمه، فقال : اصـدقينى، مَنْ أبى ؟ فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المـال وكان لا يولد له، فخفتُ أن يموت وليس له ولد، فأمكنت من نفسى ابنَ عم له كان نازلا عليه فولدتك؛ فرجع إليهم وقال : ما أشبه القبـة الحمراء من مال نزار فهو لمضر، فذهب بالإبل الحمر والدنانير ، فسمّيت مضر الحمراء . وأما صاحب الفرس الأدهم والخبـاء الأسود فله كل شىء أسود، فصار لربيعة الخيـل الدُّهْم وما شاكلها، فقيـل : ربيعة الفرس . وأما الخادم الشمطاء

(١) الحبلة (بالضم ويحرّك) : الكرمة التى يكون منها الخمر .

فلصاحبها الخيل البُلْق والماشية، فسميت : إياد الشمطاء، وقضى لأنمار بالدراهم والأرض فصدروا من عنده على ذلك، فقال الأفعى : إن العصا من العصيّة، وإنّ خُشَينًا من أخشن؛ فأرسلهما مثلا .

وقولهم : «إن العَوانَ لا تُعَلَّم الخُمرة» : يضرب للرجل المجرّب .

وقولهم : «إنى لآكل الرأس وأنا أعلم بما فيه» : يضرب للأمر تأتيه وأنت تعلم ما فيه مما تكره .

وقولهم : «أنفٌ فى السماء، وآستٌ فى الماء» : يضرب للمتكبر الصغير الشأن .

وقولهم : «إن الذليل الذى ليست له عَضُد» : أى أنصار وأعوان : يضرب لمن يخذله ناصره .

وقولهم : «إن يَدْمَ أَظَلُّكَ فقد نَقِبَ خُفِّى» الأظل : ما تحت مَنْسِم البعير : والخفّ : قائمته : يضربه المشكوّ إليه للشاكى أى أنا منه فى مثل ما تشكوه .

وقولهم : «إن تسلم الجِلَّةُ فالنِّيبُ هَدَر» الجِلَّةُ : جمع جليل يعنى العظام من الإبل ، والنيب : جمع ناب وهى الناقة المسنّة، معناه إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به .

وقولهم : «إنْ يَبْغِ عليك قومُك لا يبغِ عليك القمر» يقال : إن بنى ثعلبة آبن سعد فى الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة، فقالت طائفة : تطلع الشمس والقمر يُرى، وقالت طائفة : بل يغيب قبل طلوعها، فتراضوا برجل جعلوه بينهم، فقال رجل منهم : إن قومى يبغون علىّ، فقال العدل : إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر؛ فذهبت مثلا : يضرب للأمر المشهور .

وقولهم : «إنْ كنتَ رِيحًا فقد لَاقَيْتَ إعْصَارا» الإعصار : ريح شديدة تهبّ فيما بين السماء والأرض : يضرب للمدل بنفسه إذا صُلِيَ بمن هو أدهى منه وأشدّ.

وقولهم : «إنَّكَ خيرٌ من تَفَارِيقِ العَصَا» قالوا : قالتــه غُنَيّة الأعرابية لابنها، وكان عارما مع ضعفه، فواثب يوما فتًى[1] فقطع أذنه فأخذت ديتها، فزادت حُسْنَ حالٍ ثم واثب آخر فقطع شفته فأخذت الدية فذكرته فى أرجوزتها فقالت :

أحْلِفُ بالمَـرْوَةِ حقًّا والصَّفَـا ۞ إنك أجدى[2] من تَفَارِيق العَصَا

فقيــل لأعرابىّ : ما تفاريق العصا ؟ فقــال : العصا تقطع ساجورا والسواجير للكلاب والأسرى من الناس ثم تقطع عصا الساجور فتصــير أوتادا و يقطع الوتد فيصير كل قطعة شِظَاظا و إن جعل لرأس الشظاظ كالفَلْكة صار للبُخْتِىّ مِهَارا وهو العود الذى يدخل فى أنفه، واذا فرق المهار جاءت منه تَوَادٍ وهى الخشبة التى تشدّ على خِلْف الناقة .

وقولهم : « إنَّهُ لَيَعلَم من أينَ تُؤْكَلُ الكَتِف » : يضرب للرجل الداهى؛ قال بعضهم : لِمَ تُؤكلُ الكتف من أسفلها ؟ قال : لأنها تنقشر عن عظمها وتبقى المرقة مكانها ثابتة .

وقولهم : « إنَّكَ لا تَجْنِي من الشَّوْكِ العِنَب » أى لا تجد عند ذى المَنْبِت السوء جميلا ؛ والمثل من قول أكثم قال : إذا ظلمت فاحذر الانتصار، فإن الظلم لا يكسبك إلا مثل فعلك .

وقولهم : « أَخْوَ الظَّلْمَاء أعْشَى بالليل » : يضرب لمن يخطئ حجته ولا يبصر المخرج مما وقع فيه .

(١) فى الميدانى : "فقطع الفتى أنفه فأخذت غنية دية أنفه فحسنت حالها بعد فقر مدقع ثم واثب آخر فقطع أذنه الخ" . (٢) فى الميدانىّ : "خير" .

وقولهم : « إنَّكَ لتُكْثِرُ الحَزَّ وتُخْطِئ المَفْصِل » : يضرب لمن يجتهد فى السعى ثم لا يظفر بالمراد .

وقولهم : « أوّل الشجرة النّواة » : يضرب للأمر الصغير يتولد منه الكبير .

وقولهم : « إذا صاحت الدّجاجة صِياح الدِّيك فلْتُذْبَح » قاله الفرزدق فى امرأة قالت الشعر .

وقولهم : «إذا رآنى رأى السِّكين فى الماء» : يضرب لمن يخافك جدّا .

وقولهم : « إنك ريّان فلا تعجل بشربك » : يضرب لمن أشرف على إدراك بغيته فيؤمر بالرفق .

وقولهم : « أبْطَشُ مِنْ دَوْسَر » هى إحدى ذئاب النعمان أشدّها بطشا ونكاية ؛ قال بعض الشعراء

ضَرَبَتْ دَوْسَرُ فيهم ضَرْبة (١) * أثبتتْ أوتاد مُلْكٍ فاسْتَقَرّ

وقولهم : « أبْرَمًا قَرُونًا » البَرَم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر لبخله ، والقَرُون : الذى يقرن بين الشيئين ؛ وأصله أن رجلا كان لا يدخل فى الميسر ولا يرى اللحم فجاء الى امرأته و بين يديها لحم تأكله فأقبل يأكل معها بضعتين يقرن بينهما فقالت له : أبْرَمًا قَرُونًا : يضرب لمن يجمع بين خَصْلتين مكروهتين .

وقولهم : «الثَّيِّبُ عُجَالة الراكب» : يضرب فى الحث على الرضا بيسير الحاجة عند إعواز جليلها .

---

(١) فى اللسان : وهذا الشعر أورده الجوهرى * ضربت دوسر فيهم * وصوابه : « دوسر فيه » لانه عائد على يوم الحنو .

وقولهـــم :

« اِلْبَسْ لِـكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا * إمّا نَعِيمَهَا و إمَّا بُوسَهَا »

أوّل من قال ذلك بَيْهَس : وهو رجل من بنى غراب بن فَزَارة ، وكان سابع سبعة إخوة ، فأغار عليهم أناس من بنى أشجع ، وهم فى إبلهم فقتلوا منهم ستة وتركوا بيهسا لحمقه فقال : دعونى أتوصل معكم الى أهلى فأقبل معهم ، فلما كان من الغد نحروا جزورا فى يوم شديد الحرّ ، فقال بعضهم : أظلّوا لحمكم لا تفسده الضَّحُّ ، فقال بيهس : لكن بالأَثْلَاث[1] لحم لا يظلّل ، فأرسلها مثلا ؛ ثم فارقهم وأتى أمه فأخبرها الخبر فقالت : ما جاء بك من بين إخوتك وأنت أخبثهـم ، فقال : ما خَيَّرك القومُ فتختارى ، فأرسلها مثلا ؛ ثم أعطته ثياب إخوته ومتاعهم ، فقال : ياحبذا التراث لولا الذِّلة ، فأرسلها مثلا ؛ وأخذ يوما يَبْرُد[2] سكينا ، فقيل له : ما تصنع بها ؟ فقال : أقتل بها قتلة إخوتى ، فقيل له : إنك لأحمق ، فقال : ما يؤمنك من أحمق فى يده سكين ، فأرسلها مثلا ؛ ثم إنه مرّ بنسوة من قومه يصلحن امرأة يردن أن يهدينها لبعض قتلة إخوته فكشف ثوبه عن استه وغطى به رأسه ، فقيل له : ما تصنع ؟ فقال :

البَسْ لكل حالة لبوسها * إما نعيمها وإما بُوسَها

وقولهم « الصيفَ ضيَّعْتِ اللبن » قال الأصمعىّ : معنـاه تركت الشىء فى وقته ؛ وقال غيره : تركت الشىء وهو ممكن ، وقال أبو عبيدة : أوّل من قاله عمرو بن عُدَس ، وكان قد تزوّج دَخْتَنُوس بعد ما كبر ، فكان ذات يوم نائما فى حجرها فخَفَّ[3]

(١) قال ياقوت فى معجمه : أثلاث بالثاء هو الموضع المذكور فى المثـل فى بعض الروايات ؛ لكن بالأثلاث الخ . ثم قال : وأكثر الرواة يقولون : الأثلات – بالتاء – جمع أثلة وهو صنف من الطرفاء كبير يظلل بفيئه مائة نفس .

(٢) فى الأصل : « يبرم » وهو تحريف .

(٣) الخفيف : صوت من الجوف أشدّ من الغطيط .

وسال لعابه فتأفّفته فانتبه وهى تتأفف منه، فقال: أتحبين أن أطلّقك ؟ قالت: نعم، فطلقها، وتزوّجها فتى ضرير حسن الوجه، ففجأتهم ذات يوم غارةٌ والفتى نائم فجاءت دَخْتَنوس فأنبهته وقالت له: الخيل، فجعل يقول: الخيل الخيل! من الخوف حتى مات فَرَقا وسُبِيتْ دختنوس فبلغ عمرا الخبر فركب ولحقهم وقاتل حتى آستنقذ جميع ما أخذوا وآستنقذها فوضعها قدّامه على السرج وردّها الى أهلها، ثم أصابتهم سنة فبعثت إليه تقول: نحتاج اللبن فبعث إليها بالقحة وقال: الصيف ضيعت اللبن.

وقولهم: «اضْطَرَّهُ السَّيْلُ الى مَعْطَشِه» وهو أن رجلا عطش وكان قد أتى واديا له غور وماء شديد الجرية، فبقى فى أصل شجرة لا يقدر أن ينزل فيأخذ به الماء، ولم يجد ماء فمات عطشا: يضرب لمن ألقاه الخير الذى كان فيه الى شرّ.

وقولهم:

«إنّ الحَمَاةَ أُولِعَتْ بالكَنَّه * وأُولِعَتْ كَنَّتُها بالظِّنَّه»

الحماة: أمّ الزوج، والكَنّة: آمرأة الابن والأخ، والظِّنّة: التهمة، وبين الحماة والكنة عداوةٌ مُستحكِمَةٌ: يُضرب بها المثل فى الشرّ يقع بين قوم هم أهل لذلك.

وقولهم: «إن لله جنودا منها العَسَل» قاله معاوية: لما بلغه أن الأشتر سُقِى عسلا فيه سمّ فمات: يضرب عند الشماتة بمصاب العدو.

وقولهم: «إن الهوى ليَميلُ بآسْتِ الراكب» أى من هوى شيئا مال نحوه قبيحا أو جميلا، كما قيل

وما زُرْتكم عَمْدًا ولكنّ ذا الهوى * إلى حيث يَهْوى القلب تهوِى به الرِّجْل

وقولهم : "إن الجَوَادَ قَدْ يَعْثُر" : يضرب لمن يكون الغالب عليه فعل الجميل ثم تكون منه الزلّة .

وقولهم : «إن الشفيق بسوء ظنّ مُولَع» : يضرب للمعنىّ بشأن صاحبه لأنه لا يكاد يظن به غير وقوع الحوادث كظنون الوالدات بالأولاد .

وقولهم : «إن خَصْلتين خيرُهما الكذب لَخَصْلَتَا سُوء» : يضرب للرجل يعتذر من شيء فعله بالكذب .

وقولهم : «أحاديثُ طَسْمٍ وأحلامُها» : يضرب لمن يخبرك بما لا أصل له .

وقولهم : «أَحَشَفًا وسُوءَ كِيلَةٍ» : يضرب لمن يجمع بين خَصْلتين مكروهتين .

وقولهم : «الحق أَبْلَج، والباطلُ لَجْلَج» : معناه أن الحق واضح بيّن، والباطل يتلجلج فيه أى يتردّد فلا يجد صاحبه مخرجا .

وقولهم : «الحزمُ سُوءُ الظَّنّ بالناس» : هذا المثل قاله أكثم بن صيفىّ .

وقولهم : «اختلط الخاثِرُ بالزُّبّاد» . الخاثر : ما خثر من اللبن، والزُّبّاد : الزبد : يضرب للقوم يقعون فى التخليط من أمرهم .

وقولهم : « أخطأتِ اسْتُه الحُفْرة» : يضرب لمن رام شيئا فلم ينله .

وقولهم : « ادع الى طِعَانِكَ مَن تدعوه الى جِفَانِك » أى استعمل فى حوائجك من تخصّه بمعروفك .

وقولهم : «أَرَوَغانًا يا ثُعال، وقد عَلِقتَ بالحبال» ثعالة : الثعلب يضرب لمن يراوغ وقد وجب عليه الحق .

وقولهم : «إِرْمِ فَقَدْ أَفْقَتْهُ مَرِيشًا» يقال : أفقت السهم إذا وضعت فُوقَه فى الوتر : يضرب لمن تمكّن من طَلِبَته .

وقولهم : «أَضَرِطا وأنت الأعلى ؟» قاله سُليك بن سُلَكة السعدىّ ، وذلك أنه بينا هو نائم إذ جثم عليه رجل من الليل وقال : استأسِرْ ، فقال له سليك : الليل طويل وأنت مقمر ، فأرسلها مثلا : ثم ضمه سليك بيديه ضمّة أضرطته ، فقال له : أَضَرِطًا وأنت الأعلى فأرسلها مثلا : يضرب لمن يشكو فى غير موضع الشكوى .

وقولهم : «أَضْلَلْتَ من عَشْرٍ ثَمَانِيًا» : يضرب لمن يفسد أكثر ما يليه من الأمر .

وقولهم : «أَعْطِ أخاك تمرة ، فإن أَبَى فجمرة» : يضرب لمن يختار الهوان على الكرامة .

وقولهم : «اكْذِبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَهَا» معناه لا تحدّث نفسك بأنك لا تظفر ، فإن ذلك يثبّطك . قال لبيد :

اكْذِبِ النفس إذا حـــدَّثتَها * إنّ صدق النفس يُزْرى بالأَمَلْ

وقولهم : «أَكِبْرًا وإِمْعَارًا ؟» أى أتجمع بين الكبر والفقر .

وقولهم : «أَمَكْرًا وأنت فى الحَدِيد» هذا المثل قاله عبد الملك بن مروان لعمرو ابن سعيد لما قبض عليه وكبّله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت ألا تفضحنى بأن تخرجنى للناس فتقتلنى بحضرتهم فافعل ، وإنما أراد عمرو بهذه المقالة أن يخالفه عبد الملك فيخرجه فيمنعه منه أصحابه ، فقال : أبا أمية ! أمكرا وأنت فى الحديد : يضرب لمن أراد أن يمكر وهو مقهور .

وقولهم : « أَهْوَنُ هَالِكٍ عَجُوزٌ فى هام سَنَةٍ » : يُضرب للشىء يُستخفُّ به وبهلاكه .

قال الشاعر :

وأهون مفقود إذا الموتُ نابه * على المرء من أصحابه مَن تَقَنَّعا

وقولهم : « أوسعتُهم سَبًّا وأودَوْا بالإبل » أصله أن رجلا من العرب أُغير على إبله فأخذت ، فلما تواروا صعد أَكَمَةً وجعل يسُبّهم ثم رجع إلى قومه فسألوه عن إبله ، فقال هذا المثل .

ويقال : إن أوّل من قاله كعب بن زهير بن أبى سُلْمَى ، وذلك أن الحارث بن ورقاء الصيداوىّ أغار على بنى عبد الله بن غطفان وآستاق إبل زهير وراعيَه ، فقال زهير فى ذلك قصيدته التى أوّلها :

بان الخليطُ ولم يأووا لمن تركوا * وزوّدوك آشتياقا أيَّةً سلكوا

وبعث بها إلى الحارث فلم يردّ الإبل ، فهجاه ، فقال كعب آبنه : أوسعتهم سبًّا وأودوا بالإبل ، فذهبت مثلا : يضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام .

وقولهم : « أَوْرَدَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مُشْتَمِل » هو سعد بن زيد مناة أخو مالك الذى يقال فيه : إنّك آبلُ من مالك ، وذلك أن مالكا تزوّج بامرأة وبنى بها فأورد الإبل أخوه سعد ولم يحسن القيام عليها والرفق بها ، فقال مالك :

أَوْرَدَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مشتمِل * ما هكذا تورَد يا سَعْدُ الإبل

فضرب مثلا لمن قصّر فى طلب الأمر .

وقولهم : « إنّ الشَّقِىّ وَافِدُ البَرَاجِم » قاله عمرو بن هند الملك . وذلك أن سُوَيْد بن ربيعة التميمىّ قتل أخاه سعد بن هند وهرب فنذر عمرو ليقتلن بأخيه مائة

من بنى تميم، فسار إليهم بجمعه فلقيهم الخبر فتفرّقوا فى نواحى بلادهم فلم يجد إلا عجوزا كبيرة وهى حمراء بنت ضَمْرة، فلما نظر اليها قال : إنى لأحسبك أعجمية، قالت : لا والذى أسأله أن يخفِض جَناحك، ويهدّ عِمادك، ويضع وسادك، ويسلبك بلادك، ما أنا بأعجمية، قال : فمن أنتِ ؟ قالت : أنا بنت ضمرة بن جابر، ساد مَعدّا كابرا عن كابر، وأنا أخت ضمرة بن ضمرة، قال : فمن زوجك؟ قالت : هَوْذَة آبن جَرْوَل، قال : وأين هو الآن؟ أما تعرفين مكانه؟ قالت : لو كنت أعلم مكانه حال بينى و بينك، فقال عمرو : أما والله لولا أنى أخاف أن تلدى مثل أبيك وأخيك وزوجك لأستبقيتك، فقالت : والله ما أدركتَ ثارا، ولا محوتَ عارا، مع كلام كثير كلّمته به فأمر بإحراقها، فلما نظرت إلى النار، قالت : ألا فَتًى مَكَانَ عَجوز ! فذهبت مثلا، ثم مكثت ساعة فلم يفِدها أحد، فقالت : هيهات صارتِ الفتيان حُمَمًا، فذهبت مثلا، ثم أُلقِيت فى النار ولبث عمرو عامّة يومه لا يقدر على أحد، حتّى إذا كان آخر النهار أقبل راكب يسمى عَمّارا تُوضِع به راحلته حتى أناخ اليه، فقال له عمرو : من أنت؟ قال : أنا رجل من البراجم، قال : فما جاء بك إلينا؟ قال : سطع الدُّخان وكنت طَوِيت منذ أيام وظننته طعاما، فقال عمرو : إن الشقىّ وافدُ البراجم، فذهبت مثلا، وأمر به فأُلْقِى فى النار، قيل : إنه أحرق مائة من بنى تميم : تسعة وتسعين من بنى دارم، وواحدا من البراجم .

وقال بعضهم : ما بلغنا أنه أصاب من بنى تميم غير وافد البراجم و إنما أحرق النساء والصبيان؛ قال جرير :

وأخزاكُمُ عمرو كما قد خَزِيتُمُ * وأدرك عَمّارا شقِىّ البَراجِم

ولذلك عُيِّرت بنو تميم بحب الطعام؛ قال الشاعر :

إذا مامات مَيْت من تميم * وسرّك أن يعيش فجىءْ بزِيدِ

بخُـبْز أو بلحم أو بتمـر * أو الشَّيء المَلَفَّف فى البِجادِ
تراه يُنَقِّب الآفاق حـولا * لِيأكلَ رأسَ لقمانَ بن عادِ

وهذا المثل يضرب لمن يوقع نفسه فى هَلَكَة طمعا .

حرف البـاء

تقول العرب : «بلغ السيلُ الزُّبَى» هى جمع زُبيـة وهى حفرة تُحفر للأسد إذا أرادوا صيده لايعلوها المـاء فإذا بلغها السيل كان مجحِفا : يضرب لمن جاوز الحـدّ .

وقولهم : «بَيْنَ العَصَا ولِحائها» اللحاء : القشر : يضرب للمتخالّين المتفقين ؛ ويروى : لا مدخل بين العصا ولحائها .

وقولهم : « بينهم داء الضرائر » هى جمع ضَرَّة : يضرب للعداوة إذا رسخت بين قوم .

وقولهم : « بينهم عِطْر مَنْشِم » قال الأصمعىّ : مَنْشِم كانت عطّـارة بمكة وكانت خُزاعة وجُرْهُم إذا أرادوا القتال تطيّبوا من طِيبها فاذا فعلوا ذلك كثرت بينهـم القتلى فكان يقال : أشأم من عطر منشم : يضرب فى الشرّ العظيم ، وفيـه يقول زهـير :

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وذُبيَان بعد ما * تَفَانَوْا ودَقُّوا بينهم عِطْر مَنْشِم

وقولهم : «به داءُ ظَبْى» أى أنه لا داء به كما أن الظبى لا داء به ، وقيـل : ربمـا يكون بالظبى داء لا يعرف مكانه ، معناه أنّ به داءً لا يُعرف .

وقولهم : «بلغتِ الدِّمَاءُ الثُّنَنَ» الثُّنَنُ : الشعرات التى فى مؤخر رُسغ الدابّة : يضرب عند بلوغ الشرّ النهاية .

وقولهم : «بَرِحَ الخفَاء» أى زال من قولهم ما برح ، والمعنى زال السرّ فوضح الأمر ، ويقال : الخفاء : المتطأطئ من الأرض ، والبراح : المرتفع أى صار الخفاء بَراحا .

وقولهم : «بَنَانَ كفٍّ لَيْسَ فيها ساعِد» : يضرب لمن له همة ولا مقدرة له على ما فى نفسه .

وقولهم : «بات فلانٌ يَشْوِى القَرَاح» يعنى الماء الخالص لا يخالطه شىء : يضرب لمن ساءت حاله ، وفقد ماله بحيث يشوى الماء شهوةً للطبيخ

وقولهم : «بَخٍ بَخٍ ساقٌ بخَلْخَالٍ» هى كلمة يقولها المتعجب من حسن الشىء وكماله . وأوّل من قال ذلك الوِرْثَةُ بنت ثعلبة ، وذلك أنّ ذُهل بن شيبان كان زوج الوِرثة وكانت لا تترك له امرأة إلا ضربتها فتزوّج رَقَاش بنت عمرو بن عثمان من بنى ثعلبة ، فخرجت رقاش يوما وعليها خَلْخَالان ، فقالت الوِرْثَةُ ذلك فذهبت مثلا .

حرف التاء

قولهم : «تَرَكَ الظَّبْيُ ظِلَّه» أى كِناسه الذى يستظلّ به : يضرب لمن نفر من شىء فتركه تركا لا يعود له .

وقولهم : «تركتُه على مثلِ ليلة الصَّدَرِ» وهى ليلة ينفر الناس من منًى فلا يبقى منهم أحد .

وقولهم : «تركتُه على أنتى من الرَّاحَة» أى على حال لا خير فيه كما لا شعر على الراحة : يضرب فى اصطلام الدهر .

وقولهم : «تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تأكُلُ بثَدْيَيْهَا» أى لا تكون ظِئْرًا وإن آذاها

الجوع . أوّل من قاله الحارث بن سليل الأسدىّ وكان حليفا لعلقمة بن حصفة الطائىّ فزاره فنظر الى ابنته الزّبّاء وكانت من أجمل أهل دهرها ، فقال : أتيتك خاطبا وقد يُنْكَح الخاطب ، ويُدْرَك الطالب ، ويُمْنَح الراغب ، فقال له علقمة : أنت كفء كريم يُقْبَل منك الصفو ، ويؤخَذ منك العفو ، فأقم تنظر فى أمرك ، ثم آنكفأ الى أمها ، فقال : إن الحارث سيّد قومه حسبا ومنصبا وبيتا ، وقد خطب الينا الزّباء فلا ينصرفَنّ إلا بحاجته ، فقالت المرأة لابنتها : أى الرجال أحب إليك الكَهْل الجَحْجَاح ، الواصل المنّاح ، أم الفتى الوضاح ؟ قالت : بل الفتى الوضّاح ، فقالت : إن الفتى يُغيرك ، وإن الشيخ يُميرك ، وليس الكهل الفاضل ، الكثير النائل ، كالحديث السنّ ، الكثير المَنّ ، قالت يا أماه : إن الفتاة تحب الفتى ، لَحُبّ الرّعاء أنيق الكلا ، قالت : أى بنية ! إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب ، قالت : إن الشيخ يُبْلى شبَابى ، ويدنّس ثيابى ، ويُشْمِت بى أترابى . فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحارث على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم ، فابتنى بها ، ثم رحل بها الى قومه فبينا هو ذات يوم جالس بفناء قومه وهى الى جانبه ، إذ أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون فتنفست الصُّعَدَاءَ ، ثم أرخت عينيها بالبكاء ، فقال : ما يبكيك؟ قالت : مالى وللشيوخ ، الناهضين كالفروخ ، فقال لها : ثَكِلَتْكِ أمك ! تجوع الحرّة ولا تأكل بثديها ، ثم قال لها : وأبيك ، لرب غارة شهدتُها ، وسبيّة أردفتُها ، وخمرة شربتُها ، فألحقى بأهلك فلا حاجة لى فيك ، وهذا المثل : يضرب فى صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب .

وقولهم : «تَجَشَّأ لُقْمانُ من غير شِبَع» : يضرب لمن يدّعى ماليس يملك .

وقولهم : «تُخْبِر عن مجهوله مَرْآتُه» أى منظره يخبر عن مَخْبَره .

وقولهم : «تشكو إلى غير مُصَمِّتٍ» أى الى من لايهتم بشأنك . قال الشاعر

إنك لا تشكو الى مُصَمِّتِ * فاصْبِر على الحمل الثقيل أومُتِ

وقولهم : «تجاوز الرَّوضَ الى القاع القَرِق» : يضرب لمن يعدل بحاجته عن الكريم الى اللئيم ، والقَرِق : المستوى .

وقولهم : «تسمع بالمُعَيْدِىّ خيرٌ من أن تَراه» ويروى : لا أن تراه : يضرب لمن خبره خيرٌ من مرآه ، أول من قاله : المنذر بن ماء السماء .

وقولهم : «تُقَطِّعُ أعناقَ الرجال المطامعُ» : يضرب فى ذم الطمع .

وقولهم : «تَقَلَّدها طَوْقَ الحمامة» كناية عن الخَصْلة القبيحة التى لا تزايله ولا تفارقه .

حرف الثاء

قولهم : «ثارَ حابِلُهُم على نابلهم» الحابل : صاحب الحبالة ، والنابل : صاحب النبل أى آختلط أمرهم : يُضرَب فى فساد ذات البَيْن وتأريث الشرّ فى القوم .

وقولهم : «ثَوْرِ كِلَابٍ فى الرِّهان أَقْعَدُ» هو كِلاب بن ربيعة بن عامر آبن صَعْصَعَة القيسىّ كان يحمق ، وذلك أنه آرتبط عجل ثور ليسابق عليه ، والأقعد من القَعِيد وهو المتخلف المتباطئ : يُضرَب لمن يروم ما لا يكون .

حرف الجيم

قولهم : «جَرَى المُذَكِّيَاتِ غِلَاب» المُذَكِّيَة من الخيل التى أتى عليها بعد قُروحها سَنَةٌ أو سنتان والغلاب المغالبة : يضرب لمن يُوصف بالتبريز على أقرانه

فى حلبـة الفضل ؛ وأوّل من قاله نذكره إن شاء الله تعـالى فى حرب داحس والغـــبراء .

وقولهم : «جَزَاء سِنِمّار» وهو الذى بنى الخَوَرْنَق وتقدّم خبره فى مبانى العرب .

وقولهم : «جَرَحَه حيث لا يَضَعُ الراقى أنْفَه» قالته جندلة بنت الحارث، وكانت تحت حنظلة بن مالك وهى عذراء، وكان حنظلة شيخا كبيرا فخرجت فى ليلة مطيرة فبصر بها رجل فوثب عليها وافتضّها، فصاحت وقالت : لُسِعْت . قيل أين ؟ قالت : حيث لايضع الراقى أنفه : يضرب لمن يقع فى أمر لاحيلة له فى الخروج منه .

وقولهم : «جَعْجَعَةً ولا أَرَى طِحْنًا» : يضرب لمن يعد ولا يفى .

وقولهم : «جَرَى منه مَجْرَى اللَّدُود» وهو ما يُصبّ فى أحد شِقّ الفم من الدواء : يضرب لمن يُبْغَض ويُكْره .

وقولهم : «جَمَاعَةٌ على أَقْذَاء» معناه اجتماعٌ بالأبدان، وافتراق بالقـلوب ، وهو بمعنى قوله صلى الله عليه وسلم : "هُدْنَةٌ على دَخَن" : يُضْرب لمن يضمِر أذى ويُظْهِر صفاء .

وقولهم : «جَارٌ كجَارِ أبى دُوَاد» يعنون كعب بن مامة فإنه كان إذا جاوره رجل فإن مات وداه، وإن هلك له بعير أو شاة أخلف عليـه، فضربت به العرب المثل فى حسن الجوار، قال طرفة :

إنّى كفانى من أمر هممتُ به * جَارٌ كجَارِ الحُذَاقِىّ الذى اتّصَفَا

والحذاقىّ هو أبو دواد .

وقولهم : «جَدَعَ الحَلالُ أَنْفَ الْغَيْرَة» قاله رسول الله صلى الله عليـه وسلم ليلة زُفّت فاطمة الى علىّ رضى الله عنهما .

وقولهم : «جوِّع كلبَك يتبعْك» أوّل من قال ذلك ملِك من ملوك حِمْير كان جائرا على أهل مملكته يسلبهم ما فى أيديهم وإن آمرأته سمعت صوت السؤّال (٨) فقالت : إنى لأرحم هؤلاء وإنى لأخاف أن يكونوا عليك سباعا ، بعدما كانوا لك أتباعا ، فقال : جوّع كلبك يتبعك ، ثم إنه غزابهم ولم يقسم عليهم شيئا فقالوا لأخ له : قد ترى ما نحن فيه من الجهد ونحن نكره خروج الملك عنكم إلى غيركم فساعدنا على قتل أخيك وآجلس مكانه ، فوافقهم على ذلك ، ثم وثبوا على الملك فقتلوه ، فمرّ به عامر بن جَذِيمة وهو مقتول ، فقال : ربما أكل الكلب مؤدّبه اذا لم ينل شبعه ، فأرسلها مثلا ، والمثل يضرب فى اللئام وما ينبغى أن يعاملوا به .

وقولهم : «جاءتْهم عَوانًا غيرَ بِكْر» أى مستحكمة غير ضعيفة يريدون حَرْبا أو داهية عظيمة .

وقولهم : «جاء بصحيفة المتلمّس» إذا جاء بالداهية ؛ وكان من خبر صحيفة المتلمس أن المتلمس وطرفة قدما على عمرو بن المنذر بن آمرئ القيس فجعلهما فى صحابة قابوس بن المنذر أخيه وأمرهما بلزومه ، وكان قابوس شابا يعجبه اللهو ، فطال بقاؤهما عنده ، فهجا طرفة عمرا بأبيات فبلغته ، فاستدعاهما فجاءهما بجباء وكتب معهما إلى أبى كَرِب عامله على هَجَر أن يقتلهما ، وقال : قد كتبت لكما بجباء ومعروف ، فلما صدرا من عنده ، قال المتلمس لطرفة : هل لك فى كتابينا ، فإن كان فيهما خير مضينا له ، وإن كان شرّا آتقيناه ؟ فأبى طرفة وقرأ المتلمس كتابه فإذا فيه السوءة فألقاه فى الماء وقال لطرفة : ألق كتابك فأبى ومضى بكتابه ، قال : ومضى المتلمس حتى لحق بملوك بنى جَفْنة بالشام وسار طرفة بكتابه ، فلما آنتهى إلى العامل قتله .

وقولهم : «جَنْدَلَتَانِ اصْطَكَّتَا» : يضرب لقِرْنَيْن يتصاولان .

وقولهم : «جَزَيْتُه حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْل» : للمكافأة .

وقولهم : «جاءوا على بَكْرَةِ أبيهم» أى جاءوا جميعا لم يتخلّف منهم أحد . وقيل : بل البَكرة تأنيث البَكر، يصفهم بالقلة أى بحيث تحملهم بَكرة أبيهم . وقيل بل البكرة التى يُستقى عليها ،معناه جاءوا بعضهم يتلو بعضا كدوران البَكرة على نسق واحد؛ وقيل : المراد بالبكرة الطريقة كأنهم جاءوا على طريقة أبيهم، وقال ابن الأعرابى : البكرة : جماعة من الناس أى بأجمعهم .

وقولهم : «جَاوَزَ الحِزَامُ الطُّبْيَيْنِ» : يضرب فى تجاوز الحدّ .

حرف الحاء

قولهم : «حَرِكْ لَهَا حُوَارَهَا تَحِنّ» الحوار : ولد الناقة، والجمع القليل أحْورة والكثير حُورَان وحِيران، معناه ذكّره بعض أشجانه يهيج له ، قاله عمرو بن العاص لمعاوية حين أراد أن يستنصر أهل الشام، أى أرِهم دم عثمان على قميصه .

وقولهم : «حلبتُها بالساعِد الأشدّ» أى أخذتها بالقوة إذ لم يتأتّ بالرفق .

وقولهم : «حَذْوَ القُذَّةِ بِالْقُذَّة» أى مِثلا بمثل : يضرب فى التسوية بين الشيئين؛ ومثله : حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْل، وقد تقدّم .

وقولهم : « حَلَبَ الدهرَ أشطُرَه » معناه أنه اختبر الدّهرَ شَطْرَى خيرِه وشرّه فعرف ما فيه .

وقولهم : «حَسْبُك من غِنًى شِبَعٌ ورِىّ» قال امرؤ القيس :

إذا ما لم تكن إبلٌ فَمَعْزى * كأنّ قُرونَ جِلّتِها العِصِىُّ
فتملأ بيتنا أَقِطًا وسَمْنًا * وحَسْبُك من غِنًى شِبَعٌ ورِىُّ

قال أبو عبيدة : يحتمل معنيين ، أحدهما أعط كل ما كان لك وراء شِبَعك ورِيِّك، والآخر القناعة باليسير .

وقولهم : « حَسْبُك من القِلَادةِ ما أحاط بالعُنُق » أى اكتف بالقليل عن الكثير .

وقولهم : « حسبك من شَرٍّ سَماعُه » أى اكتف بسماعه ولا تعاينه، قال: ويجوز أن يريد يكفيك سماع الشرّ وإن لم تقدم عليه ولم تنسب إليه، والمثل قالته فاطمة بنت الخُرْشُب من بنى أنمار بن بَغيض أم الربيع بن زياد، وذلك أن ابنها الربيع كان أخذ من قيس بن زهير بن جَذيمة دِرْعا ، فتعرّض قيس لأم الربيع وهى على راحلتها فأراد أن يذهب بها ليرتهنَها بالدرع، فقالت له : أين عزُب عنك عقلك يا قيس؟ أترى بنى زياد مصالحيك ! وقد ذهبتَ بأمهم يمينا وشمالا وقال الناس ما قالوا وشاءوا، وإن حسبك من شرٍّ سماعه، فذهبت كلمتها مثلا تقول : كفى بالمقالة عارا وإن كان باطلا .

وقولهم: «حَلَّقَتْ به عَنْقَاءُ مُغْرِب» : يضرب لما يُئس منه؛ قال الشاعر:

إذا ما ابنُ عبد الله خلّى مكانه * فقد حَلَّقَتْ بالجود عنقاءُ مُغرِبُ

قال الميدانىّ : والعنقاء طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم يقال : كان بأرض الرَّسّ جبل يقال له : دَمْخٌ مصعده فى السماء، وكان يأتيه طائر عظيم لها عنق

طويلة، وهى من أحسن الطير؛ فيها من كل لون، وكانت تقع منتصبة وتنقضّ على الطير فتأكلها؛ فجاعت يوما وأعوزها الطير فانقضّت على صبيّ فذهبت به فسميت عنقاء مغرب : لأنها تغرب بكل ما تأخذه، ثم انقضت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ثم طارت، فشكوا ذلك إلى نبيّهم : خالد بن صفوان، فقال : اللهم خذها واقطع نسلها وسلّط عليها آفة ! فأصابتها صاعقة فاحترقت فضربتها العرب مثلا .

قال عنترة بن الأخرس الطائىّ فى مرثية خالد بن زيد :

لقد حلّقت بالجود عنقاء كاسرٌ * كَفَتْخَاءِ دمخ حلّقت بالخَزَوَّر

فما إن لها بيضٌ فيُعرفُ بيضُها * ولا شِبهُ طير منجدٍ أو مُغَوِّرِ

وقولهم : « حتّام تَكْرَع ولا تُنْقَع » كرع اذا تناول الماء بفيه من موضعه : يضرب للحريص فى جمع الشىء .

وقولهم : « حَسْبُكَ من إنْضَاجِه أن تقتلَه » يضرب لطالب الثأر فيقول : لأقتلنّ فلانا وقومه أجمعين فيقال : لا تعدّ، حسبك أن تدرك ثأرك وطلبتك : ويضرب لمتجاوز الحدّ .

حرف الخاء

قولهم : « خَيْرَ حالِبَيْكِ تَنْطَحِين » : يضرب لمن يكافئ المحسن بالإساءة، ومثله : خيْرَ إناءيكِ تَكْفَئِين .

وقولهم : « خامِرى أمَّ عَامِر » معناه آستترى؛ وأمّ عامر : الضبع يشبه بها الأحمق . ومثله : خامِرى حَضاجِر، أتاك ماتحاذِر ، وهو آسم للذكر والأنثى من الضباع .

وقولهم : «خلا لك الجوُّ فبيضى وآصْفِرِى» قاله طرفة بن العبد، وكان فى سفر مع عمّه فنصب فخّا للقنابر ونثر حَبًّا فلم يصد شيئا ، فلما تحملوا رأى القنابر يلقطن الحبّ الذى نثره لهنّ، فقال فى ذلك :

يالك من قنبرةٍ بمعمرِ * خلالك الجوّ فبيضى وآصفرى
ونقّرى ماشئتِ أن تنقّرى * قد رحل الصيّاد عنك فآبشرى
ورفع الفخّ فماذا تحذرى * لا بد من صيدك يوما فاصبرى

يضرب فى الحاجة يتمكّن منها صاحبها .

وقولهم : « خَلْعُ الدِّرْع بيد الزَّوْج » المثل لرَقاش بنت عمرو بن تغلب بن وائل ، وكان زوجها كعب بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة ، فقال لها : آخلعى؛ فقالت : خَلْعُ الدِّرع بيد الزَّوج ، فقال : آخلعيه لأنظر إليك ، فقالت : التجرُّدُ لغير النكاح مُثْلَةٌ ، فذهبت كلمتاها مثلين : يُضربان فى وضع الشىء فى غير موضعه .

وقولهم :

« خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَى سِقاؤُه * ومَنْ هُرِيق بالفَلاة ماؤُه » :

يُضرَب لمن كره صحبتك وزهد فيك .

وقولهم : « خَمْرُ أبى الرَّوْقاء لَيْسَتْ تُسكِر» : يُضرَب للغنى الذى لافضل له على أحد .

حرف الدال

قولهم : « دَمِّثْ لجَنْبك قبل النَّوم مُضْطَجَعا » أى آستعدّ للنوائب قبل حلولها؛ والتدميث : التليين .

وقولهم : « دَعِ آمرأً وما آختَار » : يُضرَب لمن لا يقبل النصح ؛ قال الشاعر :

إذا المـــرءُ لم يدر ما أَمكنَهْ * ولم يأت من أمره أزينَهْ
وأَعجَبَـــهُ العُجبُ فاقتَادَهُ * وتاهَ به التِّيهُ فآستحسنهْ
فدعْهُ فقـــد ساءَ تدبيرُه * سيضحَكُ يومًا ويبكى سنَهْ

حرف الذال

قولهم : « ذَكَّرَنِى فُوكِ حمَارَىْ أَهلِى » أصله أن رجلا خرج يطلب حمارين (١٠) ضلّا له ، فرأى آمرأةً [متنقبة] فأعجبته فنسى الحمارين ، فلما أسفرت عن وجهها رآها فَوْهاء فقال : ذكّرنى فُوكِ حمارَىْ أهلى ، وقال :

ليت النِّقابَ على النســاء مُحَرَّمٌ * كى لا تَغُـــرَّ قبيحةٌ إنســانا

وقولهم : « ذهبوا أيدِى سَبَا » ويقال : تفرقوا ، أى تفرّقوا تفرقا لا آجتماع معـــه .

وقصة سبإ لمّا تفرقوا بسبب سَيْل العَرِم مشهورة ، وسنذكرها إن شاء الله تعالى فى التاريخ .

وقولهم : « ذهبوا شَغَرَ بَغَرَ ، وشَذَرَ مَذَرَ ، وخِذَعَ مِذَعَ » أى فى كل وجه .

وقولهم : « ذَلَّ بعد شِمَاسِه اليَعْفُورُ » : يضرب لمن آنقاد بعد جماحه ؛ واليعفور : فـــرس .

وقولهم : « ذَهَبتْ طُولا ، وعَدِمتْ معقولا » : يضرب للطويل بلا طائل .

(١) الزيادة عن الميدانى .

حرف الـــراء

قولهم : «رمتْنى بدائها وآنسلَّت» أصل هذا المثل : أن سعد بن زيد مناة تزوج رُهْمَ بنة الخزرج ، وكانت من أجمل النساء ، وكان ضرائرها إذا سابَبْنَها يقُلْن لها : يا عفلاء ، فقالت لها أمّها : إذا سابَبْنَكِ فابدئيهن بذلك ، ففعلت رُهْم ذلك مع ضرّتها ، فقـالت : رمتنى بدائها وآنسلّت ، فذهبت مثلا : يضرب لمن يُعيِّر الآخر بمـا هو يُعيَّر به .

وقولهم : « رماه بثالثة الأثافِي » وهى قطعة من الجبل يوضع إلى جنبها حَجَران ويُنصب عليها القدر : يضرب لمن رُمِى بداهية عظيمة .

وقولهم : «رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعِدة» الصلف : قلة الخـير، والراعدة : السحابة ذات الرعد : يضرب للبخيل مع السّعة .

وقولهم : «رَجَع بِخُفَّى حُنَيْن» أصله أن حُنَيْنا كان إسكافا بالحيرة وساومه أعرابى بخفّيْن فآختلفا حتى أغضبه، فلما آرتحل الأعرابى أخذ حنين الخفين فألقى أحدهما على طريق الأعرابىّ ، ثم ألقى الآخر بموضع آخر على طريقه ، فلمـا مرّ الأعرابى بالخف الأول قال : ما أشبه هذا بخف حنين ولو كانا خفين لأخذتهما ، ثم مرّ بالآخر فندم على ترك الأول فأناخ راحلتـه وآنصرف إلى الأول وقد كَمَنَ له حنين ، فأخذ الراحلة وذهب بهـا وأقبل الأعرابى إلى أهـله ليس معه غير خفّى حنين ، فذهبت مثلا : يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة .

وقولهم : «رُبَّ ساعٍ لقاعد وآكِلٍ غير حامِد» أول من قاله النابغة الذُّبيانى، وكان سبب ذلك أن وفدًا وفَد الى النعمان وفيهم رجل من بنى عَبْس يقال

له : شَقِيق، فمات عنده، فلما حبا النعمان الوفود بعث بجائه الى أهله، فقال النابغة فى ذلك :

أتى أَهلَهَ منـــه حِباءٌ ونعمةٌ * ورُبَّ آمرِئٍ يسعى لآخرَ قاعِدِ

وقولهم : «رُبَّ مَلوم لَا ذَنْبَ لَه» قاله أكثم بن صيفىّ، معناه قـد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لا يعرفون عذره؛ وقيل : إن رجلا قال للأحنف ابن قيس : أنا أبغض التمر والزبد، فقال : ربَّ ملوم لا ذنب له .

وقولهم : «رُبَّ كَلِمةٍ تقول لصاحبِها دَعْنِي» : يضرب فى النهى عن الإكثار مخافة الإهجار؛ ذكروا أن ملكا من ملوك حِمْير خرج الى الصيد ومعه نديم له فوقفا على صخرة ملساء، فقال النديم : لو أن إنسانا ذُبح على هـذه الصخرة إلى أين كان يبلغ دمه، فأمر بذبحه، وقال : ربَّ كلمة تقول لصاحبها دعنى .

ومثله قولهم : «رُبَّ رَأْسٍ حَصِيد لِسَان» : يضرب للأمر بالسكوت .

وقولهم : «رُدَّ الحَجَرَ من حيث جاءك» أى لا تقبـل الضَّـيْمَ وآرم مَن رماك .

حرف الـــزاى

قولهم : « زُيِّنَ فى عَيْنِ والِدٍ ولَدُه » يضرب فى عجب الرجل برهطه .

وقولهم : «زَاحِم بعَوْد أَوْدع» أى لا تستعن إلا بأهل السنّ والتجربة .

وقولهم : «زَوْجٌ مِنْ عُود، خير من قُعُود»، قالته بعض نساء العرب، قالوا : كان ذو الإصبَع العدوانىّ غيورا، وله بنات أربع، وكان لا يزوّجهنّ غَيرة عليهنّ، فاستمع عليهنّ يوما وقد خلَوْن يتحدّثن، فقالت إحدهنّ : لتقل كلُّ واحدة منا ما فى نفسها،

ولنصدقنّ جميعا، فاشتهت كلّ واحدة من الثلاث زوجا وصفتْ من جماله وكماله وسعة حاله، ثم أبت الصغرى أن تتكلّم، فقالوا: لا بدّ أن تقولى، وألححْنَ عليها، فقالت: زَوْجٌ من عُود، خيرٌ من قُعُود، فزوّجهنّ.

وقولهم: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا» قاله مَعاذ بن صَرم الخزاعىّ، وكانت أمّه من عَكّ، وكان يكثر من زيارة أخواله، فأقام فيهم زمانا، ثم خرج يتصيّد مع بنى أخواله، فحمل على عير، فلحقه ابن خال له يقال له: الغضبان فتخاصما، فقال له الغضبان: والله لو كان فيك خير لما تركت قومك! فقال: زُرْ غِبًّا، تزددْ حبًّا، فأرسلها مثلا، وفى ذلك يقال الشاعر:

إذا شئتَ أن تُقلَى فزُرْ متواليًا * وإن شئتَ أن تزدادَ حُبًّا فزرْ غِبّا

وقال آخر:

عليك بإغباب الزيارة إنها * إذا كَثُرتْ كانت إلى الهجر مَسْلَكا
ألم ترَ أنّ القَطْرَ يُسأم دائما * ويُسْأل بالأيدى إذا هو أمسكا

حرف السين

قولهم: «سبَقَ السيفُ العذَل» قاله ضبّةُ بن أدّ لمّا لامه الناس على قتل قاتل ابنه فى الحرم، ويقال: إنه لخُزَيْم بن نوفل الهمدانىّ.

وقولهم: «سَقَطَ العَشَاء به على سِرْحان» أصله أن رجلا خرج يلتمس العَشاء، فوقع على ذئب فأكله، وقال ابن الأعرابىّ: أصله أن رجلا من بنى غَنِىّ يقال له: سِرْحانُ ابن هرزلة كان بطلا فاتكا، فقال رجل: والله لأُرْعِين إبلى هذا الوادى! فورد بإبله، فوجد سرحانَ فقتله، وأخذ إبله وقال:

أبْلِغْ نصيحةَ أنَّ رَاعِيَ أهْلِها * سقط العَشَاء به على سِرْحانِ
سَقَط العَشَاءُ به على مُتَقَمِّرٍ * طَلْقِ اليدين مُعَاوِدٍ لِطِعانِ

يضرب فى طلب الحاجة يؤدّى صاحبها إلى التلف .

ومثله قولهم : «سقط العَشَاء به على مُتَقَمِّرٍ» وهو الأسد .

وقولهم : «سَكتَ ألْفًا، ونَطَق خَلْفًا» الخَلْفُ : الردىء من القول وغيره .

وقولهم : « سَاءَ سَمْعًا فأساء جَابة » أوّل من قاله سُهَيل بن عمرو أخو بنى عامر، وكان قد خرج بابنه أَنَس، فوقف بحَزْورة مكة، فأقبل الأخنس بن شَريق الثّقفى فقال له : من هـذا ؟ فقال : ابنى ! فقال : حياك الله يافتى [أين أُمُّك؟] فقـال : لا والله ما أُمّى فى البيت، ولكنها انطلقت إلى أمّ حنظلة تطحن دقيقا ، فقال أبوه : ساء سمعا فأساء جابةً، فأرسلها مثلا .

وقولهم : «سَحَابُ نوءٍ ماؤُه حَمِيم» : يضرب لمن له لسان لطيف وليس وراءه خير .

وقولهم : « سوء الاستمساك خير من حُسْن الصَّرْعة » : معناه حصول البعض مع الاحتياط خيرٌ من الكلّ مع التهوّر .

حرف الشين

قولهم : «شُخْبٌ فى الإناء وشُخْبٌ فى الأرض» : يضرب لمن يتكلّم فيصيب مرة ويخطئ أخرى .

وقولهم : «شَرِقَ بالرِّيق» أى ضره أقرب الأشياء إلى نفعه .

وقولهم : « شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزَم » قاله أبو أخزم الطـائىّ ، وكان له

آبن يقال له : أخزم، فمات وترك بنين، فوثبوا على جدّهم يوما فأدموه، وكان أبوهم عاقًّا له فقال :

إنّ بَنِيّ ضَرَّجُونى بالدَّمِ * شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم

والشنشنة : الطبيعة والعادة : يضرب فى قرب الشبه .

وقولهم : «شَمِّرْ ذَيْلا، وآدْرِعْ ليْلا» : يضرب على الحثّ فى الجدّ والطلب .

وقولهم : «شَنُوءة بين يتامى رُضَّع» الشنوءة : ما يستقذر من القول والفعل : يضرب لقوم آجتمعوا على فجور وفاحشة ليس فيهم مرشد ولا ناهٍ .

وقولهم : « شَيخٌ بحَوْران له ألقاب» وبعده * الذئب والعقعق والغراب * حَوْران بأرض الشام : يضرب لمن يُظهر للناس العفاف، ومن حقّه أن يُحترَز منه .

وقولهم : «شَغَلَ الحُلْىُ أهلَه أن يُعارا» : يضرب للسُّول شيئا هو إليه أحوج من السائل .

وقولهم : « شَبَّ عَمْرٌو عن الطَّوْق » قاله جَذيمة الأبرش . وعمرو هذا هو آبن أخته وهو عمرو بن عدىّ بن نَصْر .

حرف الصاد

قولهم : «صبرًا على مَجامِر الكِرام» قال ذلك يَسارُ الكواعب، وكان عبدا أسودَ يَرْعَى لأهله إبلا ضخمة[1]، وكان معه عبد يراعيه ، فمرّ أهله يوما سائرين بحذاء الإبل التى يرعاها، فعَمَد إلى لَقُوح فحلبها فى علبة، حتّى ملأها ثم مشى بها، وكان أخْيَجَ

(١) كذا بالأصل وهى و إن كانت ذات معنى يتناسب مع السياق الا أنا لا نستبعد أن تكون محرفة عن الهجمة وهى من الإبل ما بين الأربعين إلى المائة، يريد أنه كان يرعى لهم إبلا بهذا المقدار .

الرِّجْلين، حتى أتى بها ابنة مولاه يسقيها، وهى راكبة على جملها، فنظرت إلى رِجْليه فتبسمت، ثم شربت اللبن وجزَتْه خيرا، فانطلق فرِحا حتَّى أتى صاحبه، فقصّ عليه القصة، فقال : أسخر بنفسك ولا تسخر ببنات الأحرار ؛ فقال : والله لقد ضَحِكت (١٢) إلىّ ضِحْكةً لا أُخَيِّبُها، يريد: ضحِكت، وكان أعجمىّ اللسان، ثم باتا فقام فحلب فى علبة فملأها، ثم أتى ابنة مولاه، فنبّهها من نومها فاستيقظت وشربت، ثم اضطجعت وجلس يسارُّ حِيالَها، فقالت : ما حاجتك ؟ فقال : ما أعلَمِك بحاجتى ! فقالت : لا والله ! فما هى ؟ قال ذاك الرجل الذى ضحكتِ إلىّ . فقالت : حيّاك الله، وقامت إلى سَفَطٍ لها فأخرجت منه بَخورا ودُهنا طيبا، وعمدت إلى موسى كانت تحفُّ به الشعر، وأخذت مِجْمرةً فيها نار، فوضعت عليه البخور ووضعتها تحته، وطأطأت كأنها تصلح البخور، فعمدت إلى مذاكيره فمسحتها بالموسى، فلما أحس بحرارة الحديد . قال : صبْرًا على مجامر الكِرام، ثم أومأت إلى أنها دهنه وقالت : إن هذا دهن طيب إلا أن فيه حرارةً فتصبّر عليه، فإن ريحك ريح الإبل وأنا أعافُك، ثم أشَمَّتْه الدهن على الموسى، ورفعته فوضعته بين عينيه فاستَلَتَتْ بها أنفَه . وقالت : قم إلى إبلك يابن الخبيثة، فأتى صاحبه، فلما رآه . قال : أمقبل أنت أم مدبر ؟ قال : أخزاك الله، أوَقد عمى بصرُك !

إذ لا ترى أنفا ولا أذنيْنِ ٭ أما ترى وبأصـــة العينيْرِ

هذا أحد الأقوال فى هذا المثل : يضرب لمن يؤمر بالصبر على ما يكره . ويقال : إن أعرابيا قدم الحضر بإبل، فباعها بمال كثير وأقام لحوائج له، ففطن قوم من جيرته لما معه من المال، فعرضوا عليه تزويج جارية وصفوها بالجمال والحسب طمعا فى ماله، فرغب فيها فزوّجوه إياها، ثم اتخذوا طعاما وجمعوا الحىّ، وجلس الأعرابىّ فى صدر المجلس، فأكلوا الطعام وأداروا الكئوس وشرب

الأعرابيّ، ثم أتوه بكسوة فاخرة، فلبسها وقدّموا له مِجْمرة فيها بَخور لا عهد له به، وكان لا يلبس السراويل، فلما جلس على المجمرة، سقطت مذاكيره فى النار، فظن أن ذلك سُنّةٌ لا بدّ منها، وآستحيا أن يكشف ثوبه . فقال : صبرا على مجامر الكرام، فذهبت مثلا وآحترقت مذاكيره، وتفرق القوم، وآرتحل إلى البادية وترك المرأة والمال، فلما وصل إلى قومه وقص عليهم القصة . قالوا : آستٌ لم تُعَوِّد المِجْمَر، فذهبت مثلا : يضرب لمن لا قديم له .

وقولهم : «صار الزُّجُّ قُدَّامَ السِّنَانِ» : يضرب فى سبق المتأخّرِ المتقدّمَ من غير استحقاق لذلك .

وقولهم : «صَرَحَ المَحْضُ عن الزُّبْدْ» : يضرب للأمر إذا آنكشف وتبيّن .

وقولهم : «صَفْقَةٌ لم يَشْهَدْها حاطِب» هو حاطب بن أبى بلتعة كان حازما، فباع بعض أهله بيعةً غُبِن فيها حين لم يشهدها حاطب، فصارت مثلا لكلّ أمر ينبرم دون صاحبه .

حرف الضاد

قولهم : «ضَرَبَهُ ضَرْبَ غرائب الإبل» وذلك أن الغريبة تزدحم على الحياض عند الورود، وصاحب الحوض يطردها ويضربها بسبب إبله : يضرب فى دفع الظالم عن ظلمه بأشدّ ما يمكن .

وقولهم : «ضَلَّ الدُّرَيْصُ نَفَقَه» الدُّرَيص : ولد الفأرة واليربوع والهرّة وأشباه ذلك، ونفقه : جحره : يضرب لمن يُعْنى بأمره ويُعِدّ حُجَّةً لخَصْمه، فيَنْسَى عند الحاجة .

وقولهم : «ضَـلَّ حِلْمُ آمرأةٍ فأين عيناها ؟» أى هَبْ أنّ عقلها ذهب فأين ذهب بصرها ؟ : يضرب فى آستبعاد عقل الحليم .

وقولهم : «ضَائفُ اللَّيْث قتيلُ الْمَحْل» : يضرب لمن آضطر لشىء فغرّر بنفسه فى طلبه .

حرف الطـاء

قولهم : «طويتُه على بِلَالِه وعلى بُلُلَتِه» قال الشاعر :

وصاحبٍ مُرَامِقٍ داجيتُهُ * على بِلَال نفسـه طويتُهُ

ويقال : طويت السقاء على بُلُلَته إذا طويته وهو نَدٍ لأنه إن طُوِى يابسا تكسّر، وإن طوى نديًّا عَفِن : يضرب للرجل يحمل على ما فيه من العيب ؛ قال الشاعر :

ولقـد طويتُكُمُ على بُلُلَاتِـكم * وعلِمتُ ما فيـكم من الأذرابِ

فإذا القـرابة لا تُقَرِّبُ قاطعا * وإذا المودّة أقـربُ الأنسابِ

والأذراب : جمع ذَرَبٍ وهو الفساد .

وقولهم : «طويتُه على غَرِّه» : غَرُّ الثوبِ : أثر كسره الأوّل : يضرب لمن يُوكَل إلى رأيه وما آنطوى عليه .

حرف الظـاء

(١٣)

قولهم : «ظالـعٌ يَعودُ كَسِيرا» : يضرب للضعيف يَنصُر من هو أضعف منه .

وقولهم : «ظِئْرٌ رَءوم، خيرٌ من أمٍّ سؤوم» : الظئر : الحاضنة، والرءوم : العطوف ، والسؤوم : الملول : يضرب فى عدم الشفقة وقلة الآهتمام .

وقولهم : «ظاهِرُ العِتاب خيرٌ من باطن الحِقْد» معناه ظاهر .

وقولهم : « ظِلَالُ صيفٍ مالها قِطار » : يضرب لمن له ثروة ولا يُجدى على أحد .

حرف العين

قولهم : « عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُّرَى » أول من قاله خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان باليمامة أن يسير إلى العراق ، ونالته مشقة بسبب العطش ، فأسرى حتى أدرك الماء فقال : عند الصباح يحمد القوم السرى : يضرب لمن يحمل المشقة رجاء الراحة .

وقولهم : « عند جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليقين » يضرب فى معرفة الشىء حقيقة .

وقولهم : « عَيْرٌ عَارَهُ وَتِدُه » أى أهلكه ، وأصله أن رجلا أشفق على حماره فربطه إلى وتد ، فهجم عليه السبع فلم يمكنه الفرار فأهلكه .

وقولهم : « عند النِّطاح يُغْلَبُ الكَبْشُ الأَجَمّ » وهو الذى لا قرن له : يضرب لمن غلبه صاحبه بما أعدّ له .

وقولهم : « على أهلها تَجْنِي بَرَاقِشُ » قالوا : كانت براقشُ كلبةً لقوم من العرب ، فأغير عليهم فهربوا وهى معهم ، فنبحت فاتبع القوم آثارهم بنُباحها ، فأدركوهم فقتلوهم ، ففيها يقول حمزة بن بَيْض :

بل جناها أخٌ علىّ كريمٌ ٭ وعلى أهلها بَرَاقشُ تَجْنِي

وقيل فى هذا المثل غير ذلك .

وقولهم : « عسى الغُوَيْرُ أبْؤُسا » الغُوَيْر : تصغير غار ، والأبؤس : جمع بؤس وهو الشدّة ، قالته الزَّبَّاء عند رجوع قَصِير من العراق ، ومعه الرجال ، وكان الغوير

على طريقه، ومعناه لعل الشرَّ يأتيكم من قبل الغار: يضرب للرجل يقال له: لعل الشرّ جاء من قبلك .

وقولهم : «عُشْبٌ ولا بَعِير» : يضرب للرجل له مال كثير ولاينفقه على نفسه ولا على غيره .

وقولهم : «عَادَ غَيثٌ على ما أَفْسَد» : يضرب للرجل فيه فساد، وصلاحه أكثر .

وقولهم : «عاد السهمُ الى النَّزَعة» أى رجع الحق الى أهله .

وقولهم : «عصا الجبانِ أطول» لأنه يفعل ذلك من فشله، يرى أن طولها أشدُّ ترهيبا لعدوه من قِصَرها .

وقولهم : «على الخبير سَقَطْت» المثل لمالك بن جُبَير العامرى، وتمثّل به الفرزدق حين لقى الحسينَ بن علىّ رضى الله عنهما، عند مقدمه من العراق وخروج الحسين إليه وقد قال له : ما وراءك؟ فقال : على الخبير سقطْتَ ؛ قلوبُ الناس معك، وسيوفهم مع بنى أميّة، والنصر من السماء .

وقولهم : « عادة السُّوءِ شَرٌّ من المَغْرَم » معناه أن المَغْرَم إذا أدّيتَه فارقك ، وعادة السوء لا تفارق صاحبها .

وقولهم : « عَجْعَجَ لمّا عَضَّهُ الظِّعَان » أى صاح، والظعان : نِسْعٌ يُشَدّ به الهَوْدَجُ : يُضرَب لمن يَضِجّ إذا لَزِمَهُ الحقّ .

وقولهم : «عندَ الرِّهانِ تُعرَف السّوابق» : يضرب لمن يدّعى ما ليس فيـــه .

وقولهم: «عادَ الامرُ إلى نِصابه»: يُضرَب فى الأمر يتولّاه أربابه.

وقولهم: «عَيْنُكَ عَبْرَى والفُؤادُ فى دَد» الدَّدُ والدَّدَنُ والدَّدَا: اللعبُ واللهوُ: يُضرَب لمن يُظهر حُزنا لحزنك وفى قلبه خلاف ذلك.

وقولهم: «عُرْفُطَةٌ تُسْقَى مِنَ الغَوادق» ويروى: الغوابق، العُرفُطة: شجرةٌ خَشِنَةُ المسّ، والغَوادقُ: السحابُ الكثير الماء: يُضرَب للشِّرِّير يُكرَّم ويُبجَّل.

حرف الغين

قولهم: «غُدَّةٌ كغُدَّةِ البَعير ومَوْتٌ فى بَيْتِ سَلُولِيَّة» قاله عامر بن الطُّفَيل؛ وذلك أنه لما قَدم على النبىّ صلى الله عليه وسلم، وقدم معه أَرْبَد بن قَيْس أخو لَبيد آبن رَبيعة العامرىّ الشاعر لأمه، فقال رجل: يا رسول الله، هذا عامر بن الطُّفَيل قد أقبل، قال: "دعهُ فإن يُرِد اللهُ به خيراً يهدِه" فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد، مالى إن أسلمتُ؟ قال: "لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم" قال: تجعل لى الأمر بعدك؟ قال: "ليس ذاك إلىّ إنما ذاك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء" قال: (١٤) فتجعلنى على الوَبَر وأنت على المَدَر؟ قال: "لا" قال: فما ذا تجعل لى؟ قال: "أجعل لك أعنَّة الخيل تغزو عليها"، قال: أو ليس ذلك إلىّ اليوم؟ وكان قد أوصى إلى أَرْبَد بن قَيْس: إذا رأيتنى أكلّمه فدُر من خلفه فاضربه بالسيف؛ فاخترَط أَرْبَد سيفه شبراً فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سَلّه، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أَرْبَد وما يصنع بسيفه، فقال: "اللهمّ آكفِنيهما بما شئت" فأرسل الله تعالى على أَرْبَد صاعقةً فى يومٍ صائف صاحٍ فأحرقته، وولّى عامر بن الطُّفَيل هارباً وقال: يا محمد، دعوتَ ربَّك فقتل أَرْبَد، والله لأملأنَّها عليك خيلا جُرْدا وفِتيانا مُرْدا، فقال:

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يمنعك الله من ذلك [وابنا قَيْلة](١) " فسار عامر حتى نَزل ببيت امرأة سَلُولِيَّة ، فخرجت على ركبته غُدَّةٌ عظيمة ، فقال : غدّة كغُدَّة البعير ومَوْتٌ فى بَيْت سَلُولِيَة ، ثم مات على ظهر فرسه ؛ وسَلُول أقلّ العرب وأذلّهم ، فسار كلامه مثلا : يُضرَب فى خصلتين إحداهما شر من الأخرى .

وقولهم : «غَرَّنى بُرْدَاكِ من خَدَافِلى»(٢) ويروى : من غدافلى ؛ أصل المثل أن رجلا آستعار بُرْدَى آمرأة فلبسهما ، ورَمى بخُلْقَانٍ كانت عليه ، فآسترجعت المرأة بُرْدَيها فقاله : يُضرَب لمن ضَيّع ماله طمعًا فى مال غيره .

حرف الفاء

قولهم : «فى وَجْه المالِ تَعرِفُ أَمْرَتَه» أى نماءه وخيره ، ويقال : أَمِرَتْ أموالُ بنى فلان إذا نَمَتْ وكثُرت : يُضرَب لمن يُستدلّ بحسن ظاهره على حسن باطنه .

وقولهم : «فى بَيْته يُؤتَى الحَكَم» زعمت العرب أن الأرنب آلتقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضبّ ، فقالت الأرنب : يا أبا الحِسْل ، قال : سميعًا دعوتِ ، قالت : أتيناكَ لنختصم إليك ، قال : عادلا حكَّمتما ، قالت : فآخرج إلينا ، قال : فى بيته يُؤتى الحَكَم ، قالت : إنى وجدتُ تمرةً ، قال : حُلوةٌ فكُليها ، قالت : فاختلسها الثعلب ، قال : لنفسه بغَى الخير ، قالت : لطمتُه ، قال :

---

(١) الزيادة عن الميدانى ويريد بهما فى الحديث الأوس والخزرج (ج ٢ ص ٣) .

(٢) فى اللسان مادة " خدفل " ومجمع الأمثال للميدانى : «برداك» بفتح الكاف . وورد فى القاموس وشرحه بفتح الكاف وكسرها فرواية الفتح على أنه قاله امرأة رأت على رجل بردين فنز وجته طامعة فى يساره فألفته معسرا . والكسر على أن قائله رجل استعار من امرأة برديها ... الخ .

بحقّك أخذتِ، قالت : لطمَنِي، قال : حرٌّ آنتصر، قالت : فاقض بيننا، قال[1] : حَدِّث حديثين آمرأةً، فإن أبَتْ فاربعةً، فذهبتْ أقوالُه كلُّها أمثالا .

وقولهم : «فتًى ولا كمالِك» قاله مُتَمِّم بن نُوَيرة فى أخيه مالِك لمّا قُتل .

وقولهم : «فى دُون هذا ماتُنكِرُ المرأةُ صاحبَها» أوّل من قاله جارية من مُزَيْنة، قال الحَكَم بن صَخْر الثَّقَفىّ : خرجتُ منفرداً فرأيتُ بإمَّرَة (وإمّرة موضع) جاريتين أُختين لم أَرَ كجمالهما، فكسوتُهما وأحسنتُ اليهما، قال : ثم حججتُ من قابِلٍ ومعى أهلى، وقد آعتللتُ ونصَل خضابى، فلمّا صرتُ بإمّرة، إذا إحداهما قد جاءت، فسألت سؤال مُنكِرة، قال فقلت : فلانة؟ قالت : فِدًى لك أبى وأمّى، أنّى تعرِفُنى وأُنكرك ؟ قال فقلتُ : أنا الحَكَم بن صَخْر، قالت : رأيتُك عامَ أوّل شاباً سُوقةً، وأراك العام شيخًا مِلِكًا، وفى دُون هذا ما تُنكِرُ المرأةُ صاحبَها، فذهبت مثلا، قال قلت : ما فعلتْ أختك ؟ قال : فتنفَّست الصُّعَداءَ، وقالت : تزوّجها آبن عم لها وذهب بها، فذاك حيث تقول :

إذا ما قَفَلنا نحوَ نَجْـد وأهلها * فحسبى من الدنيا قُفولٌ إلى نجد

قال قلت : أمَا إنى لو أدركتُها لتزوّجتُها، قالت : وما يمنعـك من شريكتها فى حسنها وجمالها وشقيقتها ؟ قال قلت : يمنعنى من ذلك قول كُثَيِّر حيث يقول :

إذا وصلتنا خُلّة كى تزيلَنـا * أبَينـا وقلنا الحاجبيّة أوّل

فقالت : كثيِّر بينى وبينك، أليس الذى يقول :

هل وصل عَزّةَ إلا وصل غانية * فى وصل غانية من وصلها خَلَفُ

(١) هذه العبارة لم ترد فى الميدانى فى شرح هذا المثل وهى نابية هنا عن السياق، وقد أوردها الميدانى فى حرف الحاء على أنها مثل مستقل وقال إن المراد أن تكرر المرأة اذا حدثتها الحديث مرتين فان لم تفهم فزد : وهو مثل يضرب فى سوء السمع والإجابة .

قال : فتركت جوابها عيّا .

وقولهم : «فاتكةٌ واثقةٌ بِرِىّ» زعموا أن امرأة كثُر لبنها وطفقت تهُريقه، فقال لها زوجها : لِمَ تهرِيقينه ؟ فقالت : فاتكة واثقة برىّ : يضرب للمفسد الذى وراء ظهره مَيسرة .

حرف القـاف

قولهم : « قطعتْ جَهِيزَةُ قولَ كلّ خَطيب » أصـله أن قوما اجتمعوا يخطبون فى صلح بين حيّين، قَتل أحدُهما من الآخر قتيلا ليرضَوا بالدية، فبينما هم فى ذلك، إذ جاءت أمة يقال لها : جَهيزة، فقالت : إن القاتل قد ظَفِر به بعضُ أولياء المقتول فقتله، فقالوا : قطعت جهيزة قول كلّ خطيب : يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بجهله .

وقولهم : «قَبْـلَ البكاء كان وجهك عابسـا» : يضرب للبخيل يعتَـلّ بالإعدام، ومثله : «قَبْل النِّفَاسِ كنتِ مُصْفَرَّة» .

وقولهم : «قَلَب الأمرَ ظَهراً لبطن» : يضرب فى حسن التدبير .

وقولهم : «قد شَمّرتْ عن ساقها فشَمِّرى» : يضرب فى الحثّ على الجدّ فى الأمر .

وقولهم : «قد يَضرِط العَيْر والمِكواةُ فى النـار» قال عُرفُطة بن عَرفَجة سيّد بنى هِزّان، وكان بينه وبين الحُصَين بن نَبِيت العُكْلىّ حروب ووقائع، فقتلت عُكْل رجلا من بنى هِزّان، وأسر عُرفُطة بن عُكْل رجلين، فقال لهما : أيّكم أفضل لأقتله بصاحبنا ؟ فجعل كلّ واحد منهما يخبر أنّ صاحبـه أكرم منه، فأمر بقتلهما

جميعا، فقُدّم أحدهما للقتل، فجعل الآخر يَضرِط، فقال عُرفُطة : قد يضرط العير والمكواة فى النار، فأرسلها مثلا : يضرب للرجل يخوَّف بالأمر فيجزع قبل وقوعه . وهذا أحد الأقوال فيه، وقيل غير ذلك .

وقولهم : «قد بَيَّنَ الصبحُ لذى عَينين» : يضرب فى ظهور الأمر كلّ الظهور .

وقولهم : «قد أَنصَفَ القارَةَ من راماها» القارةُ : قبيلةٌ قد تقدّم ذكرها فى الأنساب .

وقولهم : « قبل الرّماء تُملأ الكنائن» أى تؤخذ أهبة الأمر قبل وقوعه .

ومثله . «قبل الرَّمى يُراش السهم» : يضرب فى تهيئة الآلة قبل الحاجة اليها .

وقولهم : «قَلَب له ظَهر المِجَنّ» : يضرب لمن كان لصاحبه على مودّة، ثم حال عن عهده .

وقولهم : «قد ألقَى عصاه» إذا آستقرّ من سفر أو غيره، يقال : إنه لما بويع لأبى العباس السفّاح، قام خطيبا فسقط القضيب من يده، فقام رجل من القوم وأنشد :

فألقتْ عصاها وآستقرّ بها النوى ٭ كما قرّ عينًا بالإياب المسافرُ

وقولهم : «قد ونَى طَرَفاه» : يضرب لمن ذلّ وضعُف عن أن يتمّ له أمر، قال النجاشىّ :

وإنّ فلانا والإمارة كالذى ٭ ونَى طَرَفاه بعد ما كان أجدعا

وقولهم : « قُـدَّتْ سيورُه من أَديمك » يضرب للشيئين يستويان فى الشبه قال الشاعر :

* وقُدّت من أديمِهم سيورى *

وقولهم : «قد بَلَغَ الشِّظاظ الوِرِكَين » الشظاظ : عُوَيد يُجعل فى عروة الجوالق : يضرب فيما جاوز الحدّ ، وهو كقولهم : جاوز الحزامُ الطُّبْيَين .

حرف الكاف

قولهم : « كان كُراعا ، فصار ذراعا» : يضرب للذليل الضعيف صار عزيزا قويًا .

وقولهم : « كلامٌ كالعسَل ، ونعلٌ كالأسَل» : يضرب فى اختلاف القول والفعل .

وقولهم : « كنتَ تبكِى من الأَثَرِ العافى فقد لاقيتَ أُخدودا» : يضرب لمن يشكو القليل من الشر ثم يقع فى الكثير .

وقولهم : « كلّ ذات بعلٍ ستَئيم » هذا من أمثال أكثم بن صيفىّ ؛ قال الشاعر :

أفاطم إنى هالك فتثبّتى * ولا تجزعى كلّ النساء تئيم

أى ستفارق زوجها .

وقولهم : « كلّ أزَبَّ نَفور » قاله زُهَير بن جَذيمة لأخيه أُسيد ، وتذكر الخبر فى وقائع العرب .

وقولهم : « كلّ فتاة بأبيها مُعجَبة» : يضرب فى عجب الرجل بعشيرته ورهطه .

وقولهم : « كلّ الصيد فى جوف الفَرا » الفرا : الحمار الوحشىّ ، أصل المثل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيّدين ، فاصطاد أحدهم أرنبا ، والآخر ظبيا ، والثالث حمارا ، فتطاولا عليه بصيدهما ، فقال : كل الصيد فى جوف الفرا : يضرب لمن يفضّل على أقرانه ، وقد تمثّل به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقولهم : « كَدَمْتَ غير مَكْدَم » : يضرب لمن يطلب شيئا فى غير مطلبه .

وقولهم : « كالثور يُضرب لمّا عافت البقر » : يضرب فى عقوبة البرىء بذنب المجرم ، ويأتى ذكر ذلك فى أوابد العرب .

وقولهم : « كالكبش يحمل شَفْرةً وزنادا » : يضرب لمن يتعرّض للهلاك .

وقولهم : « كالمستغيث من الرمضاء بالنار » : يضرب فى الخَلّتين يجتمعان على الرجل .

وقولهم : « كالقابس العَجلان » : يضرب لمن عجّل فى طلب حاجته .

وقولهم : « كلاهما وتمرا » أوّل من قاله عمرو بن حُمران الجعدى ، وذلك أنه مرّ برجل وبين يديه زُبد وسَنام وتمر ، فقال : أنلنى ممّا بين يديك ، فقال : أيّما أحبّ إليك أزُبدٌ أم سَنام ؟ فقال : كلاهما وتمرا ، فسارت مثلا .

وقولهم : « كالباحث عن المُدْيَة » يقال : إن رجلا وجد صيدا ، ولم يكن معه ما يذبحه به ، فبحث الصيد بأظلافه فى الأرض ، فسقط على شفرة فذبحه بها . يضرب فى طلب الشىء يؤدّى صاحبه إلى تلف النفس .

وقولهم : « كذى العُرّ يُكوَى غيرُه وهو راتع » : يُضرب فى أخذ البرىء بذنب الجانى ، ويأتى ذكره فى أوابد العرب .

وقولهم : « كالمحتاض على عَرْض السراب » : يُضرب لمن يطمع فى محال .

وقولهم : « كلّ لياليه لنا حَنادس » : يُضرب لمن لا يصل إليك منه إلا ما تكره .

(١٦)

حرف اللام

قولهم : « لو ذاتُ سِوار لطمَتنى » معناه لو ظلمنى من كان كفئا لى لهان على ، ولكن ظلمنى من هو دونى ، وهو كقول بعضهم :

فلو أنى بُليتُ بهاشمى * خؤولته بنو عبد المَدان
لهان على ما ألقى ولكن * تعالَىْ فانظرى بمن ٱبتلانى

وقولهم : « لو غير ذاتِ سِوارٍ لطمَتنى » روى الأصمعى أن حاتما الطائى مرّ ببلاد عنَزة فى بعض الأشهر الحُرُم فناداه أسيرلهم : يا أبا سَفانة : أكلنى الإسار والقمل ، فقال : ويحك ! أساتَ إذا نوّهت باسمى فى غير بلاد قومى ، فساوم القوم به ثم قال : أطلقوه وٱجعلوا يدىَّ فى القِدّ مكانه ، ففعلوا ذلك ؛ ثم جاءته ٱمرأة ببعير ليفصده فنحره فلطمته فقال : لو غير ذات سوار لطمتنى ، يعنى أنى لا أقتصّ من النساء ، ثم عُرِف ، ففدى نفسه فداءً عظيما .

وقولهم : « لو تُرِكَ القَطا لَيلا لنام » قالته ٱمرأة عمرو بن مامة ، وقد نزل عليه قوم من مُرادٍ ، فطرقوه ليلا ، فأثاروا القطا ، فرأته ٱمرأته فنبّهته فقال : إنما هذا القطا ، فقالت : لوتُرِك القطا ليلا لنام ؛ فسار مثلا : يُضرب لمن حُمل على مكروه من غير إرادته ؛ وقيل : إن التى قالته له حَذامِ بنت الرّيّان .

وقولهم : « لبِستُ[1] له جِلْدَ النمِر » : يضرب فى إظهار العداوة وكشفها .

(١) كذا فى الميدانى . وفى الأصل : « لبس لهم ... الخ » .

وقولهم : «لقد ذَلّ من بالت عليه الثعالب» أصله أن رجلا من العرب كان يعبد صنما، فجاء ثعلب فبال عليه، فقال فى ذلك :

أربٌّ يبول الثُّعلُبانُ[1] برأسه * لقد ذلّ من بالت عليه الثعالبُ

وقولهم : «ليس هذا بُعشّكِ فآدرُجى» : يُضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره .

وقولهم : «لم أجدْ لشَفْرتى مَحَزّا» : يُضرب عذرا فى تعذّر الحاجة .

وقولهم : «لو سئلت العارية أين تذهبين لقالت أُكسِبُ أهلى ذمّا» هذا من كلام أكثم بن صيفى : يُضرب فى سوء الجزاء للمنعم .

وقولهم : «ليس من العَدْل، سرعة العَذْل» أى لا ينبغى أن تعجّل بالعذل قبل أن تعرفَ العذرَ .

وقولهم : «ليس القُدامَى كالخَوافِى» : يُضرب عند التفضيل .

وقولهم : «لو كُوِيتُ على داءٍ لم أَكرِهْ» أى لو عوتبتُ على ذنب ما آمتعضتُ .

وقولهم : «ليس على الشَّرْق طَخَاءُ يَحجُب» أى ليس على الشمس سحاب : يُضرب فى الأمر المشهور الذى لا يخفى على أحد .

وقولهم : « لأكوينّه كيّة المتلوِّم » أى كيّا بليغا، والمتلوِّم : الذى يتتبّع الداء حتى يعلم مكانه ؛ يُضرب فى التهديد الشديد .

وقولهم : «لأمرٍ مّا جدَع قَصيرٌ أنفه» قالته الزَّبّاء لما رأت قَصيرا مجدوعا، وخبره يأتى فى باب المكايد .

(١) الثعلبان : ذكر الثعلب، كالأفعوان : لذكر الأفعى، والعقربان : لذكر العقارب .

حرف المـــيم

قولهم: «ما تَنفع الشَّفْعةُ فى الوادى الرُّغُب» الشَّفْعة: المطرة الهينة، والرُّغُب: الواسع: يضرب للذى يعطيك قليلا لا يقع منك مَوقعا.

وقولهم: «ما وراءكِ ياعِصام؟» يقال: أوّل من قال ذلك الحارث بن عمرو ملك كندة، وذلك أنه بلغه جمال ٱبنة عَوف بن مُحَلِّم فأرسل إليها ٱمرأة ذات عقل ولسان، يقال لها: عِصام، وقال: ٱذهبى لتعلمينى بحالها، فلما ٱنتهت إليها ونظرتها خرجت وهى تقول: «تَرَكَ الخِداع، مَن كَشَف القِناع» فذهبت مثلا، ثم عادت اليه، فقال لها: ما وراءكِ ياعصام؟ فقالت: «صَرَّح المَحْضُ عن الزُّبد» فأرسلتها مثلا، وساق الميدانىّ على هـذا المثل كلاما طويلا قالته عِصام فى وصف أعضاء المخطوبة.

وقولهم: «ما يومُ حَليمةَ بسرّ» هى حليمة بنت الحارث بن أبى شَمِر، كان أبوها وجّه جيشا إلى المنذر بن ماء السماء فأخرجتْ لهم طيبا فى مِرْكَنٍ فطيّبتهم، فلما ٱنتهت إلى لَبيد بن عمرو وذهبت لتُخلِّقه قبّلها، فلطمته وأتت أباها، فقال لها: ويلكِ! ٱسكتى عنه، فهو أرجاهم عندى ذكاءَ فؤادٍ، وإنى مرسله، فإن قُتل فقد كفى الله شرّه، فسار إلى المنذر بالجيش، فقتلوا المنذر وكان يوما مشهورا، فقيل فيه: ما يوم حليمةَ بسر.

وقولهم: «ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة» أى ما أشبهَ بعض القوم ببعض.

وقولهم: «مرْعًى ولا كالسَّعدان» قالوا: السَّعدان أحْرَز العُشبِ لبنا، ومنابته السهول: يُضرب مثلا للشىء يفضّل على أقرانه وأشكاله؛ وأوّل من قال المثل: خنساء بنت عمرو بن الشريد، وقيل: بل قالته ٱمرأة من طيّ تزوّجها

آمرؤ القيس بن حُجْر الكِندى فقال لها : أين أنا من زوجك الأوّل ؟ فقالت : مرعًى ولا كالسّعدان، أى إنك إن كنت رضًا فلست كَفُلانٍ . (١٧)

وقولهم : «ماءٌ ولا كصَدَّاء» صَدَّاءُ : ركيّة عذبة، قال ضِرار السعدىّ :

وإنى وتَهيامى بزينبَ كالذى * تطلَّبَ من أحواض صَدَّاءَ مَشْرَبا

معناه أنه لا يصل إليها إلا بالمزاحمة لفرط حسنها، كالذى يَرِدُ الماءَ فإنه يزاحم عليه لفرط عذوبته .

وقولهم : «محا السيفُ ما قال آبنُ دارةَ أجمعا» هو سالم بن دارة الغطفانىّ، ودارةُ : أمهُ، وكان قد هجا بعض بنى فزارة فاغتالهُ زُمَيْل فقتله، ففيه يقول الكُمَيت

فلا تُكثروا فيه الضَّجاجَ فإنه * محا السيفُ ما قال آبنُ دارة أجمعا

وقولهم : «ملكتَ فأسجِحْ» الإسجاح : حسن العفو، أى ملكت الأمر فأحسنِ العفو، وقد تمثّل به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته، وتذكر الخبر فى ذلك فى المغازى .

وقولهم : «من ينكح الحسناءَ يُعطِ مَهْرَها» أى من طلب حاجة بذل ماله فيها .

وقولهم : «من سرّه بنوه ساءته نفسه» قاله ضِرار بن عمرو الضبىّ : وكان ولده ثلاثة عشر رجلا، كلّهم قد غزا وراس، فرآهم يوما وأولادَهم، فعلم أنهم لم يبلغوا هذه الأسنان إلا مع كبر سنّه، فقال : من سرّه بنوه ساءته نفسه، فأرسلها مثلا .

وقولهم : «من أشبه أباه فما ظلم» معناه ظاهر .

وقولهم : «من يرِ يوما يُرَبه» قاله كَلْحَب بن شُؤبوب الأسَدى، وكان يُغير على طيّئ وحده، فدعا حارثةُ بن لأْم رجلا من قومه يقال له : عترمّ، فقال له : أما تستطيع

أن تكفينى مؤونة هذا الخبيث؟ فقال : بلى، فأرسل عشرة عيون عليه، فعلموا مكانه فانطلق إليه عترم فوجده نائما فى ظلّ أراكة فنزل ومعه آخر فأخذ كلّ واحد منهما بإحدى يديه فانتبه فنزع يده اليمنى من مُمْسكها وقبض على حَلْق الآخر فقتله وبادر الباقون فأخذوه وشدّوه وثاقا وأتوا به حارثةَ، فقال له : يا كلحب، إن كنتَ أسيرا فطالما أسرتَ، فقال : من يُرِ يوما يُرَ به، فأرسلها مثلا، وقال حَوذة وهو ابن المقتول لحارثة : أعطنيه أقتله بأبى، فقال : دونكه! وجعلوا يتكلّمون وهو يعالج كتافه حتى انحلّ، ثم وثب على رجليه فأتبعوه بالخيل فأعجزهم .

وقولهم : «مَنْ سلَكَ الجَدَدَ أمن العثار» الجَدَدُ : الأرض المستوية : يُضرب فى طلب العافية .

وقولهم : «مَن يشترى سيفى وهذا أثره!» قاله الحارث بن ظالم، وذلك أنه لما قتل خالد بن جعفر بن كلاب بزهير بن جذيمة العبسىّ على ما نذكره إن شاء الله فى وقائع العرب وهرب، فوجّه النعمان فوارس فى طلبه فأدركوه سحرا فعطف عليهم وقتل منهم جماعة وكرّوا عليه فجعل لا يقصد لجماعة إلا فرّقها وهو يقول : من يشترى سيفى وهذا أثره، فارتدعوا عنه وانصرفوا إلى النعمان .

وقولهم : «مِنْ مالِ جَعْدٍ وجعدٌ غير محمود» قاله جعد بن الحُصين أبو صخر ابن جعد الشاعر، وكان قد كبر فتفرّق عنه بنوه وأهله، وبقيت له جارية سوداء تخدمه، فعلقت بفتى من الحىّ يقال له : عَرابة، فجعلت تنقل إليه ما فى بيت جعد، ففطن جعد لذلك، فقال فى ذلك :

أبلغ لديك بنى عمـــرو مُغلغلةً * عمرا وعَوْفا وما قولى بمـــردودِ
بأنّ بيتىَ أمسى وفق داهيةٍ (١) * سوداءَ قد وعدتنى شرّ موعودِ

(١) كذا فى الميدانى : وفى الأصل : «فوق» .

تُعطِى عَرابةَ بالكتّبن مُجتَنحًا * من الخَلوق وتُعطينى على العودِ
أمسى عَرابةُ ذا مالٍ يُسرّ به * من مالِ جعدٍ وجعدٌ غير محمودِ

يُضرب للرجل يصاب من ماله ويذمّ .

وقولهم : «من مأمنه يؤتَى الحذِر» قاله أكثم بن صيفىّ .

وقولهم : «من يمشِ يرضَ بما ركب» : يضرب للذى يضطرّ إلى ما كان يرغب عنه .

وقولهم : «من يلقَ أبطالَ الرجالِ يُكلَمِ» قاله عقيل بن عَلْفمة المُرّى، وقد رماه عَمّلّس ابنه بسهم فخلّ فخذيه، فقال أبياتا منها :

إنّ بنىّ زمّلونى بالدمِ * شِنشِنةٌ أعرفُها من أخزمِ
* من يَلْقَ أبطالَ الرجال يُكلَمِ *

وقولهم : «من لا يَذُدْ عن حوضه يُهدَّم» أى من لم يدفع عن نفسه يُظلم، قاله زُهَير بن أبى سُلْمى .

(١٨) وقولهم : «مُكْرَه أخوك لا بطل» قاله أبو حَنَش خال بَيْهس : يُضرب لمن يُحمل على ما ليس من شأنه .

وقولهم : «من نام لا يَشعُر بشجو الأرِق» : يُضرب لمن غفل عما يعانيه صاحبه من المشقّة .

حرف النون

وقولهم : «نفْس عِصامٍ سوّدتْ عِصاما» هو عصام بن شَهْبَر حاجب النعمان ابن المنذر : يُضرب فى نباهة الرجل من غير قديم؛ وقيل فى هذا :

نَفْس عصامٍ سوّدت عصاما * وعلّمتْـــه الكرَّ والإقـــداما
* وصيّرته ملِكا هُمـاما *

وقولهم: «نظرةٌ مِن ذى عَلَق» أى من ذى هوى: يضرب لمن ينظر بودّ.

وقولهم: «نَزَت به البِطنة»: يُضرب لمن لا يحتمل النِّعمة؛

قال الشاعر:

فلا تكونَنّ كالنازى بِبطنته * بين القرينيْن حتى ظلّ مقرونا

وقولهم: «نجوتُ وأرهنتهم مالكا» قال عبد الله بن هَمّام السَّلولىّ:

فلمـا خشيتُ أظافيرَهم * نجوتُ وأرهنتُهم مالكا

يُضرب لمن ينجو من هَلَكة نشَب فيها شركاؤه وأصحابه.

وقولهم: «نام عصام ساعةَ الرحيل»: يُضرب لمن طلب الأمر بعد ماولّى.

حرف الهـاء

قولهم «هُدْنةٌ على دَخَن».

وقولهم: «هذا أوانُ شدّكم فشُدّوا».

ومثله قولهم: «هذا أوانُ الشدّ فاشتدّى زِيَمّ» قال الأصمعىّ: زيم اسم فرس: يُضرب للرجل يؤمر بالجدّ.

وقولهم: «هو على حَبْل ذراعك» أى الأمر فيه إليك: يُضرب فى قرب المتناوَل؛ وحبْل الذراع: عرقٌ فى اليد.

وقولهم: «هانَ على الأملسِ مالاقَى الدَّبِر»: يضرب فى سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه.

وقولهم : « هو بين حاذف وقاذف » الحاذف بالعصا ، والقاذف بالحصى : يُضرب لمن هو بين الشرّين .

وقولهم : « هو على طرَف الثُّمام » الثمامُ : نبت ضعيف سهل المُتناوَل تُسدّ به خِصاصُ البيوت ، وربما حُشيتْ به المخادُّ ، قالوا : إنه ينبت على قدر قامة الإنسان : يُضرب فى تسهيل الحاجة وقرب النجاح .

وقولهم : « هى الخَمر تُكنَى الطِّلاء » : يضرب للأمر ظاهره حسن وباطنه على خلاف ذلك .

حرف الواو

قولهم : « وافق شَنٌّ طَبَقَة » قال الشرقىّ بن القطامىّ : كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له : شَنٌّ ، فآلى أنه يطوف البلاد حتى يجد امرأة مثله فيتزوّجها ، فبينا هو فى بعض مسيره إذ وافقه رجل فى الطريق فسارا جميعا ، فقال له شَنٌّ : أتحملنى أم أحملك ؟ فقال : أنا راكب وأنت راكب ، فكيف تحملنى أو أحملك ! ثم سارا فانتهيا إلى زرع قد استحصد ، فقال شَنٌّ : أترى هذا الزرع أُكل أم لا ؟ فقال : لم أر أجهل منك ، نبتا مستحصدا فتقول : أكل أم لا ! فسكت ، ثم سارا حتى دخلا القرية فلقيا جنازة ، فقال شنٌّ : أترى صاحب هذا النعش حيّا أم ميّتا ؟ فقال له الرجل : ترى جنازة تسأل عنها أميّت صاحبها أم حىّ ! فسكت عنه شَنّ وأراد مفارقته فأبى أن يتركه وسار به إلى منزله ، وكان للرجل بنت يقال لها : طبقة ، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه ، فقال : مارأيت أجهل منه ، وحدّثها بحديثه ، فقالت : يا أبت ما هذا بجاهل ، قوله : أتحملنى أو أحملك ؟ أراد أتحدّثنى أم أحدّثك ، وأما قوله : أترى هذا الزرع أُكل أم لا ؟ فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا ؟ وأما الجنازة

فأراد هل ترك عقبا يحيا بهم ذكره أم لا؟ فخرج الرجل فقعد مع شَنٍّ فحادثه، وقال له: أتحب أن أفسر لك ماسألتنى؟ قال: نعم، ففسره، فقال شَنٌّ: ما هذا من كلامك، فأخبرْنى مَنْ صاحبُه؟ فقال: ابنة لى، فخطبها إليه فزوّجه إياها وحملها إلى أهله، فلما رأوها قالوا: وافق شن طبقة، فذهبت مثلا، يضرب للمتوافقين؛ وقال الأصمعىّ: هم قوم كان لهم وعاء من أَدَمٍ فتشنّن فجعلوا له طَبَقا فوافقه فقيل: وافق شنٌّ طَبَقه، ورواه أبو عبيدة فى كتابه، وقال ابن الكلبىّ: طبقةُ: قبيلة من إياد كانت لا تطاق فأوقعت بها شن بن أفصى بن دُعْمِىّ فانتصفَتْ منها وأصابت فيها فضُربتا، مثلا، وأنشد:

لَقِيَتْ شَنٌّ إيادا بالقنا * طَبَقًا وافــق شنٌّ طَبَقَـهْ

وقولهم: «وجدتُ الناسَ أخبُرْ تَقْلَه» أصله أخبرُ الناس تَقْلَهم: يُضرب فى ذمّ الناس وسوء معاشرتهم.

وقولهم: «وَلُودُ الوعد عاقرُ الإنجاز»: يُضرب لمن يكثرُ وعده ويقلُّ نقدُه.

وقولهم: «وَدَّعَ مالًا مُودِعُه» لأنه إذا استودعه غيره فقد ودّعه وغرّر به ولعله لا يرجع اليه.

وقولهم: «ومَوْرِدُ الجهل وَبِىءُ المَنهل»: يُضرب فى النَّهْىِ عن استعمال الجهـــل.

ما جاء فى ما أوّله (لا)

قولهم: «لا مَخْبأً لعِطْرٍ بعد عَروس» ويقال: «لا عِطْرَ بعد عَروس» أوّل من قاله امرأة من عُذْرة، يقال لها: أسماء بنت عبد الله، وكان لها زوج من

بنى عمّها يقال له : عَروسٌ، فمات عنها ، فتزوّجها رجل من قومها يقال له نَوْفَل ، وكان أعسرَ أبخرَ بخيلا ذميما ، فلما دخل بها قال : ضُمّى إليك عِطرَك ، فقالت : لا عِطرَ بعد عَروس ، فذهبت مثلا ، و يقال : إن رجلا تزوّج امرأة ، فلما أهديت إليه وجدها تَفِلَةً فقال لها : أين الطِّيبُ ؟ فقالت خَبَأتُه ، فقال لها : لا مَخْبَأَ لِعطرٍ (١٩) بعد عَروس : يُضرب مثلا لمن لا يُدَّخَر عنه نفيسٌ .

وقولهم : «لا يُلدَغ[1] المؤمن من جُحرٍ مرّتين» : يُضرب لمن أُصيب ونُكب مرّة بعد أخرى ، يقال هذا من أمثال النبىّ صلى الله عليه وسلم قاله لأبى عَزّة الشاعر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسره يوم بدرٍ فمنّ عليه وأطلقه ثم أتاه يوم أُحُد فأسره ، فقال : مُنّ علىّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يُلدغ المؤمنُ من جُحر مرّتين" أى لو كنتَ مؤمنا لم تعُد لقتالنا .

وقولهم : «لا أطلبُ أثَراً بَعدَ عين»[2] أوّل من قاله مالك بن عمرو العامرىّ ، وكان من حديثه أن بعض ملوك غسّان كان يطلب فى بنى عامر ذَحْلًا فأخذ منهم مالكا وسِمَاكا ابنى عمرو العامرىّ فاحتبسهما زمانا ثم دعا بهما ، فقال لهما : إنى قاتل أحدكما ، فأيكما أقتل ؟ فجعل كلّ واحد منهما يقول : اقتلنى مكان أخى ، فقتل سِمَاكا وخلّى سبيلَ مالك ، فقال سِماك حين ظنّ أنه مقتول :

فأُقسمُ لو قَتَلوا مالكا * لكنتُ لهم حيّةً راصدهْ
برأس سبيلٍ على مَرقبٍ * ويوما على طُرُقٍ واردهْ
فأُمّ سِماكٍ فلا تجزعى * فللموت ما تلد الوالدهْ

(١) كذا فى الأصل . وفى مجمع الأمثال وفرائد اللآل : "لا يلسع" .

(٢) هكذا فى الأصل . وفى مجمع الأمثال : "العاملى" باللام . وفى فرائد اللآل : "الباهلى" .

وآنصرف مالك إلى قومه فأقام فيهم زمنا ثم إنّ ركبا مرّوا وواحد منهم يتغنّى بقول سِماك * فأُقسم لو قتلوا مالكا * فسمعتْه أمّ سِماك، فقالت : يامالك قبح الله الحياة بعد سِماك، آخرج فى الطلب فخرج فلقى قاتل أخيه يسير فى ناسٍ من قومه فقال : من أحسَّ لى الجملَ الأحمرَ، فقالوا له وقد عرفوه : يا مالك آكفف ولك مائة من الإبل، فقال : لا أطلب أثرا بعد عين، فذهبت مثلا .

وقولهم : « لايُرسِل الساقَ إلا مُمسِكا ساقا » أصله فى الحِرْباء : يضرب لمن لا يدع حاجةً إلا سأل أخرى .

وقولهم : « لا ماءكِ أبقيْتِ، ولا حِرَكِ أنقيْتِ » ويُروى : ولا درَنَكِ؛ اصله أنّ رجلا كان فى سفر ومعه آمرأته، وكانت عاركا(١) فطهُرتْ وكان معها ماء يسير فاغتسلت به فنفد ولم يكفها لغسلها فعطشا فقال هذا القول فسار مثلا، وقيل : إن الذى قاله الضبّ بن أروَى الكلاعىّ قاله لآمرأته عَمْرة بنت سُبيع؛ قال الفرزدق :

وكنتُ كذات الحيض لم تُبقِ ماءَها * ولا هى من ماء العَذابة طاهرُ

وقولهم : « لا ناقتى فى هذا ولا جَملى » المثل للحارث بن عَبّاد حين قَتل جَسّاسُ بن مُرّة كُليبا وهاجت الحرب بين الفريقين وآعتزلها الحارث؛ قال الراعى :

وما هجرتُك حتى قلتِ مُعلنةً * لاناقةٌ لىَ فى هذا ولا جَملُ

يُضرب عند التبرّؤ من الظلم والإساءة .

وقولهم : « لا يَنتطِح فيها عَنْزان » قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقولهم : « لايُنبتُ البَقْلة، إلا الحَقْلة » الحَقْلة : القَراحُ، أى لا يلد الوالد إلا مثلَه : ويُضرب مثلا للكلمة الخسيسة تخرج من الرجل الخسيس .

(١) العارك : الحائض . (٢) كذا فى الأصل : وفى الميدانى : « فيه » .

وقولهم : «لا تَدخُلْ بين العصا ولِحائها» : يضرب فى المتخالَّيْن المتصافيين .

وقولهم : « لا يحزُنْكَ دمٌ هَرَاقه أهلُه » قال هذا المثل جَـذيمةُ : يُضرب لمن يُوقع نفسَه فيما لا مَخْلَص له منه .

حرف اليـاء

قولهم : «يَداك أَوْكَتَا وفُوك نَفَخ» أصله أن رجلا كان فى جزيرة من جزائر البحر فأراد أن يعبُر على زِقّ قد نَفَخ فيـه فلم يُحسن إحكامَه ، فلمّـا توسّط البحر خرجت منه الريح فغرِق فاستغاث برجل ، فقال له : يداك أَوْكَتا وفوك نفخ ، فذهبت مثلا : يُضرب لمن يجنى على نفسه الحَيْن .

وقولهم : « يَشُجُّ ويأسو » : يُضرب لمن يُصيب فى التدبير مرّة ويخطئ أخرى ، قال الشاعر :

إنى لأُكثِر تمـا سُمتنى عَجَبـا * يَدٌ تشجُّ وأخرى منك تأسونى

وقولهم : « يُسِرُّ حَسْوًا فى ارتغاء » أصله أن الرجل يؤتَى باللبن فيُظهر أنه يريد الرَّغوة خاصَّةً فيشربها ، وهو فى ذلك ينـال من اللبن : يُضرب لمن يُريك أنه يُعينك وإنمـا يجرّ النفع إلى نفسه ، قال الكميت :

فإنى قد رأيتُ لكم صدودا * وتَحساءً بعـلَّةِ مُرْتغينا

وقولهم : « يَمْشِى رُوَيْدًا ويكون أوّلا » : يُضرب للرجل يُدرك حاجته فى تُؤَدةٍ ودَعَةٍ ، ويُنشَد فيه :

تسألنى أمُّ الوليد جمـلَا * يمشى رُوَيْدًا ويكون أوّلَا

وقولهم : « يُصبح ظمآنَ وفى البحر فَمُه » : يُضرب لمن يعاشر بخيلا مُثْرِيا .(١)

(١) فى الميدانى : « عاشر » .

وقولهم : «يَمْلأُ الدَّلو الى عَقْد الكَرَب» ماخوذ من قول عُتْبة بن أبى لَهَب

من يُساجِلْنى يُساجِلْ ماجدًا * يملأ الدَّلو إلى عَقْد الكَرَبْ

وهو الحبل الذى يُشَدّ فى وسط العَرَاق : يُضرب لمن يبالغ فيما يلى من الأمر .

وقولهم : « يُكْوَى البعيرُ من يَسير الداء » : يُضرب فى حَسْم الأمر الضائر قبل أن يعظُم ويتفاقم .

وقولهم : «يعود على المرء ما يأتَمر» ويُروَى : يَعْدو، معناه يعود على الرجل ما تأمره به نفسه فيأتمر، أى يمتثله ظنا منه أنه رشـد، وربما كان هلاكه فيـه ، ومنه قول امرئ القيس :

أحارِ بنَ عمرو كأنى خَمِرْ * ويعدو على المرء ما يأتمِرْ

ومما يتمثل به من أشعار الجاهلية

(٣٠)

آمرؤ القيس بن حُجْر : قد تقدم من شعره فى الاستشهاد على أمثال العرب ما يُستغنى عن إعادته فى هذا المكان .

ومن شعره :

* والـبِرُّ خير حقيبة الرَّجل * * رضيتُ من الغنيمة بالإياب *
* إن الشقاءَ على الأشقَيْنَ مصبوبُ *

وقال أيضـا :

وقاهم جدّهم ببـنى أبيهم * وبالأشقَيْنَ ما كان العتابُ

وقال :

فإنك لم يفخَر عليـك كفاخر * ضعيف ولم يغلبْك مثل مُغلَّب

زُهير بن أبي سُلْمَى يقول :

ومن يغترِبْ يَحسِبْ عدوًا صديقَه * ومن لا يُكَرِّم نفسَه لا يُكَرَّم
ومهما يكن عند امرئٍ من خَليقة * ولو خالها تخفَى على الناس تُعلَمِ
ومن لا يصانِعْ فى أمور كثيرة * يُضرَّس بأنياب ويُوطَا بمَنْسِم
ومن يجعل المعروفَ من دون عرضه * يَفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتَم
ومن يك ذا فضل فيبخلْ بفضله * على قومه يُستغنَ عنه ويُذمَمِ
ومن لا يذُدْ عن حوضه بسلاحه * يُهدَّمْ ومن لا يَظلم الناس يُظلَمِ
ومن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاج فإنه * مُطيعُ العوالى رُكِّبَتْ كلَّ لهذَمِ

وقال أيضا :

وهل يُنبِتُ الخَطِّىَّ إلّا وشيجُه * وتُغرَس إلا فى منابتها النخلُ

وقال أيضا :

والسترُ دون الفاحشات وما * يلقاكَ دون الخير من سِترِ

وقال أيضا :

فإنّ الحقَّ مَقطَعُه ثلاثٌ * يمينٌ أو نفارٌ أو جَلاءُ

يقول : إنما الحقوق تصحّ بواحدة من هذه الثلاث : يمينٌ أو محاكمةٌ أو حُجّةٌ واضحةٌ ، وكان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه يتعجّب من معرفته بمَقاطع الحقوق .

النابغة الذُّبيانى : اسمه زياد بن عمرو ، ويُكنَى أبا أُمامة ، غلب عليه "النابغةُ" لأنه غبَرَ بُرهةً لا يقول الشعرَ ثم نبغ فقاله ، وكذلك الجعدىّ ، وقيل : إنما لُقّب بالنابغة لقوله :

* فقد نَبَغَتْ لهم منّا شؤونُ *

وقيل فى نسبه : زياد بن معاوية بن ضِباب بن جابر بن يَربوع بن غَيْظ بن مُرّة آبن عوف بن سعد بن ذُبيان .

فمما يُتمثل به من شعره قوله :

* فإنك كالليل الذى هو مُدركى * فإن مطيّة الجهـل الشبابُ *

وقال :

ولستَ بمُستبقٍ أخًا لا تَلُمُّـه * على شَعَثٍ أىُّ الرجال المهـذَّب

وقال ايضا :

اِستبق ودَّك للصديق ولا تكن * قَتَبًا يَعَضُّ بغـاربٍ مِلحاحَا

طرفة بن العبد يقول :

* حَنانَيْك بعضُ الشرّ أهون من بعض * ما أشـبَه الليـلةَ بالبـارحَهْ

وقال أيضا :

ستُبدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلا * ويأتيـك بالأخبارِ من لم تُزوِّدِ

وقال أيضا :

وأعلمُ علما ليس بالشكّ أنه * إذا ذلّ مولَى المرء فهو ذليلُ

أوس بن حَجَرٍ يقول :

فإنكما يابْنَىْ حُبابٍ وُجدتُما * كمن دبَّ يستخفي وفى الكفّ جُلْجُلُ

وقال أيضا :

وما ينهض البازى بغـير جَناحه * ولا يَحمل المـاشينَ إلا الحوامِلُ

اذا أنت لم تُعرِضْ عن الجهل والخنا * أصبتَ حليما أو أصابك جاهـلُ

وقال أيضا :

ولستُ بخابئٍ أبدا طعاما * حذارَ غدٍ لكلِّ غد طعامُ

بشر بن أبي خازم يقول :

وأيدى الندى فى الصالحين قروضُ *كفى بالموت نأيًا واغترابا*

المتلمس وهو جرير بن عبد المسيح يقول :

قليلُ المال تُصلحه فيبقَى * ولا يبقَى الكثيرُ مع الفسادِ

وقال أيضا :

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصا * وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا لِيَعلَما

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى * جَعلتُ لهم فوق العَرانِينِ ميسَما

وما كنتُ إلا مثلَ قاطع كفّه * بكفٍّ له أخرى فأصبح أجذما

وقال أيضا :

ولا يُقيم[1] على ذلّ يراقبه * إلا الأذلّان عَيرُ السوء والوتدُ

هذا على الخسف مربوط برُمَّتِه * وذا يُشَجُّ فلا يَرْثِى له أحدُ

الأفوه الأودىّ[2] يقول :

إنما نعمةُ دنيا مُتعةٌ * وحياة المرء ثوبٌ مستعارُ

(١) كذا بالأصل والرواية المشهورة فى هذا البيت :

ولن يقيم على خسف يسام به * إلا الأذلان عير الحىّ والوتد

(٢) ذكرت فى صلب أحد الأصلين الفتوغرافيين هذه العبارة : (حاشية : الأفوه لقب واسمه صلاة بن عمرو بن مالك بن عوف بن الحارث بن عوف بن منبه بن أود بن صعب بن سعد العشيرة وكان يقال لأبيه : فارس الشوهاء . وفيه يقول الأفوه :

أبى فارس الشوهاء عمرو بن مالك * غداة الوغى إذ مال بالجدّ عاثر

ووردت أيضا فى الأصل الآخر حاشية بهامشه ولم ترد فى النسخة الراغية .

وصروف الدهر فى أطباقه * حَلْقة فيها ارتفاعٌ وانحدارُ
بينما النـاس على عَلْيائها * إذ هَوَوْا فى هوّة منها فغاروا

وقال أيضا :

والبيت لا يُبتَنَى إلا له عَمَـدٌ * ولا عِمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ
فإن تجمَّع أوتادٌ وأعمـدةٌ * وساكنٌ بلغوا الأمر الذى كادوا
تَهدَا الأمورُ بأهل الرأى ماصلَحتْ * وإن تولّت فبالأشرار تنقادُ
لايَصلح الناسُ فَوْضَى لا سَراةَ لهم * ولا سَراةَ إذا جُهّالهـم سـادوا

تميم بن أُبَىّ بن مقبل يقول :

خليـلىّ لا تستـعجلا وانظـرا غدًا * عسى أن يكون الرفقُ فى الأمر أرشَدا

وقال أيضـا :

ما أنعم العيشَ لو أن الفتى حَجَـرٌ * تنبو الحوادثُ عنـه وهو ملمومُ

حُمَيد بن ثَوْر يقول :

أرى بَصرى قد رابنى بعد صحّة * وحسبك داءً أن تَصحّ وتسلما
ولن يلبثَ العصران يوما وليلةً * — إذا طَلَبا — أن يُدركا ما تيمّما

عدى بن زيد يقول :

كفى واعظـا للمرء أيامُ دهره * تروح له بالواعظات وتغتـدى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكلّ قرينٍ بالمقارِن يقتـدى
وظلم ذوى القُربَى أشدُّ مَضاضةً (١) * على المرء من وقع الحسام المهنّـد
إذا ما رأيت الشرّ يبعث أهـلَه * وقام جُناة الشرّ للشرّ فاقعـد

(٢١)

(١) كذا بالأصل . والمشهور أن هذا البيت لطرفة بن العبد من معلقته التى مطلعها :
لخـولة أطلال ببرقة ثهمـد * تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وقال أيضا :

يا راقد الليل مسرورا بأوّله * إن الحوادثَ قد يطرُقن أسحارا

وقال :

قد يُدرك المبطئُ من حظّه * والخير قد يسبق جَهد الحريص

وقال :

لو بغير الماء حَلْقى شرقٌ * كنت كالغصّان بالماء اعتصارى

وقال :

فهل من خالدٍ إما هلكنا * وهل بالموت يا لَلناس عارُ

الأسود بن يعفُر يقول :

ماذا أؤمل بعدَ آل محرّق * تركوا منازلهم وبعدَ إيادِ

أرض تخيّرها لطيب مَقيلها * كعبُ بنُ مامةَ وابنُ أمّ دؤاد

أهلُ الخورنَق والسّديرِ وبارقٍ * والقصر ذى الشُّرُفاتِ من سِنْدادِ

جرت الرياح على محلّ ديارهم * فكأنهم كانوا على ميعاد

ولقد غَنَوا فيها بأنعَم عيشةٍ * فى ظلّ مُلكٍ ثابتِ الأوتاد

فإذا النعيم وكلّ ما يُلهى به * يوما يصير إلى بِلًى ونَفاد

علقمة بن عَبَدَة يقول :

فإن تسألونى بالنساء فإننى * علِيم بأدواء النساء طبيبُ

إذا شاب رأسُ المرء أو قلّ مالُه * فليس له فى ودّهن نصيبُ

يُرِدْنَ ثَراءَ المال حيث علِمنه * وشرخُ الشباب عندهنّ عجيبُ

وقال أيضـا :

وكلّ حِصنٍ وإن طالت إقامتُه * على دعائمــه لا بدّ مهــدومُ
ومن تَعرّض للغِربان يزجُرها * على ســلامته لا بدّ مشــئوم

عمرو بن كُلثوم يقول :

وما شرُّ الثـلاثة أمّ عمـرو * بصاحبك الذى لا تَصحبينا
وإن غدًا وإن اليومَ رهنٌ * وبعـدَ غد بمـا لا تَعْلَمينا

الحارث بن حِلّزة يقول :

لا تكسع الشَّولَ بأغبـارها[1] * إنك لا تدرى مَنِ النـاتجُ
وآصبُبْ لأضيافك ألبـانَها * فإن شرّ اللبن الواجُ

حاتم الطائىّ يقول :

أماوىَّ ما يُغــنى الثراءُ عن الفــتى * إذا حَشْرَجتْ يوما وضاق بها الصدر
وقــد عَلِم الأقــوامُ لو أن حاتما * أراد ثَراء المـال كان له وَفْــرُ

وقال أيضـا :

وأنت إذا أعطيتَ بطنك سؤلَه * وفَرجَك نالا منتهَى الذمّ أجمعـا

المرقّش الأصغر يقول :

ومَن يَلقَ خيرا يَحمَدِ الناسُ أمرَه * ومن يَغْوَ لا يعدم على الغىّ لائمـا

النَّمِر بن تَوْلَب يقول :

يودّ الفتى طولَ السلامة جاهدا * فكيف تُرى طولُ السلامة يفعلُ

(١) كسع الناقة بغبرها : ترك فى ضرعها بقية من اللبن . وأغبارها جمع غبر وهو بقية اللبن .

وقال أيضا :

ومتى تُصبْك خَصاصةٌ فارجُ الغنَى * وإلى الذى يَهَب الرغائبَ فارغبِ
لا تغضبنّ على امرئ فى ماله * وعلى كرائم صُلب مالكَ فاغضب

وقال :

فلا وأبى النـاسُ لا يعلمو * ن للخـير خيرٌ وللشرّ شرّ
فيـوما علينـا ويوما لنـا * ويوما نُسـاء ويوما نُسُرّ

مهلهل بن ربيعة، واسمه عدىّ يقول :

أعزِزْ على تغلبٍ بما لقيتْ * أختُ بنى الأكرمين من جُشَمِ
أنكحها فقـدُها الأراقمَ فى * جَنْبٍ وكان الحباء من أدَمِ
لو بأبانَيْنِ(١) جاء يخطبها * ضُرِّج ما أنفُ خاطبٍ بدمِ
ليسـوا بأكفائنا الكرامِ ولا * يُغْنُون من ذلّة ولا عَدَمِ

طُفَيل الغنوىّ يقول :

إنّ النساء كأشجارٍ نَبَتْن معـا * منهن مُرٌّ وبعض المـرّ ما كولُ
إنّ النساء متى يُنهَيْنَ عن خُلُقٍ * فإنه واجب لا بدّ مفعـولُ

عُروة بن الورد يقول :

وماشاب رأسى من سنينَ تتابعتْ * علىّ ولكن شيّبتنى الوقائعُ

وقال أيضا :

ومن يك مثلى ذا عِيالٍ ومُقـترا * من المال يَطْرَحْ نفسَه كل مَطْرَحِ
لِيُبْلِغَ عُذْرا أو يَنـالَ رغيبـةً * ومُبْلِغُ نفسٍ عُذْرَها مثلُ مُنجِحِ

الأعشى : وهو ميمون بن قيس من بنى قيس بن ثعلبة يقول :

كناطحٍ صخـرةً يوما ليفلقَهـا * فلم يَضرْها وأوهَى قرنَه الوعلُ

(١) أبانان : جبلان فى نواحى البحرين .

وقال أيضـا :

تعالَوْا فإنّ الحكم عند ذوى النهى * من الناس كالبَلْقاء بادٍ مُجولُهـا

وقال أيضـا :

ومن يغتربْ عن قومه لم يزل يرى * مَصارعَ مظلومٍ مجَـرًّا ومَسْحَبَا
وتُدفَن منه الصالحاتُ وإن يُسِئْ * يكن ما أثار النارَ فى رأس كَبْكَبَا

وقال أيضـا :

عوّدت كِندةَ عادةً فاصبر لها * اِغفر لجاهلها وروِّ سجاهَـا

لَقِيط بن مَعْبَد[1] يقول :

قوموا قياما على أمشاط أرجلكم * ثم آفزعوا قد ينال الأمرَ مَنْ فَزِعا
هيهات مازالت الأموال مذأبدٍ * لأهلها — إن أُصيبوا مرّة — تَبَعا

تأبط شرًّا : وهو ثابت بن جابر يقول :

لَتقرَعَنّ علىّ السنّ من ندمٍ * اذا تذكّرت يوما بعضَ أخلاقى

المثقِّب العَبْدىّ يقول :

فإما أن تكون أخى بحـقّ * فأعرِف منك غثّى من سمينى
وإلا فاطّرحـنى واتّخـذنى * عدوّا أتقيـك وتتقيـنى
فإنى لو تعـاندنى شِمـالى * عنادَك ما وصلتُ بها يمينى

المُمزَّق العَبْدىّ يقول :

فإن كنتُ مأكولًا فكن أنت آكلى * وإلّا فادركنى ولمّـا أمزَّقِ

أُفنون التَّغلَبىّ يقول :

لعمرك ما يدرى الفتى كيف يتّقى * إذا هو لم يجعـلْ له اللهُ واقيـا

(١) ويقال أيضا : لقيط بن (معمر ويعمر) .

الأَضْبَط بن قُرَيع السَّعْدىّ يقول :

قد يجمع المالَ غيرُ آكله * ويأكل المالَ غيرُ من جَمَعَهْ
لا تحقرنَّ الفقيرَ علّك أن * تركع يوماوالدهرُ قد رفعهْ (٢٢)
واقْبَلْ من الدهر ما أتاك به * من قرّ عينا بعَيْشه نَفَعَهْ

سُوَيد بن أبى كاهل يقول :

رُبَّ مَن أنضجتُ غيظا قلبَه * قد تمنّى لىَ موتا لم يُطَعْ
ويرانى كالشَّجَى فى حلقه * عَسِرًا مَخرجُه ما يُنتَزَعْ
ويُحَيّينى إذا لاقيتُه * وإذا يَخْلو له لحمى رَتَعْ

انتهى ما يتمثل به من أشعار الجاهلية .

ومما يتمثل به من أشعار المُخَضْرَمين

المخضرمون : هم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام .

منهم لَبِيد بن ربيعة ، وفاته سنة إحدى وأربعين ، وعمره مائة سنة وسبعٌ وخمسون سنة يقول :

وإذا رُمتَ رحيلًا فارتحلْ * واعصِ ما يأمر توصيمُ(١) الكَسَلْ
واكذِبِ النفسَ إذا حدّثتَها * إنّ صدق النفس يُزرى بالأمَلْ

وقال أيضا :

وما المالُ والأهلون إلا وَدِيعةٌ * ولا بدّ يوما أن ترَدَّ الودائعُ
وماالمرءُ إلا كالشهاب وضوئه * يحور رَماداً بعدَ إذ هو ساطعُ

(١) التوصيم فى الجسد : التكسير والفترة والكسل .

وقال أيضـا :

كانت قَناتى لا تلين لغامز * فألانهـا الإصـباحُ والإمسـاء
ودعوتُ ربّى فى السلامة جاهدا * ليُصِحّنى فإذا الســلامةُ داء

وقال أيضـا :

ذهب الذين يُعـاش فى أكنافهم * وبَقيتُ فى خَلْف كجلد الأجرب

وقال أيضـا :

إلى الحَوْل ثم آسمُ الســلامِ عليكما * ومن يبكِ حولا كاملا فقد آعتذرْ

كَعْب بن زُهَير يقول :

ومن دعا الناسَ إلى ذمه * ذمّوه بالحقّ وبالبـاطلِ
مقالةُ السوء إلى أهلهـا * أسرع من منحدرٍ سائل

النابغة الجعدىّ : وهو قيس بن عبد الله، وقيل حسّان بن قيس بن عبد الله ويكنَى النابغة : أباليلى، وهو أسنّ من الذبيانىّ، وطال عمره حتى أدرك أيّام بنى أميّة، وهو الذى قال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لايفضُض الله فاك" فما سقطت له سنّ، وفى رواية : فكان أحسن الناس ثغرا إذا سقطت له سنّ تنبت له أخرى، وعاش عشرين ومائة سنة، وقيل أكثر . ومما يُتمثل به من شعره قوله :

ولا خيرَ فى حلم إذا لم يكن له * بوادرُ تحمى صفوَه أن يُكدَّرا
ولا خيرَ فى جهلٍ إذا لم يكن له * حليمٌ إذا ما أوْردَ الأمرَ أصدرا

وقال أيضـا :

كُليبٌ لعمرى كان أكثر ناصرا * وأيسر جرما منـك ضُرِّج بالدم

أميّة بن أبى الصَّلْت الثقفىّ يقول :

تلك المكارمُ لا قَعْبانِ من لبن * شيباَ بمـاءٍ فعادا بعدُ أبوالا

حسّان بن ثابت يقول :

وإن امرأً يُمسى ويُصبح سالما * من الناس — إلّا ما جنى — لَسعيدُ

وقال أيضا :

رُبَّ حِلم أضاعه عَدَم الما * لِ وجهلٍ غطّى عليه النعيمُ

ما أبالى أنبَّ بالحَزْنِ تَيسٌ * أم لحانى بظهرِ غَيبٍ لئيمُ

الحُطَيئة : واسمه جَرْول بن أوس بن مخزوم. وقيل: جرول بن أوس بن مالك ابن غَطَفان بن سعد ويُكنَى : أبا مُلَيكة، والحطيئة لقبٌ غلَب عليه؛ قيل لقب به لقصره وقربه من الأرض؛ وقيل : حبَق فى مجلس قومه فقال : إنما هى حَطأَة فسمِّىَ الحطيئه . فمما يتمثّل به من شعره قوله :

مَنْ يفعل الخيرَ لا يَعدَمْ جوازِيَه * لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

دع المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتها * واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وقال أيضا :

أقِلُّوا عليهم لا أبا لأبيكُمُ * من اللوم أوسُدّوا المكان الذى سَدّوا

أولئك قومٌ إن بنَوْا أحسنوا البِنَا * وإن وعدوا أوفوا وإن عقدوا شدّوا

متمّم بن نُوَيرة يقول :

وكنّا كنَدْمانَىْ جَذِيمةَ حِقبةً * من الدهر حتى قيل لن يتصدّعَا

فلما تفرّقنا كأنى ومالكا * لطول اجتماعٍ لم نبِتْ ليلةً معَا

أبو ذؤيب الهذلى يقول :

وتجلّدى للشامتين أُريهُمُ * أنّى لريب الدهر لا أتضعضعُ

واذا المنيّة أنشبت أظفارَها * ألفيتَ كلَّ تَميمةٍ لا تنفعُ

والنفسُ راغبة إذا رغّبتَها * وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقنعُ

الخنساء : وهى تُماضِرُ بنت عمرو بن الشَّريد تقول :

ومَنْ ظن ممن يُلاقى الحروبَ * بألّا يصاب فقـد ظنَّ عَجْزا

وقالت أيضـا :

نُهينُ النفوسَ وبذلُ النفو * س عند الكريهةِ أبقَى لهـا

عمرو بن معد يكرِب يقول :

إذا لم تستطع أمرا فدعه * وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وقال أيضـا :

ليس الجَمالُ بمـئْزَرٍ * فاعلم وإن رُدِّيتَ بُردَا

أن الجمال مآثرٌ * ومكارمٌ أورثن مجـدَا

مَعْن بن أَوْس يقول :

وفى النـاس إن رثّت حبالُك واصلٌ * وفى الأرض عن دار القِلَى مُتَحَوَّل

اذا انصرفتْ نفسى عن الشىء لم تَكَدْ * إليـــه بوجهٍ آخرَ الدهرِ تُقبِـــلُ

وقال أيضـا :

أُعلِّمـه الرمايةَ كلَّ يوم * فلما اشتدّ(١) ساعدُه رمانى

زياد بن زيد يقول :

ولا أتمـــنى الشرَّ والشرُّ تاركى * ولكن متى أُحْمل على الشرّ أركبِ

وقال أيضـا :

هل الدهر والأيام إلا كما ترى * رزيّةُ مالٍ أو فـــراقُ حبيبِ

(١) كذا فى النسخة الراغبية وأحد الأصلين الفتوغرافيين . وفى الأصل الفتوغرافى : الآخر «اشتدّ» بالشين المعجمة . وفى اللسان مادّة «سدد» : «قال الأصمعى اشتدّ بالشين المعجمة ليس بشىء الخ» . (انظر اللسان) .

أَيْمَن بن خُرَيم بن فاتك الاسدىّ يقول :

إن للفتنة ميطًا[1] بيننا * فرويدَ المَيْط منها تَعتدلْ
فإذا كان عَطاءً فأُتهم * وإذا كان قتالٌ فاعتزلْ

انتهى ما يُمثل به من أشعار المخضرمين .

ومما يمثل به من أشعار المتقدّمين فى صدر الإسلام القُطامىّ : واسمه عُمير بن شُيَيم يقول :

ومَعصيةُ الشفيقِ عليك مما * يَزيدك مرّةً منه آستماعَا
وخيرُ الأمرِ ما آستقبلتَ منه * وليس بأن تتبّعه آتّباعَا
أراهم يغمزون من آستَرَكُوا[2] * ويجتنبون من صَدق المِصاعَا
كذاك وما رأيت الناس إلا * إلى ما جرّ جانيهم سِراعَا

وقال أيضا :

قد يُدرِك المتأنّى بعضَ حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزللُ
وربما فات بعضَ القوم أمرُهُمُ * مع التأنّى وكان الرأىُ لو عجِلوا
والناس من يلقَ خيرا قائلون له * ما يشتهى ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

الطِّرِمّاح بن حَكيم بن الحكم يقول :

لقد زادنى حبّا لنفسىَ أننى * بغيضٌ إلى كلّ آمرئ غيرِ طائلِ
وأنى شقىّ باللئام ولن ترى * شقيًّا بهم إلا كريمَ الشمائل

الكميت بن زيد الأسدى يقول :

إذا لم يكن إلا الأسنةَ مركَبٌ * فلا رأى للمضطرّ إلا ركوبُها

(١) الميط : الشدّة والقوّة . (٢) استركوا : استضعفوا .

وقال ايضـا :

فيا موقدا نارا لغيرك ضوءُها * وياحاطبا فى حبلِ غيرِك تحطِبُ

المساور بن هند يقول :

شَقيتْ بنو أسدٍ بشعر مُساورٍ * إن الشقىّ بكل حبـلٍ يُخنقُ

عدىّ بن الرِّقاع يقول :

وإذا نظرتُ إلى أميرى زادنى * ضنًّا به نظـرى إلى الأمراءِ
بل ما رأيتُ جبالَ أرضٍ تستوى * فيما غشيتُ ولا نجـومَ سماءِ
كالـبرق منـه وابلٌ متتابع * جَـوْدٌ وآخرُ ما يبِضُّ بماءِ
والمـرء يورِثُ مجدَه أبناءَه * ويموت آخرُ وهو فى الأحياءِ

الفرزدق : واسمه هَمَّام بن غالب يقول :

فواعجبـا حتى كُليبٌ تسبّنى * كأن أباها نَهْشـلٌ أو مُجاشِعُ

وقال أيضـا :

تُرجّى ربيعٌ ان يجىءَ صِغارُها * بخيرٍ وقـد أعيا عليك كِبارُها

وقال أيضـا :

فإن تَنجُ منها تَنجُ من ذى عظيمةٍ * وإلا فإنى لا إخالك ناجيـا

وقال أيضـا :

يَمضى أخـوك فلا تَلقَى له خَلَفًـا * والمـالُ بعد ذهاب المـال مُكتَسَبُ

وقال أيضـا :

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا * مثلَ الشفيع الذى يأتيك عُريانا

وقال أيضا :

قُلْ لنضْرٍ والمرء فى دولة السلـ * ـطان أعمى ما دام يُدعَى أميرا

فإذا زالت الولاية عنـــه * واستوى بالرجال عاد بصيرا

وقال أيضا :

ولا نلين لسلطان يُكايدُنا * حتى يلين لِضرس الماضغ الحجرُ

وقال أيضا :

هل أبنك إلا ابنُ من الناس فاصبرن * فلن يَرجِعَ الموتى حنينُ المآتم

جرير هو ابن الخَطَفَى تُوفِّى سنة عشر ومائة يقول :

إن الكريمةَ يَنصرُ الكرمَ ابنُها * وابنُ اللئيمة للئام نصورُ

وقال أيضا :

زعم الفرزدقُ أن سيقتل مَربعا * أبشرْ بطول سلامةٍ يا مَربعُ

وقال أيضا :

وابن اللَّبون إذا ما لُزَّ فى قَرَنٍ * لم يستطع صَولةَ البُزْل القَناعيس

وقال أيضا :

رأيتك مثلَ البرق يُحسَبُ ضوءُه * قريبا وأدنى ضوئه منـك نازحُ

وقال أيضا :

أمّا الرجالُ بِفَعْلَانٍ ونِسْوتُهم * مثلُ القَنافِذ لا حُسنٌ ولا طِيب

الأخطل : واسمه مالك بن غياث بن غوث ، وقال أبو الفرج الأصبهانى : اسمه غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن سَيْحان بن عمرو ، ورُفِعَ نسبهُ

إلى جُشَم بن بكر ويُكنَى : أبا مالك ، قال : وقال المدائنى هو غياث بن غوث بن سلمة ابن طارقة . فمما يتمثل به من شعره قوله :

والناس همُّهمُ الحياةُ ولا أرى * طولَ الحياة يزيد غيرَ خَبالِ
وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تَجِدْ * ذُخرًا يكون كصالح الأعمالِ

وقال أيضا :

إنّ الصنيعةَ تلقاها وإن قدُمت * كالعُرِّ[1] يكُن حينا ثم ينتشرُ
وأقسمَ المجـــد حقًّا لا يُحالفهم * حتى يحالفَ بطنَ الراحة الشَّعَرُ

وقال أيضا :

وإذا دَعونَك يا أُخيَّ فإنه * أحنى إليك مَوَدّةً ووصالَا
وإذا دَعونَك عَمَّهُنَّ فإنه * نسبٌ يزيدك عندهنَّ خَبالَا

وقال أيضا :

ضَفادعُ فى ظَلْماءِ ليلٍ تجاوبتْ * فدلَّ عليها صوتُها حيَّـــةَ البحرِ

وقال أيضا :

يا مرسلَ الريح جَنـــوبا وصَبَا * إنْ غضِبتْ قَيسٌ فزدها غضَبَا

الصَّلَتانُ العَبْدىّ يقول :

وإنْ يكُ بحرُ الحنظَليَّين واحدا * فما يستوى حيتانُه والضفادعُ
وما يستوى صدرُ القناة وزُجُّها * وما يستوى فى الراحتَيْن الأصابعُ

كُثيِّر عزة : وهو كثيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود الخُزَاعىّ ، توفى سنة خمس ومائة يقـــول :

وإنى وتَهيامى بعـــزَّةَ بعد ما * تخلّيتُ مما بيننا وتخلّتِ

(١) العُرّ بالفتح وبالضم : الجرب .

لكالمرتجى ظلَّ الغمامةِ كلّما * تبوَّأ منها للمقيـــلِ اضمحلَّتِ (٢٤)
فقلتُ لها يا عزَّ كلُّ مصيبةٍ * إذا وُطِّنتْ يوماً لها النفسُ ذلَّتِ
هنيئا مريئا غيرَ داءٍ مخامرٍ * لعزَّةَ من أعراضنا ما اسْتحلَّتِ

وقال أيضا :

قضَى كلُّ ذى دَيْنٍ فوفى غريمَه * وعزَّةُ ممطـــولٌ مُعنًّى غريمُها

وقال أيضا :

ومن لا يُغمِّضْ عينَه عن صديقه * وعن بعض ما فيه يمتْ وهو عاتبُ
ومن يتتبَّعْ جاهـــدا كلَّ عثرةٍ * يجدْها ولا يسلَمْ له الدهرَ صاحبُ

جميل يقول :

فإن يك حربٌ بين قومى وبينها * فإنى لها فى كلّ نائبـــةٍ سَلْمُ

وقال أيضا :

ولربَّ عارضـــةٍ علينا وصلَها * بالجـــدِّ تخلطه بقول الهازل
فأجبتُها فى القول بعدَ تستُّرٍ : * حُبِّى بثينةَ عن وصالكِ شاغلى
لو كان فى قلبى كقَدْر قُلامةٍ * وصلًا وصلتُك أو أتتك رسائلى

عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة يقول :

ليت هندًا أنجزتنا ما تعدْ * وشفت أكبادَنا مما نجدْ (١)
واستبدّتْ مرّةً واحدةً * إنما العاجزُ من لا يستبدْ

وقال أيضا :

لا تلُمنِى وأنتَ زيَّنتها لى * أنتَ مثلُ الشيطان للإنسان

(١) الرواية المشهورة فى هذا البيت : * وشفت أنفسنا مما تجد *

ومما يتمثّل به من أشعار المُحدَثين

منهم إبراهيم بن هرمة يقول :

عجِبت أُثَيْـلةُ أن رأتنى مُخلِقا * ثكلتكِ أمُّك أىُّ ذاك يروعُ
قد يُدرِك الشرفَ الفتى ورداؤه * خَلَقٌ وجَيبُ قميصه مرقوعُ

وقال أيضا :

كتارِكةٍ بيضها بالعـــراءِ * وملبسةٍ بيض أخرى جناحا

بشّار بن بُرد يقول :

اذا كنت فى كلّ الأمور معاتبا * صديقَك لم تلقَ الذى لا تعاتبُهْ
فعش واحدا أو صِلْ أخاك فإنه * مُقارف ذنبٍ مرة ومجانبُـهْ
إذا أنت لم تشربْ مِرارا على القذى * ظمئتَ وأىّ الناس تصفو مشاربُهْ

وقال أيضا :

ولا تجعل الشورى عليك غَضاضةً * فإن الخوافِى عُدَّةٌ للقـــوادِمِ
وما خيرُ كفٍّ أمسكَ الغُلُّ أختَها * وما خيرُ سيفٍ لم يؤيِّدْ بقائم

وقال أيضا :

كبكرٍ تَشَهَّى لذيذَ النِّكاح * وتَفرَقُ من صَولة الناكِح

وقال أيضا :

أنتَ من قلبها محلُّ شرابٍ * يُشتَهى شربهُ ويُخشَى صُداعُهْ

وقال أيضا :

الحـرُّ يُلحَى والعصا للعبدِ * وليس للمُلحِف مثلُ الردِّ
وصاحبٍ كالدُّمَّل المُمِـدِّ * حملتُه فى رُقعةٍ من جِلْدى

وقال أيضا :

وإذا جفوتَ قطعتُ عنك منافعى * والدُّرُّ يقطعه جفاءُ الحالب

وقال أيضا :

ولو لا الذى خَبَّروا لم أكنْ * لِأمدحَ رَيحانةً قبلَ شَمّ

وقال أيضا :

تأتِى المقيمَ — وما سعى — حاجاتُهُ * عدَد الحصَى ويَخيبُ سعىُ الناصبِ

وقال أيضا :

أنا والله أشتهِى سحرَ عينيـ * ـكِ وأخشَى مَصارعَ العُشَّاق

وقال أيضا :

نرجو غدا وغدًا كاملة * فى الحى لا يدرون ماتلدُ

وقال أيضا :

تسقط الطيرُ حيث يَنْتَثِرِ الحبُّ وتُغشَى منازلُ الكرماءِ

ليس يُعطيك للرجاءِ ولا الخو * فِ ولكنْ يَلَذُّ طعمَ العطاء

وقال أيضا :

* والصعبُ يُمكِنُ بعد ما جمحا * * ولن تَبْلُغَ العَلْيَا بغيرِ الدراهم * (١)

وقال أيضا :

ولا بدّ من شكوى إلى ذى مروءة * يواسيك أو يُسْلِيك أو يتوجَّعُ

أبو العتاهية يقول :

* أذلّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ * * وكلُّ غَنِيٍّ فى العيونِ جَليلُ *

* روائحُ الجَنَّةِ فى الشبابِ * * وأىُّ الناسِ ليس له عُيوبُ *

(١) فى الأغانى طبع دار الكتب المصرية (ج ٣ ص ٢١٤) : ولا تبلغ العليا بغير المكارم .

وقال أيضـا :

إنَّ الشبابَ والفَراغَ والجِدَهْ * مَفْسَدَةٌ للدِّين أىُّ مَفْسَدَهْ

وقال أيضـا :

أنتَ ما آستغنيتَ عن صا * حبِكَ الدهرَ أخـوهُ

فإذا آحتجتَ إليـــه * ساعةً مجَّكَ فـــوه

وقال أيضـا :

ما يَحرُزُ المرءُ من أطرافه طَرَفا * إلا تخوَّنه النقصانُ من طَرَفِ

وقال أيضـا :

يُصادُ فؤادى حين أَرمِى ورَمْيتى * تعودُ إلى نَحرى ويسلمُ من أَرمِى

وقال أيضـا :

ولربَّ شهـــوةِ ساعةٍ * قد أورثتْ حزنا طويلا

سَلْمُ بن عمرو الخاسر : وهو مولى أبى بكر الصـديق رضى الله عنه، وهو بصرىّ لُقِّب الخاسر لأنه ورث من أبيه مصحفا فباعه وآشترى بثمنه طُنبورا، وقيل : بل خلَّف أبوه مالا فأنفقه فى الأدب والشعر، فقال له بعض أهله : إنك لخاسر الصفقة، فلُقِّب بذلك . فمما يتمثّل به من شعره قوله :

مَنْ راقبَ الناسَ مات غمًّا * وفاز باللّـــذة الجســـورُ

لولا مُنى العاشـقين ماتوا * غمًّـا وبعض المنى غرورُ

وقال أيضـا :

ولو ملكتَ عِنانَ الريح تصرفُه * فى كلّ ناحيـة ما فاتك الطلبُ

وقال أيضـا :

لا تسأل المرءَ عن خلائقه * فى وجهـه شاهدٌ من الخَـبرِ

صالح بن عبد القُدّوس يقول :

ما يَبلغ الأعداءُ من جاهـلٍ * ما يبلُغُ الجاهلُ من نفسـهِ
والجـاهل الآملُ ما فى غدٍ * كحفظه فى اليوم أو أمسـه
والشـيخ لا يَترُك أخلاقَه * حتى يُوارَى فى ثرى رمسه
والحُمـقُ داءٌ ماله حيـلةٌ * تُرجَى كبُعد النجم من لمسهِ

وقال أيضـا :

(٢٥) وإنَّ عنـاءً أن تُفهِّمَ جاهـلا * فيَحْسَبَ جهلًا أنه منك أفهمُ
متى يبلغ البنيانُ يوما تمـامَهُ * اذا كنتَ تبنيه وغيرُك يهـدمُ

وقال أيضـا :

إذا وَترتَ امرأً فاحذرْ عداوتَه * من يزرع الشوكَ لا يحصُدْ به عِنبَا

وقال أيضـا :

شرّ المواهب ما تجود به * من غير محْمَدَة ولا أَجر

وقال أيضـا :

لا تَجُـدْ بالعطـاء فى غير حقٍّ * ليس فى منع غير ذى الحقّ بخْلُ
إنمـا الجود أن تجـودَ على من * هو للجود منك والبذلِ أهـلُ

وقال أيضـا :

يَشقَى رجالٌ ويشْقَى آخرون بهم * ويُسـعدُ اللهُ أقواما بأقـوامِ
وليس رزق الفتى من لُطف حيلته * لكنْ جدودٌ بأرزاقٍ وأقسامِ
كالصَّيد يُحْرِمُه الرامى المجيدُ وقد * يُرْمَى فيرزقُه من ليس بالرامى

وقال أيضا :

إنْ يكنْ ما به أصبتَ جليلا * فذهابُ العـزاءِ منـه أجلُّ
كلّ آتٍ لاشك آتٍ وذو الجهـ * ـل مُعَنًّى والغمُّ والحزنُ فضلُ

ابن مَيَّـادة : هو الرمّاح بن أبرد كنيته شُرَحْبِيل يقول :

واعجبا من خالدٍ كيف لا * يُخطئ فينا مرّةً بالصواب

وقال أيضـا :

وأرانا كالزرع يحصده الده * ـر فمِن بينِ قائم وحصيد
وكأنّا للموت رَكْبٌ مُخِبُّو * ـن سراعٌ لمنهلٍ موردِ

أبو نُواس الحسن بن هانِئ يقول :

* دع عنك لَومى فإن اللومَ إغراءُ * * ألا ربَّ إحسان عليك ثقيـلُ *

وقال :

* وللرجاء حرمةٌ لا تُجهلُ * * وأىُّ جِـدٍّ بلَغ المـازحُ *

وقال أيضـا :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ

وقال أيضـا :

لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ * قـد بلَوتُ المرّ من ثمرِهْ

وقال أيضـا :

وليس لله بمسـتنكرٍ * أن يجمعَ العالَمَ فى واحدِ

وقال أيضـا :

صار جدًّا ما مزحتُ به * ربَّ جِدٍّ ساقـه اللعِبُ

وقال أيضا :

كفى حَزَنًا أنّ الجواد مُقَتَّرٌ * عليه ولا معروفَ عند بخيلِ

وقال أيضا :

وأوبةُ مشتاقٍ بغير دراهـــمٍ * إلى أهله من أعظم الحَدَثان

أبو عُيَيْنَة المُهَلَّبيّ يقول :

* وكيف بجُحود القلبِ والعينُ تشهدُ * * ولا خيرَ فيمن لا يدوم له عهـدُ *

* وشتّانَ ما بين الولاية والعزْلِ *

وقال أيضا :

وإذا تطاولت الرءو * س فغطِّ رأسَك ثم طاطِهْ

عبد الله بن أبي عُتْبة المُهَلّبي يقول :

كل المصائب قد تمرّ على الفتى * فتهونُ غيرَ شماتة الأعداءِ

وقال أيضا :

ما كنتَ إلا كلحم ميْتٍ * دعا إلى أكله اضطرارُ

العبّاس بن الأحنف يقول :

لو كنتِ عاتبةً لسكّن روْعتي * أملى رضاكِ وزرتُ غيرَ مراقبِ

لكن مللْتِ فما لصدِّكِ حيلةٌ * صدُّ الملُول خلافُ صدِّ العاتبِ

وقال أيضا :

صرتُ كأنّي ذبالةٌ نُصبتْ * تُضيءُ للناس وهي تحترقُ

وقال أيضا :

أرى الطريقَ قريبًا حين أسلكُهُ * إلى الحبيبِ بَعيدًا حين انصرفُ

وقال أيضـا :

كفى حَزَناً أنّ التباعدَ بيننا * وقد جمعتْنا والأحبَّـةَ دارُ

وقال أيضـا :

أقمنا مكرَهين بهـا فلمّا * ألِفناها خرجنا مُكرَهينا

وقال أيضـا :

* ولا خيرَ فى ودٍّ يكون بشافع * من عالج الشوقَ لم يستبعد الدارا *

مُسلم بن الوليد : هو مولى الأنصار، ثم مولى آل أبى أُمامة : أسعد بن زُرارَة الخَزْرَجى ولُقّب صريعَ الغوانى، وممّـا يُمَثَّلُ به من شعره قوله :

دلّتْ على عيبها الدنيـا وصـدَّقها * ما آسترجعَ الدهرُ ممّـا كان أعطانى

وكان يقول أخذتُ معنى هذا البيت من التوراة .

وقال أيضـا :

يَعُدّ الفتى مرّ الليالى سليمةً * وهنّ به عمـا قليـلٍ عواثر

وقال أيضـا :

أما الهجاء فدَقَّ عِرضُـك دونَه * والمدحُ عنك كما علمتَ جليـلُ

فآذهب فأنتَ طليقُ عِرضك إنّه * عِرْضٌ عززتَ به وأنت ذليل

منصور النَّمَرِىُّ : هو منصور بن الزِّبْرِقان بن سَلَمَة . وقيل منصور بن سَلَمَة ابن الزِّبْرِقان بن شريك، مُطْعِمُ الكبشِ الرَّخَم ؛ سمى بذلك لأنه أطعم ناسا نزلوا به ونحرَ لهم ، ثم رفع رأسه فاذا هو برَخَم يَحُمْن حول أضيافه، فأمر أن يُذْبَحَ لهنّ كبشٌ ويُرمى لهنّ ففُعِل ذلك ونزلن عليه فمزّقنه ؛ وهو آبن مالك بن سعد بن عامر الضَّحْيان، سمى بذلك لأنه كان سيد قومه وحاكمهم وكان يجلس لهم اذا أضحى النهارُ ؛ وهو آبن سعد

ٱبن الخَزْرَج بن تَيْم الله بن النَّمِر بن قاسِط بن هِنب بن أَفْصَى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلة ٱبن أسد بن رَبيعة بن نِزار . فما يُتَمَثَّل به من شعره قوله :

لعــلّ لهـا عذرًا وأنت تلوم * ورب ٱمرئٍ قد لام وهو مُليم

وقال أيضـا :

ما كنتُ أُوفِي شبابى كنه عِزَّته * حتى ٱنقضى فاذا الدنيـا له تَبَـع

وقال أيضـا :

أقلل عتابَ من ٱستربتَ بوُدّه * ليست تُنـال مــودةٌ بعتاب

العَتَّابِيّ : هو كُلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد بن حبيش بن أوس بن مسعود ٱبن عمرو بن كُلثوم الشاعر ٱبن مالك بن عَتّاب بن سعد بن زُهير بن جُشَم بن بكر بن (٢٦) حبيب بن عمر بن غَنْم بن تَغْلب . فما يُتَمَثَّل به من شعره قوله :

وإن عظيمات الأمور مَشُوبةٌ * بمستودعاتٍ فى بطون الأساود

وقال أيضـا :

ولله فى عَرْض السموات جَنّة * ولكنهـا محفوفة بالمَــكاره

وقال أيضـا :

قلت للفرقدين والليل مُلقٍ * سُــودَ أكنافه على الآفاق

إبقيا ما بقيتما ســوف يُرمَى * بين شخصيكما بسهم الفِراق

أَشْجَع السُّلَمِيّ : هو أشجع بن عمرو أبو الوليد، وقيل : أبو عمرو من أهل الرَّقّة . فما يتمثل به من شعره قوله :

نسيبُك من أمسى يناجيك طرفه * وليس لمن تحت التراب نسيبُ

وقال أيضا :

سبق القضاءُ بكلِّ ما هو كائن * فليَجهـــد المتقلِّب المحتـالُ

وقال أيضا :

داءٌ قديم فى بنى آدم * فتنـةُ إنسان بإنسان

وقال أيضا :

وعلى عـــدوّك يا بن عم محمدٍ * رَصَدان ضوءُ الصبح والإظلامُ
فاذا تنبـــه رعتَه وإذا غفـا * سلّتْ عليه سـيوفَك الأحلامُ

الجُرْهُمِىّ :

وأعددتُه ذخرا لكل مُلِمـةٍ * وسهمُ الرزايا بالذخائر مولعُ

وقال أيضا :

إذا ما مات بعضُك فابك بعضًا * فإن البعضَ من بعضٍ قريبُ

وقال أيضا :

أرى الحلمَ فى بعض المواطِنِ ذِلةً * وفى بعضها عزًّا يُسَوِّدُ فاعلُهْ

وقال أيضا :

ودون النـدى فى كل قلبٍ ثَنِيّةٌ * لها مَصْعَدٌ حَزْن ومُنحَدرٌ سهلُ

وقال أيضا :

العيش لا عيشَ إلا ما قَنِعت به * قد يكثر المـالُ والإنسان مُفتقِر

وقال أيضا :

وهل حازم إلا كآخر عاجز * اذا حل بالإنسان ما يتوقّعُ

محمود الوَرَّاق : هو محمود بن الحسن البغدادى مولى بنى زُهرة، ويُكنى أبا الحسن . فمما يُمثّل به من شعره قوله :

وإذا غلا شيءٌ علىّ تركتُه * فيكون أرخصَ ما يكون إذا غلا

وقال أيضا :

ما كدتُ أخص عن أخى ثقةٍ * إلّا ذممتُ عواقبَ الفحصِ

وقال أيضا :

الدهر لا يَبْقى على حالة * لا بدّ أن يُقبِلَ أو يُدبرا
فإن تَلقَّاك بمكروهه * فاصبرْ فإن الدهرَ لن يَصبرا

وقال أيضا :

إذا كان وجهُ العُذرِ ليس بواضح * فإنّ اطراحَ العذرِ خيرٌ من العذر

محمود بن حازم الباهلىّ :

ألا إنما الدنيا على المرء فتنةٌ * على كل حال أقبلتْ أم تولّتِ

وقال أيضا :

وقائلٍ كيف تفرّقتما * فقلتُ قولا فيه إنصافُ
لم يك لى شكلا ففارقتُه * والناسُ أشكالٌ وألّافُ

السَّمَوءَلُ بن عَادياء :

اذا المرءُ لم يدْنَسْ من اللؤمِ عِرضُه * فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

وقال أيضا :

اذا كنت مَلْحيًّا مُسيئا ومُحسِنا * فغِشْيانُ ما تهوى من الأمر أكيسُ

محمد بن أبى ذُرْعَة الدِّمَشْقى :

لا يُؤْنِسَنَّك أن ترانى ضاحكا * كم ضَحْكَة فيها عُبوسٌ كامِنُ

وقال أيضا :

قد يُهِزُّ[1] الهنـدىُّ وهو حُسام * ويُحُثّ الجـوادُ وهو جـوادُ

أبو الشيص : واسمه محمد بن رُزَين بن تَميم بن نَهْشَل ، وأبو الشَّيص لَقَبٌ غَلَب عليه ، وكُنْيَتُه أبو جعفر وهو عمّ دِعْبِل بن علىّ . فمما يُتَمَثَّل به من شعره قوله :

اذا لم تَكُنْ طُرُقُ الهوى لى ذليـلةً * تنكّبتُها وانحزتُ من جانبِ السَّهل

على بن جَبَلَةَ بن عبد الرحمن الأنبارىّ ، وهو المُلَقَّب بالعَكَّوك قال :

وأرى الليالىَ ما طوتْ من شِرَّتى * ردَّتْه فى عِظَتى وفى إفهـامى

وعلمتُ أن المرء من سَنَن الردى * حيثُ الرمِيَّةُ من سِهام الرامى

وقال أيضا :

وخافت على التطواف قومى وانما * تُصاب غرار الوحش وهى رُتُوعُ

اللَّجْلاجُ الحـارثىّ :

وما كنتُ زوَّارا ولكنّ ذا الهـوى * الى حيث يَهْوَى القلبُ تَهْوِى به الرِّجْلُ

وقال أيضا :

اذا ما أهانَ امرؤٌ نَفْسَه * فلا أكرم اللهُ من يُكرمه

عبد الصمد بن المعذَّل :

ليس لى عُذْرٌ وعندى بُلْغَةٌ * إنمـا العذر لمن لا يستطيع

(١) الذى فى الأصول : «يهن» وهو تحريف .

وقال أيضا :

وأعلم أن بنات الرجاء * تُحِلّ العزيزَ مَحَلَّ الذليلِ
وان ليس مُستغنيا بالكثيـــر من ليس مُستغنيا بالقليل

وقال أيضا :

أرى النـاسَ أُحدوثةً * فكونوا حديثًا حَسَنْ
كأن لم يكن ما أتى * وما قـــد مضى لم يكن
اذا وطنٌ رابنى * فـكل بلادٍ وطن
اذا عزَّ يومًا أخـــو * لك فى بعض أمر فَهُن

الحَمْدونىّ :

إن المُقَدَّمَ فى حِذْقٍ بصنعته * أنّى توجه فيها فهـو محروم

العتبى :

قالت عهِدتُك مجنوناً فقلتُ لها * إن الشبابَ جنون برؤُه الكِبَر

وقال أيضا :

وحسبُك من حادثٍ بامرئ * يرى حاســديه له راحمينا

أبو سعيد المخزومىّ : واسمه عيسى بن خالد بن الوليد، والصحيح أنه أبو سعد لا سعيد . فمما يُمثل به من شعره قوله :

وكم رأينا للدهر من أسَدٍ * بالت على رأسِـه ثعالبُهُ

وقال أيضا :

إذا ضنّ الجَـوادُ بما لديه * فما فضلُ الجواد على البخيل

وقال أيضا :

ليس لبسُ الطيَالِس * من لبـاسِ الفوارِس

لا ولا حَوْمة الوغى * كصـدور المجالِس
وظُهـورُ الجيـادِ غـير ظهـور الطنـافِس
ليس من مارس الخطو * ب كمن لم يمـارِس

دِعْبِل بن علي الخزاعي : هو أبو جعفر واسمه محمد ودعبل لقبٌ غلَب عليه، (٢٧)
والدِّعْبِل : البعيرُ المسنُّ، وقيل : الناقةُ التي معها أولادها . فمما يُتمثَّل به من شعره قوله :

لا تعجبي يا سَلْم من رجل * ضَحِك المشيبُ برأسه فبكى

وقال أيضا :

هى النفس ما حسّنتَه فَحُسِّن * إليها وما قبَّحتَـه فُقُبِّح

وقال أيضا :

جئنـا به يشـفع فى حاجةٍ * فاحتاج فى الإذن إلى شافع

وقال أيضا :

تلك المساعى اذا ما أخّرتْ رجلا * أحب للناس عيباً كالذى عابهْ
كذاك من كان هَدْمُ المجد عادَتَه * فإنّه لبنـاء المجـدِ عَيّـابهْ

إسحاق بن إبراهيم المَوْصِلى :

وكلُّ مسافرٍ يزداد شوقًا * إذا دنتِ الديارُ من الديارِ

المؤمل بن أميل :

إذا مَرِضنا أتيناكم نَعودكُمُ * وتذنبون فنأتيكم ونعتـذرُ
لاتحسَبونى غنيًّا عن مودّتكم * إنى إليكم وإن أيسرتُ مفتقرُ

إبراهيمُ بن العباس بن محمد بن صُول مولى يزيد بن المُهَلَّب يُكنى أبا إسحاق، وأصله من خُراسان . فمما يُتمثَّل به من شعره قوله :

ورب أخ ناديتُـه لمُلمة * فألفيتُه منها أجلَّ وأعظما

وقال أيضا :

وكنت أذُمّ إليك الزمانَ * فأصبحتُ فيك أذمّ الزمانا
وكنت أعدّك للنائبات * فهأنا أطلبُ منك الأمانا

وقال أيضا :

دَنَتْ بأناس عن تناءٍ زيارةٌ * وشَطَّ بليلى عن دُنوٍّ مَزَارُها
وإنّ مقيماتٍ بمُنقَطِع اللوى * لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

أبو علىّ البصير : وهو الفضل بن جعفر الكوفىّ يقول :

فلا تعتذرْ بالشُّغل عنّا فإنّما * تناطُ بك الآمال ما آتصل الشُّغْل

وقال أيضا :

لعمر أبيكَ ما نُسب المعلّى * إلى كرم وفى الدنيا كريمُ
ولكنّ البلادَ إذا آقشعرّت * وصوّح نبتُها رُعى الهشيمُ

سعيد بن حميد يقول :

* إنّ جَهد المقلِّ غير قليل * * وعلى المريب شواهدٌ لا تُدفعُ *

وقال أيضا :

وإنك كالدنيا تُذَمُّ صروفها * ونوسعها سبًّا ونحن عبيدها

علىّ بن الجهم يقول :

ولكلّ حال مَعْقَبٌ ولربما * أجلَى لك المكروهُ عمّا تحمَدُ

وقال أيضا :

وعاقبةُ الصبر الجميل جميلة * وأفضل أخلاق الرجالِ التفضُّل
ولا عار إن زالت عن المرء نعمةٌ * ولكنّ عارا أن يزولَ التجمُّلُ

وقال أيضا :

ارضَ للسائل الخُضوعَ ولقا * رِفِ ذنبًا مذلّة الأعـذارِ

ابن أبي فنن : هو أحمد بن صالح بن أبي معشر مولى المنصور يقول :

أرى الدهرَ يُخلِقُنى كلّمـا * لبستُ من الدهر ثوبًا جديدا

وقال أيضا :

سَرَّ من عاش مالُه فإذا حا * سَـبهُ اللهُ سَرَّهُ الإعدامُ

وقال أيضا ،

ربَّ أمرٍ سرَّ آخرُهُ * بعد ماساءَتْ أوائلُهُ

يزيد بن محمد المهلبيّ يقول :

* لا عار إن ضامك دهرٌ أو مَلِكْ *

وقال :

وإن الناسَ جمعُهم كثيرٌ * ولكنْ من تُسَرُّ به قليلُ

وقال أيضا :

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلُّها * كفى المرء نُبلًا أن تعدَّ معايبُهْ

عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير يقول :

فإن تلحظى حالى وحالَك مرَّةً * بنظرةعين عن هوى النفس تُحجَبُ

تَرىْ كلَّ يوم مرَّ من بؤس عيشتى * عليك بيوم من نعيمك يُحسبُ

أحمد بن أبي طاهر يقول :

وَبين الفتى بين التماسك والنهى * ودنيا الفتى بين الهوى والتغرّر

وقال أيضا :

حسن الفتى أن يكون ذا حسبٍ * من نفسه ليس حسنَه حسبُهْ

أبو تمام حبيب بن أوس الطائى يقول :

* ما الحبّ الا للحبيب الأوّل * لسان المرء من جِدْم الفؤاد *

* وذو النقص فى الدنيا بذى الفضل مولع *

وقال :

ما آبَ مَنْ آبَ لم يظفَر بحاجته * ولم يَغِبْ طالبٌ للنُّجح لم يَخِبِ

وقال أيضا :

ومن لم يُسلِّم للنوائب أصبحتْ * خلائقه طرًّا عليه نوائبَا

وقال أيضا :

لأمرٍ عليهم أن يتمَّ صدورُه * وليس عليهم أن تتم عَواقِبُهْ

وقال أيضا :

لا تتكرى عَطَلَ الكريم من الغِنى * فالسيلُ حَرْبٌ للمكانِ العالى

وقال أيضا :

واذا تأمّلتَ البلادَ رأيتها * تُثرِى كما تُثرِى الرجالُ وتُعدِمُ

وقال أيضا :

واذا آمرؤ أهدى اليك صنيعةً * من جاهه فكأنها من ماله

وقال أيضا :

خلقنا رجالا للتجلد والأسى * وتلك الغوانى للبكا والمآتم

وقال أيضا :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهلٌ * ويُكدِى الفتى فى دهره وهو عالمُ
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحِجا * هلكن إذًا من جهلهنّ البهائمُ

وقال أيضا :

أآلفـة النحيب كم آفتراق * أطلّ فكان داعيةَ آجتماع
وليست فرحةُ الأوبات إلا * لموقوف على تَرَح الوَداع

وقال أيضا :

واذا أراد الله نشرَ فضـيلة * يوما[1] أتاح لها لسان حَسودِ
لولا آشتعال النار فيما جاورت * ما كان يُعرف طِيبُ عَرفِ العودِ

وقال أيضا :

خشعوا لصولتك التى هى عندهم * كالموت يأتى ليس فيـه عار

وقال أيضا :

ذاك الذى قَرِحتْ بطونُ جفونه * مَرَّهًا وتربة أرضـه من إثمِـد

وقال أيضا : ٢٨

وتَركى سرعة الصَّدَر آعتباطًا * يدلّ على موافقـة الورود

وقال أيضا :

ولم أر كالمعروف تُدعى حقوقُه * مغارمَ فى الأقوام وهى مَغانمُ

وقال أيضا :

و إن آمرأً ضنّت يداه على آمرئٍ * بنيـلِ يدٍ من غيره لبخيـلُ

---

[1] كذا فى الأصول ، والرواية المشهورة كما فى ديوان أبى تمام طبع مصر ص ٤٣ : « ... طويت ... الخ » .

أبو عُبَادة البُحترىّ، وهو الوليد بن عُبَيد بن يحيى بن عُبَيد بن شَمْلان بن جابر آبن مَسْلمة بن مُسهِر بن الحارث بن خَيْثَم بن أبى حارثة بن جدى بن نَزْوَل بن بُحتُر الطائىّ . فمما يتمثل به من شعره قوله :

* وأبرحُ ممّا حَلّ ما يُتَوَقَّعُ *

وقال أيضا :

* وليس تقترن النعماءُ والحسدُ *

وقال أيضا .

* إن المعنَّى طالبٌ لا يظفَرُ *

وقال أيضا :

* أرى الكفرَ للنعماء ضربا من الكفرِ *

وقال أيضا :

* يزين اللآلى فى النظام آزدواجها *

وقال :

وكان رجائى أن أؤوب مملَّكا * فصار رجائى أن أؤوب مسلَّما

وقال أيضا :

متى أَحرجتَ ذا كرم تخطَّى * اليــك ببعض أخلاق اللئيم

وقال أيضا :

والشىء تُمنَعُــه يكون بقَــوتِه * أجدى من الشىء الذى تُعطاهُ

وقال أيضا :

تناسَ ذنوبَ قومك إن حفظَ الـذنوبِ اذا قدُمنَ من الذنوبِ

وقال أيضا :

واذا ما خَفيتُ كنتُ حَرِيًّا * أن أُرى غير مُصبح حيث أُمسِى

وقال أيضا :

متى أرتِ الدنيا نباهةَ خامِلٍ * فلا تنتظرْ إلا نُحولَ نبيهِ

وقال أيضا :

وأرى النجابةَ لا يكون تمامُها * لنجيب قوم ليس بابن نجيب

وقال أيضا :

واذا ما الشريفُ لم يتواضعْ * للأخلّاء فهو عينُ الوضيعِ

وقال أيضا :

ولم أر أمثالَ الرجال تفاوتتْ * الى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحد

وقال أيضا :

ليس الذى يُعطيك تالدَ ماله * مثلَ الذى يُعطيك مالَ الناسِ

وتَفاضُل الأخلاقِ إن حصّلتَها * فى الناس حيثُ تفاضل الأجناسِ

وقال أيضا :

لا ييأس المرء أن ينجيَه * ما يحسَبُ الناسُ أنه عَطَبُهْ

يسرّك الشيءُ قد يسوءُوكم * نوّه يوما بحامل لقبُهْ

وقال أيضا :

اذا محاسِنيَ اللاتى أدلُّ بها * كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذرُ

وقال أيضا :

وعطاءُ غيرك إن بذل * تَ عنايةً فيه عطاؤكْ

ديك الجن، واسمه عبد السلام بن رَغْبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن زيد بن تميم بن مجد من أهل حمص يقول :

وشافى النَّصْح يُعدَل بالأشافِى (١) * وليس القِـدر إلّا بالأثافى

وقال :

اذا شجر المـودّة لم تجُـدهُ * بغيث البرِّ أسرع فى الجفافِ

وقال أيضا :

يرقدُ الناسُ آمنين وريب الـدهر يرعاهُمُ بمقـلةِ لِصّ

ابنِ الرومى يقول :

وكم داخلٍ بين الحميمين مصلح * كما آنغلّ بين العينِ والجفنِ مِرودُ

وقال أيضا :

هـو بازٍ صائد أرسلتُـهُ * فآرجعوه سالما إن لم يَصِدْ

وقال أيضا :

وما الحمـد إلا توءم الشكر فى الفتى * وبعض السجايا ينتسبن الى بعض

اذا الأرض ردّت رَيْع ما أنت زارعٌ * من البذر فهى الأرض ناهيك من أرض

وقال أيضا :

وإذا أتاك من الأمور مقدَّرٌ * ففررتَ منه فنحوهُ تتوجّهُ

وقال أيضا :

كيف تَرضَى الفقر عِرسا لامرئٍ * وهو لا يَرضَى لك الدنيا أمَـهْ

وقال أيضا :

عدوُّك من صديقك مستفادٌ * فلا تستكثرنّ من الصحابِ

فإن الداءَ أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشرابِ

(١) هكذا ورد فى جميع الاصول ولم نوفّق الى تحقيقه فى المراجع التى بين أيدينا .

عبد الله بن المعتز يقول :

* فإن العيون وجوهُ القلوبِ *

وقال أيضا :

* أمّ الكرام قليـلةُ الأولاد *

وقال أيضا :

* أبطأُ فيض الدِّلاء أملؤها *

وقال أيضا :

اِصبر على كيد الحسو * د فإن صـبرك قاتلُهْ

فالنـار تأكل بعضها * إذ لم تجـد ما تأكله

وقال أيضا :

ولا همَّ إلا سوف يُفْتحُ قُفلُه * ولا حالَ إلا للفتى بعدها حالُ

وقال أيضا :

لا تأمنوا من بعد خيرٍ شرًّا * كم غُصُنٍ أخضرَ عاد جمـرَا

وقال أيضا :

وإنى على إشفاق عينى من البكا * لتجمح منى نظـرة ثم أُطرقُ

كما حُلّئت عن ماء وِرْد طريدةٌ * تمدّ اليـه جيدَها وهى تَفـرقُ

وقال أيضا وإشارته الى الديك :

صفّق إما آرتياحةً لَسـنا الـ * ـفجرْ وإما على الدجى أسفا

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

ألم تر أن المرءَ تَدْوَى يمينُه * فيقطعها عمـدا ليسـلَمَ سائرُهْ

فكيف تراه بعـد يمناه صانعا * لمن ليس منه حين تدوَى سرائرُهْ

وقال أيضا :

ألا قبّح الله الضرورةَ إنّها * تكلّف أعلى الخَلْقِ أدنى الخلائقِ

وقال أيضا :

وكم قائل قد قال مالَك راجلا * فقلت له من أجل أنّك فارس

وقال أيضا :

ومن سرّه ألّا يَرى ما يسوءُه * فلا يتّخذْ شيئا يَخاف له فقدَا

ابن طَبَاطَبَا العلويّ : هو أبو الحسن محمد بن أحمد العلوى الأصبهانى يقول :

إن فى نيل المُنَى وشكّ الردَى * وقياس القصد عند السرَف

كسراج دهنه قوتٌ له * فإذا غرّقته فيه طُفى

وقال أيضا :

لقد قال أبو بكرٍ * صوابا بعد ما أنصتْ

خرجنا لم نصد شيئا * وما كان لنا أفلتْ

وقال أيضا :

يا عيشنا المفقودَ خذ من عمرنا * عامًا وردَّ من الصِّبا أياما

منصور الفقيه المقرِئ يقول :

(٢٩) يا من يخاف أن يكو * ن ما أخاف سرمدَا

أما سمعتَ قولَهم * إنّ مع اليوم غدَا

وقال أيضا :

المِلح يُصلِح كلّ ما * يُخشى عليه من الفسادِ

فإذا الفساد جرى عليـ * ـه فحكمه حُكْمُ الرَّماد

وقال أيضا :

كلُّ مذكورٍ من الناس اذا ما * فقـــدوه صار فى حكم الرَّماد

وقال أيضا :

كلّ مذكورٍ من النـ * ـاس اذا ما فقدوه
صار فى حكم حديث * حفظوه ونســـوه

وقال أيضا :

كلّ من أصبح فى دهـ * ـرك ممن قد تراهْ
هو من خلفك مقرا * ض وفى الوجه مراهْ

ابن بسّام : هو على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسّام كنيته أبو الحسن يقول

* وكم أُمنيّة جلبتْ منيّهْ *

وقال :

ولولا الضرورةُ ما جئتـــكُم * وعند الضرورة يؤتَى الكنيف

وقال أيضا :

قل لأبى القاسم المرجَّى * قابلك الدهر بالعجائبْ
مات لك ابنٌ وكان زينا * وعاش ذو الشين والمعايبْ
حياة هذا كموت هـــذا * فلستَ تخلو من المصائبْ

وقال أيضا :

ربَّ يوم بكيت منـــه فلما * جزت فى غيره بكيت عليه

وقال أيضا :

قد يحمل الشيخُ الكبيـ * ـرُ جنازةَ الطفل الصغيرِ

جَحْظَة : هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك النديم يقول :

* وللساكين أيضا بالندى وَلَعُ *

وقال أيضا :

* وآفة التبر ضَعفُ منتقِدهْ *

وقال أيضا :

* متى يلتقى الميْتُ والغاسلُ *

وقال أيضا :

لا تعدّنّ للزمان صديقا * وأعدّ الزمان للأصدقاء

وقال أيضا :

وما كذَب الذى قد قال قبلى * اذا ما مرَّ يوم مرَّ بعضى

وقال أيضا :

اذا الشهر حلَّ ولا رزقَ لى * فَعَدِّى لأيامه باطلُ

وقال أيضا :

واذا جفانى جاهلٌ * لم أستخر ما عشتُ قطعَهْ

وجعلته مثل القبو * ر أزوره فى كلّ جمعه

الصنوبرىّ يقول :

مِحَن الفتى يُخبرنَ عن فضل الفتى * كالنار مخبرةٌ بفضل العنبرِ

وقال أيضا :

ربَّ حال كأنها مُذْهَبُ الديـ * ـباج صارت من رقةٍ كاللاذِ(١)

(١) اللاذة : ثوب حرير أحمر صينىّ ، والجمع لاذ .

وزمانٍ مثل آبنة الكَرْمِ حُسنا * عاد عند العيوف (١) مثلَ الدَّاذِى (٢)
أوَ ما من فساد رأى الليالى * أنّ شعرىَ هذا وحالىَ هذى

أبو الفتح كُشاجم : هو محمود بن الحسين بن السندىّ بن شاهك، وشاهك أمّه يقول :

يُعاد حديثـه فيزيد حُسنا * وقد يُستقبَحُ الشىءُ المُعـادُ

وقال أيضـا :

شخصَ الأنامُ الى جمالكَ فاستعِذْ * من شرّ أعينهم بعيبٍ واحد

* * *

ومما يتمثّل به من أشعار المولّدين : منهم

أبو فراس الحمدانىّ :

غِنَى النفس لمن يعقـ * ـل خير من غِنَى المـالِ
وفضل النـاس فى الأنفـ * ـس ليس الفضل فى الحال

وقال أيضـا :

ونحن أناسٌ لا توسّـط عندنا * لنا الصـدر دون العالمين أو القبرُ
تهون علينا فى المعـالى نفوسُـنا * ومن خطَبَ الحسناءَ لم يغلِها مهرُ

وقال أيضـا :

وندعو كريمـا مَن يجود بماله * ومَن يبذل النفس النفيسة أكرمُ

وقال أيضـا :

وجميل العـدوّ غير جميلٍ * وقبيحُ الصـديق غير قبيح

(١) العيوف : الأبىّ وفى الأصول : (العيون) وهو تحريف .
(٢) الداذىّ : — جاء على لفظ النسب وليس بنسب — شراب مسكر، قال الشاعر :
شربنا من الداذى حتى كأننا * ملوك لنـا برّ العراقين والبحر

أبو الطيب المتنبّى يقول :

* مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائد *

وقال أيضا :

* إن المعارفَ فى أهل النُّهى ذِمَمُ *

وقال أيضا :

* وخـير جليس فى الزمان كتابُ *

وقال أيضا :

* وتأبَى الطبـاعُ على النـاقلِ *

وقال أيضا :

* ومنفعة الغوث قبـل العطب *

وقال أيضا :

* ومن فرح النفس ما يقتـلُ *

وقال أيضا :

* اذا عظم المطلوب قَلّ المساعدُ *

وقال أيضا :

* أنا الغريق فما خوفى من البللِ *

وقال أيضا :

* فإن الرفق بالجانى عتابُ *

وقال أيضا :

* بغيضٌ الىّ الجـاهلُ المتعاقلُ *

وقال أيضا :

وكل آمرئ يولى الجميلَ محبّبٌ * وكلّ مكان يُنبت العـزَّ طيّبُ

وقال أيضا :

اذا أنتَ أكرمتَ الكريم ملكتَه * وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمـــرّدا

ووضع الندى فى موضع السيف بالعُلا * مضرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى

وقال أيضا :

والأمر لله ربَّ مجتهـدٍ * ما خاب إلا لأنّه جاهدْ

وقال أيضا :

وليس يصحّ فى الأفهام شىء * اذا احتاج النهار الى دليـــلِ

وقال أيضا :

ومن نكدِ الدنيا على الحرِّ أن يرى * عـدوّا له ما من صـداقته بُدُّ

وقال أيضا :

وإذا كانت النفوسُ كِبارًا * تعبتْ فى مرادها الأجسام

وقال أيضا :

وإن يكن الفعلُ الذى ساء واحدا * فأفعـاله اللاتى سَررنَ أُلوفُ

وقال أيضا :

واذا أتتك مذمّتى من ناقص * فهى الشهادة لى بأنّىَ فاضلُ

وقال أيضا :

وما الحُسنُ فى وجه الفتى شرفا له * اذا لم يكن فى فعـلِه والخلائقِ

وقال أيضا :

وما يوجع الحرمانُ من كفّ حارمٍ * كما يوجع الحرمانُ من كفِّ رازقِ

وقال أيضا :

إنَّ لفى زمن تركُ القبيح به * من أكثر الناس إحسانٌ و إجمالُ

ذكرُ الفتى عمرُه الثانى وحاجته * ما فاته وفضول العيش أشغالُ

وقال أيضا :

وقيَّدتُ نفسى فى ذَراكَ[1] محبّةً * ومَنْ وجَد الإحسان قيدًا تقيّدا

وقال أيضا :

ما كلّ ما يتمنّى المرءُ يُدركه * تجرى الرياحُ بما لا تشتهى السفُنُ

السرىّ بن أحمد بن السرىّ الموصلىّ يقول :

اذا العبءُ الثقيل توزَّعتْه * أكفّ القوم هان على الرقاب

وقال أيضا :

فإنك كلّما آستُودعتَ سرًّا * أنمُّ من النسيم على الرياض

وقال أيضا :

إلى كم أحبِّر فيك المديحَ * ويَلقى سواى لديك الحُبورا

أبو بكر محمّد بن هاشم الخالدىّ يقول :

إن خانك الدهرُ فكن عائذا * بالبيد والظَّلْماء والعِيس

ولا تكن عبدَ المُنى فالمُنى * رءوس أموال المفاليس

وقال أيضا :

وأخٍ رَخُصتُ عليه حتى ملَّنى * والشىء مملول اذا ما يَرخُصُ

ما فى زمانك ما يَعِزّ وجودُه * إن رمتَه إلا صديق مخلصُ

(١) كذا فى الأصول . وفى ديوانه طبع مصر : « فى هواك » .

أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدىّ [أخوه] يقول :

يا هذه إن رحتُ فى * خَلَق فما فى ذاك عارُ
هذى المُدام هى الحيا * ة قميصها خرَقٌ وقارُ

وقال أيضا :

صغيرٌ صرفتُ اليه الهوى * وما خاتِمٌ فى سوى خِنْصَر

الخَبَّاز البلدىّ : هو أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان، نسبة الى "بلد" وهى من بلاد الجزيرة التى منها المَوصِل يقول :

اذا آستثقلتَ أو أبغضتَ خَلْقا * وسَرّك بعدُه حتى التَّنادِ
فشرّده بقرض دُريهمات * فإن القَرض داعيةُ الفسادِ

أبو إسحاق الصابئ يقول :

نِعمُ الله كالوحوش وما تأ * لف إلّا الأخايرَ النُّسا كا
نفرتها آثامُ قوم وصارتْ * لأولى البِرّ والتُّقى أشرا كا

وقال أيضا :

ومن الظلم أن يكون الرضا سـ * ـرا ويبدو الإنكار وسْطَ النادى

وقال أيضا :

الضبّ والنون قد يُرجى آلتقاؤهما * وليس يرجى التقاء اللبّ والذهبِ

عبد العزيز عمر بن نُباته يقول :

فلا تحقرنّ عدوا رماك * وإن كان فى ساعديه قِصَرْ
فإن السيوف تَحُزّ الرقاب * وتعجز عما تنال الإبر

وقال أيضا :

مثلُ خلعتُ على الزمان رداءه * عَوَزُ الدراهم آفةُ الأجواد

وقال أيضا :

يهوى الثناءَ مُبرِّز ومُقصِّر * حُبُّ الثناء طبيعة الإنسان

وقال أيضا :

ونَبَتْ بنا أرضُ العِرا * ق فما مَحَنّاها بمِحْنه

غير الرحيل كفى البلا * د برِحلة النجباء هُجْنه

ابن لنكك البصرىّ : هو أبو الحسين محمد بن محمد يقول :

وماذا أُرجّى من حياةٍ تكدّرت * ولو قدصفت كانت كأضغاث أحلام

وقال أيضا :

عدِمْنا فى زماننا * عن حديث المكارِم

من كفى الناس شرَّه * فهو فى جود حاتِم

وقال أيضا :

جار الزمانُ علينا فى تَصرّفه * وأىّ دهر على الأحرار لم يَجُرِ

عندى من الدهر ما لو أنّ أيسره * يُلقَى على الفَلَك الدوّار لم يَدُرِ

أبو الحسن عبد الله بن محمد بن محمد السلامىّ يقول :

تبسّطنا على الآثام لما * رأينا العفو من ثمر الذنوب

وقال أيضا :

والمرء ماشغلته فرصة لذة * ناسى الحوادث آمن الحِدْثان

وقال :

وكان رقادى بين كأسٍ وروضة * فصار سُهادى بين طِرْفٍ وصارِم

وقال أيضا :

ركوبُ الهولِ أركبك المَذاكى[1] * ولُبْس الدِرع ألبسك الغلائلْ

أبو الفرج البَبَّغاء يقول :

ما الذل إلا تحمُّـــل المِنَنِ * فكن عزيزاً إن شئتَ أوفَهُنِ

وقال أيضا :

ومن طلب الأعداءَ بالمـال والظُبا * وبالسـعد لم يبعُد عليـه مرامُ

وقال أيضا :

ولم أر مُذ عرفتُ محلَّ نفسى * بلوغَ مُنى تساوى حمـلَ مَنِّ

وقال أيضا :

أكلُّ وميض بارقة كذوبُ * أما فى الدهر شىءٌ لا يريب

ابن سُكَّرة الهاشمىّ : هو محمد بن عبد الله يقول :

* وعِلّة الحال تُنسى علّة الجسد *

وقال أيضا :

* وقد ينبت الشـوك بين الأقاحى *

وقال أيضا :

الموت أنصف حين عدّل قِسْمَة * بين الخليفـــة والفقير البائس

ابن الحَجّاج : هو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج يقول :

* وربَّ كلام تُستثار به الحربُ *

وقال أيضـا :

* خَود تُزَفّ الى ضرير مُقعـد *

(١) المذاكى : الخيل التى تم سنها وكلت قوتها .

وقال أيضا :

واللوزة المرّة يا سادتى * يفسد فى الطّعم بها السكّرُ

وقال أيضا :

ما زلتُ أسمع كم من واقفٍ بجلٍ * حتى ابتليتُ فكنتُ الواقفَ الخجلا

وقال أيضا :

وبى مرضان مختلفان حال الـ * ـعليلة منهما تُمْسِى بحالى

اذا عالجتُ هذا جفّ كِبْدى * وإن عالجتُ ذاك رَبَا طِحالى

أبو الحسن المُوسوىّ النقيب : هو محمد بن الحسين بن موسى يقول :

أمسيتُ أرحمُ من قد كنتُ أغبطه * لقد تقارب بين العزّ والهُونِ

ومنظرٍ كان بالسرّاء يضحكنى * يا قرب ما عاد بالضّراء يبكينى

وقال أيضا :

والحزّ من حذر الهوا * ن يزاول الأمر الجسيما

وهو العظيم وغير بدْ * عٍ منه إن ركب العظيما

وقال أيضا :

ما السُّؤددُ المطلوب إلّا دون ما * يُومِى اليه السؤدد المولودُ

فاذا هما اتّفقا تكسرت القنا * إن غالَبَا وتضعضع الجُلمودُ

وقال أيضا :

اشترِ العزّ بما بيـ * ـع فما العزّ بغالى

بالقِصار البيض إن شئـ * ـتَ أو السُّمُرِ الطِوالِ

ليس بالمغبون عقلا * مشترٍ عزًّا بمال

إنما يُذخر المـا * ل لحـاجات الرجالِ
والفتى من جعـل الأمـ * ـوال أثمـان المعـالى

أبو طالب المأمونىّ يقول :

لى فى ضمير الدهر سرٌّ كامِنٌ * لا بدّ أن تستلَّه الأقـدارُ

وقال أيضـا :

وما شرفُ الإنسان إلا بنفسه * أكان ذووه سادة أم مواليا

وقال :

اذا الغيث وفّى الروضَ واجبَ حقّه * وزاد فإن الغيث للروض ظالمُ

(٣١)

ابن العميد : هو أبو الفضل محمد بن أبى عبد الله الحسين بن محمد، عُرف بابن العميد، كان أبوه أبو عبـدالله وزير مرداويج توفى ابن العميد بالرَّىّ فى محرّم سنة ستين وثلثمائة يقول :

لن يصرف الدهرَ من سجيّته * أرب أريب وحول ذى حِيَلِ
أىُّ مَعين صـفا على كدر الدَّهر وأىّ النعـيم لم يزلِ

وقال أيضـا :

من يُشفَ من داءٍ بآخَر مثلِه * أثرتْ جوانحـه من الأدواء
داوى جوى بجوى وليس بحازم * من يَستكفّ النـارَ بالحَلْفاء

الصاحب بن عَبّاد : هو أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد . توفى فى صفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة وعمره خمس وستون سنة وسمّى بالصاحب لصحبة ابن العميد يقول :

* بقدر الهموم تكون الهمم * * كم صارمٍ جُرِّبَ فى خنزيرِ *

وقال أيضا :

لقد صدقوا والراقصات الى مِنى * بأن مودّات العدا ليس تنفعُ
ولو أننى داريت دهرى حيّة * اذا آستمكنت يوما من اللسع تَلسعُ

الحسن بن علىّ بن عبد العزيز القاضى يقول :

* القلبُ يُدرِك مالا يُدرِك البصر * يُملّك الأحرارُ بالإيناس *

وقال أيضا :

وما أعجبتنى قطّ دعوى عريضةٌ * ولو قام فى تصديقها ألفُ شاهدِ

وقال أيضا :

يقولون لى فيك آنقباض وإنّما * رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
اذا قيل هذا موردٌ قلت قد أرى * ولكنّ نفس الحُرّ تحتمل الظما

وقال أيضا :

وقالوا آضطرب فى الأرض فالرزقُ واسع * فقلتُ ولكن مطلب الرزق ضيّقُ
اذا لم يكن فى الأرض حرّ يُعينى * ولم يك لى كسبٌ فمن أين أُرزقُ

أبو بكر محمد بن العباس الخُوارَزْمىّ يقول :

* ومن عجب الأيام تَرْكُ التعجّبِ *

وقال أيضا :

* لكلّ صناعة يوما مُديلُ *

وقال أيضا :

واذا مدة الشىّ تناهت * جاءه من شقائه متقاضى

وقال أيضا :

عليك بإظهار التجلّد للعدا * ولا تظهرنّ منك الدنو فتُحقرا

بديع الزمان أبو الفضل الهمَذانىّ، أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد تُوفّى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة مسموما، وأوفى على الأربعين سنة يقول :

يا حريصا على الغـــنى * قاعـــدًا بالمراصـــدِ
لست فى سعيك الذى * خضت فيه بقاصـــدِ
إن دنيـاك هـــذه * لست فيهـا بخـالدِ
بعض هـــذا فإنما * أنت ساعٍ لقاعـــدِ

إسماعيل الناشئ يقول :

* وللشباب تُراعى حرمةُ الكَتَمِ[1] *

وقال أيضـا :

وكنت أرى أنّ التجارب عُدّة * فخانت ثقات الناس حتى التجاربُ

وقال أيضـا :

فركضا فى ميادين التصابى * أحقُّ الخيـــل بالركض المُعارُ[2]

وقال أيضـا :

ولا تجـــزعنّ على أيكة * أبت أن تُظلّك أغصانُهـا

أبو الفتح علىّ بن محمد البستى يقول :

إذا مرّ بى يوم ولم أتخـــذ يدًا * ولم أستفدْ علما فما ذاك من عمرى

وقال أيضا :

أنا كالوَردِ فيـه راحةُ قومٍ * ثُمّ فيـه لآخرين زكامُ

(١) الكتم : نبات يخضب به .
(٢) المعار : الفرس المضمّر .

وقال أيضا :

لا ترجُ شيئًا خالصا نفعُـه * فالغيث لا يخلو من العيثِ

وقال أيضا :

ولم أرَ مثلَ الشكرِ جَنّـة غارِس * ولا مثلَ حسنِ الصبرِ جُنَّة لابِس

وقال أيضا :

ولن يشرب السمّ الزُّعاف أخو الحجا * مُـدِلًّا بدرياقٍ لديه مجـرَّب

وقال أيضا :

ما آستقامتْ قناةُ رأيىَ إلا * بعدَ أن عوّج المشيبُ قناتى

وقال أيضا :

وطول حِمامِ الماء فى مُستقرّه * يغـيّره لونا وريحا ومطعما

وقال أيضا :

إذا حيوانٌ كان طعمةَ ضدّه * توقّاه كالفأر الذى يتّقى الهرّا

ولاشكّ أن المرءَ طعمةُ دهره * فما باله يا ويحه يأمن الدهرا

وقال أيضا :

لا تحقِر المـرءَ إن رأيت به * دمامـةً أو رثاثة الحُلَـلِ

فالنحل شىء على ضـؤولته * يَشتارُ منه الفتى جَنَى العسل

البـاب الثـانى

من القسم الثانى من الفن الثـانى

فى أوابد العرب

ومعنى الأوابد ها هنا : الدواهى ؛ وهى مما حمى الله تعالى هذه الملّة الإسلاميّة منها ، وحذّر المؤمنين عنها . فقال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وقال تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ . وكانت للعرب أوابدُ جعلوها بينهم أحكاما ونسكا وضلالة وعادة ومداواة ودليلا وتفاؤلا وطِيَرَةً . فمنها :

البَحِيرَةُ :

قالوا : كان أهل الوبر يُعطون لآلهتهم من اللحم ، وأهلُ المدر يُعطون لها من الحرث ، فكانت الناقة اذا أنتجت خمسة أبطن عمدوا الى الخامس ما لم يكن ذكرا فشقّوا أذنها ، فتلك : البحيرة ؛ فربما اجتمع منها هَجمةٌ من البُحُر فلا يُجزُّ لها وبر ولا يذكر عليها إن ركبت اسم الله ، ولا إن حمل عليها شيء ، فكانت ألبانها للرجال دون النساء .

الوصـيلة :

كانت الشاة اذا وضَعتْ سبعة أبطن عمدوا الى السابع ، فان كان ذكرا ذُبح ، وإن كانت أنثى تُركت فى الشاء ، فان كان ذكرا وأنثى قيل : وَصلتْ أخاها ، فحُرّما جميعا ، وكانت منافعها ، ولبن الأنثى منها للرجال دون النساء .

السائبـــة :

كان الرجل يسيّب الشيء من ماله ، إما بهيمةً أو إنسانا، فتكون حراما أبدا، منافعها للرجال دون النساء . (٣٢)

الحـامى :

كان الفحل اذا أدركتْ أولادُه فصار ولده جدًّا(١) قالوا : حمى ظهرَه، آتركوه، فلا يحمل عليـه ولا يركب ولا يمنع ماء ولا مرعى . فإذا ماتت هـذه التى جعلوها لآلهتهم، آشترك فى أكلها الرجال والنساء، وذلك قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيـهِ شُرَكَاءُ﴾ قالوا : وكان أهل المدر والحرث اذا حرثوا حرثا، أو غرسـوا غرسا، خطّوا فى وسـطه خطًّا ، فقسموه بين آثنين فقـالوا : ما دون هـذا الخط لآلهتهم ؛ وما وراءه لله ؛ فإن سـقط مما جعلوه لآلهتهم شيء فيما جعلوه لله ردّوه، وإن سقط مما جعلوه لله فيما جعلوه لآلهتهم أقرّوه، واذا أرسلوا المـاء فى الذى لآلهتهم، فانفتح فى الذى سموه لله سدّوه، وإن آنفتح من ذلك فى هذا قالوا : آتركوه فإنه فقير اليه، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

الأزلام :

قالوا : كانوا اذا كانت مداراة أو نكاح أو أمر يريدونه، ولا يدرون ما الأمر فيـه ولم يصحّ لهم أخذوا قداحا لهم ؛ فيها : أفعل ولا أفعل لا يفعل، نعم لا خير،

(١) هكذا فى الأصول ، والذى فى بلوغ الأرب للآلوسى ولسان العرب مادة حمى عن الحامى جملة أقوال فقال الفراء : هو الفحل اذا لقح ولد ولده فقد حمى ظهره ، وقيل : الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن ، وقيل غير ذلك .

شرٌّ بطيءٌ سريع، فأما المداراة: فإن قداحا لهم فيها بيضا ليس فيها شيء فكانوا يجيلونها فمن خرج سهمه فالحقّ له . وللحضر والسفر سَهمان ؛ فيأتون السادن من سدنة الأوثان فيقول السادن : اللّهم أيّهما كان خيرا فأخرجه لفلان، فيرضى بما يخرج له . فاذا شكّوا فى نسب الرجل أجالوا له القـداح وفيها : صريحٌ ، وملصَقٌ ؛ فإن خرج الصريح ألحقوه بهم، وإن خرج الملصق نفوه وإن كان صريحا، فهذه قـداح الاستقسام .

الميسر :

قالوا فى الميسر : إن القوم كانوا يجتمعون فيشترون الجَزُورَ بينهم ، فيفصّلونها على عشرة أجزاء، ثم يؤتَى بالحُرْضَـة وهو رجل يتألّهُ عندهم لم يأكل لحما قطّ بثمن، ويؤتَى بالقِداح وهو أحد عشر قِدْحا، سبعة منها لهـا حظّ إن فازت ، وعلى أهلها غرم إن خابت، بقدر ما لها من الحظّ إن فازت، وأربعة يُقل بها القداح، لا حظّ لها إن فازت، ولا غرم عليها إن خابت .

فأما التى لها الحظّ : فأوّلها الفَذّ فى صدره حزٌّ واحد، فإن خرج أخذ نصيبا، وإن خاب غرِم صاحبه ثمن نصيب ؛ ثم التوءم، له نصيبان إن فاز، وعليه ثمن نصيبين إن خاب ؛ ثم الضَّرِيب، وله ثلاث أنصباء ؛ ثم الحِلْس، وله أربعة ؛ ثم النافِس، وله خمسة ؛ ثم المُسْبِل، وله ستة ؛ ثم المُعَلَّى، وله سبعة . قالوا : والمسبِل يسمّى : المُصْفَحُ، والضريب يقال له : الرقيب .

وقد جمع الصاحب بن عَبّاد هذه الأسماء ونظمها فى أبيات فقال :

إن القِـداحَ أمرُها عجيبُ * الفـذُّ والتـوءمُ والرقيبُ
والحِلْسُ ثم النّافِسُ المصيبُ * والمُصْفَحُ المشتهر النجيبُ
ثم المعـلَّى حظّـه الترغيبُ * هاك فقـد جاء بها الترتيبُ

وأما الأربعة التى ينقل بها القِداح، فهى : السَّفيح، والمَنيح، والمُضْعَف، والوغد .

قال ابن قتيبة : والمنيح له موضعان : أحدهما لا حظّ له، والثانى له حظّ، فكأنه الذى يُمنح حظّه، وعلى ذلك دلّ قول عمرو بن قَبيصة :

بأيديهم مَقرومةٌ ومَغالقٌ * يعودُ بأرزاق العيال مَنيحها

قالوا: فيؤتى بالقِداح كلها وقد عرف كلّ ما اختار من السبعة ولا يكون الأيسار إلا سبعة، لا يكونون أكثر من ذلك، فإن نقصوا رجلا أو رجلين، فأحب الباقون أن يأخذوا ما فضل من القداح، فيأخذ الرجل القِدح والقِدحين فيأخذ فوزهما إن فازا، ويغرَم عنهما إن خابا، ويدعى ذلك التَّميم قال النابغة :

إنى أتممَ أيسارى وأمنحهم * من الأيادى وأكسو الجفنة الأدَما

فيعمد الى القداح ؛ فتُشدّ مجموعة فى قطعة جِلد ثم يعمد الى الحُرْضة فيلفّ على يده اليمنى ثوب لئلا يجد مَسّ قِدح له فى صاحبه هوى، فيحابيه فى إخراجه، ثم يؤتى بثوب أبيض يُدعى المِجْوَل، فيبسط بين يدى الحُرْضة، ثم يقوم على رأسه رجل يدعى الرقيب، ويدفع رِبابةَ القِداح الى الحُرْضَة وهو محوّل الوجه عنها، والربابة : ما يجمع فيها القداح، فيأخذها ويدخل شماله من تحت الثوب، فينكر القِداحَ بشماله، فإذا نهد منها قدح تناوله فدفعه الى الرقيب . فإن كان مما لا حظّ له رُدَّ الى الرِّبابة، فإن خرج بعده المُسْبِلُ، أخذ الثلاثة الباقية، وغرِم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور أخرى، وعلى هذه الحال يفعل بمن فاز ومن خاب، فربما نحروا عدة جزر ولا يغرَم الذين فازوا من ثمنها شيئا، وإنما الغرم على الذين خابوا ولا يحلّ للخائبين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئا، فإن فاز قِدحُ الرجل فأرادوا أن يعيدوا قدحه ثانية على خطار فعلوا ذلك به .

(٣٣)

ومنها : نكاحُ المقت : كان الرجل اذا مات قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيـه فورث نكاحها ، فإن لم يكن له فيها حاجة تزوجها بعض إخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون نكاح النساء كما يرثون المـال، فأنزل الله تعـالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) .

ومنها : رمى البعرة: كانت المرأة فى الجاهليّـة اذا توفى عنها زوجها، دخلَتْ حَفْشًا، والحَفْشُ : الخُصّ، ولبست شرَّ ثيابها ولم تمسَّ طِيبا ولا شيئا، حتى تمرَّ لها سنةٌ ثم تأتى بدابةٍ : حمـارٍ أو شاةٍ أو طيرٍ فتفتضُّ به أى تمسح به ، فقلّما تفتضّ بشيء إلا مات ، ثم تخرج على رأس الحول ، فتعطى بعرة فترمى بهـا ، ثم تراجع ما شاءت من طِيب أو غيرِه ومعنى رميها بالبعرة : أنها ترى أن هذا الفعل هيّن عليها مثل البعرة المرميّة، فنسخ الإسلام ذلك بقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ .

ومنها : ذبح العتائر ، قالوا : كان الرجل منهم يأخذ الشاة ، وتسمَّى العَتِيرة والمعتورةَ فيذبحها و يصبّ دمها على رأس الصنم، وذلك يفعلونه فى رجب، والعَتْرُ قيل : هو مثل الذبح، وقيل : هو الصنم الذى يعترله . قال الطرمّاح

* نخترصريعاً مثلَ عاترة النسك *

أراد بالعاترة : الشاة المعتورة .

عقد السَّلَع والعُشَرِ : وقد تقدم ذكره عند ذكر أسماء نيران العرب .

ذبح الظبى : كان الرجل ينذر أنه إذا بلغت إبله أو غنمه مبلغا فأذبح(١) عنها كذا، فإذا بلغت ضنّ بها، وعمد الى الظِّباء فيصطادها و يذبحها وفاء بالنذر، قال الشاعر:

عَتَّا باطلًا وزُورًا كما يُعْـ * ـتَرُ عن حُجْرة الرَّبيض(٢) الظباءُ

(١) لعله : «ذبح عنها» . (٢) الربيض : الغنم نفسها .

ومنها : حبس البلايا ، كانوا اذا مات الرجل يشدّون ناقته الى قبره ، ويعكسون رأسَها الى ذَنبها، ويغطّون رأسها بوَلِيَّة وهى : البردعة، فإن أفلتت لم تُرَدَّ عن ماء ولا مرعًى، ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك ، ليركبها صاحبها فى المَعاد، ليحشر عليها، فلا يحتاج أن يمشى؛ قال أبو زبيد :

كالبلايا رءوسها فى الولايا * مانحاتِ السَّمومِ حرَّ الخدودِ

ومنها : خروج الهامة ، زعموا أن الإنسان اذا قُتل، ولم يطالبْ بثأره، خرج من رأسه طائرٌ يسمّى : الهامة ، وصاح على قبره : اسقونى ! اسقونى ! الى أن يطلب بثأره ؛ قال ذو الإصبع :

يا عمرو إلّا تدعْ شتمى ومَنقصتى * أضربْكَ حتى تقول الهامةُ اسقونى

ومنها : إغلاق الظهر ، كان الرجل منهم اذا بلغت إبله مائة، عمد الى البعير الذى أمأت[1] به ، فأغلق ظهره لئلا يُركب ، ويعلم أن صاحبه حمى ظهره، وإغلاق ظهره أن ينزع سناسِنَ فقرته ويَعْقِرَ سنامَه .

ومنها : التعمية والتفقئة ، وكان الرجل إذا بلغت إبله ألفا فقأ أعين الفحل يقول : إن ذلك يدفع عنها العين والغارة ؛ قال الشاعر :

وهبتَها وأنت ذو آمتنانِ * تفقأ فيها أعينَ البُعرانِ

فإن زادت عن ألف فقأ العين الأخرى، فهو التعميَة .

ومنها : بكاء المقتول ، كان النساء لا يبكين المقتول إلا أن يُدركَ بثأره ، واذا أُدرك بثأره بكينه ؛ قال شاعر :

من كان مسرورا بمقتل مالكٍ * فليأتِ نسوتَنا بوجهِ نهارِ
يجد النساء حواسرا يندبنه * يلطمن حُرَّ الوجهِ بالأسحارِ

(١) أمأت به : صارت به مائة .

ومنها : رمى السن فى الشمس ، يقولون : إن الغلام اذا ثغر ، فرمى سِنّه فى عين الشمس بسبّابته وإبهامه وقال : أبدلينى أحسن منها ، أمن على أسنانه العوج ، والفَلَج ، والثَّعَل ؛ قال طرفة :

بدَتْـه الشمسُ من مَنِيتِهِ * بَرَدا أبيضَ مصقولَ الأُشُرْ

ومنها : خضاب النحر ، كانوا اذا أرسـلوا الخيل على الصّـيد فسبق واحد منها ، خضبوا صدرَه بدم الصّيد علامة له ؛ قال الشاعر :

كأن دماء العاديات بنحـره * عصارة حنّاءٍ بشيبٍ مرجَّلِ

ومنها : التصفيق ، كانوا اذا ضلّ الرجل منهم فى الفلاة ، قلَبَ ثيابه ، وحبس ناقته ، وصاح فى أذنها كأنه يومئ الى إنسان ، وصفق بيديه : الوحا الوحا ، النجا النجا ! هكيكل[1] ، الساعة الساعة ! الىّ الىّ ! عجّل ؛ ثم يحزك الناقة فيهتدى ؛ قال الشاعر :

وأذّن بالتصفيق من ساء ظنّـه * فلم يدرِ من أىّ اليدين جوابها

يعنى يسوء ظنّه بنفسه اذا ضل .

ومنها : جزّ النواصى ، كانوا اذا أسروا رجلا ، ومنّوا عليه فأطلقوه جزّوا ناصيته ووضعوها فى الكنانة ؛ قال الحطيئة :

قُدنا سَلولَ فسلُّوا من كنانتهم * مجدا تليدا ونبلا[2] غيرَ أنكاسِ

(١) هكذا فى أحد الأصلين الفتوغرافيين . وفى الأصل الآخر والنسخة الراغبية : «هيكل» .

(٢) ورد هذا البيت مع تفسيره هكذا فى الأصول ، وقد روى هذا البيت فى ديوانه (النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب تحت رقم ٣ أدب ش) وفى ترجمته فى الأغانى الجزء الثانى طبع دار الكتب ص ١٨٥ ضمن قصيدته فى هجو الزبرقان ومناضلته عن بغيض هكذا :

قد ناضلوك فسلوا من كنانتهم * مجدا تليدا ونبلا غير أنكاس

ورد فى لسان العرب مادة نكس :

قد ناضلونا فسلوا من كنانتهم * مجدا تليدا وعزا غير أنكاس

وفسره الأزهرى بأن العرب كانوا اذا أسروا أسيرا خيروه بين النخلة وجز الناصية والأسر فان اختار جز الناصية جزوها وخلوا سبيله ثم جعلوا ذلك الشعر فى كنانتهم فان افتخروا أخرجوه وأروهم مفاخرهم .

يعنى بالنبل : الرجالَ ؛ وقالت الخنساء :

جززنا نواصىَ فرسانهم * وكانوا يظنون ألّا تُجزَّا

ومنها : كى السليم عن الجَرِب ، زعموا أن الإبل اذا أصابها العُرُّ فأخذوا الصحيح وكووه زال العُرُّ عن السقيم ؛ قال النابغة : (٣٤)

وكلَّفتنى ذنبَ امرئ وتركته * كذى العُرِّ يُكوَى غيرُه وهوراتعُ

ويقال : إنهم كانوا يفعلون ذلك ، ويقولون : تؤمن معه العدوى .

ومنها : ضرب الثور ، وزعموا أن الجنّ تركب الثيرانَ فتصدّ البقر عن الشرب ؛ قال الأعشى :

وإنى وما كلَّفتُمانى وربُّكم * لَيَعلَمُ من أمسى أعقّ وأحوبا

لكالثور والجنىّ يركب ظهره * وما ذنبه إن عافت الماء مشربا

وما ذنبه إن عافت الماء باقر * وما إن تعاف الماء إلا ليُضرَبا

وقال آخر :

كذاك الثور يُضرب بالهَراوَى * اذا ما عافت البقرُ الظِّماءُ

ومنها : كعب الأرنب ، كانوا يعلّقونه على أنفسهم ويقولون : إن من فعل ذلك لم تصبه عين ولا سِحر ، وذلك أن الجنّ تهرب من الأرنب ، لأنها ليست من مطايا الجنّ لأنها تحيض ؛ قال الشاعر :

ولا ينفع التعشـــيرُ إن حُمّ واقع * ولا دَعْدَعٌ(١) يغنى ولا كعب أرنبِ

وقيل لزيد بن كُثْوَةَ : أحقٌّ ما يقولون : إن من علّق على نفســه كعبَ أرنب لم يقربْه جِنّانُ الحىّ وعُمّار الدار؟ فقال : إى والله ! ولا شيطان الحَمَاطة ــ الحماطة :

(١) كذا فى كتاب الحيوان للجاحظ ، ودعدع : كلمة يقولونها عند العثار . وفى الأصلين الفتوغرافيين : «عدع» وفى هامش إحداهما : «صــوابه دعع» . وفى النسخة الراغبية : « جدع » بالدال المهملة . وفى بلوغ الأرب للالوسى (ج ٢ ص ٣٤٨ طبع بغداد) : «زعزع» .

شجرة التين — وجان العُشرة، وغول القَفرة، وكلّ الخوافى ، إى والله يطفئ نيرانَ السَّعالى .

ومنها : حيض السَّمُرة ، يزعمون أن الصبى اذا خيف عليه نظرة أو خطفة، فعُلّق عليــه سنّ ثعلب، أو سنّ هرة، أو حيض سَمُرة أمن ، فإن الجنيّة اذا أرادته لم تقدر عليه، فاذا قال لها صواحباتها فى ذلك، قالت :

كانت عليــه نُفَرَهْ * ثعالبٌ وهِــرَرَهْ

* والحيض حيض السَّمُرَهْ *

ومنها : الطارف والمطروف ، يزعمون أن الرجل اذا طرف عين صاحبه، فهاجت فمسح الطارفُ عين المطروف سبع مراتٍ وقال فى كلّ مرة : بإحدى جاءت من المدينة، باثنتين جاءتا من المدينة، بثلاث جئن من المدينة، الى سبع سكن هيجانها.

ومنها : وطء المقاليت ، يزعمون أن المرأة المقلات اذا وطئت قتيــلا شريفا بقى أولادها، وفى ذلك يقول بشر بن أبى خازم :

تظلّ مقاليتُ النساء يطأنه * يقلن ألا يُلقَى على المرء مِئزرُ

ومنها : تعليق الحلى على السليم ، كانوا يعلّقون الحلَى على الملسوع ويقولون إنه اذا علّق عليــه أفاق ، فيلقون عليه الأسورة والرِّعاث، ويتركونها عليه سبعةَ أيام ويمنع من النوم، قال النابغة :

يُسهَّدُ فى وقت العشاءِ سليمُها * لحـلْى النســاءِ فى يديْهِ قَعاقعُ

ومنها : ذهاب الخَدَر، يزعمون أن الرجل اذا خدِرت رجلُه فذكر أحبّ الناس اليه ذهب عنه، قال كثير :

اذا خدِرتْ رِجلى دعوتك أشتفى * بذكراك من مَذْل بهــا فيهونُ

وقالت امرأة من كلاب :

اذا خدرتْ رِجلى ذكرتُ ابنَ مُصعب * فإن قلتُ عبـد الله أجلَى فتورُها

وقيل ذلك لابن عمر وقد خدرت رجله فقال : يا محمّداه .

ومنها : الحَلَأُ ، زعموا أنه اذا ظهرت بشفة الغلام بُثورٌ ، يأخذ مُنخُلا على رأسه ويمرّ بين بيوت الحىّ ، وينادى : الحَلَأُ الحلأ ، فيلقى فى منخله من هاهنا ثمرة ، ومن هاهنا كسرة ، ومن ثمّ بضعة لحم ، فإذا امتلأ ، نثره بين الكلاب ، فيذهب عنه البثر ، وذلك البَثْر يسمّى : الحَلَأ .

ومنها : التعشير ، يزعمون أن الرجل اذا أراد دخول قرية ، تخاف وباءَها ، فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشر كما ينهق الحمار ، ثم دخلها لم يصبه وباؤها ، قال عُرْوة بن الوَرْد :

لعمرى لئن عشّرت من خشية الردى * نُهاق الحمـير إننى لجزوعُ

ومنها : عقد الرَّتَم ، كان الرجل منهم اذا أراد سـفرا ، عمد الى رَتَم فعقده ، والرتم : نبت ، فإن رجع ورآه معقودا ، زعم أنّ امرأته لم تخنه ، وإن رآه محلولا زعم أنها قد خانته ، قال الشاعر :

هل ينفعنك اليوم إن هِمْتَ بهم * كثرة ما توصى وتعقـادُ الرَّتَمْ

وقال آخر :

خانته لمـا رأت شيبا بمَفرِقه * وغَرّه حَلفُها والعَقْـدُ للرَّتَم

ومنها : دائرة المهقوع ، وهو الفرس الذى به الدائرة التى تسمّى : الهَقْعَةُ ، يزعمون أنه اذا عرق تحت صاحبـه ، اغتلمتْ حليلتُـه وطلبتْ الرجال ، قال الشاعر :

اذا عَرِق المهقوعُ بالمرء أنعظتْ * حليلتُـه وازدادَ حَرًّا عِجانُها

ومنها : شقّ الرداء والبرقع ، زعموا أن المرأة اذا أحبّت رجلا أو أحبّها ثم لم تشقّ عليه رداءه ، و يشقّ عليها برقعها ، فسد حبّهما ، فاذا فعل ذلك دام حبّهما ، قال الشاعر :

اذا شُقّ بُرْدٌ شُقّ بالبُرْدِ بُرْقُعٌ * دَواليْك حتى كلُّنا غير لابِس

فكم قد شققنا من رداءٍ محبّرٍ * ومن برقع عن طَفلة غيرِ عانِس

ومنها : نوء السماك ، كانوا يكرهونه و يقولون فيه داء الإبل ، قال الشاعر :

ليت السماك ونوءَه لم يخلُقا * ومشى الأُفَيرقُ فى البلاد سليما

ومنها : النسيء ، وقد تقدّم خبره فى الفن الأوّل من الكتاب .

(٣٥) ومنها : وأد البنات ، وقد نهاهم الله عز وجل عنه فى قوله : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ . وكانوا يقتلونهنّ خشية الإملاق أو من الإملاق ، وقد قيل : إنهم كانوا يقتلونهنّ خوف العار أو أن يُسبيْنَ ، فمِنْ قتلهن خشية الإملاق ما رُوى عن صَعْصعة بن ناجية المُجَاشعى جدّ الفرزدق : أنه لما أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهليّة ، أفينفعنى ذلك اليوم ؟ قال : «وما عملك» ؟ قال : أضللت ناقتين عُشَراوَيْن ، فركبت جملا ومضيت فى بُغَائهما فرُفع لى بيت حريد (١) ، فقصدته فاذا رجل جالس بفنائه ، فسألته عن الناقتين ، فقال : ما نارهما ؟ قلت : مِيسَم بنى دارِم ، قال : هما عندى ، وقد أحيا الله تعالى بهما قوما من أهلك من مضر ، واذا عجوز قد خرجت من كِسْر البيت ، فقال لها : ما وَضَعتْ ؟ فان كان سَقْبا شاركنا فى أموالنا ، و إن كانت حائلا وَأَدْنَاهَا — معنى قوله سقبا أى ذكرا ، وحائلا أى أنثى — فقالت العجوز : وضَعتْ أنثى ، فقلت أتبيعها ؟

(١) الحريد : المعتزل المنحى عن الناس .

قال : وهل تبيع العرب أولادَها! قال قلت : آحتكم، قال بالناقتين والجمل، قلت : لك ذلك، على أن يُنقلنى[1] الجمل و إياها ففعل؛ فآمنت بك يا رسول الله، وقد صارت لى سُنَّةٌ على أن أشترى كلّ موءودة بناقتين عشراوين و جمل، فعندى الى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة قد أنقذتها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ينفعك[2] ذلك لأنك لم تبتغ به وجه الله تعالى و إن تعملْ فى إسلامك عملا صالحا تُثَبْ عليه" ففى ذلك يقول الفرزدق مفتخرا :

وجدى الذى منع الوائدين * وأحيا الوئيد فلم توءَدِ

وممن قتلهم خشية العار : قيس بن عاصم المنقرىّ وكان من وجوه قومه ومن ذوى الأموال فيهم وكان يئد بناته ، وسبب ذلك : أن النعمان بن المنذر لما منعته بنو تميم الإتاوة التى كانت تؤدّيها له جهّز اليهم أخاه الريّان بن المنذر، ومعه بكر بن وائل فغزاهم، فاستاق النَّعَم وسبى الذّرارى، فوفدت اليه بنو تميم فلما رآها أحب البقاء عليها، فقال النعمان :

ما كان ضرّ تميما لو تعمّدها * من فضلنا ما عليه قيس عيلان

فأناب القوم وسألوه النساء، فقال النعمان : كلّ آمرأة آختارت أباها ردّت اليه و إن آختارت صاحبها تُركتْ عليه، فكلّهن آخترن آباءهن إلا آبنة لقيس بن عاصم آختارت صاحبها عمرو بن المُشَمرَج، فنذر قيس لا يولد له آبنة إلا قتلها ، فاعتلّ بهذا مَن وأد وزعم أنه حميّة .

---

(١) كذا فى النسخة الراغبية . وفى باقى الأصول : «تبلغنى الجمل» وهو تحريف .

(٢) فى الأغانى (ج ١٩) فى الكلام على الفرزدق ، ساق أبو الفرج هذا القصة وقال فقال : هل لى فى ذلك من أجر يارسول الله فقال عليه السلام : «هذا باب من البر ولك أجره اذ منّ الله عليك بالإسلام» .

الباب الثالث

من القسم الثانى من الفن الثانى

فى أخبار الكهنة

ويتصل به الزجر والفأل والطِّيرةُ والفِراسة والذكاء، وكانت كهنة العرب لهم أتباع من الشياطين يسترقون السمع ويأتونهم بالأخبار، فيلقونها لمن يتبعهم ويسألهم عن خفيّات الأمور حتى جاء الإسلام، فمُنعت الشياطين من استراق السمع، كما أخبر الله تعالى عنهم فى كتابه العزيز: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ فعند ذلك انقطعت الكهانة فلم يسمع فى الإسلام بكاهن، وهذا من معجزات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوال الإشكال فى الوحى. فمن أخبار الكهنة: خبر سطيح الكاهن حين ورد عليه ابن أخته عبد المسيح وهو يعالج الموت، فأخبره خبر ما جاء لأجله، وذلك أنه لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى، وسقط منه أربع عشرة شُرفةً، وخمَدت نارُ فارس، ولم تكن خمدتْ قبل ذلك بألف عام، وغارت بحيرة ساوة، ورأى المُوبَذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلاد فارس، فلما أصبح [وأخبر] كسرى تصبّر تشجُّعا ثم رأى ألّا يكتم ذلك عن وزرائه ومَرازبته، فلبس تاجه، وقعد على سريره، وجمعهم وأخبرهم الخبر فبيناهم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النار فازداد غمًّا وسأل المُوبَذان وكان أعلمهم فقال: حادثٌ يكون من قِبَل العرب، فكتب كسرى الى النُّعمان بن المُنْذِر: أن وجّه الىَّ رجلًا عالما بما أريد أن أسأله عنه فوجّه إليه عبد المسيح بن حسّان بن نُفيلة الغسّانى، فقال له كسرى: أعندك علم بما أريد

أن أسالك عنه ؟ قال : ليخبرنى الملكُ فإن كان عندى منه علم ، وإلّا أخبرتُه بمن يُعلمه ، فأخبره بما رآه فقال : عِلْمُ ذلك عند خالٍ لى يسكن مشارف الشام يقال له : سَطِيح ، فأرسله كسرى اليه فورد على سطيح وقد أشفى على الموت فسلّم عليه وحيّاه فلم يُحِر سطيحٌ جوابا فأنشد يقول :

أصَمُّ أم يسمع غِطريفُ اليمنْ * أم فاز فأزلمٌ به شأوُ العَنَنْ
يا فاصل الخُطة أعيت مَن ومَنْ * وكاشفَ الكُربة عن وجه الغَضَنْ
أتاك شيخ الحى من آل سَنَنْ * وأمّه من آل ذئب بن حَجَنْ
أزرقُ مُمْهَى الناب صَرّار الأُذُنْ * أبيضُ فَضْفَاض الرِّداء والبدنْ
رسول قَيْل العُجم يَسْرِى بالوسنْ * لا يرهب الرعد ولا ريب الزمنْ
يجوب فى الأرض على ذاتِ شجنْ * ترفعنى وَجْنًا وتهوى بى وَجَنْ
حتى أتى عارى الحَاجى والقَطَنْ * تَلُفّه فى الريح بَوغاءُ الدِّمنْ
* كأنما حُثِحثَ من حِضْنىْ ثَكَنْ *

ففتح سطيح عينيه ثم قال : عبد المسيح ، على جَمَلٍ مُشيح ، أتى الى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك مَلِك بنى سَاسَان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا المُوبَذَان : رأى إبلا صِعَابا ، تقود خيلا عِرابا ، قد قطعتْ دِجلة وانتشرت فى بلاد فارس ، يا عبد المسيح اذا كثرت التلاوة ، وبُعِث صاحب الهِرَاوه ، وفاض وادى السماوه ، وغاضت بحيرة سَاوه ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاما ، ولا بابل للفرس مُقاما ، يملك فيهم ملوك وملِكات ، بعدد الشُّرُفات ، وكلّ ما هو آت آت ، ثم قضى سطيح لوقته ، فثار عبدُ المسيح الى رحله وهو يقول :

شَمِّر فإنك ماضى العزم شِمِّيرُ * لا يفزعنّك تفريقٌ وتغييرُ
إن كان ملك بنى ساسان أفرطهم * فإن ذا الدهر أطوارٌ دهاريرُ

فربّما ربّما أضحوا بمـــنزلة * تهاب صولَهم الأسدُ المهاصيرُ
منهم أخو الصَّرح بَهرام وإخوته * والهُرمُزان وسابورٌ وشـابورُ
والناس أولادُ عَلّاتٍ فمن علموا * أن قد أقلَّ فمحقورٌ ومهجورُ
وهم بنو الأمّ أمّا إن رأوا نشبا * فذاك بالغيب محفوظ ومنصورُ
والخير والشّر مقرونان فى قَرنٍ * فالخـير مُتَّبع والشرّ محـذورُ

فلمـا قص الخبر على كسرى قال : إلى أن يملك منا أربعة عشر تكون أمورٌ، فملك منهم عشرة فى أربع سنين ، وملك الباقون الى زمن عثمان رضى الله عنه .

ومن أخبارهم : أن سُعدى بنت كُرَيز بن ربيعة كانت قد تطرّقت وتكهّنت وهى خالة عثمان بن عفّان رضى الله عنهُ، روى عنه أنه قال : لمـا زَوّجَ النبىُّ صلى الله عليـه وسلم ابنته رُقيّـة من عُتبة بن أبى لهب وكانت ذات جمال رائع، دخلتنى الحسرة أو كالحسرة ألّا أكون سبقت اليها، ثم لم ألبث أن انصرفت الى منزلى فألفيت خالتى فلما رأتنى قالت :

أَبشِرْ وحيّيتَ نلانا تترَى * ثمّ ثلاثا وثـلاثا أُخرَى
ثمّ بأُخرى كى تتمّ عشـرا * أتاك خير ووُقيت شرّا
نكحت والله حَصانا زَهرا * وأنتَ بِكرٌ ولقيتَ بِكرا
وافيتها بنت نفيس قدرا * بنت نبىّ قد أشاد ذكرا

قال عثمان : فعجِبتُ من قولها، وقلتُ : ماذا تقولين؟ فقالت :

عثمان يابن أختَ يا عثمانُ * لك الجمـال ولك البيانُ
هـــذا نبىّ معه البرهانُ * أرسـله بحقّه الدّيّانُ
وجاءه التنزيل والفُـرقانُ * فاتبعْه لا تجتالك(١) الأوثانُ

(١) اجتاله : حوّله عن قصده ، ومنه اجتالتهم الشياطين أى صرفتهم عن هداهم الى ضلالتها .

فقلت : يا خالة ، إنك لتذكرين ما قد وقع ذكره فى بلدتنا فأثبتيه لى ، فقالت : إن محمد بن عبد الله رسولٌ من عند الله ، جاء بتنزيل الله ، يدعو الى الله ، مِصباحه مصباح ، وقولُه صلاح ، ودينه فلاح ، وأمرُه نجاح ، وقَرْنه نطّاح ، ذلّت له البطاح ، ما ينفع الصياح ، لو وقع الذباح ، وسُلّت الصِفاح ، ومدّت الرماح ، قال : ثم قامت فانصرفتُ ووقع كلامها فى قلبى ، وجعلت أفكّر فيه ، وذكر بعد ذلك إسلامه وتزويجه رقية ؛ فكان يقال : أنهما أحسن زوجين ٱتفاقا وجمالا .

ومنها أن هندا بنت عُتبة بن ربيعة كانت عند الفاكه بن المُغيرة ، وكان من فتيان قريش ، وكان له بيت الضيافة خارجا من البيوت ، تغشاه الناس من غير إذن ، فخلا البيتُ ذات يوم وٱضطجع هو وهند فيه ، ثم نهض لبعض حاجته ، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولَجه ، فلما رآها ولّى هاربا وأبصره الفاكه فأقبل اليها فضربها برجله وقال لها : من هذا الذى خرج من عندك ؟ قالت : ما رأيتُ أحدا ، ولا ٱنتبهتُ حتى أنبهتنى ! فقال لها : ٱرجعى الى أبيك ، وتكلّم الناس فيها ، فقال لها أبوها : يا بنيّة ، إن الناس قد أكثروا فيك ، فأنبئينى نبأك ، فإن يكن الرجل عليك صادقا دَسستُ عليه من يقتله ، فتنقطع عنك المقالةُ ، وإن يك كاذبا حاكمته الى بعض الكُهّان ، فقالت : لا والله ! ما هو علىّ بصادق ، فقال له : يا فاكه ! إنك قد رميتَ ٱبنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى الى بعض كُهّان اليمن ، فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عُتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ، ومعهم هند ونسوةٌ ، فلما شارفوا البلاد ، وقالوا : غدا نَرد على الرجل ، تنكّرتْ حالُ هند ، فقال لها عتبةُ : إنى أرى ما بك من تنكّر الحال ، وما ذاك إلّا لمكروه عندك ، فهلّا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا ! فقالت : لا والله ! ولكنّى أعرف أنكم تأتون بَشَرًا يخطئ ويصيب ولا آمنه أن يسمنى ميسما يكون علىّ سُبّةً فقال : إنى سوف أختبره لك ، فصفّر لفرسه

(٣٧)

حتى أدلى ثمّ أدخل فى إحليله حبّةَ حِنْطة وأوكأ عليها بسير، فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم، فلما تغدّوا قال له عتبة: قد جئناك فى أمر وقد خبأنا لك خبيئا أختبرك به، فانظر ما هو؟ فقال: ثمرةٌ، فى كَمَرَةٌ. قال: إنّى أريد أبين من هذا، قال: حَبّة برّ، فى إحليل مُهر، قال. آنظر فى أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول لها، آنهضى، حتى دنا من هند فقال لها: آنهضى غير رسحاء ولا زانية، ولتلدنّ ملكا آسمه معاوية؛ فنهض اليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبتْ يدَها من يده، وقالت. اليك عنّى فوالله لأحرصن أن يكون من غيرك؛ فتزوجها أبو سفيان.

ومنها: أن أميّة بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف الى المنافرة[1]، فقال هاشم: إنّى أنافرك على خمسين ناقة سود الحَدَق نحرها بمكة، أو إلجلاء عن مكّة عشر سنين، فرضى أميّة وجعلا بينهما الخُزاعىّ الكاهن وخرجا اليه ومعهما جماعة من قومهما فقالوا نخبأ له خبيئًا فان أصابه تحاكمنا اليه، وإن لم يصبه تحاكمنا الى غيره، فوجدا أبا هَمْهَمَة وكان معهم أطباق جُمجمة، فأمسكها معه ثم أتوا الكاهن فأناخوا ببابه وكان منزله بعُسْفان. فقالوا. إنا قد خبأنا لك خبيئا فأنبئنا عنه. قال: أحلفُ بالضَّوء والظلمة، وما بتهامة من تهمة، وما بنجدٍ من أكمه، لقد خبأتم لى أطباق جمجمة، مع الفَلَنْدَح أبى همهمة؛ فقالوا. صدقت آحكم بين هاشم بن عبد مَناف وبين أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف أيهما أشرف بيتًا ونَفْسًا، قال. والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجوّ من طائر، وما آهتدى بعَلَم مُسافر، من مُنجِد وغائر، لقد سبق هاشم أميّةَ الى المآثر، أوّلا منه وآخر، فأخذ هاشم

(١) المنافرة: المحاكمة فى الحسب.

الإبل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أميّة إلى الشام فأقام بها عشر سنين؛ فيقال : إنها أوّل عَداوة وقعتْ بين بنى هاشم وبين بنى أميّة .

ومنها : أن بنى كِلاب وبنى رِبَاب من بنى نَصْر خاصموا عبدَ المُطّلب فى مال قريب من الطائف فقال عبدُ المطّلب : المال مالى فسلونى أعطكم، قالوا: لا، قال: فاختاروا حاكمًا، قالوا : ربيعة بن حُذار الأسدىّ فتراضَوْا به وعقَلوا مائة ناقة فى الوادى وقالوا : الإبل والمال لمن حُكِم له ، وخرجوا وخرج مع عبدِ المطّلب حَرْبُ بن أميّة، فلما نزلوا بربيعة بعث اليهم بجزائر فنحرها عبدُ المطّلب، وأمر فصنع جزرا وأطعم من أتاه ، ونحر الكِلابيّون والنضريّون ووشَقوا[1]، فقيل لربيعة فقال: إنّ عبد المطلب امرؤ من ولَدِ خُزيمة فمتى يُمالِق يصلْه بنو عمّه، وأرسل اليهم أن اخبَثوا لى خبيئًا، فقال عبد المطّلب : قد خَبَأتُ كلبا اسمه سَوّار فى عنقه قِلادة، فى خرزة مَزادة ، وضمّتها بعين جَرادة، فقالوا الآخرون : قد رضِينا ما خَبَأتَ وأرسلوا إلى ربيعة، فقال : خبأ ثَمّ خبيئا حيًّا، قالوا : زد، قال : ذو بُرُن أغبر، وبَطْن أحمر، وظَهْر أنمر، قالوا : قربت، قال : سما فَسَطع، ثمّ هبط فلطع، فترك الأرض بَلْقَع، قالوا : قَرُبت فَطَبِّق، قال : عين جَرادة، فى خرزة مَزادة، فى عنق سوّار ذى القلادة قالوا : زه زه! أصبتَ فاحكم لأشدّنا طِعانا، وأوسعنا مَكانا، قال عبدُ المطلب : احكم لأولانا بالخيرات، وأبعدنا عن السوءات، وأكرمنا أمهات؛ فقال ربيعةُ : والغَسَق والشَّفَق، والخلق المتّفق، ما لبنى كلاب وبنى رِبَاب من حقّ، فانصرف يا عبد المطّلب على الصواب، ولك فصل الخطاب؛ فوهب عبد المطّلب المال لحرب بن أميّة .

(١) وشقوا من وشق اللحم : شرحه وقدّده .

وأخبار الكهنة كثيرةٌ نذكر منها إن شاء الله تعالى فى السيرة النبويّة جملة نقف عليها فى المبشرات برسول الله صلى الله عليه وسلّم وذلك فى السِّفْر الرابع عشر من كتاب الأصل .

الزَّجْـــر

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى زجر الطير : إنّ العلماء بهذا الفنّ قالوا : اذا خرجتَ من منزلك تطلب حاجةً ، أو تخطب امرأةً ، فنَعَب غرابٌ عن يمينك وعن يسارك أو سَنَح أو برح فامض فإنك مُدرِكٌ حاجتك إن شاء الله تعالى ، فإن نعب أمامَك أو فوقك فارجع ففيها تأخير .

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعب فوق رأسك فامض فإنك مُدرِكٌ حاجتك إن شاء الله تعالى .

(٣٨) فإن خرجتَ تطلب دابّةً فنعب عن يمينك أو يسارك على حائط مرتفع فامض لحاجتك ، فإن نَعَب أمامك فارجع .

وإن خرجتَ تطلب مالاً ضلّ عنك أو سُرق ، فنعَبَ غرابٌ على شجرة يابسة فلا تطلبه فقد استهلك وقد يأتيك بعضُه ، فإن نعب على جِدار جديد أو شجرة خضراء فإنك تصيب مالك إن شاء الله تعالى .

فإن خرجتَ تريد الضّالّ فنعَب من ورائك فارجع فليس لك فى ذلك خَيْرَة ، وإن نعب عن يسارك فإنى خائف على نفسك إلا أن يشاء الله .

فإن خرجت تريد الصيد فنعب من فوقك فارجع ، فإن نعب أمامك فامض فإنّك تدرك خيرا .

وإن خرجت تطلب سلطاناً فى طلب مال أو حاجة فنعب عن يمينك ثم طار ثم نعب أدركت منه طلبتك إن شاء الله تعالى .

وإن خرجتَ تريد شراء شيء فنعب عن يمينك فإنه صالح، وإن نعب عن يسارك فلا خير فيه .

وإن خرجتَ من منزلك فرأيت غراباً يمسح منقاره على الأرض فإنك تصيب أو تأتيك هديّة من مكان بعيد .

وإن خرجتَ تطلب حاجةً فنعَب عن يمينك ثم قطع الطريق الى يسارك فنعب فإنك تدرك حاجتك عجلا إن شاء الله تعالى ، فإن نعب فوق رأسك فارجع فإنى أخاف عليك بعض أعدائك .

وإن خرجت تريد سلطانا فنعب غراب وهو مستقبل الشرق فامكث يومك ذلك فإنى أخاف عليك .

فإن خرجتَ فرأيت غرابا ينفض ريشه، فإنه يأتيك خير عاجل .

وإن خرجتَ تريد أرضًا بعيدة فرأيتَ غرابا ينتفض فامض لحاجتك، فإنك تدرك أَملك إن شاء الله تعالى .

وإن خرجتَ تريد السلطانَ فوقع غرابٌ على شيء فنعب ثلاث مرّات فامض لحاجتك، فهو خيرٌ عاجل وتيسيرٌ للحوائج إن شاء الله تعالى .

وإن خرجتَ فرأيتَ غراباً ناشراً جناحيه يريد الطيران فامض، فإن نعب فارجع يومَك .

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعَب من فوقك فامض، وإن نعب فأجابه الآخر فهو جيّد صالح .

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعب من فوقك أو شَحج فامض ، فإنك تلق فى يومك ذلك ما تريد إن شاء الله تعالى .

وإن خرج جماعةً وفيهم رجل شريف فشحج[1] غرابٌ على رأس الشريف ، ثم أتوا ملكًا فإنهم يصيبون خيرا إن شاء الله تعالى .

وإن خرج يطلب حاجةً الى سلطان فواجهه غراب فليمكث يومه ذلك ولا يمض فى تلك الحاجة ، وإن نعب عن يمينه فقطع الطريق ثمّ وقع فهو يُدرك حاجتَه .

وإن خرج يريد السلطان أو بعث اليه وهو لا يدرى فرأى غرابًا يطير قليلا ثم يقع فيلقط من الأرض شيئا فليمض فإنّه يصيب سلطانًا ويلى قوما ، وإن رأى غرابًا يبحث فى الأرض فإنّ بعض أهله يموت سريعا ، وإن رآه ينقر فى الأرض فذلك ملك .

وإن خرج فرأى غرابًا يطير ثمّ وقع ثلاث مرات وهو ساكت لا ينعب ، فذلك غمّ يصيبه إلا أن يدفع الله عزّ وجلّ عنه .

وإن خرج فرآه ينتفض ثم ينعب ثم يطير فذلك سلطان يناله ويتزوج ، والعلم عند الله .

وإن خرج فرأى غرابا يطير ثمّ يقع فذاك خير وسرور يأتيه .

وإن خرج فرأى غرابًا يطير نحو عين الشمس فذاك همّ يصيبه شديد .

وإن خرج فلقى بقرا فليرجع فإن لقى من البغال شيئًا لم يركب فليرجع والمركوبة صالحة لا بأس بها .

وإن خرج يعود مريضا فنهق حمار عن يمينه أو عن يساره فالمريض صالح ، وإن نهق خلفه فقد اشتدّ بالمريض مرضه وأنا خائف عليه .

---

(١) فى الأصلين الفتوغرافيين : « سنح » بالحاء المهملة . وفى النسخة الراغبية : « شنح » وما أثبتناه هو الأنسب بالمقام . وشحج الغراب : غلظ صوته .

وإن خرج يريد حاجةً فاستقبله غلامٌ يبكى وهو متلطّخ بِعَـذِرَة وهو ذاهب والغلام راجع فليمض فإنّ حاجته تقضى ، وإن آستقبله غلام يعدو و يتلهّف فإن حاجته تعسر وتطول .

وإن خرج فى حاجته فرأى وَرَشانًا يطير، يرتفع ويَهبِط فليمض فإن ذلك أنجح لحاجته، وإن رآه يطير مستعليا فليرجع ، وإن رأى حمامة مسرولة تطير من فوق رأسه وتدور فإنّ حاجته مقضيّة بعد بطء ومَطْل ، وإن رأى حمامة هابِطةً واقعةً تقع وتطير فإنّ ذلك خير صالح وسرور إن شاء الله تعالى .

وإن خرج من منزله فآستقبلته جنازةٌ و جماعةٌ فليرجع يومَه ذلك، ولا يعود لحاجته فإنّها غير مقضية ، فإن كانت الجنازة قد جاوزته مُدْبِرة فليذهب لحاجته ، فإن ذلك صالح . وإن رأى نسوةً الى المقابر وهنّ مقبلات نحوه فليقعد حتى يمضين عنه فإنّه أنجح لحاجته، وإن رآهن مُدبرات فليمض فى حاجته فإنها مقضيّة .

(٣٩) وإن خرج من داره فرأى فى أرضها نملًا كثيرا وفى حائطها فليمض لحاجته فذلك خير وسرور يناله . فإن رأى ذُبابا كثيرا مجتمعا على حائط وهو يسمع لهنّ دبيبا فذاك مرض يصيبه فى بدنه أو يصيب بعضَ أهله . ومن رأى ذَرًّا كثيرا وقِردانًا فذلك فرح و رزق عاجل يناله إن شاء الله تعالى . ومن رأى دَجَاجتين تقتتلان بنقر بعضهما فذاك يدل على أنه يقع بينه و بين آمرأته كلامٌ وغضب .

وإن خرج من منزله فرأى وَرَشانين يقتتلان فى جوّ السماء رافعين وهابطين فيأتيه ما يُسرّ به، وإن رأى كلبة والكلاب تطوف حولها و يتبع بعضها بعضا : فإن كان عليه دين قضاه الله عنه، وإن كانت له حاجة مهمة قضيت فى وجهه ذلك، وإن أراد شيئًا يسّره الله له ، وإن أراد سفرا تهيّأ له ورجع سالما .

وإن خرج فرأى على رجل قِربة ثمّ انشقت فليرجع الى منزله ويتعوّذ بالله من شرّ ذلك اليوم فإنّه مكروه جدّا .

وإن خرج فرأى رجلًا وهو يريد أن يملأ قربةً فليمض فى حاجته فإنه فرح وسرور وخير يناله عاجلا إن شاء الله تعالى .

وإن خرج فرأى حمارا أو بغلا عليه راوية مملوءة فشأنه غير صالح وهو مكروه ، وإن كان صاحب الراوية يريد أن يملأها فليمض لحاجته مقضية إن شاء الله تعالى .

وإن خرج من منزله فرأى جملا عليه حطب أو بعض منافع الناس فهو من علامات النجاح فى الخصومة والظَّفَر العاجل إن شاء الله تعالى ، فإن رآه غير محمول عليه وعليه صاحبه فإنّ ذلك خير يأتيه وينعى اليه بعض أهله من مكان بعيد . قال : وأرجو أن يدفع الله ، فإن رآه مُناخا يَرْغو فإن ذلك خير يأتيه ويُخبر عن شىء ممّا يحبّ من تزويج أو غنيمة وهو صالح .

وإن خرج فرأى بعيرا قد شَرَد ورأى من يطلبه فإن ذلك نجاة من عدوّه وفرح قريب إن شاء الله تعالى .

وإن خرج فرأى بعيرا قد شرد فاجتمع عليه الناس فإن ذلك يدلّ على ظَفَره بعدوّه وانتقامه منه فليحمد الله على ما رأى ويشكره .

ومن خرج من منزله فرأى قِردًا يتقلّب والناس حوله فليمض لحاجته فإنّها مقضية .

وإن خرج فرأى القِرد يلعب والناس مجتمعون عليه وقد صار لعبه الى أن يتقلّب ظهرا لبطن فى الأرض فليرجع من وجهه ذلك فليس بموفّق وهو مكروه .

وإن خرج من منزله فرأى غلمانا يلعبون بالأكرة ويتسابقون فليمض فى وجهه ذلك فإنّه يصيب رفعةً وشرفاً وتمكّنا من السلطان ويصيب مالًا عظيما .

و إن خرج فرآهم يلعبون بالصوالجة فهو رفعة و يدلّ على مال ردىء حرام يصيبه من سلطان، و يركب أمرًا عظيما من عمله فليتق الله .

و إن رأى جوارىَ يلعبن بالطرق كأنهنّ يزففن عروسا فهو خير وسرور ودخول فى أمرٍ شريف وأنّه يربح ربحا عظيما، وهو خير الزجر .

و إن خرج فرأى عصفورين يلقطان الحبّ فهو صالح، و إن رآهما يتسافدان فهو خير يناله فى يومه، و إن رآهما مدبرين فليمض لحاجته فإنها مقضية إن شاء الله تعالى .

و إن خرج فتعلق بثوبه شىء فليرجع ؛ فإنى أكره له أن يذهب فى حاجته تلك .

و إن خرج فرأى حِدَأةً تسفِد حِدَأةً وهى تصيح فهو نجاح فليمض لحاجته .

و إن خرج فعثر فلا يذهبن فى تلك الحاجة وليؤخّرها .

ومن الزجر ما مخرجه مخرج الكِهانة .

فمن ذلك ما حكى أنّ أُميّة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفىّ، بينا هو يشرب مع إخوان له فى قصر عَيْلان بالطائف إذ سقط غرابٌ على شُرْفة القصر فنَعَب نعبة فقال أُميّة : بفيك الكَثْكَث أى التراب فقال له أصحابه : ما يقول؟ قال يقول : إنّك اذا شربتَ الكأس التى بيدك متَّ ، ثم نعب نعبة أخرى ، فقال أميّة كمقالته الأولى فقال أصحابه : ما يقول؟ قال : يزعم أنّه يقع على هذه المزبلة فى أسفل القصر فيستثير عظما فيبتلعه فيشجى به فيموت ، فوقع الغرابُ على المزبلة فأثار العظم وابتلعه فشجى فمات، فأنكر أمية ووضع الكأس من يده وتغيّر لونهُ فقال أصحابه : ما أكثر ما سمعنا مثل هذا وكان باطلا، وألحّوا عليه حتى شرب الكأس فمال فأغمى عليه ثم أفاق فقال : لا برىءٌ فأعتذر، ولا قوىٌّ فأنتصر، ثم خرجت نفسه .

وزعموا أن رجلا من كعب خرج فى جماعة ومعه سِقَاء من لبن فسار صدر يومه نعطش فأناخ ليشرب، فإذا غراب ينعب فأثار راحلتَه، ثم سار فلما أظهر أناخ

ليشرب، فنعب الغراب وتمرّغ فى التراب فضرب الرجل السِّقاء بسيفه فاذا فيه أسودُ[1] ضخمٌ فقتله، ثم سار فاذا غراب وقع على سِدْرة، فصاح به فوقع على سَلَمة، فصاح به فوقع على صخرة، فانتهى اليها فأثار كَنْزا، فلما رجع الى أبيه قال له : إيه ما صنعت ؟ قال : سِرتُ صدر يومى، ثم أنختُ لأشرب فنعب الغراب، قال أثِرْه و إلا فلست بابنى، قال : أثرته، ثم أنخت لأشرب فنعب الغرابُ وتمرّغ فى التراب، قال : اضرب السِّقاء و إلا فلست بابنى، قال : فعلتُ، فاذا أسود ضخم، قال : ثم مه ! قال : ثم رأيتُ غرابا على سِدْرة، قال : أطِرْه و إلا فلست بابنى، قال : فعلتُ فوقع على سَلَمة، قال : أطِرْه و إلا فلستَ بابنى، قال : فعلتُ فوقع على صخرةٍ، قال : أحْذِ[2] يا بنىّ ! فأحذاه

ومن الزجر : ما يُروى أن كسرى أبَرْويز بعث الى النبىّ صلى الله عليه وسلّم حين بُعِث زاجرا ومصوّرا وقال للزاجر : انظر ما ترى فى طريقك وعنده، وقال للمصوّر : ائتنى بصورته، فلما عاد اليه أعطاه المصوّر صورته صلى الله عليه وسلم فوضعها كسرى على وسادته، وقال للزاجر : ما رأيت ؟ فقال : لم أر ما أزجره حتى الآن وأرى أمره يعلو عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك .

وقيل : إن كُثَيِّرا تعشّق امرأةً من خُزاعة يقال لها : أمّ الحُويرث، فشبّب بها فكرهتْ أن يفضحها كما فضح عَزّة فقالت له : إنّك رجل فقير لا مال لك فابتغ مالا، ثم تعال فاخطبنى كما يخطبُ الكرامُ قال : فاحلفى لى ووثّقى أنّك لا تتزوّجين حتى أقدم عليك فحلفَتْ و وثّقت له، فمدح عبدَ الرحمن بن [ابريق][3] الأزدىّ وخرج اليه، فلقى ظباءً سوانح، ولقى غُرابًا يفحص التراب بوجهه، فتطيّر من ذلك حتى قدم على حىّ من لِهْب فقال : أيّكم يَزجُر ؟ قالوا : كلّنا، فمن تريد ؟ قال : أعْلَمكم بذلك،

(١) الأسود : العظيم من الحيات . (٢) أحذاه من الغنيمة : أعطاه منها .
(٣) الزيادة عن الأغانى، وفى الأصل بياض .

قالوا : ذلك الشيخ المنحنى الصُلْب، فأتاه فقصّ عليه القصّة فكرِه ذلك له وقال : قد ماتت أو تزوّجت رجلا من بنى عمّها، فقال كثيّر :

تيمّمتُ لِهْبا أبتغى العِلمَ عندهم * وقد رُدّ علمُ العائفين[1] الى لِهْبِ
تيممتُ شيخا منهمُ ذا بَجَالة[2] * بصيرًا بزجر الطير مُنحنىَ الصُّلْبِ
فقلتُ له ماذا ترى فى سوانح * وصوتِ غرابٍ يفحص الوجه بالتربِ
فقال جرى الطير السنيح بينها * ونادى غرابٌ[3] بالفراق وبالسابِ
فإلّا تكن ماتت فقد حال دونها * سواك خليل باطن من بنى كعبِ

قال : ثم مدح الرجل الأزدىّ فأصاب منه خيرًا، ثم قدِم عليها فوجدها قد تزوّجتْ رجلًا من بنى عمّها فأخذه الهُلاس[4] فكُشِح جنباه بالنار، فلمّا اندمل من علّته ووضع يده على ظهره فاذا هو برقمتين فقال : ما هذا؟ قالوا : أخذك الهُلاس وزعم الأطباء أنّه لا علاج لك إلا بالكَشْح بالنار فكُشِحتَ بها، فانشأ يقول :

عفا الله عن أمّ الحويْرث ذنبَها * علام تعنّينى وتَكْوِى دوائيا
ولو آذنونى قبل أن يرقموا بها * لقلتُ لهم أمّ الحويرث دائيا

وحُكى أن صاحب الروم بعث الى النبىّ صلى الله عليه وسلم رسولا وقال له : انظر أين تراه جالسا، ومنَ الى جانبه، وانظر مابين كَتِفيه حتى الخاتمَ والشامةَ، فقدم ورسول الله صلى الله عليه وسلم على نَشْز واضعا قدميه فى الماء، وعن يمينه علىٌّ عليه السلام ؛ فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال : " تحوّل فانظر ما أُمرتَ به " فنظر

(١) كذا فى الأغانى وبلوغ الأرب، وفى الأصول : «العاشقين» . وهو تحريف .
(٢) البجالة : الشرف والسيادة .
(٣) كذا فى بلوغ الأرب للآلوسى . وفى الأصل والأغانى : * وقال غراب جد منهمر السكب *
(٤) الهلاس : الدقة والضمور ومرض السل .

ثم رجع الى صاحبه فأخبره الخبر، فقال : ليعلونّ أمرُه وليملكنّ ما تحت قدمى وقال : بالنَّشْز : العُلو، وبالمـاء الحياة .

ومن الزجر: ما رُوى عن أبى ذُؤَيب الهُذَلىّ قال: إنّه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل فأوجس أهل الحىّ خِيفةً عليه فبتُّ بليلة ثابتة النجوم طويلة الأناة لا ينجاب ديجورها ولا يَطْلُع نورها حتى اذا قَرُب السَّحَر غفوتُ فهتف لى هاتف يقول :

خَطْبٌ أجلُّ أناخ بالإسـلام * بين النُّخَيْـل ومَعْقِـد الآطامِ

قُبِض النـبىّ محمد فعيوننـا * تذرى الدموعَ عليـه بالتّسجامِ

قال أبو ذؤيب : فوثبتُ من نومى فزعًا، فنظرتُ الى السماء فلم أر إلّا سعد الذابح، فتفاءلْتُ به ذبحا يقع فى العرب، وعلمت أن النبى صلى الله عليه وسلم قد مات أو هو ميّتٌ من علّته، فركبتُ ناقتى وسرتُ حتى أصبحتُ، فطلبتُ شيئا أزجره، فمرّ لى شَيْهَمٌ(١) قد قبض على صِلّ(٢) وهو يتلوّى عليه والشيهم يقضمُه حتى أكله، فزجرتُ ذلك [وقلت : شيهم](٣) شىءهم، وتلوّى الصِّلّ أنفتال الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أوّلت أكل الشيهم إياه : غَلَبَةَ القائم على الأمر، فحثثتُ ناقتى حتى اذا كنت بالعُلَيّة زجرتُ الطير فأخبرنى بوفاته . ونعب غراب سانحا بمثل ذلك فتعوّذتُ من شرّ ما عنّ لى فى طريق، ثم قدِمتُ المدينةَ ولأهلها ضجيج كضجيج الحَجيج أهلّوا جميعا بالإحرام، فقلتُ : مه ! قالوا قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فحثثتُ المسجدَ فأصبته خاليًا فأتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم فأصبتُ بابه مُرْتجا وقد خلا به أهلُه، فقلت : أين الناس ؟ فقيل : فى سَقِيفة بنى سَاعِدة صاروا الى الأنصار فحثثتُ السقيفةَ فوجدتُ أبا بكر، وعمر رضى الله عنهما، وأبا عُبَيْدة، وسَالمًا،

(١) الشيهم : ذكر القنفذ . (٢) كذا فى بلوغ الأرب (ج ٣ ص ٣٢٦) . وفى الأصل : قد أرم . (٣) الزيادة عن بلوغ الأرب .

وجماعةٌ من قريش، ورأيت الأنصارَ فيهم سَعْد بن عُبَادة، ومعهم شُعراؤهم، وأمامهم حسّانبن ثابت، وكَعْب فى مَلإ منهم، فأويتُ الى الأنصار فتكلّموا فأكثروا، وتكلّم أبو بكر فلله من رجل لا يُطيل الكلام ويعلم مواضعَ الفصل! والله لتكلّم بكلام (٤١) لم يسمعه سامعٌ إلا آنقاد له ومال اليه؛ وتكلّم بعده عمرُ رضى الله عنه بكلام دون كلامه، ومدّ يده فبايعه؛ ورجع أبو بكر رضى الله عنه ورجعتُ معه، فشَهِدتُ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهِدت دفنه. قال: ولقد بايع الناس من أبى بكر رجلا حلّ قُداماها ولم يركب ذُناباها، وآنصرف أبو ذؤيب الى باديته وثبت على إسلامه.

ومنه: ما روى عن مُصْعَب بن عبد الله الزُّبيرىّ أنه حَدّث عن رجل قال: شَرَدتْ لنا إبلٌ فأتيتُ حُليسا الأسدىّ فسألتُه عنها؛ فقال لبنت له: خُطّى، فخطّتْ ونظرت ثمّ آنقبضت وقامت مُنصَرِفَةً، فنظر حليس فى خطّها فضحك وقال: أتدرى لم قامت؟ قلت لا، قال: رأت أنك تجد إبلك وأنّك تتزوّجها فآستحيت فقامت، فخرجتُ فأصبتُ إبلى ثمّ تزوّجتُها بعد.

الفأل والطِّيَرَة

حُكى أنه لما وُلِد لسعيد بن العاص عَنْبَسة قال سعيد لآبنه يحيى: أىّ شىء تُنْحِله؟ قال: دجاجة بفراريجها، وإنما أراد آحتقاره بذلك لأن أمّه كانت أمَةً، فقال سعيد: إن صدق الطيرُ ليكوننّ أكثركم ولدًا؛ فكان كذلك.

لما طلب عامر بن إسماعيل مَرْوان بن محمّد آعترضه بالفيّوم قومٌ من العرب فسأل رجلًا: ما آسمك؟ فقال: منصور بن سعد، وأنا من سعد العشيرة، فتبسم تفاؤلًا به وتيمّنًا، وآستصحبه فظفر بمروان تلك الليلة.

ومن الطِّيَرة ما حكى عن بعضهم قال : حضرتُ الموقِفَ مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فصاح به رجلٌ من خلفه : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، فقال رجل من خلفـه : دعاه بأسم ميت ، مات والله أمير المؤمنين ، ولا يَقف هـذا الموقف أبدا ، فالتفتَ اليـه فاذا هو اللَّهْبِيُّ ، فقُتِل عمر قبل الحول .

وحكى أنّ عمر رضى الله عنه ، خرج الى حَرّة واقِم ، فلقى رجلا من جُهينة ، فقال له : ما أسمك؟ قال : شِهاب ، قال : أبن من؟ قال : أبن جَمْـرة ، قال : وممن أنتَ؟ قال : من الحُرَقة ، قال : ثم ممن ؟ قال : من بنى ضِرام ، قال : وأين منزلك ؟ قال : بحَرّةِ ليـلى ، قال : وأين تريد ؟ قال : لظى ! وهو موضع ، فقـال عمر : أدرِك أهلك ، فما أراك تُدركهم إلا وقد أحترقوا . قال : فأدركهم ، وقد أحاطت بهم النار .

وقال المدائنىّ : وقع الطاعونُ بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان فخرج هاربا منه فنزل قريةً من الصعيد يقال لها : سُكَّر[1] ، فقدِم عليه حين نزلها رسولٌ لعبد الملك ، فقال له عبـد العزيز : ما أسمك؟ قال طالب بن مُدْرِك ! فقال : أوّه ! ما أرانى راجعا الى الفُسطَاط أبدا ، ومات فى تلك القرية

وقيل : بينا مروان بن محمد فى إيوان له يُنَفِّذ الأمورَ ، فانصدعتْ زُجاجةُ الإيوان ، فوقعت الشمسُ منهـا على مَنْكب مروان وكان هناك عَيّاف فقال : صَدْعُ الزُّجاج أمر منكر على أمير المؤمنين ، ثم قام فاتّبعه ثَوْبان مولى مروان . فقال له : ويحك!

(١) كذا فى أحد الأصلين الفتوغرافيين ومعجم ياقوت فى احدى روايته والأغانى (ج ١ ص ٣٦٠ طبع دار الكتب المصرية . وفى رواية أخرى لياقوت وتاريخ الإسلام للذهبى والنجوم الزاهرة والكندى أنه نزل الى حلوان قرب مصر ومات بها . وفى الأصل الآخر الفتوغرافى : «شكر» بالشين المعجمة وهو تحريف .

ما قلت ؟ قال . قلتُ : صَدْعُ الزجاج صدع السلطان، ستذهب الشمسُ بُملك مروان، بقوم من الترك أو خُراسان: ذلك عندى واضح البرهان . قال : فما ورد لذلك شهران حتّى ورد خبرُ أبى مُسلم .

وقال إبراهيم بن المَهْدىّ : أرسل الىَّ محمد الأمينُ فى ليلة مُقْمرة من ليالى الصيف فقال: يا عَمّى! إن الحرب بينى وبين طاهر قد سكنت فصر الىّ فإنى اليك مشتاق لخِدْنُه وقد بُسِط له على سطح ، وعنده سليمان بن جعفر ، وعليه كِساءٌ رُوذَبارِى ، وقَلَنْسوة طويلة ، وجواريه بين يديه ، وضعف جاريته عنده . فقال لها : غنّينى فقد سُررتُ بعمومتى ، فاندفعتْ تغنّيه :

هُمُ قتلوه كى يكونوا مكانَه * كما فعلتْ يوما بكِسرَى مَرَازِبُهْ

بنى هاشم كيف التَّواصُل بيننا * وعند أخيه سيفُه ونجائبُهْ

هكذا غنّته ، وإنما هو :

* وعند علىّ سيفه ونجائبه *

فغضب وتطيّر ، وقال : ما قِصّتُك ؟ ويحك ! غنّينى ما يسرّنى ؛ فغنّتْ :

هــذا مقام مُطَرَّدٍ * هُدِمتْ منازله ودورُهْ

فازداد تطيّرا ، ثم قال : ويحك ! انتهى وغنّى غير هذا ، فغنّت :

كُلَيْب لعمرى كان أكثرَ ناصرًا * وأيسر جُرمًا منك ضُرّج بالدّمِ

فقال لها : قومى الى لعنة الله ، فوثبت ، وكان بين يديه قَدَح بِلّور وكان لحبه إيّاه يسمّيه محمدا باسمه ، فأصابه طَرَفُ ذيلها فسقط على بعض الصوانى فانكسر ؛ فأقبل علىّ وقال : أرى والله يا عمّ أن هذا آخر أمرنا ، فقلت : كلّا ! بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويسرّك . قال : ودِجلةُ والله هادئة ما فيها صوت مِجداف ، ولا أحد يتحرك ؛ فسمعتُ هاتفًا يهتف : (قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) قال فقال لى :

سمعتَ يا عمّ؟ فقلتُ: وما هو؟ وقد والله سمعتُه، فاذا الصوت قد عاد، فقال: آنصرف بيّتك اللهُ بخيرٍ فمحال ألّا تكون الآن قد سمعتَ ما سمعتُ، فانصرفت وكان آخر العهد به. (٤٢)

وشبيه بهـذا ما حكى عن عَلُّويَه المغنى قال: كنتُ مع المأمون لما خرج الى الشام، فدخلنا دِمَشق فطفنا فيها، وجعـل يطوف على قصور بنى أميّـة، ويتتبّع آثارهم، فدخلنا صحناً من صحونهم، مفروشًا بالرخام الأخضر، وفيه بِرَكة ماء فيها سمك، وأمامها بستان، فاستحسن ذلك وعزم على الصَّبُوح ودعا بالطعام والشراب، وأقبل علىَّ فقال: غنّنى ونشّطنى، فكأن الله تعالى أنسانى الغناء كله إلا هـذا الصوت من شعر عبد الله بن قيس الرُّقيّات:

لو كان حولى بنو أميـة لم * تنطِق رجالٌ أراهمُ نطقـوا
من كلّ قَرْمٍ محضٍ ضرائبه * عن مَنْكِبيه القميص يخرقُ

قال: فنظر الىّ مُغْضَبًا، وقال: عليـك وعلى بنى أميّة لعنـة الله، ويلك! أقلت لك سُرَّنى أو سؤْنى؟ ألم يكن لك وقت تذكر فيـه بنى أميّـة إلا هذا الوقت تُعرّض بى؟ فتجلّدتُ عليه وعلمتُ أنّى قد أخطأتُ، فقلت: أتلومنى على أن أذكر بنى أميّة! هـذا مولاكم زِرْياب عنـدهم يركب فى مائتى غلام مملوك له، ويملك ثلثمائة ألف دينار [وهبوها له سوى الخيل والضِياع والرَّقيق (١)]: وأنا عندكم أموت جوعا، فقال: أو لم يكن لك شيء تذكّرنى به نفسك غير هـذا؟ فقلت: هكذا حضَرَنى حين ذكرتُهم، فقال: أعرض وتنبّه على إرادتى وغنّ فانسانى الله كلّ شيء أُحسِنه إلا هذا الصوت:

الحينُ ساق الى دِمَشق وما * كانت دمشـقُ لأهلنا بلدا
قادتك نفسك فاستقدت لها * وأرتك أمرَ غَوايةٍ رَشَـدا

(١) الزيادة عن الأغانى.

فرمانى بالقـدح فأخطأنى وانكسر القدح ، وقال : قم الى لعنـة الله وحَرّ سَـقَر ! فركب ؛ وكانت تلك الحال آخر عهدى به حتى مرض ومات بعد ذلك بقليل .

ومثل ذلك ما حكى فى قِتْلة المتوكل ، وذلك أنه جلس يوم الأربعاء لأيام خلون من شوّال سنة تسع وأربعين ومائتين ، وقال للفتح بن خاقان : أحبّ أن نصطبح ؛ فأحضَر المغنّين وفيهم أحمد بن أبى العلاء فقال له : غنّ ، فغنّى :

يا عاذلَىّ مِن المـلام دعانى * إنّ البليّـة فوق ما تصفانِ
زعمتْ بُثينة أنّ فرقتنا غدا * لا مرحبا بغدٍ فقد أبكانى

فتطيّر المتوكّل منه ، وقال : أحمد ، كيف وقع لك أن تغنّى بهذا الشعر ! قال : فشُغِل قلبُ آبن أبى العلاء لمـا أنكر عليه ، ثم ذهب ليغنّى غيره ، فغنّاه ثانية ، فقال المتوكّل : نسأل الله خير هذا اليوم ، وصرف المغنّين وقام لصلاة الظهر ، فلمّا فرغ قال له الفتح : يا سيّدى أتمّ يومك ، فدعا بالشراب وقال : أين آبن أبى العلاء ؟ فأُحضر فقال له : غنّ ، فاغمى عليه فأعاد البيتين فاغتمّ المتوكّل غاية الغمّ ، وقُتـل فى الليلة الآتية من ذلك اليوم .

قال القـاضى أبو على الجُوينىّ : حضرتُ بين يدى سيف الدولة أبى الحسن صَدَقَة بن منصور بن دُبَيْس ، وابنه أبو المكارم محمد اذ ذاك مريض مرضه الذى مات فيـه ، وقد أُتى بديوان أبى نصر بن نُباته فتصفّحه فوقع بيـده : وقال يعزّى سيف الدولة أبا الحسن ويرثى ابنـه أبا المكارم محمدا ، فأخذتُ المجلّد وأطبقتُه فعاد فتصفّحه فخرج ذلك ، ومن القصيدة التى عناها قوله :

فإنّ بَمِيّا فارِقين حُفَـيْرةً * تركنا عليها ناظر الجود داميا
تضمّنها أيدى فتًى ثكلتْ به * غداةَ ثَوَى أمالُنـا والأمانيا
ولمّـا عدمنا الصبرَ بعد محمد * أتينا أباه نستفيد التعازيا

وحكى أنّ أبا الشَّمَقْمَق شَخَص مع خالد بن يزيد بن مَزيد وقد تقلّد المَوْصِل ، فلما أراد الدخول اليها آندقّ لواؤه فى أوّل درب منها ، فتطيّر من ذلك وعظُم عليه ، فقال أبو الشمقمق :

ما كان مندقَّ اللواء لِريبةٍ * تُخشَى ولا أمرٍ يكون مبدَّلا
لكنّ هـذا الرمح ضَعّف متنَه * صِغَرُ الولاية فاستقلّ المَوْصلا

فسُرّى عن خالد . وكتب صاحبُ البريد بذلك الى المأمون ، فزاده ديارَ ربيعة وكتب اليه : هذا التضعيف المُوصِل متن رمحك . فأعطى خالدٌ أبا الشمقمق عشرة آلاف درهم .

وقيل : لمّا توجّه المسترشدُ للقاء السلطان مسعود بن محمد بن مَلِكْشاه السلجوقىّ ، وقع على الشمسية التى تُرفع على رأسه طائرٌ من الجوارح وألحّ ، كلما نُفّر عاد ، فتفاءل الناس له بذلك وسُرّ هو به ، فقال إنسان يُعرَف بمَلِكْدار : هذا جارح ومنقبض الكف وليس فيه بُشرى بل ضدّها ، وأقبل السلطانُ فى جيشه فكانت الكسرة وقُبِض على المسترشد وقُتِل من بعد .

خرج بعضُ ملوك الفُرس الى الصيد ، فكان أوّل من آستقبله أعورُ فأمر بضربه وحبسه ، ثم خرج وتصيّد صيدًا كبيرا ، فلمّا عاد آستدعى الأعورَ وأمر له بصِلَة ، فقال الأعور : لا حاجة لى فى صلتك ، ولكن آئذن لى فى الكلام ، فقال : تكلّم ! قال : لقيتنى فضربتنى وحبستنى ، ولقيتك فصدتَ وسَلِمتَ فأيّنا أشأم ؟ فضحك وخلاه .

الفراسة والذكاء

يقولون : عظم الجبين يدلّ على البَلَه ، وعَرْضُه يدلّ على قلة العقل ، وصِغَره على لُطف الحركة ، والحاجبان اذا آتصلا على آستقامة دلّا على تخنيث وآسترخاء ، واذا

تزجّجا نحو الصُّدغين دلّا على طَنْزٍ[1] واستهزاء، والعين اذا كانت صغيرة الموق دلّت على سوء دِخلة وخُبث شمائل، واذا وقع الحاجب على العين دلّ على الحسد ؛ والعين (٤٣) المتوسطة فى حجمها دليل فطنة وحسن خُلق ومروءة، والناتئة على اختلاط عقل، والطائرة على حِدّة، والتى يطول تحديقها على حُمْق وحُمْق، والتى تكسّر طَرْفُها على خفّة وطيش ؛ والشَّعر على الأذن يدلّ على جودة السمع ؛ والأُذن الكبيرة المنتصبة تدلّ على حمق وهَذَيان .

وحُكى أن أبا موسى الأشعرى وجّه السائب بن الأقرع فى خلافة عمر بن الخطّاب رضى الله عنه الى مِهْرَجا نُقَذَق[2] ففتحها ودخل دار الهُرْمُزان بعد أن جمع السبىَ والغنائم، ورأى فى بعض مجالس الدار تصاوير فيها مثال ظبىٍ وهو مشير بإحدى يديه الى الأرض، فقال السائب : لأمرٍ مّا صُوّر هذا الظبىُ هكذا ، إن له لشأنا، فأمر بحفر الموضع الذى الإشارة اليه فأفضى الى موضع فيه حوض من رخام ، فيه سَفَطُ جوهر فأخذه السائبُ وخرج به الى عمر رضى الله عنه .

وقيل : كان المعتضد يوما جالسا فى بيت يُبنى له وهو يشاهد الصُّنّاع فرأى فى جملتهم عبدا أسود منكر الخَلْق، شديد المَرَح، يصعد على السلاليم مرقاتين مرقاتين ويحمل ضِعْف ما يحمل غيرُه ، فأنكر أمرَه ، وأحضره وسأله عن سبب ذلك ، فلجلج فقال لوزيره : قد تَحَمّنتُ فى هذا تخميناً ما أحسبه باطلا، إمّا أن يكون معه دنانير قد ظفر بها من غير وجهها ، أو لِصّا يتستّر بالعمل ، ثم قال : علىّ بالأسود فأحضره وضربه، وحلف إن لم يصدقه ليضربنّ عنقه ، فقال الأسود : ولى الأمان يا أمير المؤمنين ، قال : نعم ! إلّا ما كان من حدّ، فظن أنه قد أمّنه ، فقال : كنت أعمل فى أتّون الآجُرّ ، منذ سنين فأنا منذ شهور جالس إذ مرّ بى رجل فى وسطه

(١) الطنز : السخرية. (٢) كورة ذات مدن وقرى عن يمين القاصد من حلوان العراق الى همذان.

كيس فتبعتُه وهو لا يعرف مكانى، فحلَّ الهميان وأخرج منه دينارا فتأملتهُ فاذا كله دنانير، فكتفتُهُوسددتُ فاه وأخذت الهميان وحملتهُ على كتفى وطرحته فى التنّور وطيّنتُ عليه، فلما كان بعد أيام أخرجتُ عِظامه وطرحتها فى دجلة، والدنانير معى تقوّى قلبى، قال : فأرسل المعتضد من أحضر الدنانير، واذا على الكيس : لفلان بن فلان، فنادى فى المدينة، فحضرت آمرأته وقالت : هذا زوجى وقد ترك طفلا صغيرا، خرج فى وقت كذا ومعه كيس فيه الف دينار، فغاب الى الآن، فسلّم الدنانير اليها وأمرها أن تعتدّ، وضرب عنق الأسود وأمر أن يوضع فى الأتون.

وقيل : جلس المنصور فى إحدى قباب المدينة فرأى رجلا ملهوفا مهموما يجول فى الطُّرُقات، فأرسل من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره أنّه خرج فى تجارة فأفاد مالا ورجع الى منزله به، فدفعه الى آمرأته، فذكرت المرأةُ أن المال سُرِق ولم ير نَقْبًا ولا تسلّقا، فقال له المنصور : منذ كم تزوّجتَها ؟ قال : منذ سنة، قال : فبكرًا أو ثَيِّبًا؟ قال : ثيّبًا، قال : فلها ولد من سواك؟ قال : لا، قال : شابّة أم مسنّة؟ قال : شابّة، فدعا المنصور بقارورة طِيب، وقال : تطيّب بهذا، فهو يذهبُ همّك، فأخذها وآنقلب الى أهله، ثم قال المنصور لأربعة من ثِقاته : آقعدوا على أبواب المدينة، فمن مرّ بكم وعليه شىء من هذا الطِّيب فأتونى به، وأشمهم من ذلك الطِّيب، ومضى الرجلُ بالطِّيب، فدفعه الى آمرأته وقال : وهبه لى أمير المؤمنين، فلمّا شمّته بعثتْ به الى رجل كانت تحبّه وقد كانت دفعتْ اليه المال فتطيّب به، ومرّ مجتازا ببعض الأبواب، فأُخذ وأُتى به الى المنصور، فقال له : من أين آستفدتَ هذا الطيب؟ فلجلج لسانه، فسلّمه الى صاحب شرطته وقال : إن أحضر الدنانير و إلا فاضربه ألف سوط، فما هو إلا أن جُرّد وهُدِّد، فأحضر الدنانير على حالتها فأُعلم المنصورُ بذلك، فدعا صاحبَ الدنانير وقال : أرأيتك إن رددتُ عليك متاعَك بعينه أتحكّمنى فى آمرأتك؟ قال : نعم! قال : خذ دنانيرك وقد طلّقتُ آمرأتك وخبّره الخبر.

ودخل شَرِيك بن عبد الله القاضى على المهدىّ فأراد أن يبخّره فقال للخادم : ائتِ القاضى بعُود، فذهب فجاء بالعود الذى يُلْهَى به ، فرضعه فى حجر شريك ، فقال شريك : ما هـذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : عود أخذه صاحبُ العَسَس البارحة فأحببنا أن يكون كسره على يد القاضى ، فقال شريك : جزاك اللهُ خيرا يا أمير المؤمنين ، ثم ضرب به الأرضَ فكسره ثم أفاضوا فى حديث آخر حتى نُسى الأمر ، ثم قال المهدىّ لشريك : ما تقول فيمن أمر وكيلًا له أن يأتى بشىء فجاء بغيره فتَلِف ذلك الشىءُ؟ فقال : يَضْمَن يا أمير المؤمنين ، فقال للخادم : اضمن ما تلِف .

الباب الرابع

من القسم الثانى من الفن الثانى

فى الكنايات والتعريض

والكنايات لها مواضع ؛ فأحسنها العُدول عن الكلام القبيح الى ما يدُلّ على معناه فى لفظ أبهى منه . ومن ذلك أن يُعظِّم الرجل فلا يُدعى باسمه ويُكنى بكُنيته ، أو يكنى باسم ابنه صيانة لاسمه ، وقد ورد فى ذلك كثير من آى القرآن فمنها قوله تعالى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ أى كنّياه . وقد كَنَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه : بأبى تراب ؛ وقال البحترىّ :

يتشاغفن (١) بالغرير المسمَّى * من تصابٍ دون الجليل المكنَّى

(١) كذا فى ديوان البحترى طبع الأستانة سنة ١٣٠٠ هـ (ص ٢٣١ ج ١) . وفى الأصول : يتشاغفن بالصغر المسمّى * موضعات وبالكبير المكنّى .

وهذا يدل على أن المراد بالكنية التبجيل؛ وقول ابن الرومى[1] :

بكت شجوها الدنيا فلما تبيَّنتْ ٭ مكانك منها استبشرت وتثنَّتِ
وكان ضئيلا شخصها فتطاولتْ ٭ وكانت تسمَّى ذِلةً فتكنَّتِ

وقال أبو صخر الهذلى :

أبى القلب إلا حُبَّـــهُ عامريةً ٭ لها كنيةٌ عمرٌو وليس لها عمرُو

ومن عادة العرب وشأنهم، استعمال الكنايات فى الأشياء التى يستحيا من ذكرها، قصـدا للتعفف باللسان، كما يُتعفف بسائر الجوارح ، قال الله عز وجل تأديبا لعباده : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ فقرن عفة البصر بعفة الفرج؛ وفى القرآن كنايات عُدِلَ بها عن التصريح تنزيها عن اللفظ المستهجَن ، كقوله تعـالى : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ وقال أبو عبيد : هو كناية، شبّه النساءَ بالحَرْث، وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾، قيل: هو كنايةٌ عن الفروج، وفى موضع آخر: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعـالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ قال المفسرون : هذا تنبيه بأكل الطعام على عاقبة ما يصير اليه، وهو الحَـدَث، لأن من أكل الطعام فلا بدّ أن يحـدث . ثم قال : ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ وهذا من ألطف الكناية، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فالغائط : المطمئن من الأرض، وكانوا يأتونه لحاجتهم ويستترون به عن الأماكن المرتفعة . ومن لم يرَ الوضوء من لمس النساء جعل الملامسةَ هاهنا كناية عن الفعل .

(١) هذان البيتان لم يردا فى ديوانه المطبوع فى الأستانة والأجزاء المطبوعة منه فى مصر ولا فى النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية .

ومن الكنايات فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو وإن كان قد ورد فى الأمثال أشبه بالكناية — منها قوله صلى الله عليه وسلم: "إياكم وخضراءَ الدِّمَن" يريد بها المرأة الحسناء فى المنبت السوء، وتفسير ذلك: أن الريح تجمع الدِّمَنَ، وهو البعر فى البقعة من الأرض فاذا أصابه المطر نبت نبتا غضًّا يهتزّ وتحته الدِّمَنُ الخبيث، يقول: فلا تنكحوا هذه المرأة الحسناء لجمالها، ومنبتُها خبيثٌ كالدِّمن؛ فإن أعراق السوء تَنْزِع أولادها. وقال زُفَر بن الحارث:

وقد ينبتُ المرعى على دِمَنِ الثرى ٭ وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا

وقوله صلى الله عليه وسلم: "حَمِيَ الوطيسُ" قاله لما جال المسلمون يوم حُنين، والوطيس: حفيرة تحتفر فى الأرض شبيهةٌ بالتنّور. وقال الحسن: لبث أيوب عليه السلام على المزبلة سبعَ سنين، وما على الأرض يومئذ خَلْقٌ أكرمُ على الله منه، فما سأل اللهَ العافيةَ إلا تعريضا فى قوله: ﴿إِنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ والعرب تكنى عن الفضلة المستقذرة بألفاظ كلّها كنايات؛ منها: الرَّجيعُ والنَّجْوُ والبرَازُ والغائطُ والعَذِرَةُ والخُثْ، فبعض هذه الألفاظ يراد بها نفسُ الحدَثِ، وبعضها يراد بها المواضع التى يأتى اليها المحدِثُ؛ وكذلك استعملوا فى إتيان النساء: المجامعة، والمواقعة، والمباضعة، والمباشرة، والملامسة، والمماسة، والخلوة، والإفضاء، والغشيان، والتغشّى، وكل هذه الألفاظ مذكورة فى القرآن.

وحُكى: أن رجلا من بنى العنبر كان أسيرا فى بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم رسولا الى قومه، فقالوا: لا نرسل إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم، وجىء بعبد أسود، فقال له: أتعقل؟ قال: نعم إنى لعاقل، قال: ما أراك عاقلا! ثم أشار بيده الى الليل، فقال: ما هذا؟ قال: الليل! قال: أراك عاقلا. ثم ملأ كفّيه من الرمل فقال: كم هذا؟ قال: لا أدرى وإنه لكثير، قال: أيّما أكثر،

النجوم أم النيران؟ قال : كلٌّ كثير ، فقال : أبلغ قومى التحيّة ، وقل لهم : ليُكرموا فلانا ـ يعنى أسيرا كان فى أيديهم من بكر ـ فإن قومه لى مكرمون وقل لهم : إن العَرْفَجَ قد أَدْبَى ، وشكّت النساء ، وأُمُرْهم أن يُعْروا ناقتى الحمراء ، فقد أطالوا ركوبها ، وأن يركبوا جملى الأصهب بآية ما أكلتُ معكم حَيْسًا ، وآسألوا عن خبرى أخى الحارث ؛ فلما أدّى العبد الرسالة اليهم قالوا : قد جُنَّ الأعورُ ، والله ما نعرف له ناقة حمراء ، ولا جملا أصهبَ ، ثم سرّحوا العبدَ ودعُوا الحارث فقصّوا عليه القِصّة ، فقال : قد أنذركم ؛ أمّا قوله : قد أدبَى العرفج ، فإنه يريد : أن الرجال قد آستلأموا ولبسوا السلاح ، وقوله : وشكّت النساء ، أى آتخذن الشِّكاءَ للسفر ، وقوله : الناقة الحمراء ، أى آرتحلوا عن الدهناء ، وآركبوا الصِّمّانَ وهو الجمل الأصهب ، وقوله : بآية ما أكلت معكم حيسًا ، أى أخلاطا من الناس قد غَزَوْكُم ؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقِطَ ؛ فآمتثلوا ما قال ، وعرفوا لحَن كلامه .

وحكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسنده الى مجالد بن سعيد عن عبد الملك بن عُمير قال : قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة ، فأرسل الى عشرةٍ أنا أحدهم من وجوه أهل الكوفة ، فسمرنا عنده . ثم قال : ليحدثنى كلّ رجل منكم أُحدوثة . وآبدأ أنت يا أبا عمرو[1] ، فقلت : أصلح الله الأمير ، أحديث الحق أم حديث الباطل ؟ قال : بل حديث الحقّ ، قلت : إن آمرأ القيس آلى ألية ألّا يتزوج آمرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين ، فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا ، قلن أربعة عشر ، فبينا هو يسير فى جوف الليل اذا هو برجل يحمل آبنة له صغيرة ، كأنها البدر لتمّه ، فأعجبته فسألها : يا جارية ! ما ثمانية وأربعة وآثنان ؟ فقالت : أما ثمانية فأطْبَاءُ الكلبة ، وأما أربعة فأخلافُ الناقة ، وأما آثنان

(١) فى الأغانى : « يا أبا عمر » .

فتديا المرأة، فخطبها الى أبيها ، فزوجه إياها وشرطت عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصالٍ ، فجعل لها ذلك ، على أن يسوق اليها مائةً من الإبل ، وعشرة أعبدٍ، وعشر وصائف ، وثلاثة أفراس ؛ ففعل ذلك ، ثم إنه بعث عبدا له الى المرأة، وأهدى لها نحْيًا من سمن ،ونحْيًا من عسل ،وحلّة من قصب ،فنزل العبد على بعض المياه ،فنشر الحلّة فلبسها فتعلّقت بسَمُرةٍ فانشقّت ،وفتح النّحيْن فأطعم أهل الماء منهما فنقصا ،ثم قدم على حيّ المرأة وهم خلوف فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ، ودفع اليها هديّتها ،فقالت له : أعلِمْ مولاك أنّ أبى ذهب يقرّب بعيدا ، ويبعّد قريبا ، وأنّ أمّى ذهبت تشقّ النفس نفسيْن ، وأنّ أخى ذهب يراعى الشمس ، وأنّ سماءكم انشقّت ،وأنّ وِعاءيْكم نضَبا ، فقدم الغلام على مولاه فأخبره ، فقال : أما قولها : أنّ أبى ذهب يقرّب بعيدا ويبعّد قريبا : فإن أباها ذهب يحالف قوما على قومه ، وأما قولها : ذهبت أمّى تشق النفس نفسين : فإن أمها ذهبت تَقْبُل امرأة نفساء ، وأما قولها : ذهب أخى يراعى الشمس : فإن أخاها فى سَرْح له يرعاه ، فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح به ، وقولها : أن سماءكم انشقّت : فإن البُرْدَ الذى بعثتَ به انشقّ ، وأما قولها : أن وعاءيكم نضبا : فإن النّحيْن نقصا ، فأصدُقنى ، فقال : يا مولاى ! إنى نزلت بماء من مياه العرب ، فسألونى عن نسبى ، فأخبرتهم أنى ابن عمك ، ونشرتُ الحلّة فلبستها وتجمّلتُ بها ، فتعلّقتْ بسَمُرةٍ فانشقّت ، وفتحتُ النّحيْن فأطعمتُ منهما أهل الماء . فقال : أوْلَى لك ، ثم ساق مائةً من الابل ، وخرج ومعه الغلام ليسوق الإبلَ ، فعجز ، فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلام فى البئر ، وخرج حتى أتى المرأة بالابل فأخبرهم أنه زوجها ، فقيل لها : قد جاء زوجك ! فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ؟ ولكن انحروا له جزورا وأطعموه من كرشها وذنَبها ، ففعلوا ، فأكل ما أطعموه ، قالت : اسقوه لبنا حازرا (وهو الحامض) فسقوه فشرب ،

فقالت : آفرشوا له عند الفَرْثِ والدم، ففرشوا له ؛ فنام . فلما أصبحت أرسلت اليه : أريد أن أسألك عن ثلاث، قال : سلى عما بدا لك، فقالت : لم تختلج شفتاك؟ قال : من تقبيل إياك ! قالت : لم تختلج فخذاك ؟ قال : لتوركى إياك ! قالت : فلم يختلج كَشْحاك؟ قال : لالتزامى إياك ! قالت : عليكم العبد ! فشدّوا أيديكم به ؛ ففعلوا . قال : ومرّ قوم فاستخرجوا آمرأ القيس من البئر، فرجع الى حيّه وآستاق مائةً من الابل وأقبل الى آمرأته . فقيل لها : قد جاء زوجك ! فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا؟ ولكن آنحروا له جزورا وأطعموه من كرشها وذنبها ، ففعلوا ؛ فلما أتوه بذلك، قال : وأين الكبد والسَّنام والمَلْحاء[1]؟ فأبى أن يأكل، فقالت : آسقوه لبنا حازرا، فأُتِىَ به، فأبى أن يشربه وقال : أين الصَّريف[2] والرَّئيئة[3]؟ فقالت : آفرشوا له عند الفَرْثِ والدم، ففرشوا له ؛ فأبى أن ينام وقال : آفرشوا لى فوق التلعة الحمراء وآضربوا عليها خباء، ثم أرسلت اليه : هلم شريطتى عليك فى المسائل الثلاث، فأرسل اليها : سلينى عما شئت، فقالت : لم تختلج شفتاك؟ قال : لشرب المشعشعات ؛ قالت : فلم يختلج كشحاك؟ قال : للبس الحبرات ؛ قالت : فلم يختلج فخذاك؟ قال : لركض المطهّمات ؛ قالت : هذا زوجى لعمرى ! فعليكم به، وآقتلوا العبد فقتلوه، ودخل آمرؤ القيس بالجارية ؛ قال آبن هُبَيرة : حسبكم ! فلا خير فى الحديث فى سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو ولن يأتينا أحدٌ بأعجب منه، فقمنا فانصرفنا وأمر لى بجائزة .

وقيل : بعث بَسّامة بن الأعور العنبرىّ الى أهله بثلاثين شاةً ونَحْيٍ صغير فيه سمن، فسرق الرسول شاة، وأخذ من رأس النحى شيئا، فقال لهم الرسول : ألكم

(١) الملحاء : لحم فى الصلب من الكاهل الى العجز من البعير .
(٢) الصريف : اللبن ساعة الحلب .
(٣) الرئيئة : اللبن الحامض يخلط بالحلو ليختثر .

حاجةٌ أُخبِرُه بها؟ فقالت آمرأته : أَخبِرْه أنّ الشهر محاق، وأن جدينا الذى كان يطالعنا وجدناه مرثوما، فارتجع منه الشاة والسمن .

وقيل : أسرت طيٌّ غلاما، فتقدم أبوه ليفديَه، فاشتطّوا عليه . فقال أبوه : لا والذى جعل الفرقدين يُمسيانِ و يصبحانِ على جبلَىْ طيٍّ! ما عندى غيرُ ما بذلتُه، ثم آنصرف وقال : لقد أعطيته كلاما إن كان فيه خيرٌ فهمه كأنه قال : إلزم الفرقدين على جبلَىْ طيٍّ، ففهم الآبن تعريضه وطرد إبلًا لهم من ليلته ونجا .

ومن التخلّص المتوصّل اليه بالكناية ما رُوى عن عدىّ بن حاتم بن عبد الله الطائىّ، أنه قال يوما فى حق الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط : ألا تعجبون لهذا؟ أشعر بركًا[1] يُولّى مثل هـذا المصر، والله ما يحسن أن يقضىَ فى تمرتين . فبلغ ذلك الوليدَ فقال على المنبر : أنشُد الله رَجُلًا سمّانى أشعرَ بَرْكًا إلّا قام، فقام عدىّ بن حاتم فقال : أيها الأمير، إن الذى يقوم فيقول : أنا سمّيتك أشعرَ بَرْكًا لجرىءٌ، فقال له : آجلس يا أبا طَرِيف! فقد برّأك الله منها، فجلس وهو يقول : ما برّأنى الله منها .

وقيل : كان شُريح عند زياد بن أبيه وهو مريض، فلما خرج من عنده أرسل اليه مسروق رسولا وقال : كيف تركت الأمير؟ فقال : تركته يأمر و ينهى، قال مسروق : إنه صاحب تعريض[2]، فارجع اليه وآسأله ما يأمر و ينهى، قال : يأمر بالوصيّة وينهى عن النَّوح .

خطب رجل الى قوم فجاءوا الى الشعبىّ يسألونه عنه، وكان به عارفا، فقال : هو والله ما علمت نافذ الطعنة، ركين الجلسة، فزوّجوه، فاذا هو خيّاط فأتوه فقالوا : غررتنا فقال : ما فعلتُ و إنه لكما وصفت .

(١) أشعر بركا، لأنه كان أشعر الصدر .

(٢) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصول : «عرض» ولعلها : «عويص» .

وخطب باقلانىّ الى قوم وذكر أن الشـعبىّ يعرفه فسألوه عنـه فقال : إنه لعظيم الرماد، كثير الغاشية .

قيل : أخذ العسس رجلين فقال لهما : من أنتما؟ فقال أحدهما :

أنَا ابن الذى لا يزلُ الدهرَ قِدْرُهُ * وإن نزلتْ يوما فسوف تعودُ

ترى الناسَ أفواجا إلى ضوء ناره * فمنهم قيامٌ حولها وقعـودُ

وقال الآخر :

أنا ابن من تخضع الرقاب له * ما بين مخزومها وهاشمها

تأتيـه بالذل وهى صاغرة * يأخذ من مالها ومن دمها

فظنوهما من أولاد الأكابر، فلما أصبح سأل عنهما ؛ فاذا الأول ابن طبّاخ والثانى ابن حجّام .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للأحنف : أىّ الطعام أحبّ اليـك ؟ قال : الزُّبدُ والكَمْأةُ . فقال : ما هما بأحبّ الطعام اليـه ، ولكنه يحبّ الخصب للمسلمين .

وقال لقمان لابنه : كُلْ أطيب الطعام، ونَمْ على أوطأ الفرش. كنّى عن إكثار الصيام وإطالة القيام .

ومن جيّد التورية وغريبها مع توخّى الصدق فى موطن الخوف : قولُ أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، وقد أقبل رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو رَديفُه عامَ الهجرة، فقيل له : من هذا يا أبا بكر؟ فقال : رجل يهدينى السبيل .

ورُفِعَ الى عبيد الله بن الحسن قاضى البصرة وصيةٌ لرجل بمال أمر أن تُتَّخَذَ به حصون . فقال : اشتروا به خيلا للسبيل، أما سمعتم قول النخعىّ .

ولقـــد علمت على تجنبَى الردى * أن الحصون الخيلُ لا مدَرُ القُرَى

قيل كان البَرَاءُ بن قَبِيصة صاحبَ شرابٍ ، فدخل على الوليد بن عبد الملك ، وبوجهه أثر ، فقال : ما هذا ؟ قال فرس لى أشقر ، ركبته فجا بى ، فقال : لو ركبت الأشهبَ لَمَا جابك ، يريد الماء .

قال عبد الملك بن مروان لثابت بن الزبير : ما ثابت من الأسماء ! ليس باسم رجل ولا امرأة . قال : يا أمير المؤمنين لا ذنب لى لو كان اسمى الىَّ لسمّيتُ نفسى زينبَ ، يُعرِّضُ به ، فانه كان يعشق زينبَ بنت عبد الرحمن بن هشام فخطبها ، فقالت : لا أوسّخ نفسى بأبى الذُّبّان[1] .

قال نُمَيْرىّ لفقعسىٍّ : إنى أريد إتيانك فأجد على بابك خُرءا ، فقال له الفقعسىُّ : اطرح عليه ترابا وادخل ، أراد النميرىّ قول الشاعر :

ينام الفقعسىُّ وما يُصلِّى * ويخرا فوق قارعة الطريق

وأراد الفقعسىّ قول الآخر :

ولو وَطِئتْ نساءُ بنى نمير * على تُرَبٍ لخبّثْنَ الترابَا

(٤٧) قال عبد الله بن الزبير لامرأة عبد الله بن حازم السلمىّ : أخرجى المالَ الذى وضعتِه تحت آستِك ، فقالت : ما ظننت أن أحدا يلى شيئا من أمور المسلمين يتكلّم بهذا ! فقال بعض من حضر : أما ترون الخلْع الخفىَّ الذى أشارت اليه ؟ فلما أخذ الحجّاج أم عبد الرحمن بن الأشعث تجنّب ما عيبَ على ابن الزبير ، فكنّى عن المعنى فقال لها : عمدتِ الى مال الله فوضعتِه تحتَ ذيلك .

ماتت للهذلىّ أمُّ ولدٍ فأمر المنصورُ الربيعَ بأن يعزّيَه ويقولَ له : إن أمير المؤمنين يوجّه اليك بجارية نفيسة لها أدبٌ وظَرْفٌ تُسلِيك عنها ، وأمر لك بفرس

(١) كنية كان يكنى بها عبد الملك بن مروان لبخره .

وكُسوةٍ وصلةٍ ؛ فلم يزل الهذلىّ يتوقّعها ونسيَها المنصور، ثم حجّ ومعه الهذلىّ فقال له وهو بالمدينة : أحبّ أن أطوفَ الليلة فى المدينة ، وأطلبَ من يطوف بى، فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ؛ فطاف به حتى وصل الى بيت عاتكةَ فقال : يا أمير المؤمنين ! وهذا بيت عاتكةَ الذى يقول فيه الأحوص :

* يا بيتَ عاتكةَ الذى أتعزَّلُ *

فأنكر المنصور ذكرَ بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه ؛ فلما رجع أمرّ القصيدة على خاطره فاذا فيها :

وأراك تفعلُ ما تقولُ وبعضهم * مذقُ الحديثِ يقول مالا يفعلُ

فتذكّر الموعدَ وأنجزه واعتذر اليه .

اجتمع الشعراء بباب أمير من أمراء العرب ، فمرّ رجل ببازٍ فقال رجل من بنى تميم لآخر من بنى نمير : هـذا البازى ! فقال النميرىّ : إنه يصيد القَطا ؛ عرّض الأوّل بقول جرير :

أنا البازى المطلّ على نُمـير * أُتيحَ من السماء لها انصبابا

وأراد الآخر قول الطِّرِمّاح :

تميم بطرق اللؤم أهـدَى من القطا * ولو سلكتْ طُرْقَ المكارمِ ضلّتِ

قال عمر بن هُبَيْرة الفزارىّ لأيوب بن ظَبيان النميرىّ وهو يسايره : غُضّ من بغلتك ! فقال : إنها مكتوبة ، أراد ابن هبيرة قول جرير :

فغُضّ الطرف إنك من نمـير * فلا كعبا بلغتَ ولا كلابا

وأراد النميرىّ قول ابن دارة :

لا تأمننّ فزاريًّا خلوتَ به * على قلوصك واكتبْها بأسيارِ

وقيل : كان العزيز بن المعزّ العُبيدىّ أحد الخلفاء بمصر يلعب بالحمام، فتسابق هو وخادم له فسبق طائرُ الخادم طائرَ الخليفة، فبعث الى وزيره ابن كِلّس اليهودىّ يستعلمه عن ذلك فاستحيا أن يقول : إن طائر الخليفة سُبِقَ، فكتب إليه :

يابن الذى طاعتُه عِصمةٌ * وحُبُّـه مفترَضٌ واجبُ
طائرك السابقُ لكنّه * جاء وفى خدمته حاجبُ

جاءت امرأة الى عمر رضى الله عنه فقالت : أشكو اليك زوجى، خيرُ أهل الأرض إلا رجلا سبقه لعمل، أو عمل مثلَ عمله، يقوم الليل حتى يُصبح، ويصوم النهار حتى يُمسى، ثم أخذها الحياء فقالت : أقِلْنى يا أمير المؤمنين، فقال : جزاك الله خيرا! فقد أحسنتِ الثناء، فلما ولّتْ قال كعبُ بن سُور[1] : يا أمير المؤمنين لقد أبلَغتْ اليك فى الشكوى، فإنها كنّتْ بذلك عن عدم المباضعة .

الباب الخامس

من القسم الثانى من الفن الثانى

فى الألغاز والأحاجىّ

قالوا : والاشتقاق اللُّغز من ألْغَزَ اليَربوعُ ولَغَزَ، إذا حفر لنفسه مستقيما، ثم أخذ يَمْنَةً ويسرة ليُورِّى بذلك ويعمّى على طالبه . وللُّغز أسماءٌ، فمنها : المُعاياة، والعويصُ، والرمز، والمحاجاة، وأبيات المعانى، والمَلاحن، والمرموس، والتأويلُ، والكناية، والتعريض، والإشارة، والتوجيه، والمعمّى، والمُمَثَّل ؛ ومعنى الجميع واحد،

(١) كذا فى أحد الأصلين الفتوغرافيين والقاموس والمشتبه فى أسماء الرجال للذهبى . وفى باقى الأصول : «شور» بالشين وهو تحريف :

وآختلافها بحسب آختلاف وجوه آعتباراته، فانك إذا آعتبرته من حيث إن واضعه كأنه يعابيك، أى يُظهـر إعياءك وهو التعبُ، سمّيتَه : معاياة؛ و إذا آعتبرته من حيث صـعوبة فهمه وآعتياص آستخراجه، سمّيتـه عويصا ؛ و إذا آعتـبرته من حيث إنه قد عمـل على وجوه وأبواب، سمّيتـه : لُغْزًا وفعلك له : إلغازا ؛ واذا آعتبرته من حيث إن واضـعه لم يفصح عنه قلت : رمز، وقريب منـه الإشارة؛ و إذا آعتبرته من حيث إن غيرك حاجاك أى آستخرج مقدار عقلك، سمّيته : محاجاة؛ و إذا آعتبرته من حيث إنه آستخرج كثرة معـانيه سمّيتـه : أبيات المعانى؛ و إذا آعتبرته من حيث إنّ قائله قد يوهمك شيئا و يريد غيره، سميته : لحنا وسميتَ فعلك : المَلاحن؛ و إذا آعتبرته من حيث إنه سُتر عنك و رُمس فهو : المرموس، والرمس : القبر؛ و إذا آعتبرته من أن معناه يؤوَّل اليك، سميتـه : مـؤوَّلا، وسميت فعلك : تأويلا؛ و إذا آعتبرته من حيث إن صاحبه لم يصرِّح بغرضـه، سميتـه : تعريضا وكناية؛ و إذا آعتبرته من حيث إنه ذو وجوه، سميتـه : الموجَّه، وسميت فعلك : التوجيه؛ و إذا اعتبرته من حيث إنه مغطًّى عليك، سمّيته : مُعمًّى .

قال الحكيم أمين[1] الدولة المعروف بابن التلميذ فى الميزان :

ما واحد مختلف الأسمـاءِ * يعدل فى الأرض وفى السماءِ
يحـكم بالقسـط بلا رياء * أعمى يُرى الرشادَ كلَّ رائى
أخرس لا من عـلّة وداءِ * يُغنى عن التصريح بالإيماء
يجيب إن ناداه ذو آمتراءِ * بالرفع والخفض عن النداءِ
* يُفصح إن عُلِّقَ فى الهواء *

(١) فى أحد الأصول : « أمير » . وهو تحريف . واسمه : « أبو الحسن بن صاعد هبة الله الطبيب » راجع الإيجاز فى فنون الألغاز للخطيرى .

قوله : مختلف الأسماء يعنى ميزان الشمس والأصطرلاب، وسائر آلات الرصد، وهو معنى قوله : يحكم فى السماء. وميزان الكلام النحو . وميزان الشعر: العروض . وميزان المعانى : المنطق . وهذه الميزان[1]، والذراع والمكيال .

وقال آخر فيه :

ما تقولون؟ : فيما نزل من السماء، وعُلِّق فى الهواء، له عينٌ عمياء، وكفٌّ شلّاء، ليس له إن عدل ثواب، ولا عليه إن جار عقاب، خُلِقَ من ثلاثة أجناس، تضعضعه الأنفاس، جسمه عارٍ من غير لباس، أخرسُ اللسان، فى أذنه خُرْصان، مكرر الذكر فى القرآن، ينطوى اذا نام كالصِّلّ، وفعله المستقبل معتلّ، وله فى الآخرة أكبر محلّ .

وقال أبو نصر الكاتب فى الخاتم :

ومنكوحٍ إذا ملكتْه كفٌّ * وليس يكون فى هذا مِراءُ
له عينٌ تخلّلها ضياءٌ * فإن كُحلتْ فبالميل[2] العَماء
يظلّ طليعةً للوصل هونا * وللجانى بزورته احتماءُ
وقد أوضحتُه وأبنتُ عنه * ففسِّرْه فقد برِح الخفاءُ

أراد بقوله : تخلّلها ضياءٌ أى أنها مفتوحة، وكحلها بالإصبع، وقد يبعث المحبوب بخاتمه علامةً للزيارة أو رهنا عليها، وهو أمانٌ للجانى .

وقال ابن الرومىّ فى فتيلة السراج :

ما حيّةٌ فى رأسها دُرّةٌ * تسبح فى بحرٍ قليل المَدَى
إن غُيِّبتْ كان العمى حاضرا * وإن بدت لاح طريقُ الهدى

---

(١) كذا فى الأصول، وهو غير ظاهر المعنى .

(٢) كذا فى أحد الأصول وفى كتاب الإيجاز فى فنون الألغاز . وفى باقى الأصول : «فالميل» .

وقال السرىّ الرفّاء فى شبكة الصيّاد :

وكثيرة الأحـداق إلا أنهـا * عميـاءُ ما لم تتغمس فى ماءِ
واذاهى انغمست أفادت ربَّها * ما لا يُنال بأعينِ البصراءِ

وقال آخر فى النوم :

وحامـلٍ يحملـنى * وماله شخصٌ يُرَى
إذا حصلتُ فوقه * وهو لذيذُ المَمْطى
سريتُ لا أدرى أفى * أرض سريتُ أم سما

وقال أبو العلاء المعرىّ فى ركابَىِ السرج :

خليلانِ نيطَا فى جوانب مجلسٍ * جـداراه قـدّامٌ له ووراءُ
متى يضع الرِّجْلينِ ماشٍ عليهما * يَزُلْ عنه فى وَشْكٍ حَفًا وحَفاءُ

قوله : خليلان لتشابههما، والمجلس : السرج، وجداراه : قربوسه ورادفته، والحفا مقصور : وجعُ الرِّجل، وممدود : من مشى الرجل حافيا بغير نعل .

وقال أبو القاسم عبد الصمد بن بابك[1] فى القُفْل :

مُجامعٌ يَعقِد عقَـد الكابهْ * إن رامه غيرك جرّ نكبهْ
ينـام كالأمرد لا كالقحبهْ * حتى اذا شـكّ القُمُدُّ جنبهْ
وعالج الجذبةَ بعـد الجذبهْ * وانحـلّ بالحقنة لا بالشربهْ
ألقى جنينا نتجتْـه العـزبهْ * ثم إذا عاد إليـه أشـبهْ
بعضَ حروفِ المُعْجَم المُنكبّهْ * يُبغض وهو صادق المحبّـهْ
يعتقد السِّـلم وينوى حربهْ * وهو على ذاك طويل الصحبهْ

(١) كذا فى أحد الأصلين وكتاب الإعجاز فى فنون الألغاز و يتيمة الدهر ووفيات الأعيان لابن خلكان . وفى باقى الاصول : « نائل » وهو تحريف .

شَبّهه بالمجامع : لدخول الفَرَاش فى بطنه ، وقوله : يعقد عقد الكلبة : فى عُسر المفارقة ، وإن فتحه غيرك جرّ نكبة عليك لسرقة ما [أقفلت عليه](١) ، ينام كالأمرد لأنجابه . والقُمُدُّ : الذكر وهو المفتاح ، والجنين : الفَرَاش ، وإذا عاد إليه أشبه حرف الكاف .

وقال فى اسم سعيد :

يبسم عن أوّل اسمه حِبّى * ثم بثانى حروفه يسبى
ثم بحرفين لو بدا بهما * أسدى يدا صورةُ اسمها تُنبى
أربعة نصفها بكملتها * فى العدّ لم تنتقص ولم تُربى
هذا وفيه اسمُ يومٍ آتّفقت * مفاخرُ العُجْم فيه والعُرْبِ
فأعمل الفكر فى تأمّله * واركب به كلّ مَرْكَب صعبِ

شبّه السين بالثغر ، وثانيه العين وهى تسبى القلوب ، والحرفان يَد وهو أربعة فى العدد وستّة فى الصورة ، وإذا أخذتَ السين والعين فهى أربعة وهى جملة العدد ، وفيه عيد وهو يوم التفاخر بالزينة والملبوس .

وقال ابن أبى البَغْل(٢) الكاتب فى القلم :

أصمّ عن المنادى لا يجيبُ * به تخبو وتشتعل الخطوبُ
ضئيل الجسم أعْلَمُ ليس تخفَى * عليه غيوبُ ما تُخفى القلوبُ
تراه راجلًا لا رُوحَ فيه * ويُحييه ويُنطقه الركوبُ
يبين لسانُه ما كان(٣) سودًا * مفارقُه ويُخرسه المشيبُ

(١) التصحيح عن كتاب الإيجاز فى فنون الألغاز . وفى الأصل : «ما فيه» .

(٢) هو أحمد بن محمد بن يحيى ، كان أميرا على فارس لبنى العباس سنة ٣٠٠ هـ ؛ شاعر مشهور . (أنظر صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد القرطبى ص ٤٠ طبع ليدن) .

(٣) كذا فى كتاب الإيجاز . وفى الأصل : «ما كنّ سودا * معارفه» وهو تحريف .

يقسّم فى الورى بؤسى ونُعمى * ويحكم والقضاءُ له مجيبُ
عجبت لسطوة فيـــه وضعْف * وكلّ أموره عجبٌ عجيبُ

أراد بقوله «أعلم» مَشقوق الشَّفَة .

وقال أبو العلاء المعرّى فى المِلْح :

وبيضاء من سرّ المِلاح ملكتُها * فلما قضتْ إِرْبى حبوتُ بها صحبى
فباتوا بهـا مستمتعين ولم تزل * تحثّهُمُ بعـــد الطعام على الشُّرب

قوله : سرّ أى خالصة، والمِلَاح جمع مِلْح، والإرب : الحاجة .

وقال آخر فى عودى الغناء والبخور :

وما شيئان اسمهما سَـواءٌ * وأصلهما معا عنـــد آنتسابِ
إذا حضراك بتَّ قـــرير عين * بـــلا طعم يـــلذّ ولا شَراب
وما إن يوجدان النفـــع إلّا * بضرب أو ضريب من عذابِ

معنى آسمهما سـواء ظاهرٌ ، وأصلهما خشب، والضَّرب الأوّل : ضَرب العود، والثانى : من العذاب وهو الإحراق .

وقال آخر فى الحرب :

ما ذات شَوْكٍ لهـا جناح * يختطف الناسَ عن قريبِ
وهى عقـــيم ترى بنيهـا * ما بين مُرْدٍ وبين شِيبِ
يأكل بعض البنين بعضـا * طلوعَ شمس الى غروبِ
تصحيفها الداء غير شـــك * قـــد يُحسم الداءُ بالطبيبِ
والداء معكوسه مكان * يصلـــح للطائر النجيبِ
يعرفها من يكون طَبّـا * بالشّعر والنحو والغـــريبِ

هـذا لغز معمى فى الحرب ، وشوكها : السـلاح ، وجناحاها : جانباها ، وعقيم : لأنهـا لا تلد ، وبنوها : رجالها ، وأكلهُـم : قتلهم ، وتصحيفها : الجرب ، وعكسه : برج .

وقال آخر فى الثدى :

وما أخـــوان مشتبهان جِدًّا * كما آشتبه الغُـــرَابة والغرابُ
يَضمّهمـا على مرّ الليـالى * وما آجتمعا ولا آفترقا إهابُ
لذاك وذا دموع هامـــلات * ولكن كلّ دمعهمـا شَرابُ
يصونهما عن الأبصـار دِين * ويُضرَب دون نَيْلهما حجَابُ

هما ثديا المرأة ، ويضمّهما إهاب وهو الجلد .

وقال آخر فى الفخّ :

وما ميّت كفّنته ودفنته * فقام الى حىّ صحـيح فأوثقَهْ

وقال آخر وهو لغز :

حلف الحبيبُ علىّ لا سمّيتُـــه * فكنيته ولطفت خوف تغاضُبِهْ
ظبى اذا ما زارنى حلّ آسمـــه * قلبى وذلك من عجيب عجائبِـــهْ
ويكون إن رنّحتَـــه وخَرمتَه * وقلبتَـــه ما تشتهى من صاحبِهْ
ويكون إن صحّفتَ مبدأه الذى * أصبحتَ تهـــواه لعين مراقبِهْ
وتراه بعـــد الجزم إن ميّزت فى التصحيف مقـلوبا أشـــدّ معايبِهْ
وحروفها فالنصف منها جذرها * وحساب ذلك غير متعبِ حاسبِهْ
فاطلبه سادس سادس ثانيـــه ثا * نيـــه وثالثه كذاك لطالبِهْ
وتمـامه من بعد مثـــل حروفه * فى البيت صحّ آسم الحبيب لقالبِهْ

هو لغز فى فرحة ، والترخيم : حذف الآخر ، والخـرم : حذف الاوّل ؛ فاذا رخم وخرم وقلب بقى : حِر ، واذا قلبت الفاء قافا بقى : قَرْحة لعين المراقب ، واذا صحفته مقلوبا ، وجزمت آخره صار : هجر ، والنصف من حروفه اثنان ، وهما جـذر جميع حروفه ، وقوله : فاطلبه سادس سادس : يعنى البيت السادس .

وقال آخر فى سَلْمى :

سَـلْ ماهرًا بالقريض والأدب * ما اسم فتاةٍ قعيـدة النَّسبِ
قـد صرّح الشّـعر باسمها فمتى * فكّرتَ فيها ظفرتَ بالعجب

الاسم سلمى ، وهو ظاهر فى أول البيت .

وقال آخر فى الكُرة :

ومضروبةٍ تحيـا إذا ما ضربتهـا * وإن تُركت من شدّة الضرب ماتت

وقال أبو عبد الله بن المُغَلِّس فى السِّراج :

وداع الى نفسه فى الظلامِ * وما سمعتْ أذنهُ صـوتَهُ
اذا هو بيّض وجه الطريـ * ـقِ سوّد فى وقتـه بيتـهُ

وقال آخر فى الصَّدَى :

وساكنٍ يسكن فى الفـلاةِ * ليس من الوحش ولا النبات
ولا من الجنّ ولا الحيّـاتِ * ولا الخيـام الشّـعر والأبيـاتِ
ولا بذى جسـم ولا حيـاةِ * كلّا ولا يدرك بالصفـاتِ
بلى له صـوت من الأصواتِ * يُسمع فى الأحيـان والأوقات

وقال ابن المغلّس فى النخلة :

وقائمـة أبدا لا تنـام * وماقعدت قطّ مذ قامتِ
تعيش إذا غسلوا رِجلها * وإن حلقوا رأسَها ماتت

وقال آخر :

ما يقول سيدنا الشيخ : فى شىء نزل من السماء، وركض فى الهواء، وخيّم فى البيداء، نطق على نفسه فأفصح، وتكلّم فبيّن وأوضح، أنقر وأغنى، وأمات وأحيا، له شوارق من غير غضب، ورقصات على غير طرب، يسبق الفرس السريع، ويسبقه الطفل الرضيع، مختلف الألوان، يوجد فى كلّ زمان، ما أكثر لغاته، وأعمّ فى البَشر ذكر صفاته! وهو خفيف ثقيل، كثير قليل، كبير صغير، طويل قصير، غال رخيص، قوىّ ضعيف، سريع بطىء، بارد حارّ، نافع ضارّ، أبيض أسود أزرق، قريب بعيد، قديم جديد، متحرّك ساكن، ظاهر باطن، يتجسّر ويتكسّر، ويتعوّج ويتدوّر، سلطانه فى الشمال وبه يذلّ، وضعفه فى الجنوب وبه يعزّ، نحيل يخفى جثّة الفيل فى طيّه وعطفه، ويتخلّل جفن العين الرمدة برفقه ولطفه، يمشى على الحدق فلا يؤلمها، ويطأ القلوب فلا يَكْلُمُها، على أنّه يقطع الطريق، ويخيف الفريق، كم أهلك من قوم وما أراق ولا سفك! يحمل ألف قنطار، ويعجز عن حمل دينار، وهو ليلىٌّ نهارىٌّ، عربىٌّ عجمىٌّ، برىٌّ بحرىٌّ، سُهْلىٌّ جبلىٌّ، رومىٌّ نوبىٌّ، هندىٌّ حبشىٌّ صينىٌّ، جاهلىٌّ إسلامىٌّ، كان مع آدم فى الجنّة، وصحب نوحا فى السفينة، وتوسّط النار مع إبراهيم، كم له مع موسى من خبر! ولموسى فيه من آية وأثر! حمل المسيح على غير ظهر، وما سار فى برّ ولا بحر، أخرجه النبىّ صلى الله عليه وسلّم من جسده، وفرّقه على صحابته، اسم هذا إذا نطقت به كان بعض اسم أحد خلفاء بنى العباس السبعة وهو ١٤٣١

وقال آخر :

ما شىءٌ وجهه قمر، وقلبه حجر، إن علّقته ضاع، وإن أدخلتَه السّوقَ أبى أن يباع، وإن فككته دعا لك، وإن ركبت نصْفَه هالك، وربّما كثّر أموالك، وإن

حذفتَ آخره، وشدّدت ثانيَه، أورثك الألم عند الفَجْر، والضجر عند العصر؟ هو الدُّملج الفضة .

* * *

ومما يتصل بهذا البـاب مسائل العويص

فمن ذلك ــ امرأتان ألقتا برجلين قالتا لهما: مرحبا بابنينا وزوجينا وآبنى زوجينا؛ وذلك أن كلّ واحد منهما تزوّج بأم الآخر، فهما آبناهما وزوجاهما وابنا زوجيهما.

رجلان كلّ واحد منهما عمّ الآخر وآبن أخيه؛ وذلك : أن كلّ واحد من أبويهما تزوج بأم الآخر، فُرزق كل واحد منهما ولدا؛ فكل من الولدين عمّ الآخر وآبن أخيه .

رجلان كل واحد منهما خال الآخر وآبن أُختـه ؛ وذلك : أنّ كلّ واحد من ابويهما تزوج بآبنة الآخر، فرزق كلّ واحد منهما ولدا، فكلّ من ولديهما خال الآخر وآبن أخته .

رجل وامرأتان هو خال إحداهما وهى خالته ، وعمّ الأخرى وهى عمّته ؛ وذلك : أنّ جدّته أمّ أبيه تزوجت بأخيه لأمه، وأخته لأبيه تزوجت بأب أمه ، فولدتا بنتين فبنت أخته خالته وهو خالها، وبنت جدّته عمّته وهو عمّها، وهذا أصل الأبيات المنظومة فى ذلك :

ولى خالة وأنا خالها ٭ ولى عمّة وأنا عمّها

رجلان كلّ واحد منهـما آبن خال الاخر وآبن عمّتـه؛ وذلك : أنّ كل واحد من أبويهما تزوّج بأخت الآخر، فرزق كلّ منهما ولدا، فكل من ولديهما آبن خال الآخر وآبن عمّته .

رجلان كلّ واحد منهما عمّ والد الآخر ، وذلك : أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بأم أب الآخر، فكلّ من أولادهما عمّ أب الآخر

رجلان كلّ واحد منهما عمّ أمّ الآخر ، وذلك : أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بابنة ابن الآخر، فكل من أولادهما عمّ أمّ الآخر .

رجلان كل واحد منهما خال أمّ الآخر، وذلك : أنّ كل واحد من أبويهما تزوّج بابنة بنت الآخر، فكل من أولادهما خال أمّ الآخر .

رجلان أحدهما عمّ الآخر والآخر خاله ، وذلك : أن رجلين تزوج أحدهما امرأةً وتزوّج الآخر ابنة ابنها، فولد لكل منهما ولد فابن الأب عمّ ابن الابن، وابن الابن من أمّ امرأة الأب ، هو أخوها وخال ابنها .

رجلان أحدهما عمّ الآخر وخاله ، والآخر ابن أخيه وابن أخته ، وذلك : أن رجلًا له أخ لأب وأخت لأمّ فزوّج أخاه لأبيه بأخته لأمه فأولدها ولدا فهما كذلك .

القسمُ الثـالث من الفنّ الثـانى

فى المدح، والهجو، والمجون، والفُكاهات، والمُلَح، والخمر، والمُعاقرة، والنَّدمَان، والقِيان، ووصف آلات الطّرب

وفيه خمســـة أبواب

البـاب الأول

من هذا القسم

فى المدح ، وفيه ثلاثة عشر فصلا

حقيقة المدح وما قيل فيه ، ما قيل فى الجود والكرم وأخبار الكرام ، ما قيـل فى الإعطاء قبل السـؤال ، ما قيل فى الشجاعة والصبر والإقدام ، ما قيـل فى وفور العقل ، ما قيل فى الصِّدق ، ما قيل فى الوفاء والمحافظة ، ما قيل فى التواضع ، ما قيل فى القناعة والنّزاهة ، ما قيل فى الشكر والثناء ، ما قيـل فى الوعد والإنجاز ، ما قيـل فى الشفاعة ، ما قيل فى الاعتذار والاستعطاف .

فأمّا حقيقية المدح ، فقد عبّر عنها الحمدونىّ فى "غاية الاختصار والإيجاز" بقوله حقيقة المدح : وصف الموصوف بأخلاق يُحمد صاحبُها عليها ، ويكون نَعْتًا حميدًا . قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ وقال عزّ وجلّ : ﴿ ٱلتَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ ٱلْحَامِدُونَ ٱلسَّائِحُونَ ٱلرَّاكِعُونَ ٱلسَّاجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وروى

عن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم أنه قال : "أصحابى كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم". وقد أوّلوا الخبر المروىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا رأيتم المدّاحين فاحثوا فى وجوههم التراب" قال العُتْبىّ : هو المدح الباطل والكذب . وأمّا مدح الرجل بما هو فيه فلا بأس به ، ومما يَعْضُد هذا أنّ العبّاس بن عبد المطّلب وكعب ابن زهير، وحسّان بن ثابت، وغيرهم مدحوا رسول الله صلّى الله عليه سلّم فلم يَرِد أنه حثا فى وجه أحد منهم ترابا . وقيل فى حثو التراب معْنَيان : أحدهما التغليظ فى الردّ عليه، والثانى يقال له : بفيك التراب .

وللشعراء عادة فى تجاوز قدر الممدوح فوق ما يستحقّه حتى إنّ ذلك أفضى بكثير منهم إلى الكفر والخروج عن الحدّ أعاذنا الله من ذلك . وقال أبو شِروان : من أثنى عليك بما لم تولِهِ فغير بعيد أن يذمّك بما لم تَجْنِه . وقال وهب بن منبّه : (٥١) من مدحك بما ليس فيك فلا تَأمَنْ أن يذمّك بما ليس فيك .

وأنشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قولَ زُهير بن أبى سُلْمى فى هَرِم بن سِنان :

دع ذا وعَدّ القولَ فى هَرِم * خيرِ الكهول (١) وسيّد الحَضْرِ
لو كنتَ من شىء سوى بشر * كنتَ المنوّر ليلةَ القَدْرِ (٢)
ولأنتَ أوصل من سمعتُ به * لنوائل الأرحام والصِّهْرِ
ولنعم حشو الدرع أنت اذا * دُعِيتْ نَزَال ولُجّ فى الذُّعْرِ

فقال عمر رضى الله عنه : ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

ولما حضر أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه الوفاةُ قالت عائشة رضى الله عنها وهو يُغْمَضُ :

وأبيض يُستسقَى الغَمامُ بوجهه * ثِمَال اليتامى عصمة للأراملِ

(١) فى ديوان زهير : «خير البداة» أى خير أهل البدو. (٢) فى ديوانه : «ليلة البدر» .

فنظر اليها وقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

وقال آخر :

ولو كنتِ أرضًا كنتِ مَيْثاءَ سهلةً * ولو كنتِ ليلًا كنتِ صاحبة البدرِ

ولو كنتِ ماءً كنتِ ماء غَمامة * ولو كنتِ يوما كنتِ تَعريسة الفجرِ

وقال محمّد بن هانئ :

أغَيرَ الذى قد خُطّ فى اللوح أبتغى * مديحا له إنّى إذًا لعنـــودُ

وما يســـتوى وحىٌّ من الله منزَل * وقافيـــةٌ فى الغابرين شرودُ

وقال عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه لمُتَمّم بن نُوَيرة : صِف لى أخاك فإنى أراك تمدحه ، فقال : كان[1] يركب الجملَ الثَّقالَ فى الليلة الباردة ، يَرْتمى لأهله بين المزادتيْن المضرَّجتين ، عليه الشملة الفَلُوت ، يقود الفرسَ الحَرُون ثم يصبح ضاحكا .

وسأل عبـد الله بن عباس صَعْصَعةَ بن صُوحان العَبْدىّ عن إخوته فقـال : أما زيد فكما قال أخو[2] غَنِىّ :

فتى لا يبالى أن يكون بوجهه * إذا نال خلّان الكرام شحوبُ

ثم قال : كان والله يابن عباس ، عظيم المروءة ، شريف الأُبُوّة ، جليل القـدر ، بعيد الشرّ[3] ، كَميش العُروة ، زين النَّدْوة ، سليم جوانح الصدر ، قليل وساوس الفكر ،

(١) هـذه عبارة الأغانى ج ١٤ ص ٦٩ غير أنه ورد فيها لفظة الحرون محرفة الى الجزور و يصـبح محرفة الى يصبح . وعبارة الأصل : « كان أخى يحبس المزاد بين الصوحين فى الليلة القرة معتقلا للرمح الخطل عليـه الشملة القلوب يقود الفرس الحرون فيصـبح ضاحكا مستبشرا . الخطل : الطويل المضطرب . والقلوب : التى لا تنضم على الرحل لقصرها » . والتحريف فيها واضح فلا محـل هنا لذكر الصوحين وهما جانبا الوادى ولأنه يحبس المزاد بينهما ، وكذلك القلوب محرفة عن القلوت وهو من الكسـاء الا يضم طرفاه من صغره أو ضيقه فهو يتفلت عنه كل ساعة ، والرحل محرفة عن الرحل .

(٢) كذا فى الأصلين الفتوغرافيين . وفى النسخة الزاهية : « أخو عبس » .

(٣) فى أحد الأصلين : « بعيد الأشر » .

ذاكرًا الله تعالى طَرَفى النّهار وزلفًا من الليل! الجوع والشّبَع عنده سِيّان، لا منافس فى الدنيا، ولا غافل عن الآخرة؛ يطيل السكوت، ويديم الفكر، ويكثر الاعتبار، ويقول الحق، ويلهج الصدق؛ ليس فى قلبه غير ربه، ولا يهمه غير نفسه. فقال ابن عبّاس: ما ظنّك برجل سبقه عضو منه الى الجنّة؟ رحم الله زيدا! فأين كان عبد الله منه؟ فقال: كان عبد الله سيّدا شجاعا، شيخًا مُطاعا؛ خيره وَسَاع، وشره دِفَاع؛ لَيْن النَّحيزة، أحوذىّ الغَريزة، لا يُنهنهه مُنهنه عمّا أراد، ولا يركب إلّا ما اعتاد؛ سِمَام العدى، فيّاض النّدى؛ صعب المَقادة، جزل الزِّفادة؛ أخو إخوان، وفتى فتيان؛ ثم أنشد شعر حسّان بن ثابت:

اذا قال لم يترك مقالًا لقائل * بُملتقطاتٍ لا ترى بينها فصلا
قضى فشفى ما فى النّفوس فلم يدع * لذى إربة فى القول[1] جدّا ولا هزلا

ودخل ضِرَار بن ضَمْرة الكنانىّ على معاوية بن أبى سُفيان فقال له: صِفْ لى عليًّا، فقال له: أو تعفينى؟ فقال: لا أعفيك، قال: أما إذ لا بدّ، فإنّه كان بعيد المدى، شديد القُوى؛ يقول فصلا، ويحكم عدلا؛ يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه؛ يستوحش من الدنيا وزَهْرتها، ويأنس بالليل وظُلمته؛ كان والله غزير العَبْرة، طويل الفِكرة؛ يقلّب كفّيه، ويخاطب نفسه؛ يعجبه من اللّباس ما قَصُر، ومن الطعام ما خَشُن؛ كان والله [فينا][2] كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه؛ وكان مع تقربه إلينا وقُربه منا لا نكلّمه هيبةً له، [ولا نبتدئه[3] لعظمته]، فان تبسّم فعن مثل لؤلؤ منظوم؛ يُعظّم أهلَ الدين، ويحب المساكين؛ لا يطمع القوىُّ فى باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

(١) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ٢١٤) وعيون الأخبار طبع دار الكتب المصرية (ج ٢ ص ١٧٠). وفى الأصل: «القوم».
(٢) الزيادة عن الأمالى طبع دار الكتب (ج ٢ ص ١٤٧).
(٣) وقد ورد هذا الوصف لسيدنا على فى الأمالى بزيادة عما هنا فليراجع.

وذكر عمرو بن مَعْدِ يكَرب بنى سُلَيْم فقال: بارك الله على حىّ بنى سليم، ما أصدق فى الهيجاء لقاءَها! وأثبت فى النوازل بلاءَها! وأجزل فى النائبات عطاءَها! والله لقد قاتلتُهم فما أجبنتهم، وهاجيْتهم فما أفحمتهم، وسألتهم فما أبخلتهم.

وقال بعضُ العرب: فلان حتف الأقران غداةَ النزال، وربيع الضِّيفَان عَشيّة النزول.

وقال آخر: فلان لَيْثٌ اذا غدا، وبدر اذا بدا، ونجم اذا هدى، وسُم إذا أردى.

ودخل النابغة على النُّعمان بن المُنذر بن آمرئ القيس بن عمرو بن عدىّ اللّخمى فحيّاه بتحيّة الملوك، ثم قال: أيفاخرك ذو فائش وأنت سائس العَرب، وغرة الحسب؛ واللاتِ، لأمْسُك أيمن من يومه، ولعبْدك أكرم من قومه، ولفقاك أحسن من وجهه، ولِيسارك أجود من يمينه، ولظنّك أصدق من يقينه، ولوعدك أثلج من رفده، ولخالك أشرف من جدّه، ولنَفَسُك(١) أمنع من جُنده، وليومك أزهر من دهره، ولفترك أبسط من شبره؛ ثم قال:

أخلاقُ مجدك جَلَّتْ ما لها خطر * فى البأس والجود بين الحلم والخَفَرِ(٢)

مُتوّج بالمعالى فوق مَفْرقه * وفى الوغى ضيغم فى صورة القمر (٥٢)

اذا دجا الخطب جلّاه بصارمه * كما يُجلّى زمانُ المحل بالمطر

فتهلّل وجهُ النعمان سرورًا، ثم أمر أن يُحشى فوه درّا، وكُسِىَ أثواب الرضا، وكانت جبابًا أطواقها الذهب بقصب الزُّمرد. ثم قال النُّعمانُ: هكذا فليمدح الملوك.

وذو فائش: هو سَلامة بن يزيد بن سَلامة من ولد يَحْصُب بن مالك وكان النابغة

(١) يقال: إبل أو غنم نفش: ترعى ليلا بلا راع. وفى الأصول: «لنفسك» وهو تحريف.

(٢) الخفر بالتحريك: شدّة الحياء. والذى فى كتاب (التوضيح والبيان فى شعر نابغة بنى ذبيان): «بين العلم والخبر».

مُتّصلا به قبل آتصاله بالنّعمان، وله فيه مدائح كثيرة فآقتص الله تعالى من النّعمان بن المنذر بعد ذلك لما حُكيَ أنه دخل حسان بن ثابت على الحارث الجَفْنِيّ فقال: آنعم صباحا أيها الملك ! السماء غطَاؤك، والأرض وطَاؤك، ووالدى وولدى فداؤك ؛ أنّى ينافسك آبن المنذر ! فوالله لَقذالك أحسن من وجهه، ولأمتك خير من أبيه، ولظلك خير من شخصه، ولصَمْتك أبلغ من كلامه، ولشمالك خير من يمينه؛ ثم قال:

قذالك أحسن من وجهه * وأمتك خيرٌ من المنذر

ويُسرَى يديك اذا أعسرتْ * كيُمنى يديه فلا تمترِ

أخذ المعنى الحسنُ بن هانئ فقال :

بأبى أنت من غزال غرير * بذّ حسنَ الوجوه حسنُ قفاكا

ونظر بعض الشعراء الى هذا المعنى فقال يمدح زُبيدة بنة جعفر بن أبى جعفر المنصور أم الأمين :

أزبيدة بنة جعفر * طوبَى لزائرك المُثاب

تعطين من رجليك ما * تعطى الأكفُّ من الرِّغاب

فلما أنشد ذلك تبادر العبيدُ ليوقعوا به، فقالت زبيدةُ : كفّوا عنه فلم يرد إلّا خيرًا، ومن أراد خيرًا فأخطأ خير ممّن أراد شرًّا فأصاب، إنّه سمع الناس يقولون : قفاك أحسن من وجه غيرك، وشمالك أندى من يمين سواك، فقدّر أن هذا مثل ذاك، أعطوه ما أمّلَ، وعرِّفوه ما جهل . ومثله : مدح شاعرٌ أميرا فقال :

أنت الهمام آبن الهما * م الواسع آبن الواسعهْ

فقال له : من أين عرفتها؟ قال : قد جرّبتها، فقال : أسوأ من شعرك ما أتيت به من عذرك !

قال دخل خالدُ بن عبـد الله القسرى على عمر بن عبد العزيز لمّـا ولى الخلافة فقال : يا أمير المؤمنين من تكن الخلافة قد زانتْه فأنت قد زيّنتها، ومن يكن شرّفته فقد شرفتَها، وأنت كما قال الشاعر :

وإذا الدّر زان حسـنَ وجـوه * كان للدّهر حسنُ وجهك زَيْنَا

فقال عمر بن عبـد العزيز : أُعْطِىَ صاحبكم مَقُولا، ولم يُعْط معقولا . ولمّـا دخل عبـد الله المأمون بغـدادَ تلقّاه وجوه أهلها فقال له رجل منهم : يا أمير المؤمنين، بارك الله لنـا فى مَقْدمك، وزادك فى نعمتك، وشكرك على رِعْيَتك، تقدّمتَ من قبلك، وأتعبت من بعدك، وأياسْتَ أن نُعاين مثلك؛ أمّا فيمن مضى فلا نعرفه، وأمّا فيمن بقى فلا نرجوه؛ فنحن جميعا ندعولك، ونُثنى عليك؛ خَصِب لنا جنابك، وعَذُب شرابك، وحَسُنتْ نُصرتك، وكَرُمتْ مقدرتك؛ جبرتَ الفقير، وفككتَ الأسير؛ فأنت — يا أمير المؤمنين — كما قال الشاعر :

ما زلت فى البذل للنوال وإط * ـلاق لعانٍ بجرمـه غَلِقِ

حـتى تمـنّى البرَاء أنّهـم * عندك أمسوا فى القِدّ والحَلَقِ

وقال رجل للحسن بن سَهْل : لقـد صرت لا أسـتكثر كثيرَك، وإن قليلك أكثر من كثير غيرك . وقال الرشـيد لبعض الشعراء : هل أحدثتَ فينا شيئًا ؟ قال : يا أمير المؤمنين، المديح كلّه دون قدرك، والشّعر فيك فوق قدرى، ولكنى أستحسن قول العَتّابى :

ماذا عسى مادح يُثنى عليك وقد * ناداك فى الوحى تَقديسٌ وتطهيرُ

فتَّ المـادح إلا أن ألسنا * مستنطقات بمـا تخـفى الضمائرُ

وقال رجل فى خالد بن صفوان : قريع المنطق، جزل الألفاظ، عربىّ اللسان، قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل، كثير الطلاوة صموتا قؤولا، يهنأ[1] الجَرِب، ويداوى الدَّبِر، ويقل المحزّ[2]، ويطبق المَفْصِل؛ لم يكن بالزَّمِر فى مروءته، ولا بالهِذِر فى منطقه، متبوعا غير تابع؛ كأنّه عَلَم فى رأسه نار .

وقيل لبعض الخلفاء : إن شَبِيب بن شَيبة يستعمل الكلام ليستعدّ به؛ فلو أمرتَ به أن يصعد المنبر فُجَاءَة لافتضح، قال : فأمر من أخذ بيده فصعد المنبرَ فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبىّ صلى الله عليه وسلّم، ثم قال : إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة، فمنها : الأسد الخادر، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر، فأشبهَ منه صولته ومضاءه؛ وأما البحر الزاخر، فأشبه منه جُوده وعطاءه؛ وأما القمر الباهر، فأشبه منه نوره وضياءه؛ وأما الربيع الناضر، فأشبه منه حسنه وبهاءه، ثم نزل .

وقيل دخل رجل على المنصور فقال له تكلّم بحاجتك؛ فقال : يبقيك الله تعالى يا أمير المؤمنين، قال : تكلّم بحاجتك؛ فإنّك لا تقدر على مثل هذا المُقام فى كلّ حين؛ قال : والله يا أمير المؤمنين، ما أستقصر أجلَك، ولا أخاف بخلَك، ولا (١٥٣) أغتنم مالك؛ وإن عطاءك لشرف، وإنّ سؤالك لزين ، وما بأمرئ بَذَلَ اليك وجهَه نقص ولا شَيْن؛ فأحسن جائزته وأكرمه .

---

(١) يهنأ الجرب، الهناء : القطران أى أنه لا يتكلم إلا فيما يجب الكلام، مثل الطالى الرفيق الذى يضع الهناء موضع الجرب .

(٢) يقل المحز و يطبق المفصل أى يقل الكلام و يصيب المعانى، شبه بالجزار الرفيق يقل جزالهم و يصيب مفاصله . وهذه أمثال تضرب فى البلاغة . راجع عيون الأخبار طبع دار الكتب (ج ٢ ص ١٦٩ والعقد الفريد طبع بولاق (ج ١ ص ٢١٤) .

وقال محمد بن مالك القُرطبيّ من رسالة : ما رأيتُ وجها أسمح ، ولا حِلما أرجح ، ولا سجيّة أسجح ، ولا بشرا أبدى ، ولا كفًّا أندى ، ولا غُرة أجمل ، ولا فضيلة أكمل ، ولا خُلُقًا أصفى ، ولا وعدا أوفى ، ولا ثوبًا أطهر ، ولا سَمْتا أوفر ، ولا أصلا أطيب ، ولا رأيا أصوب ، ولا لفظًا أعذب ، ولا عِرْضا أنقَى ، ولا بناء أبقى ، ممّا خصّ الله به ثالث القمرين ، وسِراج الخافقين ، وعِماد الثّقلين ، المُعْتَصِم بالله .

وقال بعض الكتّاب : إنّ من النعـمة على المُثنِي عليك ألا يخـاف الإفراط ، ولا يأمن التقصـير ، ولا يحذر أن تلحقه نقيصة الكذب ، ولا ينتهى به المدحُ الى غاية إلا وجد فى فضـلك عَونا على تجاوزها ؛ ومن سـعادة جَدِّك أنّ الداعِىَ لك لا يعدم كثرةَ المشايعين له ، والمؤمّنين معه .

وقال آخر : إنى فيما أتعاطَى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر الذى لا يخفى على كلّ ناظر ؛ وأيقنت أنى حيث انتهى بى القول الى العجز مقصرٌ عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك الى الدعاء لك ؛ ووكلت الإخبار عنك الى علم الناس بك .

وقال أبو عبدالله محمد بن الخياط من رقعة طويلة فى المظفّر قال فى أوّلها : حجب الله عن الحاجب المظفّر أعينَ النائبات ، وقبض دونه أيدى الحادثات ؛ فإنه مذ كان أنورُ من الشمس ضياءً ، وأكمل من البدر بهاءً ؛ وأندى من الغيث كفًّا ، وأحمى من الليث أنفا ؛ وأسخى من البحر بنانا ، وأمضى من النصل لسانا ؛ وأنجبه المنصور بفرى على سَنَنِه ، وأدّبه فأخذ بسُننه ؛ وكانت الرياسة عليه موقوفة ، والسياسة اليه مصروفة ؛ قصرت الأوهام عن كنه فضله ، وعجزت الأقلام عن وصف مثله ؛ غير أن الفضائل لابد من نشرها ، والمكارم لا عذر فى ترك شكرها .

فهذه نبذة كافية مما ورد فى المنثور فلنذكر ما ورد من المنظوم فى ذلك .

قال أبو هلال العسكرىّ : سمعتُ أبا أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد[1] يقول : أمدح بيت قالته العرب قول النابغة الذبيانىّ يمدح النّعمان بن المنذر :

ألم تر أن الله أعطاك سُورة * ترى كلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذبُ
بأنك شمس والملوك كواكب * اذا طلعت لم يبدُ منهنّ كوكبُ

وهو مأخوذ من قول بعض شعراءِ كِنْدَةَ يمدح عمرو بن هند :

تكاد تميد الأرض بالناس أن رأوا * لعمرو بن هند غضبةً وهو عاتبُ
هوالشمس وافت يومَ سعدٍ فأفضلتْ * على كلّ ضوء والملوكُ كواكبُ

وقال نُصَيب :

هو البدر والناس الكواكبُ حوله * وهل يشبه البدْرَ المضيءَ كواكبُ

وقالوا : أبدع بيت قيل فى المديح قول النابغة :

فإنك كالليـل الذى هو مدركى * وإن خلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقوله : "أخلاقُ مجدك" — الأبيات وقد تقدمت — وقد تداول الناس معنى قول النابغـة :

* فإنك كالليل الذى هو مُدركى *

فقال الفرزدق :

فـلو حملتْـنى الريحُ ثم طلبتَنى * لكنتُ كشيءٍ أدركته مقادرُهْ

وقول النابغـة أبلغ ، لأن الليل أعمّ من الريح ، والريح يُمتنع منها بأشـياء ، والليل لا يمتنع منه بشىء . وأخذ سَلْمٌ الخاسرُ قول الفرزدق فقال :

(١) كذا فى الأصول . وفى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى نسـخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٨٧٤ أدب) : « سعد » .

فأنت كالدهر مبتوتا(١) حبائله * والدهر لا ملجأ منه ولا هربُ

ولو ملكتُ عِنانَ الريح أصرفه * فى كلّ ناحيةٍ ما فاتك الطلبُ

وقالوا : أجود شىء قيل فى الحسن مع الشجاعة من شعر المتقدّمين والمُحْدَثين قول أبى العتاهية يمدح الرشيد بن المهدى وولده :

بنو المصطفى هارون حولَ(٢) سريره * نخيرِ قيامٍ حوله وقعودِ

تُقلِّب ألحاظَ المهابة بينهم * عيونُ ظباء فى قلوب أسود

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول أبى الطَّمَحان(٣) القَيْنِىّ :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوهُهم * دجى الليل حتى نظَّم الجَزْعَ(٤) ثاقبُهْ

نجوم سماء كلّما انقضّ كوكبٌ * بدا كوكب تأوى اليه كواكبُه

وما زال منهم حيث كان مسوَّدٌ * تسير المنايا حيث سارت كَتائبُه

وهذه الأبيات من قصيدة مدح بها بُجَيْرَ(٥) بنَ أوس بن حارثة بن لأْم الطائى ، وكان أسيرا فى يده، فلما مدحه بها أطلقه بعد أن جزَّ ناصيته ؛ وأوّل القصيدة :

اذا قيل أىّ الناس خيرٌ قبيلةً * وأصبر يوما لا توارى كواكبُهْ

فإنّ بنى لأم بن عمرو أرومة * علتْ فوق صعبٍ لا تُنال مراتبُهْ

أضاءت لهم أحسابهم الابيات .

(١) كذا فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى . وفى الأصول : « مبثوثا » .

(٢) فى ديوان المعانى : « بين » .

(٣) كذا فى الأصول والأغانى والكامل للمبرد وديوان المعانى . وقد ذكرت هذه الأبيات فى الشعر والشعراء لابن قتيبة فى ترجمة لقيط بن زرارة حيث قال : « وبعض الرواة يجعل هذا الشعر أبا الطمحان القينى وليس كذلك انما هو للقيط » .

(٤) الجزع (بفتح الجيم وسكون الزاى) : الخرز اليمانى والصينى ، وهو الذى فيه بياض وسواد .

(٥) كذا فى أحد الأصول والأغانى وشرح القاموس . وفى باقى الأصول والمشتبه فى أسماء الرجال للذهبى « بجير » بفتح الباء وبالحاء المهملة .

ومثله قول آبن أبى السِّمْط :

فتى لا يبالى المدلجون بنوره * الى بابه ألا تضيء الكواكبُ

له حاجبٌ من كلّ أمرٍ يَشينه * وليس له عن طالب العرف حاجبُ (٥٤)

ومثله قول الحُطيئة :

نمشى على ضوء أحساب أضأن لنا * كما أضاءت نجومُ الليل للسارى

ومثله قول الآخر :

وجوهٌ لو آتى المدلجين آعتشَوْا بها * صدعن الدجى حتى يرى الليلُ ينجلى

وقال عيسى بن أوس يمدح الجُنَيد بن عبد الرحمن :

الى مستنير الوجه طال بسؤددٍ * تقاصَرعنه الشاهقُ المتطاولُ

مدحتك بالحق الذى أنت أهله * ومن مِدَح الأقوام حَقٌّ وباطلُ

يعيش الندى مادمت حيًّا فإن تمت * فليس لحىّ بعد موتك طائلُ

وما لآمرئٍ عندى مَخِيلةُ نعمةٍ * سواك وقد جادت علىّ مَخايل

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول الأعشى :

فتًى لو يُنادى الشمسَ ألقت قِناعَها * أو القمرَ السارى لألقَى المَقالدَا

وهذا من الغلو وهو مذموم عند بعضهم .

ومثله فى الغلو قول طُرَيْح بن إسماعيل :

لو قلتَ للسيل دع طريقك والـ * ـموجُ عليه كالهَضْبِ يعتلجُ

لآرتدّ أو ساخ أو لكان له * فى جانب الأرض (١) عنك منعرَجُ

(١) كذا فى الأصول وديوان المعانى . وفى كتاب الشعر والشعراء : «فى سائر الأرض» .

ومن الغلو قول أبى تمّام فى المعتصم بالله :

بِيُمنِ أبى إسحاق طالت يدُ العـلا * وقامت قَناة الدين[1] واشتدّ كاهلُهْ

هو البحر من أىّ النواحِى أتيتَه * فلُجّتُـه المعروفُ والجود ساحلُهْ

تعوّد بسطَ الكفّ حتى لو آنه * أراد انقباضا[2] لم تُطعْـه أنامـلُهْ

ولو لم يكن فى كفّـه غيرُ نفسـه * لجـاد بهـا فليُتّـقِ اللهَ سائلُه

وقال العسكرىّ :

وكيف يَبيت الجارُ منك على صدًى * وكفُّك بحرٌ لُجّة الجود[3] ساحلُهْ

وقال أبو هلال العسكرىّ يرفعه الى الأصمعىّ قال : سمعت أعرابياً يقول : إنكم معاشرَ أهل الحضر لتخطئون المعنى، إنّ أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول : كأنه الأسـد ، ويصف المرأة بالحسن فيقول : كأنهـا الشمس ، ولم لا تجعلون هـذه الأشياء بهم أشبه ؟ ثم قال : والله لأُنشِـدنّك شعرا يكون لك إماما ، ثم أنشدنى :

اذا سألتَ الورى عن كلّ مَكرُمةٍ * لم تُلف نِسـبتها إلا الى الهَـوْلِ

فتى جـواد أعار النيـل نائـله * فالنّيلُ يشكر منـه كثرةَ النّيـلِ

والمـوت يَرهَبُ أن يلقَ منيّتـه * فى شـدّة عند لفّ الخيْل بالخيـلِ

لو عارض الشمس ألفى الشمسَ مظلمةً * أو زاحم الضّمّ أجلاها الى المَيْـلِ

أو بارز الليـلَ غطّتـه قوادمُه * دون الخـوافى كمثلِ الليل فى الليـلِ

أمضى من النجم إن نابته نائبـةٌ * وعنـد أعدائه أجرى من السـيل

---

(١) فى ديوانه طبع مصر : « قناة الملك » .

(٢) كذا فى الأصول وديوان المعانى . وفى ديوانه : « ثناها لقبض الخ » .

(٣) فى ديوان المعانى : « لجة البحر » .

ومثله قول الآخر :

علَّم الغيثَ الندى حتى اذا * ما حكاه علَّم البأسَ الأسَدْ
فله الغيث مقــرٌّ بالندى * وله الليث مقِــرٌّ بالجــلَدْ

وقال أميّة بن أبى الصلت فى عبد الله بن جُدْعان :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى * حياؤك (١) ، إن شيمتك الحيــاءُ
كريم (٢) لا يغيّره صــباحٌ * عن الخُلُق الكريم ولا مَساءُ
وأرضك (٣) أرضُ مكرمة بنتهــا * بنــو تَيْم وأنتَ لها سماءُ

ونحوه قوله :

لكل قبيــلة شرفٌ وعِزٌّ * وأنت الرأسُ تقدمُ كلَّ هادِ

وقال ابن الرومىّ :

قوم يحلّون من مجدٍ ومن شرفٍ * ومن غَنــاء محلَّ البيْض واليَلَبِ
حلّوا محلَّهما من كلّ جُمجمة * نفعا ودفعا (٤) وإطلالا على الرتبِ
قوم هم الرأسُ إذ حسّادهم ذنَبٌ * ومن يمثّــلُ بين الرأس والذنبِ

وقال أبو هلال العسكرى :

فابشر فإنك رأس والعلا جَسَــدٌ * والمجد وجهٌ وأنت السمع والبصَرُ
لولاك لم تك للأيّام مَنقَبَــةٌ * تسمو اليهــا ولا للدهر مفتخَر

(١) كذا فى الأصلين وأكثر الكتب المطبوعة . وفى النسخة الراغبية : « حياؤك ... الحياء » .
(٢) فى شرح ديوان الحماسة طبع مدينة بن وشعراء النصرانية : « خليل ... * ... عن الخلق الجميل ... » .
(٣) فى شرح الديوان المتقدّم : « وأرضك كل مكرمة ... الخ » .
(٤) كذا فى الأصول وديوان ابن الرومى . وفى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : « نفعا ورفعا » .

وقال علىّ بن جَبَلَة :

لولا أبو دُلَف لم تَحْيَ عارفـــةٌ * ولم يَنُـــؤْ نَوْءُ مأمـــولٍ بآمالِ
يابنَ الأكارمِ من عدنان قد علموا * وتالد المجـــد بين العمّ والخـالِ
وناقلَ النـاس من عُدْمٍ الى جِدَةٍ * وصارفَ الدهرِ من حالٍ الى حالِ
أنت الذى تُنزِل الأيّام منزلَهـا * وتُمسك الأرضَ عن خسفٍ وزِلزال
وما مددتَ مدَى طرفٍ الى أحدٍ * إلا قضَـــيتَ بآمـــالٍ وآجال
تَزُورُ سخطا فتمسى البِيضُ راضيةً * وتَســـتهِلُّ فتبكى أوجـــهُ المـال

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول زهير :

تراه اذا ما جئتـــه متهـــللا * كأنك تعطيه الذى أنت سائلُهْ

وعاب بعضهم هـذا البيت وقال : جعل الممدوح يفرح بعرضٍ يناله ، وليس هـذا صفة كبير الهمة. والجيّد قول أبى نوفل عمرو بن محمد الثقفىّ :

ولئن فرحتَ بما يُنيلُك إنه * لبما ينيلك من نداه أفرح
ما زال يعطى ناطقا أو ساكتا * حتى ظننت أبا عَقِيلٍ يمـــزح

ومثله قول أبى تمّام :

أسائلَ نَصرٍ لاتَســـلْه فإنّه * أحنّ الى الإرفاد منك الى الرِّفد

وقالوا أمدح بيت قالته العرب قول الحُطَيئة :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره * تجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقد

(٥٥) وقال القاسم بن حنبل :

من البِيضِ الوجوهِ بنى سِنانٍ * لو آنك تستضىء بهـم أضاءوا
لهم شمس النهـار اذا آستقلّت * ونـورٌ لا يغيّبـــه العـــماءُ

هم حلّوا من الشرف المعلّى * ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
فلو أنّ السماء دنتْ لمجدٍ * ومكرمةٍ دنتْ لهمُ السماءُ

وقالوا أيضا أمدح بيتٍ قيل قول الأوّل :

قومٌ سِنانٌ أبوهم حين تنسبهم * طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يَقْعُدُ فوق الشمس من كرم * قومٌ بعزّهمُ أو مجدِهمْ قَعَدُوا
مُحسّدون على ما كان من نعم * لا ينزِع الله عنهم ماله حُسِدوا

وقالوا : أمدح بيتٍ قاله محدَث، قول مروان بن أبى حفصة فى معن بن زائدة :

بنو مَطَرٍ يومَ اللقاء كأنّهم * أسودٌ لها فى غيلِ[1] خَفّان أشبُلُ
هم المانعون الجارَ حتى كأنما * لجارهمُ بين السّماكَيْنِ منزِلُ
بَهاليلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن * كأوّلهم فى الجاهليّة أوّلُ
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعُوا * أجابوا وإن أُعْطوا أطابوا وأجزلوا

وقال العسكرىّ: وأنشد بعض أهل الأدب قولَ ابن أبى طاهر وقال: لو استعمل الإنصاف لكان هذا أحسنَ مدح قاله متقدّم ومتأخّر، وهو :

إذا أبو أحمد جادت لنا يدُه * لم يُحْمَدِ الأجودان البحرُ والمطرُ
وإن أضاءت لنا أنوارُ غُرّته * تضاءل النيّران الشمسُ والقمر
وإن مضى رأيُه أو جدّ عزمته * تأخّر الماضيان السيفُ والقدَرُ
من لم يكن حَذِرًا من حدّ صولته * لم يدر ما المزعجان الخوفُ والحذَرُ
حُلْوٌ اذا أنت لم تَبعثْ مرارتُه * فإن أمرّ فحلوٌ عنده الصّبِرُ
سهل الخلائقِ إلا أنه خَشِنٌ * لَيْنُ المَهَزّة إلا أنه حجرُ

(١) خفان : موضع قرب الكوفة .

لا حَيَّةٌ ذَكَرٌ فى مثـــل صولتـــه * إن صال يوما ولا الصَّمصامةُ الذكرُ
اذا الرجالُ طغَتْ آراؤهم وعَمُـوا * بالأمر رُدَّ اليـــه الرأىُ والنظر
الجود منـــه عِيانٌ لا ارتيابَ به * إذ جود كلّ جوادٍ عنـده خبر

وقال : ومن المديح القليل النظير قول علىّ بن محمد الأَفْوه :

أوفَوْا من المجدِ والعلياء فى قُلَلٍ * ثُمَّ قواعدُهنّ البأسُ والجـودُ
سُبْط اللقاء اذا شيمت مخايلهم * بُسْل اللقاء اذا صيد الصناديدُ
مُحسَّـدون ومَن يعـلَقْ بحبلِهم * من البريَّةِ يُصْبِحْ وهو محسودُ

وقالوا : أمدح بيت قاله محدَث قول على بن جَبَلَة فى أبى دُلَف :

إنما الدنيا أبو دُلَـف * بين (١) باديـــه ومحتضَـــرِهْ
فاذا ولّى أبـــو دُلَـف * ولّتِ الدُّنيا على أثـــرِهْ

وهى من القصائد المشهورة، وأولها :

ذاد وِرد الغىّ عن صَـدَرِهْ * وارعوى واللهوُ من وَطَرِهْ

جاء منها فى مدحه :

يا دواء الأرض إن فسـدتْ * ومُجـيرَ اليسر من عُسُرِهْ
كل من فى الأرض من عربٍ * بين باديه الى حضرِه
مســـتعيرٌ منـــه مكرمةً * يكتسيها يومَ مفتخَـــرِهْ
إنما الدنيا أبـــو دلف * ... ...

قال العسكرىّ : ومن المديح البارع قول بشار :

ألا أيها الطـالبُ المبتغِى * نجـــومَ السماء بسعىٍ أَمَمْ

(١) كذا فى الأصول : وفى ديوان المعانى : « مبداه » .

سمعتَ بمكرمة ابن العلاءِ * فانشأت تطلبُها لستَ ثمّ
اذا عَرَض الهمُّ فى صدره * لَهَا بالعطاء وضرب البُهَمْ
فقل للخليفة إن جئته * نصيحا ولا خيرَ فى المتَّهَمْ
اذا أيقظتْك(١) جسامُ الأمورِ * فنبِّهْ لها عُمَرًا ثمّ نَمْ
فتًى لا يبيت على دِمنة * ولا يشرب الماء إلا بدَمْ
يحبّ العطاءَ وسفك الدماءِ * فيغدو على نِعَمٍ أو نِقَمْ

قال ومن المديح القليل النظير : قول أُمَامة بنت الحُلَاح الكلبيّة :

اذا شئت أن تلقى فتى لو وزنته * بكلّ معَدّىّ وكلّ يمانى
وفَى بهُمُ جودًا وحلما وسؤددًا * وبأسًا فهذا الأسود بن قنان
فتى كالفتاة البكر يُسفِرُ وجهُهُ * كأن تلالى وجهه القمران
أغرُّ(٢) أبُرُّ ابنى نِزار ويعرُبٍ * وأوثقُهم عَقْدا بقول لسان
وأوفاهُمُ عهدًا وأطولُهم يدا * وأعلاهُمُ فِعْلا بكلّ مَكانِ
وأضربُهم بالسيف من دون جارِه * وأطعنُهم من دونه بسنانِ
كأنّ العطايا والمنايا بكفّه * سحابانِ مقرونانِ مؤتلفانِ

ومن المديح البارع قول أبى تمّام :

رأيت لعيّاشٍ خلائقَ لم تكن * لتُكمَل إلّا فى اللُّباب المهذّبِ
له كرمٌ لو كان فى الماء لم يَغِضْ * وفى البرق ما شام امرؤ برقَ خُلَّبِ
أخو عزماتٍ بذله بذلُ محسنٍ * الينا ولكن عذره عذر مذنبِ

(١) كذا فى الأصول وديوان المعانى . وفى كتاب الشعر والشعراء : * اذا أيقظتك حروب العدا *
وفى الأغانى : * إذا دهمتك عظام الأمور *
(٢) فى أحد الأصلين «أعز» .

يهولك[1] أن تلقاه فى صـدر محفلٍ * وفى نحرِ أعداء وفى قلب موكبِ
وما ضيقُ أقطار البلاد أضافنى * اليك ولكن مذهبى فيك مذهبى
وهذى[2] ثياب المدح فاجرُرْ ذيولها * عليك وهذا مركب الحمد فاركبِ

وقد أحسن التنوخىّ فى قوله :

وفتيةٍ من حِمْيَرٍ حُمرِ الظُّبَا * بيضِ العطايا حين يَسودُّ الأَمْل
شُموسِ مجـدٍ فى سموات عُلاً * وأُسْـد موتٍ بين غاباتِ أَسَلْ

وقالت الخنساء فى أخيها صخر :

(٥٦) طـويل النجاد رفيـع العما * د ساد عشـيرتَه أمردا
اذا القـوم مدّوا بأيديهـمُ * الى المجـدِ مدَّ اليـه يدا
فنـال الذى فـوق أيديهـمُ * من المجد ثم مضى مُصْعِدا
فكلفه القـومُ ما عالهـم * وإن كان أصـغرهم مَوْلدَا
ترى الحمـد يهوى الى بيتـه * يرى أفضلَ الكسب أن يُحمَدا

وقال آخر :

ومُصْعِدٍ هضباتِ المجد يطلُعها * كأنه لسكون الجأش منحدرُ
ما زال يسبِق حتى قال حاسِدُه * له طريقٌ الى العَلياء مُخْتَصرُ

وقال إبراهيم بن العباس :

تَلِجُ السّنون ببيوتهم وترى لها * عن بيت جارهم أزورار مناكب

(١) فى ديوانه : يهولك أن تلقاه صدرا لمحفل * ونحرا لأعداء وقلبا لموكب
(٢) كذا فى ديوانه وديوان المعانى . وفى الأصول : «وهذى بنات المدح الخ» وهو تحريف .

وتراهُمُ بسيوفهم وشفارهم * مستشرفين لراغبٍ أو راهبِ
حامين أو قارين حيث لقيتهم * نهبَ العفاة ونزهةً(١) للراغبِ

وقال أيضا :

اذا السَّنَةُ الشهباءُ مدّتْ سماءَها * مددت سماءً دونها فتجلّتِ
وعادت بك الريح العقيم لدى القِرى * لِقاحا فدرّت عن نداك وطَلّتِ

وقال ابن الرومىّ :

كأن مواهبه فى المحو * ل آراؤه عند ضِيق الحيلْ
فلو كان غيثًا لعمّ البلاد * ولو كان سيفا لكان الأَجَلْ
ولو كان يُعطى على قدره * لأغنى النفوس وأفنى الأملْ

وقال أبو الحسن بن أبى البغل البغدادىّ يمدح أبا القاسم بن وهب وقد تقدّم ذكر بعضها لابن أبى طاهر :

اذا أبو قاسم(٢) جادت لنا يدُه * لم يُحمد الأجودان البحر والمطرُ
وإن أضاءت لنا أنوارُ غرّته * تضاءل النيّران الشمس والقمرُ
وإن بدا رأيُه أو جدّ عَزْمتُه * تأخر الماضيان السيف والقَدرُ
ينال بالظنّ ما كان اليقين به * والشاهدان عليه العين والأثرُ
كأنّه وزمام الدهر فى يده * يدرى عواقب ما يأتى وما يَذَرُ

وقال ذو الرمّة :

يطيب تُراب الأرض أن ينزلوا بها * وتختال أن تعلو عليها المنابرُ

(١) كذا فى الأصول . وفى الأغانى ج ٩ ص ٣٣ طبع بولاق : «نهزة» أى فرصة «يقال : هو نهزة المختلس أى صيد لكل أحد» .
(٢) الذى تقدم : «اذا أبو أحمد» .

وما زلت تسمو للعالى وتجتنى * جنى المجد مذ شُدّتْ عليك المآزِرُ
الى أن بلغتَ الأربعين فأُلقِيَت * اليك جماهير الأمور الأكابرُ
فأحكمتَها لا أنت فى الحكم عاجز * ولا أنت فيها عن هُدى الحقّ جائرُ (١)

وقال الشّريف الرّضىّ :

يا مُخْرِس الدّهر عن مقالته * كلّ زمان عليك متّهمُ
شخصُك فى وجه كلّ داجية * مُضَحّى وفى كل مُجْهَل عَلَمُ

وقال أبو الحسن السّلامىّ :

اذا زرتَه لم تلق من دون بابه * حجابا ولم تدخل عليه بشافع
كماء الفرات الجمّ أعرض وِرْدَه * لكلّ أناس فهو سهل الشرائع
تراه اذا ما جئتَه متهللا * تهلّل أبكار الغُيُوث الهوامع

وقال محمّد بن الحسين الأرمدىّ (٢) :

من القوم لما استغرب المجدَ غيرُهم * من الناس أمسَوْا (٣) فيه فوق الغرائبِ
اذا سالموا كانوا صدور مراتب * وإن حاربوا كانوا قلوب مواكبِ
جواد متى ما رامت الريحُ شأوه * كبت دون مَرْمى خطوه المتقاربِ
وبحر ندًى لو زاره البحر حدّثت * عجائبُه عن فعله بالعجائب

وقال الأصمعى : كنتُ بالبادية فرأيتُ امرأةً على قبر تبكى وتقول :

فمن للسؤال ومن للنوال * ومن للمقال ومن للخُطبْ
ومن للحُماة ومن للكُماة * اذا ما الكماة جثوْا للرُّكَبْ

(١) كذا فى النسخة الراغبة . وفى الأصلين الفتوغرافين : «حائر» .
(٢) فى النسخة الراغبة : «الآمدى» .
(٣) فى النسخة الراغبة : «منه» .

اذا قيـــل مات أبو مالكٍ * فتى المكرمات قريع العربْ
[فقـد مات عزّ بنى آدم * وقد ظهر النّكد بعد الطرب] (١)

قال : فملتُ إليها ، وسألتُها عنه ، فقالت : فديتُك ! هذا أبو مالك الحجّام ، ختن أبى منصور الحائك . [قلت : عليك لعنة الله] (١) فما ظننتُ إلا أنه من سادات العرب .

وقال العِماد الأصفهانىّ :

حيّون يُخفون إحسانهم * و يعتذرون كأن قـد أساءوا
اذا ظلم الدهر أعدوا عليـه * و إن أظلم الخطبُ يوما أضاءوا
بمثـــلكُمُ قـــد أقرّ الرجال * فمثلكُمُ لم تلده النّســاءُ
وللنـاس من حسن أيّامكم * بدولتـكم كلّ يوم هنـاءُ

وقال أيضا :

فَـلاً طُوينّ عـــلى أغرّ مُحَجَّل * عرضَ الفـــلاة الى أغرّ محجّبِ
ليث الوغى غَوث الورى غَيْث النّدى * بدر النّـدىّ نعم وصـدر الموكبِ
واذا آستوى فى دَسْـته مالت له * أعنـاقُ كل متوّج ومُعَصّبِ
وتميت رأفتُـه حُقودَ عُـداته * وتَحُـلّ هيبتُـه عقـود المُحتبى
إنّ الممالك ما تزال برأيه * فى صـائب وبجـوده فى صيّبِ
يحبـوك معتـــذرا اليـك فيـا لَه * من محسن تعروه نجلة مُذنبِ
يُزْهَى بأصـــلٍ فى العَـلاء مُخَيَّم * شـــرفا وفرع بالكرام مطنّبِ

وقال أحمد بن محمد النامىّ :

له سُورة فى البشر تُقرأ فى العلا * وتُثبَتُ فى صُحُف العطاء وتُكتَبُ
اذا ما عـــلىٌّ أمطرتك سماؤه * رأيتَ العـلا أنواؤها تتحلّبُ

(١) الزيادة عن أمالى القالى ج ١ ص ٦٣

وأزهر يَبيضّ الندى منه فى الرضا * وتحمرُّ أطرافُ القناحين يغضبُ
أميرَ الندى ما للندى عنك مَذهبٌ * ولا عنك يوما للرغائب مَرْغَبُ

وقال أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى :

سيِّدٌ شادت علاه له * فى العلا آباؤه النجبُ
وله بيتٌ تُمَدّ له * فوق مجرى الأنجم الطُّنُبُ
حسبه بالمصطفى شرفًا * وعلىٌّ حين ينتسبُ
رتبةٌ فى العز شامخةٌ * قصُرتْ عن مثلها الرتبُ

(٥٧)

وقال ابن نباتة السعدى :

يَرَى الشمسَ أمًّا والكواكبَ إخوةً * وينظرُ من بدر السماء الى تِرْبِ
غنيتُ عن الآمال حين رأيتُه * وأصبح من بين الورى كلّهم حسبى
فلم أطلب المعروفَ من غير كفّه * وهل تطلب الأمطار إلا من السحب

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكى :

لو تيل بالمجد فى العلياء منزلةٌ * لنال بالمجد أعنانَ السمواتِ
يرمى الخطوبَ برأيٍ يُستضاء به * اذا دجا الرأىُ من أهل البصيراتِ
فليس يلقاه إلا عند عارفة * أو واقفا فى صدور السمهريّاتِ

وقال أبو طالب المأمونى :

قد وجدنا خطا الكلامِ فساحًا * فجعلنا النسيبَ فيك امتداحا
وأفضنا ما فى الصدور ففاض الـ * ـمدح قبلَ النسيب فيك انفساحا
وعمدنا الى علاك فصغنا * لصدور القريض منها وشاحا
وصدعنا فى أوجه الشِّعرِ من بيـ * ـضِ مَساعيكَ بالندى أوضاحا

كم كسير جبرته وفقير * مستميح رددته مُستماحا
وأمانٍ نُحرِس بسطتَ لها فى الـ * ـقول حتى أعدتهنّ فِصاحا
وبلادٍ جـواحٍ رُضْتَها بالـ * ـعزم حتى أنسيتهنّ الجماحا
شهَرَتْ منك آلُ سامانَ عضبا * يُنجح السعىَ غربهُ إنجاحا
لا يذوق الإغفاء إلا رجاءً * أن يرى طيف مستميح رواحا

وقال أحمد بن محمد النامىّ :

أميرَ العلا إن العوالِى كواسبٌ * عَلاءَك فى الدنيا وفى جَنّة الخُلدِ
يَمرُّ عليك الحولُ سيفُك فى الطُّلَا * وطرفُك ما بين الشكيمةِ واللَّبْدِ
ويَمضى عليك الدهرُ فعلُك للعُلا * وقولُك للتقوَى وكفُّك للرِّفدِ

وقال أيضا :

فتى قسّم الأيّام بين سيوفه * وبين طريفاتِ المكارمِ والتلدِ
فسوّد يوما بالعَجاج وبالردى * وبيَّضَ يوما بالفضائل والمجد(١)

وقال الصاحب بن عبّاد :

أيّها الآملون حُطّوا سريعا * برفيع العماد وارى الزنادِ
فهو إن جاد ذُمّ حاتم طىءٍ * وهو إن قال فلّ قُسّ إيادِ
وإذا ما آرتُئِى فأين زيادٌ * من علاه وأين آل زيادِ

وقال أبو طالب المأمونىّ من قصيدة :

فتًى مُلئتْ بردتاه عُلًا * ونُبلا وفضلًا ومجدًا وخيرا
اذا ضمّه الدَّستُ ألفيتَه * سحابًا مَطيرًا وبدرًا مُنيرا

(١) كذا فى يتيمة الدهر (ج ١ ص ١٦٨) . وفى الأصول : « والمجد » .

وإن أبرزَتْه وغَّى خلتَـه * حُساما بَتورا وليثا هَصـورا
فطورا مُفيـدا وطورا مُبيدا * وطورا مجـيرا وطورا مبيرا (١)
ترى فى ذراه لسانَ المنى * طويلا وباعَ الليالى قصـيرا
تضمّ الأسرَّة منـه ذُكاءً * وتحمل منـه المـذاكى ثبـيرا

وقال أبو الطيّب المتنبى :

يمشى الكرام على آثار غـيرهِمُ * وأنت تَخـلُق ما تأتى وتبتـدعُ
من كان فوق محلِّ الشمس موضعُه * فليس يرفعـه شىء ولا يضـع

وقال أبو المعالى محمد بن مسعود الأصفهانىّ شاعر الخريدة :

قـد حلَّ فى مَدرَج العلياء مرتبـةً * مطـامحُ الشهبِ عن غاياتها تقِفُ
أغْرَى بوصف معاليه الورى شغَفًا * لكنه والمعـالى فوق ما وصـفوا
إن ناصبتْه العـدا فالدهر معتـذر * أو أنكروا فضـله فالمجد معـترِف

وقال السَّلَامىّ شاعر اليتيمة :

يزور نائلُك العـافى وصارمـك الـ * ـعاصى فتحويهـما أيدٍ وأعنـاقُ
فى كلّ يوم لبيت المجـد منك غِنًى * وثروةٌ ولبيت المـال إمـلاقُ
كم خضتَ من لجـةٍ للنفع زاخرة * ماءُ المنون بها — حاشاك — دفّاقُ

وقال المتنبى :

أنت الجوادُ بلا مَنّ ولا كدرٍ * ولا مطالٍ ولا وعدٍ ولا مَذَل (٢)

(١) كذا فى يتيمة الدهر . وفى الأصول : « وطورا أميرا » والمبير : المهلك .

(٢) كذا فى الأصلين و يتيمة الدهر وديوانه . و فى النسخة الراغبية : « ملل » وهو تحريف . والمذل : الفترة والضجر والقلق .

وقال أبو الفرج البَبّغاء :

لا غيثُ نعماه فى الورى خلّب الـ ... ـبرق ولا وِردُ جوده وشَـلُ
جاد الى أن لم يُبـقِ نائلُه ... مالًا ولم يَبـقَ للـورى أملُ

وقال محمد بن الحسن الحاتمىّ شاعر اليتيمة :

ومَن عوّدتْه المكرماتُ شمائلا ... فليس له عنها — ولو شاء — ناقلُ
و إن راسل الأعداء فالجرد (١) رُسْلُه ... اليهـم وأطراف العوالى الرسائلُ
عظُمتَ فهذا الدهرُ دونك همةً ... وجُدتَ فهذا القَطرُ عندك باخلُ

وقال مؤيّد الدين الطغرائىّ :

لو دبَّ رأيُك فى كعوبِ قنًا ... ما مسّها (٢) طَنَبٌ ولا (٣) خطلُ
أو كان ضوءُك للغـزالة لم ... يَحجبْ ضياءَ جبينها الطَّفَلُ
أو كان لطفُك فى الحياة لما ... طافت بها الأسقام والعللُ
أنت الذى لولا علاه عَفَتْ ... طُرُقُ الهدى وآستبهم السُّبُلُ
فى كلّ شِعْبٍ من رويّتـه ... شُعَبٌ ومن آرائه شُعَلُ
يرتدّ عنـه جفنُ حاسدِه ... فكأنه بالنـار يكتحـلُ
وجهٌ كيوم الصحو مبتسمٌ ... ويدٌ كلَيْـل الدَّجنِ تَنهملُ
مَسحَتْ على الأنواء راحتُه ... فآنساق منها العارِض الهطلُ
إن ضنّ غيثٌ أو خبا قمرٌ ... بجبينـه ويمينه البـدَلُ

(١) كذا فى أحد الأصلين و يتيمة الدهر . وفى الأصل الآخر والنسخة الراغبية : « فالجود » وهو تحريف .

(٢) الطنب : العوج .

(٣) كذا فى النسخة الراغبية وأحد الاصلين . وفى الاصل الآخر : « ولا خلل » .

وقال ابن الرومىّ :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم * فى الحادثات اذا دجون نجومُ
فيها مَعالم للهدى ومَصابحُ * تجلُو الدجَى والأخريات رُجومُ

وقال أبو الطيّب المتنبّى :

قومٌ بلوغُ الغلام عندهُمُ * طعنُ نحورِ الكماةِ لا الحُلُمُ
كأنما يولَد الندَى معهم * لا صِغَرٌ عاذِرٌ ولا هَرَمُ
إذا تولَّوا عداوةً كشفوا * وإن تولَّوا صنيعة كتموا
تظن من فقدك اعتدادهِم (١) * أنهمُ أنعموا وما علموا
إن برقوا فالحتوفُ حاضرة * أو نطقوا فالصواب والحِكَمُ
أو شهدوا الحربَ لاقحًا أخذوا * من مُهَج الدارعين ما احتكموا
أو ركبوا الخيلَ غيرَ مُسرجةٍ * فإن أفخاذَهم لها حُزُمُ
تُشرق أعراضُهم وأوجُههم * كأنها فى نفوسهم شِيَمُ
أعيذكمْ من صروفِ دهركُمُ * فإنه فى الكرام متَّهَمُ

وقال أيضا :

ودانت له الدنيا فأصبح جالسا * وأيّامُه فيما يريد قيامُ
وكلّ أناس يبتغون إمامهم * وأنت لأهل المكرمات إمامُ

وقال أيضا :

هم المحسنون الكرَّ فى حَومة الوغى * وأحسنُ منه كرُّهم فى المكارمِ
ولولا احتقار الأسد شبّهتُها بهم * ولكنها معدودةٌ فى البهائم

(١) كذا فى ديوان المتنبى و يتيمة الدهر للثعالبى . والمعنى : أنهم لا يعتدّون بصنيعهم وانعامهم كأنهم لم يعلموا بذلك . وفى الاصول : « تظنّ من كثرة إعتذارهم ... الخ » .

وقال المشوّق الشامىّ شاعر اليتيمة :

يروح الى كسبِ الثناءِ و يغتدى * اذا كان هَمُّ الناس كسبَ الدراهمِ
و إن جلس الأقوامُ عن واجبِ الندَى * وحقِّ العطايا كان أوّلَ قائمِ
يزيد آبتهاجا كلّما جاء قاصد (١) * كأنّ به شوقًا إلى كلّ قادمِ

وقال السلامىّ شاعرها :

تُشبّهه المُدّاح فى البأس والندَى * بمن لو رآه كان أصغرَ خادمِ
ففى جيشه خمسون ألفا كعنترٍ * وأمضَى وفى خُزّانه ألف حاتم

وقال أبو طالب المأمونىّ من قصيدة :

يُعمِّم بالهندىّ حين يسُلُّه * أسودَ الوغى بالضرب فوق العمائم
فلا مُلكَ إلا ما أقمّت عروشَه * ولا غيث إلا ما أفضتَ لشائم
ولا تاجَ إلا ما تولّيتَ عَقْدَه * على جَبهة المَلْكِ المكنّى بقاسم
فرأيك نجمٌ فى دُجى الليل (٢) ثاقبٌ * وعزمُك عَضبٌ فى طُلى كلّ ناجم

وقال المشوّق الشامىّ :

ما زال يبنى كعبةً للعلا * ويجعل الجود لها ركنًا
حتى أتى الناسُ فطافوا بها * وقبّلوا راحته اليُمنَى

وقال المأمونىّ من قصيدة :

همام يُبكّى المشرفيّةَ ساخطا * و يُضحك أبكارَ الأمانىّ راضيا
ولو أنّ بحرا يستطيع ترقّيا * اليه لأم البحرُ جدواه راجيا

(١) كذا فى النسخة الراغبة و يتيمة الدهر . وفى الأصلين الفتوغرافيين : « كلما زار قاصدا » .
وفى اليتيمة أن هذه الأبيات من شعر عبد المحسن بن محمد الصورى .
(٢) فى يتيمة الدهر : « الخطب » .

ذكر ما قيل فى الأفتخار

قالوا : أفخر بيت قالته العرب قول جرير :

إذا غضِبتْ عليك بنو تميم (١) * حسبتَ الناس كلَّهمُ غضابا

قال : دخل رجل من بنى سعد على عبد الملك بن مروان فقال له : ممن الرجل؟ قال : من الذين قال لهم الشاعر :

اذا غضبت عليك بنو تميم * البيت .

قال : فمن أيّهم أنت؟ قال : من الذين يقول فيهم القائل :

يزيدُ بنُو سعدٍ على عَدَد الحصى * وأثقلُ من وزن الجبال حُلومُها

قال : فمن أيّهم أنت؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :

ثيابُ بنى عوفٍ طَهارَى نقية * وأوجههم (٢) عند المشاهِدِ غُرَّانُ

قال : فمن أيّهم أنت؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :

فلا وأبيكَ ما ظَلَمتْ قُرَيعٌ * بأن يبنوا المكارمَ حيث شاءوا

قال : فمن أيهم أنت؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :

قوم هم الأنف والأذناب غيرُهُم * ومن يسوّى بأنف الناقة الذنَبا

قال : آجلس، لا جلَست؛ والله لقد خفت أن تفخر علىّ ! .

وقالوا : أفخر بيت قالته العرب قول الفرزدق :

ترى الناس ما سِرنا يسيرون خلفنا * وإن نحن أومأنا الى الناس وَقَّفوا

---

(١) فى ديوان المعانى : « إذا غضبت علىّ » .

(٢) فى لسان العرب مادة «غر» : «بيض المسافر ... » فى احدى روايتيه .

وقال عمرو بن كلثوم وهو أبلغ ما قاله جاهلىّ فى الافتخار :

ونحن الحاكمون إذا أُطِعنا * ونحن العارمون[1] اذا عُصِينا
ونحن التاركون لما سَخِطْنَا * ونحن الآخذون لما رَضِينا

وقال إبراهيم بن العبّاس :

إما ترينى أمامَ القوم متّبعًا * فقد أُرى من وراء الخيل أَتّبعُ
يوما أُبيحُ فلا أرعى على نَشَب * وأستبيح فلا أُبقى ولا أدَعُ
لا تسألى القومَ عن حىّ صبَحْتُهُم * ماذا صنعتُ وماذا أهلُه صنعوا

وقالوا : من أحسن ما مدَح به الرجلُ نفسَه قولُ أعشَى ربيعة :

وما أنا فى نفسى ولا فى عشيرتى * بمهتضَمٍ حقّى ولا قارعٍ سِنّى
ولا مُسلِمٍ مولاى عند جناية * ولا خائفٍ مولاى من شرّ ما أجنى
وإن فؤادى بين جنبىّ عالمٌ * بما أبصرتْ عينى وما سمِعتْ أذنى
وفضّلنى فى الشّعر واللُّبّ أننى * أقول على علمٍ وأعلمُ ما أعنى
فأصبحتُ إذ فضّلتُ مروانَ وابنَه * على الناس قد فضّلتُ خيرَ أبٍ وابنِ

وقال أبو هفّان :

لعمرى لئن بُيِّعت فى دارِ غُربةٍ * ثيابىَ إذ ضاقت علىّ المآكلُ
فما أنا إلا السيف يأكلُ جَفنَه * له حليةٌ من نفسه وهو عاطِلُ

قال أبو هلال العسكرىّ : ولا أعرف فى الافتخار أحسن مما أنشده أبو تمام وهو :

فقل لزُهَير إن شتمتَ سَراتنا * فلسنا بشتّامين للمُتشتِّم

(١) كذا فى جمهرة العرب . والعارم : صاحب العرام وهو الشدّة والقوّة والشراسة . وفى النسخة الراغبية وشرح المعلقات : «العازمون» بالزاى المعجمة . وفى باقى الأصول : «العاتمون» .

ولكننا نأبَى الظّلامَ[1] ونقتضى * بكلِّ رقيق الشفرتين مصمِّمِ
وتجهـل أيدينا ويحلمُ رأيُنـا * ونَشتُمُ بالأفعالِ لا بالتـكلُّمِ

ومن الافتخار قول السموءل بن عادياء من كلمته التى أولها :

اذا المرء لم يَدنَسْ من اللؤم عِرضُه * فكلّ رداء يرتديه جميـلُ
وإن هو لم يَحمِل على النفس ضَيْمَها * فليس إلى حُسن الثناء سبيلُ
وقائـلةٍ ما بالُ أُسرةِ عادِيَا * تُنادِى وفيهـا قِلّةٌ وحُمـولُ
تُعـيِّرنا أنّا قليـلٌ عَـديدُنا * فقلتُ لها إنّ الكرامَ قليلُ
وما قَـلَّ من كانت بقاياه مثلَنا * شَـبابٌ تَسامَى للعـلاَ وكُهولُ
وما ضَرَّنا أنّا قليـلٌ وجارُنا * عزيز وجار الأكثرين ذليلُ
وأنّا أناسٍ[2] لا نَرى القتـلَ سُبَّةً * اذا ما رأته عامرٌ وسَـلُولُ
يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنـا * وتكرهُـهُ آجالُهُـم فتطـولُ
وما مات منّا سيدٌ حتفَ أنفه * ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قتيلُ
تَسيلُ على حدِّ الظُّباة نفوسُـنا * وليست على غير الظُّباة[3] تَسـيلُ
صفونا فلم نكدُر وأخلص سِرُّنا * إناثٌ أطابتْ حَمْلَنا وفحـولُ
علونا الى خير الظهور وحطّنا * لوقت الى خير البطون نُزولُ
فنحن كماء المُزنِ ما فى نِصابنا * كَهامٌ ولا فينا يُعدّ بخيلُ
ونُنكر إن شئنا على الناس قولَهم * ولا يُنكرون القولَ حين نقولُ
اذا سـيّد منا خلا قام سـيّد * قؤولٌ لما قال الكرامُ فعـولُ

(١) الظلام : الظلم .
(٢) رواية الأمالى : «وانا لقوم ما نرى ... » .
(٣) رواية الأمالى : « السيوف » .

وما أُخمدتْ نارٌ لنا دونَ طارقٍ * ولا ذمَّنا فى النازلين نزيلُ
وأيامُنا مشهورة فى عَدوِّنا * لها غُرَرٌ معلومة وحُجولُ
وأسيافنا فى كلِّ شرق ومغربٍ * بها من قِراع الدراعين فلُولُ
معوّدة ألا تُسَلَّ نِصالُها * فتُغمدَ حتى يُستباحَ قبيلُ
سلى إن جهلتِ الناس عنا وعنهمُ * وليس سَواء عالمٌ وجَهولُ
فإن بنى الدّيّانِ قطبٌ لقومهمْ * تدورُ رحاهم حولهم وتجولُ

وقال أبو هلال العسكرى من قصيدة :

وما ضاع مثلى حيث حلّت ركابُه * بلى حيث ضاع المجد مثلَ ضائعُ
ومِثلى مخضوعٌ له غير أنه * اذا كان مجهول الفضائل خاضعُ
ومثلى متبوعٌ على كل حالة * فإنْ ينقلب وجه الزمان فتابعُ

وقال عبد الله بن المعتز :

سألتكما بالله هل (١) تُعلمانى * ولا تكتما شيئا فعندكما خُبْرى
أأرفعُ نيرانَ القِرى لعُفاتِها * وأصبر يوم الرَّوْع فى ثُغرة الثَّغرِ
وأسأل نَيْلا لا يُجاد بمثله * فيفتحُه بِشرى ويختمه عُذرى

ومن الافتخار قول بعض الشعراء، ويروى لحسّان بن ثابت من قصيدة أوّلها :

أنسيمُ ريحِكِ أم خِيارُ العنبرِ * يا هذه أم ريحُ مسكِ أذفرِ
قولى لطيفك أن يصدَّ عن الحَشى * سطواتِ نيرانِ الأسى ثم آهجرى
وأنهى رُماتَك أن يُصِبنَ مَقاتلى * فينالَ قومَك سطوةٌ من مَعشرى
إنّا من النَّفَرِ الذين جيادُهم * طلعتْ على عاد بريح صَرْصرِ

(١) فى ديوان المعانى : « ما » .

وسَلَبْن تاجى مُـلك قيصرَ بالقنـا * واجتَزْن باب الدرب لابن الأصفَرِ
كم قـد وَلَدنا من كريم ماجدٍ * دامى الأظافـرِ أو ربيع مُمْطـرِ
خُلِقتْ أنامـلهُ لقـائم مُرْهَفٍ * ولِبذْل مَكْرُمة وذِرْوة منـبَرِ
يَلْـقَى الرماحَ بوجهِهِ وبصـدره * ويُقـيم هامته مقـام المِغْفَـرِ
ويقول للطَّرف اصطبر لِشَبا القَنا * فهدمتَ ركنَ المجـدِ إن لم تَصبِرِ
واذا تأمَّل شخصَ ضيفٍ مُقبِـلٍ * مُتسرْبِلٍ سِربالَ ثـوبٍ أغـبَرِ
أوما الى الكَوْماء هـذا طارقٌ * نحـرتْنَى الأعداءُ إن لم تُنْحَـرى

ذكر ما قيل فى الجود والكرم وأخبار الكرام

حقيقة الجود بذل المال، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾. ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله استخلص هـذا الدِّينَ لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاءُ وحسنُ الخُلُق ألَا فزيِّنوا دينكم بهما" وقال صلى الله عليه وسلم : "تجاوزُوا عن ذنب السَّخِىّ فإن الله عز وجل آخذ بيده كلما عثَر وفاتح له كلما افتقر" وقال صلى الله عليه وسلم : "الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله عليكم" . "ألا إن السخاء شجرة فى الجنة أغصانها متدلية فى الأرض فمن تعلّق بغصن منها أدخله الجنة" . "ألا إن السخاء من الإيمان والإيمان فى الجنة" . وقال علىّ بن عبد الله بن عبّاس : سادةُ الناس فى الدنيا الأسخياء . وقال بعضُ الحكماء : الجوّاد من جاد بماله وصان نفسه عن مالِ غيره . وقيل لعمرو بن عبيد : ما الكرم؟ فقال : أن تكون بمالك متبرّعا، وعن مال غيرك متورّعا . ويقال : مراتب السخاء ثلاثة : سخاء وجودٌ وإيثارٌ، فالسخاءُ إعطاء

الأقل وإمساك الأكثر، والجود إعطاء الأكثر وإمساك الأقل، والإيثارُ إعطاء الكل من غير إمساك لشيء، وهو أشرف درجات الكرم، وبه استحقُّوا ثناء الله عزّ وجلّ عليهم فى قوله : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ . ومن كلامٍ يُنْسَب الى جعفر بن محمّد : لا يتمّ المعروفُ إلا بثلاثة : تعجيله، وتصغيره، وسَتْره . الجُودُ زكاةُ السّعادة، والإيثار على النفس موجب لاسم الكرم ، وقال : لا يَسْتَحيي مَن بَذَل القليل فإن الحِرْمان أقلّ منه . قال بعضُ الشّعراء :

أَعط القليلَ ولا يمنعك قِلّتُه ✲ فكلُّ ما سدّ فقراً فهو محمودُ

وقال علىُّ بن الحسين : الكريم يبتهج بفضله، واللئيم يفتخر بماله .

وقال الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما : أيّها الناس من جَاد سَاد، ومن بخُل رذُل، وإن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه . وقيل ليزيد بن معاوية : ما الجود ؟ قال : أن تُعطى المال من لا تعرِف، فإنّه لا يصير اليه حتى يتخطّى من تعرِف .

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه : لو لم يكن فى الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى تَسَمَّى بها، فهو الكريم عزّ وجلّ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه" . وقيل لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفتَ فى بذل المال، قال : إن الله عز وجل قد عوّدنى بعادة أن يتفضل علىّ، وعودته أن أتفضل على عباده، وأخاف أن أقطع العادة فيقطعَ عنى . وقال المأمون لمحمد بن عباد المهلّبىّ : إنك مِتْلاف، قال : منعُ الموجود[1]، سوء ظنّ بالمعبود . قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ . وقال أكثم بن صيفىّ حكيمُ

(١) كذا فى هامش أحد الأصلين الفتوغرافيين وكتب عليه كلمة «صواب» . وفى سائر الأصول والعقد الفريد (ج ١ ص ٨٤) : «منع الجود» .

العـــرب : ذلّلـوا أخلاقكم للمطـالب، وقودوها الى المحامد، وعلّموها المكارم، ولاتقيموا[(١)] على خلق تَذُمُّونَه من غيركم، وصِلُوا من رغِب اليكم، وتحلّوا بالجود يكسبكم[(٢)] المحبة، ولا تعتقدوا البخل لتعجلوا الفقر . أخذه شاعر فقال :

أَمِنْ خوف فقر تعجّلتَه ٭ وأخّرتَ إنفـاق ما تجمـعُ
فصرتَ الفقير وأنت الغنىّ ٭ وما كنتَ تعدو الذى تصنعُ

وكتب رجل من البخلاء الى رجل من الأسخياء يأمره بالإنفاق على نفسه ويخوّفه الفقر، فأجابه : ﴿ اَلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ اَلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ﴾ وإنى أكره أن أترك أمرا قد وقع لأمر لعلّه لا يقع .

وكان سعيد بن العاصى يقول على المنبر : من رزقه الله رزقا حسنا فلينفق منه سرا وجهرا حتى يكون أسعد الناس به ، فإنما يترك ما يترك لأحد رجلين : إما لمُصْلِح فلا يثقل عليه شىء، وإما لمفسد فلا يبقى له شىء . أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

اِسْعَد بمالِكَ فى الحياة فإنما ٭ يبقى خلافك مصلحٌ أو مفسِدُ
فإذا جمعت لمفسـد لم يُغنـهِ ٭ وأخو الصّلاح قليلَه يتزيّد

وقال أبو ذرّ رضى الله عنه : لك فى مالك شريكان : الحَدَثان، والوارث؛ فإن استطعتَ ألّا تكون أبخسَ الشركاء حظًّا فافعل . وقال بُزُرْجمِهْر الفارسىّ : إذا أقبلتْ عليك الدنيا فأنفق منها، فإنها لا تفنى[(٣)]، وإذا أدبرت عليك فأنفق منها، فإنها لا تبقى . أخذ الشاعر هذا المعنى فقال :

---

(١) كذا فى العقد الفريد وفى الأصول : « ولا تقيموها » .
(٢) كذا فى النسخة الراغبية . وفى الأصلين الفتوغرافيين والعقد الفريد : « يلبسكم » .
(٣) فى أحد الأصلين والعقد الفريد والنسخة الراغبية : « لا تبقى » .

لا تبخلَنَّ بدُنْيَا وهى مقبِلةٌ * فليس ينقُصها التبذير والسَّرَفُ
وإنْ تولَّت فأحرى أن تجودَ بها * فالحمد منها إذا ما أدبَرَتْ خَلَفُ

وكان كسرى يقول : عليكم بأهل السخاء والشجاعة، فإنهم أهل حسن ظنّ بالله، ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم مِنْ ضرّ بُخلهم، ومذمّة الناس لهم، وإطباق القلوب على بغضهم إلّا سوءُ ظنّهم بربهم فى الخلَف، لكان عظيما. أخذه محمود الورّاق فقال :

من ظنّ بالله خيرا جاد مبتدئا * والبخل من سوء ظنّ المرء بالله

وقيل لأبى عقيل البليغ العراقىّ : كيف رأيت مروان بن الحَكَم عند طلب الحاجة اليه ؟ قال : رأيتُ رغبتَه فى الإنعام فوق رغبتِه فى الشكر، وحاجتَه الى قضاء الحاجة أشدّ من حاجة صاحِبها .

وقال زياد : كفى بالبخيل عارا أن اسمه لم يقع فى حمد قطّ ، وكفى بالجود مجدا أن اسمه لم يقع فى ذم قطّ .

وقال أسماء بن خارجة : ما أُحِبُّ أن أردّ أحدا عن حاجة طَلَبها، لأنه لا يخلو أن يكون كريما فأصون له عِرْضَه، أو لئيما فأصون عِرْضى منه .

وقال إبراهيم بن المهدىّ : قلت لرجل من أهل الكوفة من وجوه أهلها كان لا يجِفّ بيده قلم، ولا يستريح قلبُه، ولا تسكن حركتُه فى طلب حوائج الرجال، وإدخال المرافق على الضعفاء : أخبِرْنى عن الحالة التى خفّفتْ عنك النَّصَبَ، وهوّنت عليك التعبَ فى القيام بحوائج الناس، ما هى ؟ قال : قد والله سمعتُ تغريد الطَّير بالأسحار، فى فروع الأشجار، وسمعتُ خَفْقَ أوتار العيدان وترجيع أصوات القيان، فما طرِبتُ من صوت قطّ، طَرَبى من ثناء حسن، بلسان حسن،

على رجل قد أحسن؛ ومن شُكْر حرّ لمنعِم حرّ؛ ومن شفاعة محتسب، لطالب شاكر؛ قال إبراهيم : فقلت، لله أبوك ! لقد حشيت كرما .

وكان طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرىّ من أجود قريش فى زمانه، فقالت له آمرأته : ما رأيت قوما ألأم من إخوتك! فقال لها : لمه ؟ وأنّى قلت ذاك ؟ فقالت : أراهم إذا أيسرتَ أتوك، وإذا أعسرت تركوك ، قال : هـذا والله من كرمهم ، يأتوننا فى حال القوّة عليهـم ، ويتركوننا فى حال العجز عنهـم .

وحكى أن رجلا شيخا أتى سعيد بن سالم، وكلّمه فى حاجة وماشاه؛ فوضع الشيخ زُجَّ عصاه التى يتوكأ عليها، على رجل سعيد حتّى أدماها، فما تأوّه لذلك، وما نهاه؛ فلما فارقه، قيل له : كيف صبرتَ على هذا منه ؟ فقال : خفتُ أن يعلَم جِنايته، فينقطعَ عن ذكر حاجته .

ذكر من آنتهى اليهم الجود فى الجاهلية

وذكر شىء من أخبارهم

(٦١)

والذى آنتهى اليهم الجود فى الجاهلية : حاتم بن عبد الله بن سعد الطائىّ، وهَرِم ابن سِنان المُرّىّ، وكعب بن مَامَة الإيادىّ؛ وضرب المثل بحاتم وكعب، والمشهور حاتم . وكعب هذا : هو الذى جاد بنفسه، وآثر رفيقة بالماء فى المفازة، ولم يشهر له خبرٌ غير هذا . وأما حاتم فأخباره مشهورة

منها : أنه كان اذا آشتد البَرْد، أمر غلامه يسارا، فأوقد نارا فى يفاع من الأرض، لينظر اليها مَنْ ضلّ عن الطريق [ليلا](١)، وفى ذلك يقول :

أوقِدْ فإن الليـل ليـلٌ قَرٌّ ٭ والريح يا واقِـد رِيحٌ صِرٌّ
عسى يرى نارَك مَنْ يمـرُّ ٭ إن جلبتْ ضيفا فأنتَ حُرّ

(١) الزيادة عن العقد الفريد .

قالوا : ولم يك حاتم يُمسك غير سلاحه وفرسه ، ثم جاد بفرسه فى سنة أزْمة .

قالت النَّوار آمرأة حاتم : أصابتنا سنة آقشعرَّت لها الأرض ، وآغبرَّ أُفُق السماء ، وضنَّتِ المراضِعُ عن أولادها ، لا تَبِضُّ بقطرة ، وأيقنّا بالهلاك ؛ فوالله ، إنّى لفى ليلة صِنبرة(١) ، بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تَضاغى(٢) صِبْيتُنا جُوعا : عبد الله ، وعدىّ ، وسَفّانة ؛ فقام حاتم الى الصبيّين ، وقمت الى الصبيّة ؛ فوالله ما سكتوا إلا بعد هَدْأَة من الليل ؛ وأقبل يعلّلنى ، فعرفت ما يريد ، فتناومت ؛ فلما تهوّرتِ(٣) النجوم ، إذا بشىء قد رفع كِسْرَ البيت ، فقلت : مَنْ هذا؟ فوَلّى ، ثم عاد آخرَ الليل ؛ فقال مَنْ هذا؟ فقالت : جارتك فلانة ، أتيتُك من عند صِبْيَة يتعاوَوْن عُواء الذئاب ، فما وجدتُ معوَّلا إلا عليك أبا عدىّ ، فقال : أعجليهم ، فقد أشبعك الله وإياهم ؛ فاقبلت المرأة تحمل آثنين ، ويمشى بجانبيها أربعة كأنها نَعامة حولها رِئالُها ؛ فقام الى فرسه ، فوجأ(٤) لبّته بمُدية ، نخر ، ثم كَشَط عن جلده ، ودفع المدية الى المرأة ، وقال : شأنك ؛ فآجتمعنا على اللحم نَشْوِى ونأكل ثم جعل [يمشى فى الحى](٥) يأتيهم بيتا بيتا ، فيقول : هبّوا ، عليكم بالنار ، وآلتفع بثوبه ناحية ينظر الينا ، لا والله إن ذاق منه مضغة ، وإنه لأحوج اليه منّا ! فأصبحنا وما فى الأرض إلا عظم أو حافر .

وقيل : كان مبدأ الأمر لحاتم فى الجود ، أنه لما تَرَعْرَع ، جعل يُخرج طعامَه فإن وجد من يأكله معه أكله ، وإن لم يجد طرحه ؛ فلما رأى أبوه أنه يُهلك طعامَه ، قال له : آلْحَقْ بالإبل ، فخرج إليها ، فوهب له جارية وفرسا وفِلْوَها .

(١) ليلة صنبرة أى شديدة البرد .

(٢) تضاغى الصبيان : تضوروا من الجوع .

(٣) تهوّرت النجوم : أدبرت .

(٤) وجأ لبّته أى ضربه فى منحره .

(٥) الزيادة عن العقد الفريد .

وقيل : بل هلك أبو حاتم وهو صغير ، وهذه القصّة كانت مع جدّه سعد بن الحَشْرج، فلما أتى حاتم الإبل طفِقَ يبتغى الناس فلا يجدهم، ويأتى الطريق فلا يجد عليه أحدا؛ فبينا هو كذلك، إذ بَصُر برَكْب على الطريق فأتاهم، فقالوا : يافتى، هل من قِرًى ؟ فقال : تسألونى عن القِرَى وقد تَرَوْن الإبل ! وكان الذى بَصُر بهم : عَبِيدَ ٱبن الأبرص وبِشْر بن أبى خازم والنابغةَ الذُّبيانىّ وكانوا يريدون النعمان، فنحر لهم ثلاثة من الإبل، فقال عَبِيد : إنما أردنا اللبن ، وكانت تكفينا بَكْرة إن كنت لا بدّ متكلّفا لنا شيئا؛ فقال حاتم : قد عرفتُ، ولكنى رأيت وجوها مختلفة وألوانا متفرّقة، فظننت أن البلدان غير واحدة، فأردت أن يذكر كلّ واحد منكم ما رأى إذا أتى قومه؛ فقالوا أشعارا ٱمتدحوه بها وذكروا فضله؛ فقال حاتم : أردت أن أُحْسِن اليكم، فصار لكم الفضل علىّ، وإنّى أعاهد الله أن أَضرِب عراقيبَ إبلى عن آخرها أو تقوموا اليها فتقتسموها؛ ففعلوا ، فأصاب كل واحد تسعة وثلاثين بعيرا ، ومضوا على سفرهم إلى النعمان ؛ وإن أبا حاتم أو جدّه سمع بما فعل، فقال : أين الإبل؟ فقال : يا أبت طوقتُك بها طوق الحمامة مجدا وكَرَما ، لا يزال الرجل يحمل بيت شعر أثنى به علينا عِوَضا من إبلك ؛ فلما سمع أبوه ذلك، قال : أبإبلى فعلتَ ذلك؟ قال : نعم، قال: والله لا أُساكنك أبدا، فخرج أبوه بأهله، وترك حاتما ومعه جاريته وفرسه وفِلْوها . قال : فبينما حاتم يوما نائم إذ ٱنتبه وحوله نحو مائتى بعير تجول ويحْطِمُ بعضها بعضا، فساقها الى قومه، فقالوا : يا حاتم، أبقِ على نفسك فقد رزقتَ مالا، ولا تعودَنّ الى ما كنت فيه من الإسراف، قال : فإنها نُهْبى[1] بينكم، فانتُهِبت . ثم أقبل ركب من بنى أسد ومن قيس يريدون النعمان، فلقوا حاتما فقالوا له : إنا تركنا قومنا يُثْنُون عليك خيرا ، وقد

(١) النهبى : اسم للنهوب .

أرسلوا اليك برسالة، قال : وما هى؟ فأنشده الأسديّون شعرا لعَبِيد، وأنشده القيسيون[1] شعرا للنابغة، ثم قالوا : إنا لنستحيي أن نسألك شيئا وإنّ لنا لحاجة، قال : وما هى؟ قالوا : صاحب لنا راجل، فقال حاتم : خذوا فرسى هذه، فاحملوا عليها صاحبكم، فأخذوها، ورَبَطتِ الجاريةُ فِلْوها بثوبها، فأفلت فأتبعته الجارية لتردّه، فقال حاتم : ما لحقكم من شيء فهو لكم، فذهبوا بالفرس والفلو والجارية .

(٦٣) وأما هرِم بن سِنان، فمن أخباره : أنه آلى على نفسه أنه لا يسلّم عليه زُهَير إلا أعطاه فقلّ مال هَرِم، وكان زهير يمرّ بالنادى وفيه هرِمٌ فيقول : أنعموا صباحا ما خلا هرما، وخيرَ القوم تركتُ .

قالوا : وكان عبد الله بن جُدعان، حين كَبِر، أخذتْ بنو تميم على يده، ومنعوه أن يعطى شيئا من ماله، فكان الرجل اذا أتاه يطلب منه قال له : آدن منّى، فاذا دنا منه لَطَمه، ثم قال : آذهب فاطلب لطمتك أو تُرْضَى، فترضيه بنو تميم من ماله؛ وفيه يقول الشاعر :

والذى إن أشار نحوك لَطْماً * تبع اللّطمَ نائلٌ وعَطاءُ

ومن أخبار الكرام : ماحُكى أنّ خالد بن عبد الله القَسْرىّ أميرَ العراق كان يكثر الجلوس ثم يدعو بالبِدَر ويقول : إنما هذه الأموال ودائع لا بدّ من تفرقتها، فقال : ذلك مرّة، وقد وفد عليه أخوه أسد بن عبد الله من خُراسان، فقام فقال : أيها الأمير إن الودائع تُجمع لا تُفرق؛ فقال : ويحك! إنها ودائع المكارم، وأيدينا وكلاؤها، فإذا أتانا المُملِق فأغنيناه، والظمآن فأرويناه، فقد أدّينا فيها الأمانة .

(١) كذا فى الأغانى وهو الأنسب . وفى الأصول : «الليثيون» .

ومرّ يزيد بن المهلّب بأعرابية فى هروبه من سجن عمر بن عبـد العزيز وهو يريد البصرة، فقدّمت له عَنْزًا فقبلها ، ثم قال لابنه معاوية : ما معك من النفقة ؟ قال ثمانمائة دينار، قال : آدفعها إليها! فقال له آبنه : إنك تريد الرجال، ولا تكون الرجال إلا بالمـال ، وهـذه يرضيها اليسير، وهى بعدُ لا تعرفك، فقال : إن كانت ترضى باليسير، فانى لا أرضى إلا بالكثير؛ وإن كانت لا تعرفنى، فأنا أعرف نفسى، آدفعها اليها، فدفعها اليها .

قال الأحنف : كثرت علىّ الدِّيَات بالبصرة، لما قُتِل مسعود، فلم أجدها فى حاضرة تميم ، فخرجت نحو يَبْرِينَ، فسألت : مَن المقصودُ هناك ؟ فأرسلت إلى قبّة ، فاذا شيخ جالس بِفِنائها، مؤتزر بشَمْلة، مُحْتَبٍ بحبل، فسلمت عليـه، وآنتسبت له، فقـال : ما فعل رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؟ قلت : تُوُفِّى ، قال : فمـا فعل عمر بن الخطاب الذى كان يحفظ العرب ويحوطها؟ قلت : مات، قال : فأىّ خبر فى حاضرتكم بعدهما ؟ قال : فذكرت الديات التى لزمتنا للأزد وربيعـة ، قال : أقم ، فإذا راعٍ قد أراح عليه بألف بعير ، فقال : خذها، ثم أراح عليه آخر بمثلها، فقال : خذها، قلت : لا أحتاج اليها، فانصرفت بالألف، ووالله ما أدرى من هو الى الساعة .

وروى عن مَعْن بن زائدة ، قال : لمـا هربت من المنصـور ، خرجت من باب حرب[1] ، بعـد أن أقمت فى الشمس أياما، وخفّفتُ لِحْيتى وعارضى، ولبست جُبَّة صوف[2] غليظة، وركبت جملا، وخرجت عليه لأمضى إلى البادية؛ قال : فتبعنى

(١) باب حرب : أحد أبواب بغداد (وينسب لحرب بن عبد الملك) أحد قوّاد أبى جعفر المنصور، وعنده مقبرة ضمت كثيرا من أعلام المسلمين منهم : الامام الجليل أحمد بن حنبل و بشر الحافى رضى عنهما . راجع ياقوت .

(٢) كذا فى أحد الأصلين والنسخة الزاغية : وفى الأصل الآخر : «عريضة» .

أسودُ متقلد سيفا ، حتى إذا غبت عن الحرس ، قَبَض على خِطام الجمل فأناخه ، وقبض علىّ ، فقلت : ما شأنك؟ فقال : أنت بغية أمير المؤمنين ، فقلت له : ومن أنا حتّى يطلبنى أمير المؤمنين؟ فقال مَعْن بن زائدة ، فقلت : يا هذا آتق الله! وأين أنا من معن ؟ فقال : دع هـذا عنك ، فأنا والله أعرف بك ، فقلت له : فإن كانت القصة كما تقول فهـذا جوهر حملتُه معى بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بى ، فخـذه ولا تَسفِك دمى ، فقال : هاته ، فأخرجتُه إليه ، فنظر اليـه ساعة ، وقال : صـدقتَ فى قيمته ، لستُ قابله حتى أسألك عن شىء ، فإن صـدقتنى أطلقتك ، فقلت : قل ، فقال : إن الناس قد وصفوك بالجود ، فأخبرنى هل وهبتَ قطّ مالَك كلَّه ؟ قلت : لا ، قال : فنصفه؟ قلت : لا ، قال : فثلثه؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت : إنى أظن قد فعلت هذا ، فقال : ما ذاك بعظيم ، أنا والله راجل ، ورزقى على أبى جعفر كل شهر عشرون درهما ؛ وهذا الجوهر قيمته ألف دينار ، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ، لجودك المأثور بين الناس ؛ ولتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك ، ولا تعجبك نفسك ؛ ولتُحَقِّر بعد هذا كلّ شىء تفعله ولا تتوقف عن مكْرُمة ؛ ثم رمى بالعقد إلىّ : وخلّى خِطام الجمل وانصرف ؛ فقلت : يا هـذا قد والله فضحتنى ! ولسَفْكُ دمى أهونُ علىّ مما فعلت ، فخذ ما دفعته اليك ، فإنى عنه فى غنًى ، فضَحِك ، ثم قال : أردت أن تكذّبنى فى مقامى هـذا ، فوالله لا آخذه ، ولا آخذ لمعروف ثمنا أبدا ، ومضى . فوالله لقد طلبته بعـد أن أمنتُ ، وبذلت لمن جاءنى به ما شاء ، فما عرفت له خبرا ، وكأنّ الأرض ابتلعته . وكان سبب غضب المنصـور على مَعْن بن زائدة أنه خرج مع عمرو بن يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة وأَبْلَى فى حربه بلاء حسنا .

(٦٣) ويقال : إن شاعرا أتى وهب بن وهب، وكان جوادا، فمدحه فهشّ له وبشّ، وثنى له الوِسادة وأضافه ورفده وحمله ؛ فلما أراد الرجل الرحلة لم يخدمْه أحد من غِلْمان وهب، فأنكر الرجل ذلك مع جميل فعله، فعاتب بعضهم، فقال له الغلام : إنّا انّما نُعين النازل على الإقامة ولا نُعين الراحل على الفراق .

وكان الحارث بن هشام المخزومى فى وقعة اليرموك، وبها أصيب فأثبتته الجراح، فاستسقى ماء، فأُتِىَ به، فلما تناوله، نظر الى عِكْرِمة بن أبى جهل صريعا فى مثل حاله، فردّ الإناء على الساقى، وقال : آمض الى عِكْرِمة بن أبى جهل، فمضى اليه، فأبى أن يشرب قبله، فرجع الى الحارث، فوجده ميتا، فرجع الى عِكْرِمة، فوجده قد مات، فلم يشرب واحد منهما .

وقد وصف الناس أهل الجود والكرم بمدائح، سنذكر ما آستجودناه منها . فمن ذلك ما حكى عن أبى العباس أحمدَ بن يحيى المعروف بثعلب، قال : كان ببغداد فتى يُجَنّ ستة أشهر، فاستقبلته ببعض السكك ذات يوم، فقال : ثعلب ؟ قلت : نعم، قال : فأنشِدْنى فأنشدته :

وإذا مررتَ بقبره فاعقِرْ به * كُومَ الهجانِ وكلَّ طرْفٍ سابِحِ
وآنضحْ جوانبَ قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دم وذَبائِحِ

فتضاحك، ثم سكت ساعة، وقال : ألا قال :

آذهبا بى إن لم يكن لكما عَقْـ * ـرٌ على تُرب قبره فاعقِرانى
وآنضحا من دمى عليه فقد كا * ن دمى من نَدَاه لو تعلمانِ

ثم رآنى يوما بعد ذلك فتأملنى، وقال : ثعلب ! قلت : نعم، قال : أنشدنى فأنشدته :

أعار الجَـوْدَ نائلَه * إذا ما مالُهُ نَفِـدَا
وإنْ لَيثاً شَكَا جُبنا * أعار فؤادَه الأسـدا

فضحك، وقال : ألا قال :

عَلَّم الجَوْدَ النّدى حتّى اذا * ما حكاه علَّم البأسَ الأسدْ
فـله الجَوْدُ مقرٌّ بالنـدى * وله الليثُ مقرٌّ بالجَـلَدْ

وقال مسلم بن الوليد وهو مما يجوز إيراده فى الشجاعة والكرم :

يجود بالنفس إن ضنّ الجوادُ بها * والجود بالنفس أقصى غايةِ الجودِ

وأول من أتى بهذا المعنى علقمة بن عَبَدَة حيث قال :

تجود بنفس لا يُجَـاد بمثلها * فأنتَ بها يوم اللّقاء خَصِيبُ

وهذا مثل قول يزيد بن أبى يزيد الشيبانى : من جاد بنفسه عند اللقاء، وبماله عند العطاء، فقد جاد بنفسيه كلتيهما .

قالوا : وأجود ما قيل فى ذلك قول أبى العتاهية[1] يمدح العباس بن محمد :

لو قيـل للعباس يا بنَ محمـد * قل لا وأنت مخـلّد ما قالَهـا
إن السماحة لَم تَزَلْ معقولةً * حتّى حللتَ براحتيك عقالَهـا
وإذا الملوك تسايرتْ فى بلدة * كانوا كواكبها وكنتَ[2] هِلالَهـا

فلم يثبه العباس، فقال :

هززتُك[3] هِزَّة السيف المحلَّى * فلما أن ضربت بك انثنيتُ
فهبها مِدْحةً ذهبت ضـياعا * كذَبتُ عليك فيهـا وافتريتُ

(١) سيروى المؤلف عن الأغانى أن هذه الأبيات لربيعة الرقى .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول «وأنت» . وفيه مخالفة لروى الشعر ولما يأتى بعده
(٣) سيذكر المؤلف فى ص ٢١٣ هذا البيت برواية أخرى نقلا عن الأغانى .

فلمـا سمع العباس الأبيات غضب ، وقال : والله لأجهدن فى حتفـه . قال : فمرّ أبو العتاهية بإسحاق بن العباس، وقال له إسحاق : أنشدنى شيئا من شعرك فأنشده

ألا أيها الطالبُ المستَغِيثُ * بمن لا يُفِيـدُ ولا يَرْفِدُ
ألا تسأل الله من فضـله * فإنّ عطاياه لا تَنْفَـدُ
اذا جئت أفضلهم للسـؤا * ل رُدّ وأحشاؤُه تُرْعَـدُ
كأنّك من خشـيةٍ للسـؤا * ل فى عينه الحيّـةُ الأسودُ
ففِـرّ الى الله من لؤمهـم * فإنى أرى الناس قد أصْلَدُوا
وإنى أرى الناس قد أبرقُوا * بلؤم الفِعَال وقـد أرْعَدُوا

ثم مضى، فقيل لإسحاق : إن هذا الشعر له فى أبيك، فقال إسحاق : أولى له، لم عرّض نفسه وأحوج أبا العتاهية إلى مثل هذا مع ملكه وقدرته ! .

وقد أورد أبو الفرج الأصفهانىّ خبر هذه الأبيات، فقال : امتدح ربيعة الرَّقّى العباسَ بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بقصـيدة لم يُسْبق اليها حسنا، وهى طويلة يقول فيها :

لو قيل للعباس يا بن محمّدٍ * قل لا وأنت مخلّد ما قالهَـا
ما إن أعُدُّ من المكارم خَصْلة * إلا وجدتُك عمّها أو خَالَهَا
واذا الملوك تسايرت فى بلدة * كانوا كواكِبَها وكنتَ هِلَالَهَا
إن المكارم لم تَزَلْ معقولةً * حتّى حللتَ براحتيك عقالهَا

قال : فبعث إليـه بدينارين ، وكان يقـدّر فيه ألفين ، فلمـا نظر الى الدينارين، كاد أن يُجَنّ غضبا، وقال للرسول : خذ الدينارين فهما لك على أن ترد إلىّ الرُّقعة، من حيث لا يدرى العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة، وأمر من كتب فى ظهرها :

مدحتُك مِدْحة السيف المُحلَّى * لتجْرِىَ فى الكرام كما جريتُ[1]
فهبها مِدْحة ذهبت ضياعا * كذبتُ عليك فيها وافتريتُ
فأنت المرء ليس له وَفَاءٌ * كأنى إذْ مدحتُك قد زَنَيتُ

ثم دفعها الى الرسول وقال : ضعها فى الموضع الذى أخذتَها منه . ففعل ، فلما كان (٦٤)
من الغد أخذها العباس فنظر فيها ، فلما قرأ الأبيات غضب ، وقام من وقته ، فركب إلى الرشيد ، وكان أَثيرا عنده يبجّله ويقدّمه ، وكان قد هم أن يخطب اليه ابنته ، فرأى الرشيد الكراهة فى وجهه ، فقال ما شأنك ؟ قال : هجانى ربيعة الرَّقّى ، فأحضره الرشيد ، وقال له : يا ماصّ كذا وكذا من أمّه ! أتهجو عمّى ، وآثر خلق الله عندى ! لقد هممت أن أضرب عنقك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، والله لقد امتدحته بقصيدة ما قال أحد مثلها من الشعراء فى أحد من الخلفاء ، ولقد بالغت فى الثناء ، وأكثرت الوصف ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضارها فعل ؛ فلما سمع الرشيد ذلك ، سكن غضبه ، وأحب أن ينظر فى القصيدة ، فأمر العباس بإحضارها فتلكأ عليه ؛ فقال له الرشيد : سألتك بحق أمير المؤمنين ، إلا أمرتَ بإحضارها ؛ فأُحضرتْ ، فإذا فيها القصيدة بعينها ، فاستحسنها واستجادها وأعجب بها ، وقال : والله ما قال أحد من الشعراء فى أحد من الخلفاء مثلها ! ولقد صدق ربيعة فبرّ ، ثم قال للعباس : كم أثبتَه عليها[2] ؟ فسكت العباس ، وتغيّر لونه ، وجرِض بريقه ؛ فقال ربيعة : أثابنى عنها يا أمير المؤمنين دينارَين ، فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من المَوْجِدة عليه ، فقال : بحياتى يا رَقّى كم أثابك ؟ فقال : وحياتك يا أمير المؤمنين ما أثابنى

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «لتجرى فى الكرام فاجريت» .
(٢) كذا فى الأغانى والأصلين . وجرض بريقه أى ابتلعه بجهد على هم وحزن . وفى النسخة الراغبة : «وغص بريقه» .

إلا بدينارين، فغضب الرشيد غضبا شديدا، ونظر فى وجه العباس، وقال: سوءةً لك! أيّةُ حال قعدَتْ بك عن إثابته! أقلّةَ مال؟ فوالله لقد نوّلتُك جهدى، أم انقطاع المادة[1] عنك؟ فوالله ما انقطعتُ بك، أم أصلُك؟ فهو الأصل الذى لا يدانيه شىء، أم نفسك؟ فلا ذنب لى، بل نفسك والله فعلت بك ذلك، حتى فضحتَ آباءك وأجدادَك وفضحتَنى، وفضحت نفسَك، فنكَسَ العباس رأسَه، ولم ينطق، فقال الرشيد: ياغلام، أعطِ ربيعةَ ثلاثين ألف درهم، وخِلْعَةً، واحمله على بغلة، ثم قال له: بحياتى لا تذكره فى شىء من شعرك تعريضا ولا تصريحا، وفتر الرشيد عما كان قد همّ به من أن يتزوج اليه، وأظهر له بعد ذلك جفاء واطراحا.

وقال محمد بن هانئ:

الواهب الألفَ إلا أنها بِدَرٌ * والطاعنُ الألفَ إلا أنها نَسَقُ
تأتى عطاياه شتّى غير واحدة * كما تدافعَ موجُ البحر يَصطَفقُ

وقال الرضىّ المُوسوىّ:

ريّان والأيام ظمآنةٌ * من النّدى تَشْوان بالبِشْرِ
لا يُمسك العذلُ يديه ولا * تأخُذ منه نَشْوةُ الخمر

وقال أيضا:

ذخائرُه العُرْف فى أهله * وخُزّان أمواله السائلونا

وقال أمية بن أبى الصلت الثقفىّ يمدح عبد الله بن جُدْعان:

أأذكر حاجتى أم قد كفانى * حَياؤك إن شيمتَك الحياءُ
وعلمك بالأمور وأنت قَرْمٌ * لك الحسبُ المهذّبُ والسناءُ

(١) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «أم انقطاع المال».

كريمٌ لا يغيّره صَباحٌ * عن الخُلُق السنيّ ولا مَساءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يوما * كفاه من تعرُّضه الثناءُ

وقال الشمّاخ بن ضِرار[1] :

تَزورُ امرأً يُعْطِى على الحمد مالَه * ومن يُعْطِ أثمانَ المحامدِ يُحْمَدِ
وأنتَ امرؤ مَن تُعطه اليوم نائلا * بكفّك لا يمنعْك من نائلِ الغدِ
ترى الجودَ[2] لا يُدْنى من المرء حتفَه * كما البخل والإمساك ليس بمُخْلِدِ
مُفيدٌ ومِتلافٌ اذا ما سألتَه * تهلّل واهتزّ اهتزاز المهنّدِ
متى تأتِه تعشو الى ضوءِ نارِه * تجدْ خيرَ نارٍ عندَها خيرُ مُوقِدِ

قال : ولما سمع عمر رضى الله عنه هذا البيت، قال : كَذَبَ، تلك نار موسى عليه السلام .

وقال السريّ الرفّاء :

كالغيثِ والليثِ والهلالِ اذا * أقمر بأسًا وبهجةً وندَى
ناسٍ من الجودِ ما يجود به * وذاكرٌ منه كلّما وعدا

وقال أبو الفرج الوأواء :

من قاسَ جدواك بالغمام فما * أنصف فى الحكم بين الأثنينِ
أنت اذا جدت ضاحكا أبدا * وهو اذا جاد باكِيَ العينِ

وقال ابن نباتة السعدىّ من قصيدة :

لم يُبقِ جودُك لى شيئا أؤمّله * تركتنى أصحَب الدنيا بلا أمل

---

(١) كذا فى الأصول . وفى زهر الآداب لأبى اسحاق الحصرى القيروانى طبع مصر (ج ٤ ص ٥٠) وخزانة الأدب للبغدادى (ج ٣ ص ٦٦٢) : أن الشعر للحطيئة .

(٢) الذى فى زهر الآداب وخزانة الأدب :

يرى البخل لا يبقى على المرء ماله * ويعلم أن الشح غير مخلد

ذكر ما قيل فى الإعطاء قبل السؤال

قال سَعيد بن العاصى : قبح الله المعروف، اذا لم يكن آبتداءً من غير مسألة، فالمعروف[(١)] عوضٌ من مسألة الرجل، اذا بذل وجهَه، فقلبُه خائفٌ، وفرائصه تُرعَد، وجبينـه يرشح، لا يدرى أيرجع بنُجح الطلب ، أم بسوء المنقلَب؛ قد بات ليلتـه يتململ على فراشـه، يعاقب بين شِقيه، مرّة هكذا، ومرّة هكذا ؛ مَنْ لحاجتـه؟ نخطرتُ بباله أنا وغيرى ، فمثّـل أرجاهم فى نفسه، وأقربَهم من حاجته؛ ثم عزم علىّ، وترك غيرى، قد انتُقِع لونُه، وذهب دمُ وجهـه ؛ فلو خرجتُ له مما أملك لم أكافئه، وهو علىّ أمَنُّ منّى عليه؛ اللهم فإن كانت الدنيا لها عندى حظ فلا تجعل لى حظًّا فى الآخرة .

وقال أكثم بن صـيفىّ : كلّ سؤال وإن قلّ أكثر من كلّ نوال وإن جلّ .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لأصحابه : من كانت له إلىّ منكم حاجة فليرفعها فى كتاب، لأصونَ وجوهكم عن المسألة .

وقال عبـد العزيزبن مروان : ما تأملنى رجل قط إلا سألتـه عن حاجتـه، ثم كنت من ورائها .

وقال حبيب :

عطاؤك لا يفنَى ويستغرقُ المنَى ٭ وتبقى وجوهُ الراغبين بمائها

وقال أيضـا :

ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت ٭ من ماء وجهى إذا أفنيتُـه عوضُ

---

(١) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ٨٨) وهو الأنسب . وفى الأصول : «فالمعروف» .

وقالوا : مَنْ بذَلَ إليك وجهَه فقد وفّاك حقَّ نعمتك .

وقال معاوية لصَعْصَعَة بن صُوحان : ما الجود؟ فقال : التبرّع بالمال ، والعطاء قبل السؤال .

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

كريمٌ على العِلّاتِ جَزْلٌ عطاؤه * يُنيلُ وإن لم يُعتمدْ لنوالِ
وما الجَوْدُ مَنْ يُعطى إذا ما سألته * ولكنّ مَنْ يُعطى بغير سؤالِ

وقال حبيب الطائىّ :

لئن جحَدْتُك ما أوليتَ من كَرَمٍ[1] * إنى لفى اللؤم أمضى[2] منك فى الكرمِ
أنسى[3] آبتسامُك والألوانُ كاسفةٌ * تبسّمَ الصبح فى داجٍ من الظُّلَمِ
رددتَ رونَق وجهى فى صحيفَته[4] * ردَّ الصِّقالِ صفاءَ الصارم الخَذِمِ[5]
وما أبالى وخيرُ القول أصدقُه * حقنتَ لى ماء وجهى أم حقنتَ دمى

ذكر ما قيل فى الشجاعة والصبر والإقدام

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن شاء من عباده إن الله يحبّ الشجاع ولو على قتل حيّة" .

وقالوا : حدّ الشجاعة سعة الصدر بالإقدام على الأمور المتلفة .

---

(١) فى ديوان أبى تمام : « من حسن » . وفى العقد الفريد : « من نعم » .
(٢) فى ديوان أبى تمام : « أحظى » .
(٣) فى ديوان أبى تمام : « أمسى » .
(٤) كذا فى ديوان أبى تمام والعقد الفريد وفى الأصول : « صفيحته » .
(٥) الخذم : السيف القاطع .

وسئل بعضهم عن الشجاعة فقال : جِبِلّةُ نفس أبيّة ، قيل له : فما النجدة ؟ قال : ثقة النفس عند آسترسالها الى الموت ، حتى تمحد بفعلها دون خوف .

وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة . وقال بعض أهل التجارب : الرجال ثلاثة : فارس ، وشجاع ، وبطل ؛ فالفارس : الذى يَشُدّ إذا شدّوا ، والشجاع : الداعى الى البِراز والمجيب داعيَهُ ، والبطل : الحامى لظهور القوم إذا ولّوْا .

قال يعقوب بن السِّكِّيت فى كتاب الألفاظ : العرب تجعل الشجاعة فى أربع طبقات ، تقول : رجلٌ شجاعٌ ، فإذا كان فوق ذلك ، قالوا : بطلٌ ، فإذا كان فوق ذلك ، قالوا : بُهْمةٌ ،(١) فإذا كان فوق ذلك ، قالوا : أَلْيَس .

وقال بعض الحكماء : جسمُ الحرب : الشجاعة ، وقلبها : التدبير ، ولسانها : المكيدة ، وجَناحها : الطاعة ، وقائدها : الرفق ، وسائقها : النصر .

قالوا :(٢) لما ظفِر المهلّب بن أبى صُفرة بالخوارج ، وَجّه كعبَ بنَ مَعْدَان الى الحجّاج ، فسأله عن بنى المهلّب ؛ فقال : المغيرةُ فارسهم وسيّدهم ، وكفى بيزيد فارسا شجاعا ، وجوادُهم وسخيهم : قَبِيصةُ ، ولا يستحيى الشجاعُ أن يفرّ من مدرك ، وعبدُ الملك : سمٌّ ناقعٌ ، وحبيبٌ : موتٌ زعافٌ ، ومحمدٌ : ليثُ غابٍ ، وكفاك بالمفضّل نَجدةً ؛ قال : فكيف خلّفتَ جماعةَ الناس ؟ قال : خلّفتهم بخير ، قد أدركوا ما أمّلوا ، وأمنوا ما خافوا ؛ قال : فكيف كان بنو المهلّب فيهم ؟ قال :

(١) البهمة : الفارس الذى لا يدرى من أين يؤتى له من شدّة بأسه . والأليس : الشجاع الذى لا يبالى هولا .

(٢) ورد هذا الخبر فى الكامل للمبرد مطابقا لما هنا فى نسق الجمل وترتيبها اللهم إلا زيادة بعض فقرات رأينا ضرورة إثباتها فأضفناها ونبهنا عليها . وورد أيضا فى الجزء الثانى من تذكرة الصفدى المحفوظة بدار الكتب تحت رقم ٤٢٠ أدب : باطناب فى كثير من المواضع مع تقديم وتأخير عما هنا .

كانوا حُماة السَّرح نهارا، فإذا أَليلُوا ففُرسان البيات، قال : فأيّهم كان أنجدَ ؟ قال : كانوا كالحلْقة المفْرغة، لا يُدرَى أين طَرَفُها ؛ قال : فكيف كنتم أنتم وعدوّكم ؟ قال : كنّا إذا أخذنا عفونا ، [واذا أخذوا (١) يئسنا منهم] واذا اجتهدوا واجتهدنا ، [طمعنا] (١) فيهم ؛ فقال الحجاج : إنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

وقالوا : أشجعُ بيت قالته العرب قول العباس بن مِرْداس السُّلَمِيّ :

أَشُدُّ على الكتيبة لا أبالى * أحتفى كان فيها أم سواها

وقد مدح الشعراءُ الشجاعةَ وأهلَها، وأوسعوا فى ذلك، فمن ذلك قول المتنبّى :

شجاعٌ كأنّ الحربَ عاشقةٌ له * اذا زارها فدَّتْه بالخيل والرَّجْلِ

وقال أيضا :

وكم رجالٍ بلا أرضٍ لكثرتهم * تركتَ جمعَهُمُ أرضًا بلا رجُلِ

ما زال طِرْفُك يجرى فى دمائهِمُ * حتى مشى بك مشىَ الشاربِ الثَّمِلِ

وقال العِمَاد الإصفهانىّ :

قوم إذا لبِسوا الحديدَ الى الوغى * لبِس الحِدَاد عدوُّهم فى المهربِ

المُصدِرون الدُّهْمَ عن وِرْدِ الوغى * شُقْرًا تُجَلَّلُ بالعَجاج الأشهبِ

وقال أبو الفرج الببّغاء :

واليومُ من غَسَقِ العَجاجةِ ليلةٌ * والكرُّ يخرُق سَجْفَها الممدودا

وعلى الصِّفاحِ من الكِفاحِ وصِدقه * رَدْعٌ (٢) أحالَ بياضَها توريدا

---

(١) الزيادة عن الكامل للمبرد .

(٢) الردع : أثر الدم

والطعنُ يَغتصبُ الجيادَ شَباتَها (١) * والضربُ يقدح فى التريك (٢) وقودا
وعلى النفوس من الحِمام طلائعٌ * والخوف يَنشُد صبرَها المفقودا
وقد (٣) استحال البَرُّ بحرًا والضحا * ليلا ومنخَرِق الفضاء حديدا
وأجلّ ما عند الفوارس حثُّها * فى طاعة الهربِ الجيادَ القُودا
حتى إذا ما فارق الرأىُ الهوى * وغدا اليقينُ على الظنون شهيدا
لم يُغنِ غيرُ أبى شجاعٍ والعلا * عنه تُناجِى النصرَ والتأييدا

وقال أيضا ورُوى للبحترىّ (٤) :

مِن كلّ متّسِع الأخلاق مبتسِم * للخطب إن ضاقت الأخلاقُ والحِيلُ
يسعى به البرق إلا أنه فَرَسٌ * فى صورة الموتِ إلا أنه رجلُ
يلقَى الرماحَ بصدرٍ منه ليس له * ظَهرٌ وهادِى جوادٍ ما له كَفَلُ

وقال البحترىّ :

معشر أمسكت حلومُهُمُ الأر * ضَ وكادت لولاهُمُ (٥) أن تميدا
فإذا الجدبُ (٦) جاء كانوا غيوثا * وإذا النقع ثار ثاروا أسودا
وكأن الإلهَ قال لهم (٧) فى الـ * ـحرب كونوا حجارةً أو حديدا

(١) فى أحد الأصلين : « شياتها »
(٢) كذا فى يتيمة الدهر . والتريك جمع للتريكة وهى بيضة الحديد . وفى الاصول : «التليل» وهو العنق .
(٣) كذا فى الأصلين و يتيمة الدهر . ولم يوجد هذا البيت فى باقى الأصول .
(٤) نسبت هذه الأبيات فى يتيمة الدهر لأبى الفرج البغاء . ولم توجد فى ديوان البحترى طبع الأستانة ولا فى ترجمته فى الأغانى .
(٥) فى ديوان البحترى : « وكادت من عزهم ... الخ » .
(٦) رواية الديوان : «فاذا المحل جاء جاءوا سيولا ... الخ .
(٧) رواية الديوان : « ... قال لنا ... الخ » .

وقال مُسْلِم :

لو أنّ قوما يخلُقون منيّةً * من بأسهم كانوا بنى جبريلا
قوم إذا حمِى الوطيسُ[1] لديهمُ * جعلوا الجماجمَ للسيوفِ مَقيلا

وقال آخر :

عِقبانُ رَوْع والسروجُ وكُورها * وليوثُ حربٍ والقنا آجامُ
وبدورتمّ والشوائك فى الوغَى * هالاتُها والسابرىّ[2] غَمام
جادوا بممنوع التلادِ وجوّدوا * ضربا تُخَدُّ به الطُّلا والهامُ
وتجاورت أسيافُهم وجيادُهم * فالأرض تُمطَرُ والسماء تُغام

وقال آخر :

قوم شرابُ سيوفِهم ورماحِهم * فى كلّ معترَكٍ دمُ الأشرافِ
رجَعتْ إليهم خيلُهم بمعاشِرٍ * كلٌّ لكلِّ جسيم أمرٍ كافِ
يتحنّنون إلى لقاء عدوّهم * كتحنّن الألّاف للألّافِ
ويباشرون ظُبَا السيوف بأنفسٍ * أمضَى وأقطع من ظُبَا الأسيافِ

وقال ابن حَيّوس :

إن تُرِدْ خُبْرَ[3] حالهم عن قريبٍ * فَأتِهِم يومَ نائلٍ أو نزال
تَلْقَ بيضَ الوجوه سودَ مَثار النـ * ـنقع خُضْرَ الأكافِ حُمْرَ النصال

---

(١) رواية ديوان مسلم بن الوليد طبع مصر ص ٩١ : «قوم اذا حمى الهجير من الوغى ... الخ» .

(٢) السابرىّ : الدروع السابرية المنسوبة الى سابور .

(٣) رواية ديوان ابن حيوس (نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٩١ أدب) :
« ... علم حالهم عن يقين * فالقهم فى مكارم أو قتال» .

(٤) فى ديوانه : « ... بيض الاعراض ... الخ» .

ومما قيل فى الصبر والإقدام :

قال الله عز وجل : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تتمنّوا لقاءَ العدو وسلوا الله العافية إذا لقيتموهم فاثبتوا(١) وأكثروا من ذكر الله وإن جَلبوا وضَجّوا فعليكم بالصمت" .

ومن كلام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : ربَّ حياةٍ سبَبُها التعرّض للموت، وربَّ منيّة سبَبُها طلبُ الحياة .

وقالوا : أجمع كلمة قيلت فى الصبر قول بعضهم : الصبر مطيّة النصر .

وقال آخر : الصبر مَطِيّةٌ لا تكبو وإن عَنَفَ عليه الزمان .

وقال آخر : الصبر شَرِيّة(٢) تمر أرية(٣) .

وقيل للمهلّب بن أبى صفرة : إنك لتُلقى نفسك فى المهالك، فقال : إن لم آت الموت مسترسلا أتانى مستعجلا، إنى لست آتى الموت من حُبّه، وإنما آتيه من بغضه، وتمثّل بقول الحُصَيْن بن الحُمَام :

تأخّرتُ أستبقى الحياةَ فلم أجدْ * لنفسى حياةً مثلَ أن أتقدّما

وهى قصيدة مشهورة منها :

فلسنا على الأعقابِ تَدمَى كُلومُنا * ولكن على أقدامنا تقطُرُ الدّما

نفلّقُ هامًا من كرامٍ(٤) أعزّةٍ * علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

(١) ورد هذا الحديث فى صحيح البخارى ومسلم برواية تختلف عما هنا فى شطره الأخير .

(٢) الشرية : الحنظلة . (٣) الأرية : العسل .

(٤) فى تذكرة الصفدى والشعر والشعراء لابن قتيبة وشرح ديوان حماسة أبى تمام : « من رجال ... » .

ولما رأينا الصبرَ قد حِيلَ دونه * وإن كان يوما ذا كواكبَ مُظلِما
صبَرنا وكان الصبرُ منا سجيةً * بأسيافنا يقطعن كفّا ومِعصما
ولما رأيت الوُدَّ ليس بنافعى * عمدتُ الى الأمر الذى كان أحزما
فلستُ بمبتاعِ الحياة بسُبّةٍ * ولا مرتقٍ من خشيةِ الموتِ سُلَّما

وقالت العرب: الشجاعة وقاية، والجُبْن مَقْتلة. وكذلك: إن مَنْ يُقتل مدبرا أكثر ممن يقتل مقبلا.

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لخالد بن الوليد: آحرِصْ على الموت، توهَبْ لك الحياة.

وقالت الحكماء: آستقبال الموت خير من آستدباره.

وقال العلوىّ:

محزمةٌ أكفالُ خيلى على القنا * ودامية لَبّاتُها ونحورُها
حرامٌ على أرماحِنا طعنُ مدبرٍ * وتندقُّ منها فى الصدور صدُورها

وقال أبو تمّام:

قَلُّوا ولكنّهم طابوا فأنجدَهم * جيشٌ من الصبر لا يُحصَى له عَدَدُ
اذا رأوا للمنايا عارضًا لبِسوا * من اليقين دروعا ما لها زَرَد
نأوا عن المُصرِخ(1) الأدنى فليس لهم * إلا السيوفَ على أعدائهم مددُ

وما زالت العرب يتمادحون الموت قَعْصًا، ويتسابّون بالموت على الفراش، ويقولون فيه: مات فلانٌ حتفَ أنفه، وأوّل من قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومدح أعرابىّ قوما فقال: يقتحمون الحربَ كأنما يَلقونها بنفوس أعدائهم.

(1) كذا فى ديوان أبى تمام. وفى الأصول: «عن المصرح» بالحاء المهملة وهو تحريف.

وقال عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مُصْعَب : إن يُقتَلْ فقد ذُلِ أخوه وأبوه وعمـه ، إنا والله لا نموت حتفاً[1] ولكن قَعْصًا بأطراف الرماح ، وموتاً تحت ظِلال السيوف .

وقال السموءل بن عادياء :

وما مات منا سيّد فى فراشه[2] * ولا طُلّ منا حيث كان قتيلُ

تسيل على حدّ الظُّباة نفوسُنا * وليست على غير الظُّباة تسيلُ

وقال آخر :

وإنا لتستحلى المنايا نفوسُـنا * ونترك أخرى مُرَّةً ما نذوقها

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يوم صِفّين ، وقد قيل له : أتقاتل أهل الشأم بالغـداة ، وتظهر بالعشىّ فى إزار ورداء ؟ : أبالموت تخـوفونى ! فوالله ما أبالى ، أسقطت على الموت ، أم سقط الموت علىّ . وقال لابنه الحسن : لا تدعوَنّ أحدا الى المبارزة ، وإنْ دعيت اليها فأجب ، فانّ الداعىَ اليها باغٍ ، وللباغى مصرعٌ . وقال رضى الله عنه : بقية السيف أنمى عددا [وأطيب ولدًا][3] يريد أن السيف اذا أسرع فى أهل بيتٍ كثر عددُهم ونمى [ولدهم][3] .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : عُقِمت النساء أن تأتى بمثل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه ، لَعَهْدى به يومَ صِفّين ، وعلى رأسه عِمامة بيضاء ، وهو يقف على

(١) فى عيون الأخبار طبع دار الكتب (ص ٢٤٠) من المجلد الثانى : «إنا والله ما نموت حجبا ولا نموت الا قتلا قعصا ... الخ» والحجج : أن يأكل البعير لحاء العرفج فيرم بطنـه سمنا وربما قتـله ذلك . وفى لسان العرب بعد أن ذكر كلام ابن الزبير : « يعرض بنى مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم فى ملاذ الدنيا وأنهم يموتون بالتخمة» وقعصه . (من باب قطع) : قتله مكانه .

(٢) الرواية المشهورة : «وما مات منا سيد حتف أنفه» .

(٣) الزيادة عن العقد الفريد لابن عبد ربه (ج ١ ص ٣٨) .

شِرذِمةٍ شرذمة من النـاس ، يحضُّهم على القتال ، حتى آنتهى إلىَّ ، وأنا فى كنف من الناس ، وفى أغيلمة من بنى عبـد المطّلب ، فقال : يا معشر[(١)] المسلمين ، تجلببوا السكينة ، وأكملوا اللامة[(٢)] ، وأفلقوا السيوف فى الأغماد ، وكالحوا بالظُّبا ، وصِلوا السيوف بالخُطَا ، فإنكم بعين الله ، ومع آبن عم رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، عاودوا الكرّ ، وآستحيوا من الفرّ ، فإنه عار فى الأعقاب ، ونار فى الحساب ، وطيبوا على الحيـاة أنفسا ، وسيروا الى الموت سيرا سُجُحا[(٣)] ، ودونكم هذا الرواق الأعظم ، فاصبروا ، فإن الشيطان راكب صَعْدته[(٤)] ، قدّموا للوثبة رِجلا ، وأخّروا للنكوص أخرى ، فصمدًا صمدًا ، حتى يبلغ الحقُّ أجلَه ، والله معكم ، ولن يَتِرَكم أعمالَكم ، ثم صدَرَ عنا ، وهو يقرأ : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ .

وكان معاوية بن أبى سفيان يتمثل يوم صِفّين بهذه الأبيات :

أبتْ لى شيمتى وأبَى بلائى * وأخذى الحمدَ بالثمن الربيـــح
وإقدامى على المكروه نفسى * وضربى هامة البطلِ المُشيح
وقولى كلّما جشأت لنفسى[(٥)] * مكانَكِ تُحمَدِى أو تستريحى
لأدفع عن مآثرَ صالحـاتٍ * وأحمِىَ بعدُ عن عِرضٍ صحيح

(١) وردت هذه الخطبة فى نهج البلاغة لسيدنا على رضى الله عنه طبع بيروت مع بعض الاختلاف : بزيادة أو تغيير فى بعض الكلمات .

(٢) اللامة : الدرع ، وإكمالها أن يزاد عليها البيضة والسواعد .

(٣) السجح بضمتين : اللين السهل .

(٤) كذا فى الأصول . وفى نهج البلاغة : «فان الشيطان كامن فى كمنه» .

(٥) الرواية المشهورة : «وقولى كلما جشأت وجاشت» كما فى العقـد الفريد وعيون الأخبار المجلد الثانى ص ١٩٣

وقال قَطَرِىُّ بن الفُجَاءة أمير الخوارج :

وقولى كلّما جشأت لنفسى * من الأبطال(١) ويحك لا تُراعِى
فإنك لو سألتِ بقاءَ يومٍ * على الأجل(٢) الذى لك لم تطاعِى
فصبرا فى مجال الموت صبرًا * فما نَيْل الخلود بمستطاعِ
سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حىٍّ * وداعيه لأهل الأرض داعِى

وقال عبد الله بن رواحة الأنصارىّ :

يا نفس إن لم تُقْتَلى تموتِى * إن تسلمى اليومَ فلا تفوتِى
أو تُبتَلَىْ فطالما عُوفيتِ * هذى حياضُ الموت قد صَلِيتِ
وما تمنّيتِ فقد لَقيتِ * إن تفعلى فعلَهما هُديتِ
* وإن توَلّيت فقد شَقِيتِ *

يريد بقوله :

* إن تفعلى فعلهما هديتِ *

فعلَ زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وكانا قُتِلا فى ذلك اليوم بمُؤْتَةَ .

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه ، يخرج كلّ يومٍ بصِفّين حتى يقف بين الصفّين ويُنشد :

من أىِّ يومىَّ من الموتِ أفِرّْ * أيومُ لا يُقدَرُ أم يومُ قُدِرْ
فيومُ لا يُقدَرُ لا أرهبهُ * ثمَّ من المقدور لا ينجو الحذِرْ

---

(١) روى هذا المصراع فى حماسة أبى تمام وتذكرة الصفدى هكذا :
أقول لها وقد طارت شعاعا * من الأبطال ... ... الخ

(٢) فى العقد الفريد : « ... حياة ... * سوى الأجل ... الخ » .

ومثله قول جرير من قصيدة أولها :

* هاجَ[1] الفراق لقلبك المهتاج *

منها :

قل للجبان إذا تأخر سَرجُه * ما أنت من شَرك المنية ناج

وقالت امرأة من عبد القيس :

أبوا أن يَفرُّوا والقنا فى نحورهم * ولم يبتغوا من خشية الموتِ سُلَّما
ولو أنهم فرُّوا لكانوا أعزَّةً * ولكن رأَوا صبراً على الموت أكرما

وقال حبيب بن أوس الطائى :

فأَثبَتَ فى مستنقع الموت رِجلَه * وقال لها من تحت أخمَصك الحشرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلًا فردَّه * عليه الحفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوعرُ
غدَا غدوةً والحمدُ نسجُ ردائه * فلم ينصرف إلا وأكفانُه الأجرُ
تردَّى ثيابَ الموتِ حُمْرًا[2] فما أتى * لها الليلُ إلا وهْىَ من سندس خُضرُ

وقال :

قومٌ[3] اذا لبسوا الحديدَ حسبتهم * لم يحسَبوا أن المنية تُخلَقُ
أُنظُرْ بحيثُ ترى السيوف لوامعًا * أبدًا وفوق رءوسهم تتألق

وقال البَبّغاء :

يسعى الى الموت والقنا قِصَد * وخيله بالرءوس تنتعلُ
كأنه واثق بأنّ له * عُمرًا مُقيما وما له أجل

(١) رواية الشعر والشعراء لابن قتيبة : «هاج الهوى بفؤادك ... الخ» .
(٢) كذا فى الأصول وفى ديوان أبى تمام : « فما دجى » .
(٣) فى العقد الفريد وديوان أبى تمام : « بله اذا ... الخ » .

وقال كعب بن مالك :

نَصلُ السيوف اذا قصُرن بخطونا * قُـدُمًا ونلحقُهـا اذا لم تَلحقِ

ومثله لبعض بنى قيس بن ثعلبة :

لو كان فى الألف منّا واحد فدعوا * مَنْ فارسٌ خالهم إياه يعنونا
إذا الكماة تنحّوا أن يُصيبَهُـمُ * حدُّ الظبـاة وصلناها بأيدينـا

ومثله قول الآخر :

إذا قصُرتْ أسيافُنا كان وصلُها * خُطانا الى أعدائنـا فنقـارب[1]

ومثله قول وَدّاك بن ثُمَيْل المـازنىّ :

مَقاديمُ وصّالون فى الرَّوْع خَطوَهم * بـكلّ رقيق الشَّفرتين يمـانى
اذا آستُنجدوا لم يسألوا مَن دعاهُمُ * لأية حرب أم بأىّ مكان

وقال أبو تمـام فى سعة الخطو :

خَطْوٌ ترى الصارم الهندىّ منتصرا * به[2] من المـازن الخَطّىّ منتصفا

وقال آخر :

كأنّ سيوفَه صيغت عقودا * تجول على الترائب والنحور
وسُمرَ رماحه جُعلتْ هموما * فما يخطُرنَ إلا فى ضمـير

وأجود ما قاله محدَثٌ فى الصبر قول آبن الرومىّ :

أرى الصبر محمـودا وفيه[3] مذاهبٌ * فكيف اذا مالم يكن عنـه مذهبُ
هنالك يحقّ الصـبر والصبر واجبٌ * وما كان منـه كالضرورة أوجبُ

---

(١) فى تذكرة الصفدى : «فتضارب» بالضاد المعجمة .

(٢) رواية ديوان أبى تمام : «خطوا ... * فيه من المازن الخ» .

(٣) كذا فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى وديوان ابن الرومى . وفى الأصول : «عنه» .

فشدَّ امرؤ بالصبر كفًّا فانه * له عصمةٌ أسبابُها لا تقضّبُ
هو المهربُ المنجى لمن أحدقتْ به * مكارهُ دهر ليس عنهنّ مهربُ[1]
لبوس جمال جُنَّةٌ من شَمانةٍ * شفاء أسى يُثنَى به ويُثوَّبُ
فيا عجبا للشيء هذى خلالُه * وتارك ما فيه من الحظ أعجبُ
وقد يتظنّى الناس أنّ أساهُمُ * وصبرَهُمُ فيهم طباعٌ مُركَّبُ
فإنهما ليسا كشيء مُصرَّف * يصرّفه ذو نكبة حين يُنكَبُ
فإن شاء أن يأسَى أطاع له الأسى * وإن شاء صبرا جاءه الصبر يُجلَبُ
وليسا كما ظنوهما بل كلاهما * لكلّ لبيب مستطاعٌ مسبّبُ
يصرّفه المختارُ منا فتارةً * يُراد فيأتي، أو يُذاد فيذهبُ
اذا احتجّ محتجٌّ على النفس لم تكد * على قدر يُمنَى لها تتعتّبُ[2]
وساعَدَها الصبرُ الجميلُ فأقبلتْ * إليها له طوعا جنائبُ تُجنَبُ
وإن هو مناها الأباطيلَ لم تزل * تقاتل بالعتب القضاءَ وتُغلبُ
فتُضحي جزوعا إن أصابت مصيبةٌ * وتمسي هلوعا إن تعذّر مطلَبُ
فلا يعذرنَّ التاركُ الصبرَ نفسَهُ * بأن قيل إن الصبرَ لا يُتكسَّبُ

ذكر ماقيل فى وفور العقل

قال الله تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) قال المفسرون : عبَّر عن العقل بالقلب، لأنه محلّه وسكنه، وقال تعالى : (وَلِيَدَّكَّرَ

(١) كذا فى ديوان المعانى والأصول . وفى ديوان ابن الرومى : «منهنّ» .

(٢) كذا فى ديوان ابن الرومى . وفى الأصول وديوان المعانى : « ... لم يكد * على قدر ما يمنى له يتعتب » .

أُولُو ٱلْأَلْبَابِ)، وقال تعالى : (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو ٱلْأَلْبَابِ) . وقال تعالى : (هَلْ فِي ذٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أوّل ماخلق الله العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتى وجلالى ما خلقتُ خلقا أكرم علىّ منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب" .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنّ الله تعالى قسّم العقل على ثلاثة أقسام فمن كنّ فيه كُمل عقلُه ومن لم يكنْ فيه جزءٌ منها فلا عقل له" ، قيل : يا رسول الله، ما أجزاء العقل ؟ قال : " حسن المعرفة بالله وحسن الطاعة لله وحسن الصبر على أمر الله " . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما اكتسب رجل مثل فضلِ عقلٍ يَهدى صاحبَه الى هدًى ويردّه عن رَدًى وما تمّ إيمان عبدٍ ولا استقام دينُه حتى يكُمَل عقله » .

وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لتميم الدّارىّ : ما السؤدد فيكم ؟ قال : العقل، قال : صدقتَ، سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كما سألتُك، فقال كما قلتَ، ثمّ قال : "سألت جبريل ما السؤدد فقال العقل" .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يارسول الله ، بأىّ شىء يَتفاضل الناسُ فى الدنيا؟ قال : "بالعقل" قلت : وفى الآخرة؟ قال: "بالعقل" قلت: أليس إنما يُجزَوْن بأعمالهم ! فقال : " يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله تعالى من العقل، فبقدر ما أُعْطُوا من العقل كانت أعمالهم و بقدر ما عملوا يُجزَوْن" .

وعن سعيد بن المسيب : أن عمر وأُبَىّ بن كعب وأبا هُريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقالوا : يا رسول الله، مَن أعلم الناس؟ قال :"العاقل" قالوا :

فمن أعبد الناس ؟ قال : "العاقل" قالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال : "العاقل" قالوا : أليس العاقلُ من تمّت مروءتُه[1] ، وظَهرت فصاحتـه ، وجادتْ كفّـه ، وعظُمت منزلته ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ . إن العاقل هو التقيُّ وإن كان في الدنيا خسيسا دنيـا .

وورد في الأثر : «أن الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام العقلَ والدين والحياءَ فاختار العقلَ ، فقيل للدين والحياء ارتفعا ، قالا : لا ، قال : أفعَصيتما أمرَ ربكما ؟ قالا : ما عَصينا أمرَ ربّنا ولكنّا أُمِرنا أن نتبع العقلَ حيث كان» .

وقال لقمان لابنه : إن غاية الشرف والسؤدد في الدنيا والآخرة حسنُ العقل ، لأن العبدَ إذا حسُن عقلُه غطّى ذلك عيوبَه ، وأصلح مساوِيَهُ ، ورضى عنه خالقُه ، وكفى بالمرء عقلا أن يسلَم الناس من شرّه .

وقيل : مكتوبٌ في حكمة آل داود عليه السلام : على العاقل أن يكون عالما بأهل زمانه ، مالكا للسانه ، مقبلا على شانه .

وقال بعض الحكماء : كلّ شيء يعِزّ إذا قلّ ، والعقل كلّما كان أكثر كان أعزّ وأغلى ، ولو بيع لما اشتراه إلا العاقلُ لمعرفته بفضله ، وأوّل شرف العقل أنه لا يُشترَى بالمال . (٩٩)

قال أبو عطاء السندي :

فإن العقلَ ليس له إذا ما * تذكّرتَ الفضائلَ من كِفاء

---

(١) كذا في تذكرة الصفدي والإحياء للغزالي . وفي الأصول : «طهرت» .

وقالوا : العـلم قائد ، والعـقل سائق ، والنفس بينهما رون[1] ، فاذا كان قائدٌ بلا سـائق هلكتْ ، وإن كان سائق بلا قائد أخذَتْ يمينا وشمـالا ، فاذا آجتمعا أجابت[2] طوعا أو كَرْها .

ذكر ما قيل فى حدّ العقل وماهيته وما وصف به

وقـد آختلف الحكماء فى حد العقل ، فقيـل : حدّه الوقوف عنـد مقادير الأشياء قولا وفعلا . وقيل : النظر فى العواقب . وقال المتكلّمون : هو آسم لعلوم اذا حصلت للإنسـان صحّ تكليفُه . وقيـل : العـاقل من له رقيب على شهواته . وقيل : هو مَن عقَل نفسه عن المحارم . وقال عمرو بن العاص : أن يَعرِفَ خيرَ الخيرين ، وشرّ الشرّين .

قال أبو هلال : ومن العجب أن العرب تمثّلت فى جميـع الخصـال ، بأقوام جعلوهم أعلاما فيها ، فضربوا بها المثل اذا أرادوا المبالغة ، فقالوا : أحلم من الأحنف ومن قيس بن عاصم ، وأجودُ من حاتم ومن كعبِ بن مامة ، وأشجعُ من بسطام ، وأبْين من سَحبان ، وأرمَى من آبن تِقْنٍ ، وأعلمُ من دَغْفَل ، ولم يقولوا : أعقـلُ من فلان ، فلعلّهم لم يستكملوا عقَل أحدٍ ، على حسب ما قال الأعرابىّ ، وقد قيل له : حُدَّ لنا العقلَ ، فقال : كيف أحُدُّه ولم أره كاملا فى أحدٍ قطّ ؟ ! .

وقيـل لحكيم : ما جِماعُ العقل ؟ فقال : ما رأيتـه مجتمعا فى أحدٍ فَصِفَه ، وما لا يوجد كاملا فلا حدّ له .

وقالوا : لكلّ شىء غاية وحدّ ، والعقـل لا غاية له ولا حدّ ، ولكن النـاس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار فى الرائحة والطِّيب .

(١) فى العقد الفريد (ج ١ ص ١٩٨) : « ذود » .
(٢) فى العقد الفريد : « أثابت » .

واختلفوا فى ماهيّة العقل، كما اختلفوا فى حدّه، فقال بعضهم : هو نور وضعه الله تعالى طبعا وغريزةً فى القلب، كالنور فى العين وهو البصرُ؛ فالعقل نورٌ فى القلب، والبصرُ نورٌ فى العين؛ وهو ينقص ويزيد، ويذهب ويعود؛ وكما يُدرَكُ بالبصر شواهدُ الأمور، كذلك يُدرَكُ بالعقل كثيرٌ من المحجوب والمستور؛ وعَمَى القلب كعَمَى البصر، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس الأعمى من عَمِىَ بصرُه ولكنْ من عَمِيَتْ بصيرتُه " .

وقال عبد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عُتبةَ المعروف بالعتبىّ : العقل عقلان : عقلٌ تفرّدَ الله تعالى بصنعه، وهو الأصل؛ وعقلٌ يستفيده المرء بأدبه وهو الفرع؛ فاذا اجتمعا قوى كلّ واحدٍ منهما صاحبَه، تقويةَ النار فى الظُّلمة للبصر .

نظم بعض الشعراء هذا اللفظ فقال — ويروى لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه — :

رأيتُ العقلَ عقلين * فمطبوعٌ ومسموع
ولا ينفع مسموعٌ * اذا لم يك مطبوعُ
كما لا تنفع الشمسُ * وضوءُ العين ممنوعُ

وأكثرُ الناس على أنّ العقلَ فى القلب، ودليله قوله عز وجل : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " العقل فى القلب يفرق به بين الحقّ والباطل " .

وقال بعضهم : هو فى الدماغ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه .

وأما ما وُصف به، فقيل : العقلُ وزير رشـيد، وظهير سـعيد، مَن عصاه أرداه، ومن أطاعه أنجاه .

وقال سَعِيد بن جُبَير : لم ترعينای أجلّ من فضلِ عقلٍ يتردَّى به الرجلُ، إن آنكسر جَبَره، وإن تصـدّع أنعشَه، وإن ذلّ أعزّه، وإن آعوجّ أقامه، وإن عثر أقاله، وإن آفتقر أغناه، وإن عَرِى كساه، وإن غوَى أرشده، وإن خاف أمّنه، وإن حزِن أفرحه، وإن تكلّم صدّقه، وإن أقام بين أظهرِ قومٍ آغتبطوا به ، وإن غاب عنهم أسفوا عليه، وإن بسط يدَه قالوا : جوادٌ، وإن قبضها قالوا : مقتصدٌ، وإن أشار قالوا : عالم، وإن صام قالوا : مجتهد، وإن أفطر قالوا : معذور . قال بعض الشعراء :

يُعَدُّ رفيعَ للقوم من كان عاقلا * وإن لم يكن فى قومه بحسيبِ
وإن حلّ أرضا عاش فيها بعقله * وما عاقـلٌ فى بلدةٍ بغـــريب

وقال بعض الحكماء : إذا غلَب العقلُ الهوى ، صرف المساوى الى المحاسن، فجعل البلادةَ حِلما، والحدَّة ذكاءً، والمكرَ فطنةً، والهذرَ بلاغةً، والعِىَّ صمتًا، والعقوبةَ أدبا، والجُبنَ حَذَرا، والإسرافَ جُودا .

وقيل : لو صُوِّر العقلُ لأضاء معه الليلُ، ولو صُوِّر الجهلُ لأظلم معه النهارُ . قال المتنبّى :

لولا العقولُ لكان أدنَى ضيغمٍ * أدنَى الى شرَفٍ من الإنسـان

وقد نُدِبَ الى صحبة العقلاء .

قال الزُّهرِىّ : اذا أنكرتَ عقلكَ، فاقدحْه بعاقلٍ . وقال آبن زُرارةَ : جالِس العقلاءَ أعداءً كانوا أم أصدقاءَ، فإنّ العقلَ يقع على العقل . قال بعض الشعراء :

عدوُّك ذو العقل أبقَى عليكَ * وأبقى من الوامقِ الأحمـقِ

وقال آخر :

لله دَرُّ العقـل من راشـدٍ * وصاحبٍ فى اليسرِ والعسرِ
وحاكمٍ يقضِى على غائبٍ * قضـيَّةَ الشاهـد للأمْرِ
وإنَّ شـيئًا بعضُ أحواله * أن يفصِـلَ الخير من الشرِّ
له قُوًى قـد خصّـه ربُّه * بخالِص التقـديس والطُّهْرِ

وقال آخر :

إذا لم يكن للمـرء عقـلٌ فإنه * — وإن كان ذا قدر على الناس — هيِّنُ
وإن كان ذا عقـل أُجِلَّ لعقـله * وأفضـلُ عقلٍ عقلُ من يَتَبَيَّنُ

وقال آخر :

العقلُ حُلَّةُ فخـرٍ مَنْ تَسربلَها * كانت له نَسـبا[1] يُغْنِى عن النَّسَب
والعقل أفضـل ما فى الناس كلِّهِم * بالعقل ينجو الفتى من حومة العطب

وقال ابن دُرَيد[2] :

وأفضلُ قَسْمِ الله للمـرء عقلُه * فليس من الخيرات شىءٌ يقاربُهْ
فَزينُ الفتى فى الناس صحّةُ عقله * وإن كان محظورا عليه مَكاسبُهْ
ويُزرِى به فى الناس قِلّةُ عقله * وإن كُرِمتْ أعراقُه ومَنَاسِبُهْ
اذا أكمل الرحمنُ للمرء عقلَه * فقـد كُمُلتْ أخلاقُـه ومآربُهْ

(١) كذا فى أحد الأصلين الفتوغرافيين . وفى الأصل الآخر : « ... نشبا يغنى عن النشب » . وفى الراغبية : « ... نسبا يغنى عن النشب » .

(٢) كذا فى الأصول . وفى أدب الدنيا والدين لأبى الحسن البصرى ص : طبع بولاق : أن هذه الأبيات من شعر إبراهيم بن حسان ، مع اختلاف يسير فى بعض كلماتها .

وقال آخر :

ما وهبَ اللهُ لامرئٍ هِبـةً * أشرفَ من عقله ومن أدبهْ
هما جمـال الفتى فإن عُدِمَا * فإنَّ فقـــدَ الحياة أنفعُ به

وقال آخر :

ولم أرَ مثـلَ الفقر أوضـعَ للفـتى * ولم أرَ مثل المـال أرفعَ للنَّـــذْلِ
ولم أرَ من عُدْمٍ أضرَّ على الفـــتى * اذا عاش بين الناس من عَدَمِ العقلِ

ذكر ما قيل فى الصـــدق

قال الله عزّ وجلّ مبشّرا للصادقين : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تحرَّوُا الصـدقَ فإن الصدقَ يَهدى الى البِرِّ والبِرُّ يَهدى الى الجنة، وإن المرء(١) ليتحرَّى الصدقَ حتى يُكتَبَ صِدِّيقا" .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله، ما عَمَلُ أهلِ الجنّة؟ قال : "الصدق اذا صـدق العبد بَرّ واذا برّ أمِنَ واذا أمِنَ دخل الجنّـة" . قال : يا رسول الله، ما عمل أهل النار؟ قال : "الكذب اذا كذَب العبدُ فجر واذا فجر كفر واذا كفر دخل النار" .

وعن عائشـة رضى الله عنها قالت : سألت رسولَ الله صلى الله عليـه وسلم ، بمَ يُعرَفُ المؤمنُ؟ قال : "بوقاره ولِين كلامه وصدقِ حديثـه" . ومن كلام علىّ

(١) فى الإحياء للغزالى : « ... وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا » .

رضى الله عنه : [علامة][1] الإيمان أن تؤثر الصدقَ حيث يضرّك، على الكذب حيث ينفعك .

وقال بعض الحكماء : الصدق أزينُ حلية، والمعروف أربح تجارة، والشكر أدوم نعمة . وقال بعضهم : رأيت أرسطاطاليس فى المنام، فقلت : أىّ الكلام أحسن؟ فقال : ما صدق قائله، قلتُ : ثمّ ما ذا؟ قال : ما آستحسنه سامعه، قلت : ثمّ ما ذا ؟ قال : كل كلام جاوز هذا فهو ونهيقُ الحمارِ بمنزلةٍ .

وقال الأحنف لآبنه : يا بنىَّ، يكفيك من شرف الصدق، أن الصادق يُقبَل قولُه فى عدوّه، ومن دناءة الكذب أن الكاذب لا يُقبل قولُه فى صديقه ولا عدوّه؛ لكلّ شىء حليةٌ، وحليةُ المنطق الصدقُ . الصدق يدل على آعتدال وزن العقل .

قال عامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ فى وصيّته : إنى وجدتُ صدق الحديث طرفا من الغيب فآصدُقوا. من لزم الصدق وعوّده لسانه، فلا يكاد يتكلّم بشىء يظنّه، إلا جاء على ظنّه .

وقالوا : ما السيف الصارم فى كفّ الشجاع بأعز من الصدق .

وقيل : مرّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بعجوز تبيع اللبنَ [فى سوق الليل][1]، فقال لها : يا عجوز، لا تَغُشّى المسلمين، ولا تشوبى لبنَك بالماء، قالت : نعم يا أمير المؤمنين؛ ثم مرّ بها بعد ذلك، فقال : يا عجوز، ألم أعهَدْ إليك ألّا تشوبى لبنَك بالماء؟ فقالت : والله ما فعلتُ يا أمير المؤمنين، فتكلّمت بنتٌ لها من داخل الخباء، فقالت : يا أتاه، أغشّا وحِنثاً جمعتِ على نفسك ! فسمعها عمر

(١) زيادة عن تذكرة الصفدى يقتضيها السياق .

فأعجبته، فقال لولده : أيّكم يتزوّجها ؟ فلعلّ الله أن يُخرج منها نَسَمةً طيّبةً ، فقال ابنه عاصم : أنا أتزوّجها يا أمير المؤمنين، فزوّجها منه، فأولدها أمَّ عاصم، تزوّجها عبد العزيز بن مروان فأولدها عمَر بن عبد العزيز .

ورُوىَ أنّ بِلالا لم يكذب منـذ أسلم، فبلغ ذلك بعض من يحسُـده [فأراد أن يُعنِته][1]، فقال : اليوم أُكذِّبه، فسايره فقال له : يا بلال ما سنُّ فرسك؟ قال: عَظْمٌ، قال : فما جريه ؟ قال : يُحضِر ما استطاع، قال : فأين تنزل؟ قال : حيث أضع قدمى، قال : أينُ من أنت ؟ قال : ابن أبى وأمى، قال : فكم أتَى عليك؟ قال : ليالٍ وأيامٌ، الله أعلم بعددها ، قال : هيهات، أعيتْ فيك حيلتى، ما أتعبتَ[2] بعد اليوم أبدا .

(٧١)

ذكر ما قيل فى الوفاء والمحافظة والأمانة

قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ . وقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ . وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ . وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ .

وروى : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه : "عليك بصدق الحديث ووفاءِ العهد وحفظِ الأمانة فإنها وصيّة الأنبياء" .

كان أبو العاص بن الربيع بن عبـد العُزّى بن عبد شمس ، خَتَن[3] رسـول الله صلى الله عليه وسلم على ابنتـه زينب تاجرا تُضارب به قريشٌ بأموالهم، فخرج الى الشام

(١) زيادة عن تذكرة الصفدى تناسب المقام .

(٢) كذا فى تذكرة الصفدى . وفى الأصول : «ما أتعب ...» وهو تحريف .

(٣) الختن : الصهر أو كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

سنة الهجرة، فلما قَدِم عرَض له المسلمون فأسروه، وأخذوا ما معه، وقدموا به المدينة ليلا، فلما وصلوا الفجرَ، قامت زينب على باب المسجد، فقالت : يا رسول الله، قد أجرتُ أبا العاص وما معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد أجَرْنا من أجَرتِ" ودفع إليه ما أخذوه منه، وعرضَ عليه الإسلام، فأبَى، وخرج الى مكّة، ودعا قريشا، فأطعمهم، ثم دفع إليهم أموالَهم، ثم قال : هل وفَيتُ ؟ قالوا : نعم، قد أدّيتَ الأمانةَ ووَفَيْتَ، قال : أشهدوا جميعا أنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وما منعنى أن أُسلم إلا أن تقولوا : أخذ أموالَنا، ثمّ هاجر، فأقرّه رسول الله صلى الله عليه وسلم على النكاح، وتُوفّى فى سنة اثنتى عشرة .

وقيل لمّا قوى أمرُ بنى العباس وظهر قال مروان بن محمد لعبد الحميد بن يحيى كاتبه : إنّا نجد فى الكتب، أن هذا الأمرَ زائل عنا لامحالةَ، وسيظهر اليك هؤلاء القوم، يعنى ولد العباس، فصِرْ إليهم، فإنى لأرجو أن تُمكن منهم، فتنفعنى فى مخلفى وفى كثير من أمورى، فقال : وكيف لى بعلم الناس جميعا أنّ هذا عن رأيك، وكلّهم يقول : إنى غدرت بك، وصرت إلى عدوّك ؟ وأنشد :

أُســـرّ وفاءً ثم أُظهـــرُ غَدْرَةً * فمَنْ لى بعُذرٍ يوسع الناسَ ظاهِرُهْ

ثم قال :

ولومٌ ظاهرٌ لا شكَّ فيه * للائمه وعذرى بالمغيبِ

فلما سمع مروان ذلك، علم أنه لا يفعل ؛ ثم قال له عبد الحميد : إن الذى أمرتَنى به، لأنفعُ الأمرين لك وأقبحهما بى، ولك علىّ الصبر معك، الى أن يفتح الله عليك، أو أقتلَ معك .

والعرب تضرب المثل فى الوفاء بالسموءل بن عادياء الأزدىّ، وقيل : إنه من ولد الكاهن بن هارون بن عمران، وكان من خبره، أن امرأ القيس بن حُجْر أودعه

أدراعا مائة، فأتاه الحارث بن ظالم، ويقال الحارث بن أبى شمر الغسّانىّ، ليأخذها منه، فتحصّن منه السموءل، فأخذ ابنا له غلاما وناداه : إما أن أسلمتَ إلىّ الأدرع، وإما أن قتلتُ ابنك، فأبى أن يسلمها، فقتل ابنه بالسيف، ففى ذلك يقول :

وفَيتُ بأدْرُعِ الكِنْدِىِّ إنى * اذا القومُ[1] قدغدَرُوا وفَيتُ

وأوصَى عادِيَا يوما بألّا * تُهَـدِّم يا سموءلُ ما بَنَيتُ

وفيه يقول الأعشى :

كن كالسموءل إذْ طاف الهُمامُ به * فى جَحْفَلٍ كَسَواد الليـل جَرّارِ

الأبلقُ الفرد من تَيْمَاء منزِلُهُ * حِصن حصينٌ وجارٌ غيرُ غَدّارِ

قـد سامه[2] خُطَّتَىْ خسفٍ فقال له * قـل ما بدَا لك إنى سامعٌ حَارِ

فقـال ثكل وغدر أنت بينهما * فاخْـتَرْ وما فيهـما حظٌّ لمختـارِ

فشـكّ[3] غير طـويل ثم قال له * اقتـلْ أسـيرَكَ إنّى مانع جارى

ومن وفاء العرب ما فعـله هانئ بن مسعود الشَّيْبانى، حتى جرّ ذلك يوم ذى قار؛ وكان من خبره : أن النعمان بن المنـذر لمـا خاف كسرى، وعلم أنه لا منجى منه ولا ملجأ، رأى أن يضع يده فى يده، فأودع ماله وأهله عند هانئ، ثمّ أتى كسرى فقتله، وأرسل الى هانئ يطالبه بوديعـة النعمان، وقال له : إن النعمان كان عاملى، فابعث الىّ بوديعته، وإلّا بعثتُ اليك بجنود تقتل المقاتلة وتَسْبِى الذُّرّية؛ فبعث اليه هانئ : إن الذى بلغك باطل، وإن يكن الأمر كما قيل، فأنا أحد رجلين : إما رجل

(١) فى الكامل المبرد ص ٣٤١ طبع ليبزج : « اذا غـدرت أقواما ... الخ » . وفى المحاسن والأضداد للجاحظ والمحاسن والمساوى للبيهقى : « اذا ما خان أقوم ... الخ » . وفى تذكرة الصفدى : « اذا ما ذمّ أقوام ... الخ » .

(٢) فى الشعر والشعراء لابن قتيبة : « خيره ... الخ » .

(٣) كذا فى الشعر والشعراء . وفى جميع الأصول : « فكر ... الخ » .

استُودع أمانة، فهو حقيق أن يردَّها على من ٱستودعه إياها، ولن يسلّم الحرّ أمانته، أو رجل مكذوب عليه، وليس ينبغى للملك أن يأخذه بقول عدوّ، فبعث كسرى اليه الجنود، وعقد لإياس بن قبيصة على جميع العرب، وبعث معه الكَتيبة الشَّهْبَاء والأساورة[1]، فلما ٱلتقوا، قام هانئ بن مسعود، وحرّض قومه على القتال، وجرى بينهم حروب كثيرة ليس هذا موضع ذكرها، وسنذكرها إن شاءالله فى وقائع العرب، فانتصر هانئ وٱنهزمت الفُرْس، وكانت وقعة مشهورة. (٧٢)

قيل: وكان مِرْداس فى سجن عبيد الله بن زياد بن أبيه، فقال له السّجان: أنا أُحِبّ أن أُوليَك حسنة، فإن أذنتُ لك فى الٱنصراف الى دارك أفتُدلج علىّ؟ قال: نعم، فكان يفعل ذلك به؛ فلما كان ذات يوم، قتل بعضُ الخوارج صاحبَ شرطة ٱبن زياد، فأمر أن يقتل مَن فى السجن من الخوارج، وكان مرداس إذ ذاك خارجا، فقال له أهله: ٱتّق الله فى نفسك، فإنك مقتول إن رجعت، فقال: ما كنت لألقى الله غادرا، وهذا جبّار، ولا آمن أن يقتلَ السجّانَ؛ فرجع وقال للسجّان: قد بلغنى ما عزم صاحبك عليه من قتل أصحابنا، فبادرت لئلا يلحقَك منه مكروه؛ فقال له السجّان: خذ أىّ طريق شئت، فانج بنفسك.

خرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المُهَلَّب الى بعض جبابين الشأم، وإذا بامرأة جالسة عند قبر تبكى، فجاء سليمان ينظر اليها، فقال لها يزيد، وقد عجب سليمان من حسنها: يا أَمَةَ الله، هل لك فى أمير المؤمنين؟ فنظرت إليهما، ثم نظرت الى القبر، وقالت:

---

(١) الأساورة جمع اسوار بالضم والكسر: وهو قائد الفرس. وفى تذكرة الصفدى: «ومعه كتيبة الشهباء والدوسر». والدوسر: كتيبة النعمان.

فإن تسألانى عن هوايَ فإنّه * بِحَـوماء هـذا القبرِ يا فتيانِ
وإنى لأَستحْيِيه والتُّربُ بيننا * كما كنتُ أستحييه وهو يَرَانِى

ومن أحسن الوفاء ما حكى عن نائلة بنت الفَرَافِصة زوج عثمان بن عفّان رضى الله عنه : أن معاوية خطبها فردّته ، وقالت : ما يُعْجِب الرجالَ منّى ؟ قالوا : ثناياك ، فكسرتْ ثناياها ، وبعثت بها الى معاوية ، فكان ذلك مما رغّب قريشا فى نكاح نساء كلب . وآمرأة هُـدْبة لما قُتِـل زوجها قَطَعت أنفَها وشفَتَيْهَا ، وكانت جميـلة الوجه ، لئلا يُرغَبَ فيها .

وحيث ذكرنا الوفاء والمحافظة فلنذكر بيعة خليفـة ويَمِينٍ ، ذكرها بعض أهل الأدب فى تصنيفه ، وهى : تُبَايع عبدَالله الإمام أميرالمؤمنين ، بيعة طوع وإيثار ، ورِضا وآختيار ، وآعتقاد وإضمار ، وإعلان وإسرار ، وإخلاص من طويّتك ، وصدق من نيتك ، وآنشراح من صدرك ، وصحة من عزيمتك ، طائعا غير مُكْرَه ، ومنقادا غير مُجْبَر ، مقرًّا بفضلها ، مُذْعِنا بحقها ، ومعترِفا ببركتها ، ومُعتَدًّا بحسن عائدتها ، وعالِما بما فيها ، وفى توكيدها من صلاح الكافّة ، وآجتماع كلمة الخاصة والعامّة ، ولمّ الشَّعث ، وأمْنِ العواقب ، وسكون الدّهْمَاء ، وعِزّ الأولياء ، وقَمْع الأعداء ، على أن فلانا عبـد الله وخليفته المفتَرَض عليك طاعتُه ، الواجبة على الأمة إمامته وولايته ، اللازم لهم القيام بحقّـه والوفاء بعهده ، لا تَشُكّ فيه ، ولا ترتاب به ، ولا تُداهِن من أمره ، ولا تميل [الى غيره](١) ؛ ولكنّك ولىّ أوليائه ، وعدوّ أعدائه ، من خاصّ وعامّ ، وقريب وبعيد ، وحاضر وغائب ، متمسك فى بيعته بوفاء العهد ، وذمّة العقد ، سريرتُك مثل علانيَتِك ، وضميرك فيه وَفْق ظاهرك ، على أن إعطاءك هذه البيعة من نفسك ، وتوكيدك إياها فى عنقك ، لفلان أمير المؤمنين ، على سـلامة من قلبك ، وآستقامة من عزمك ،

(١) التكملة من تذكرة الصفدى .

وآستمرار من هواك ورأيك ، على ألاّ تتأول عليه فيها ، ولا تسعى فى نقض شىء منها ، ولا تقعد عن نصرة له فى الرخاء والشدّة ، ولا تدع النُّصح له فى كل حال راهنة وحادثة ، حتى تلقى الله مُوفِيا بها ، مؤدّيا للأمانة فيها ، إذ كان الذين يبايعون وُلاة الأمر وخلفاء الله فى الأرض ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ . عليك بهذه البيعة التى طوّقتها عنقك ، وبسطت لها يدك ، وأعطيت ما شُرط عليك فيها : من وفاء ونُصْح ومُوالاة ومشايعة ، وطاعة وموافقة ، وآجتهاد ومبالغة ، عهد الله إن عهده كان مسئولا ، وما أخذ الله على أنبيائه ورسله عليهم السلام ، وعلى من أخذ من عباده من مؤكّدات[1] مواثيقه ، ومُحْكَمات عهوده ، وعلى أن تمسك بها فلا تُبدل ، وتستقيم فلا تميل . وإن نكثتَ هذه البيعة ، وبدّلتَ شرطا من شروطها ، أو عفّيتَ رسما من رسومها ، أو غيّرتَ حكما من أحكامها ، معلنا أو مسرّا ، محتالا أو متأولا ، أو زُغْتَ عن السبيل التى يسلكها من لا يخفِر[2] الأمانة ، ولا يستحِلّ الغدر والخيانة ، ولا يستجيز حلّ العقود و[ختر][3] العهود ، فكلّ ما تملكه من عين أو وَرِق ، أو آنية أو عَقار ، أو سائمة أو زرع أو ضرع أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتقدة ، والأموال المدّخرة ، صدقة على المساكين ، يحرّم عليك أن ترجع شيئا من ذلك الى مالك بحيلة من الحيل على وجه من الوجوه ، أو سبب من الأسباب ، أو مخرج من مخارج الإيمان ؛ فكلّ ما تفيده عمرَك من مال يقلّ خطره أو يجلّ فتلك سبيله الى أن تُتوفاك[4] [منيتك ، أو يأتيك

(١) كذا فى تذكرة الصفدى . وفى الأصول : « من وكدات » .

(٢) كذا فى تذكرة الصفدى . وفى الأصول : « من لا يحتقر الأمانة » وهو خطأ .

(٣) زيادة عن تذكرة الصفدى .

(٤) الكلام الذى يبتدئ بهذا المربع ينتهى فى صحيفة ٢٥٠ بمربع مثله هو ساقط بالأصل الفتوغرافى ويقع فى صحيفتى (٧٣ و ٧٤) وقد نقلناه من النسخة الراغبية والأصل الفتوغرافى الآخر .

أجلك ، وكل مملوك لك اليوم من ذكر أو أنثى أو تملكه الى آخر أيامك ، أحرار سائبون لوجه الله تعالى ، ونساؤك يوم يلزمك الحِنْث ومن تتزوج[1] بعدهن مدة بقائك طوالق ثلاثا ، طلاق الحَرَج والسنّة لا مثنوية فيها ولا رجعة ، وعليك المشى الى بيت الله الحرام ، ثلاثين حِجّةً حافيا راجلا ، لا يرضى الله منك إلا بالوفاء بها ، ولا يقبل الله صرفا ولا عدلا ، وخَذَلك يوم تحتاج اليه ، وبرّأك من حوله وقوته ، وألجأك الى حولك وقوتك ، والله عز وجلّ بذلك شهيد . وكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ، والله على ما نقول وكيل .

ذكر ما قيل فى التواضع

قال الله تبارك وتعالى : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ . وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . وقال قتادة فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قال : هم المتواضعون . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل على الأرض تواضعا .

وقال أنس بن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار ، ولقد رأيته يوم حُنَين على حمار خِطَامه ليف . وقال صلى الله عليه وسلم : "إن العفو لا يزيد العبد إلا عزّا فاعفُوا يُعِزّكم الله وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رِفْعة فتواضعوا يرفعكم الله وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء فتصدّقوا يزدكم الله" . وقال عروة[2] بن الزبير : التواضع أحد مصايد الشرف ، وفى لفظ : التواضع سلّم الشرف . وقال جعفر بن محمد :

---

(١) كذا فى تذكرة الصفدى . وفى الأصول : «ما تزوج» .

(٢) كذا فى الأصول . وفى تذكرة الصفدى : « قال عمرو بن الزبير ... الخ » . وفى المعارف لابن قتيبة : أن عروة وعمرا كلاهما من ولد الزبير .

رأس الخير التواضع، فقيل له : وما التواضع ؟ فقال : أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تُسَلِّم على من لَقِيت، وأن تترك المِرَاء وإن كنت مُحِقًّا . وقد روى عن على رضى الله تعالى عنه ولم يذكر المِرَاء فيه، وزاد فيه : وتكره الرياء والسمعة . وقيل : ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة . وقيل : التواضع نعمة لا يفطن لها الحاسد . وقيل : التواضع كالوَهْدة يجتمع فيها قَطرها وقطر غيرها . وقال عبد الله بن المعتز : متواضِع العلماء أكثرهم علما، كما أن المكان المنخفض أكثرُ الأماكن ماءً.

وكان يحيى بن خالد يقول : لست أرى أحدا تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه أكبر مما نال من سلطانه .

ومن التواضع المأثور ما رُوِى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرَّ ويَدُه على المُعَلَّى بن الجارود، فلقيته امرأة من قريش، فقالت له : يا عمر، فوقف لها، فقالت له : كنا نعرفك مرّة عُمَيْرا ثم صرتَ بعدَ عُمَيْرٍ عُمَرَ ثم صرت بعد عمرَ أميرَ المؤمنين، فاتق الله يابنَ الخطّاب، وانظر فى أمور الناس، فإنه من خاف الوعيد، قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشى الفوت ؛ فقال لها المعلّى : إيهًا ! إليك يا أَمَةَ الله لقد أبكيتِ أمير المؤمنين ! فقال له عمر : أتدرى مَنْ هذه؟ ويحك ! هذه خَوْلة بنت حكيم التى سمع الله قولها من سمائه، فعمرُ أحرى أن يسمع قولها ويقتدىَ به .

وقال عدىّ بن أرْطاة لإياس بن معاوية : إنك لسريع المِشْية ؛ قال : ذلك أبعد من الكِبْر وأسرع الى الحاجة .

وقال عمر رضى الله عنه — وقد قيل له مثل هذا — : هو أنجح للحاجة وأبعد من الكِبْر، أما سمعت قوله عز وجل : ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ .

وقد مدح الشعراء أهل التواضع، فمن ذلك قول أبى تمّام حبيب :

مُتَبَذِّلٌ فى القوم وهو مبجَّلٌ * متواضع فى الحَىِّ وهو مُعَظَّمُ

وقال آخر :

متواضع والنُّبْلُ يَحْرُس قدرَه * وأخو النباهة بالنباهة يَنْبُـلُ

وقال البحترى :

دَنَوْتَ تواضعًا وعلَوْتَ مجـدًا * فشأناك انحـدارٌ وارتفـاعُ

كذاك الشمسُ تبعد أن تُسامَى * ويدنو الضوء منهـا والشُّعَاع

وقال أبو محمد التيمى :

تواضعَ لمـا زاده اللهُ رِفْعةً * وكلُّ رفيع قدرُه متواضعُ

وقال آخر :

دَنوتَ تواضعا وعلوتَ قدرا * ففيك تواضـعٌ وعُلُوُّ شانِ

ذكر ما قيل فى القناعة والنزاهة

جاء فى تفسير قوله تعـالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ أن المراد بالحياة الطيبة : القناعة .

وقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " القناعة مالٌ لا يَنْفَدُ " . وقال عليه السـلام : " ما عَالَ مَنِ اقْتَصَد " .

ومن كلام على رضى الله عنه : كفى بالقناعة مُلْكًا، وبحسن الخُلُق نعيما .

وقال جعفر بن محمد : ثمرة القناعة الراحة .

وقال علىّ بن موسى : القناعة تجمع الى صيانة النفس وعز القدرة، طَرْحَ مُؤَن الاستكثار والتعبّد لأهل الدنيا ، ولا يسلُك(١) طريقَ القناعة إلا رجلان : إما متقلِّلٌ يريد أجرَ الآخرة، أو كريمٌ يتنزّه عن آثام(٢) الدنيا .

(١) كذا فى تذكرة الصفدى وهو الأنسب بالمقام : وفى الأصول : « ولا ملك » .

(٢) فى تذكرة الصفدى : « عن لئام » .

وقال : الراضى القانع يعيش آمنا مطمئنا مستريحا مريحا ، والشَّرِهُ [الحريص][1] لا يعيش إلا تعِباً نَصِباً فى خوف وأذًى .

وقال بعض الحكماء : عزّ النزاهة أحبّ الىّ من فرح الفائدة ، والصبر على العسرة أحبّ الىّ من احتمال المِنَّة . وقال أبو ذؤيب الهُذَلِىّ :

والنفسُ راغبةٌ اذا رغّبتَها * وإذا تُرَدُّ الى قليـــل تَقْنَعُ

وقال سالم بن وابصة[2] :

غِنَى النفسِ ما يكفيك فِى سَدِّ فاقةٍ * فإن زاد شـيئا عاد ذاك الغنَى فَقْرا

وقال أبو هلال العسكرى :

أَلَا إنَّ القنـاعة خيرُ مالٍ * لِذى كَرَمٍ يروح بغـيرِ مالِ
وإن يَصبِرْ فإن الصبرَ أولى * بمَنْ عفّتْ به نُوَبُ اللياـلى
تَجَمّـلْ إن بُلِيتَ بسوء حالٍ * فإنّ من التجمُّلِ حسنَ حالِ

ذكر ما قيل فى الشكر والثناء

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ فالشكر مما يوجب الزيادة .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : لا يُزَهِّدك فى المعروف من لا يشكرك عليه ، فقد يشكرك عليه من لا يستمتِع بشىء منه ، وقد يُدرَكُ من شكر الشاكر أكثر مما أضاع الكافر ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(١) الزيادة عن تذكرة الصفدى .

(٢) كذا فى شرح القاموس وتهذيب التهذيب وتذكرة الصفدى . وفى الأصول : « وامضة » وهو تحريف .

ومما تَعْزُوه الفرس الى إسفنديار : الشكر أفضل من النعمة ، لأنه يبقى وتلك تفنى .

وقال موسى بن جعفر : المعروف لا يَفُكّه إلا المكافأة أو الشكر . وقال : قلّة الشكر تُزَهِّد فى اصطناع المعروف .

وقيل : إذا قصُرت يدك عن المكافأة فليَطُلْ لسانك بالشكر . وقيل : للشكر ثلاث منازل : ضمير القلب ، ونشر اللسان ، ومكافأة اليد . قال الشاعر :

أفادتكمُ النَّعْماءُ منِّى ثلاثةً * يدى ولسانى والضميرَ المُحَجَّبَا

وقال يحيى بن زياد الحارثىّ بن كعب :

حلفتُ بربِّ العِيسِ تَهْوِى بركْبِها * الى حَرَمٍ ما عنه للناس مَعْدِلُ
لَمَا يبلُغُ الإنعامُ فى النفع غايةً * على المرء الّا مبلغُ الشكر أفضلُ
ولا بلغتْ أيدى المُنِيلينَ بَسْطةً * من الطَّول إلّا بسطةُ الشكر أطولُ
ولا ثَقُلتْ فى الوزن أعباءُ مِنَّةٍ * على المرء إلا مِنَّةُ الشكر أثقلُ
فمَنْ شكر المعروفَ يوما فقد أتى * أخا العرف من حُسن المكافاة مِنْ عَلُ

وقال رجل من غَطَفان :

الشكر أفضلُ ما حاولتَ ملتَمِسًا * به الزيادةَ عند الله والناس

وقال أبو نُخَيْلَة[1] :

شكرتُك إنّ الشكرَ حَبْلٌ من التُّقى * وما كلّ من أوليتَه نِعمةً يقْضِى
ونَبّهتَ لى ذِكْرى وما كان خامِلاً * ولكنّ بعضَ الذِّكْرِ أنبهُ من بعضِ

(١) كذا فى الأغانى طبع بولاق (ج ١٨ ص ١٤٠) والقاموس . وفى الأصول : «أبو بجيلة» بالباء والجيم ، وهو تحريف .

وقال آخر :

سأشكرُ عمرًا ما تراخت مَنِيَّتِي * أيادِيَ لم تُمْنَنْ وإن هِيَ جَلَّتِ
فتًى غيرُ محجوبِ الغِنى عن صديقه[1] * ولا مُظهِرُ الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتِي من حيث يَخفَى مكانُها * فكانتْ قَذَى عينيهِ حتَّى تَجَلَّتِ

وقال أبو تمام :

كَمْ نِعمةٍ منك تَسَرْبلتُها * كأنها طُرَّة بُردٍ قَشِيب
من اللواتى إن ونَى شاكر * قامت لمُسْديها مقامَ الخطيب

وقال أبو عُيَيْنَة[2] بن محمد بن أبي عيينة المُهَلَّبي :

ياذَا اليَمِينَين قد أوليتَنى مِنَنًا * تَتْرَى هى الغايةُ القُصْوى من المِنَنِ
ولستُ أستطيع من شكرٍ أجيءُ به * إلّا استطاعة ذِى جِسْمٍ وذى بدنِ
لو كنتُ أعرِف فوقَ الشكر منزلةً * أوفى من الشكر عند الله فى الثَّمَنِ
أخلصتُها لك من قلبى مُهَذَّبةً * حَذْوًا على مثل ما أوليتَ من حَسَنِ

قالوا : وأجود ما قيل فى عِظم النعمة وقصور الشكر من قديم الشِّعر، قول طُرَيح ابن إسماعيل :

سعيتُ ابتغاء الشكر فيما صنعتَ لى * فقصَّرتُ مغلوبا وإنى لشاكرُ
لأنك تُولِينى الجميلَ بَدَاهةً * وأنت لما استكثرتُ من ذاك حاقِرُ
فأَرْجِعُ مَغْبوطا وترجِعُ بالَّتِى * لها أوَّلٌ فى المَكرماتِ وآخرُ

وقال دِعْبِل :

هجرتُك لا عن جَفْوةٍ وملالَةٍ * ولا لِقِلَّى أبطأتُ عنك أبا بكرِ

(١) فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : * فتى غير مفراح إذا الخير مسه *
(٢) كذا فى الشعر والشعراء لابن قتيبة والاغانى (ج ٥ ص ٩) طبع بولاق. وفى الاصول : «عتبة».

ولكنّى لما أتيتُك راغبًا * فأفرطتَ فى برّى عجزتُ عن الشكر
فلآن[1] لا آتيك إلّا تعـذُّراً * أزورك فى الشهرين يوما وفى الشهرِ
فانْ زدتَ فى برّى تزايدتُ جفوةً * فلا نلتقى حتى القيامة والحَشْرِ

وقال البحترى :

هاتيك أخلاقُ إسماعيل فى تَعِبٍ * من العُلَا والعُلَا منهنّ فى تَعِبِ
أدأبت[2] شكرى فأُمسى منك فى نَصَبٍ * أَقصِرْ[3] فمالىَ فى جَدْواك من أَرَبِ
لا أقبـلُ الدهرَ نَيْلا لا يقوم له * شكرى ولو كان يُسديه إلىَّ أَبِى
لما سألتُك وافانى نَدَاك على * أضعافِ شكرى[4] فلم أظْفَرْ ولم أَخِبِ

وقال أيضا :

إنى هجرتُك إذ هجرتُك وَحْشةً * لا العَـودُ يُذْهبُها ولا الإبداءُ
أخجلتَنِى بندَى يَدَيْك فسوّدتْ * ما بيننا تلك اليدُ البيضـاءُ
وقطعتنى بالجـود حتّى إنّنِى * مُتَخَوِّفٌ ألّا يكون لِقاءُ
صِلَةٌ غَدَتْ للناس وَهى قَطِيعةٌ * عَجَبًا وبِرٌّ راح وهو جَفَـاءُ
لَيُواصِلَنَّك رَكْبُ شِـعرٍ سائرٍ * يرْويه فيكَ لحسنه الأعـداءُ
حتى يَتِمَّ لك الثناءُ مُخَـلَّدا * أبدا كما تمّتْ[5] لك النَّعماءُ
فتظلّ تحسُدُك الملوكُ الصِّيدُ بى * وتظلّ تحسُدنى بك الشـعراءُ

(١) فلآن ، أى فى الآن .
(٢) فى ديوان البحترى (ج ٢ ص ٦٤) طبع الاستانة : «أتعبت» .
(٣) فى ديوان البحترى : «فاذهب ... الخ» .
(٤) فى ديوان البحترى : « ... ظنى فلم أخفق ... الخ» .
(٥) فى ديوان البحترى : « لى » .

وقال الحسن بن هانئ :

قد قلتُ للعبّاس معتذراً * من ضَعْفِ[1] شكريه ومعترفا
أنت امرؤ جلّلتَنِي نِعَماً * أوهتْ قُوَى شكرى فقد ضَعُفَا
لا تُسْدِيَنَّ إلىَّ عارفةً * حتّى أقومَ بشكر ما سَلَفَا

وقال الحسين بن الضحاك للواثق من أبيات :

إذا كنتُ من جَدْواك فى كلِّ نعمةٍ * فلا كنتُ إن لم أفْنِ عُمْرى بشكركا

وقال البحترىّ :

إذا أنا لم أشكر لنُعماك جاهِداً * فلا نلتُ نُعْمَى بعدها تُوجب الشُّكرا

وقال عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إنى لشاكرُ أمْسِهِ ووليُّهُ * فى يومه ومُؤَمِّلٌ[2] فيه غدَا

وقال آخر :

وكيف أنساك لا نُعْماك واحدةٌ * عندى ولا بالذى أوليتَ من قدَم

وقال عبدُ الأعلى بن حمّاد : دخلتُ على المتوكّل، فقال لى : قد همّنا أن نصِلَك، فتدافعت الأمور؛ فقلت : ياأمير المؤمنين، قد بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : من لم يشكر للهمّة، لم يشكر للنعمة، وأنشدته قول الباهلىّ :

لأشكرنَّك معروفا همممتَ به * إنّ اهتمامَك بالمعروف معروفُ
ولا ألومك إن لم يُمضِه قَدَرٌ * فالشىءُ بالقَدَر المحتوم مصروفُ

---

(١) كذا فى ديوان المعانى، وفى الأصل : «من عظم ...» وهو غير المناسب .

(٢) فى الأصول : «عه» .

وقال ابن الرومى :

كم من يدٍ بيضاءَ قد أسديتَها * تَثْنِى إليك عِنَان كلِّ وِدَادِ
شَكَرَ الإلٰهُ صنائعًا أوليتَها * سُلِكَتْ مع الأرواح فى الأجسادِ

وقال آخر :

وأحسنُ ماقال امرؤفيك مِدْحةٌ * تلاقَتْ عليها مِنَّةٌ وقَبُولُ
وشكرٌ كأن الشمسَ تُعْنَى بنشره * ففى كلّ أرض مُخْبِرٌ ورسولُ

ومن كلام الحسن بن وهب : من شكر لك على درجةٍ رفعتَه اليها ، أوثروة أفدتَه إيّاها ، فإن شكرى لك على مهْجة أحييتَها ، وحُشَاشة أبقيتَها ، ورَمَق أمسكته وقمتَ بين التَّلَف و بينه ؛ ولكل نعمة من نعم الدنيا حدٌّ يُنتهَى إليه ، ومدًى يوقَف عليه ، وغايةٌ من الشكر يسمو اليها الطرف ، خلا هـذه النعمة التى فاتَتِ الوصفَ ، وطالتِ الشكرَ ، وتجاوزتْ كلَّ قَدْر ، وأتت من وراء كلّ غاية ، وردت عنّا كَيْد العدوّ ، وأرغمتْ أنفَ الحسود ؛ نلجأ منها الى ظِلٍّ ظليل ، وكَنَفٍ كريم ؛ فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلُغ جهد المجهود !

وقال الشريف الرضىّ :

ألبستنى نِعَـمًا على نِعَـمٍ * ورفعتَ لى عَلَمًا على عَلَمِ
وعلوتَ بى حتّى مشيتُ على * بُسُطٍ من الأعناق والقِمَمِ
فلأشكرَنَّ نداك ما شكرتْ * خُضْرُ الرِّياضِ صنائعَ الدِّيَمِ
فالحمدُ يُبْقِى ذِكرَ كلِّ فتًى * ويُبِينُ قَدْرَ مواقِعِ الكَرَمِ
والشكر مَهْرٌ للصنيعة إنْ * طُلِبَتْ مُهُورُ عقائلِ النِّعَمِ

وقال أبو الحسن الكاتب المغربىّ :

سأشكر نُعماك التى انبسطَتْ بها * يَدِى ولسانِى فهو بالمَجْدِ يَنْطِقُ

وأثنى بما أوليتنى من صنيعة * ومن منّة تغدو علىّ وتطرق
وكلّ امرئ يرجو نداك موفّق * وكلّ امرئ يثنى عليك مصدّق

وقال ابن رشيق القيروانىّ :

خذ ثناءً عليك غبّ الأيادى * كثناء الرُّبا على الأمطار
سقط الشكر وهو موجب نُعما * ك سقوطَ الأنواء بالأثمار

ومن المُنعِمين مَنْ رأى أن الشكر بإظهار النعمة أبلغ منه بالنطق باللسان، وعاقب على ذلك بالحِرمان .

فمن ذلك ما رواه أبو هلال العسكرىّ بسنده الى العُتبىّ[1] قال : أراد جعفر بن يحيى حاجة كان طريقه إليها على باب الأصمعىّ، فدفع الى خادم له كيسا فيه ألفُ دينار وقال : إنى سأنزل فى رَجْعتى الى الأصمعىّ، ثم سيحدّثنى ويُضحكُنى، فاذا ضحكتُ، فضع الكيس بين يَدَيْه ، فلما رجع ودخل إليه، رأى حُبًّا[2] مكسورَ الرأس، وجَرّةً مكسورةَ العُنُق، وقَصْعة مشعبة، وجَفْنة أعشارا، ورآه على مُصلًّى بالٍ، وعليه بَرَنكان[3] أجرُد ، فغمز غلامَه ألّا يضعَ الكيسَ بين يديه ، فلم يدعِ الأصمعىّ شيئا ممّا يُضحك الثكلان والغضبان إلا أورده عليه فلم يتبسّم، ثم خرج، فقال لرجل يسايره : من استرعى الذئب ظَلَم، ومن زَرَع سبخة حصد الفقر، إنى والله لمّا علمت أن هذا يكتم المعروف بالفعل ، ما حفلتُ بنشره له باللسان،

(١) كذا فى الأصل . وفى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : «أخبرنا أبو جعفر بن القتبىّ عن القتبى قال : أراد جعفر بن يحيى ... الخ» .

(٢) الحب : الجرة الضخمة .

(٣) البرنكان على وزن زعفران : ضرب من الأكسية و يقال له أيضا بركان .

وأين يقع مديح اللسان من آثار العِيان! إن اللسان قـد يكذب والحال لا تكذِب، ولله درّ نُصَيب حيث يقول :

فعاجُوا فَأثْنَوْا بالذى أنت أهـلهُ * ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ

ثم قال : أعلمت أن ناووس[(١)] أبرويز، أمدح لأبرويز، من [شعر][(٢)] زُهَيْر لآل سِنَان !

وقالت الحكماء : لسان الحـال أصدق من لسان الشـكوى . وقد أجاد ابن الرومىّ فى هذا المعنى فقال : ٥

حالى تَبُوح بما أَوْليتَ من حسَنٍ * فكلُّ ما تدَّعيـــه غـيرُ مردودِ

كلّى هجاءٌ وقتـلى لا يحِـلُّ لكم * فمـا يداويكُمُ منّى سوى الجُـودِ

وقالوا : شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال .

ذكر ما قيل فى الوَعْد والإنجاز ١٠

رُوى عن رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم أنه قال : "وعد المؤمن كأخذ باليد" . وقال الحسن بن على رضى الله عنهما : الوعد مرض فى الجود، والإنجاز دواؤه . ومن كلامه : المسئول حُرٌّ حتّى يَعِـد، ومستَرَقٌّ بالوعد حتى يُنْجِزَ . وقال الزُّهْرِىُّ : حقيق على من أزهر[(٤)] بالوعد أن يُثمِرَ بالفعل .

وقال مسلم بن الوليد عن أبيه قال : سألت الفضل بنَ سَهْلٍ حاجة، فقال : أشرِّفك اليوم بالوعد، وأحبوك غدا بالإنجاز؛ فإنى سمعتُ يحيى بنَ خالد يقـول : ١٥

(١) الناووس والناموس : مقبرة النصارى معرب، ويطلق على الحجر المنقور تجعل فيه جثة الميت .

(٢) التكملة عن ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى .

(٣) فى ديوان ابن الرومى : * حالى تصيح بما اوليت معلنة *

(٤) فى العقد الفريد : «على من أورق يوعد ... الخ» . ٢٠

المواعيد شَبَكة من شِباك الكرام، يَصيدون بها محامِد الأحرار؛ ولو كان المُعْطى لا يعِد لارتفعتْ مفاخر إنجاز الوعد، ونَقَص فضلُ صدقِ المقال .

وقال الأَبْرَش الكلبيُّ لهشام بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين، لا تصنع إلىّ معروفا حتى تَعِدَنى، فإنه لم يأتنى منك سَيْب على غير وعد إلّا هان علىّ قَدْرُه، وقلّ منّى شكره؛ فقال له هشام : لئن قلتَ ذلك لقد قال سيّدُ أهلِك أبو مسلم الخَوْلانىّ : أنجعُ المعروف فى القلوب وأبردُه على الأكباد معروف منتظَر بوعد لا يُكدّر بالمَطْل . وكان يحيى بن خالد لا يقضى حاجةً إلا بوعد .

وقالت أعرابيّة لرجل : مالَك تُعطِى ولا تَعِد؟ فقال : مالكِ والوعد؟ قالت ينفسِح به البصرُ، وينشرفيه الأملُ، وتطيب بذكره النفسُ، ويَرتَحى به العيشُ، وتربح أنت به المدحَ بالوفاء .

قيل : كلّم منصور بن زياد يحيى بن خالد فى حاجة لرجل فقال : عِدْه عنّى قضاءَها، قال : وما يدعوك أعزّك الله الى العِدَة مع وجود القُدْرة؟ فقال يحيى : هذا قول من لا يعرف موضِعَ الصنائع من القلوب؛ إنّ الحاجة إن لم تُتقدمها بوعد ينتظر به نُجْحها، لم تتجاذب الأنفسُ بسرورها، ولم تتلذّذ بتأميلها؛ وإن الوعد تطعّم، والإنجاز طعام، وليس من فاجأه طعام، كمن وجد رائحتَه، وتمطّق له وتطعّمه، ثم طَعِمه؛ فدع الحاجة تَختَمِر بالوعد، ليكون لها عند المصطَنَع اليه حسنُ موقع، ولطفُ محَلّ .

وقال عيسى بن ماهان : إنى أُحِبُّ أن أَهَب بلا وعد، وأُحِبُّ أن أعِد، لأَخرجَ من جملة المخلفين، وأدخلَ فى عدد الوافين، ويُؤثَر عنّى كرم المُنْجزين؛ فإن من سبق فعلُه وعدَه وُصِف بكرم فَرْد، وسقط عنه جميع ما ذكرت .

قال: ذكر العباسُ المأمونَ فقال: إنه أَقْمَح معروفَه عندى بالوعد، وتتجّه بالنُّجح، وأرضعه بالزيادة، وشبّبه بالتعهد، وهرّمه باستتمامه من جِهاته، وهَنّاه (١) بترك الامتنان به.

وشكا رجلٌ جعفرَ بن يحيى لأبيه: أنه وعده وعدا ومَطَله به؛ فوقّع: يابنىَّ، أتتم معائل الأحرار ومَظانّ المطالب ومعادِنُ الشكوى، فكونوا سَواءً فى الأقوال والأفعال؛ فإن الحُرَّ يدّخر وعدَ الحر ويعتقده وينفقه قبل مَلْكته، فإن أخفق أمله كان سببا لذمّه واتّهامه وسوءِ ظنّه، حتّى يوارِىَ قُبْحُ ذلك حُسنَ يقينه؛ فأنجِز الوعد، وإلا فأَقْصِرِ القول، فإنه أعذر، والسلام.

قال: كلّم المأمون فى الحسين بن الضحّاك الخليع أن يردّ عليه رزقه؛ فقال: أليس هو القائل فى الأمين:

فلا فَرِح المأمونُ بالمُلْك بعدَه ٭ ولا زال فى الدُّنيا طَرِيدًا مشرَّدا

فما زالوا يتلطّفون معه فى القول، إلى أن أَذِن له أن يُنْشِده فأنشده:

أَيِنْ (٢) لى فإنّى قد ظَمِئْتُ الى الوعدِ ٭ متى تُنْجِز الوعد المؤكَّدَ بالعهدِ

أُعِيذُك من صَدِّ (٣) الملوك وقد ترى ٭ تقطُّعَ أنفاسى عليك من الوَجْدِ

فما لى شَفِيعٌ عندَ حسنك غيره ٭ ولا سببٌ إلا التمسُّك بالوُدِّ

أيبخَلُ فَرْدُ الحُسنِ فردُ صفاتِه ٭ علىّ وقد أفردتُه بهَوًى فرد (٤)

رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده ٭ فملّكَهُ والله أعلم بالعبد

---

(١) هناه: طلاه بالهناء، وهو القطران.

(٢) رواية الأغانى طبع بولاق (ج ٦ ص ١٨٠): «أجزنى ... الخ».

(٣) فى الأغانى: «من خلف الملوك وقد بدا».

(٤) كذا فى الأغانى. وفى الأصلين: «بهوى وحدى».

فقال له المأمون : هـذه بتلك ، وقد عفونا عنك ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، فأتبع عفوَك إحسانك ؛ فأمر بردّ أرزاقه عليـه ، وكانت فى كلّ شهر خَمْسمِائة دينار. فقال المأمون : لولا أنى نويتُ عفوا عنـه ، وجعلت ذلك وعدا له من قبل ، ما فعلته ، وإنمـا ذِكْر الوعد فى تشبيبه يذكرنيه .

وقال بعض ملوك العجم : البخل بعد الوعد ، يُضْعِفُ قبحه على البخل قبلَه ، فمـا قولك فى أمرٍ ، البخل أحسن منه ؟

وقال بعض الشعراء :

ولى منـك مَوْعودٌ طلبتُ نجاحه * وأنت امرؤٌ لاتُخلف الدهرَ مَوْعِدَا
وعوّدتنى ألّا تزالَ تُظِـلُّنِي * يدٌ منـك قد قدّمتَ من قبلها يَدَا
فلو أنّ مجدًا أو ندًى أو فضـيلة * تُخَلِّد شيئا كنت أنت المخـلَّدَا

وقال بشّار :

وعد الكريم يَحُثُّ نائلَه * كالغَيْثِ يَسْبِقُ رعدُه مَطَرَهْ

وقال ابن الرومىّ :

يتخطّى العِداتِ عمدا الى البَذْ * لِ كسَحِّ الحَيَا بلا إيمـاض

ذكر ما قيل فى الشفاعة

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ﴾ .

وقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره فيقول له جعلتُ لك جاها فهـل نصرت به مظلوما أو قمعتَ به ظالمـا أو أعنتَ به مكروبا". وقال صلى الله عليه وسلم : "أفضل الصدقة أن تعين

بجاهـك من لا جاهَ له " وقال : " الخلق[1] عيال الله فأحبُّهم اليه أنفعُهم لعياله " . وقال : "الشفيعُ جَناحُ الطلب" .

وقيل : قصد آبن السمّاكِ الواعظ رجلا فى حاجةٍ لرجلٍ سأله الشفاعة فيهـا ، فقال آبن السمّاك : إنى أتيتك فى حاجةٍ ، وإن الطالب والمطلوبَ اليه عزيزان إن قُضيت الحاجةُ ، وذليلان إن لم تُقْضَ ؛ فاختر لنفسك عزّ البـذل على ذلّ المنع ، وآختر لى عزَّ النُّجح على ذلّ الرّد؛ فقضى حاجته .

قال أبو تمام :

واذا آمرؤ أسدى اليك صنيعة * من جاهه فكأنها من ماله

وقال رجل لبعض الملوك : إنّ الناس يتوسّلون اليـك بغيرك ، يسألون معروفك ويشكرون غيرك ؛ وأنا أتوسّل اليك بك ، ليكون شكرى لك لا لغيرك . قال بعض الشـــعراء :

إذا أنتَ لم تَعطفْك إلّا شفاعةٌ * فلا خيرَ فى ودّ يكون بشـافع

ذكر ما قيل فى الآعتذار والآستعطاف

رأيتُ جماعةً من أهل الأدب قد ألحقوا الآعتـذار والآستعطاف بالمدح ، كالحمدونىّ فى تذكرته ، وغيره ؛ فلذلك أضفته اليه ، وجعلته من فصوله . قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .

ورُوىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " من آعتذر اليه أخوه المسلمُ فلم يقبلْ لم يَرِدْ على الحوض" .

(١) فى الجامع الصغير : « الخلق كلهم » ... الى الله ... الخ » .

وقال علىّ رضى الله عنه : أَوْلَى النـاس بالعفو أقدرهم على العقوبة . وقال : العفو زكاة الظَّفر . وقال : اذا قَدَرتَ على عدوك فاجعل عفوك عنه شكر المقدرة عليـــه .

وقال الحسن بن علىّ رضى الله عنهما : لا تُعاجِل الذنبَ بالعقوبة ، وٱجعـل بينهما للٱعتذار طريقا . وقال : أوسعُ مايكون الكرمُ بالمغفرة، إذا ضاقت بالذنب المعـذرة .

وقال جعفر بن محمد الصادق : شفيع المذنب إقراره، وتوبة المجرم الٱعتذار. وقالوا : ما أذنب من ٱعتذر، ولا أُسِيء من ٱستُغْفِر .

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال : يا بُنَىّ لا يعتذر اليك أحد من الناس، كائنا من كان، فى أى جرم كان، صادقا كان أو كاذبا، إلا قبلتَ عذره، فكفـاك بالٱعتذار بِرًّا من صديقك، وذلًّا من عدوك .

قال بعض الشعراء :

فإن كنتَ ترجو فى العقوبة راحةً * فلا تزهَدَنْ عند التجاوُز فى الأجْرِ

وقال أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى : الٱعتذار ذِلّة، ولا بدّ منـه، لأن الإصرار على الذنب، فيما بينك و بين خالقـك هلكةٌ، وفيما بينك و بين صـديقك فُرقةٌ ، وعنـد سائر الناس مثلبةٌ ومُجنةٌ ؛ فعليك به اذا واقعتَ الذنب وقارفت الجرم، ولا تستنكفْ من خضوعك وتذلّلك فيه، فربمـا ٱستثير العزُّ من تحت الذلة، وٱجتُنِيَ الشرفُ من الشجرة الذلة، وربّ محبوبٍ فى مكروه، والمجدُ شهدٌ يُجتَنَى من حنظل .

قال : ومما خُصّ به الٱعتذار أنّ الحقَّ لا يثبت لباطله، والحقيقةَ لا تقوم مع تخييله وتمويهه، وأنّ ردَّه لا يسع مع الكذب اللائح فى صفحاته .

وقالوا : لا عذرَ فى ردِّ الاعتذار ، والمعتذرُ من الذنب كمن لا ذنب له . وهذه خَصلة لا يَشْرَكه فيها غيرُه .

قال بعضهم : كنت بحضرة عُبيد الله بن سليمان ، فوردت عليه رقعة من جعفر ابن ثَوابة ، نسختُها : قد فتحتَ للمظلوم بابَك ، ورفعتَ عنه حجابَك ، فأنا أحاكم الأيّام الى عدلك ، وأشكو صُروفَها الى عطفك ، وأستجير من لؤم غلَبتها بكرم قدرتِك وحسن ملكِك ؛ فإنها تؤخّرنى اذا قدَّمتْ ، وتحرمنى اذا قسَّمتْ ؛ فإن أعطت أعطت يسيرا ، وإن ارتجعتْ ارتجعتْ كثيرا ؛ ولم أشكُها الى أحد قبلك ، ولا أعددت للإنصاف منها إلا فضلك ؛ ولى مع ذمام المسألة لك ، وحقّ الظُّلامة اليك ، حقُّ تأميلك ، وقَدمُ صدقٍ فى طاعتك . والذى يملأ من النَّصَفَة يدى ، ويُفرغ الحقَّ علىّ ، حتى تكونَ لى محسِنا وأكونَ بك الى الأيام مقترِبا ، أن تخلِطنى بخواصّ خدمك الذين نقلتهم من حال الفراغ الى الشغل ، ومن الخمول الى النباهة والذِّكر . فإن رأيتَ أنْ تعدِينى فقد استعديتُ اليك ، وتنصُرَنى فقد عذت بك ، وتُوسعَ لى كنفَك فقد أويتُ إليه ، وتسِمَنى بإحسانك فقد عوّلت عليه ، وتستعملَ يدى ولسانى فيما يصلحان له من خدمتك ، فقد درستُ كتبَ أسلافك وهم القدوة فى البيان ، واستضأتُ بآرائهم ، واقتفيتُ آثارَهم اقتفاءً جعلنى بين وحشىّ الكلام وأنيسه ، ووقفنى منه على جادّةٍ متوسطةٍ ، يرجع اليها العالى ، ويسمو نحوها المقصّر التالى ، فعلتَ إن شاء الله . فجعل عبيد الله يرددها ويستحسنها ؛ ثم قال : هذا أحقّ بديوان الرسائل .

(١) ٧٨

(١) وردت هذه الرقعة فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٢ ص ٤١٧) لجعفر بن محمد بن خالد بن ثوابة ، وهى تختلف يسيرا فى بعض كلماتها عما فى الاصول ، وقد أثبتنا منها هنا ما يناسب المقام مع تصويب كلمة «ثوابة» بالتاء المثلثة التى وردت فى الاصول : «توابة» بالتاء محرّفة .

ومن الاستعطاف : ما حكى أن محمد بن الحنفيّة، جرى بينه وبين أخيه الحسين كلام افترقا بسببه متغاضبين ؛ فلما وصل محمد الى منزله ، كتب الى الحسين رقعة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد، فإن لك شرفا لا أبلُغه ، وفضلا لا أُدركه ، أبونا عليٌّ ، لا أفضُلُك فيه ولا تفضُلُنى ، وأمّى امرأة من بنى حنيفة ، وأمّك فاطمةُ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان ملء الأرض نساءً مثلَ أمى ما وَفَيْنَ بأمّك. فاذا قرأتَ رقعتى هذه فالبس رداءك ونعليك وتعال لترضانى، وإياك أن أسبقك الى هذا الفضل الذى أنت أولى به منى، والسلام. فلبس الحسين رداءه ونعليه وجاء الى محمد وترضّاه .

وقيل : وقّع جعفر بن يحيى فى رقعة معتذر : قد تقدمتْ طاعتُك ونصيحتُك، فإن نبت منك هفوة فلن تغلبَ سيئةٌ حسنتين .

وقال شاعر :

إرضَ للسائل الخضوعَ وللقا ... رف ذنبًا مذلّةَ الإعتذارِ

قال أبو هلال العسكرىّ : لم يُروَ عن أحد قبل النابغة الذبيانىّ فى الاعتذار شعر؛ فمن أجود ما روى له فيه، قوله حين سعى به المنخّل اليشكُرىُّ الى النّعمان، وزعم أنه غَشِى المتجرّدةَ حظيّة النعمان، وذلك حين وصفها النابغة فى شعره فقال :

واذا لمستَ لمستَ أخثَمَ[1] جاثما ... متحيِّرًا[2] بمكانه ملءَ اليدِ

واذا طعنتَ طعنتَ فى مستهدف ... رابى المجسّة بالعبير مُقرمَدِ

واذا نزعتَ نزعتَ من مستحصف ... نزعَ الحَزَوَّر بالرِّشاء المحصَدِ

(١) كذا فى اللسان فى إحدى راويتيه مادّة «خثم» . وفى الاصول وديوان النابغة الذبيانى طبع باريس واللسان فى روايته الاخرى مادّة «جثم» : «أجثم» .

(٢) كذا فى الاصلين الفتوغرافيين واللسان فى احدى روايتيه مادّة «حير» وديوان المعانى لابى هلال العسكرى . وفى النسخة الزاغية وديوان النابغة المتقدّم واللسان فى روايته الاخرى مادّة «خثم» : «متحزما» .

فقال المنخّل للنعمان : هـذا وصفُ من ذاقها، فوقَر ذلك فى نفس النعمان، ثم وفد عليه رهط من بنى سعد بن زيد مناة من بنى قُريع، فأبلغوه أن النابغة ما يزال يذكرها ويصف منها، فأجمع النعمان على الإيقاع بالنابغة، فعرَّفه بذلك عِصام حاجب النعمان، وهو الذى قيل فيه :

* نفسُ عِصامٍ سوّدتْ عِصاما *

فانطلق النابغـة الى آل غسّان وكانوا قتلوا المنذر والد النعمان، فزادهم لحاق النابغـة بهم حشمة، ثم اتصلت بالنعمان كثرة مدائح النابغة لهم، فحسدهم عليه وأتمنه وراسله فى المصير اليه، فأتاه وجعل يعتذر ممـا قُرِفَ[1] به ومن مدحه لآل غسّان، فقال :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبَـةً * وليس وراء الله للمـرء مَذْهبُ
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عنّى جنايةً[2] * لَمُبلغُك الواشى أغشُّ وأكذبُ
ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تَلُمُّـه * على شَعَثٍ أىُّ الرجال المهذَّبُ
فإنْ أكُ مظلومًا فعبـدٌ ظلمتَه * وإن تك ذا عُتبى فمثلك يُعْتِبُ

يقول : مثلك يعفو ويُحسِنُ وإن كان عاتبا، وفى كرمك ما يفعل ذلك؛ ولك[3] العتبى والرجوع الى ما تحبُّ . ومنه قوله أيضا للنعمان :

أتانى أبَيْتَ اللَّعنَ أنك لُمتنى * وتلك التى تستكُّ منهـا المسامعُ
مقالةُ أن قد قلتَ سـوف أنالُه * وذلك من تِلقـاء مثلِكَ رائعُ
فبتُّ كأنّى سـاورتْنى ضئيـلةٌ * من الرُّقشِ فى أنيابهـا السمُّ ناقعُ
لكلَّفتنى ذنبَ امرئ وتركتَه * كذى العُرّ يُكوَى غيرُه وهو راتعُ

(١) كذا فى ديوان المعانى، وقرف : اتهم . وفى الأصل : « مما قذف به » .
(٢) فى ديوان النابغة وديوان المعانى : « خيانة » .
(٣) كذا فى الاصول . ولعلها أولك ... الخ .

الى أن قال :

فإن كنتُ لا ذوالضِّغْن عنى مكذَّبٌ * ولا حَلِفى على البراءةِ نافع
ولا أنا مأمون بشىء أقوله * وأنت بأمرٍ لا محالة واقعُ
فإنك كالليل الذى هو مدركى * وإن خلتُ أن المتأَى عنك واسعُ

وقال أيضا :

أُنبئت أنّ أبا قابوس أوعدنى * ولا قَرارَ على زأْرٍ من الأسدِ
مهلًا فداءٌ لك الأقوام كلّهُمُ * وما أُثمِّرُ من مالٍ ومن ولدِ
لا تقذِفَنّى بركن لا كِفَاءَ به * وإن تأثفك(١) الأعداءُ بالرَّفَدِ
ما قلتُ من سيّئٍ ممّا أُتيتَ به * إذًا فلا رفعتْ سوطى الىّ يدى

قال : فخلع عليه النعمان خِلعَ الرضا، وكنّ حِبَراتٍ خُضرا مطرَّفةً(٢) بالجوهر .

قال العسكرىّ : ولم يسلُك أحد طريقته فأحسن فيها كإحسان البحترىّ، فمن آعتذاراته قوله فى قصيدته التى أوّلها :

* لَوَتْ بالسلام بنانا خضيبا *

قال منها :

فديناك من أىّ خطبٍ عَرَى * ونائبةٍ أو شكتْ أن تنوبا (٧٩)
وإن كان رأيك قد حَالَ(٣) فىَّ * وأوليتنى بعدَ بِشْرٍ قُطوبا

(١) تأثفوه : تكنفوه، أى لا ترمنى منك بركن لا مثل له وان اجتمع حولك الأعداء متآزرين متألبين علىّ . والرفد : جمع رفدة بكسر الراء .

(٢) قد تقدّم فى صفحة (١٧٢) من هذا الجزء : «وكسى أثواب الرضا وكانت جبابا أطواقها الذهب بقصب الزمرد» .

(٣) كذا فى ديوان البحترى طبع الاستانة (ج ١ ص ٥٨) والنسخة الراغبية . وفى أحد الاصلين الفتوغرافيين وديوان المعانى لابى هلال العسكرى : «قد جال» بالجيم . وفى الاصل الآخر الفتوغرافى : «قد خال» بالخاء المعجمة وكلاهما تحريف .

يريبُـــنى الشيءُ تأتى به * وأكبرُ قدرَك أن أستريبا
وأكره أن أتمادى على * سَبيل اغترارٍ فألقى شَعوبا
أكذّب نفسى بأن قد سخطتَ[1] * وما كنتُ أعهد ظنّى كذوبا
ولو لم تكن ساخطا لم أكن * أذمّ الزمان وأشكو الخطوبا
أيُصبح وِرْدِى[2] فى ساحتيـ * ـك طَرْقا[3] ومرعاىَ مَحْلًا جديبا
وما كان سخطك إلّا الفراق * أفاض الدموعَ وأشجى القلوبا
ولو كنتُ أعرف ذنبا لما[4] كا * ن خالجنى الشك فى أن أتوبا
ساصبر حتى ألاقى رضا * ك إما بعيدا وإما قريبا
أراقب رأيَك حتى يصحّ * وأنظرُ عَطفَك حتى يثوبا

وقوله

عَذيرى من الأيّام رنّقنَ مشربى * ولقّينى نحسا من الطير أشأما
وألبسنى[5] سخط امرئ بتُّ مَوْهِنا * أرى سخطه ليلا مع الصبح مظلما
تبلّج عن بعض الرضا وانطوى على * بقيّة عتبٍ شارفت أن تصرّما
اذا قلتُ يوما قد تجاوز حدُّها * تلبّثَ فى أعقابها وتلوّما
وأصيد إن نازعتُه الطرف ردّه * كليلا وإن راجعتُه القول جمجما
ثناه العِدَا عنّى فأصبح مُعرِضا * ووهّمه الواشون حتى توهّما

(١) كذا فى ديوان البحترى . وفى الأصول وديوان المعانى : «بأن قد جنيت» .
(٢) كذا فى ديوان البحترى والنسخة الراغبة وديوان المعانى والورد : الماء الذى يورد . وفى الأصلين الفتوغرافيين : «ودى» وهو تحريف .
(٣) الطرق : الماء الذى خوضته الإبل و بولت فيه .
(٤) كذا فى الديوان . وفى الأصول وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : لما «تخالجنى» .
(٥) كذا فى الاصول وديوان المعانى . وفى ديوان البحترى : «أكسبنى» .

وقد كان سهلا واضحا فتوعّرت * رُباه وطَلْقًا ضاحكا فتجهّما
أمتّخذٌ عندى الإساءة محسنٌ * ومنتقم منى امرؤ كان مُنعما
ومكتسبٌ فىَّ الملامةَ ماجد * يرى الحمد غُنْمًا والملامةَ مَغْرما
يخوِّفنى من سوء رأيك معشرٌ * ولا خوف إلّا أن تجور وتظلما
أُعيذك أن أخشاك من غير حادثٍ ○ تَبيَّنَ أو جُرمٍ إليك تقدما
ألستُ الموالى فيك نظمَ قصائدٍ * هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
أعِدْ نظرا فيما تسخّطتَ هل ترى * مقالا دنيئًا أو فعالا مذمّما
وكان رجائى أن أؤوب مملّكا * فصار رجائى أن أؤوب مسلّما
حياء فلم يذهب بىَ الغىُّ مذهبا * بعيدا ولم أركب من الأمر مُعظَما
ولم أعرف الذنب الذى سؤتنى له (١) * فأقتلَ نفسى حسرةً وتندّما
ولو كان ما خُبّرتَه أو ظننتَهُ * لما كان غرّوا أن ألوم وتكرُما
أُذكّرك العهدَ الذى ليس سؤددا ○ تناسيه والودَّ الصحيح المسلّما
وما حمل الركبان شرقا ومغربا ○ وأنجد فى أعلى البلاد وأتهما
أقرّ بما لم أجنه متنصّلا ○ اليك على أنى إخالك ألوما
لىَ الذنب معروفا فإن كنتُ جاهلا ○ به فلك العتبى علىّ وأنعما
ومثلك إن أبدى الفعال أعاده ○ وإن صنع المعروف زاد وتمّما

وقال سعيد بن حُميد :

لم آت ذنبا فإن زعمت بأن ○ أتيتُ ذنبا فغير معتمِدِ
قد تطرِفُ الكفُّ عينَ صاحبها * فلا يرى قطعَها من الرشد

(١) كذا فى ديوان البحترى وأحد الأصلين الفتوغرافيين وديوان المعانى . وفى الأصل الآخر والنسخة الراغبة : « به » .

وقال آخر :

وكنتُ اذا ما جئتُ أدنيتَ مجلسى * ووجهك من ماء البشاشـة يقطُرُ
فمن لىَ بالعين التى كنتَ مرّةً * الىَّ بهـا فى سالف الدهر تنظرُ

وقال آخر :

اِغتفر زَلّتى لتُحرز فضل الـ * ـعفو عنى ولا يفوتك أجرِى
لاتكلنى الى التوسّـل بالعذ * ـر لعلّى ألّا أقوم بعـذرى

وقال بعض فضلاء الأندلس :

إنى جنيتُ ولم يزل أهلُ النهى * يَهَبُون للجانين ما يجنـونَهُ
ولقد جمعتُ من الذنوب فنونها * فاجمع من الصفح الجميل فنونَهُ
من كان يرجو عفوَ مَن هو فوقه * فليعفُ عن ذنب الذى هو دونَهُ

الباب الثانى

من القســـم الثـالث من الفن الثـانى

فى الهجاء وفيه أربعة عشر فصلا

ما قيل فى الهجاء ومن يستحقّه .

ما قيل فى الحسد .

ما قيل فى السعاية والبغى .

ما قيل فى الغِيبة والنميمة .

ما قيل فى البخل واللؤم وأخبار البخلاء وآحتجاجهم .

ما قيل فى التطفيل ويتّصل به أخبار الأَكَلَة والمؤاكلة .

ما قيل فى الجبن والفرار .

ما قيل فى الحمق والجهل .

ما قيل فى الكذب .

ما قيل فى الغدر والخيانة .

ما قيل فى الكبر والعجب .

ما قيل فى الحرص والطمع .

ما قيل فى الوعد والمَطْل .

ما قيل فى العىّ والحَصَر .

ذكر ما قيل فى الهجاء ومن يستحقه

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ . فهذه رخصة لمن ظلم فى الانتصار .

وقال حسّان بن ثابت الأنصارى يردّ على أبى سفيان بن الحارث :

ألا أبلغ أبا سُفيان عنى * مغلغلةً[1] فقد برح الخفاءُ

هجوتَ محمّدا فأجبتُ عنه * وعند الله فى ذاك الجزاءُ

أتهجوه ولستَ له بكفء * فشرُّكما لخيركما الفداءُ

لنا فى كلّ يومٍ من مَعَدّ * سِبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ

(١) يقال رسالة مغلغلة : أى محمولة من بلد الى بلد .

لســانى صارم لا عيب فيه * وبحـرى لا تكدّره الدِّلاءُ

فانّ أبى ووالدتى وعرضى * لعـرض محمدٍ منكم وِقاء

ويستحقّ الهجاءَ من آتصف بسوء الخصال، وآتسم باخلاق الأرذال والأنذال، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره، والبخل وِطاءه ودثاره. وسأذكر جماع ما آتصفوا به من سوء الفعال، وأسّسوا بنيانهم عليه من قبح الخلال.

قال بعض الحكماء: أربعة من علامات اللؤم: إفشاء السرّ، وآعتقاد الغدر، وغِيبة الأحرار، وإساءة الجوار.

وسأل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف عن خُلُقه، فتلكأ عليه وأبى أن يخبره، فأقسم عليه. فقال: حسود، كنود، حقود؛ فقال عبد الملك: ما فى إبليس شرٌّ من هذه الخلال؛ فبلغ ذلك خالد بن صفوان فقال: لقد انتحل الشرَّ بحذافيره، ومرق من جميع خلال الخير، وتأنّق فى ذمّ نفسه، وتجرّد فى الدلالة على لؤم طبعه، وأفرط فى إقامة الحجّة على كفره، وخرج من الخلال الموجبة رضا ربّه.

قال أبو تمام:

تأنّستْ بذميم الفعلِ طلعتُه * تأنُّسَ المقلة الرمداء بالظُّلَمِ

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أربعةٌ[1] مَنْ كنّ فيه فهو منافق مَن اذا حدّث كذب واذا وعد أخلف واذا عاهد غدر واذا آؤتمن خان".

وقالوا: اللئيم كذوب الوعد، خؤون العهد، قليل الرفد. وقالوا: اللئيم اذا آستغنى بَطِر، واذا آفتقر قَنِط، واذا قال أفحش، واذا سئل بخِل، وإن سأل

(١) ورد هذا الحديث فى الجامع الصغير بصيغة تختلف عما هنا ونصها: "أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: اذا حدّث كذب واذا وعد أخلف واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر".

ألحَّ، وإن أُسدِيَ اليه صنيع أخفاه، وإن آستُكتِمَ سراً أفشاه؛ فصديقه منه على حذر، وعدوّه منه على غَرَر[1].

وإنَّ للشعراء والبلغاء فى الذّم والهجاء نظما ونثرا سنورد منه طَرَفا، ونشرح ما يجعل ضوء النهار على المقول فيه سَدَفا[2].

فمن ذلك ما قاله أحمد بن يوسف الكاتب فى بنى سعيد بن مسلم بن قتيبة: محاسنهم مساوئ السَّفَل، ومساوئهم فضائح الأمم؛ وألسنتهم معقودة بالعِىّ، وأيديهم معقولة بالبخل، وأعراضهم أعراض الذمّ؛ فهم كما قيل:

لا يَكْثُرون وإن طالتْ حياتهمُ * ولا تَبِيد مخازيهم وإن بادوا

وذمّ أعرابى قوما فقال:

هم أقلّ الناس ذنوبا الى أعدائهم، وأكثرهم تجرما[3] على أصدقائهم، يصومون عن المعروف، ويُفطِرون على الفحشاء.

وذمّ أعرابىّ قوما فقال: قوم سُلِخت أقفاؤُهم بالهجاء، ودُبغت جلُودهم[4] باللؤم، فلباسهم فى الدنيا الملامة، وفى الآخرة[5] الندامة.

وكان عيسى بن فرخان شاه يتيه على أبى العَيْناء حال وزارته، فلما صُرِف عن الوزارة لقى أبا العيناء فى بعض السكك فسلّم عليه سلاما خفيفا، فقال أبو العيناء لقائده: من هذا؟ قال: أبو موسى، فدنا منه حتّى أخذ بعِنان بغلته وقال: لقد كنت أقنع بإيمائك دون بَنَانك، وبلحظك دون لفظك؛ الحمد لله على ما آلت اليه حالك، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة، لقد أصابت فيك النِّقْمة؛ ولئن كانت

(١) الغرر: التعرض للهلكة. (٢) السدف: الظلمة. (٣) فى النسخة الراغية: «تجرءا». (٤) فى العقد الفريد (ج ٢ ص ١٠٩): «دبغت وجوههم». (٥) كذا فى الأصول. وفى العقد الفريد: «وزادهم فى الآخرة ... الخ».

الدنيا أبدت صفحاتها بالإقبال عليك، لقد أظهرت محاسنَها بالإدبار عنك؛ ولله المِنَّةُ إذ أغنانا عن الكذب عليك، ونزّهنا عن قول الزور فيك؛ فقد والله أسأتَ حمل النعمة، وما شكرتَ حقّ المنعم؛ ثم أطلق يده من عِنانه، ورجع الى مكانه. فقيل له: ياأبا عبد الله! لقد بالغتَ فى السَّبِّ، فما كان الذنب؟ قال: سألته فى حاجة أقلّ من قيمته، فردّنى عنها بأقبح من خلقته.

قال بعض الأعراب: نزلت بذاك الوادى[1]، فإذا ثياب أحرار على أجسام عبيد، إقبال حظهم إدبار حظ الكرام. ألَمَّ بهذا المعنى شاعر فقال:

أرى حُلَلاً تُصانُ على رجال * وأعراضاً تُذَالُ ولا تُصانُ

يقولون الزمانُ به فسادٌ * وهم فسدوا وما فَسَد الزمانُ

وسئل بعضُ البلغاء عن رجل فقال: هو صغير القَدْر، قصير الشِّبْر، ضيّق الصدر، لئيم النَّجْر[2]، عظيم الكِبْر، كثير الفخر.

وذم أعرابىّ رجلا فقال: هو عبد البدن[3]، حُرّ الثياب، عظيم الزواق، صغير الأخلاق؛ الدهرُ يرفعه، ونفسه تَضَعُهُ.

وقال آخر: فلان غَثٌّ فى دينه، قَذِر فى دنياه، رَثٌّ فى مُرُوءته، سَمِج فى هيئته، منقطع الى نفسه، راضٍ عن عقله؛ بخيل بما أنعم الله عليه، كتوم لما آتاه الله من فضله؛ حَلّاف لَجُوج، إن سأل ألحف، وإن وعد أخلف؛ لاينُصف الأصاغر، ولا يعرِف حقّ الأكابر.

(١) فى العقد الفريد (ج ٢ ص ١١٠) «قال أعرابى دخلت البصرة ... الخ».

(٢) النجر: الأصل.

(٣) فى العقد الفريد: «عبد الفعال حر المقال عظيم الزواق دنىء الأخلاق الخ».

وترجم الفتحُ بن عبد الله القَيْسى صاحبُ قلائد العِقيان فى كتابه عن أبى بكر بن ماجه المعروف بٱبن الصائغ فقال : هو رَمَدُ جَفْن الدِّين ، وكَمَدُ نفوس المهتدين ؛ ٱشتهر سخفا وجنونا ، وهَجَر مَفْرُوضا ومَسْنُونا ؛ فما يتشرّع ، ولا يأخذ فى غير الأضاليل ولا يشرع ؛ ناهيك به من رجل ماتَطَهّر من جنابة ، ولا أظهر مَخِيلةَ إنابة ؛ ولا ٱستنجى من حَدَث ، ولا أنْجَى فؤادَه مُوارًى فى جَدَث ؛ ولا أقرّ بباريه ومُصوِّره ، ولا فرّ عن تباريه فى ميدان تهوّره ؛ الإساءة اليه أجدَى من الإحسان ، والبهيمة أهدَى عنده من الإنسان ؛ نظر فى تلك التعاليم ، وفكّر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفَض كتَاب الله الحكيم العليم ؛ ونبذه وراء ظهره ثانِىَ عِطْفِه ، وأراد إبطال مالا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ واقتصر على الهيئة ، وأنكر أن يكون له عند الله تبارك وتعالى فيئة ؛ وحكم للكواكب بالتدبير ، وٱجترم على الله اللطيف الخبير ؛ واجترأ عند سماع النهى والإيعاد ، وٱستهزأ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ؛ فهو يعتقد أن الزمان دَوْر ، وأن الإنسان نبات له نَوْر ؛ حِمَامُه تَمَامُه ، وٱختلافه فطامه ؛ قد محِى الإيمان من قلبه فما له فيه رسم ، ونَسِىَ الرحمنَ لسانُه فما يمرّ له عليه ٱسم ؛ وٱنتمت نفسه للضلال وٱنتسبت ، ونفت يوما تُجْزَى فيه كُلُّ نَفْسٍ بما كسبتْ ؛ فقصَر عمرَه على طَرَب ولهو ، وٱستشعر كل كبر وزهو ؛ وهو يَعْكُفُ على سماع التلاحين ، ويقف عليها كلَّ حين ؛ يعلن بذلك الٱعتقاد ، ولا يؤمن بشىء قادنا الى الله فى أسلس مَقَاد ؛ مع منشإ وخيم ، ولؤم أصلٍ وخيم ؛ وصورةٍ شوّهها الله وقَبّحها ، وطلعةٍ لو رآها كلب لنبحها ؛ وقذارة يوبئ

(١) كذا فى قلائد العقيان للفتح بن خاقان طبع بولاق (ص ٣٠٠) وفى الأصول : «ولا أسجى ... الخ» بالسين المهملة .

(٢) فى قلائد العقيان : «واختطافه اقتطافه» .

(٣) الخيم : السجية .

(٤) يوبئ : يكثر فيها الوباء . وفى قلائد العقيان : «يؤذى البلاد ... الخ» .

البلادَ نفسُها، ووضارةٍ يحكى الحَدادُ[1] دَنَسُها؛ وفَنَدٍ لا يعمُر إلا كنفه، ولا يُقَوِّم إلا الصَّفَادُ[2] جَنَفه.

وكتب أحمد بن يوسف: أما بعد، فإنى لا أعرف للمعروف طريقا أوعر من طريقه إليك؛ لأنه يحصل منك بين حسب دنىء، ولسان بَذِىء، وجهل قد ملك عليك طِباعَك؛ فالمعروف لديك ضائعٌ، والشكر عندك مهجورٌ، وإنما غايتك فى المعروف أن تُحرِزه[3]، وفى وَلِيّه أن تَكْفُره.

* * *

ومما قيل فى الهجاء من النظم

فمن ذلك قول جرير وهو أهجى بيت قالته العرب:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ * فلا كَعْبًا بلغتَ ولا كِلَابَا

ولو وُضِعَتْ فِقَاحُ بَنِى نُمَيْرٍ * على خَبَثِ الحَدِيدِ إذًا لَذَابَا

وقال عبد الملك بن مروان يوما لجلسائه: هل تعلمون أهل بيت قيل فيهم شعرٌ ودُّوا أنهم افتدَوْا منه بأموالهم، وشعرٌ لم يسرّهم به حُمْر النَّعم؟ فقال أسماء بن خارجة: نحن يا أمير المؤمنين؛ قال: وما قيل فيكم؟ قال: قول الحارث بن ظالم:

وما قومى بثعلبة بن سعد * ولا بفزارة الشُّعْرِ الرِّقابا[4]

فوالله يا أمير المؤمنين! إنى لَأَلْبَسُ العِمامة الصفيقة فيخيّل إلىّ أن شعر قفاى قد بدا منها؛ وقول قيس بن الخطيم:

هَمَمْنا بالإقامة يومَ سِرْنا * مَسِيرَ حُذَيْفةَ الخيرِ بن بدرِ

(١) الحداد: ثياب سود تلبس فى المآتم. (٢) الجنف: الميل. (٣) فى الأصول: «تحوّزه» وفى العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٤٠): «تحقره» وكلاهما محرف عما أثبتناه وقد رويت هذه الحكاية فى الأمالى ج ٢ ص ١٩٢ طبع دار الكتب ببعض مخالفة عما هنا ونسبت الى محمد بن مكرم كتب بها الى أبى العيناء. (٤) الشعر الرقاب: يريد الشعر رقابا، فلما أدخل الألف واللام نصب على التشبيه بالضارب الرجل (راجع شرح الحماسة للتبريزى طبع مدينة بن ص ٢٧٣).

فما يسرّنا أنّ لنا بها أو بِهِ حُمْرَ النَّعم. فقال هانئ بن قَبِيصة النُّمَيْرِيّ : أولئك نحن يا أمير المؤمنين، قال : ما قيل فيكم ؟ قال قول جرير :

* فَغُضَّ الطَّرْف إنك من نُمَيْرٍ *

والله لودِدْنا أننا افتديناه بأملاكنا، وقول زياد الأعجم :

لعمرك ما رِماح بنى نمير * بطائشةِ الصدور ولا قِصار

فوالله ما يسرّنا به حُمْر النَّعم .

قال العسكرىّ : وذُكِر أن جريرا لما قال :

والتَّغلبىُّ إذا تَخَنْخَنَ لِلْقِرَى * حَكَّ اسْتَهُ وتَمَثَّلَ الأَمْثَالَا

قال : قلت فيهم بيتا لو طُعِنَ أحدُهم فى استه لم يَحُكّها . وقالوا : مرّت امرأة ببنى نُمَير فتغامزوا إليها، فقالت : يابنى نمير، لم تعملوا بقول الله ولا بقول الشاعر، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ويقول الشاعر :

* فَغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَيْرٍ *

فخجِلوا . وكان النُّمَيرىّ إذا قيل له : ممن أنت ؟ قال : من نُمَير، فصار يقول : من بنى عامر بن صَعْصَعَةَ .

قال العسكرى : ولو قيل إنّ أهجى بيت قالته العرب قول الفرزدق لم يبعد، وهو :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بَنِى كُلَيْبٍ * نُجومُ الليل ما وضَحَتْ لِسَارِى

ولو يُرْمَى (١) بِلُؤْمِهِمُ نهار * لدنّس لؤمُهم وَضَحَ النَّهارِ

وما يَغْدُو عَزِيزُ بنى كُلَيْبٍ * ليطلبَ حاجةً إلا بِجَار

(١) كذا فى الأصول وديوان المعانى لابى هلال العسكرى . وفى النقائض طبع ليدن ص ٢٣٣ : «ولو لبس النهار بنو كليب» .

ومثله قول الآخر :

ولَوْ أَنَّ عَبْدَ القَيْسِ ترمِى بلؤمها * على اللّيل لم تَبْدُ النجومُ لِمَنْ يَسْرِى

وقالوا : أهجى بيت قالته العرب قول الأعشى :

تَبِيتون فى المَشْتَى مِلاءً بطونُكم * وجاراتُكم غَرْثَى يَبِتْنَ خمائِصَا

وهـذا البيت من أبيات، ولها سبب نذكره الآن فى هذا الموضع وإن كان خارجا عن مكانه، وذلك : أن عامر بن الطُّفَيل بن مالك وعلقمة بن عُلاثة تنازعا الزعامة، فقال عامر : أنا أفضل منك، وهى لعَمّى ولم يمت، وعمه عامر بن مالك بن جعفر آبن كلاب وكان قد أُهتر وسقط؛ وقال علقمة : أنا أفضل منك، أنا عفيف وأنت عاهر، وأنا وفِىٌّ وأنت غادر، وأنا وَلُود وأنت عاقر، وأنا أدنَى الى ربيعة؛ فتداعيا الى هَرِم بن قُطْبة[1] ليحكم بينهما، فرحلا اليه ومع كل واحد منهما ثلثمائة من الإبل : مائة يطعمها مَنْ تبعه، ومائة يُعْطِيها للحاكم، ومائة تُعقر إذا حكم؛ فأبى هرم بن قُطْبة أن يحكم بينهما مخافةَ الشَّرِّ، وأبيا أن يرتحلا؛ فخلا هَرِم بعلقمةَ وقال له : أترجو أن ينفرك[2] رجل من العرب على عامرٍ فارسِ مُضَر، أندى الناس كفًّا، وأشجعهم لِقَاءً! لَسِنانُ رمح عامر أذكرُ فى العرب من الأحوص؛ وعمّه مُلاعب الأسنّة، وأمُّه كبشة بنْت عُروة الرّحال، وجَدَّتُه أم البنين بنت عمرو بن عامر فارس الضَّحْياء، وأمك من النَّخَع؛ وكانت أمُّه مَهِيرة، وأم عُلاثة أخيذة من النَّخَع؛ ثم خلا بعامر فقال له : أعَلى علقمة تفخَر! أأنت تناوئه! أعلى آبن عوف بن الأحْوَص أعفّ بنى عامر وأيمنهم نقيبة، وأحلمهم وأسودهم، وأنت أعور عاقر مشئوم! أمَا كان لك رأى يَزَعُك

(١) كذا فى الأغانى وديوان المعانى والقاموس والمعارف لابن قتيبة . وفى الأصول : « هرم بن قطنة » بالنون وهو تحريف .

(٢) نفر عليه : قضى له بالغلبة عليه .

عن هـذا! أكُنتَ تظنّ أن أحدا من العرب يُنفّرك عليه ! فلما آجتمعا وحضر الناس للقضاء قال : أنتما كركبتَي الجمل فتراجعا راضِيَيْن .

قال العسكرىّ : والصحيح أنه توارى عنهما ولم يقل شيئا فيهما، ولو قال: أنتما كركبتى الجمل لقال كل واحد منهما : أنا اليُمنَى، فكان الشرّ حاضرا — قال : وسأله عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بعد ذلك بحين : لمن كنتَ حاكما لو حكمت؟ فقال : أعفِنى يا أمير المؤمنين ! فلو قلتها لعادت جَذعةً . فقال عمر : صدقتَ ! مثلُك فَلْيُحَكَّمْ — قال : فارتحلوا عن هَرِم لما أعياهم نحوَ عُكاظ، فلقيهم الأعشى منحدرا من اليمن — وكان لمّا أرادها قال لعلقمة : آعقد لى حَبْلا، فقال : أعقد لك من بنى عامر؟ قال : لايغنى عنّى، قال : فمن قيس ؟ قال : لا، قال : فما أنا بزائدك، فأتى عامر بن الطفيل فأجاره من أهل السماء والأرض، فقيل له : كيف تجيره من أهل السماء؟ قال : إن مات وَدَيتُه — فقال الأعشى لعامر : أظهِرْ أنكما حَكَّمْتُمانِى ففعل — فقام الأعشى فرفع عَقِيرتَه (أى صوته) فى الناس فقال :

حَكَّمتُموه فَقَضَى بينكم * أبلج مثل القَمَرِ الزاهِرِ
لا يأخذ الرِّشوة فى حُكمِه * ولا يبالى خُسُرَ الخاسِرِ
علقم ما أنتَ(١) الى عامر الـ * ـناقض(٢) الأوتار والواتِرِ
واللابِس(٣) الخيل بخيلٍ اذا * ثار عَجَاجُ الكَبَّةِ(٤) الثائِرِ
إن تَسُدِ الحوصَ فلم تعدُهم * وعامِرٌ سادَ بنى عامِرِ
ساد وأَلْفَى رهطَه سادةً * وكابِراً سادُوك عن كابِرِ

(١) كذا فى الأغانى طبع بولاق (ج ١٥ ص ٥٢) وفى الأصول : «لا لست ... الخ» .
(٢) كذا فى الأصول . وفى الأغانى وديوان المعانى : « الناقص » بالصاد المهملة .
(٣) فى ديوان المعانى : « واللامس الخيل ... الخ » .
(٤) الكبة : الحملة فى الحرب، يقال كانت لهم كبة فى الحرب أى صرخة .

قال : وشدّ القوم فى أعراض الإبل المـائة فعقروها وقالوا : نُفِّر عامر، وذهبت بها الغوغاء، وجهد علقمة أن يردّها فلم يقدر على ذلك، فجعل يتهدّد الأعشى؛ فقال :

أتانى وعيـد الحوص من آل عامر * فيـا عبـد عمرو لو نهيتَ الأحاوصا
فما ذنبُنـا إن جاش بحر ابن عمّكم * وبحـرك ساجٍ لا يوارى الدَّعامِصا (١)
كِلا أبَويكم كان فَرْع دِعامةٍ (٢) * ولكنّهم زادوا وأصبحتَ ناقِصـا
تبيتون فى المَشْـتَى مِلاءً بطونكم * وجاراتُكم غَرْثَى يَبِتْنَ نَمائِصـا
يراقِبْنَ من جوع خِلالَ مخـافةٍ * نجوم العِشَـاء العاتِمـات الغَوامِصا
رمى بكَ فى أُخراهمُ تركُك النَّـدى (٣) * وفضّـل أقواما عليـك مراهِصـا
فعضّ حديدَ الأرض إن كنت ساخطا * بفيـك وأحجارَ الكُلاب الرّواهِصـا

قال فبكى علقمة لمّـا بلغه هذا الشعر، وكان بكاؤه زيادة عليـه فى العار، والعرب تعيّر بالبكاء؛ قال مهلهل (٤) :

يُبكَى علينا ولا نبكى على أحد * لنحنُ أغلظُ أكبادا من الإبل

وقال جرير :

بكى دَوْبلٌ لا يُرقِئُ اللهُ دَمْعَـه * ألا إنمـا يبكى من الذُّل دَوْبَلُ

قال عبد الملك بن مروان لأمية (٥) : مالك وللشاعر (٦) إذ يقول :

إذا هتف العصفورُ طار فؤادُه * وليثٌ حديدُ النابِ عند الثرائد

(١) الدعامص : جمع دعموص وهى دويبة صغيرة فى مستنقع الماء، وقيل تغوص فيه .
(٢) كذا فى شعراء النصرانية . وفى الأصول : « كان فرعا ... الخ » .
(٣) فى اللسان مادّة «رهص» : « ... العلا * وفضل أقوام ... الخ » . والمراهص : الدرج
(٤) كذا فى الأصول، وفى عيون الأخبار (مجلد ثان ص ١٩٢) : أن هذا البيت من قول المخبل .
(٥) فى الأمالى طبع دار الكتب المصرية (ج ٢ ص ١٥٧) : أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد .
(٦) هو حرثان بن عمرو كما فى الأمالى . وقد ورد فيه هذا الخبر كما هنا مع اختلاف فى بعض الكلمات .

فقال : أصابه حدٌّ من حدود الله فأقمتُه عليه، قال : فهلّا دَرَأتَه عنــه بالشُّبُهات ؟ قال: كان أهونَ عليَّ من أن أُعطِّل حدّا من حدود الله، فقال: يابنى أمية! أحسابكم أحسابكم، أنسابكم أنسابكم، لاتعرضو[ها] للفصحاء، فإن للشعر مواسم لا يزيدها الليل والنهار إلا جِدّة، والله ما يسرنى أنى هُجيت ببيت الأعشى حيث يقول : تبيتون فى المشتى الخ ولى الدنيا بحذافيرها، ولو أن رجلا خرج من عَرَض الدنيا كان قد أخذ عوضا لقول آبن حُرْثان :

على مكثريهم حق من يعتريهمُ (١) * وعنــد المُقِلّين السماحةُ والبذْلُ

وهذا البيت لزهير .

وقالوا : أهجى بيت قالته العرب قول الحطيئة فى الزِّبرِقان بن بدر :

دَع المكارمَ لا ترحل لبُغْيتها * وآقعُدْ فإنك أنت الطاعِمُ الكاسِى

ولهذا الشــعر حكاية نذكرها فى أخبار الحطيئة فى البخلاء . وقيــل : آتفق جماعة من الشعراء على أن أهجى بيت قالته العرب قول الفرزدق فى جرير :

أنتم قرارة كلّ معدِن سَوْءة (٢) * ولكلّ سائلة تسـيل قَرَارُ

أخذه أبو تمـام فقال :

وكانت زفرة ثم آطمأنت (٣) * كذاك لكل سائلة قَرَارُ

وقالوا : أهجى بيت قالته العرب قول الأخطل لجرير :

(٨٣)

ما زال فينا رِباط الخيل معْلمة * وفى كليبٍ رِباطُ اللُّؤمِ والعَارِ

قوم إذا آستنبح الأضيافُ كَلْبَهمُ * قالوا لأمهـمُ بُولى على النَّارِ

(١) فى الأغانى طبع بولاق (ج ٩ ص ١٥٤) فى ترجمة زهير وفى الأمالى : (... رزق ... الخ» .

(٢) رواية نقائض جرير والفرزدق ص ٨٧٠ قصـيدة رقم ٩٣ : « .. كل مدفع ... * ولكل دافعة تسيل الخ» .

(٣) فى ديوان أبى تمام طبع مصر ص ٧٠ : «وكانت لوعة ... الخ» .

قالت بنو تميم : ما هُجينا بشيء هو أشدّ علينا من هـذا البيت ، وهو يتضمن وجوها شتّى من الذّم : جعلهم بخلاء بالقِرى ، وجعـل أمهم خادمهم ، يأمرونها بكشف فَرْجها ، وجعلهم يبخلون بالمـاء أن يطفئوا به النار ، وجعل نارهم من قلّتها تطفأ ببولة ، وأغرى بينهم و بين المجوس ، لتعظيم المجوس النار ، و إهانتهم لهـا إلى غير ذلك .

وقالوا : أهجى بيت قالته العرب قول الطِّرِمّاح :

تميمٌ بِطُرْق اللؤمِ أهـدى من القَطَا * ولو سلكتْ طُرْق المكارم ضَلَّتِ

وقيل : أهجى بيت قالته العرب قول الأعرابى :

اللـؤمُ أكرمُ من وَبْرٍ و والده * واللؤم أكرم من وَبْرٍ وما وَلَدا
قوم إذا ما جَنَى جانيهـمُ أَمِنُوا * من لؤم أحسابهم أن يُقتلوا قَوَدَا

وقال مسلم بن الوليد يهجو دِعْبِلا الخُزاعىّ :

أما الهجَاء فدقَّ عِرْضُك دُونَه * والمَدْح عنك كما علمتَ جَلِيلُ
فاذهبْ فأنت طليقُ عِرْضك إنّه * عرضٌ عززتَ به وأنت ذليلُ

وكان سبب ذلك أنه كان بخراسان عند الفضل بن سهل ، فبلغ دعبلا ما هو فيه من الحُظْوَة عنده ، فصار إلى مَرْو ، وكتب الى الفضل بن سهل :

لا تعبَأنْ بابْن الوليـد فإنه * يرميك بعـد ثلاثة بِمَـلالِ
إن المَلُول إذا تقادم عهـدُه * كانت مودّتُه كَفَيْءِ ظِلال

فدفع الفضل الرُّقعـة إلى مسلم ، فلما قرأها قال : هل عرفت لقب دعبـل وهو غلام أمرد يُفْسَق به ؟ فقال : لا ، قال : كان يُلَقَّب بمَيّاس ، وكتب إليه :

مياسُ قل لى أين أنتَ من الورى * لا أنت معـلوم ولا مجهـولُ

أما الهجاء الخ . ومنه أخذ إبراهيم بن العباس فقال :

فكن كيف شئتَ وقُلْ ما تَشَاء * وأبْرِق يمينا وأرعِـدْ شِمَـالَا
نجا بك لؤمُك مَنْجى الذُّبابِ * حمتْهُ مقاذيرُه أن يُنَـالَا

وأنشد الجاحظ :

ووثِقْتَ أنَّك لا تُسَـ * ـبُّ حَماكَ لُؤْمُك أنْ تُسَـبَّا[1]

وقال آخر :

بِذلَّةِ والديْك كُسيتَ عِـزًّا * وباللؤم اجترأتَ على الجوَابِ

وقال آخر :

دناءة عِرْضِـك حِصْنٌ مَنِيعُ * يقيك إذا ساء مِنـك الصنيعُ
فقُـل لعـدوِّكَ ما تشتهى * فأنتَ المَنِيعُ الرفيـعُ الوَضِيعُ

وقال أبو نُوَاس :

ما كان لو لم أهجُه غالبٌ * قام له هجوى مقام الشرفْ
يقول قد أسرفَ فى هجـونا * وإنمـا ساد بذاك السَّرَفْ
غالبُ لا تسـعَ لتبنى العلا * بلغتَ مجـدا بهجائى فقِفْ
قد كنتَ مجهـولا ولكننى * نوّهتُ بالمجهولِ حتى عُرِفْ

وقال أبو هلال العسكرى :

أهنتُ هجانى يابْنَ عُروةَ فانتحى * علىّ ملام الناس فى البعد والقربِ
وقالوا أتهجو مثلَه فى سـقوطه * فقلت لهم جرَّبتُ[2] سيفى فى كاب

(١) كذا فى ديوان المعانى وفى الأصول : «أن تنالا» .

(٢) فى هامش ديوان المعانى : « جردت سيفى على الخ » .

وقال ابن لَنْكَك :

وعُصبةٍ لمّا توسّطتُهمْ * صارت عليّ الأرضُ كالخاتَمِ
كأنّهم من سوء أفهامهم * لم يخرجوا بعدُ إلى العالَمِ
يَضحكُ إبليسُ سروراً بهم (١) * لأنهم عارٌ على آدَمِ

وقالوا : أهجى بيت قاله محدَث قول الآخر :

قَبُحَتْ مَناظِرُهم فحين خبرتُهم * حسُنتْ مناظرُهم لقبح المَخْبر

وقال العسكريّ : ولست أعرِف فى الهجاء أبلغَ من قول الأوّل :

إن يفجُروا أو يغدروا * أو يبخلوا لم يخفِلوا
وغَدَوْا عليك مُرحّلا (٢) * بين كأنّهم لم يفعلوا

ومن البليغ قول حسان :

أبناء حارٍ (٣) فلن تلقى لهم شبها * إلا التيوس على أكتافها (٤) الشَّعَرُ
إن نافروا (٥) نُفِروا أو كاثروا كُثروا * أو قامروا الزَّنْجَ عن أحسابهم قُمروا
كأنّ ريحَهمُ فى الناس إن خرجوا * ريحُ الكلاب إذا ما مسّها المطرُ

(١) كذا فى الأصول وديوان المعانى . وفى يتيمة الدهر (ج ٢ ص ١٢٦) : « إذ زارهم الخ »

(٢) كذا فى الراغبية وأحد الأصلين الفوتوغرافيين . وفى الأصل الآخر وديوان المعانى «مرجلين» بالجيم المعجمة .

(٣) فى ديوان حسان طبع ليدن ص ٨١ : «حام» .

(٤) فى النسخة الراغبية وأحد الأصلين وديوان المعانى : « على أفقائها » .

(٥) رواية الديوان :

ان سابقوا سبقوا أو نافروا نفروا * أو كاثروا أحدا من غيرهم كثروا
شبه الإماء فلا دين ولا حسب * لو قامروا الزنج عن أحسابهم قمروا

وقال أيضا :

أبوك أبو سَوْءٍ وخالُك مثلُه * ولستَ بخيرٍ من أبيك وخالِكا
وإن أحقَّ الناس ألّا تلومَه * على اللؤم من ألفى أباه كذلكا

وقال آخر :

سلِ اللهَ ذا المنِّ من فضله * ولا تسألنَّ أبا واثلَهْ
فما سأل اللهَ عبدٌ له * نخاب ولو كان من باهله

وقال آخر :

ولو قيل للكلب يا باهلىُّ * لأعول من قُبْح هذا النسبْ

وقال زياد : ما هُجيتُ ببيتٍ قطّ أشدَّ علىَّ من قول الشاعر :

فكِّرْ ففى ذاك إن فكّرتَ معتبرٌ * هل نلتَ مكرُمةً إلا بتأميرِ
عاشت سُمَيَّةُ ما عاشت وما علمت * أن ابنها من قريش فى الجماهير

وقال إبراهيم بن العباس[1] :

ولما رأيتك لا فاسقا[2] * تُهابُ ولا أنت بالزاهدِ
وليس عدوّك بالمتّقىّ[3] * وليس صديقك بالحامدِ
أتيت بكَ السوقَ سوقَ الهوان[4] * فناديت هل فيك من زائدِ
على رجلٍ غادرٍ بالصديقِ * كفورٍ لنعمائه جاحدِ
فما جاءنى رجلٌ واحد * يزيد على درهم واحد

(١) ذكرت هذه الأبيات فى العقد الفريد (ج ٢ ص ١١٠) منسوبة لأعرابى ومختلف فى بعض الألفاظ عما هنا .

(٢) فى العقد الفريد : « ... لافاجرا * قويا ... الخ » .

(٣) رواية العقد الفريد : ولا أنت بالرجل المتق * ولا أنت بالرجل العابد

(٤) كذا فى الأصول . وفى العقد الفريد وديوان المعانى : « ... سوق الرقيق ... الخ .

سوى رجُلٍ حان منه الشقاء (١) * وحلّت به دعوة الوالدِ
فبعتُك منه بلا شاهدٍ * مخافةَ ردّك بالشاهدِ
وأبتُ الى منزلى سالما * وحلّ البلاء على الناقد

وقال العسكرىّ :

إن كان شكلُك غيرَ متّفقٍ * فكذا خلالُك غيرُ مؤتلفَهْ
صُوِّرْتَ من نُطَفٍ قد آختلفتْ * فأتت خلالُك وهى مختلفَهْ
من عصبةٍ شتّى اذا اجتمعوا * شبّهتُ داركمُ بهم عرفَهْ
فورِثْتَ من ذا قُبْحَ منظَرِه * وورثتَ ذاك خناه أو صلفَهْ

(٨٤)

وقال الحسن بن مطَران شاعر اليتيمة :

كم غصتُ فى مدحك فكرا على * درٍّ نفيس غير مثقوبِ
ولم يَغُضْ رأيُك يوما على * بِرًى ولا رأىَ لمكذوبِ
إن كان موعودك فى الجود لى * أكذب من موعودِ عُرقوبِ
فإنّ أخبارك فى مِدْحتى * أكذبُ من ذئب آبن يعقوبِ

وقال أحمد بن محمد بن حامد شاعر الحريدة :

بُليتُ بقوم مالهم فى العُلا يدٌ * ولا قدمٌ تسعى لبذل الصنائعِ
اذا نظَرتْ عينى اليهم تنجّستْ * برؤيتهم طهّرتُها بالمدامعِ

وقال المتنبّى :

إن أوحشتْك المعالى * فإنها دار غُربَهْ
أو آنستك المخازى * فإنها بك أشبه (٢)

(١) رواية العقد الفريد : ... زادنى دانقا * ولم أك فى ذاك بالجاهد
(٢) فى ديوان المتنبى ص ٤٣٣ طبع مصر : * فانها لك نسبه *

وقال أبو عبد الله الحسين[1] بن محمد بن الحجّاج :

ولقد عهدتك تشتهى * قربى وتستدعى حضورى
وأرى الجفا بعد الوفا * مثل الفُسا بعد البخورِ
يا خرْيةَ العدس الصحـ * ـيح النِّىء والخبز الفطير
فى جوف منحلّ الطبيـ * ـعة والقُوَى شيخٍ كبير
يخرَا فيخرجُ سُرمُه * شِبرين من وجع الزحيرِ
يا فَسوةً بعد العَشا * بالبَيْض واللبن الكثير
وفطائرٍ عُجنتْ بلا الـ * ـمِلْح الجريش ولا الخمير
يا تِنّ رأسِ الطبيـ * ـخ إذا تغيّر فى القدورِ
يا عُشّ بيض القمْل فرّ * خَ فى السوالف والشعورِ
يا بَولَ صبيان الفطا * مِ ويا خراهم فى الحجورِ
يا بُغْض[2] تدخين الحشا * فى الصوم من تُخَم السّحورِ
يا حَرَّ قُولَنج البطو * نِ وبردَ أعصاب الظهورِ
يا ذِلّة المظلوم أص * بح وهو معدومُ النصيرِ
يا سوءَ عاقبة التعقُّد[3] عند تمشية الأمورِ
يا كلَّ شىء مُتعِبٍ * متعقِّدٍ صعبٍ عسيرِ
يا حَيْرةَ الشيخ الأصـ * ـمِّ وحسرةَ الحَدَثِ الضريرِ
يا قعدةً فى دِجلَة * والريحُ تلعبُ بالجسورِ

---

(١) فى يتيمة الدهر (٢ ص ٢١١) : « الحسن » .

(٢) كذا فى يتيمة الدهر (ج ٢ ص ٢١٦) . وفى الأصول : يابعض تدخين الحشا » .

(٣) كذا فى يتيمة الدهر وفى الأصول : « ... التفقد عند تشبيه الخ » .

يا قـرحةَ السـلّ التى * هدّتْ شراسيفَ الصدورِ
يا أربعـاء لا تـدو * ربه محاقاتُ[1] الشـهورِ
يا هـذَة الحيطان تُنـ * ـقَضُ بالمعاولِ والمُرورِ
يا قرحـةً فى ناظـرٍ * غلظوا عليها بالـدُّرورِ[2]
فتسـلّختْ مع ما يلـ * ـيها فى الجفون من البُثورِ
يا خيبـةَ الأمـل الذى * أمسَى يعُـلَّل بالغـرورِ
يا غُلْمـةَ المتخـدّرا * تِ وراء أبواب القُصورِ
يا وحشـةَ المـوتَى إذا * صـاروا إلى ظُـلَم القبورِ
يا ضجـرةَ المحمـوم بال * ـغدَواتِ من ماء الشـعيرِ
يا شـؤمَ إقبال الشـتا * ءِ أضرَّ بالشيخ الفقـيرِ
يا دُولةَ الحُزْن[3] التى * خَسفَتْ بأيّام السّـرورِ
يا ضجّـةَ الصَّخِب المصـدّ[4]ـع بالتنـازُع والشّرورِ
يا عـثْرَة القـلم المرشّش بين أثناءِ السطورِ
يا ليـلةَ العُريان غِبّ عشـيّةِ اليومِ المَـطيرِ
يا نومـةً فى شمس آ * بَ على التراب بلا حَصيرِ
يا لجاجةَ المكروه فى الـ * ـيوم العَبـوس القَمطريرِ
يا نهشـةَ الكَلْبِ[5] الرضيـ * ـع ونَكهةَ الليثِ الهصور

(١) كذا فى يتيمة الدهر . وفى الأصول : « مخافات » وهو تحريف .
(٢) الدرور : ما يذر فى العين وعلى الجرح من الأدوية .
(٣) كذا فى يتيمة الدهر . وفى الأصول « يا دولة الحسن » .
(٤) كذا فى اليتيمة . وفى الأصول : « ... الضجر المصـ * ـدّع بالتنازع ... الخ .
(٥) كذا فى اليتيمة . وفى الأصلين : « ياهمة » . وفى النسخة الراغبية : « يا نهمة » .

يا عيشَ عانٍ موثَقٍ * فى القَيْد مغلولٍ أسيرِ
يا حِدّة الرَّمَد الذى * لا يستفيقُ من القُطورِ
يا عِيشةَ الكنّاس من * شَمِّ الذرائرِ والعبيرِ
يا حَيْرة العطشانِ وقـ * ـتَ الظُّهر فى وسَط الهجيرِ (١)
من لى بأن تلقاك خيـ * ـلُ بنى كلاب بلا خفيرِ
وأرى بعينى لَحمك الـ * ـمطبوخَ فى نار السعيرِ (٢)
فى الأرض ما بين السبا * ع وفى السما بين النُّسورِ

وقال المتنبى :

يمشى بأربعة على أعقابه * تحت العُلوج ومن وراءٍ يُلجَمُ
وجفونُه ما تستقرّ كأنها * مطروفةٌ أوفُتَّ فيها حِصرِمُ
وتراه أصغر ما تراهُ ناطقا * ويكون أكذبَ ما يكونُ ويُقسِمُ
واذا أشار مكلِّما فكأنه * قِرْدٌ يُقهقِهُ أو عجوزٌ تَلطِمُ
يَقلِى مُفارقةَ الأكفّ قَذالُه (٣) * حتى يكادَ على يدٍ يتعمَّمُ

* * *

ومما يذمّ به الرجل أن يكون ثقيلا . فأبلغ ما قيل فى ذلك قول بعضهم :

وثقيل أشدّ من غُصَصِ المو * ت ومن زَفْرة العذابِ الأليمِ
لو عَصَتْ ربَّها الجحيمُ لما كا * ن سِواه عقوبةً للجحيمِ

---

(١) كذا فى اليتيمة . وفى الأصول : «فى وسط الهجير» .
(٢) كذا فى اليتيمة . وفى الأصول : «فى حر الهجير» .
(٣) كذا فى ديوان المتنبى والنسخة الراغبية . وفى الأصلين : « يلق » وهو تحريف .

وأبلغ ما قيل فى هذا المعنى قول بشّار :

ولقد قلتُ، حينَ وَتَّدَ فى الأر * ض ثقيلٌ أرْبَى على ثَهْلانِ
كيف لم تَحْمِلِ الأمانةَ أرضٌ * حَمَلت فوقَها أبا سُفْيانِ

* * *

ومما هجى به أهلُ الوقت على الإطلاق! فمن ذلك قول أبى هلال العسكرىّ :

كم حاجةٍ أنزلتُها * بكريم قومٍ أو لئيمِ
فإذا الكريمُ من اللئيـ * ـم أو اللئيمُ من الكريم
سبحان ربِّ قادرٍ * قَدَّ البريّةَ من أديم
فشريفُهم ووضيعُهم * سيَّان فى سَفَهٍ ولُومِ
قد قلّ خيرُ غنيِّهم * فغنيُّهم مثلُ العَديم
واذا آختبرتَ حميدَهم * ألفَيْتَهُ مِثلَ الذميم

* * *

ومما قيل فى هجاء بعض العشيرة ومدح بعضهم : فمن ذلك قول أبى عُيينة يهجُو خالدَ بنَ يزيد المُهلّبىّ ويمدح أباه :

أبوك لنا غَيْثٌ نعيشُ بفضلِه * وأنت جَرادٌ ليس يُبْقِى(١) ولا يَذَرْ
له أثرٌ فى المَكْرُمات يَسُرُّنَا * وأنت تُعَفِّى دائبا ذلك الأَثَرْ
لقد قُنِّعَتْ(٢) قحطانُ خِزْيًا بخالدٍ * فهل لكِ فيه يُخْزِكِ اللهُ يا مُضَرْ

(١) فى الشعر والشعراء لابن قتيبة : « ... لست تبقى ولا تذر .
(٢) فى الشعر والشعراء : «لقد خزيت قحطان طرا الخ» .

وله فى قَبِيصة بن رَوْح ، يُفَضِّل عليه ٱبنَ عَمِّه داودَ بن يزيدَ بن حاتم :

أَقَبِيصُ لستَ وإن جهدتَ ببالغ * سَعْىَ ٱبنِ عَمِّك ذى النَّدى دَاودِ
شَتَّان بينك يا قبيصُ وبينَهُ * إن المُذَمَّمَ ليس كالمحمودِ
داودُ محمودٌ وأنت مُذَمَّمٌ * عَجَبًا لذاك وأنتما من عُودِ
ولرُبَّ عُودٍ قد يُشَقُّ لمسجِدٍ * نصفًا وسائرُه لحشِّ يَهُودِى

وقال حسّان فى أبى سُفْيان بن الحارث :

أبوكَ أبٌ حُرٌّ وأُمُّك حُرَّةٌ * وقد يَلِدُ الحُرَّان غيرَ نجيبِ
فلا تعجبنّ الناسُ منك ومنهما * فما خَبَثٌ من فِضَّةٍ بعجيبِ

ذكر ما قيل فى الحسد

ومما يذمّ به الرجلُ، أن يكون حسودا . وقد أمر الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام، أن يتعوّذ من شرّ الحاسد إذا حَسَد .

قال ابن السمّاك :

أنزل الله تعالى سورة جعلها عُوذةً لخَلْقه من صنوف الشرّ، فلما ٱنتهى الى الحَسد جعله خاتما ، إذْ لم يكن بعده فى الشرّ نهاية . والحسد أوّل ذنب عُصِى الله تعالى به فى السماء، وأوّل ذنب عُصِىَ به فى الأرض؛ أما فى السماء . فحسد إبليسَ لآدمَ ، وأما فى الأرض فحَسَد قابيلَ لهابيلَ . وذهب بعضُ أهل التفسير فى قوله عزّ وجلّ إخبارا عن أهل النّار: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أن المراد بالجنّ إبليس ، وبالإنس قابيل ؛ وذلك أنّ إبليسَ أوّلُ من سَنّ الكفرَ ، وقابيلَ أوّل من سنّ القتل . وأصل ذلك كلّه الحسدُ .

وقال عبد الله بن مسعود : لا تُعادُوا نِعَمَ الله . فقيل له : ومن يُعادِى نِعَمَ الله؟ قال : الذين يَحْسُدون الناسَ على ما آتاهم الله مِن فَضْلِهِ . يقول الله تعالى فى بعض الكتب : «الحَسُودُ عدوُّ نِعْمتى، متسخط(١) لقضائى، غيرُ راض بقسمتى» .

وقالت الحكماء : إذا أراد الله أن يُسَلِّطَ على عبد عدوًّا لا يرحمه سلَّط عليه حاسدا .

وكان يقال فى الدعاء على الرجل : طلبَك من لا يقصِّر دون الظَّفر، وحسدك من لا ينام دون الشِّفاء(٢) .

وقالوا : ما ظنُّك بعداوة الحاسد، وهو يرى زَوال نعمتك نعمةً عليه !

قال أبو الطيب المتنبّى :

سوى وجعِ الحسّاد داوِ(٣) فإنه * إذا حَلَّ فى قلبٍ فليس يَحُولُ

ولاتطمعَنْ من حاسدٍ فى مَوَدَّةٍ * وإن كنتَ تُبديها له وتُنِيل

وقال البَبَّغاءُ :

ومن البليّة أن تُداوِىَ حِقْدَ مَنْ * نِعَمُ الإلٰهِ عليك مِنْ أحقادِهِ

وقال علىّ رضى الله عنه : لا راحةَ لحَسُود، ولا أخَ لمَلُول، ولا مُحِبَّ لسيِّئ الخُلُق .

وقال الحسن : ما رأيت ظالما أشبهَ بمظلوم من حاسد؛ نفَس دائم، وحزن لازم، وغَيْرة لاتنفد . ثم قال : لله دَرُّ الحسد ما أعدله ! يقتل الحاسدَ قبل أن يَصِلَ الى المحسود .

(١) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ٢٣١) من تسخط الشىء : لم يرضه وتكرهه، وفى الأصل : « مسخط » .

(٢) كذا فى عيون الأخبار (المجلد الثانى ص ٢١٦،١٠) . وفى الأصل الشقاء، وهو تحريف .

(٣) كذا فى ديوان المتنبى (ص ٢٧٣) . وفى الأصول : « داء » وهو تحريف .

وقال الجاحظ : من العدل المَحْض والإنصاف الصحيح ، أن تَحُطَّ عن الحاسد نِصفَ عِقابه ؛ لأن أَلَمَ جسمه قد كفاك مَؤُونَةَ شَطْرِ غيظك عليه .

وقيل : الحسد أن تَمَنَّى زوال نعمةِ غيرك ، والغبطة أن تَمَنى مثلَ حالِ صاحبك . وفى الحديث : " المُؤْمِنُ يَغْبِطُ والمنافق يَحْسُد " .

وقال أرسطوطاليس : الحسد حسدان : محمود ومذموم ؛ فالمحمود : أن ترى عالما فتشتهى أن تكون مثله ، وزاهدا فتشتهى مثل فعله ؛ والمذموم أن ترى عالما وفاضلا فتشتهى أن يموتا . وقيل : الحسود غضبان على القَدَر ، والقدر لا يُعتِبه .

قال منصور الفقيه :

ألاَ قُلْ لمن كان لى حاسدا * أتدرى على من أساتَ الأدبْ
أسأتَ على الله فى فضله * إذا أنتَ لم تَرضَ ما قَدْ وَهَبْ

وقال المتنبى :

وأظلمُ أهلِ الأرضِ من بات حاسدا * لمن بات فى نَعْمَائِه يتقلَّبُ

ومن أخبار الحَسَدة : ما حكى أنه آجتمع ثلاثة نفر منهم ، فقال أحدهم لصاحبه : مابلغ مِنْ حسدك ؟ قال : ما آشتهيتُ أن أفعل بأحد خيرا قطّ ؛ فقال الثانى : أنت رجل صالح ، أنا ما آشتهيت أن يَفْعَلَ أحد بأحد خيرا قطّ ؛ فقال الثالث : ما فى الأرض أفضل منكما ، أنا ما آشتهيت أن يَفْعَلَ بى أحد خيرا قط .

* * *

ومما قيل من الشعر فى تفضيل المحسود ومدحه ، وهجاء الحاسد وذمّه :

قال بعض الشعراء :

إن يحسُدونى فإنّى غيرُ لائمهم * قبلى من الناس أهلُ الفضل قد حُسدوا
فدام لى ولهم مابى وما بهمُ * ومات أكثرنا غَمًّا بما يَجِدُ

وقال آخر :

إنّ الغرابَ وكان يمشى مِشْيةً * فيما مضى من سالف الأحوال
حَسَدَ القَطاةَ ورامَ يَمْشِى مشيَها * فأصابه ضَرْب من العُقّال(١)

وقال آخر :

حَسَدوا الفَتَى إذْ لم يَنالُوا سَعْيَه * فالقومُ أعداءٌ له وخُصُومُ
كضرائرِ الحَسْناء قُلْن لوجهِها * حَسَدًا وبَغْيًا إنّه لَدَمِيمُ(٢)

وقال البُحترىّ :

لا تحسُدوه فَضْلَ رُتْبَته التى * أعْيتْ عليكم وافعلوا كفِعَالِهِ

وقال السَّرِىّ الرفّاء :

نالتْ يدَاه أقاصِىَ المَجْدِ الذى * بَسَط الحسودُ إليه باعا ضَيِّقَا
أعَدُوّهُ هل للسَّماك جَرِيرةٌ * فى أنْ دَنَوتَ من الحَضِيض وحَلّقَا
أم هل لِمَنْ مَلأَ اليدَيْنِ من العُلَا * ذَنْبٌ إذا ما كنتَ منها مُمْلِقَا

وقال أبو تمام الطائىّ :

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلةٍ * يوما(٣) أتاح لها لِسَانَ حَسودِ
لولا آشتعال النار فيما جاورتْ * ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقال البُحترىّ :

ولن تَستَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمةٍ * إذا أنت لم تُدْلَلْ عليها بحاسِدِ

---

(١) العقال : ظلع يأخذ فى قوائم الدابة .

(٢) كذا فى الأصول ، وهى رواية ثعلب ، قال صاحب اللسان : وقد ردّ ذلك عليه ، والأصح رواية (إنه لدميم) بالدال المهملة .

(٣) أثبتنا فيما تقدم ص ٩٢ من هذا الجزء أن رواية الديوان : « طويت » .

وقال محمد بن مُناذِر :

يأيُّها العائبى[1] وما بِىَ مِنْ * عَيْبٍ ألَا تَرْعَوِى وتزْدَجِرُ
هل لك عندى وِتْرٌ فتطلُبُهُ * أم أنت مِمّا أتيتَ مُعْتَذِرُ
إن يك قَسْمُ الإلٰهِ فَضَّلنِى * وأنت صَلْدٌ ما فيك مُعْتَصَرُ
فالحمد والشكر والثناء له * وللحسود التُّرابُ والحَجَرُ
ما ذا الذى يجْتَنِى جليسُكَ أو * يبدُو له منك حين يَخْتَبِرُ
اقرأْ لنا سورةً تُذَكِّرُنَا * فإنّ خيرَ المواعظِ السُّوَرُ
أَوْصِفْ لنا الحُكْمَ فى فرائضنا * ما تستحِقّ الأُنْثَى أو الذَّكَرُ
أَوِ ارْوِ فِقْهًا تُرْوِى القلوبَ به[2] * جاء به عن نبيِّنَا الأَثَرُ
أو من أحاديثِ جاهِلِيَّتِنَا[3] * فإنها حِكمةٌ ومفتَخَرُ
أَوِ ارْوِ عن فارِسٍ لنا مَثَلًا * فإنّ أمثالَها لنا عِبَرُ
أو غَنِّ صوتا تُشْجِى النُّفوسَ به * وذَنْبُ ما قد أتيتَ مغْتَفَرُ
فإن تكُنْ قد جَهِلتَ ذاك وذا * ففيك للناظرين مُعْتَبَرُ

ذكر ما قيل فى السِّعاية والبغى والغِيبة والنَّميمة

قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ . وقال تعالى : ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ . وقال تعالى : ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كان يُؤْمن بالله واليوم

(١) كذا فى العقد الفريد ج ١ ص ٢٣٣ ، وفى الأصل : « يا أيها العاتى ... * عتب ... » .
(٢) رواية العقد الفريد : « ... تحيا ... الخ » .
(٣) رواية العقد الفريد : « أو من أعاجيب ... ومعتبر » .

الآخر فلا يرفَعَن إلينا عَورةَ أخيه المؤمن" . وقال صلى الله عليه وسلم : "لا يَرَاحُ القَتَّاتُ رَائِحَةَ الجَنَّةِ" . وفى لفظ : "لا يدخُل الجَنَّةَ قَتَّاتٌ" . والقَتَّات : النَّمَّام .

قال بعض الشعراء :

فلا تسعَ(١) على أحد بِبَغْيٍ * فإنّ البَـغْىَ مَصْرَعُهُ وَخِيمُ

وقال العَتَّابى : ٥

بَغَيتَ فـلم تَقَعْ إلّا صَرِيعًـا * كذاك البغىُ مَصْرَعُ كلِّ بَاغِى

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلْوَةَ، فقال لأصحابه : إذا شِئْتُم فقوموا(٢) . فلما تهيّأ الرجل للكلام قال له : إياك أن تمدحَنى فإنى أعلم بنفسى منك ، أو تكْذِبَنى فإنّه لا رأْىَ لِكَذُوب، أو تسعَى إلى بأحد، وإن شئتَ أقلتُك، قال : ١٠ أقِلْنى .

قال : ولما وَلِى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك دِمَشْقَ ، ولم يكن فى بنى أُمَيَّةَ ألبُّ منه(٣)، مع حداثة سنِّه، قال أهل دمشق : هذا غلام شابٌّ ، ولا علم له بالأمور ، وسيسمع منا، فقام اليه رجل فقال : أصلح الله الأمير، عندى نصيحةٌ، فقال له : ياليتَ شعرى ما هذه النصيحةُ التى ابتدأتنى بها من غير يدٍ سبقتْ منِّى إليك؟ فقال : جارٌ لى عاصٍ متخلِّف عن ثَغْره، فقال له : ما اتّقيتَ الله، ولا أكرمتَ ١٥ أميرَك ، ولا حفِظت جِوارَك ، إن شئتَ نظرْنا فيما تقول ، فإن كنتَ صادقا لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنتَ كاذبا عاقبناك ، وإن شئتَ أقلناك ، قال : أقلنى ، قال : اذهب حيث شئتَ ، لا صَحِبك الله! ثم قال : يا أهلَ دِمَشْق ، أمَا أعظَمتم ما جاء به الفاسقُ ! إن السِّعاية أحْسَبُ منه سجيّةً . ولولا أنه لا ينبغى

(١) دخل فى هذا البيت الكفّ وهو حذف السابع الساكن . (٢) كذا فى العقد الفريد ج ١ ٢٠ ص ٢٣٦ ، وفى الأصول : «اذا شئتم فقاموا» . (٣) كذا فى تذكرة الصفدى . وفى الأصول : «فى» .

للوالى أن يعاقِبَ قبـل أن يُعاتِبَ ، كان لى فيه رأى . فلا يأتنى أحد منكم بِسِعاية على أحد ؛ فإن الصادق فيها فاسق ، والكاذبَ بَهَّاتٌ .

وسَعَى رجل برجل إلى عُمَرَ بن عبـد العزيز رضى الله عنه ، فقال : إن شئتَ نظرنا فى أمرك ، فإن كنتَ كاذبا فأنت من هـذه الآية : ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ وإن كنتَ صادقا فأنت من هذه الآية : ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ وإن شئت عفونا عنك ؛ قال : العفو يا أمير المؤمنين ؛ قال : على ألّا تعودَ .

وكتب محمد بن خالد إلى آبن الزيات أن قوما صاروا إليه مُتَنَصِّحين ، فذكروا أن رُسُـوما للسلطان قـد عَفَتْ ودَرَسَتْ ، وأنه توقَّف عن كشفها إلى أن يعرِف مَوقِع رأيه فيها ؛ فوقَّع على رُقْعته : قرأتُ هـذه الرُّقعةَ المذمومة ، وسُـوق السُّعاة مُكْسِدٌ عندنا ، وألسنتُهم تَكِلُّ فى أيامنا ؛ فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما فى ديوانك ؛ فلم ترد للناحية لكشف الرسوم العافيـة ، ولا لِتُحْيِيَ الأعلام الدائرة ، وجنّبنى وتجنّب قول جرير :

وكنتَ إذا حَلَلْتَ بدار قومٍ ٭ رَحلْتَ بِخَزْيَةٍ وتركتَ عَارَا

قالوا : وكان الفضل بن يحيى[1] يكره السّعاة ، فاذا أتاه ساع قال له : إن صَدَقْتنا أبغضناك ، وإن كَذَبْتَنا عاقبناك ، وإن آستقلتنا أقَلْناك .

وحكى صاحب العقـد قال : قال العُتْبِيّ حدّثنى أبى عن سـعيد القصرىّ قال : نظر إلىّ عمرو بن عُتْبة ورجل يشتُمُ بين يدىّ رجلا ، فقـال لى : وَيْلَك ! — وما قال لى ويلك قبلها — نَزِّه سمعَك عن آستماع الخنا ، كما تُنَزِّه لسانَك عن الكلام به ؛ فإن السامع شريك القائل ، وإنه عمَـد إلى شرِّ ما فى وِعائه فأفرغَه فى وِعائك ؛ ولو

(١) فى تذكرة الصفدى : «الفضل بن سهل» .

رُدَّتْ كلمـةُ جاهل فى فيـه لَسَعِدَ رادُّها ، كما شَقِىَ قائلها ؛ وقد جعله الله تعـالى شريك القائل، فقال : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ .

* * *

ومما قيل فى الغِيبة والنميمة: روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا قلتَ فى الرجل ما فيه فقد آغتبتَه، وإذا قلتَ ما ليس فيه فقد بهتّه" .

اِغتاب رجل رجلا عند قُتَيبة بن مسلم ؛ فقال له : أَمْسِك عليك[1] أيُّها الرجلُ، والله لقد تلمظتَ بمُضْغة طالما لفظتْها الكرام .

وذُكر فى مجلسه رجل، فنال منه بعضُ جلسائه ؛ فقال له : يا هذا، أوحشتَنا من نفسك، وأيأستَنا من مودّتك، ودللتَنا على عَوْرتك .

وآغتاب[2] رجل عند بعض الأشراف ، فقال له : قد آستدللتُ على كثرة عيوبك بما تَذْكُرُ[3] من عيب الناس؛ لأن الطالب للعيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها ؛ أَمَا سمعت قول الشاعر :

لا تَهْتِكَنْ[4] من مَساوِى الناسِ ما سَتَرُوا * فيهتِكَ الله سِتْرًا من مساوِيكا
وآذْكُرْ محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِرُوا * ولا تَعِبْ أحدا منهم بِمَا فيكا

وقال آبن عبَّاس رضى الله عنهما : أُذكُرْ أخاك إذا غاب عنك بما تُحِبُّ أن يذكرَك به، ودَعْ منه ما تُحِبُّ أن يَدَعَ منك .

---

(١) كذا فى العقد الفريد ج ١ ص ٢٣٧ ، وفى الأصول : «عليه» .

(٢) فى العقد الفريد ج ٢ ص ١٤ وعيون الأخبار ج ١ ص ٢٣٧ : «عاب رجل رجلا» .

(٣) فى العقد الفريد وعيون الأخبار : «بما تكثر» .

(٤) فى عيون الأخبار (مجلد ثان ص ١٨) : «لا تلتمس ... * فيكشف ... الخ» .

وقال بعض الملوك لولده وهو ولىّ عهده : يا بُنَىّ ، ليكنْ أبغضُ رعيتِك إليك أشدَّهم كشفًا لمعايب الناس عندك ، فإنَّ فى الناس معايبَ وأنت أحق بِسَتْرِها ، وإنما تحكم فيما ظهر لك ، والله يحكُم فيما غاب عنك ؛ وآكره للناس ما تكرهُه لنفسك ، وآستُرِ العَورةَ يَسْتُرِ الله عليك ما تُحِبُّ سترَه ؛ ولا تعجَلْ الى تصديق ساع ، فإن الساعىَ غاشٌّ وإن قال قَوْلَ نُصْح .

وَوَشَى واشٍ برجل الى الإسكندر ، فقال له : أتُحِبّ أن نقبلَ منك ما قلتَ فيه ، على أن نقبَل منه ما يقول فيك ؟ قال : لا ، قال : فَكُفَّ عن الشر يكفّ عنك .

وقال ذو الرِّياستين[1] : قَبُول النميمة شرٌّ من النميمة ، لأن النميمةَ دَلالة ، والقبولَ إجازة ، وليس مَن دَلَّ على شىء كمن قَبِلَه وأجازه .

قال أبو الأسود الدؤلىّ :

لا تَقبلنَّ نميمةً بُلِّغتَها * وتحفظَنَّ مِنَ الذى أنباكها
إن الذى أهدى إليك نميمةً[2] * سَيَنُمُّ عنك بمثلها قد حاكها

وقال رجل لعمرو بن عُبَيد : إن الأسوارِىّ[3] لم يزل يذكرك ويقول : الضالّ ، فقال عمرو : يا هذا ! والله ما راعيتَ حقَّ مجالستِه حين نقلتَ إلينا حديثَه ، ولا راعيتَ حقّى حين أبلغتَنى عن أخى ما أكرَهُه ؛ اعلم أن الموت يعمّنا ، والبعثَ يَحْشُرنا ، والقيامةَ تجمعنا ، والله يحكم بيننا [وهو خير الحاكمين][5] .

(١) وردت هذه العبارة فى عيون الأخبار المجلد الثانى ص ٢٣ بتغاير فى بعض كلماتها مع زيادة عما هنا .

(٢) رواية العقد الفريد ج ١ ص ٢٣٧

إن الذى أنباك عنه نميمة * سيدب عنك بمثلها قد حاكها

(٣) كذا فى تذكرة الصفدى و إحياء العلوم للغزالى ج ٣ ص ١١٩ ، وقد ضبطه فى المشتبه للذهبى بضم الهمزة نسبة الى الأساورة من تميم ، وبفتحها نسبة الى قرية بأصبهان . وفى الأصول : « الأسوارىّ » وهو تحريف . (٤) كذا فى تذكرة الصفدى واحياء العلوم للغزالى ، وفى الأصول : « حتى » .

(٥) زيادة عن الإحياء .

وقال معاوية للأحنف فى شىء بلغه عنه، فأنكره الأحنف : بلّغنى عنك الثقة؛ فقال الأحنف : إن الثقة لا يُبلِّغ .

قال بعض الشعراء :

لعمرُك ما سَبَّ الأميرَ عدوُّه * ولكنما سَبَّ الأميرَ المُبلِّغُ

وقال ابن المعتز[1] : الساعى كاذب لمن سعى إليه، خائن لمن سعى عليه .

وقالوا : النَّمام شرٌّ من الساحر، فإن النمامَ يُفسِد فى الساعة الواحدة ما لا يفسده الساحر فى المدة الطويلة .

وقالوا : النميمة من الخلال الذميمة، تدُلُّ على نفس سقيمة، وطبيعة لئيمة؛ مشغوفة بهتك الأستار، و إفشاء الأسرار .

وقال بعض الحكماء : الأشرار يتتبّعون مساوىَ الناس و يتركون محاسنَهم، كما يتتبّع الذبابُ المواضع الأَلِمَة من الجسد، و يترك الصحيحة .

وقالوا : لم يَمْشِ ماش، شرٌّ من واش . والساعى بالنميمة كشاهد الزُّور، يُهلِك نفسه، ومن سعى به، ومن سعى إليه .

وقالوا : "حَسْبُك من شَرٍّ سَمَاعُه" . وقد لهج الشعراء بذمّ النمام، وجعلوه من أهاجيهم . قال بعض الشعراء :

من نَمَّ فى الناس لم تُؤْمَنْ عقاربُه * على الصديق ولم تُؤْمَنْ أفَاعِيهِ

كالسَّيل بالليل لا يدرى به أحدٌ * من أينَ جاء ولا من أين يأتيه

وقال السَّرِىُّ الرَّفَّاء :

أَنَمٌّ بما اسْتُودِعْتَه من زُجاجة * تَرَى الشىءَ فيها ظاهرا وهو باطِنُ

(١) فى تذكرة الصفدى : «قال على كرم الله وجهه : الساعى ظالم لمن سعى به خائن لمن سعى اليه» .

وقال محمد بن شَرَف :

وناصبٍ نحوَ أفواه الورى أُذُناً * كالقَعْب يلقُطُ فيها كلّ ما سَقَطَا
يظَلُّ يلتقِط الأخبارَ مجتهِـدًا * حتى إذا ما وعاها زَقَّ ما لَقَطا

وقال ابن وَكيع :

يَنُمُّ بسرٍّ مُسْتَرْعيـه لُؤْمًا * كما نَمَّ الظلامُ بسرِّ نارِ
أنَمُّ من النُّصول على مَشيبٍ * ومن صافى الزُّجاج على عُقارِ

وقال الحسن البصرىّ : لا غِيبـة فى ثلاثة : فاسـقٍ مجاهِرٍ ، وإمامٍ جائرٍ ، وصاحبِ بِدْعة [لم يدع بدعته] (١) .

وكتب الكِسائىّ الى الرقاشىّ :

تركتَ المسجد الجامـ * ـعَ والتَّرك له رِيبـهْ
[فلا نافـلة تقضى (١) * ولا تقضى لمكتوبه]
وأخبـارُك تأتينـا * على الأعلام منصوبهْ
فإن زدت من الغَيْبـ * ـة زدناك من الغِيبهْ

ذكر ما قيل فى البخل واللؤم

والبخل : منع الحقوق . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ .

(١) الزيادة عن العقد الفريد ج ١ ص ٢٣٨

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خَلّتانِ لاتجتمعان فى مؤمن البخلُ وسوءُ الخُلُق" .

وقال بعض السلف : منع الجود سوء ظن بالمعبود، وتلا : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .

وروى أبو بكر الخطيب فى كتاب البخلاء بإسناده عن أبى هُرَيْرَة(١) عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لما خلق الله تعالى جَنَّة عَدْن قال لها تزيَّنِى فتزيّنت، ثم قال لها أظْهِرِى أنهارَك فأظهرتْ عَيْنَ السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم ونهر الخمر ونهر العسل ونهر اللبن ، ثم قال لها أظهرى حُورَك وحُلَلَك وسُرُرَك وحجالك ، ثم قال لها تكلّمى فقالت طُوبَى لمن دخلنى، فقال الله عزّ وجل أنتِ حرام على كل بخيل" .

وقال سُقْراط : الأغنياءُ البخلاءُ بمنزلة البِغَال والحَمِير، تحمل الذهب والفضة ، وتعتلف التِّبنَ والشعيرَ .

وقالوا : البخلُ من سوء الظن، ونحول الهمة، وضعف الرويَّة، وسوء الاختيار، والزُّهْد فى الخيرات .

وقال الحسن بن علىّ رضى الله عنهما : البخل جامع للمساوى والعيوب، وقاطع للمودّات من القلوب . (٩١)

وقالوا : حدُّ البخل منع المستفِد مع القدرة على رِفْده .

---

(١) ورد هـذا الحديث فى إحياء العلوم للغزالى (ج ٣ ص ١٩١) مرويا عن ابن عباس ويختلف عما هنا بزيادة بعض كلمات .

وكان أبو حنيفة[1] لايقبل شهادة البخيل ، ويقول محتجًا لذلك : إن البخيل يحمله بخلُه على أن يأخذ فوق حقِّه مخافةَ أن يُغْبن ؛ ومن كان هكذا لايكون مأمونا .

وقال بشر بن الحارث الحافى : لا غِيبة لبخيل ، ولَشُرَطِىٌّ سخِىٌّ أحبّ إلىّ من عابد بخيل .

وقالوا : البخيل لا يستحقّ آسمَ الحُرِّية ، فإن ماله يملكه .

ويقال : لا مال للبخيل ، وإنما هو لمـاله .

وقال الحسن البصرىّ : لم أر أشقى بماله من البخيل ؛ لأنّه فى الدنيا يَهْتَمُّ بجمعه ، وفى الآخرة يحاسَبُ على منعه ؛ غير آمن فى الدنيا من همّـه ، ولا ناج فى الآخرة من إثمـه ؛ عيشه فى الدنيا عيشُ الفقراء ، وحسابه فى الآخرة حساب الأغنياء . ودخل رحمه الله على عبد الله بن الأهتم يعوده فى مرضـه ، فرآه يُصَعِّد بَصَرَه ويُصَوِّبه الى صُـندوق فى بيته ، ثم آلتفت اليه ، فقال : يا أبا سعيد ، ماتقول فى مائة ألف دينار فى هـذا الصندوق لم أُؤَدِّ منها زَكاةً ولم أَصِـلْ بها رَحِماً ؟ فقال له : ثكلتْك أمّك ! ولم كنتَ تجمعها ؟ قال : لرَوْعة الزمان ، وجَفْوَة السلطان ، وتكاثر العشيرة . ثم مات فشَهِده الحسن ؛ فلما فَرَغ من دفنه ، ضرب بيده على القَبْر ، ثم قال : انظروا إلى هذا ، أتاه شيطانه فخوَّفه رَوْعَة زمانه ، وجفوة سلطانه ، بما آستودعه الله إيّاه ، وعمّره فيه ، انظروا اليه كيف خرج مذموما مَدْحُورا ! ثم آلتفت إلى وارثه ، فقال : أيها الوارث لاتُخْدَعَنَّ كما خُدِع صُوَيْحِبُكَ بالأمس ، أتاك هذا المـال حلالا ، فلا يكوننّ عليك وَبالا ؛ أتاكَ عفوا صفوا ، ممن كان له جَمُوعا مَنُوعا ؛ من باطلٍ جمعـه ، ومن حقّ منعه ؛ قطع فيه لُجَجَ البحار ، ومفاوزَ القِفَار ؛ ولم تكْدَحْ لك فيه عَيْنٌ ولم يَعْرَقْ لك

(١) ورد هذا الخبر فى الإحياء ج ٣ ص ١٩١ مع اختلاف فى العبارة وزيادة يسيرة .

فيه جَبِين؛ إن يوم القيامة يوم ذو حَسَرات، وإن من أعظم الحسرات غدا أن ترى مالك فى ميزان غيرك، فيا لها حسرة لا تُقال، وتَوْبة لا تُنال! .

ومن أخبار البخلاء: قيل: بخلاءُ العرب أربعة: الحطيئةُ، وحُمَيد الأَرْقطُ، وأبو الأسود الدُّؤَلىّ، وخالدُ بنُ صفوان؛ ونُقلت عنهم أمُور دلّت على بخلهم.

أما الحطيئة: فقد حكى عنه: أنه مَرّ به آبن الحمامة، وهو جالس بفِنَاء بيته، فقال له: السلام عليكم، فقال: قلت ما لا يُنْكَر، فقال: إنى خرجتُ من [عند](1) أهلى بغير زاد، قال: ما ضمنتُ لأهلك قِرَاك، قال: أفتأذن لى أن آتى ظلّ بيتك فأتفيّأ به؟ قال: دونك الجَبَل يَفِىء عليك، قال: أنا آبن الحمامة، قال: آنصرف وكن آبن أىّ طائر شئتَ. قال: وآعترضه رجل وهو يَرْعى غنما، فقال له: يا راعىَ الغَنَم، وكان بيد الحطيئة عَصًا فرفعها، وقال: عَجْرَاءُ من سَلَم، فقال الرجل: إنما أنا ضيف، فقال: للأضياف أعددتها [فآنصرف عنه](1). وكان الحطيئة أحد الحُمْقَى، أوصى عند موته أن يُحْمَل(2) على حِمَار، وقال: لعلّى إن حُملتُ عليه لا أموت، فإنى ما رأيت كريما مات عليه قطّ. وقال: لكُلِّ(3) جَديد لذّةٌ، إلا جديد الموت، فإنى رأيته غيرَ لذيذ. وقيل له: أوص، فقال: أُوصِى أن مالى للذكور دونَ الإناث، قالوا: فإن الله ليس يقول كذلك، قال: لكنى أقوله. وقالوا له: قل لا إله إلا اللهُ، فقال: أشهَدُ أن الشّمّاخ أشعرُ غطفان.

(1) زيادة عن الأغانى ج ٢ ص ١٧١ طبع دار الكتب.

(2) وردت هذه العبارة فى الأغانى ج ٢ ص ١٩٧ برواية تختلف عما هنا.

(3) رواية الأغانى: قال أبلغوا أهل ضابئ أنه شاعر حيث يقول:

لكل جديد لذة غير أننى ٭ رأيت جديد الموت غير لذيذ

ومن أخباره : أن الزِّبرِقانَ[1] بن بدر لَقِيَه فى سفرٍ، فقال له : مَن أنت ؟ فقال : أنا حَسَبٌ موضوع، أنا أبو مُلَيْكَة ؛ فقال له الزِّبرِقان : إنى أريد وَجْهًا[2]، فَصِرْ إلى منزلى ، وكن هناك حتَّى أرجِعَ ؛ فصار الحُطَيئةُ إلى امرأة الزِّبْرِقان ، فأنزلته وأكرمته، فحسده بنو عمِّه، وهم بنو لأيٍ، فقالوا للحطيئة : إن تحوّلتَ إلينا، أعطيناك مائةَ ناقةٍ ، ونَشُدّ الى كلّ طُنُب من أطناب بيتك جُلَّةً[3] هَجَرِيَّة، وقالوا لامرأة الزِّبرِقان : إن الزِّبرِقان إنما قدّم هذا الشيخ ليتزوج بنته، فقَدَح ذلك فى نفسها ؛ فلما أراد القوم النُّجْعَة تخلّف الحطيئة، فتغافلت عنه امرأة الزِّبرِقان ، فاحتمله القُرَيعيُّون ووفَّوْا له بما قالوا ؛ فمدحهُم وهجا الزِّبرِقان، فقال :

أزمعتُ يأسًا مُبِينًا من نوالِكُمُ ٭ ولا يُرَى طاردا للحُرِّ كاليأسِ

دعِ المكارِمَ لا ترحَلْ لبُغْيَتِها ٭ واقعُد فإنك أنتَ الطاعِمُ الكاسِى

مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يَعْدَم جوازِيَه ٭ لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناسِ

فاستعدى الزبرقانُ عليه عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه ، فحكَّم عمرُ حسانَ ابنَ ثابت، فقال حسان : ما هجاه[4] ولكن سَلَح عليه، فحبس عمرُ الحطيئةَ فقال يستعطفه :

---

(١) ذكر هذا الخبر فى الأغانى (ج ٢ ص ١٨٠) بتبسط عما هنا .

(٢) أى جهة، والمراد بها العراق كما فى الأغانى .

(٣) كذا فى الأغانى . والجلة : وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر يكنز فيه . وفى الأصل : «حلة» تحويه وهو تحريف .

(٤) رواية الأغانى : «فقال عمر لحسان : أتراه هجاه ؟ قال : نعم وسلح عليه فحبسه عمر» .

ماذا تقول لأفراخ بِذِى مَرِخ (١) * حُمرِ (٢) الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَرُ

ألقيتَ كاسبهم فى قَعْرِ مُظْلِمَةٍ * فاغْفِر عليك سلام الله يا عمرُ

ما آثروك بها إذْ قدَّموك لها (٣) * لكن لأنفسهم كانت بك الأُثَرُ (٤)

فأخرجه عمرُ وجلس على كرسىّ، وأخذ بيده شَفْرة، وأوهم أنه يريد قَطْعَ لسانه، فضجّ وقال : إنى والله يا أمير المؤمنين قد هجوتُ أبى وأُمّى وامرأتى ونفسى؛ فتبسم عمرُ ثم قال : ما الذى قلتَ ؟ قال : قلتُ لأبى وأمّى : ٥

(٩٢)

ولقد رأيتُك فى النساء فسؤْتنى * وأبَا بَنِيك فساءنى فى المجلس

وقلتُ لأبى خاصة :

فبِئْسَ الشيخُ أنتَ لَدَى تميم * وبئس الشيخُ أنت لَدَى المَعَالى

وقلت لأمّى خاصة : ١٠

تَنَحَّىْ وآجلسى منّى بعيدا * أراح الله منك العالمينا

أَغِرْبالًا (٥) إذا آستُودعتِ سِرًّا * وكانُونًا (٦) على المتحدِّثينا

وقلت لامرأتى :

أطوِّف ما أطوِّف ثم آتى (٧) * إلى بيت قَعِيدتُه لَكَاعِ

---

(١) يروى «بذى أمر» . وذكر صاحب القاموس فى مادة « مرخ » أن ذا مرخ بالتحريك : واد بالحجاز . وقال ياقوت : هو واد بين فدك والوابشية كثير الشجر، وأورد هذا البيت، ثم قال : والرواية المشهورة «بذى أمر» . وذو أمر : موضع بنجد من ديار غطفان . ١٥

(٢) فى الأغانى : «زغب الحواصل» .

(٣) رواية الأغانى : «لم يأثروك» .

(٤) الأثر : جمع أثرة وهى المكرمة المتوارثة . ٢٠

(٥) الغربال : يريد به اللئام .

(٦) الكانون : يريد به الثقيل الوخم من الناس .

(٧) الرواية المشهورة فى هذا البيت : «ثم آوى» .

وقلت لنفسى :

أبتْ شفتاىَ اليومَ إلا تَكَلُّمًا * بسوء (١) فما أدرى لمن أنا قائلُهْ

أرى لِىَ وَجْها شوَّه الله خَلْقَهُ * فَقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

فخلّى عمر سبيله ، وأخذ عليه ألّا يهجوَ أحدا ، وجعل له ثلاثة آلاف أشترى بها منه أعراض المسلمين ؛ فقال يذكر نَهْيَهُ إياه عن الهجاء ويتأسف :

وأخذتَ أطرافَ الكلام فلم تَدَعْ * شَتْمًا يَضُرُّ ولا مديحا يَنْفَعُ

ومنعتنِى عِرْضَ البخيل (٢) فلم يَخَفْ * شَتْمِى وأصبحَ آمِنًا لا يَجْزَعُ

وأما حميد الأرقط : فكان هَجَّاء للضيف ، فَحَّاشًا عليه ، فنزل به ضيف ذات ليلة ، فقال لامرأته : نزل بك البلاءُ ، قومى فأعدِّى لنا شيئا ، ففعلتْ ؛ فجعل الضيف يأكل ويقول : ما فعل الحجاج بالناس ؟ فلما فرغ قال حُمَيد :

يجرّ (٣) على الأطناب من جذْل بيتنا * هَجَفٌ لمخزون التَّحيَّةِ باذِلُ

يقول وقد أَلْقَى المراسِىَ لِلْقِرَى * أَبِنْ لِىَ ما الحجّاجُ بالناس فاعِلُ

فقلت لَعَمْرِى ما لهذا أتيتَنا * فكُلْ ودعِ الأخبارَ ما أنت آكلُ

تُدبِّر (٤) كفاه ويخْدُر حَلْقُه * الى الصدر ما حازتْ عليه الأَنامِلُ

أتانا ولم يَعْدِلْه سَحبانُ وائلٍ * بيانًا وعِلْمًا بالذى هو قائلُ

فما زال عنه اللَّقْمُ حتَّى كأنه * من العِىِّ لمَّا أنْ تكلّم باقِلُ

---

(١) رواية الأغانى : «بشر» .

(٢) رواية الأغانى : «وحيتنى ... اللئيم ... ذمى ... يفزع» .

(٣) لعله : «يحلّ» . والهجف : الجافى الثقيل .

(٤) رواية العقد الفريد (ج ٣ ص ٣٢٧) :

«يجهز ... ... * الى الزور ما ضمت ... ... الخ»

ونزل به أضياف، فأطعمهم تمرا وهجاهم، وادّعى عليهم أنهم يأكلونه بنواه، فقال:

باتوا وجُلّتُنا[1] الصُّهْبَاءُ حَوْلَهُـمُ * كأن أظفارَهم فيهـا السكاكِينُ
فأصبحوا والنَّوى عالٍ مُعَرَّسِهِم[2] * وليس كلَّ النَّوى تُلْقِى المساكِينُ

وأما خالد بن صفوان: فكان إذا أخذ جائزته، قال للدرهم: طالما سرتَ فى البلاد، أما والله لَأُطيلَنَّ حبسَك، ولأُدِيمَنَّ لُبثَك. وقيل له: مالك لا تنفق، فإن مالك عريض؟ فقال: الدهر أعرضُ منه، قيل: كأنك تؤمل أن تعيشَ الدهرَ كلَّه، قال: ولا[3] أخاف أن أموت فى أوّله.

وأما أبو الأسود الدؤلىّ: فعمل دكانا عاليا يجلس عليه، فكان ربما أكل عليه فلا يناله المجتاز، فمرّ به أعرابىّ على جمل فعرض عليه أن يأكل معه، وظنّ أنه لا يناله، فأناخ الأعرابىّ بعيره حتّى وازى الدكان، وأكل معه، فما جلس بعد ذلك على الدكان. وكان يقول: لو أطعنا المساكين فى أموالنا كنا أسوأ حالا منهم. وقال لبنيه: لا تُطمِعوا المساكين فى أموالكم، فإنهم لا يَقْنَعُون منكم حتّى يَرَوْكم فى مثل حالهم. ووقف عليه أعرابىّ وهو يتغدّى، فسلّم عليه، فردّ عليه، ثم أقبل على الأكل ولم يَعْرِض عليه، فقال الأعرابىّ: أمَا إنى قد مررتُ بأهلك، قال: كان ذلك طريقك، قال: وهُمْ صالحون، قال: كذلك فارفقْهم، قال: وآمرأتُك حُبْلى، قال: كذلك كان عهدى بها، قال: ولَدَتْ، قال: ما كان بدٌّ لها أن تَلِدَ، قال: ولدتْ غلامين، قال: كذلك كانت أمُّها، قال: مات أحدهما، قال: ما كانت تَقْوَى على رضاع اثنين، قال: ثم مات الآخر، قال: ما كان

(١) الجلة: قفة كبيرة للتمر.
(٢) كذا فى العقد الفريد. وفى الأصل: «... ملق ... ... ألق ... الخ».
(٣) فى العقد الفريد: «قال: لا، ولكن أخاف ألا أموت فى أوّله».

لِيَبْقَ بعـد أخيه ، قال : وماتت الأُمّ ، قال : جَزَعًا على ولَدَيْها ، قال : ما أطيبَ طعامَك ! قال : ذلك جزائى على أهله ، قال : أُفٍّ لك ما ألأَمَكَ ! قال : من شاء سَبَّ صاحبَه .

ونظير هـذه الحكاية : ما حُكِيَ أن أعرابيًّا مرّ بآخرَ ، فقال : مِن أين أقبلت يابن عمّ ؟ قال : من الثَّنِيَّة ، قال : فهل أتيتَنا منها بخبر؟ قال : سل عما بَدَا لك ، قال : كيف علمُك بيحيى ؟ قال : أحسن العلم ، قال : هل لك علم بكلبى نفّاع ؟ قال : حارس الحَيّ : قال : فبأمّ عثمان؟ قال : بَخٍ بَخٍ ! ومَن مِثل أمّ عثمان ! لاتدخلُ من البـاب إلا منحرفة بالثياب المُعَصْفَرات ، قال : فبعثمان ؟ قال : وأبيـك فإنه جَرْو الأسـد ويلعب مع الصبيان وبيده الكِسْرَةُ ، قال : فبجملنا السقّاء ؟ قال : إن سنامه لَيَخْرج من الغبيط ، قال : فبالدار؟ قال : وأبيك ، إنها لخصيبة الجناب ، عامرة الفِنَـاء ، ثم قام عنه وقَعَد ناحيـةً يأكل فلا يدعوه ، فمرّ كلب فصـاح به وقال : يابن عمّ ، أين هذا الكلب من نفّاع؟ قال : يا أَسَفَا على نَفَّاع ! مات ، قال : وما أماته ؟ قال : أكل من لحم الجمل السـقّاء ، فغُصّ(١) بعظمٍ منه فمـات ، قال : إنا لله ، أو قد مات الجمل ! فما أماته ؟ قال : عثر بقبر أمّ عثمان ، فانكسرتْ رِجْلُه ، قال : ويْلُمّك ! أماتت أمّ عثمان؟ قال : إى والله ، أماتها الأسف على عثمان ، قال : ويلك ! أمات عثمان ؟ قال : إى وعهد الله ! سقطت الدار عليه ، فرمى الأعرابىّ بطعامه ونثره وأقبل ينتف لحيته ويقول : الى أينَ أذهب ! فيقول الآخر : الى النار . وأقبل يلتقط الطعام ويأكله ويهزأ به ويضحك ، ويقول : لا أرغم الله إلا أنفَ اللئام . (٩٣)

وكان أُحَيْحَةُ بن الجُلَاح من البُخَلاء ، وكان اذا هبّتِ الصَّبَا طلع أَطَمَة ، ينظر الى ناحية هبوبها ثم يقول : هُبّى هبوبَك ، فقد أعددت لك ثَلَثمائةٍ وستين صاعا من

(١) فى الأصول : «فاغتص» ولم يرد فى كتب اللغة إلا ما أثبتناه .

عَجْوة، أدفع الى الوليد منها خمسَ تمرات ، فيردّ علىّ منها ثلاثا ، أى لصلابتها بعد جهد ما يَلُوكُ منها .

والعرب تضرب المثل فى اللؤم بمَادِر، تقول : هو أبخل من مَادِر[1]، ويزعُمون أنه بنى حوضا وسقى إبله ، فلما أصدَرها سَلَحَ فى الحوض، لئلا يَسْقِىَ غيرُه فيه .

وكان عُمَرُ بن يزيد[2] الأسدىّ مبخلًا جدّا، فأصابه القُولَنْجُ فحقنه الطبيب بدُهن كثير، فانحلّ ما فى بطنه، فلما أبرزه قال للغلام: ما تصنع به ؟ قال أَصُبُّه، قال : لا، ولكن ميِّز الدُّهن منه واستصبح به .

وقال سلم بن أبى المعافى : كان أبى متنحيًا عن المدينة، وكان الى جنبه مزرعة فيها قِثّاء، وكنت صبيًّا فجاءنى صِبْيان أقران لى، فكلّمتُ أبى ليهب لى درهما أشترى لهم به قثّاء، فقال لى : أتعرف حال الدرهم؟ كان فى حَجَر فى جبل، فضُرب بالمعاول، حتى استُخرج ، ثم طُحِن ثم أُدخِل القِدْرَ وصُبّ عليه الماء ، وجُمع بالزِّبْق ، ثم صُفِّى من رَقّ ، ثم أُدخل النارَ فسُبك، ثمّ أُخرج فضُرب، وكُتِب فى أحد شِقّيه : لا إله إلا الله، وفى الآخر: محمد رسول الله، ثم حُمل الى أمير المؤمنين، فأمر بإدخاله بيت ماله ، ووكّل به عُوجَ القلانِس صُهْب السِّبال، ثم وهبه لجارية حسناء جميلة وأنت والله أقبح من قِرد ! أو رَزَقه رجلا شُجاعا وأنت والله أجبن من صُرَد ! فهل ينبغى لك أن تَمَسّ الدرهم إلا بثوب ! .

ومثله قول سهل بن هارون، وقد قال له رجل : هبنى مالًا مَرْزِئَةَ عليك فيه ، قال : وما ذاك؟ قال: درهما واحدا، قال : يابن أخى لقد هوّنتَ الدرهم، وهو طابع

(١) كذا فى المحاسن والأضداد للجاحظ (ص ٨٧) ومجمع الأمثال للميدانى (ج ١ ص ٩٧) وفى الأصول : « الأم » .

(٢) وردت هذه الحكاية فى كتاب البخلاء ص ١٦٤ طبع أوربا بتوسع عما هنا .

الله فى أرضه ، والدرهم ويحك ! عُشْر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف عشر دِية المُسلم ؛ ألا ترى يابن أخى كيف انتهى الدرهم الذى هوّنته ؟ وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ؟ .

وقال سليمان بن مزاحم وقد وقع بيده درهم ، فجعل يقلبه ، ويقول : فى شِق ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ؛ وفى شِقّ ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، ماينبغى لهذا إلا أن يكون تَعْويذًا أو رُقْيَة ، ويَرْمى به فى الصندوق .

كان بعضهم إذا صار الدرهم فى يده يخاطبه ويقول : بأبى وأمّى أنت ، كم من أرض قطعتَ ، وكيس خرقتَ ، وكم من حامل رفعتَ ، ومن رفيع أخملتَ ؛ لك عندى ألّا تَعْرَى ولا تَضْحَى ، ثم يلقيه فى كيسه فيقول : اسكن على اسم الله فى مكان لا تزول عنه ، ولا تُزعَج منه .

ومن البخلاء "مُزَبِّد" وله حكايةٌ نذكرها ، قيل : كان بالمدينة جارية جميلة مُغَنِّيةٌ ، يقال لها : "بَصْبَص" وكانت الأشراف تجتمع عند مولاها ، فاجتمع يوما عنده محمّد بن عيسى الجعفرىّ وعبدالله بن مُصعب الزُّبيرىّ فى جماعةٍ من الأشراف ، فتذاكروا أمر مزبد وبخله ؛ فقالت الجارية : أنا آخذ لكم منه درهما ، فقال لها مولاها : أنت حرّة إن فعلتِ إن لم أشترلك مخنقة بمائة دينار وثوب وشى بمائة دينار ، وأجعل لك مجلسا بالعقيق أنْحَرُ فيه بَدَنَةً ، فقالت : حىّ به ! وارفع [عنّى] الغَيْرَة حتّى أفعلَ ، فقال : أنت حرّة إن منعتُك منه ، ولأعاونّنه عليك إن حصّلت منه الدرهمَ ؛ فقال عبد الله بن مُصعب : أنا آتيكم به ، قال عبد الله : فصلّيتُ الغَداة فى المسجد ، فإذا أنا به قد أقبل ، فقلتُ : يا أبا إسحاق ، أما تُحبّ أن ترى

بصبص ؟ قال : بلى والله ، وآمرأته طالقٌ إن لم تكن له سنة يشتهى أن يلقاها، فقلت له : إذا صليتَ العصر ، فأتنى هاهنا، فقال : آمرأته طالق إن برح من هاهنا الى العصر قال : فانصرفتُ فى حوائجى، فلما كان العصر جئتُ فوجدتُه فأخذتُ بيده وأتيتُهم به ، فأكل القوم وشربوا حتَّى صُلِّيتِ العَتَمَةُ ، ثم تساكروا وتناوموا، فأقبلتْ بَصْبَصُ على مُزَبَّد ، فقالت له : يا أبا إسحاق ، كأنّ (١) والله فى نفسك تشتهى أن أُغَنِّيَك الساعة :

لقد حَثُّوا الجمالَ ليهـــرُبُوا مِنَّا فلم يِئلُوا

فقال لها : آمرأته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى اللوح المحفوظ، فغنته إياه ، ثم قالت له : كأنّى بك (٢) تشتهى أن أقوم من مجلسى فأجلس إلى جنبك فتُدْخِل يَدَك فى جِلْبَابى ؟ فقال : آمرأته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى الأرحام ، وما تَكْسِب الأَنْفُسُ غدًا ، قالت : فقم، فقام وجلس إلى جانبها وغنَّتْ له ، ثم قالت : أعلم أنك تشتهى أن أغنّيك :

أنا أبصرتُ باللّيل * غُلامًا حَسَنَ الدَّلِّ

كُغُصنِ البانِ قد أصبـ * ـحَ مَسْقِيًّا من الطَّلِّ

فقال لها : آمرأته طالق إن لم تكونى نبيّةً مُرسَلةً ، فغنته وقبّلها ، ثم قالت : يا أبا إسحاق، هل رأيتَ قطّ أنذل من (٣) هؤلاء ؟ يدعونك ، ويُخرجونى اليك (٩٤) ولا يشترون نُقْلا ولا رَيْحانا، كأنّى بك وفى جيبك درهم وأنت تقول : الساعة أخرجه

(١) كذا فى الأغانى : ج ١٣ ص ١١٧ . وفى الأصول : « كأنى » .

(٢) رواية الأغانى : « كأن فى نفسك تشتهى أن تقوم من مجلسك فتجلس الى جانبى » .

(٣) كذا فى الأغانى : وفى الأصول : « يدعوننى ويدعونك ... الخ » .

واعطيها إيّاه، وتشترى به ما تريد، فقام من جنبها وقال : أخطأتْ[1] آستُك الحُفْرَة، وآنقطع عنك الوحى ، ووثب وجلس ناحيـة ، فآنتبه القوم وعَطْعَطُوا[2] عليها وعلموا أنّ حيلتَها لم تَتِمّ ، وخرج من عندهم ولم يَعُد إليهم .

وقال بعضهم : بتُّ عند رجل من اهل الكوفة من الموسرين وله صِبْيان نِيام، فرأيته فى الليل يقوم فيقلّبهم من جنب الى جنب ، فلما أصبحنا سألته عن ذلك، فقال : هؤلاء الصبيان يأكلون وينامون على اليسار، فيُمرِئهم الطعامُ ، ويُصبحون جياعا، فأنا أقلبهم من اليسار الى اليمين لئلا يَنْهضِمَ ما أكلوه سريعا .

وكان زياد بن عبد الله[3] الحارثى واليا على المدينة، وكان فيه بُخْلٌ وجفاء ، فأهدى اليه كاتب له سِلَالًا فيها أطعمةٌ، وقد تَنَوَّق[4] فيها، فوافته وقد تغدّى فقال : ما هـذه ؟ قالوا : غداء بعثه فلان الكاتب، فغضب وقال : يبعث أحدهم الشيءَ فى غير وقته، ياخَيْثَم بن مالك — يريد كاتبَ شُرْطته — ادع لى أهل الصُّفَّة يأكلون هـذا، فبعث خيثمٌ الحرسَ يدعونهم ، فقال الرسـول الذى جاء بالسِّلَال : أصلح الله الأمير، لو أمرتَ بهذه السلال تُفتَح ويُنْظَر مافيها، قال : آكشفوها، فإذا طعام حسن من دَجَاجٍ وفراخ وجِدَاءٍ وسمك وأَخْبِصَة وحَلْوَاء، فقال : آرفعوا هذه السِّلَال ؛ وجاءَ أهلُ الصُّـفَّة فأُخبِر بهم ، فأمر بإحضارهم وقال : يا خَيْثَم ! آضْرِبهم عشرة أسواط، فإنه بلغنى أنهم يفسون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) هذا مثل يضرب لمن أراد شيئا فلم ينله .

(٢) العطعطة : حكاية أصوات العجمان اذا قالوا : عيط عيط .

(٣) وردت هـذه الحكاية فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٣٢٤) والأغانى (ج ١٧ ص ١٠٢) باختلاف فى العبارة مع اتفاق فى المعنى .

(٤) تنوق : فى الأمر تجوّد وبالغ فيه كتأنق .

ومن الخلفاء من يُنْسب الى البخل، فمنهم عبد الملك بن مروان كان يلقب برَشْح الحَجَر، ولبن الطير، لبخله .

ومنهم هشام آبنه، وكان ينظر فى بيع الهدايا التى تُهْدَى اليه . حُكِىَ عنه أن أعرابيًّا أكل عنده فرفع اللُّقمةَ الى فيه، فقال له هشام: فى لقمتك شَعْرة ياأعرابىّ؛ فقال : وإنك تلاحظنى ملاحظة من يَرَى الشَّعْرَة ، والله لا أكلتُ عندك أبدا ، ثم قام وآنصرف .

ومنهم أبو جعفر المنصور كان يلقّب بأبى الدوانيق، لُقِّب بذلك لأنه لما بنى مدينةَ بغداد كان يباشرها بنفسه ويحاسب الصُّناع ، فيقول لهذا : أنت نمتَ القائلة، ولهذا: لم تُبَكِّر، ولهذا : آنصرفتَ قبل أن تُكَمِّل اليوم، فَيُسقِط لهذا دانقا، ولهذا دانقين، فلا يكاد يعطى لأحد أُجْرَةً كاملة؛ وكان يقول : يزعُمون أنّى بخيل، وما أنا ببخيل، ولكن رأيتُ الناس عبيدَ المال، فمنعتُهم عنه ، ليكونوا عبيدا لى . ويُحْكى عنه أنه قال لطباخه : لكم ثلاثة وعليكم آثنتان، لكم : الرءوس والأكارع والجلود، وعليكم؛ الحبوب والتوابل . ومن حكاياته الدالة على بخله : أن صاحبه الربيع بن يونس قال له يوما : يا أمير المؤمنين، إن الشعراء ببابك وهم كثير، وقد طالت أيامهم ونَفِدت نفقاتهم، فقال : اخرج إليهم وسلم عليهم، وقل : لهم مَنْ مدحنا منكم فلا يصِف الأسدَ فإنما هو كلب من الكلاب، ولا الحَيَّة فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب ، ولا الجَبلَ فإنه حجر أصَمُّ، ولا البحرَ فإنه عَطِن بضّ لحب، فمن ليس فى شعره شىء من هذا فليدْخُل ، ومن كان فى شعره شىءٌ منه فَلْينصَرِف، فأبلغهم فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هَرْمَة فإنه قال: أنا له يا ربيع، فأدخلنى عليه فأدخله ، فلما مثل بين يديه، قال له : يا ربيع قد علمت أنه لا يجيبك غيره، فأنشده قصيدته التى منها :

له لَحَظَات (١) فى حِفَافَىْ سريره * إذا كرَّها فيها عقاب ونائلُ
فَأُمُّ الذى أمَّنتَ آمِنة الردى * وأُمُّ الذى خوَّفتَ (٢) بالثُّكل ثاكلُ

فرفع له السِّتر وأقبل عليه وأصغى إليه ؛ فلما فرغ من إنشاده أمر له بعشرة آلاف درهم ، وقال له : يا إبراهيم ، لا تُتلفها طمعا فى نَيْل مثلها منّا ، فما كلّ وقت تصل إلينا ؛ فقال إبراهيم : ألقاك بها يا أمير المؤمنين يوم القيامة وعليها الجِهْبِذ (٣) .

ودخل المؤمّل بن أميل على المهدىّ وكان بالرِّىّ ، وهو إذ ذاك ولىّ عهد أبيه المنصور ، فامتدحه بأبيات يقول فيها :

هو المهدىُّ إلا أن فيه * مَشابَه صورة القمر المنير
تَشابه ذا وذا فهُما إذا ما * أنارا يُشْكِلانِ على البصير
فهذا فى الضياء سِراجُ عدل * وهذا فى الظلام سراج نُور
ولكن فضَّل الرحمنُ هذا * على ذا بالمنابر والسَّرير
وبعضُ (٤) الشهرِ يَخْفَى ذا وهذا * منير عند نقصان الشهور

وجاء منها :

فإن سبق الكبيرُ فأهلُ سَبْقٍ * له فضلُ الكبير على الصغير
وإن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ * فقد خُلِق الصغير من الكبير

(٩٥)

فأعطاه عشرين ألف درهم . فكتب بذلك صاحب البريد الى المنصور وهو ببغداد ، فكتب الى المهدى يلومه ويقول له : إنما كان ينبغى أن تعطِىَ الشاعر إذا

(١) فى ذيل الأمالى ص ٤٠ طبع دار الكتب المصرية : « عن » .
(٢) رواية ذيل الأمالى : « حاولت » .
(٣) الجهبذ : كاتب رسم استخراج المال وقبضه .
(٤) فى الأغانى (ج ١٩ ص ١٤٨) :
وبعض الشهر ينقص ذا وهذا * منير ... الخ » وإن كان قد ورد فيه محرّفا

أقام ببابك سـنة أربعة آلاف درهم ؛ وأمره أن يوجهه إليه ؛ فطُلِب فلم يُوجد ، وتوجه الى بغداد فكتب الى المنصور بذلك ، فأمر بارصاده فحُبِس ، وقيل له : أنت بُغْيَة أميرالمؤمنين وطِلْبته ؛ قال المؤمل : فكاد قلبي يخلِع خوفا وفَرَقا ؛ ثم أُخذ بيدى وانْطُلق بى الى الربيع ، فأدخلنى على المنصور ، وقال : ياأمير المؤمنين ، هذا المؤمل ابن أميل قد ظُفِر به ؛ فسلمت عليه فردّ علىّ السلام ، فسكن جأشى واطمأن قلبى وزال رَوْعى ؛ ثم قال لى : أتيتَ غلاما غِرًّا فخدعتَه فانخدع ؛ فقلت : ياأمير المؤمنين ، إنما أتيت ملِكا جوادا كريما ، فمدحتُه فحملتْه أريحيَّتُه على أن وصلنى و برّنى ؛ فأعجبه ذلك ، ثم قال : أنشدْنِى ما قلت فيه ، فأنشدتُه ، فقال : والله لقد أحسنت ، لكن مايساوى عشرين ألفا ، ياربيع خُذِ المالَ منه ، وأَعْطِه منـه أربعة آلاف درهم . فلمـا ولى المهدى الخلافة ، قدم عليه المؤمّل فأخبره بما كان بينه و بين أبيه ، فضحك وردّ عليه ما أخذ منه .

وحكى ابن حمدون فى كتابه المترجَم بالتذكرة : أن المنصور حجَّ فى بعض السنين فحدا به سالم الحادى يوما بقول الشاعر :

أبلجُ بين حاجبيه نُورُهُ * إذا تغدَّى رُفعت ستورُهُ

يَزِينُـــه حَيَـاؤُه وخِيرُهُ * ومِسْكُه يَشُوبُه كافورُهُ

فطرِب المنصـور حتى ضرب برجله المَحْمِل ، ثم قال : يا ربيع ، أعطـه نصف درهم ؛ فقال سالم : لا غير يا أمير المؤمنين ! والله لقد حدوتُ بهشام بن عبد الملك فأمر لى بثلاثين ألف درهم ؛ فقال المنصور : ما كان له أن يعطِيَك من بيت المـال ما ذكرت ، ياربيع وَكِّلْ به من يستخرج منه هذا المـالَ ؛ قال الربيع : فما زلت أُسْفِر (١) بينهما حتى شرَط عليه أن يحدوَ به فى خروجه ورجوعه بغير مؤونةٍ . وكان سالم

(١) أسفر : أتوسط بينهما فى الصلح .

هـذا يُورِد الإبل لثمان ولِتسع ولعشر، فيحدو لها فَيُلْهِيها حدوه عن ورود الماء . ومن طريف ما حُكِي عنه : أن عبيد الله بن زياد الحارثى، كتب إليه رقعة بليغة يستميحه فيها، فوقّع عليها : إن الغِنى والبلاغة اذا آجتمعا لرجل أبطراه ، وإن أمير المؤمنين مشفِق عليك، فاكتفِ بالبلاغة .

وقد ذمّ الشعراء البخل وهَجَوْا من آتصف به . فمن ذلك، وهو أبلغ ما قاله مُحْدَث، قول ابن الرومى :

[ما كنتُ(١) أحسب ان الخبز فاكهة * حتى نزلت على أوفى بن منصور]
الحابس التوث فى أعفاج بَغْلَتِه(٢) * خوفا على الحَبِّ من لَقْطِ العصافِيرِ

وقال العسكرىّ : أبلغ ما قيل فى البخل قول آبن الرومىّ :

يُقتِّرُ عيسى على نفسه * وليس بباقٍ ولا خالدِ
فلو يستطيع لتقتيره * تنفّس من منْخَرٍ واحِدِ
[عذرناه(٣) أيام إسدامه * فما عذر ذى بَخَل واجد]
رضيت لتشتيت أموالِهِ * يَدَىْ وارثٍ ليس بالحامِدِ

وقال أبو تمام :

صدِّقْ أليَّتَه إن قال مجتهدًا * لا وَالرَّغيف فذاك البرّ من قَسَمِهْ
وإن هممتَ به فافتُكْ بخُبْزَتِه * فإن موقعَها من لحمه ودمه
قد كان يُعجِبُنى لو أنّ(٤) غَيْرَتَه * على جَرَادِقِهِ كانت على حُرَمِهْ

---

(١) الزيادة عن المحاسن والأضداد للجاحظ طبع ليدن ص ٩٦ ، وقد نسب البيتين لآخر لم يسمه ولم يوجد هذان البيتان فى ديوان ابن الرومى .

(٢) العفج : ما ينقل اليه الطعام بعد المعدة .

(٣) الزيادة عن ديوان ابن الرومى المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩ أدب .

(٤) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصل : « لو كان » .

وقال دِعبِل :

اِسـتَبقِ وُدَّ أبى المُقَـا * تل حين تأكُلُ من طَعَامِهْ
سيَّان كَسْرُ رغيفِـهِ * أو كسرُ عَظْمٍ من عِظامِهْ
وتراه من خوف الـتزيـ * ـل به يُروَّع فى منامـهْ

وقال أبو هلال العسكرىّ :

خُبْزُ الأمِـيرِ عَشِـيقُهُ * يَغْـدُو عليه يُلاعِبُـهُ
واذَا بَدَا لجليسِـهِ * أفضى اليـه يُعاتِبُـهْ
وتحوطـه حرّاسُـهُ * وتَذُبُّ عنـه كَتَائِبُهْ
فالزَّوْرُ يُصْـفَعُ عنـده * والضيفُ يُنْتَفُ شارِبُهْ

وقال آخر :

فتى لرغيفـه قُرطٌ وشَـنْفٌ * وإكليلان من دُرٍّ وشَـذْرِ
إذا كُسر الرغيفُ بكى عليـه * بُكَا الخنساء اذْ جُفِعَتْ بِصَخْرِ
ودون رغيفه قَلْعُ الثنايا * وحَرْبٌ مثل وَقْعَةِ يوم بَدْرِ

وقال آخر :

إن هـذا الفتى يصـون رغيفا * ما اليـه لآكلٍ من سَبيلِ
هو فى سُفْرتين من أَدَم الطـا * ئف فى سَـلَّتَين فى زَنْبِيـلِ
خُتِمتْ كلُّ سَـلَّةٍ بِرَصَـاصٍ * وسُـيُورٍ قُدِدْنَ من جلْدِ فِيـلِ
فى جِرَابٍ فى جوف تابوتِ موسى * والمفاتيـح عنـد ميكائيـلِ

وقال العسكرىّ :

قلَّ خـيرُ ابن قاسم * فغنـاه كَعُدْمِهِ
كادَ من خشْيةِ القِرَى * يختبى فى حِرِ أمِّـه

جاز فى اللؤم حدّه * كأبيه وعمه
كاد يُعديك لؤمُهُ * لو تسمّيتَ باسمه

وقال أيضا :

لك بُرْمَةٌ نزّهتَها * من أن تُدَنَّس بالدَّسَمْ
بيضاءُ يُشْرِق نُورها * كالبَدْر فى غَسَقِ الظُّلَمْ
لو كان عِرْضُك مثلَها * كنتَ المُمَدَّح فى الأُمَمْ
أو كان فعلُك مثلَ قو * لك كنتَ تاريخَ الكَرَمْ

وقال أيضا :

ضفتُ عمرا فجاءنى برغيف * زادنى أكلُه على الجوع جوعَا
ثم وَلّى يقول وهو كئيب * لَهْفَ نَفْسِى على رَغيفٍ أُضيعَا
كان خدّاعةَ الضيوف ولكن * ربما أصبح الخَدُوع خَدِيعَا
كنتُ أنزلتُه محلًّا رفيعًا * فغدا ذلك الرفيع وَضيعَا
عَجَبًا منه إذ أُبيح حِماه * كيف لم يمتنع وكان مَنيعَا

وقال آخر :

أرى ضَيفك فى الدار * وكَرْبُ الموت[1] يَغْشَاهُ (٩٦)
على خُبْزِكَ مَكْتُوب * « سَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ »

وقال بَشّار :

وضيفُ عمرٍو وعمرو يَسْهَران معًا * عمرٌو لبطْنَتِه والضيفُ للجوعِ

وقال آخر :

نوالُك دونَهُ خَرط القَتَادِ * وخبزُك كالثُّرَيّا فى البِعَادِ

(١) فى المحاسن والأضداد : « الجوع » .

ولو أبصرتَ ضـيفا فى منـام * لحـــزمتَ المنـامَ الى التَّنـادِ
أرى عُمْرَ الرغيفِ يطـول جِدًّا * لديك كأنَّه من قـومِ عَادِ
وما أهجوك أنك كُفْءُ شِعْرِى * ولكنِّى هجوتُك للكَسَاد

وقال العسكرىّ :

قد كان للمـال رَبًّا * فصـار بالبخل عَبْـدَهْ
وصَحَّفَ الضَّيفَ ضَيفًا * فـــراح يَلْطِم خَـــدَّهْ

وقال أبو نُوَاس فى إسماعيل بن نُوبَخت، بعد ان نصب اسماعيل فى صحن داره طارمة[1]، واصطبح فيهـا أربعين يوما ومعه جماعة، منهم أبو نُوَاس، فبلغت نفقته أربعين ألف درهم، ثم قال بعد ذلك :

خبزُ إسماعيل كالوشـ * ـىِ اذا ما شُـقَّ يُرْفا
عجبا من أثر الصنـ * ـعة فيـه كيف يخْفَى
إنَّ رَفَّاءك هـــذا * ألطفُ الأمّة كَفَّـا
فإذا أَلْصَـق بالنصـ * ـف من الجَرْدَق نِصْفا
ألطف[2] الصنعةَ حتَّى * ما ترى مَطْعَنَ إشْفَى
مثل ما جاء من التَّنُّـ * ـور ما غادر حَـــرْفَا
وله فى المـاء أيضـا * عمـــلٌ أبدع ظَرْفَا
مزجه العَذْبَ بماء الـ * ـبِئْر كى يزدادَ ضعْفَا
فهو لا يشرب منه * مثل ما يسقيك صِرْفَا

(١) الطارمة : بيت من خشب كالقبة، معرب .

(٢) رواية العقد الفريد :

أحكم ... ... * ما يرى مغـــرز إشفى

والإشفى : مخصف الإسكاف .

وقال فيه :

على خبز إسماعيل واقيةُ البُخْلِ * فقد حلَّ فى دار الأمان من الأكلِ
وما خبزه إلا كعنقاء مُغْرِب * تُصَوَّر فى بُسُط المُلوك وفى المُثُلِ
يحدَّث عنها الناسُ من غير رؤية * سوى صورة ما إن تُمِرُّ ولا تُحْلِى
وما خبزه إلا كآوَى يُرَى ابْنُهُ * ولم يُرَ آوَى فى الحُزُون وفى السَّهْلِ
وما خبزه إلا كليبُ[1] بنُ وائلٍ * ليالى يَحْمى عِزَّةً مَنْبِتَ البَقْلِ
وإذْ هو لا يَسْتَبُّ خَصْمان عنده * ولا الصوتُ مرفُوعٌ بِجِدٍّ ولا هَزْلِ
فإنْ خبزُ إسماعيلَ حلَّ به الذى * أصاب كليبا لم يكن ذاك عن ذُلِّ
ولكن قضاءٌ ليس يُسْطاعُ ردُّه * بحيلة ذى مَكْرٍ ولا دَهْىِ ذى عقلِ

وقال ابن الرومىّ :

بخيـــل يُصَوِّم أضـــيافَه * ويبخَلُ عنهـم بأجر الصيامِ
يَدُسُّ الغـــلامَ فيولِيهـــمُ * هو انا[2] فيُشْتَمُ مولى الغـلامِ
فهم مُفْطِرون وهم صائمون * وما يُطْعَمون وهم فى أثامِ
فيحتال بخـلًا لأنْ يُفْطِروا * على رَفَثِ القول دون الطَّعامِ

---

(١) كليب بن وائل يضرب به المثل فى العزة فيقال « أعز من كليب بن وائل » وبلغ من عزه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا ترعى ، واذا جلس لا يمز أحد بين يديه إجلالا له ، ولا يحتبى أحد فى مجلسه غيره ، ولا تورد إبل أحد مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، ولم يكن يكرى ولا تغلى بجير رجلا أو بعيرا أو يحمى أحدا الا بأمره ، وكان هو يجير على الدهر فلا تخفر ذمته . وجامه كل هـذا السلطان بعد أن قاد القبائل النزارية لمحاربة القبائل اليمنية فى عدّة مواقع كان النصر فيها آخر الأمر حليفه ، فاجتمعت عليه معدّ كلها بالانقياد والطاعة .

(٢) فى ديوان ابن الرومى : « جفاء » .

وقال أحمد بن كُشَاجِم :

صديقٌ لنا من أبرَعِ الناس فى البخلِ * وأفضلِهم فيـه وليس بذى فَضْلِ
دعانِى كما يدعو الصـديقُ صديقَه * فجئت كما يأتى إلى مثـله مِثْلِى
فلمـا جلسـنا للطعام رأيتُـه * يرى أنه من بعض أعضائه أَكْلى
ويغتاظ أحيانا ويَشْتُمُ عبـده * وأَعْلَمُ أن الغيظ والشتمَ من أجلى
فأقبلت أستلّ الغـداء مخافةً * وألحاظ عينيـه رقيبٌ على فِعْلى
أمـدّ يدى سِرًّا لأَسْرِقَ لُقْـمةً * فيلحظنى شَزْرًا فأعْبَثُ بالبَقْـلِ
إلى أن جنتْ كَفِّى لحتفى جِنَايةً * وذلك أن الجـوعَ أعْدَمنى عَقْلِى
فجـرّت يدى للحَيْنِ رِجْلَ دَجَاجَةٍ * فجَرَّتْ كما جَرَّت يدى رجلها رِجْلِى
وقدّمَ من بعد الطعامِ حَلَاوةً * فلم أستطِع فيهـا أُمِرُّ ولَا أَحْلِى
وقمتُ لو آنّى كنتُ بَيَّتُّ نِيَّـةً * رَبِحْتُ ثوابَ الصومِ مَعْ عدمِ الأكل

وقال آخر :

تراهم خشيةَ الأضيافِ خُرْسًا * يُقيمون الصلاةَ بلا أذانِ

* * *

احتجاج البخلاء وتحسينهم للبخل على قبحه

قالت الحكماء : لتكن عنايتُك بحفظ ما اكتسبتَه كعنايتك باكتسابه .

وقال أبو الأسود الدؤلىّ لبنيه : لاتُجاودوا الله فإنه أكرم وأجود ، ولو شاء أن يُغْنِىَ الناس كلَّهم لفعل ، ولكنه علِم أن قوما لايُصلحهم ولا يصلُح لهم إلا الفقر ، وقوما لايُصلحهم ولا يصلُح لهم إلا الغنى .

وقال رجل من تَغْلِب : أتيت رجلا من كِنْدة أسأله ، فقال : يا أخا بنى تغلب ، إنّى لن أصلك حتّى أحرمَ من هو أقرب إلىّ منك ، [وإنى[1] والله لو مكّنتُ من دارى لنقضوها طوبة طوبة] ، وإنه لم يبقَ من مالى وعِرْضى وأهلى إلا ما منعتُه من الناس .

وقيل : إن لقمانَ الحكيمَ قال لابنه : يابُنَىّ ، أُوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسكتَ بهما : دِرْهَمكَ لمعاشك ، ودِينك لمعَادِك .

وقال أبو الأسود : إمساكُك[2] ما تبذُل ، خير من طلبك ما يبذُل غيرُك ؛ وأنشد :

يلومونى فى البخل جَهْلًا وضلّةً * وللبُخْلُ خيرٌ من سؤال بخيل

ونظيره قول المتلمِّس :

وحَبْسُ المال أيْسَرُ من بُغَاءٍ[3] * وضَرْب فى البلاد بغير زاد

وإصْلَاحُ القليل يَزيدُ فيه * ولا يَبْقَى الكثيرُ مع الفسادِ

وقال الجاحظ[4] : قلت للحزامىّ : يابخيل ! قال : لا أعدمنى الله هذا الاسم ، لأنه لا يقال لى بخيل إلا وأنا ذومال ، فَسَلِّمْ لى المال وسَمِّنى بأىّ اسم شئت ؛ قلت : ولا يقال لك سخىّ ، إلا وأنت ذومال ، فقد جمع الله لهذا الاسم المال والحمد ، وجمع لذاك المال والذّمّ ؛ فقال : بينهما فرق عجيب ، وبَون بعيد ، إن فى قولهم : بخيل سببا لمكث المال فى ملكى ، وفى قولهم سخىّ سببا لخروجه عن ملكى ، واسم

(١) زيادة عن العقد الفريد ج ٣ ص ٣٣٣

(٢) رواية العقد الفريد : امساكك ما بيدك خير من طلبك ما بيد غيرك .

(٣) فى الأصل : «بناء» والبغاء (بالضم والمد) : السعى والطلب .

(٤) ورد هذا الخبر فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٣٣٣) والبخلاء للجاحظ ص ٦٥ طبع ليدن بتبسط عما هنا .

البخل فيه حزم وذَم، واسم السخاء فيه تضييع وحمد؛ وما أقلّ غناء الحمد عنه إذا جاع بطنه، وعَرِىَ ظهره، وضاع عيالُه، وشَمِت به عدوّه ! .

(٧) وقال محمد بن الجَهْم : مِن شأن مَن استغنى عنك ألّا يقيم عليك، ومِن احتاج إليك ألّا يزول من عندك . ومن حُبِّك لصديقك وضَنِّك بمودّته ألّا تبذُلَ له ما يُغنيه عنك، وأن تتلطف له فيما يُحوِجه إليك . وقد قيل فى مثل هذا : « أَجِعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْك، وسَمِّنْه يَأْكُلْك» . فمن أَغْنَى صديقه فقد أعانه على الغَدْر، وقطع أسباب الشكر . والمُعين على الغدر شريك للغادر، كما أن المزيِّن للفُجُور شريكٌ للفاجر .

وقال أبو حنيفة : لا خير فيمَنْ لا يصون ماله ليصونَ به عِرْضَه، ويَصِلَ به رحمه، ويستغنِىَ به عن لئام الناس . قال عبد الله بن المعتزّ :

أَعَاذِل ليس البخل منّى سَجِيَّةً * ولكن وجدتُ الفقرَ شرَّ سبيلِ
لَموت الفتى خيرٌ من البخل للفتى * وللبخلُ خيرٌ من سؤال بخيـل

وكان داود بن علىّ يقول : لأن يترك الرجلُ مالَه لأعدائه خيرٌ من الحاجة فى حياته لأوليائه . قال الشاعر :

مَالٌ يُخَلِّفُهُ الفـتَى * للشامتين من العِـدَا
خيرٌ له من قصـده * إخوانَهُ مسـتَرْفِدَا

وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِىّ : لأن أُخلِّف عشرة آلاف درهم أُحاسَبُ عليها أحبُّ إلىّ من أن أحتاج إلى الناس . وقال : كان المـال فيما مضى يُكره، وأمّا اليوم فهو يزين المؤمن . وجاءه رجل فقال له : ياأبا عبد الله، تُمسك هذه الدنانير ! فقال : آسكت، فلولاها لتَمَنْدَلَتْنَا هؤلاء الملوك؛ ولكن من كان فى يده منها شىء فليصلحه، فإنه زمانٌ مَنِ احتاج فيه كان أوّل مايبذلُ دِينَه .

وقال المنصور لمحمد بن مروان التميمى : إنك لسيِّد لولا جمودٌ فيك ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إنى لأجمُد فى الحق ، ولا أذوب فى الباطل .

وكان محمد بن الجهم يقول : من وَهَب من عمله فهو أحمق ، ومن وهب بعد العزل فهو مجنون ، ومن وهب من جوائز ملوكه أو ميراثه فهو مخذول ، ومن وهب من كَسْبِه وما آستفاده بحيلة فهو المطبوع على قلبه ، المأخوذ ببصره وسمعه .

وسأل رجل زياد بن أبيه فأعطاه درهما ، فقال : صاحبُ العراقَيْن أسأله فيعطينى درهما ! فقال له زياد : مَنْ بيده خزائن السموات والأرض ربما رزق أخصّ عباده عنده وأكرمهم لديه التمرةَ واللقمة ، وما يكبُر عندى أن أصِلَ رجلا بمائة ألف درهم ، ولا يصغُر أن أُعطى سائلا رغيفا ، أن كان ربّ العالمين فعل ذلك .

قال الشاعر :

يارُبَّ جُود جرَّ فَقْرَ آمرئ * فقام للناس مَقام الذليل
فآشْدُدْ عُرَا مالِكَ وآستَبْقِهِ * فالبخلُ خيرٌ من سؤال البخيل

وقال الشريف بن الهَبَّارِيَّة :

لأصونَنَّ دِرْهمى * فهو لا شكَّ صانِنى
لم يُعنَّى آبنُ والدى * وصحيحى أعانَنى

وقال أيضا :

لله دَرُّ دراهمى * فَهْى التى أعلتْ مكانِى
لولا الغِنَى عن صاحبى * لَأَحَلَّنِى دارَ الهوانِ

وقال آخر :

كن بما أوتيته مُغتبِطًا * تَسْتدِمْ عيشَ القَنُوعِ المُكتفِى

إنّ فى نَيْل المُنى وَشْكَ الرَّدى * وٱجتنابُ القصدِ عينُ السَّرَفِ
كَسِراجٍ دُهْنُـــه قوتٌ له * فإذا غَرَّقْتَـــه فيـــه طَفِى

ومن ذلك رسالة[1] كتبها سهل بن هارون، وقد عيب عليه أمور من البخل، فٱعتذر عنها وٱحتجّ فقال :

أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلّمكم الخيرَ، وجعلكم من أهله . قال الأحنفُ ابن قَيْس : يا بنى تميم ، لا تُسرِعوا إلى الفتنة ، فإن أسرع النـاس إلى القتال أقلُّهم حَياء من الفِرار . وكانوا يقولون : اذا أردتَ أن ترى العيوب جَمّةً فتأمّل عيّابا ، فإنه يعيب الناس بفضل مافيه من العَيْب . ومن أعيب العيب أن تعيب ماليس بعيب . وقبيح أن تَنْهى مرشدا أو تُغْرِى بمُشْفِقٍ . وما أريد بما قلت الا هـدايتَكم وتقويمَكم وإصلاحَ فسادكم ، وإبقاءَ النعمة عليكم . ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم الا بمـا اخترناه لأنفسنا قبلكم ، وشُهِرْنا به فى الآفاق دونكم ؛ ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ . فما كان أحقّكم فى كريم حرمتنا بكم أن ترعَوْا حقّ قصدنا بذلك اليكم على مارعيناه من واجب حقّكم ؛ فلا العذرَ المبسوطَ بلغتُم ، ولا بواجب الحرمة قمتم . ولو كان ذكر العيوب برًّا وفخرا لرأينا فى أنفسنا عن ذلك شـــغلا .

عبتُمونى بقولى لخادمى : أجيدى العجين فيكون أطيب لطعمه ، وأزيدَ فى ربعه ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : "أملكوا[2] العجين فانه أحد الرَّيعين" .

(١) وردت هذه الرسالة فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٣٣٥) والبخلاء للجاحظ (ص ١٠ طبع ليدن) وفى روايتهما بعض آختلافات يسيرة عن رواية الأصل .

(٢) أملكوا : أجيدوا عجنه حتى يأخذ بعضه بعضا .

وعبتموني حين ختمت على سَلٍّ[1] عظيم، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رطبة غريبة، على عبدٍ نهِم، وصبيّ جشِع، وأَمَة لَكْعاء، وزوجة مُضيعة؛ وليس بين أهل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة، ولا في تدبير السادة، أن يستوِي في نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب، التابع والمتبوع، والسيِّد والمسود؛ كما لا تستوي مواضعهم في المجالس، ومواقع أسمائهم في العنوانات. ومن شاء أطعم كلبه الدَّجاجة السمينة، وعَلَف حِمارَه السِّمْسِمَ المُقشّر!

(٩٨)

وعبتموني بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مُدٍّ سَوِيق، وختم على كيس فارغ، وقال: طِينة خير من ظِنّة، فأمسكتم عمن ختم على لا شيء، وعبتم على من ختم على شيء!.

وعبتموني أن قلت للغلام: اذا زدت في المَرَق فزد في الإنضاج، ليجتمع مع التأدم باللحم طِيبُ المَرَق، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "اذا طَبَخ أحدكم لحما فليزد من الماء فمن لم يُصب لحما أصاب مَرَقا".

وعبتموني بخَصْف النعل، وبتصدير[2] القميص، وحين زعمتُ أن المخصوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالنُّسُك، وأن الترقيع من الحزم، والتفريط من التضييع، والاجتماعَ مع الحفظ، وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يَخْصِفُ نعلَه، ويَرْقَعُ ثوبه، ويَلْطَع أصابعه، ويقول: "لو أُهدِيَ الىّ كُرَاع لقَبلت ولو دُعِيتُ[3] الى ذراع لأجبت". وقال صلى الله عليه وسلم: "من لم يَسْتَحِ من الحلال خَفّت مَؤونته وقلّ

(١) السل: الجونة وهي سليلة مغشاة بالأدم وتكون عند العطارين.

(٢) تصدير القميص: أن يجعل لصدره بطانة.

(٣) رواية الجامع الصغير: "لو أهدى الىّ كراع لقبلت ولو دعيت عليه لأجبت".

كِبْرُهُ" . وقالت الحكماء : لا جديد لمن لم يَلْبَس الخَلَق . وبعث زياد رجلا يرتاد له مُحَدِّثا ، واشترط عليه أن يكون عاقلا ، فأتاه به موافقا ، فقال له : أكنتَ به ذا معرفة ؟ قال : لا ، ولكنّى رأيته فى يوم قائظ ، يلبَس خَلَقا ، ويلبس الناسُ جديدا ، فتفرّست فيه العقل والأدب ، وقد علمت أن الخَلَق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه ، وقد جعل الله لكل شىء قَدْرًا ، وسمّى له موضعا ، كما جعل لكل زمان حالا ، ولكل مقام مقالا . وقد أحيا الله بالسّم ، وأمات بالغِذَاء ، وأغصّ بالماء ، وقتل بالدواء . وقد زعموا أنّ الاصلاح أحد الكاسِبَين ، كما زعموا أن قلّة العيال أحد اليسارين . وقد جَبَرَ الأحنف بن قيس يد عنز ، وأمر مالك بن أنس بفرك البَعر . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة ؛ ولبِس سالم بن عبد الله جلد أُضحية . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أُهدىَ لك دجاجة ، قال : إن كان لا بدّ ، فاجعلها بَيُوضا .

وعبتمونى حين قلت : من لم يعرف مواضع السَّرَف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد فى الممتنع الغالى . وقد أتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية ، وأشفّ[1] من الكفاية ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء ، والى التوفير عليها من وظيفة الماء ، وجدت فى الأعضاء فضلا عن الماء ، فعلمت أن لو كنت سلكتُ[2] الاقتصاد فى أوائله لخرج آخره على كفاية أوّله ، ولكان نصيب الأوّل كنصيب الآخر ؛ فعبتمونى بذلك وشنعتموه علىّ ؛ وقد قال الحسن — وذكر السرف — : أما إنه ليكون فى الماء والكلأ ؛ فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه بالكلإ .

---

(١) أشف : أقل .

(٢) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصل والبخلاء : « مكنت » .

وعبتمُونى أن قلت : لا يغترّنّ أحد بطول عمره ، وتقويس ظهره ، ورقة عظمه ، ووهن قوّته ، وأن يرى دخله أكثر من رزقه ، فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده ، وتحويله الى ملك غيره ، أو تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ؛ فلعلّه أن يكون معمَّرا وهو لا يدرى ، وممدودا له فى السن وهو لا يشعُر ؛ ولعلّه أن يُرْزَق الولَدَ على اليأس ، وتُحدِث عليه آفات الكِبَر ما لا يخطر على باله ولا يدركه عقله ، فيسترذله ممن لا يردّه ، ويظهر الشكوى الى من لا يرحمه ، أضعف ما كان عن الطلب ، وأقبح ما كان له أن يطلب ، فعبتمُونى بذلك ؛ وقال عمرو بن العاص : « اِعْمَلْ لدنياك عمل من يعيش أبدا ، واعْمَل لآخرتك عَمَلَ من يموت غدا » .

وعبتمُونى بأن قلت : إن التلف والتبذير الى مال المواريث ، وأموال الملوك [أسرعُ](١) . وإن الحفظ الى المال المكتسب ، والغنى المجتلب ، والى ما يُعرض فيه لذهاب الدِّين(٢) ، واهتضام العرض ، ونَصَب البدن ، واهتمام القلب ، أسرعُ . ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله ؛ ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع المال . ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أذِن بالفقر ، وطاب نفسا بالذلّ .

وعبتمُونى بأن زعمت أن كسب الحلال ، مُضَمَّنٌ(٣) بالإنفاق فى الحلال ، وأن الخبيث ينْزِع الى الخبيث ، وأن الطيِّب يَدعو الى الطيِّب ، وأن الإنفاق فى الهوى حجاب دون الحقوق ، وأن الإنفاق فى الحقوق حجاب دون الهوى ؛ فعِبْتُم علىّ هذا

(١) التكملة عن البخلاء للجاحظ ، وأصل الجملة فيه : « وعبتمونى حين زعمت أن التبذير الى مال القمار ومال الميراث والى مال الالتقاط وحباء الملوك ، أسرع » .

(٢) كذا فى كتاب البخلاء . وفى الأصل : « بذهاب » .

(٣) فى العقد الفريد : « يضمن الإنفاق » .

القول، وقد قال معاوية بن أبى سفيان : لم أر تبذيرا قطّ إلا والى جنبه حقٌّ مُضَيَّع؛ وقال الحسن : اذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فى أىّ شىء ينفقه ، فإن الخبيث انما يُنْفَق فى السرف. وقلت لكم بالشفقة عليكم ، وحسن النظر منّى اليكم ، وأنتم فى دار الآفات، والجوائحُ غير مأمونات ، فإن أحاطت بمال أحدكم آفةٌ لم يرجع الى بقيّة[1]، فاحذروا التّقم باختلاف الأمكنة ، فإن البلية لا تجرى فى الجميع ؛ وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى العبد ، والأمة، والشاة، والبعير : فرّقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين . وقال ابن سيرين [لبعض البحريين][2] : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نفرّقها فى السفن، فإن عَطِب بعضٌ سَلم بعض؛ ولولا أن السلامة أكثر، ما حملنا أموالنا فى البحر؛ فقال ابن سيرين : «تَحْسَبُها خَرْقاء وهى صَنَاعٌ» .

وعتبتُمونى بأن قلت لكم عند إشفاقى عليكم : إن للغنى لُسْكًا، وللمال نَزْوةً، فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله ، فعتبتُمونى بذلك ؛ وقد قال زيد بن جَبَلَة : ليس أحدٌ أقصر عقلا من غَنِىٍّ أمِنَ الفقرَ. وسكرُ الغنى أشدُّ من سكر الخمر . وقد قال الشاعر فى يحيى بن خالد ابن برمك :

وَهُوبٌ تِلادَ المال فيما ينوبُهُ * مَنُوعٌ اذا ما مَنْعُهُ كان أَحْزَمَا

وعتبتُمونى حين زعمتم أنّى أقدّم المالَ على العلم ، لأن المال به يُفاد العلم ، وبه تقوم النفس قبل أن يُعرَف فضلُ العلم، فهو أصل، والأصل أحقُّ بالتفضيل من الفرع، فقلتم : كيف هذا وقد قيل لبعض الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء ؟

(١) كذا فى البخلاء . وفى الأصول : « ثقة » . وفى العقد الفريد : « إلا الى نفسه » .

(٢) زيادة من كتاب البخلاء .

فقال : العلماء، قيل له : فما بالُ العلماء يأتون أبوابَ الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال، وجهل الأغنياء بحقّ العلم ؟ فقلت : حالها هى القاضية بينهما ، وكيف يستوى شىء حاجة العامة[1] اليه، وشىء يغنى فيه بعضهم عن بعض ! وكان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتّخاذ الغَنَم، والفقراء باتّخاذ الدَّجَاج . وقال أبو بكر الصدِّيقُ رضى الله عنه : إنى لأبغض أهل البيت ينفقون نفقةَ الأيام فى اليوم الواحد . وكان أبو الأسود الدُّؤَلِى يقول لولده : اذا بَسَط الله لك الرزق فابْسُط، واذا قبض فاقبِض .

وعبتُمونى حين قلت : إن فضل الغِنَى عن القوت انّما هو كفضل الآلة تكون فى البيت إن احتيج اليها اسْتُعْمِلت، و إن استُغنِىَ عنها كانت عُدَّةً، وقد قال الخُصَيْنُ ابن المنذر : وَدِدْتُ أن لى مِثْلَ أُحُد ذهبا لا أنتفع منه بشىء ؛ قيل له : فما كنتَ تصنع به ؟ قال : لكثرة مَنْ كان يخْدُمنى عليه ، لأن المال مخدوم . وقال بعض الحكماء : عليك بطلب الغنى ، فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزٌّ فى قلبك ، وذُلٌّ فى قلب عدوّك، لكان الحظّ فيه جسيما ، والنفع عظيما . واسنا ندع سيرة الأنبياء ، وتأدّب الخلفاء ، وتعليم الحكماء، لأصحاب الهوى ، فلستم علىّ تردّون ، ولا رأيى تُفَنِّدُون ؛ فقدّموا النظر قبل العَزْم، وأدْركوا ما عليكم من قبل أن تُدرِكوا ما لكم . والسلام .

* * *

ومن نوادر البخلاء : قال رجل لبعض البخلاء : لِمَ لا تدعونى الى طعامك؟ قال : لانك جَيِّدُ المَضْغ سريعُ البَلْع، اذا أكلتَ لُقْمَةً هَيَّأْتَ أخرى ؛ قال : يا أخى أتريد اذا أكلتُ عندك أن أُصَلِّىَ ركعتين بين كلّ لقمتين ! .

(١) كذا فى العقد الفريد، وفى البخلاء : «الجميع»، وفى الأصل : «العلماء» .

وقال آخرُ لبخيل : لِمَ لا تدعونى الى طعامك؟ قال : لأنك تُعلِّق، وتُشـدّق، وتُحـدّق . أى تحمـل واحدة فى يدك، وأخرى فى شِـدْقك ، وتنظر الى الأخرى بعينـــك .

وقال بعض البخلاء : أنا لا آكل إلا نصفَ الليل؛ قيل له : ولِمَ ؟ قال يَبرُدُ الماء، ويَنْقَمِع الذُّباب، وآمَنُ فجأة الداخل، وصَرْخَة السائل .

وطبخ بعض البخلاء قِدْرًا وجلس يأكل مع زوجته ، فقال : ما أطيبَ هذا الطعامَ، لولا كثرة الزِّحام! فقالت : وأىّ زحام، وما ثَمَّ الا أنا وأنتَ ؟ قال : كنت أحبُّ أن أكون أنا والقِدْر .

وقال بعض البخلاء لغلامه : هاتِ الطعامَ؛ وأَغْلِقِ الباب؛ فقال : يا مولاى، ليس هذا بحَزْم، وانّما أُغْلِقُ الباب، وأُقَدِّم الطعام؛ فقال له : أنت حُرٌّ لوجه الله.

وعزم بعضُ إخوانِ أَشْعَبَ عليه ليأكلَ عنـده؛ فقال : إنّى أخاف من ثقيل يأكل معنا فينغّص لذّتنا ، فقال : ليس عندى إلا ما تُحِبّ، فمضى معه؛ فبينما هما يأكلان اذا بالبـاب قد طُرِق؛ فقـال أشعب : ما أرانا إلا صِرْنا لمـا نكره؛ فقال صاحب المنزل : إنه صديق لى، وفيه عشْرُ خصال، إن كرهتَ منها واحدة لم آذن له؛ فقال أشعب : هاتِ ، قال : أولها، أنه لا يأكل ولا يشرب ، فقال : التسعُ لك ودَعْه يدخل، فقد أَمِنّا منه ما نخافه .

ذكر ما قيل فى التطفيل

ويتصـــل به أخبـارُ الأَكَلة والمُؤَاكَلة

والتطفيل من اللؤم، وهو التعرّض الى الطعام من غير أن يدعَى اليه. وسنذكر تلو هـذا الفصل آدابَ الأكل ، والمُؤَاكلة ، والاقتصاد فى المطاعم، والعفّة عنها،

وما يجرى هذا المَجْرَى، وان كان خارجا عنه، وانما الشيء يُذْكر بالشيء. والعرب تقول للطفيلى: الوارِش، والراشِن. قيل: هو مشتق من الطَّفَل وهو الظلمة، لأن الفقير من العرب كان يحضر الطعام الذى لم يُدْعَ اليه مستترا بالظلمة لئلا يُعرَف. وقيل: سُمِّى بذلك لإظلام أمره على الناس، لا يدرى مَنْ دعاه. وقيل: بل من الطَّفَل لهجومه على الناس كهجوم الليل على النهار، فيكون من الظلمة؛ ولذلك قيل: أطفل من «ليل على نهار». وأوّل من سمّى بهذا الاسم: طُفَيل العَرائس، واليه ينسب الطُّفَيليّون. وكان يقول لأصحابه: اذا دخل أحدُكم عُرسا فلا يلتفت تلقّت المريب، ويتخيَّر المجالس، وإن كان العُرس كثيرَ الزحام فليمض ولا ينظر فى عيون الناس، ليظنّ أهل المرأة أنه من أهل الرجل، ويظنّ أهل الرجل أنه من أهل المرأة؛ وان كان البوّاب غليظا فاحشا، فليبدأ به، ويأمره وينهاه من غير أن يُعنِّف عليه، ولكن بين النصيحة والإدلال.

(١٠٠)

وأشهر من نُسب اليه هـذا الاسم وكثرت عنه الحكايات، بُنَان الطُّفَيلىّ، وهو عبد الله بن عثمان، ويكنى أبا الحسن، ولقبه بُنَان، وأصله مَرْوَزِىّ وأقام ببغداد، وكان نقشُ خاتمه "مَالَكُمْ لَا تَأْكُلُونَ". حكى أن رجلا سأله أن يدعو له، فقال: اللهم ارزقه صحة الجسم وكثرة الأكل، ودوام الشهوة، ونقاء المَعِدَة، وأمْتعه بضِرْس طَحُون، ومَعِدة هَضُوم، مع السعة والدَّعَة، والأمن والعافيـة. وقال يُوصى بعضَ أصحابه: اذا قعدتَ على مائدة وكان موضعُك ضيِّقا فقل للذى يليك: لعلى ضيقتُ عليك فإنه يتأخر الى خلف، ويقول: موضعى واسع، فيتسع عليك موضع رجل. وقال له طفيلىٌّ: أوصنى، فقال: لا تصادِفَنَّ من الطعام شيئا فترفع يدك عنه وتقول: لعلّ أصادف ماهو أطيب منه، فإن هذا عجز ووَهْنٌ؛ قال: زدنى، قال: اذا وجدت خبزا فيه قِلّة فكُلِ الحروف، فإن كان كثيرا فكل الأوساط؛ قال: زدنى، قال:

لاتكثر شرب الماء وأنت تأكل، فإنه يصدّك عن الأكل، و يمنعك من أن تستوفى؛ قال : زدنى، قال: اذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط، وتزوّد منه زاد من لا يراه أبدا؛ قال: زدنى، قال: اذا وجدت الطعام فاجعله زادك الى الله تعالى، وقال: إذا دعاك صديق لك فاقعد يَمْنَةَ البيت، فإنّك ترى ماتُحبُّ، وتسودهم فى كلّ شىء، وتسبقهم الى كلّ خير، وأنت أوّل من يغسل يده والمِنْديل جافّ، والماء واسع، والطعام بين يديك يوضع، والنبيذ أوّل القِنّينَة ورأسها تشربه، والنُّقْل منتخب يوضع بين يديك، وتكون أوّل من يتبخّر، فإذا أردت أن تقوم لحاجة لم تحتج أن تتخطّاهم، وأنت فى كل سرور الى أن تنصرف. قال البديع الهمذانى فى طفيليّين يشبههم بُنَان :

خلفتُم بُنَانا فكم من أديبٍ * من الغَيْظِ عَضَّ عليكم بَنَانا
إذا ما النهار بدا ضوءُه * غدوتُم نِحاصا ورُحْتُم بِطانا

ومنهم : عثمان بن درّاج، قيل له : كيف كنت تصنع إذا لم يُدخلك أهل العُرس؟ قال: أنوح على الباب، فيتطيّرون فيدخلونى. وحكى أبو الفرج الأصفهانى : أن عثمان هذا كان يلزم سعيد بن عبد الكريم الخطابى أحد ولد زيد بن الخطاب، فقال له : ويحك! إنى أبخل بأدبك وعلمك، وأضنّ بك عما أنت فيه من التطفيل ولى وظيفة راتبة فى كلّ يوم، فالزمنى وكن مدعوّا، أصلح لك مما تفعل؛ فقال : يرحمك الله، فأين لذّة الجديد، وطيب التنقل كل يوم الى مكان! وأين (١) نَيْلُك ووظيفتك من احتفال العرس! وأين ألوانك من ألوان الوليمة! قال : فأمّا إذ أبيت (٢) ذاك فإذا ضاقت عليك المذاهب فأتنى؛ قال: أما هذا فنعم. قال وقال له رجل : ما هذه الصُّفرة التى فى لونك؟ قال : من الفترة التى بين القَصْعَتين، ومن خوفى

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٥ ص ٣٧ طبع بولاق). وفى الأصل : « هُوَيْناك ».
(٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل : « فاذا ثبت ».

فى كلّ يوم من نفاد الطعام قبل أن أشبع. وقيل له مرة : هل تعرف بستان فلان؟ فقال : إى والله، وإنه للجنة الحاضرة فى الدنيا؛ قيل له : فلم لا تدخل اليه فتأكلَ من ثماره، وتقيلَ تحت أشجاره، وتسبحَ فى أنهاره ؟ قال : لأن فيه كلبا لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال . وعثمان هذا الذى يقول :

لَذَّةَ التطفيل دُومى * وأقيمى لَا تَرِيمِى
أنت تَشْفِين غَلِيلِى * وتسلِّين هُمُومِى

ولهم أخبار وحكايات ، منها : ما نقل عن نصر بن علىّ الجَهْضَمى أنه قال : كان لى جار طفيلى إذا دعيت الى مدعاة ركب معى وجلس حيث أجلس، فيأكل وينصرف، وكان نظيفا عطِرا، حسن اللباس والمركب؛ وكنت لاأعرف من أمره إلا الظاهر، فاتفق لجعفر بن القاسم الهاشمى حقٌّ دعا له أشراف البصرة ووجوهها، وهو يومئذ أمير البصرة ، فقلت فى نفسى : إن تبعنى هذا الرجل الى دار الأمير لأخزينّه؛ فلما كان يوم الحضور جاءنى الرسول فركبت، وإذا به قد تبعنى حتى دخل بدخولى، وارتفع حيث أُجلست؛ فلماحضرنا الطعام، قلت: حدّثنا دُرُسْتُ ابن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من دخل الى دار قوم بغير إذْنهم[1] دخل سارقا وخرج مُغيرا ومن دُعِى فلم يُجِب فقد عصى اللهَ ورسولَه " ، فظننت أنى قد أشرفت على الرجل وقصّرت من لسانه؛ فأقبل علىّ وقال: أعيذك بالله من هذا الكلام فى دار الأمير، فإن الأشراف لايحتملون التعريض باللؤم، وقد حَظَر الدينُ التعريضَ، وعزّر عليه عمر رضى الله عنه؛ ووليمة الأمير دعاء لأهل مِصره فإنه سَلِيلُ أهل السقاية والرفادة، والمطعمين

(١) روايته فى تهذيب التهذيب فى ترجمة أبان بن طارق : « من دخل على غير دعوة دخل سارقا ... الخ » .

الأفضلين الذين هَشَمُوا الثَّرِيد، وأبرزوا الجِفَان لمن غدا إليها ؛ ثم لا تُوزع وأنت فى بيت من العلم معروف من أن تحدّث عن درست بن زياد وهو ضعيف، عن أبان ابن طارق وهو متروك الحديث، بحكم رفعه الله الى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ والمسلمون على خلافه، لأن حكم السارق القطع، والمغير يُعَزَّرُ على ما يراه الإمام، وهذان حكمان لا ينفذان على داخلٍ دارا فى مجمع فيتناول لُقَما من فضل الله الذى آتى أهلَها ثم لا يُحدِثُ حدثا حتى يخرجَ عنها ؛ وقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " طعامُ الواحد يكفى الاثنين وطعامُ الاثنين يَكْفِى الأربعة " ، حدّثنا بذلك أبو عاصم النبيل عن ابن جُرَيج عن أبى الزبير عن جابر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فأين أنت عن هذا الحديث الصحيح الإسناد والمتن ؟ قال نصر : فأصابتنى نَجْلَة شديدة ، فلما نظر الرجل الى ما بى أكل ونهض قبلى، فلما خرجت وجدتُه واقفا على دابتـه بالباب ، فلما رآنى تبعنى، ولم يكلّمْنى ولم أُكلّمْه، إلا أننى سمعته يتمثل :

وَمَنْ ظَنَّ مِمَّنْ يُلاقِى الحروب ... بألّا يُصاب فقـد ظَنَّ عَجْزَا

وقيل : مرّ طفيلٌ بسكة النَّخَع بالبصرة على قوم وعندهم وليمة، فاقتحم عليهم، وأخذ مجلسـه مع مَنْ دُعِى، فأنكره صاحب المنزل، فقال له : لو تأنَّيتَ أو وقفت حتّى يُؤذَنَ لك أو يُبعثَ إليك ! فقال : إنما اتُّخذت البيوتُ ليُدْخَلَ إليها، ووُضعت الموائدُ ليُؤكَلَ ما عليها، وما وجّهت بهديّة فأتوقع الدعوة ؛ والحِشْمَةُ قطيعةٌ، وأطّراحُها صلةٌ ؛ وقد جاء فى الأثر : «صلْ مَنْ قطعك، وأَعْطِ مَنْ حرمك » ؛ ثم أنشد :

كلَّ يوم أدُورُ فى عَرْصَةِ الدَّا ... رِ أشمُّ القُتَّارَ (١) ثمَّ الذُّبابِ

فإذا ما رأيتُ آثارَ عُرْسٍ ... أو دُخَانا أو دَعْوَةَ الأصحابِ

(١) القتار : ريح الشواء .

لم أعرِّج دون التقحُّم لا أر * هَبُ[1] شتمًا ولَكْزة البوّاب
مُستهينا بمن دخلت عليه * غيرَ مُستأذِن ولا هيَّاب
فترانى ألُفُّ بالرغم منهم * كلَّ مَا قدّموه لَفَّ العُقَاب

ووصف طفيلىّ نفسه فقال :

نحنُ قومٌ إذا دُعِينا أَجَبْنَا * ومتى نُنْسَ يَدْعُنَا التطفيلُ
ونقل[2] علّنا دُعِينَا فَغِبْنَا * وأتانا فلم يَجِدْنَا الرسولُ

وقال آخر :

نحنُ قومٌ نُحِبُّ هَدْىَ رسولِ اللهِ هَدْياً به الصوابَ أَصَبْنَا
فادْعُنا كلَّما بَسطْتَ فإنَّا * لَوْ دُعِينا إلى كُرَاعٍ أَجَبْنَا

وقال آخر :

نحنُ قومٌ إن جفا النَّا * سُ وَصَلْنَا من جفانا
لا نُبالى صاحبَ الدَّا * رِ نَسِينا أم دَعانا

وقال آخر وقد أقبل إلى طعام، من غير أن يُدْعى إليه، فقال له صاحب الصنيع : مَنْ دعاك ؟ فأنشد :

دعوتُ نفسى حين لم تَدْعُنى * فالحمدُ لى لا لكَ فى الدَّعوهْ
وكان ذَا أحسن من مَوْعِدٍ * إخلافُه يدعو إلى جفـوهْ

وقد مدح أبو رَوْح ظفر بن عبد الله الهَرَوِى طُفَيليًا ولم يُسْبَق إليه، فقال :

إنَّ الطفَيْلِىَّ له حُرْمَةٌ * زادتْ على حُرمة نَدْمَانى
لِأنه جاء ولم أَدْعُه * مبتدئًا منه بإحسانِ

(١) رواية العقد الفريد : « لا أرهب طعنا » .
(٢) كذا فى العقد الفريد ؛ وفى الأصول : « قولنا » ... الخ .

ودخل طفيلىّ إلى قوم فقالوا له : ما دعوناك ! فما الذى جاء بك ؟ فقال : إذا لم تدعونى ولم آت وقعتْ وحشة، فضحكوا منه وقرّبوه .

وقيل : مرّ طفيلىّ على قوم يتغدّون، فقال : سلام عليكم معشرَ اللئام، فقالوا : لا والله بل كرام ؛ فثنى ركبتَه ونزل، وقال : اللهمّ آجعلهم من الصادقين، وآجعلنى من الكاذبين .

قال هشام أخو ذى الرمّة لرجل أراد سفرا : إنّ لكل رُفقة كلبا يَشْرَكهم فى فضلة الزاد، فإن آستطعت ألّا تكون كلب الرِّفاق فافعل .

ونظر طفيلىّ إلى قوم من الزنادقة يُسار بهم إلى القتل، فظنّهم يُدْعَوْن الى صنيع، فتلطّف حتّى دخل فى لفيفهم وصار كواحد منهم، فلما بلغوا صاحب الشُّرطة، أمر بضرب أعناقهم، فقُدّموا واحدا بعد واحد حتّى آنتهَوْا إلى الطفيلىّ، فلما قُدّم للقتل آلتفت إلى صاحب الشُّرطة فقال له : إنّى والله ما أنا منهم، ولا أعلم بما يدينون ؛ وإنما أنا طفيلىّ ظننتُهم يُذْهَبُ بهم إلى صنيع، فتلطّفت حتّى دخلت فى جملتهم ؛ فقال : ليس هذا مما ينجيك، اضربوا عنقه ؛ فقال : أصاحك الله، إن كنتَ عزمتَ على قتلى فأْمُرِ السياف أن يضرب بطنى بالسيف، فإنه هو الذى أوقعنى فى هذه الورطة، فضَحِك، وكشف عنه فأُخبِر أنه طفيلىّ معروف، فخلّى سبيله .

وحُكِى أنّ المأمون أمر أن يُحمل إليه عشرة من الزنادقة سُمُّوا له من أهل البصرة، فجُمِعوا، فأبصرهم طفيلىّ فقال : ما آجتمعوا إلا لصنيع، فدخل فى وسطهم ومضى بهم الموكّلون، حتّى آنتهوا إلى زورق قد أُعِدّ لهم ؛ قال الطفيلىّ : هى نُزْهة، فدخل معهم الزَّورق، فلم يكن بأسرع من أن قُيِّدوا، وقُيِّد معهم الطفيلىّ، ثم سِير بهم إلى بغداد ؛ فأُدْخِلوا على المأمون، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلا رجلا، ويأمر بضرب

(١٠٢)

أعناقهم، حتى وصل إلى الطفيلىّ، وقد آستوفى العِدَّة، فقال للموكّلين : ما هـذا ؟ قالوا : والله ما ندرى ، غيرَ أنّا وجدناه مع القوم، فجئنا به، فقال له المأمون : ما قصّتُك ؟ ويلك ! فقـال يا أمير المؤمنين : آمرأتى طالق إن كنتُ أعرف من أقاويلهم شيئا ولا ممـا يدينون به، و إنما أنا رجل طفيلىّ، رأيتُهم مجتمعين فظننتُ صنيعا يُدعون اليه، فضحك المأمون وقال : يؤدّب ؛ وكان إبراهيم بن المهدىّ قائما على رأس المأمون فقال : يا أمير المؤمنين، هب لى ذَنْبَه(١)، وأحدّثك بحديث عجيب عن نفسى ؛ قال : قل يا إبراهيم ؛ قال : يا أمير المؤمنين، خرجتُ من عنـدك يوما فطُفْت فى سِكَك بغداد متطرّبا(٢) حتى آنتهيت إلى موضع كذا، فشممت منه فَتَـار أبازير قُدور قـد فاح [طيبهـا](٣)، فتاقت نفسى إليهـا و إلى طِيب ريحها، فوقفت إلى خيـاط فقلت له : لمَنْ هـذه الدار ؟ فقال : لرجل من التّجار [البزازين](٣) ، قلت : ما آسمه؟ قال : فلان بن فلان، فرميت بطرفى إلى الدار، فإذا شُبّاك فيهـا مُطلّ ، و إذا كَفٌّ قـد خرج من الشُّبّاك ومِعْصَم، فشغلنى حسنُ الكفّ والمعصم عن رائحة القُـدُور، فَبُهِتُّ ساعة ، ثم أدركنى ذهنى ، فقلت للخيـاط : أهو ممّن يشربُ النبيذَ ؟ قال : نعم، وأحسب أنّ عنده اليومَ دعوة، وهو لاينادم إلا تُجّارا مثله مستورين ؛ فإنى لكذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدَّرْب(٤)، فقال لى الخياط : هؤلاء، منادماه، فقلت : ما آسماهما وما كُناهما ؟ فقال : فلان وفلان، فحرّكتُ دابّتى وداخلتهـما وقلت : جُعِلْتُ فِدَاكما ، قـد آستَبْطَأْتُ كما أبو فـلان ،

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصل : «هب لى أدبه» .

(٢) كذا فى أحد الأصلين والعقد الفريد . وفى الأصل الآخر : « متطرفا » .

(٣) التكملة عن العقد الفريد .

(٤) فى العقد الفريد : « فينا أنا كذلك » .

وسايرتهما حتّى بلغنا الباب، فاجلّانى وقدّمانى فدخلت ودخلا ؛ فلما رآنى صاحب المنزل معهما ، لم يشك أنى منهما، فرحّب بى وأجلسنى فى أفضل المواضع ؛ فجىء يا أمير المؤمنين بمائدة عليها خبز نظيف وأُتينا بتلك الألوان ، فكان طعمها أطيب من ريحها، فقلت فى نفسى : هذه الألوان قد أكلتُها ؛ بقيت الكفّ [والمعصم](١) ، كيف [أصل](١) إلى صاحبتيهما ؟ ثم رُفع الطعام، وجىء بالوَضُوء، ثم صرنا إلى مجلس المنادمة ، فإذا أشكَلُ منزل ، وجعل صاحب المنزل يلطُف بى ، ويميل علىّ بالحديث، حتّى إذا شربنا أقداحا خرجت علينا جارية كأنها بدر، تتثنّى يا أمير المؤمنين كالخيزران، فأقبلتْ وسلّمت غير عجلة، وثُنيت لها وسادة فجلست عليها، وأُتى بالعود فوُضع فى حِجرِها، فجسّته فاستبنتُ حِذقها فى جَسّها، ثم اندفعتْ تُغنّى :

توهّمَها طَرْفى فأصبح خَدُّها * وفيه مكان الوَهْم من نظرى أثرُ(٢)
تُصافحُها كفّى فتُؤلِمُ كفَّها * فمَنْ مَسّ كفّى فى أناملها عَقَرُ

فهيّجتْ يا أمير المؤمنين بلابلى، وطرِبتُ لحسن شعرها ؛ ثم اندفعت تغنّى :

أشرتُ إليها هل عرفتِ مودّتى * فردّتْ بطرف العين إنى على العهد
فحُدتُ عن الإظهار عمْدا لسرها * وحادت عن الإظهار أيضا على عَمْدِ

فصحت يا أمير المؤمنين، وجاءنى من الطرب ما لم أملك نفسى معه ؛ ثم اندفعتْ فغنّت الصوت الثالث :

أليس عجيبا أن بيتا يَضُمُّنى * وإياك لا نخلو ولا نتكلّم
سوى أعين تشكو الهوى بجفونها * وتقطيع أكباد على النار تُضْرَمُ
إشارة أفواهٍ وغمز حواجبٍ * وتكسير أجفان وكَفّ تُسَلِّمُ

(١) زيادة عن العقد الفريد .
(٢) الأثر : أثر الجرح يبقى بعد البرء .

فحسدتها والله يا أمير المؤمنين على حِذقِها ومعرفتها بالغناء، وإصابتها لمعنى الشعر ؛ فقلت : بقى عليك ياجارية ، فضربتْ بالعود على الأرض ، وقالت : متى كنتم تُحْضرون مجالسكم البُغَضَاء! فندِمتُ على ما كان منّى، ورأيت القوم تغيّروا لى، فقلت : أمَا عندكم عود غيرُ هـذا ؟ قالوا : بلى ، فأُتيت بعود فأصلحت من شأنه ثم غنّيت :

ما للمنازل لا يُجِبْنَ حَزِينا * أصَمِمْنَ أم قَدُم المدى فَبِلِينا[1]

راحوا العَشِيَّةَ رَوْحةً مذكورةً[2] * إنْ مُتْنَ مُتْنا أو حَيِينَ حَيِينا

فما اسْتَتْمَمْتُه يا أمير المؤمنين، حتّى قامت الجارية ، فأكبّت على رجلىّ تقبّلهما، وقالت : مَعْذِرة يا سيّدى، فوالله ما سمعت أحدا يُغَنّى هذا الصوت غِناءك ، وقام مولاها وأهل المجلس، ففعلوا كفعلها، وطرب القوم واستحثّوا الشرب فشربوا، ثم اندفعتُ أغنّى :

أفِي[3] الحـقِّ أن تَمْشِى ولا تَذْكُرَنّى * وقد هَمَعت عيناى من ذكرها الدَّما

إلى الله أشكو بُخْلَها وسماحتِى * لها عسـلٌ منّى وتبـذل عَلْقَما

فَرُدّى مُصَابَ القلبِ أنتِ قتلتِـه * ولا تَتْرُكِيه ذَاهـلَ العقلِ مُغْـرَما

فطَرِب القومُ حتّى خرجوا من عقولهم ، فأمسكتُ عنهم ساعة حتّى تراجعوا ، ثم غنّيتُ الثالث :

---

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصل : «البلى» .

(٢) فى العقد الفريد : «روحة منكورة» .

(٣) رواية العقد الفريد :

أبى الله أن تمشى ولا تذكرينى * وقد سفحت عيناى من ذكرك الدما

هـــذا مُحِبُّك مطوِيًّا على كَمَدِهْ * عبرى(١) مدامُعه تَجْرى على جسدهْ
له يَدٌ تسأل الرحمنَ راحته * مما به ويَدٌ أخرى على كَبِده

فجعلت الجارية تصيح : هـذا الغناء والله يا سيدى لا ما كنَّا فيه منذ اليوم ؛ وسكر القومُ ، وكان صاحب المنزل حسنَ الشرب ، صحيحَ العقل ؛ فأمر غلمانه أن يُخرِجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم ، وخلوتُ معه ؛ فلما شربْنا أقداحا ، قال : ياسيدى ، ذهب ما مضى من أيامى ضَيَاعا ، إذ كنتُ لاأعرفك ، فمن أنت ؟ ولم يزل يُلِحُّ علىَّ حتَّى أخبرتُه الخَبَر ؛ فقام وقبَّل رأسى وقال : وأنا أعجب أن يكون هذا الأدب إلا لمثلك ! وإنى لجالس مع الخلافة ولا أشعر ؛ ثم سألنى عن قصتى ، فأخبرته حتَّى بلغتُ إلى صاحبة الكف والمعصم ، فقال للجارية : قومى فقولى لفلانة تنزل ، فلم تزل تنزل جواريه واحدةً واحدةً فأنظر إلى كَفِّها ومِعصَمِها ، وأقول : ليس هى هذه ! حتَّى قال : والله مابقى غيرُ أختى وأُمِّى ، والله لأُنزِلَنَّهما إليك ؛ فعجبتُ من كرمه وسعة صدره ، فقلت : جُعِلتُ فداك ، ابدأ بالأخت قبل الأم فعسى أن تكون هى ؛ فبرزتْ ؛ فلما رأيْت كَفَّهَا ومِعْصَمَها قلت : هى هـذه ؛ فأمر غلمانه فساروا إلى عشرة مشايخ من جِلَّة جيرانه فأقبلوا بهم ، وأمر بِبَدْرَتين فيهما عشرون ألف درهم ، ثمّ قال للمشايخ : هذه أختى فلانة ، أُشهدكم أنى قد زوّجتها من سيِّدى إبراهيم بن المهدىّ ، وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم ، فرضيت وقبِلت النكاح ، فدفع إليها البَدْرة ، وفرّق الأخرى على المشايخ وصرفهم ؛ ثم قال : ياسيدى ، أمهِّد بعضَ البيوت فتنام فيه مع أهلك ؟ فأحشمنى ما رأيت من كرمه ، فقلت : أحضر عَمَارِيَّةً(٢) وآحملها إلى منزلى ، ففعل ؛ فوالله ياأمير المؤمنين ، لقد أتبعها من الجَهَاز ما ضاقت عنه بيوتنا ؛ فأولدتها

١٠٣

(١) فى العقد الفريد : « حرى مدامعه » .
(٢) العمارية : هودج يجلس فيه .

هذا القائم على رأس أمير المؤمنين — يشير إلى ولده — فعجب المأمون من كرم الرجل وألحقه فى خاصة أهله ، وأطلق الطفيلىّ وأجازه .

ومن إنشاء المولى الفاضل تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى ، وهو الذى حاز قصبات السبق فى فنّ الأدب على أترابه ، وفاز من البلاغة بقِدْحها المُعَلَّى فى عُنفُوان شبابه ، رسالةٌ وضعها فى هذا الفنّ ، وصار له بها على أهله غاية المنّ ؛ مع نزاهة نفسه الأبيّة ، وٱرتفاعه عن المطاعم الدنيّة ؛ وإنما وضعها تجربة لخاطره ، وضمها إلى فوائد دفاتره ، وهى :

هذا عهد عهده زارد بن لاقم ، لبالع بن هاجم ، ٱستفتحه بأن قال :

الحمد لله مسهّل أوقات اللذّات وميسّرها ، وناظم أسباب الخيرات ومُكَثِّرها ، وجاعل أسواق الأفراح قائمة على ساق ، جابرة لمن ورد إليها بأنواع الإرفاد وأجناس الإرفاق ؛ أحمده على أن أحلّنا فى منازل السادات أرفَعَ الدرجات ، وأحلّ لنا من الأطعمة الفائقة الطيّبات ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة تهدينا إلى المقام الرفيع ، وتخصّنا بالمحل الجسيم المنيع ؛ وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رب المكارم الجسام ، ومعدن الجسارة والإقدام ، الجامع بين فضيلتى الطعان والطعام ؛ صلى الله عليه وعلى آله أهل السماحة والكرم والإكرام ، صلاة تُحِلُّ قائلها فى غُرُفَات الجِنان فى دار السلام . وبعد ، فإن صناعة التطفيل صناعةٌ مهوبة ، وحرْفة هى عند الظرفاء محبوبة ؛ لايَلْبَس شعارَها إلا كلُّ مقدام ، ولا يرفع خافقَ علمها إلا من عُدَّ فى حرْفته من الأعلام ؛ ولا يتلو أساطير شهامتها إلا من ٱرتضع أفاويق الصَّفَافة ، ولا يهتدى لمنار عَلَائها إلا من نزع عن مَنْكبيه رداء الرَّقاعة والحماقة ؛ وكنتُ والفَوْد غُدَافىّ الإهاب ، والغصن رَيّان من ماء الشباب ؛ والقَدُّ يَميس فى حُلَّة النشاط ، والقدَم

تَذْرَع الأرض ذَرْعَ الاختباط ؛ لا يُقام سوق وليمة إلا وأنا الساعى إليها ، ولا ترفع أعلام نار مَأْدُبة إلا وكنت الواقف لديها ؛ أتخذ الدروب شباكا للاصطياد ، وحبائل أبلغُ بها لذيذ الازدراد ؛ قد جعلت المَعْطَس حليف الهواء ، والقلب نزيل الأهواء ؛ فحيث عَبَقت روائح الأبازير من أعالى تلك القصور ، وتمندلت (١) تلك الشوارع بزعفران البُرَم والقُدُور ؛ ألقيت عصا المسير على الباب ، وخَلبتُ بحسن أدبى قلبَ البوّاب ؛ وأوسعت فى وصولى ألفَ حيلة ، وجعلتها على ما عندى من حسن فنونها مَخيلة ؛ فلا دعوة إلا وكنت عليهم دعوة ، ولا وليمة خِتَان إلا وقد طلعت على أرجائها مثل الجانّ ، ولا سِماط تأليب (٢) إلا وكنتُ إليه الساعى المنيب ، ولا مَجْمَع ضيافة إلا وكنت عليه أشدّ آفة ، ولا ملاك عُرْس مشهود إلا وانتظمت فى سلك الشهود ؛ يحسن فىّ قول القائل :

لو طُبِخَت قِدْر بمَطْمُورة * مَوقدُها الشام وأعلى الثغور
وأنت فى الصين لوافيتها * ياعالمَ الغيب بما فى القُدُور

واليوم قد مال القَويمُ إلى الاعوجاج ، وعزّ بازى الشيب غُرَابَ الشَّعر الدّاج ؛ وقيّد الزمَنُ أقداما ، ومنعت الشيخوخة إقداما ؛ وصرتُ لحما على وَضَ ، بعد أن كنت نارا على عَلَم ؛ وقد أفادتنى التَّجْربةُ من هذه الصناعة فنونا ، وتلت علىّ من محاسنها متونا ؛ وقد أبقيت لكل مجمع بابا ، وفَذْلَكْت لكل مَشهد حسابا ؛ وقد اقتضى حسن الرأى أن أفوّض إليك أمرها ، وأُودِع تأمورَ قلبك وحسّك سرَّها ؛ علمى بأنك الكَيِّس الفَطِن ، بل الألْمعىّ الذَّرِب المَرِن ؛ لو عقدت أكلةُ الولائم بغَابٍ ولَحَه ، وأحسن بتأتّيه الجميل مَدْخَلَه ومَخْرَجَه ؛ وقد شاهدتُ من أعمالك الصالحة ، ما يقال عند ذهابى :

(١) تمندلت : تضوّعت وفاحت ، وأصل التمندل : التطيب بالمندل .
(٢) فى الأصل : « تأنيب » .

ما أشبه الليلة بالبارحة ؛ وقد عَهِدتُ إليك ، وٱستخرت الله فى التعويل عليك ؛ (١٠٤)
فمثلك من يُخْطَب للمناصب ، ويتسنَّم ذِرْوَة المراتب ؛ ودونك ما أنطق به من الوصايا ،
وٱحفظ مايسْرُدُه لسانُ القلم من جميل المزايا : إياك وموائدَ اللئام ، وٱنزل بساحات
الكرام ؛ وٱتخذ الشروع فى الشوارع حرفة ، وأظهر على مشيك صَلَافة وعفَّة ؛ ومَيِّز
بعينك حُسْنَ المساطب ونَقْشَ الستُور ، وجمال الخدم وقُعود الصدور ؛ وٱقْصِد
الأبواب العالية ، والأكلة المنقوشة الحالية ؛ فإن دُلِلت على مَأْدبة نصبها بعض
الأعيان ، وجمع إليها أصحابه [و] الإخوان ؛ فالبَس من ثيابك الجميلة قشيبَها ، وضوِّع
بالمَنْدَل(١) الرطب طيبَها ؛ وأتقن خُبْرَ صاحب الدار وأخباره ، وقف فى صدر الشارع
من الحارة ؛ فاذا رأيت الجمع وقد تهادَوْا بالهوادى والأقدام ، وتهادَوْا فيما بينهم لذيذَ
الكلام ؛ تَقَدَّمْ إليهم بقلب قَلَبَ الأمور ، وعلم بحسن تطلُّعه وتضلُّعه داءَ الجمهور ؛ وقل
لهم : رب الدار قد ٱستبطأكم ، فما الذى أبطأكم ؛ حتَّى إذا قاربوا صُعُود العتبة ،
ولم تبقَ هنالك مَعْتَبَةٌ ؛ تقدَّمْ رافعا لهم الستور ، ومعرِّفا بمقدار أولئك الصدور ؛
فالأضياف يعتقدون أنك غلام المضياف ، وربُّ الحِلَّة يعتقد أنك رفيق السادة
الحلَّة ؛ وإن وَلَجْتَ مجتمع ختان ، وقد نُصِبت فيه موائدُ الألوان ؛ وزُرِّفتِ(٢) الأبواب ،
وٱكفهرَّت وجوه الحُجَّاب ؛ فاجعل تحت ضِبْنِكَ(٣) المجمع ، وٱخدع قلوبَهم فمثلك من
يَخْدَع ؛ وقل : رفيق الأستاذ ومعينُه ، ورِجْله التى يسعى بها بل يمينُه ؛ فحينئذ تُرْفَع

(١) المندل : أجود العود .

(٢) زرفت : أطلقت ، قال الشهاب الخفاجى فى شفاء الغليل : وزرفه كلمة مولدة واستشهد لذلك بقول الشاعر :

خدود لثمها يرى ٭ من الأسقام لو أمكن
فما تجنى وحارسها ٭ بقفل الصدغ قد زرفن

وفى الأصل «ذرفن» بالذال المعجمة .

(٣) الضبن : الكنف . وفى الأصول . « طنبك » .

الستُور ، وتُقَدَّمُ لك أطايبُ القُدور ؛ وإن رماك القَدَرُ على باب غفل عنه صاحبُه ، وسها فى غَلْقه حاجبُه ؛ وقد مُدُّوا فى أوانيه سِمَاطا ، وجعلوا لأوائل من يقدمه فِرَاطا ، وقد تقاربت الزبادى ، وآمتدت الأيادى ؛ ورأيت السِّمَاط رَوْضَةً تخالفت ألوانها ؛ وآمتـدّت أفنانها ، والموائد فيما بينها أفلاكٌ تدور بصحونها ، بل بروج ثابتة تُشْعِرُ بسكونها ؛ فَلِجْ على غَفْلة من الرقيب ، وآبسُط بَنَانَ الأكل وكُفَّ لسان المجيب ؛ فإن قيل لك : أما غُلِّق دونك باب ؟ فقل : ما على الكرماء من حِجَاب ؛ وإيّاك والإطالةَ على الموائد ، فإنها مصايدُ الشوارد ؛ وإياك والقَذَارةَ عليها ، فإنها إمارة الحِرْمان لديها ؛ وإن وقعتَ على وليمة كثيرة الطعام ، قليلة الآزدحام ؛ فكبِّر اللقمة ولا تطل عَلْكَها ، ومُرالفكَّ فى سرعة أن يَفُكَّها ؛ فإنك ماتدرى ماتُحدث الليالى والأيام ، خِيفةَ أن يعثُرَ عليك بعض الأقوام ؛ فتكتسى حُلَّةَ الخَجَل ، وتظهر على وجهك صُفرة الوَجَل ؛ وآجعل من آدابك ، تطلّعك الى أثوابك ؛ ولا ترفع لمستجلّ وجها وجيها ، وقل لمن يحادثك إيه ولا تقل إيها ؛ وجاوب بنعم ، فإنها مُعِينة على آللُّقم ؛ وآجعل لكل مقام ما يناسبه من الحيلة ، ومِلْ على أهل الولائم والمآدب مِيلَةً وأىّ مِيلَة ؛ وآسأل عمن ورِث من آبائه مالا ، وقد جمعه بِوَعْثاء السفر وعَنَائه حراما وحلالا ؛ أهل يَعْقد مقاما ، أم يبلُغ من دنياه بالقصف مراما ؟ فإن قيل : فلان الفلانىّ رَبّ هذه المثابة ، وصاحب الدعوة المجابة ؛ فكن ثالثةَ الاثافى لِبَابِه ، وآنتظم فى سلك عُشَرائه وأَتْرَابِه ؛ وتفقَّد الأسواق خصوصا اللحّامين ، ومواطِنَ الطبخ ومساطِبَ المطربين ؛ ومَجمَع القراء ومعاهدَ محالّ الوعّاظ ، وكلَّ بقعة هى مَظِنَّة فرح يعود عليك نفعه ؛ وكن أوّل داخل وآخرخارج ؛ ومل إلى الزوايا ، فهى أجمل ما لهذه الحِرْفة من المزايا ؛ ونَقِّلْ رِكابك فى كلّ يوم ، فتارة فى سوق اللحم وتارة فى سوق الثُّوم ؛ وغيِّر

الحلية، وقصر اللحية، وآبرز كلّ يوم فى لباس، فهو أكثر للالتباس ؛ وجدّد البهت حتى تتخذه عصاك، وتجعله ذريعةً لمن عصاك ؛ وأتقن الفنون المحتاج اليها : من غناء ونجامة، وطبّ وكهانة(١) ؛ وتاريخ وأدب، وكرم أصل وحسب ؛ وحالتى التوقيت والتنزيل، فاجعلهما دأبك ؛ فإذا عرفوك، وحضر الجمعُ وكشفوك ؛ فطرّز كلّ محفل بمحاسن أقوالك، وكلّل جيد كلّ مأدبة بجواهر أفعالك ؛ وآعلم أنها صنعة دثرت معالمُها، وقلّ عالمُها ؛ ولو لم أرَ على وجهك مخايل بِشْرها، وعلى أعطاف أردانك روائح نَشْرها ؛ لما ألقيتُ إليك كتاب عهدها، ولا حملتُ لبابك راية مَجْدها ؛ فتلقّ راية هذا العهد بساعدٍ مُساعِد، وعَضُد فى الوُلُوج على الأسمطة مُعاضد ؛ فوضتُ اليك أمرَ مَنْ تحلّى بجواهرها المنظومة، ولَبِس حُلَلَها القشيبة المرقومة ؛ وبسطتُ لسانَ قلمك فى رَقْم عهودها، وأذنتُ لك أن تُجْريهم على سَنَن معهودها ؛ وإياك أن تَعْهَدَ إلا لمن ملك خِصالها، وجاس خلالها ؛ وآستجلى هِلالها، وأتقن أحوالها ؛ ولايةً عامّة، وكلمةً مُبْرَمةً تامّة ؛ حَرَس الله بك مَعْقِلَ الأدب واللطافة، ومَحَا بك معالِمَ الثقالة والكثافة . (١٠٥)

ذكر آداب الأكل والمُؤاكلة

قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ . ورُوِى أنّ داودَ عليه السلام أمر منادِيَه فنادى : أيها الناس، آجتمعوا لأعلّمكم التقوى ؛ فاجتمعوا، فقام فى مِحرابه فبكى ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال : يأيها الناس، لا تُدخلوا هاهنا إلا طَيِّبا، ولا تُخرجوا منه إلا طَيِّبا ؛ وأشار إلى فيه . قيل : أوّل آداب الأكل معرفة الحلال من الحرام، والخبيث من الطيّب .

(١) فى الأصل : «شهامة» وهى لا تتفق مع السياق ، فرجحنا ما وضعناه .

وأما الآداب فى هيئة المُؤَاكلة وأفعالها، فقد رُوِى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عاب طعاما قطُّ، إن آشتهاه أكله و إلّا تركه. ورُوِى أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "لاتَشُمُّوا الطعام كما تَشُمُّه البهـائم[1] من آشتهى شيئا فليأكل ومن كَرِه فَلْيَدَع". وقال أنَس: قَدِمَ النبىّ صلى الله عليه وسلم المدينة وأنا آبن عشر، ودخل دارنا فَحَلَبْنَا له شاةً فشرب، وأبو بكر عن يَسَاره وأعرابىّ عن يَمينه؛ فقال عُمَرُ بن الخطاب رضى الله عنه: أعط أبا بكر، فقال صلى الله عليه وسلم: "الأيمنَ فالأيمن". وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أُمَّ عَمْرٍو ✻ وكان الكأسُ مَجْراها اليَمينا

ورُوِى عن أنَس: أنه رأى النبىَّ صلى الله عليه وسلم شرب جَرْعة ثم قَطَع، ثمّ سَمَّى ثم شَرِب جَرْعة ثم قَطَع، ثم سَمَّى ثم قَطَع الثالثة، ثمّ جَرَع مَصًّا حتّى فرغ، ثمّ حَمِد الله. وقد نُدِب إلى غسل اليد قبل الأكل فإنه ينفى الفقر، ويَنْفِى اللَّمَمَ. ومن السُّنّة: البَدَاءةُ باسم الله، وحَمْدُه عند الآنتهاء.

رُوِى عن عمر بن أبى سَلَمَةَ أنه قال: مررت بالنبىّ صلى الله عليه وسلم وهو يأكل، فقال: "اِجلس[2] يا بُنَىّ وسَمِّ الله وكُلْ بيمينك مما يليك".

وقال بعض السلف: إذا جَمَعَ الطعامُ أربعا فقد كَمُلَ كلُّ شىء: إذا كان حلالا، وذُكِرَ آسمُ الله عليه، وكَثُرَتْ عليه الأيدى، وحُمِدَ اللهُ حينَ يُفْرَغُ منه.

ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من قال عند مَطْعَمِه ومَشْرَبه باسم الله خَيْرِ الأسماء [باسم الله][3] رَبِّ الأرض والسماء لم يضرّه ما أَكَلَ وما شَرِب".

---

(١) فى الجامع الصغير: «كما تشمه السباع».

(٢) رواية البخارى: «يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك».

(٣) الزيادة عن المستطرف فى كل فنّ مستظرف للإبشيهى (ج ٢ ص ٢١٢).

وفى حديث عائشة رضى الله عنها ، عنه صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أكل أحدُكم فليَذْكُرِ آسمَ الله فإن نَسِىَ فى أوله فليَقُلْ بآسم الله فى أوله وآخره " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا أكل أحدُكم فليأكل بيمينه [واذا شرب فليشرب بيمينه][(١)] فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله " .

ورُوِى : أنّ المسيحَ عليه السلام كان إذا دعا أصحابَه قام عليهم ، ثمّ قال : هكذا فآصنعوا بالفقراء .

ووصف شاعر قوما فقال :

جُلُوسٌ فى مجالسهم رِزَانٌ ... وإن ضَيْفٌ أَلَمَّ بهم وُقُوفُ

قال سَهْلُ بن حُصَين : شهِدت الحَسَنَ فى وليمة ، فَطَعِم ثم قام فقال : مدّ الله لكم فى العافية ، وأوسع عليكم فى الرزق ، وآستعملكم بالشكر .

ورُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تخلَّلُوا[(٢)] فإنه نظافة والنظافة من الإيمان والإيمان مع صاحبه فى الجَنَّة " .

وفى حديث عمر رضى الله عنه : " عليكم بالْخَشَبَتَيْن " يعنى السِّوَاكَ والخِلَالَ .

وكان بعضهم يقول لولده إذا رأى حرصه فى الطعام : يابُنَىَّ ، عوِّد نفسك الأُثْرة[(٣)] ، ومجاهدة [الهوى و] الشهوة ، ولا تَنْهَشْ نَهْشَ السباع ، ولا تَخْضِمْ خَضْمَ البراذين [ولا تُدْمن[(٤)] الأكلَ إدمان النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال] ؛ فإن الله جعلك إنسانا ، فلا تَجْعَلْ نفسَك بهيمةً .

---

(١) التكملة عن الجامع الصغير والعقد الفريد والمستطرف .

(٢) رواية الجامع الصغير : « والنظافة تدعو الى الإيمان » .

(٣) الأثرة (بالضم) : اسم من الإيثار وهو تفضيل الانسان غيره على نفسه .

(٤) الزيادة عن العقد الفريد .

وحكى عن بعض الكتاب قال : تغدّيت مع المأمون فالتفت إلىّ وقال : خِلال قبيحة عند الجلوس على الطعام : كثرةُ مسح اليد، والانكباب على الطعام، وكثرةُ أكل البقل. ومعنى ذمّه هذه الخلال الثلاث : أنه إذا أكثر مسح اليد فإنما ذلك من غَمْسها فى الطعام، والانكباب يدُلّ على شدّة الحرص وزيادة الشره والنَّهَم ، قال الشاعر :

لقد سَتَرتْ منك الحِوانَ عِمامَةٌ * دَجُوجِيّـةٌ ظَلْمَاؤها ليس تقلع

وأما البقل، فإن الحاجة إلى البُلغة منه، وفى الإكثار منه تشبّهٌ بالبهائم لانه مرعاها .

وقيل : الأكل ثلاثة : مع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط، ومع أبناء الدنيا بالأدب .

وقيل لبعض الحكماء[1] : أىّ الأوقات أحمد للأكل ؟ فقال : أما مَنْ قَدَر فإذا اشتهى، وأما من لم يَقْدِر فإذا وجد .

ذكر الاقتصاد فى المطاعم والعفّة عنها

قال الله عز وجل : ﴿ يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾. وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "من زاره أخوه المسلمُ فقرّب إليه ما تيسّر غُفِر له وجعل فى طعامه البركةُ ومن قُرِّب إليه ما تيسّر فاستحقر ذلك كان فى مَقْت من الله حتّى يخرج". وقالت عائشة رضى الله عنها : أوَلَمَ النبىّ صلى الله عليه وسلم على بعض نسائه مُدَّيْنِ من شعير .

وقيل : كان عيسى بن مريم صلوات الله عليه يقول : اعملوا ولا تعملوا لبطونكم، وإياكم وفضولَ الدنيا، فان فضولَها رِجزٌ؛ هذه طير السماء تغدو وتروح ، ليس معها

(١) هو بزرجمهر كما فى العقد الفريد .

من أرزاقها شيء ، لا تحرُث ولا تحصد ، والله يرزقها ؛ فإن قلتم : بطوننا أعظم من بطونها ؛ فهذه الوَحْشُ تغدو وتروح ، وليس معها من أرزاقها شيء والله يرزقها .

ورُوِى أنّ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : لما دخل شهر رمضان كان يَفْطرُ ليلة عند الحسن ، وليلة عند الحسين ، وليلة عند عبد الله بن جعفر ، لا يزيد على لقمتين أو ثلاث ؛ فقيل له ؛ فقال : إنما هى أيّام قلائل يأتى أمر الله وأنا خَمِيص ، فقُتل من ليلته .

وفى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قلّ طُعْمُه(١) صحّ بدنه وصفا قلبه ومن كثر طعمه سَقِم جسمه وقسا قلبه" . وعنه صلى الله عليه وسلم قال : "ما زيّن الله رجلا بزينة أفضل من عَفاف بطنه" . قال حاتم :

أبيتُ خَمِيص البطنِ مُضْطَمِرَ الحشا * من الجوع أخشى الذمّ أن أتضلّعا
فإنّك إن أعطيتَ بطنك سُؤْلَه * وفَرْجَك نالا منتهى الذّم أجمعا

وقال بعضهم : رأيت مجنونا ببغداد ، وهو على باب دار فيها صنيع والناس يدخلون ، وكنتُ ممن دُعى ، فقلت : ألا تدخل فتأكل فان الطعام كثير ؟ قال : وإن كثر فانى ممنوع منه ؛ فقلت : كيف والباب مفتوح ، ولا مانع من الدخول ؟ فقال : أتأكل طعاما لم أُدْعَ إليه ! لقد اضطرنى الى ذلك غير الجوع ؛ فقلت : ما هو ؟ قال : دناءة النفس وسوء الغريزة . قال شاعر :

وإنّى لَعَفُّ عن مَطَاعِمَ جَمَّةٍ * اذَا زَيَّنَ الفَحشاءَ للنفس جُوعُها

وقال آخر :

وأُعرِضُ عن مَطَاعِمَ قد أراها * فأترُكها وفى البطن انطواءُ
فلا وأبيك ما فى العيش خيرٌ * ولا الدنيا اذا ذهب الحياءُ(٢)

(١) الطعم (بالضم) : الطعام .
(٢) كذا فى شرح ديوان الحماسة طبع أوربا (ص ٥١٦) . وفى الأصول : « وفى الدنيا » .

قال الجنيد: مرّ بى الحارث بن أسد المُحاسِبىّ، فرأيت فيه أثَرَ الجوع، فقلت: ياعمّ، تدخل الدار وتتناول شيئا؟ قال: نعم، فدخل، وقدّمت إليه طعاما حُمِل إلىّ من عُرْس، فأخذ لقمة فلاكها، ونَهَضَ فألقاها فى الدِّهليز ومضى، فالتقيت به بعد أيام، فقلت له فى ذلك، فقال: كنت جائعا، وأردت أن أسرّك بأكلى، ولكن بينى وبين الله تعالى علامة، ألّا يُسَوِّغنى طعاما فيه شُبْهَة، فمن أين كان ذلك الطعام؟ فأخبرتُه، ثم قلت له: تدخل اليوم؟ قال: نعم، فقدّمت اليه كِسَرًا كانت لنا، فأكل وقال: اذا قدّمت لفقير شيئا، فقدّم مثل هذا.

ورُوِى أن عمرو بن العاص قال لأصحابه يوم الحكمين: أكثِرُوا لهم الطعام، فوالله ما بَطِنَ قوم إلا فقدوا بعض عقولهم، وما مضت عَزْمَةُ رجل بات بطينا، فلما وجد معاوية ما قال صحيحا، قال: "البِطْنَة تُذْهِب (١) الفِطْنة".

وروِى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تُميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلوب تموت (٢) كالزّرع اذا كثر عليه الماء".

ودخل عمر رضى الله عنه على ابنه عاصم وهو يأكل لحما، فقال: ماهذا؟ قال: قَرِمنا اليه، قال: ويحك! قَرِمتَ الى شيء فاكلتَه، كفى بالمرء شَرَهًا أن يأكل كلّ مايشتهى.

قال ابن دريد: العرب تُعيِّر (٣) [بعضها] بكثرة الأكل، وأنشد:

لستُ بأكّال كأكل العبد * ولا بنَوّام كنَوْم الفَهْد

---

(١) فى مجمع الأمثال: «البطنة تأفن الفطنة».

(٢) فى الاحياء للغزالى: «فان القلب كالزرع يموت ... الخ». وفى المستطرف: «فان القلب كالزرع اذا كثر عليه الماء مات».

(٣) الزيادة عن المستطرف.

وقال عمر رضى الله عنه : ما اجتمع عند النبىّ صلى الله عليه وسلم إدامان إلا أكل أحدَهُما وتصدّق بالآخر .

وقال أبو سليمان الدارانىّ : خيرُ ما أكون اذا لَصِق بطنى بظهرى ، أجوعُ الجُوْعة فأخرج تَرْحَمُنى المرأةُ فما ألتفت إليها ، وأَشْبَعُ الشَّبْعَة فأخرج فأرى عينىّ تطمحان .

ذكر أخبار الأكَلَة

قدنُسِب ذلك الى جماعة من الأكابر وذوى الهمَم ، فمن ذلك ماحكاه الحمدُونى فى تذكرته : أن معاوية بن أبى سفيان أُتى بِعجْل مَشْوِىٍّ ، فأكل معه دستا من الخبز السميد ، وأربع فَرَانِىّ[1] ، وجَدْيًا حارًا ، وجديا باردا ، سوى الألوان ؛ ووُضِع بين يديه مائةُ رطل من الباقِلَّاء الرطب ، فأتى عليه . وقيل : إنه كان يأكل كل يوم أربع أكَلَات آخرهنّ أشدهنّ ؛ ثم يقول : ياغلام ، ارفع ، فوالله ما شبِعت ، ولكنى مَلِلتُ .

ومنهم عُبَيد الله بن زياد ، كان يأكل فى اليوم خمسَ أكلات آخرها جنبة بغل ، ويُوضع بين يديه بعد ما يفرغ من الطعام عناقٌ[2] أو جَدْىٌ فيأتى عليه وحدَه .

ومنهم الحجّاج بن يوسف ، قال سلم[3] بن قُتَيبة : كنت فى دار الحجاج مع ولده ، وأنا غلام ، فقالوا : جاء الأمير ، فدخل الحجاج وأمر بتَنُّور فنُصِب ، وأمر رجلا يَخْبِز خبز الماء ودعا بسمك ، فأكل حتّى أتى على ثمانين جاما من السمك بثمانين رغيفا من خبز الماء .

---

(١) الفرانىّ : خبز يشوى ويروى سمنا ولبنا وسكرا .

(٢) العناق : الأنثى من أولاد المعز .

(٣) كذا فى كتاب المعارف لابن قتيبة والطبرى وابن الأثير . وفى الأصل : «سالم بن قتيبة» .

ومنهم سليمان بن عبد الملك، رُوِى أنه شُوِىَ له أربعة وثمانون خَروفا، فمدّ يده إلى كلّ واحد منها فأكل شحم أَليته ونصف بطنه مع أربعة وثمانين رغيفا، ثم أَذِن للناس وقُدِّم الطعام، فأكل معهم أَكْلَ من لم يَذُق شيئا .

وقال الشَّمَرْدَل وكيل عمرو بن العاص : قَدِم سليمان بن عبد الملك الطائف، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز، فجاء حتى ألقى صدره الى غصن، ثم قال : ياشَمَرْدَل، ما عندك شيء تُطعِمُنى ؟ قلت عندى جَدْى(١) تغدو عليه حافِل وتروح أخرى؛ قال : عجِّل به، فأتيته به كأنه عُكَّة(٢) سمن، فجعل يأكل، وهو لايدعو عمر، حتى بقى منه نخذ قال : يا أبا حفص هَلُمّ، قال : إنى صائم، فأتى عليه؛ ثم قال : ياشمردل ويلك ! ماعندك شيء؟ قلت : دجاجات ست(٣)، كأنهنّ رِئلان النعام، فأتيته بهنّ فأتى عليهن؛ ثم قال : ويلك ياشمردل ! ما عندك شيء ؟ قلت : سَوِيق(٤) كأنه قُراضة الذهب، فأتيته بعُسّ(٥) يغيب فيه الرأس، فشربه؛ فلما فرغ تجشأ كأنه صارخ فى جُبّ(٦)؛ ثم قال : ياغلام، أفرغْتَ من غدائنا؟ قال : نعم، قال : ما هو؟ قال : نَيِّف وثمانون قِدرا، قال : فأت بقدر قدر، وبقِناع(٧) عليه رُقَاق، فأكل من كل قِدْر ثلاث لقم، ثم مسح يده وٱستلقى على فراشه، فوضع الخِوان وقعد يأكل مع الناس .

ومن المشهورين بالأكل، هلال بن الأسْعر المازنىّ، قال المعتمر بن سليمان : سألته عن أكله فقال : جعتُ مرة ومعى بعيرٌ لى فنحرتُه وأكلتُه إلا ما حملتُ منه

(١) كذا فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٣٨٥) : وفى الأصل : «جذع» .
(٢) العكة : زقيق صغير للسمن .
(٣) رواية العقد الفريد : «خمس دجاجات هنديات» .
(٤) فى العقد الفريد : «حريرة» وهى دقيق يطبخ بلبن أو دسم .
(٥) العس : القدح العظيم .
(٦) فى العقد الفريد : «فى حب» والحب : الخابية، فارسى معرب .
(٧) القناع (بالكسر) : الطبق من عسب النخل يوضع فيه الطعام .

على ظهرى ، فلما كان الليل راودتُ أمة لى فلم أصل اليها ، فقالت : كيف تصل إلىّ و بينى و بينك جمل ؟ فقلت له : كم تكفيك[1] هذه الأكلة ؟ فقال : أربعةَ أيام .

وحكى أبو سعد[2] منصور بن الحسين الآبىّ فى كتابه المترجم بنثر الدر : أن هلالا هذا أكل بعيرا ، وأكلت امرأته فصيلا وجامعها فلم يتمكن منها ، فقالت له : كيف تصل إلىّ و بينى و بينك بعيران ! وله حكايات ذكرها الحمدونىّ فى التذكرة ، والآبى فى نثر الدر تركناها اختصارا .

ومنهم محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، ذكر الجاحظ : أنه أكل يوما جنبى بكر شِواء بعد طعام كثير .

ومن المشهورين بالنهم أحمد بن أبى خالد الأحول وزير المأمون ، وكان المأمون اذا وجّهه فى حاجة أمره أن يتغدّى و يمضى ، فَرُفع الى المأمون فى المظالم : إن رأى أمير المؤمنين أن يجرى على آبن أبى خالد بَذْلًا[3] ، فإنّ فيه كلبية ، إلا أن الكلب يحرس المنزل بكِسْرة ، وآبن أبى خالد يقتل المظلوم ، و يُعين الظالم بأُكلة ؛ فأجرى عليه المأمون فى كلّ يوم ألف درهم لمائدته ، وكان مع ذلك يشَره الى طعام الناس . ولما آنصرف دينار بن عبد الله من الجبل ، قال المأمون لأحمد بن أبى خالد : امض الى هذا الرجل وحاسبه وتقدّم اليه بحَمْل ما يحصل لنا عليه ، وأنفذ معه خادما يُنْهى اليه ما يكون منه ؛ وقال : إن أكل أحمد عند دينار عاد الينا بما نكره . ولما آتصل خبر أحمد بدينار قال للطباخ : إن أحمد أشره من نُفخ فيه الروح ، فإذا رأيته فقل له : ما الذى تأمر أن يُتَّخَذ لك ؛ ففعل الطباخ ، فقال أحمد : فراريج

(١) كذا فى الأغانى (ج ٣ ص ٦٨ طبع دار الكتب) والمستطرف . وفى الأصول : « كم تبلغك » .

(٢) كذا فى معجم ياقوت ونظم الدر للآبى سعد . وفى الأصول : « أبو سعيد منصور بن الحسن الآبى » وهو تحريف . والآبى نسبة الى آبة قرية من أصبهان .

(٣) البذل : العطاء ، وفى الأصل : « نزلا » .

كَسْكَرِيّة بماء الرمان تُقدّم مع خبز الماء بالسميد، ثم هَاتِ بعدها ما شئت، فابتدأ الطباخ بما أمر، وأخذ أحمد يُكَلِّم دينارا، فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : إن لنا قِبلك مالا قد حبسته علينا، فقال : الذى لكم ثمانية آلاف ألف، قال : فاحملها، قال : نعم، وجاء الطباخ فآستأذن فى نصب المائدة، فقال أحمد : عَجِّلْ بها فإنى أجوع من كلب، فَقُدِّمت وعليها ما آقترح، وقدّم الدجاج وعشرين فروجا كسكرية، فأكل أكل جائع نهم، ما ترك شيئا مما قدّم، فلما فرغ وقدّر الطباخ أنه قد شبِع، لوّح بطيفورية فيها خمس سمكات شبابيطَ كأنها سبائك الفضة، فأنكر أحمد عليه أن لا قدّمها، وقال : هاتها، وأعاد أحمد الخطاب، فقال دينار : أليس قد عرّفتك أن الباقى لكم عندى سبعة آلاف ألف؟ قال : أحسبك آعترفتَ بأكثر منها، فقال : ما آعترفت إلا بها، فقال : هاتِ خطّك بما آعترفت به، فكتب بستة آلاف ألف، فقال أحمد : سبحان الله! أليس قد آعترفت بأكثر من هـذا؟ فال : مالكم قِبلى إلا هذا المقدار فأخذ خطه بها، وتقدّم الخادم فأخبر المأمون بما جرى . فلما ورد أحمد ناوله الخط، فقال : قد عرفنا ما كان من ألف الألف بتناول الغداء، فما بال ألف الألف الأخرى! فكان المأمون بعد ذلك يقول : ما أعلم غداء قام على أحد بألفى ألف إلا غداء دينار، وآقتصر على الخط ولم يتعقّبه كَرَما ونُبْلا .

ومنهم أبو العالية، حُكِى أن آمرأة حملت فحلفت إن ولدت غلاما لَأُشْبِعَنّ أبا العالية خَبِيصا، فولدت غلاما، فأطعمته، فأكل سبع جِفان، فقيل له : إنها حلفت أن تُشبعك خَبِيصا، فقال : والله لو علمت لما شبِعت الى الليل .

ومنهم أبو الحسن بن أبى بكر العلّاف الشاعر، دخل يوما على الوزير المُهَلَّبِى ببغداد، فأنفذ الوزير من أخذ حماره الذى كان يركبه من غلامه، وأُدخل

المطبخ وذُبح وطُبخ لحمه بماء وملح، وقُدِّم بين يديه، فأكله كلّه وهو يظن أنه لحم بقر، فلما خرج [و] طلب الحمار، قيل له: قد أكلتَه. وعوّضه الوزير عنه ووصله. فهذا كافٍ فى أخبار الأَكَلة.

ذكر ما قيل فى الجُبْن والفِرار

ومن أقبح ما هُجِي به الرجل أن يكون جَبَانا فرّارا، وقد نهانا الله عزّ وجل عن الفرار، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾. (١٠٨)

وقالت عائشة رضى الله عنها: إن لله خَلْقا قلوبهم كقلوب الطير، كلما خَفَقَتِ الريح خفقت معها، فأُفٌّ للجبناء! أُفٌّ للجبناء!

وقال خالد بن الوليد عند موته: [لقد](١) لقيت كذا وكذا زحفا، وما فى جسدى موضع [شبر](١) إلا فيه طَعْنة برُمْح أو ضَرْبة بسيف أو رَمْية بسَهْم، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى، كما يموت العَيْر، فلا نامت أعين الجبناء!.

وقيل: كتب زياد الى ابن عباس: أن صف لى الشجاعة والجُبْن والجود والبخل، فكتب اليه: كتبتَ تسألنى عن طبائعَ رُكِّبت فى الإنسان تركيب الجوارح، اعلم أن الشجاع يقاتل عمن لا يعرفه، والجبانَ يَفِرُّ عن عِرْسه، وأن الجواد يُعطى من لا يلزمه، وأن البخيل يُمْسك عن نفسه. وقال شاعر(٢):

يَفِرُّ جبانُ القومِ عن عِرْسِ نفْسِهِ * ويَحْمِى شُجاعُ القومِ من لا يناسِبُهْ(٣)

(١) الزيادة عن العقد الفريد وتذكرة الصفدى. (٢) هو أبو يعقوب الخريمى كما فى كتاب بهجة المجالس وأنس المجالس تأليف أبى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى الأندلسى ورقة ١٣٣

(٣) كذا فى الأصل وبهجة المجالس. وفى العقد الفريد: «عن أم نفسه».

وقالوا : الجبن غريزة كالشجاعة يضعها الله فيمن شاء من خلقه .

قال المتنبي :

يرى الجبناءُ أن الجبنَ حزمٌ (١) * وتلك خديعةُ الطبعِ اللئيمِ

وقالوا : حدّ الجبن : الضنّ بالحياة، والحرصُ على النجاة .

وقالت الحكماء فى الفراسة : من كانت فزعته فى رأسه فذاك الذى يَفِرُّ من أُمّه وأبيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التى تُؤْوِيه .

ويقال (٢) : أسرع الناس الى الفتنة أقلّهم حياء من الفِرار .

وقال هانئ الشيبانىّ (٣) لقومه يومَ ذِى قار يُحَرِّضهم على القتال : يا بنى بكر! هالك مَعْذُور خيرٌ من ناجٍ فَرُور . المنيّة ولا الدَّنيّة . استقبال الموت خير من استدباره . الثغر فى ثغور النحور، خير منه فى الأعجاز والظهور . يا بنى بكر! قاتلوا (٤)، فما من المنايا بُدٌّ، الجبان مُبْغَض حتّى لأُمّه، والشجاع مُحَبَّبٌ حتّى لعدوّه .

ويقال : الجُبْنُ خيرُ أخلاق النساء، وشرُّ أخلاق الرجال .

وقال يَعْلَى بن مُنَبِّه لقومه حين فرّوا من علىّ يوم صِفّين : الى أين؟ قالوا : ذهب الناس، قال : أُفٍّ لكم! فِرارًا واعتذارا!

قال : ولما قوتل أبو الطيّب المتنبى ورأى الغلبة عليه فرّ، فقال له غلامه : أترضى أن يُحدّث الناس بهذا الفِرار عنك؟ وأنت القائل :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرِفُنى * والطَّعْنُ والضَّرْبُ والقِرْطَاسُ والقَلَمُ

فكرّ راجعا، وقاتل حتى قُتِل، واستقبح أن يُعَيَّر بالفِرار .

---

(١) فى ديوان المتنبى : «ان العجز عقل ... الخ» .

(٢) فى العقد الفريد : «قال الأحنف» .

(٣) ورد هذا الخبر فى تذكرة الصفدى ببسط عما هنا .

(٤) فى تذكرة الصفدى : «حاموا» .

وقال المنصور لبعض الخوارج عليه وقد ظفر به : أخبرنى عن أصحابى ، أيهم كان أشد إقداما فى المبارزة ؟ قال : لا أعرف وجوههم مقبلين وإنما أعرف أقفيتهم مُدْبِرين ، فقل لهم يُدْبروا لأُعَرِّفك أيّهم كان أشدّ فِرارا .

وقال ابن الرُّومىّ فى سليمان بن عبد الله بن طاهر :

قِرْنُ سليمانَ قد أَضَرَّ به * شوقٌ الى وجهه سَيُدْنِفُهُ
لا يعرف القِرنُ وجْهَه ويرى * قفاه من فَرْسخٍ فيعرِفُهُ

وقال حسّان بن ثابت يُعَيِّر الحارثَ بن هشام بفراره يوم بدر :

إن كنتِ كاذبةَ الذى حدثتنى * فنجوتِ مَنْجَى الحارثِ بنِ هِشَامِ
تركَ الأَحِبَّةَ لم يُقاتل دونهم * ونجا برأس طِمِرَّةٍ ولِجَامِ
ملأتْ به الفَرْجَيْن فارمدّت (١) به * وثَوَى أَحِبَّتَه بِشَرِّ مُقَامِ

وقال أبو الفرج الأصفهانىّ : وكان أبو حيَّة النميرىّ ، وهو الهَيْثَم بن الربيع ابن زُرَارة ، جبانا بخيلا كذّابا . قال ابن قُتَيبة : وكان له سيف يسمّيه : لُعَاب المنية ، ليس بينه وبين الخشبة فرق . قال : وكان أجبن الناس ؛ قال : فحدّثنى جار له قال : دخل ليلة إلى بيته كلب فظنه لصًّا ، فأشرفتُ عليه ، وقد انتضى (٢) سيفه ، وهو واقف فى وسط الدار يقول : أيها المُغتَرِّبنا ، المجترئ علينا ، بئس والله ما آخترتَ لنفسك ، خيرٌ قليل ، وسيفٌ صقيل ، لعاب المنية الذى سمعت به ، مشهورة ضربته ، لا تُخاف نَبْوتُه ، أخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك ؛ إنى والله إن أدعُ قيسا إليك لا تقم لها ، وما قيس ؟ تملأ والله الفضاء خيلا ورَجْلا ، سبحان الله !

(١) ارمدّت به : أسرعت وعدت مثل عدو الرمداء ، وهى النعام .
(٢) يقال : نضى السيف من غمده وانتضاه اذا أخرجه .

ما أكثرها وأطيبها! فبينا هو كذلك، إذا الكلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذى مسخك كلبا، وكفانا [فيك][1] حربا.

ومن أبلغ ما قيل فى الجبن من الشعر القديم، قولُ الشاعر[2]:

ولو أنها عُصْفُورة لحسبتها * مسوَّمةً تدعو عُبيدا وأزْنَما[3]

ومثله قول عروة بن الورد:

وأشجعُ قد أدركتُهم فوجدتُهم * يخافون خَطْفَ الطير من كلِّ جانبِ

وقال آخر:

مازلتَ تَحْسَبُ كلّ شىء بعدهم * خيـــلا تَكُرُّ عليهـــمُ ورِجالا

وقول أبى تمام:

مُوَكَّلٌ بيفاع الأرض يشرفـه * من خِفة الخوف لا من خِفّة الطَّرَبِ

وقال ابن الرومىّ:

وفارسٍ أجبنَ من صِـفْرِدٍ[4] * يَحْوَلُّ أو يَعْوَرّ[5] من صَـفرَهْ

لو صاح فى الليل به صَائِحٌ * لكانت الأرضُ له طَفرَهْ

يرحمـه الرحمنُ من جُبنـه * فيرزقُ الجنـــد به النُّصرَهْ[6]

---

(١) الزيادة عن تذكرة الصفدى.

(٢) فى كتاب النقائض (ص ٥٨٤) ولسان العرب هو العوّام بن شوذب الشيبانى.

(٣) كذا فى النقائض ص ٥٨٥ ولسان العرب مادة «زنم»؛ وعبيد وأزنم: بطنان من بنى يربوع. وفى الأصلين (أرنما) بالراء المهملة وهو تحريف.

(٤) الصفرد: طائر يقال له: أبو المليح وهو طائر جبان.

(٥) فى ديوان ابن الرومى: "أو يشول".

(٦) فى ديوان ابن الرومى: "فيطعم الله به نصره".

ومن أخبار الفرَّارين الذين حسّنوا الفِرار على قبْحه (١٠١)

قال صاحب كليلة ودمنة : إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدًّا منه ، لأن النفقة فيه من النفس ، والنفقة فى غيره من المـال .

وقالوا : من توقَّى سَلِم ، ومن تهوَّر نَدِم .

وقال عبـد الله بن المُقَفَّع : الشجاعة مَتْلَفة ، وذلك أن المقتول مُقْبلا أكثر من المقتول مُدْبرا ، فمن أراد السلامة فَلْيُؤْثِر الجُبن على الشجاعة .

ولِيمَ بعضُ الجبناء على جبنه ، فقال : أوّل الحرب شَكْوى ، وأوسطها نَجْوى ، وآخرها بَلْوى .

وقال آخر : الحرب مقتلة للعباد ، مذهبة للطارف والتلاد .

وقيل لجبان : لِمَ لا تقاتل؟ فقال : «عند النطاح يُغْلَب الكبش الأجم»[1] .

وقالوا : الحياة أفضل من الموت ، والفِرار فى وقته ظَفَر .

وقالوا : الشجاع مُلقًّى ، والجبان مُوقًّى . قال البديع الهَمَذانى :

ماذاق هَمًّا كالشجاع ولاخلا ✻ بمَسَرَّةٍ كالعاجز المُتَـوانى

وقالوا : الفرار فى وقته ، خير من الثبات فى غير وقته .

وقالوا : السَّلم أزكى للمـال ، وأبقى لأنفُس الرجال .

وقالوا : الحِمام فى الإقدام ، والسلامة فى الإحجام .

وقال المتوكّل لأبى العيناء : إنى لأَفرَق من لسانك ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، الكريم ذو فَرَق و إحجام ، واللئيم ذو وَقَاحة و إقدام .

---

(١) الأجم : الذى لا قرن له ، وهو مثل يضرب لمن غلبه صاحبه بما أعدّ له .

وقيل لأعرابىّ: ألَا تعرف[1] القتال فإن الله قد أمرك به؟ فقال: والله إنى لأُبغض الموت على فراشى فى عافية، فكيف أمضى إليه رَكْضا! قال شاعر:

تمشى المنايا الى قومٍ فأُبغضها * فكيف أعدو إليها عارىَ الكَفَنِ[2]؟

وقيل ليزيد: إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيتَ شخصا بالليل فكن للإقدام عليه أولى منه عليك"، فقال: أخاف أن يكون قد سمع الحديث قبلى، فأقع معه فيما أكرَه، وإنما الهرَبُ خير.

وسَمِع سليمانُ بن عبد الملك قارئا يقرأ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فقال: ذلك القليلَ نريد.

ولما فَرّ أُميّةُ بن عبد الله بن خالد بن أسيد يوم مَرْدَاء هَجَر[3] بالبحرين من أبى فُدَيْك الخارجىّ إلى البصرة، ودخل عليه أهلُها، فلم يدروا كيف يكلّمونه ولا ما يلقونه به من القول، أيهنئونه بالسَّلامة أم يعزّونه بالفِرار، حتى دخل عبد الله ابن الأهتم، فاستَشْرَف الناس له، ثم قالوا: ماعسى أن يقول لمنهزم! فسلّم ثم قال: مرحبا بالصابر المخذول [الذى[4] خذله قومه]، الحمد لله الذى نظر لنا عليك، ولم ينظر لك علينا، فقد تعرّضت للشهادة جهدك، ولكن الله علِم حاجة أهل الإسلام إليك فأبقاك لهم بخِذْلان من معك لك. فقال أميّة: ما وجدتُ أحدا أخبرنى عن نفسى غيرَك.

---

(١) فى تذكرة الصفدى والعقد الفريد (ج ١ ص ٤٥ طبع بولاق): «ألا تغزو العدو فان الله... الخ».

(٢) فى تذكرة الصفدى: «عارى الكتف».

(٣) فى معجم البلدان لياقوت — بعد أن شرح «مرداء هجر» بأنها رملة دونها لا تنبت شيئا — قال: «مرداء مضر أيضا قرية كان بها يوم بين أبى فديك الخارجىّ وأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد فقر أمية أقبح فرار» اهـ.

(٤) الزيادة عن العقد الفريد.

وقال الحارث بن هشام وأحسن فى اعتذاره عن الفرار :

اللهَ يَعْلَمُ ما تَرَكْتُ قتالَهم * حتى عَلَوْا مُهرى بأشقرَ مُزْبِد
وعلمتُ أنّى إن أُقاتِلْ واحدًا * أُقتَلْ ولا يَضرُرْ عدوى مَشْهَدى
فصَدَفْتُ عنهم والأَحِبَّةُ فيهمُ * طمعا لهم بعِقَاب يوم سَرْمَد

وقال زُفَرُ بن الحارث وقد فر يوم مَرْج رَاهِط[1] عن رفيقيه[2] :

أَيَذْهَبُ يومٌ واحد إن أَسَأْتُه * بصالح أيامى وحسنِ بَلائيا
فلم تُرمَنى زَلَّةٌ قبل هذه * فِرَارى وتَرْكى صاحبىّ ورائيا

وهى أبيات نَذْكُرها إن شاء الله فى التاريخ . ونظير ذلك قول عمرو بن معد يكرب من أبيات يخاطب بها أخته رَيْحانة، وقد فر من بنى عَبْس :

أجاعلةٌ أمُّ النُّوَيْرِ[3] خَزايةً * علىَّ فِرَارى إذ لَقِيتُ بنى عَبْس
وليس يُعاب المرءُ من جبنِ يومِه * إذا عُرفت منه الحِمايةُ[4] بالأَمس

وعكس هذا البيت عبدُ الله بنُ مطيع بن الأسود العَدوىّ، وكان قد فر يوم الحَرَّة من جيش مُسلِم بنِ عُقبةَ ، فلما حاصر الحجاج عبدَ الله بن الزبير بمكةَ جعل يقاتل أهل الشام ويرتجز :

أنا الذى فَرَرتُ يوم الحَرَّهْ * والشيخ لا يَفِرّ إلا مَرَّهْ
فاليومَ أَجزِى كَرَّةً بِفَرَّهْ * لا بأس بالكَرَّة بعد الفَرَّهْ

ولم يَزَلْ يُقاتِل حتى قُتِل . قال الفرّار السّلمىّ[5] :

(١) مرج راهط : موضع بغوطة دمشق ، سمى باسم رجل من قضاعة ، كانت به وقعة مشهورة بين قيس وتغلب (راجع معجم ياقوت) فى اسم راهط .

(٢) فى العقد الفريد : «عن أبيه وأخيه» .

(٣) فى حماسة البحترى (ص ٦٧ طبع أوربا) : « أم الحصين » .

(٤) فى العقد الفريد : « ... إذا عرفت منه الشجاعة ... الخ » .

(٥) الذى فى حماسة البحترى ص ٦٥ « وقال حيان بن الحكم السلمى » .

وفوارسٍ لَبَّسْتُها بفوارس * حتى إذا ٱلْتَبَسَت أَمَلْتُ بها يدى (١)
وتَرَكْتُهم تَقِصُ (٢) الرِّماحُ ظهورَهم * من بين مَقتول وآخرَ مُسْنَدِ
هل ينفعنّى أن تقول نساؤهم * وقُتِلتُ دون رجالهم : لا تَبْعُدِ؟

وقال آخر :

قامت (٣) تُشَجِّعنى هِنـدٌ فقلت لها * إن الشجاعة مَقْرُون بها العطبُ
لا والذى منـع الأبصارَ رُؤْيتَه (٤) * ما يشتهى الموتَ عندى منْ له أَرَبُ
للحرب قـومٌ أضـلّ الله سعيَهُمُ * إذا دَعتْهُـم إلى نِيرانها (٥) وَثَبُـوا

وقيل لجبان فى بعض الوقائع : تَقَدَّم، فقال :

وقالوا تقـدَّمْ قلتُ لستُ بفاعل * أخاف على خَفَّارتى أن تحطَّمـا
فلو كان لى رأسان أتلفتُ واحدًا * ولكنه رأس اذا زال أَعْقما
وأوتم أولادا وأُرمِـلُ نسـوةً * فكيف على هـذا تَرَوْن التقدّما

ذكر ما قيل فى الحمق والجهل

قالوا : الحُمْق قلّةُ الإصابة، ووَضْع الكلام فى غير موضعه . وقيل : هو فِقْدان ما يُحمد من العاقل . وقيل لعمرَ بنِ هُبَيْرة : ما حدّ الحمق ؟ قال : لا حدّ له كالعقل .

---

(١) ورد هذا البيت فى حماسة البحترى ص ٢٦٥ هكذا :
وكتيبـة لبستها بكتيبة * حتى اذا التبست نفحت بيدى
(٢) كذا فى حماسة البحترى، وتقص : تدق وتكسر . وفى الأصل : «تقض» وهو تحريف .
(٣) فى تذكرة الصفدى : * باتت تشجعنى عرسى وقد علمت *
(٤) رواية تذكرة الصفدى : * جمت الأنصار كلهم *
(٥) فى تذكرة الصفدى : ... الى آفاتها ... ... الخ » .

وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الأحمق أبغضُ الخلقِ إلى الله، لأنَّه حَرَمه أعزَّ الأشياء عليه وهو العقلُ" .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى : أتَدْرِى لِمَ رزقتُ الأحمقَ؟ قال : لا ياربّ، قال : ليعلم العاقلُ أن طَلَبَ الرزقِ ليس بالاجتهاد .

وقال الشعبيّ : إذا أراد اللهُ أن يُزيلَ عن عبدٍ نعمةً كان أوّل ما يُعدمه عقلَه .

وقالوا : الحمق داءٌ دواؤه الموتُ . وقد بيّن الله تعالى خيبةَ من لم يعقل بقوله : ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ قيل : عاقلا ، وبقوله : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ .

وعَنْ أنس بنِ مالكٍ رضى اللهُ عنه قال : أثنى قومٌ على رجل عند النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى بالَغُوا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف عقلُ الرجل" ؛ فقالوا : نُخبرُك عن اجتهاده فى العبادَة وأصنافِ الخير وتسألنا عن عقله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنَّ الأحمقَ يصيبُ بحُمْقه أعظمَ من فُجُورِ الفاجرِ وترتفع العبادُ غدا فى الدرجات [زائى من ربهم](١) على قدر عقولهم" .

ومِن كلامِ لقمانَ لابنه : أنْ تكون أخرَس عاقلا خيرٌ من أن تكونَ نطوقا جاهلا . ولكل شىء دليل ، ودليل العقلِ النقل ، ودليلُ(٢) النقلِ الصمتُ . وكَفَى بك جهلا أن تَنهى الناس عن شىء وتركبه .

وقال عيسى عليه السلام : عَالجتُ الأكْمَه والأبرَص فأبرأتُهما ، وعالجت الأحمقَ فأعْيانى . قال شاعر :

لِكلّ داءٍ دواءٌ يُستطبُّ به * إلّا الحماقةَ أعيتْ من يُداويها

---

(١) الزيادة عن تذكرة الصفدى .

(٢) رواية الصفدى : « ودليل العقل التفكر ، ودليل التفكر الصمت » .

وقال آخر :

وعلاجُ الأبْدان أيسرُ خطبًا * حينَ تعتلّ من علاجِ العقولِ

وقال آخر :

الحُمْــق داءٌ ما له حيــلةٌ * تُرْجَى كبعد النجم من مسّهِ

وقيل إذا قيل لك : إن فقيرا آستغنى، وغنيّا افْتَقَر، وحيّا مات، أو ميتا عاش، فصدّق؛ وإذا بَلَغك أن أحمقَ آستفادَ عقلا فلا تُصدِّقْ .

وقالوا : الأحمقُ تُمنى أمُّه أنَّها به مُثْكَلة، وتُمنى زوجُه أنَّها منه أرملة؛ ويتمنى جارُه منه العزلةَ، ورَفيقُه منه الوحشةَ، وأخوه منه الفُرْقةَ .

وقال سهل بنُ هارونَ : وجدْتُ مودّة الجاهل، وعداوةَ العاقلِ، أُسوةً فى الخَطَر؛ ووجدْت الأُنسَ بالجاهل، والوحشَةَ من العاقل، سِيّين فى العَيْبِ؛ ووجدتُ غِشَّ العاقل أقلَّ ضررًا من نصيحةِ الجاهلِ؛ ووجدتُ ظنَّ العاقل أوقعَ بالصواب من يَقينِ الجاهل؛ ووجدتُ العاقلَ أحفظَ لما لم يُستَكتَم من الجاهل لما آستُكتِمَ .

وقال لقمان لآبنه : لا تُعاشِرِ الأحمقَ وإنْ كان ذا جَمال، وآنظر الى السيف، ما أحسنَ مَنظَرَه وأقبحَ أثَرَه ! .

وقال علىٌّ رضى الله عنه : قَطيعةُ الجاهل تَعدِلُ صِلَةَ العاقل. وقال : صديق الجاهلِ فى تعب .

وقال آخر : لَأَنَا لِلعاقلِ المُدْبِرِ أَرْجَى منّى[1] للأحْمقِ المُقْبِلِ . وقال شاعر :

عَدُوكَ ذُو العقل خيرٌ من الصَّــديقِ لكَ الوَامقِ الأحمق

(١) كذا فى تذكرة الصفدى . وفى الأصل : «أرجى شيء من الأحمق» وهو تحريف .

والبيت المشهور السائر :

وَلَأَن يُعَادِىَ عَاقِلا خَيْرٌ له * مِنْ أَنْ يكُونَ له صدِيقٌ أحمقُ

وقيل : الحمق يَسلبُ السلامة، ويورث الندامة . وقد ذمّوا مَنْ له أدب بلا عَقْل .

ووصف أعرابىّ رجلا فقال : هو ذو أدبٍ وافر، وعقل نافر. قال شاعر :

فَهَبْكَ أخا الآدابِ أىّ فَضيلة * تكونُ لذى علمٍ وليس له عقلُ

* * *

ومن صفات الأحمقِ وعلاماته . قيل : ما أَعْدمكَ من الأحمقِ فلا يُعدمك منه كثرة الالتفاتِ وسرعة الجوابِ . ومن علاماته الثقةُ بكلِّ أحد .

وَيُقال : إنَّ الجاهلَ مُولَعٌ بحلاوةِ العاجل ، غير مبال بالعواقب، ولا مُعْتَبر بالمواعظ، ليس يُعجبُه إلا ما ضَرَّه، إن أصابَ فَعلَى غيرِ قَصدٍ ، وإنْ أخطَأ فهو الذى لا يحسن به غيرُه، لا يَستوحِشُ من الإساءة، ولا يفرحُ بالإحسانِ .

وقالوا : ستُّ خِصال تُعرَفُ فى الجاهل : الغضبُ من غيرِ شىء، والكلام فى غير نفع، والفِطْنة فى غير موضع ، ولا يَعرِفُ صديقَه مِن عدوّه، وإفشاءُ السرِّ، والثِّقةُ بكلِّ أحد .

وقالوا : غضَب الجاهلِ فى قوله ، وغضبُ العاقلِ فى فعلِه . والعاقلُ اذا تكلّم بكلمةٍ أتْبعها مثلا، والأحمق اذا تكلّم بكلمة أتبعها حَلِفا[1] . الأحمقُ اذا حدَّث ذَهَل، واذا تكلم عجِل، واذا حُمِلَ على القبيحِ فَعَل .

وقال أبو يوسف : إثباتُ الحجةِ على الجاهلِ سهلٌ، ولكن إقراره بها صعبٌ .

(١) كذا فى التذكرة . وفى الأصول : « خلفا » بالخاء المعجمة .

وقال وهب بنُ منبّه : كان يقالُ للأحمق : اذا تكلَّم فَضَحَه حُمقُه، واذا سكت فضحه عِيُّه؛ واذا عمِل أفسَدَ، واذا ترَكَ أضَاع؛ لا علمُه يُعينُه، ولا علْمُ غيرِه يَنفعُه؛ تَوَدّ أمُّه أنها ثكلتْه، وتمنى امرأتُه أنها عَدِمتْـه؛ ويتمنى جارُه منه الوَحدةَ، وتأخذ جليسَه منه الوحشةُ .

ويُستدلُّ على الأحمق بأشـياء، قالوا : من طالتْ قامتُه، وصَغُرت هامتُـه، وآنسدلت لحيته، كان حَقيقا على من يراه أنْ يُقرِنَه عن عقلِه السلامَ .

ويُقال فى التوراة : اللحيةُ مَخرَجُها من الدِّماغ، فمن أفرطَ عليه طولُها قلَّ دِماغُه، ومن قلّ دِماغُه قلَّ عقلُه، ومن قلَّ عقلُه فهو أحمقُ .

وقالت أعرابيّة لقاضٍ قضى عليها : صَغُر رأسُك، فَبعُدَ فهمُك، وآنسـدلت لحيتُك، فتكوْسجَ عقلُك، وما رأيت مَيْتا يقضى بين حَيَّيْنِ غيرَك .

(١١١) وقال مَسْلَمة(١) بنُ عبدِ الملكِ لجلسائه : يُعرفُ حمْقُ الرجلِ فى أربع : طول لحيته، وبشاعة كنيته وإفراط شَهوته، ونقش خاتمه؛ فدخلَ عليـه رجلٌ طويلُ اللحية، فقال : أمَّا هذا فقد أتاكم بواحدةٍ، فانظروا أينَ هوَ من الثَّلاثِ؛ فقيل له : ما كُنيتُك؟ فقال : أبو الياقوتِ، فقيل له : ما نقْشُ خاتَمك؟ فقال : وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ . قيل : فأىُّ الطعامِ أحبُّ إليكَ؟ قال : الجُلَنجبِين(٢)؛ فقال مَسْلَمة : فيه ما بعدَ كنيتِه، معَ طول لحيته، مع نقش خاتمه شكٌّ لِمُعْتبِر .

قال الشَّعبىّ : خطَبَ الحجاجُ يومَ جمعةٍ فأطال، فقام إليـه أعرابىٌّ فقال له : إن الوقت لا ينتظرُك وإنَّ الربَّ لا يَعْذُرك؛ فأمر به فحُبِس، فأتاه أهلُه يشفعون فيه

(١) فى عيون الاخبار (ج ٢ ص ٣٩ طبع دار الكتب المصرية) : « هشام بن عبد الملك » .

(٢) فى كتاب الالفاظ الفارسية المعربة لادى شير وأقرب الموارد أن الجلنجبين : معجون يعمل من الورد والعسل، فارسىّ معرّب عن كلمة "كل" ومعناها ورد، وعن كلمة "أنكبين" ومعناها عسل .

وقالوا : إنه مجنونٌ ؛ فقال الحجاجُ : إن أقرَّ بالجنونِ خَلّيتُ سبيلَه ؛ فأتوه وسألوه ذلك ، فقال : لا واللهِ ، لا أقول إن الله ابتلانى وقد عافانى ؛ فبلغ كلامُه الحجاجَ فعظُم فى نفسه وأطلقَه .

وقال الأصمعىُّ : قلت لغلامٍ من أبناء العربِ : أيسرُّك أن يكون لك مائةُ ألفٍ وأنت أحمقُ ؟ قال : لا واللهِ ! قلتُ : ولِمَ؟ قال : أخافُ أن يَجْنِىَ علىّ حُمقى جِنَايَةً فتَذهب منّى ويبقى حُمقى .

والعربُ تَضربُ المَثَلَ فى الحمقِ بعِجْل بن لُجَيْم ، ويزعمون أنَّه قيل له : إنَّ لكل فرسٍ جوادٍ اسمًا ؛ وإنَّ فرسَك هذا سابقٌ فسمِّه ؛ ففقَأَ عينَه وقال : سميتُه الأعورَ . وفيه يقول الشاعر :

رَمَتْنِى بَنُو عِجْلٍ بِداء أبيهِمُ * وهل أحدٌ[1] فى الناس أحمقُ من عِجْلِ

أليس أبوهم عارَ عينَ جوادِه[2] * فسارتْ به الأمثالُ فى الناس بالجهلِ

ويضربون المثَلَ فى الحمق بِهَبَنَّقَةَ القَيْسىّ ، وهو يَزيدُ بنُ ثَرْوَان ، ويكنى أبانافع ، حُكى أنه شَرد له بعيرٌ ، فقال : من جاء به فله بَعيران ؛ فقيلَ له : أتجعلُ فى بعير بَعيرين؟ فقال : إنكم لا تَعرفون فرحة الوِجْدان .

وقد رضِى قومٌ بالجهل فقالوا : ضعفُ العقلِ أمانٌ من الغمِّ . وقالوا : ما سُرَّ عاقل قطّ . قال أبو الطيّب المتنبى :

ذو العقلِ يَشقَى فى النعيم بعقلِه * وأخو الجَهَالَةِ فى الشقاوةِ يَنْعَمُ

---

(١) رواية عيون الأخبار (ج ٢ ص ٤٣) :

* وأىّ عباد الله أنوك من عجل *

(٢) عاره : صيره أعور .

وقال حكيمٌ : ثمرةُ الدنيا السرورُ، ولا سرورَ للعقلاء . وقال المغيرةُ بنُ شعبةَ: ما العيشُ إلَّا فى إلقاء الحشمةِ . وقالَ بكر بن المعتَمر : اذا كان العقلُ سبعةَ[1] أجزاءٍ احتاجَ الى جزء من جَهلٍ ليُقدِمُ على الأُمورِ، فانَّ العاقلَ أبدا مُتوانٍ مترقّب متوقّف متخوّف . قال النابغةُ الجعدىّ :

ولا خَيرَ فى حِلْمٍ اذا لَمْ تكن له * بوادرُ تحمى صفوَه أن يُكدَّرا

وقال آخر :

من راقبَ الناسَ لم يَظفَرْ بحاجَتِه * وفازَ بالطّيباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

أخذه آخر فقال :

من راقب الناس ماتَ غمًّا * وفاز باللَّذَّة الجَسورُ

وقالوا : الجاهلُ يَنالُ أغراضَه، ويَظفَر بآرائه، ويطيعُ قلبَه، ويَجرى فى عِنان هواه، وهو بريءٌ من اللومِ، سليمٌ من العيبِ، مغفورُ الزَّلّات .

وقالوا : الجاهلُ رَحبُ الذَّرْعِ، خالى البال، عازبُ الهمّ، حسنُ الظن، لايَخطُرُ خوفُ الموت بفكرِه، ولا يَجرى ألمُ الإشفاق على ذُكره .

وقالوا : الجهلُ مَطِيَّةُ المِزاجِ والمسرّة، ومسرحُ المِزاجِ والفُكاهة، وحليفُ الهوى والتصابى، صاحبُه فى ذِمامٍ من عهدة اللوم والعَتْب، وأمانٍ من قوارصِ الذمّ والسبّ . قال بعضُ الشعراء :

ورأيتُ الهمومَ فى صحّة العقلِ فَداويتُها بإمراضِ عَقْلى

وقالوا : لو لم يكنْ من فَضيلةِ الجهلِ غيرُ الإقدام، وورود الحِمام، إذ هما من الشجاعةِ والبسالة، وسبب تحصيل المهابة والجلالة، لكفاه . قال أبو هلال العسكرىّ : سألنى بعضُ الأُدباء : أىّ الشعراء أشدُّ حمقا ؟ قلت الذى يقول :

(١) فى تذكرة الصفدى : "تسعة" .

أتيـهُ على إنسِ البـلاد وجِنِّها * ولو لم أجد خلقا لَتِهْتُ على نفسى
أتيـه فلا أدرى من التِّيـهِ مَنْ أنا * سوى مايقول الناسُ فىَّ وفى جنسى
فإنْ صدقوا أنى من الإنس مثلُهم * فما فىّ عيبٌ غيرَ أنّى من الإنسِ

ذكر ما قيل فى الكذب

قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ . وقال : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ﴾ . وقال فى الكاذبين : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِيَّاكُمْ[1] والكَذِبَ فإنَّ الكَذِبَ يَهدى الى الفُجُور والفجورَ يهدى الى النّار" . وقال صلى الله عليه وسلم : " الكَذِبُ مُجانِبُ الإيمَانِ " . وقال صلى الله عليه وسلم : " ثلاثٌ من كُنَّ فيه فهو منافقٌ و إنْ صلَّى وصامَ وزعَم أنه مسلمٌ مَنْ اذا حدَّثَ كَذَبَ واذا وعَد أخلَف واذا آؤْتُمِنَ خانَ" . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يجوز الكذبُ فى جِدّ ولا هَزْل" . وقال : " لايكونُ المؤمنُ كذّابا " .

وقالت الحكماء : ليس لكاذب مُروءةٌ .

وقالوا : من عُرِفَ بالكذِبِ لم يَحسُن صِدقُه .

وقال عبدُ الله بنُ عمرَ رضى الله عنهما : خُلْفُ الوعد ثُلُثُ النفاق .

وقال بعض الحكماء : الصدقُ مُنجيك و إنْ خِفتَه ، والكذبُ مُرديك و إن أَمِنتَه .

قال أبو عمرو بن العلاء القارئ : سادَ عُتبةُ بن ربيعة وكان مِلقا ، وساد أبوجهل وكان

(١) فى تذكرة الصفدى زيادة فى هذا الحديث نصها : " وتحرّوا الصدق فان الصدق يهدى الى البر والبر يهدى الى الجنة " .

حَدَثًا ، وساد أبو سـفيان وكان بَخَّالا ، وساد عامر بن الطُّفَيل وكان عاهرا ، وساد
كُلَيْب بن وائل وكان ظلوما ، وساد عُيَينة وكان مُحَمَّقًا ، ولم يَسُد قطُّ كذّاب ؛ فصلَح (١١٢)
السؤْدُد مع الفقر والحـداثة والبخل والعهر والظلم والحمق ، ولم يصلُح مع الكَذِب ؛
لأن الكذِبَ يعمّ الأخلاقَ كلَّها بالفساد .

وقال يحيى بنُ خالد : رأيت شِرِّيبَ خمرٍ نَزَع ، ولصّا أقلَع ، وصاحبَ فَواحشَ رجع ، ولم أَرَ كذّابا رجع .

ويقال : الكذبُ مِفتاح كُلّ كبيرة ، والخمر جِماعُ كلّ شَرٍّ .

وقيل : لا تأمنَنَّ مَنْ يكذِبُ لك أَنْ يَكذِبَ عليك .

وقيل : الكَذِبُ والنفاقُ والحسد أثافى الذّلّ .

وقال ٱبنُ عباس : حقيقٌ على الله ألّا يرفَع لِلكاذبِ درجةً ، ولا يُثبِّتَ له حجةً .

وقال سليمانُ بن سَـعد : لو صحِبنى رجلٌ وقال : لا تشـترِط علىّ إلا شرطا واحدا لقلت : لاتكذِبنى .

وقال أبو حيان التَّوحِيدىّ : الكذب شِعارُ خَلَق ، ومَوْرِدٌ رَنِق ، وأدبٌ سيِّئ ، وعادةٌ فاحشةٌ ، وقلّ مَن ٱسترسَل فيه إلا ألِفَه ، وقلَّ من ألفه إلا أتلفَه .

وقال غيرُه : الكَذِب أوضع الرذائلِ خُطّة ، وأجمعها للذمّة والمحطّة ، وأكبرُها ذُلًّا فى الدنيا ، وأكثرُها خزيا فى الآخرة ؛ وهو من أعظمِ علاماتِ النفاقِ ، وأقوى الدلائلِ على دناءة الأخلاق والأعراقِ ؛ لا يُؤْتَمن حاملُه على حال ، ولا يُصدَّق إذا قال .

وقيل : لكل شىء آفةٌ ، والكذب آفة النطق .

وقال بعضُ الكرماء : لو لم أَدَعِ الكَذِب تأثُّما ، لتركتُه تكرُّما .

وقال أرسطاطاليس : فُضِّلَ الناطقُ على الأخرس بالنطق ، وزَينُ النطق الصدقُ ؛ فإذا كانَ الناطقُ كاذبا فالأخرس خيرٌ منه .

وقال بعض الحكماء لولده : يا بُنَيَّ إياك والكذبَ، فإنه يُزْرِى بقائله، وإنْ كان شريفا فى أصله، ويُذِلُّه وإن كان عزيزا فى أهله .

وقال الأَحنفُ بن قيس : اِثنانِ لا يجتمعان : الكذبُ والمروءة .

وقال بُزُرْجِمِهْر : الكاذبُ والميتُ سواء، لأن فضيلة النطق الصدقُ، فإذا لم يُوثق بكلامه بطَلَت حياته .

وقال معاويةُ يوما للأَحْنف : أتكذِبُ؟ فقال : والله ما كَذَبتُ مُذ علمتُ أن الكذبَ شَيْنٌ .

وقيل : لا يجوز للرجل أن يكذب لصلاح نفسه، فما عجز الصدقُ عن إصلاحه كان الكذب أولى بفساده . قال بعض الشعراء :

ما أحسن الصدقَ والمغبوطُ قائلُه * وأقبحَ الكِذْبَ عند الله والناسِ

وقالوا : اِحذر مصاحبةَ الكذّاب، فإن اضطُرِرتَ إليها فلا تصدّقه، ولا تعلمه أنك كَذّبتَه، فينتقل عن مودّته، ولا ينتقل عن كذبه .

وقال هُرمس : اِجتنب مصاحبة الكذّاب، فإنك لستَ منه على شىء يُتحصَّل، وإنما أنت معه على مثل السَّراب يلمَعُ ولا ينفَع .

وقيل : الكذّاب شرٌّ من النَّمّام، فإن الكذّاب يختلق عليك، والنَّمّامَ ينقل عنك . قال شاعر :

إن النَّمُومَ أُعَطَّى دونه خَبَرِى * وليس لى حيلةٌ فى مُفْتَرِى الكَذِبِ

وقال آخر :

لى حيلةٌ فيمن ينِمُّ وليس فى الكذّاب حِيلَهْ
من كان يخلُق ما يقو * لُ فحيلتى فيه قليلَهْ

ووصف أعرابىّ كذابا فقال : كَذِبُهُ مثل عُطاسه : لا يُمكنه ردّه .

وقال بعض الأعراب : جِبت من الكذّاب المُشيد بكَذِبه ، وإنما هو يدُلّ الناس على عيبه ، ويتعرّض للعِقاب من ربّه ، فالآثام له عادة ، والأخبار عنه متضادّة ؛ إن قال حقا لم يُصَدَّق ، وإن أراد خيرا لم يُوفّق ؛ فهو الجانى على نفسه بفِعاله ، والدّالّ على فضيحتها بمقاله ؛ فما صحّ من صدقه نُسِب إلى غيره ، وما صحّ من كذب غيره نُسب إليه .

ويقال : الكذب جِمَاع النفاق ، وعِمَاد مساوى الأخلاق ؛ عارٌ لازم ، وذلّ دائم ؛ يُخيف صاحبُه نفسَه وهو آمن ، ويكشف سِتْر الحَسَب عن لُؤْمه الكامن .

وقال بعض الشعراء :

لا يكذِب المرءُ إلّا من مَهَانتِه * أو عادةِ السوء أومن قِلّة الوَرَعِ

وقال الأصمعىّ : قيل لرجل معروف بالكذب : هل صدقتَ؟ قال : أخاف أن أقول : "لا" فأصدُق .

وآفة الكذب النسيان . قال شاعر :

ومن آفةِ الكذّابِ نسيانُ كِذْبِهِ * وتلقاه ذَا دَهْيٍ إذا كان كاذبا

وقال علىّ بن اللّحام شاعر اليتيمة :

تكذِب الكِذْبة[1] يومًا * ثم تنساها قريبا

كن ذَكُورًا ياأبا يحـ * ـيى إذا كنت كَذُوبا

وقال أبو تمّام :

يا أكثر الناس وعدًا حَشْوُه خُلُف * وأكثرَ الناس قولًا حَشْوُه[2] كَذِبُ

(١) فى يتيمة الدهر : «الكذبة جهلا» .

(٢) فى ديوان أبى تمام : «كله» .

وقال أحمدُ بنُ محمّد بن عبد ربّه :

صحيفةٌ أفنيتُ "ليتٌ" بها و"عسى" * عُنوانُها راحة الراجى إذا يئسا
وَعْدٌ له هاجسٌ فى القلب (١) قد برِمتْ * أحشاءُ صدرى به من طول ما هجسا
يراعةٌ (٢) غرَّنى منها ومِيضُ سنًا * حتى مددتُ إليها الكفَّ مُقتبِسا
فصادفتْ (٣) حجَرًا لو كنتَ تضربُه * من لُؤمه بعصَا موسى لما انبجسا

وقال آخر :

وتقول لى قولا أظنُّك صادقا * فأجِىءُ من طمع اليك وأذهبُ
فإذا اجتمعتُ أنا وأنتَ بمجلسٍ * قالوا مُسيلمةٌ وهذا أشعبُ

ذكر ما قيل فى الغدر والخيانة

قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (١١٣) .

ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أمَّن (٤) رجلا ثم قتله وجبت له النار و إن كان المقتول كافرا" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اذا جمع الله الأولين والآخرين (٥) رُفع لكل غادرٍ لواءٌ وقيل هذه غَدْرة فلان" .

(١) رواية العقد الفريد (ج ١ ص ٢٤٩ طبع بولاق) :
«وعد له هاجس فى الغدر ... ... * ... ... من طول ما انجبسا»
(٢) فى العقد الفريد : «مواعد» .
(٣) فى العقد الفريد : «فصادمت» .
(٤) رواية الجامع الصغير : «من أمّن رجلا على دمه فقتله فأنا برىء من القاتل و إن كان المقتول كافرا» .
(٥) فى تذكرة الصفدى رواية ابن عمر : «الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان» .

وقالوا : من نقض عهده، ومنع رِفْده، فلا خيرَ عنده .

وقالوا : الغالب بالغدر مغلول، والناكث للعهد ممقوت مخذول .

وقالوا : من علامات النفاق، نقضُ العهد والميثاق .

وقالوا : لا عذر فى الغدر . والعـذر يصلُح فى كلّ المواطن؛ ولا عذر لغـادر ولا خائن .

وفى بعض الكتب المنزّلة : إن مما تُعَجَّل عقوبته من الذنوب ولا تُؤَخَّر: الإحسان يُكْفَر، والذّمة تُخْفَر . قال شاعر :

أخْلِقْ بمن رَضِىَ الخيانةَ شِيمةً * ألّا يُرَى إلّا صريعَ حوادثِ

ما زالتِ الأرزاءُ تُلحِقُ بؤسَها * أبدًا بغادرِ ذمّةٍ أو ناكث

وقالوا : الغَدْر ضامن العَثْرة، قاطع لِيد النُّصرة .

ويقال : من تعدّى على جاره، دَلَّ على لُؤْمِ نِجَارِه .

وذُكر أن عيسى صلوات الله عليه مرّ برجل وهو يُطارِد حيّة وهى تقول له : والله لئن لم تذهب عنّى لأنفُخَنّ عليك نفخة أُقَطِّعك بها قِطَعا ؛ فمضى عيسى عليه السلام فى شأنه ، ثم عاد فرأى الحية فى جُونة الرجل محبوسة ، فقال لها : ويحك ! أين ما كنتِ تقولين؟ قالت : يا رُوحَ الله، إنه حلف لى وغَدَر، وإنّ سُمَّ غدره أقتلُ له من سُمّى .

ذكر أخبار أهل الغَدْر وغَدَراتهم المشهورة

أعرف الناس فى الغدر آل الأشعث بن قيس بن معديكرب ، وقد عُدّت لهم غَدَرات ، فمنها : غدر قيس بن معديكرب بمراد ، وكان بينهم عهد ألّا يغزوهم إلى آنقضاء شهر رجب ؛ فوافاهم قبل الأَمَد بِكِنْدَة ، وجعل يحمل عليهم ويقول :

أقسمتُ لا أَنْزل حتّى تُهْزَمُوا * أنا آبن معد يكرِبٍ فاستسلِمُوا

* فارسُ هَيْجا ورئيسٌ مِصْدَمُ *

فَقُتِل قيس بن معد يكرب . وآرتد الأشعث عن الإسلام . وغدر الأشعث ببنى الحارث بن كعب ، وكان قد غزاهم فأَسَرُوه ، ففَدَى نفسه بمائتى بعير ، فأعطاهم مائة وبقى عليه مائة فلم يُؤَدّها ، وجاء الإسلام فهدَم ما كان فى الجاهليّة .

وغدر محمد بن الأشعث بن قيس بمسلم بن عَقِيل بن أبى طالب ؛ وغدر أيضا بأهل طَبَرِسْتان ، وكان عُبَيد الله بن زياد ولّاه إياها ، فصالح أهلَها على ألّا يدخلها ورحل عنهم ، ثم عاد إليهم غادرا ؛ فأخذوا عليه الشِّعاب ، وقتلوا آبنه أبا بكر .

وغدر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالحجّاج لما ولّاه خُرَاسَان ، وخرج عليه وآدّعى الخلافة ، وكان بينهم من الوقائع ما نذكره فى التاريخ فى أخبار الحجاج إن شاء الله تعالى ؛ وكانت الدائرة على عبد الرحمن ؛ وكلّهم ورِثُوا الغدر عن معديكرب ، فإنه غدر مَهْرَة ، وكان بينه وبينهم عهد الى أجل ، فغزاهم ناقضا لعهدهم فقتلوه وبَقَرُوا بطنه وملئوه بالحصى .

وغدرت آبنة الضَّيْزَن بن معاوية بأبيها صاحب الحَضْر ودلّت سابور على طريق فتحه ، ففتحه وقتل أباها وتزوجها ، ثم قتلها . وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الأوّل

من هذا الكتاب فى المبانى . ومن ذلك ما فعله النعمان بسِنمَّار ، وقد ذكرناه أيضا فى خبر بناء الخَوَرْنَق .

وممن اشتهر بالغـدر عمرو بن جُرموز : غدر بالزّبير بن العوّام ، وقتـله بوادى السباع . وندكر ذلك إن شاء الله تعالى فى حرب الجمل .

ومن الغدر الشنيع ما فعلته عَضَل والقَارَة ، رُوى أنه قدِم على رسول الله صلى الله عليـه وسلم بعـد أُحُد رهطٌ من عَضَل والقارة ، فقالوا : يارسـول الله إن فينا إسلاما وخيرا ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقّهوننا فى الدِّين ، ويُقرئوننا القرآن ، ويعلّموننا شرائع الإسلام ، فبعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة نفر من أصحابه ، وهم : مَرْثَد بن أبى مرثد الغَنَوِىّ ، وخالد بن [أبى](٢) البُكَيْر حليف بنى عدىّ ابن كعب ، وعاصم بن ثابت بن أبى الأَفْلَح أخو بنى عمرو بن عوف ، وخُبَيب بن عدىّ أخو بنى جَحْجَبَى بن كُلْفة بن عمرو بن عَوْف ، وزيد بن الدَّثِنَة أخو بنى بَيَاضَـة بن عامر ، وعبد الله بن طارق ، ومُعتّب بن عُبَيد أخو عبد الله لأُمه ، وأُمّر عليهم مَرْثَد ابن أبى مرثد ، وقيل أُمّر عليهم عاصما ، فخرجوا مع القوم ، حتى إذا كانوا على الرجيع — ماء لهذيل — غدروا بهم واستصرخوا عليهم هُذَيلا ، فلم يَرُع القومَ وهم فى رحالهم إلّا الرجالُ فى أيديهم السيوف ، فأخذوا أسيافَهم ليقاتلوا القوم ، فقالوا : إنّا والله ما نُريد قتلَكم ، ولكنا نريد أن نُصيبَ بكم شيئا من أهل مكة [ولكم عهـد الله وميثاقه(٣) لا نقتلكم] ، فأما مرثد وخالد وعاصم ومُعتّب فقالوا : والله ما نقبل من مشرك عهدا

(١) فى تذكرة الصفدى : «ستة نفر» وفى طبقات ابن سعد يذكر لحسان بن ثابت ذكر فيهما الستة ولم يذكر معتب بن عبيد .

(٢) التصويب عن الصفدى والطبقات الكبرى .

(٣) الزيادة عن تذكرة الصفدى .

ولا عَقْدا ، فقاتَلوا حتى قُتلوا ؛ وأما زيد وخُبَيْب وعبد الله فلانوا ورغبوا فى الحياة، وأعطوا بأيديهم ، فأسروهم وخرجوا بهم الى مكة ليَبيعوهم بها ؛ حتى إذا كانوا بمَرّ الظَّهْران آنتزع عبد الله بن طارق يده من القِران(١) ، ثم أخَذ سيفه وآستأخَر عن القوم ، فرَمَوْهُ بالحجارة حتى قتَلوه ؛ وقَدِمُوا بخبيب وزيد الى مكة فباعوهُما ، فابتاع خبيبا حُجْر بنُ أبى إهاب التميمىّ حليف بنى نوفل لعُقْبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليَقْتله بالحارث ؛ وأما زيد بن الدَّثِنَة فابتاعه صَفْوانُ بنُ أمية ليقتله بأمية بن خَلَف . ورُوى أن خُبيبا لما حصل عند بنات الحارث آستعارَ من إحداهن موسى ليستحدّ بها [للقتل](٢) ؛ فما راع المرأةَ إلا صبىّ لها يَدرُج ، وخُبيب قد أجلس الصبىَّ على فخذه ، والموسى فى يده ؛ فصاحت المرأة ، فقال خُبيب : أتحسَبين أنى أقتله ؟ إن الغدْر ليس من شأننا ؛ فقالت المرأة : مارأيت بعدُ أسيرا قطّ خيرا من خُبيب ! لقد رأيتُه وما بمكّة من ثمرة ، وأن فى يده قِطْفا من عنب يأكله ، إن كان إلّا رزقا رزقه اللهُ خبيبا . ولما خُرج بخُبيب من الحرم ليقتلوه قال : ذَرونى أصلّ ركعتين ، ثم قال : لولا أن يقال : جزِع لزِدْت ، وما أبالى على أىّ شِقّ كان مصرعى . وهذه القصّةُ نذكرها إن شاء الله تعالى بما هو أبسطُ من هذا فى السِّيرة النبويّة فى سَيْرة مَرْثَد إلى الرجيع .

قيل : أغار خَيْثَمة بن مالك الجُعْفِىّ على حىّ من بنى القَيْن ، فاستاقَ منهم إبلا فلحقوه ليَستَنقذوها منه ، فلم يطمَعوا فيه ؛ ثم ذَكَر يدًا كانت لبعضهم عنده ، فخلّى عما كان فى يده ، وولّى منصرفا ؛ فنادَوْه وقالوا : إن المفازة أمامَك ، ولا ماءَ معك ، وقد فعلت جميلا ، فآنزلْ ولك الذِّمام والجِوَار ، فنزل ؛ فلما آطمأنّ وسكن وآستمكنوا منه ، غدَروا به فقتلوه . ففى ذلك تقول عَمْرة آبنتُه :

(١) القران : حبل يقاد به البعير .
(٢) الزيادة عن تذكرة الصفدى .

غدرتم بمن لو كان ساعةَ غدركم * بكفّيه مفتوقُ الغرارين قاضبُ
أذادَكمُ عنـــه بضربٍ كأنّه * سهامُ المنايا كلّهن صوائبُ

وتلاحَى بنو مَفْروق[1] بن عمرو بن محارب، وبنو جَهْم بن مُرّة بن محارب، على ماءٍ لهم، فغلبتهم بنو مفروق فظَهرت عليهم؛ وكان فى بنى جَهْم شيخٌ له تجربة وسِنّ، فلما رأى ظهورهم قال: يابنى مفروق، نحن بنو أب واحد، فلِم تَنفانى؟ هلمّوا إلى الصلح، ولكم عهْدُ الله تعالى وميثاقُه وذمة آبائنا ألّا نهيجكم أبدا ولا نزاحمكم فى هذا الماء؛ فأجابتهم بنو مفروق إلى ذلك؛ فلما اطمأنوا ووضعوا السلاح عَدَا عليهم بنو جهم فنالوا منهم منالًا عظيما، وقتلوا جماعة من أشرافهم. ففى ذلك يقول أبو ظَفَر الحارثىّ:

هلّا غدرتم بمفـــروق[2] وأسرته * والبِيضُ مُصْلتةٌ والحرب تستعرُ
لما اطمأنوا وشاموا من سيوفهم[3] * ثُرْتم اليهم وعُرُّ الغـدر مشتهرُ
غدرتموهُم بأيمـانٍ مؤكّدةٍ * والوِرْدُ من بعده للغادر الصَّدَرُ

هذا ما قيل فى الغدر.

وأما الخيانة، فقد نهى الله تعالى عنها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا إيمان[4] لمن لا أمانةَ له ولا دِينَ لمن لا عهدَ له".

وقيل: من ضيّع الأمانة، ورَضِى بالخيانة، فقد بَرِئ من الدِّيانة.

(١) كذا فى تذكرة الصفدى. وفى الاصل: «بنو مقرون» وهو تحريف.
(٢) فى تذكرة الصفدى: «هلا ظفرت».
(٣) كذا فى تذكرة الصفدى. وفى الأصل: «فى».
(٤) رواية الجامع الصغير: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا صلاة لمن لا طهور له ولا دين لمن لا صلاة له وموضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد».

وقال حكيم : لو علم مُضيِّع الأمانة، ما فى النكث والخيانة، لقصَّر عنهما عِنانَه. وقالوا : من خان مان، ومن مان هان، وتبرّأ من الإحسان .

قيل : دخل شَهْرُ بنُ حَوْشَب وهو من جِلّة القرّاء وأصحاب الحديث على معاوية، وبين يديه خرائطُ فيها مال ، قد جُمعت لتوضع فى بيت المال ، فقعَد على خريطة منها وأخذها ، ومعاوية ينظرُ إليه ؛ فلما رُفعت الخرائط فُقد من عددها خريطة، فأعلم الخازنُ بذلك معاويةَ ؛ فقال : هى محسوبة لك فلا تسأل عن آخذها . ففيه يقول بعض الشعراء :

لقد باع شَهْرٌ دِينَه بخَرِيطةٍ ٭ فمَن يأمَن القرّاءَ بعدك يا شهرُ

وقال المنصور لعامل بلغه عنه خيانة : يا عدوّ الله وعدوّ أمير المؤمنين وعدوّ المسلمين ! أكلتَ مالَ الله، وخُنتَ خليفةَ الله ؛ فقال : يا أمير المؤمنين، نحن عيالُ الله ، وأنت خليفةُ الله، والمال مالُ الله ، فمال من نأكل إذًا ! فضحك وأطلقه، وأمر ألّا يُوَلَّى عملا بعدها .

وسرق رجل فى مجلس أنُوشِرْوان جامًا من ذهب وهو يراه ، فتفقّده الشرابىّ فقال : والله لا يخرج أحد حتى يُفتَّش ؛ فقال له أنو شِرْوانُ : لا تتعرّض لأحد، فقد أخذه من لا يردّه، ورآه من لا يَنُمُّ عليه .

وحُكى أن بعض التّجار أودع عند قاضى بمَعَرّة النعمان وديعةً، وغاب مدّةً، فلما رجع طالب بها ، فأنكرها القاضى ، فتشفّع إليه برؤساء بلده فى ردّها، فما زالوا به حتى أقرّ بها ، وادّعى أنها سُرقت من حِرْزه ؛ فاستحلفه المُودِع فحلف . فقال ابن الدُّوَيدة فى ذلك :

---

(١) كذا فى الصفدى . وفى الأصول : «فمن أين نأكل» .

لا يصدُق القاضى الخؤونُ إذا ادّعى * عدمَ الوديعـة من حصين المودع
إن قال قد ضاعت فيصدُق، إنها * ضاعت ولكن منك يعنى لو تَعِى (١١٥)
أو قال قد وقعت فيَصْـدقُ، إنها * وقعت ولكن منـه أحسنَ مَوْقع

وقال ابن الحجاج :

وأدعوهم إلى القـاضى عساهمُ * إذا وقع اليمينُ يُحلِّفُـونى
وأضْيعُ ما يكون الحق عنـدى * إذا عَزَم الغريمُ على اليمين

ذكر ما قيل فى الكِبْر والعُجْب

قال الله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ . وقال تعالى : ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ . وقال : ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ . وقال : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ . وقال : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ . وناهيك بهذا زجرًا.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يدخُل الجنةَ من كان فى قلبه حَبَّةٌ من خَرْدَلٍ من كِبْر" . وقال صلى الله عليه وسلم : "من تعظَّم فى نفسه واختال فى مِشْيته لقى اللهَ عزّ وجلّ وهو عليه غضبان" . وقال صلى الله عليه وسلم : "من جَرَّ ثوبَه خُيَلاء لم ينْظُرِ اللهُ إليه [يوم القيامة]" .

وروى : أن عبد الله بنَ سَلَام، مرّ بالسوق يحمل حُزْمة حطب ؛ فقيل له : أليس قد أغناك الله عن هـذا؟ قال : بلى ! ولكنى أردت أنْ أقمع به الكِبْر، سمعتُ رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول : "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبّة [من خردل] من كِبر" .

(١) التكملة عن الجامع الصغير .
(٢) التكملة عن الصفدى .

وقال عمر بنُ الخطاب رضى الله عنه: ما وجد أحدٌ فى نفسه كِبْرا إلا من مَهانة يجِدُها فى نفسه .

وقالوا : مَنْ قَلّ لُبُّه كثر عُجْبُه .

وقالوا : عُجْب[1] المرء بنفسه أحد حسّاده .

وقال أردشير بن بابَك : ما الكِبْر إلا فضل حُمْق لم يدر صاحبُه أين يَضَعُه فصرفه إلى الكِبْر .

ومن كلام لابن المعتزّ[2] : لما عرَف أهلُ التقصير حالَهم ، عند أهل الكمال استعانوا بالكِبر ليُعظِّم صغيرا ، ويَرفعَ حقيرا ، وليس بفاعل .

وقال أكثَمُ بنُ صَيْفِيّ : من أصاب حظا من دنياه فأصاره ذلك الى كِبْرٍ وتَرَفُّع فقد أعلم أنه نال فوق ما يستحقّ ، ومن أقام على حاله فقد أعلم أنه نال ما يستحقّ ، ومن تواضع وغادر الكِبْر فقد أعلم أنه نال دون ما يستحقّ .

وقال علىّ رضى الله عنه : عجِبت للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة ، وهو غدًا جِيفة .

وقيل : مرّ بعضُ أولاد المُهلَّب بمالك بن دينار وهو يَخْطِر ، فقال له : يابُنَىّ ، لو خَفَّضت بعض هذه الخُيَلاء ألم يكن أحسنَ بك من هذه الشّهرة التى قد شَهَرْتَ بها نفسَكَ ؟! فقال له الفتى : أوَ ما تعرِفُ من أنا؟ قال : بلى ! والله أعرِفك معرفة جيّدة ، أوّلك نطفة مَذِرة ، وآخرك جيفة قَذِرة ، وأنت بين ذلك حامل عَذِرة ؛ فأرخى الفتى رُدْنَيْه وكفّ مما كان يفعله ، وطأطأ رأسه ، ومضى مسترسلا .

(١) كذا فى تذكرة الصفدى . وفى الأصل « عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله » والظاهر أن كلمة « عقله » مقحمة من الناسخ .

(٢) فى أدب الدنيا والدين وتذكرة الصفدى : « لما عرف أهل النقص » .

(٣) الردنان : الكمان .

وقال الواقدىّ : دخل الفضْل بنُ يحيى ذاتَ يوم على أبيـه [وأنا عنده](١) وهو يَتَبَخترفى مِشْيته، [فكره ذلك منه،](١) فقال لى يحيى : يا أبا عبدالله، إن البخل والجهلَ مع التواضـع أزينُ بالرجل من الكبْر مع السخاء والعلم؛ فيالهـا حسـنة غطَّتْ على عيْبَيْن عظيمين؛ ويالهـا سيّئة غطَّتْ على حسنَتَيْن كبيرتين؛ ثم أومأ اليـه بالجلوس وقال : آحفظْه يا عبد الله(٢)، فإنه أدب كبير أخذناه عن العلماء .

ومن الكِبْر المستهجَن ما رُوى : أن وائل بنَ حُجْر أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم، فأقطعه أرضا، وقال لمعاوية : "اعرض هـذه الأرض عليه واكْتبها له"؛ فخرج مع وائل فى هاجرة شاوية، ومشى خلف ناقته، وقال له : أَردِفْنِى على عَجُز راحلتك؛ فقال : لستَ من أرداف الملوك؛ قال : فأعطنى نَعْلَيْك؛ فقال : ما بخـلٌ يمنعنى يابنَ أبى سُـفيان، ولكن أكرهُ أن يبلُغ أقْيالَ اليمن أنك لبست نَعْلى، ولكن آمش فى ظل ناقتى، فحسبُك به شرفا . وقيل : إن وائلا أدرك زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدّثه .

والعرب تجعل جَذِيمة الأبرش الغاية فى الكبْر، ورُوى : أنه كان لا ينادم أحدا ترفُّعا وكبرا؛ ويقول : إنما ينادمنى الفَرْقَدان . ومنه قول متمّم :

* وكنّا كَنَدْمَانَىْ جَذِيمة حِقْبَةً *

قيل : إنما أراد الفَرْقدين، لا كما ذكره الرواة أنهما مالك وعَقيل .

وقيل : كان آبن ثوابة(٣) من أقبح الناس كِبْرا، روى : أنه قال لغلامه : آسقنى ماء، فقال : نعم، قال : إنما يقول : "نعم" من يقدر على أن يقول : "لا"، وأمر

(١) الزيادة عن تذكرة الصفدى .

(٢) كذا فى الأصل والتذكرة . ولعلها : «يا أبا عبد الله» .

(٣) كذا فى الصفدى والطبرى . وفى الأصول : «أبو» وهو تحريف . وفى المستطرف (ج ١ ص ٥٥) «كان ابن عوانة» .

بضربه . ودعا أكَّارًا فكلمه، فلما فرَغ [من كلامه](١) دعا بماء وتمضمض استقذارا لمخاطبته . قال عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مسعود :

ولا تعجَبا أن تُؤْتَيَا فتُكَلَّما * فما حُشِيَ الأقوامُ شرًّا من الكبر

قال الجاحظ : المذكورون بالكبر من قريش : بنو مَخْزوم، وبنو أُمَيَّةَ، ومن العرب : بنو جَعْفَر بن كلاب، وبنو زُرارة بن عُدَس؛ وأما الأكاسرة فكانوا لا يَعدّون الناس إلا عبيدا، وأنفسَهم إلا أربابا؛ والكِبرُ في الأجناس الذليلة أرسخُ، ولكن القلّة والذلّة مانعتان من ظهور كبرهم؛ ومن قَدَر من الوضعاء أدنى قُدرة(٢) ظهر من كبره ما لا خَفاء به؛ و[شيء قد قتلته علما وهو أني] لم أر ذا كبر قطّ علا مَنْ دونه إلا وهو يَذلّ لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه . قال: أما بنو مخزوم، وبنو أميّة، وبنو جعفر بن كلاب، واختصاصهم بالتّيه، فإنهم أبطَرَهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة؛ ولو كان في قُوَى عقولهم فضلٌ عن قُوَى دواعي الحَمِيَّة فيهم لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وإنصافهم مَنْ دونهم . (١١٦)

وقال أبو الوليد الأعرابيّ(٣) :

ولستُ بتيّاهٍ إذا كنتُ مُثْرِيا * ولكنه خُلْقٍ إذا كنت مُعْدِما

وإنّ الذي يُعطَى من المال ثَرْوةً * إذا كان نذلَ الوالدين تعظّما

ومن المتكبرين، عُمَارةُ بن حمزة، حُكي عنه: أنه دخل على المهديّ، فلما استقر به الجلوس، قام رجل كان المهديّ قد أعدّه له ليتهكّم به؛ فقال : مظلوم يا أمير المؤمنين! قال : مَنْ ظلمك؟ قال : عُمَارة غصبني ضَيْعتي، وذكر ضَيْعة من

(١) زيادة عن الصفدي .

(٢) رواية الصفدي : «والجملة أن من قدر الخ» .

(٣) في الصفدي : «قال أبو البيداء» .

أحسن ضياع عُمَارة وأكثرها خَرَاجا، فقال المهدىّ لعُمَارة: قم فاجلس مع خَصْمِك، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما هو لى بخَصْم، إن كانت الضَّيعة له فلستُ أنازعه فيها، وإن كانت لى فقد وهبتُها له، ولا أقومُ من مجلس شرّفنى به أميرُ المؤمنين؛ فلما انصرف المجلس، سأل عُمارة عن صفة الرجل، وما كان لباسُه، وأين كان موضع جلوسه. وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمرّ على خَطئه تكبرا عن الرجوع، ويقول: نقض وإبرام فى ساعة واحدة، الخطأ أهون منه.

ومنهم من أهلكه الكبر وأذلّه. كان خالد بن عبد الله بن يَزيد بن أسد القَسْرِىّ أميرا على العراق، وبلغ من هشام بن عبد الملك محلا رفيعا، فأفسد أمره العُجبُ والكِبْرُ، وأدّياه[1] إلى الهَلَكَة، وعُذّب حتّى مات؛ وذلك أنه كان إذا ذُكِر هشام عنده قال: ابن الحمقاء! فسمعها رجل من أهل الشأم، فقال لهشام: إنّ هذا البَطِرَ الأَشِرَ الكافرَ لنعمتك ونعمة أبيك وإخوتك، يذكرك بأسوأ الذّكر؛ قال: لعله يقول: الأحولُ، قال: لا، ولكنّه يقول: ما لا تلتقى به الشّفتان؛ قال: لعله يقول: ابن الحمقاء، فأمسك الشامىّ؛ فقال هشام: قد بلغنى كلّ ذلك عنه. وكان خالد يقول: والله ما إمارةُ العراق مما تُشرّفنى، فبلغ ذلك هشاما [فغاظه][2]، فكتب إليه: بلغنى أنك يابن النصرانية تقول: إن إمارة العراق لا تُشرّفك وأنت دَعِىّ [الى][2] بجيلة القليلة الذليلة، والله إنى لأظن أن أول من يأتيك صيفىّ بن قيس فيشدّ يدَك إلى عُنقك. قال خالد بن صفوان بن الأهتم: لم تزل أفعال خالد حتى عزله هشام وعذّبه، وقتل ابنه يزيد بن خالد؛ فرأيت فى رجله شَرِيطا قدشدّه به الصّبيان يجرّونه، فدخلت إلى هشام يوما فحدّثته فأطلت؛ فتنفّس وقال: ياخالد[ربّ خالد][2]! كان أحبّ إلىّ قُرْبا وألذّ

(١) كذا فى تذكرة الصفدى. وفى الأصول: «أدناه».

(٢) الزيادة عن الصفدى.

عندى حديثا منك — يعنى خالدا القَسْرىّ — قال: فانتهزتُها ورجوت أن أشفع فتكون لى عنـد خالد يدا، فقلت : يا أمير المؤمنين، ما يمنعك من آستئناف الصّنيعة فقد أدّبتَه بما فَرط منه؟ فقال: هيهاتَ! إن خالدا أوجَف فأعجَف، وأدلّ فأملّ، وأفرط فى الإساءة فأفرطنا فى المكافأة؛ حُلِم(١) الأديمُ، ونغل الجُـرْح، وبلَغ السَّيْلُ الزُّبَى، والحِزامُ الطُّبْيَيْنِ، ولم يبق فيه مستصلَح، ولا للصّنيعة عنده موضع، عُدْ إلى حديثك.

ومنهم : من أفرط به الكِبْر الى الكفر. حُكى : أن سعيد بن زُرارة مرّت به آمرأة فقالت له : يا عبد الله، كيف الطريقُ إلى مكان كذا؟ فقال لها : أمِثلى يكون مِنْ عَبِيد الله !

ومنهم : عُبَيْـد الله بن زياد بن ظَبْيان، قال له رجل من قومه وقد رأى منـه ما أعجبه : كثّر اللهُ فينا مثلَك، فقال : لقد كلّفتم اللهَ شططا.

ومن أشعار المتكبّرين التيّاهين قول بعضهم :

* أتيه على جِنّ البلاد وإنْسِها *

الأبيات، وقد تقدّمت فى الحَمْق.

وقال آخر :

أَلقِنى فى لَظَى فإن أحرقَتْـنى * فتيقّن أنْ لستُ بالياقوتِ
صنَعَ النسجَ كلُّ مَنْ حاك لكنْ * ليس داودُ فيـه كالعنكبوتِ

قال آبن صابر(٢) الحزانىّ المنجنيقىّ يردّ عليه :

أيّها المدّعى الفخارَ دعِ الفَخْـ * ـرَ لِذى الكِبْرياء والجبرُوتِ
نسجُ داود لم يُفِدْ ليـلة الغا * رِ وكان الفخار للعنكبوتِ

(١) حلم الأديم : فسد، وهو وما بعده كناية عن اليأس من إصلاح الأمر بعد أن أوصله الفساد الى حيث لا يرجى اصلاحه. (٢) فى الأصل « ابن جبارة » والتصويب عن وفيات الأعيان لابن خلكان (أنظر ترجمته فى الجزء الثانى ص ٥٠٠ — ٥٠٧ طبع بولاق).

وبقاء السَّمَنْدِ[1] فى لَهَبِ النا * رِ نَزِيلُ فضـــيلةَ الياقوتِ
وكذاك النّعام يلتقم الجمـ * ـرَ وما الجَمْرُ للنّعام بقُـوتِ

* * *

ومما هُجِى به أهل التكبّر ، قول جُعيفران يهجو سعيد بنَ سَلْم بن قُتَيبة :

أمَّ سـعيدٍ لِم ولدتيـــهِ * ملوَّنًا بالكِبْرِ والتّيـــهِ
(١٧) ليتكِ إذ جئتِ به هكذا * حين خَرَيتيـــه أكلتيهِ

ذكر ما قيل فى الحرص والطمع

قال الله عزّ وجل لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ .

وقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "أربعٌ[2] من الشقاء ... الخ" عُدّ منها الحرص والأمل . وقال : "ما ذئبان جائعان أُرسلا فى غنم فأفسداها أشدّ من حرص المرء على المـال[3]" . وقال : "يَشيب[4] ابنُ آدم وتَشِبّ منـه اثنتان الحرص على المـال والحرص على العمر" . وقال : "إيّاكم والطمعَ فإنه الفقر الحاضر" .

---

(١) السمند : طائر يستلذ بالنار ولا يحترق بها .

(٢) تمام الحديث كما فى الجامع الصغير والصفدى : « ... جمود العين وقسوة القلب والحرص وطول الأمل » .

(٣) الذى فى الجامع الصغير : « ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » . وقد ساق الحديث فى اللسان مادة (شرف) برواية فيها بعض مخالفة عما هنا وعلق على قوله «والشرف لدينه» بقوله : يريد أن يشرف للباراة والمفاخرة والمساماة .

(٤) رواية الجامع الصغير : «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص وطول الأمل» .

ومن كلام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: الطمعُ مُورِد غير مُصْدِر، وضامن غير وفىّ. [وربما شرِق شارب الماء قبل رِيّه][1]؛ وكلما عَظُم قدر الشىء المتنافَس فيه عظمت الرّزية لفقده. والأمانىّ تُعمِى البصائرَ. أزرى بنفسه من استشعر الطمع، واستولت[2] عليه الأمانىّ.

وقال بعضهم: الحرص ينقُص من قدر الإنسان، ولا يزيد فى رزقه.

وقال قُتَيبة: إن الحريص استعجل الذّلة، قبل إدراك البغية.

وقيل: لا راحةَ لحَرِيص، ولا غِنًى لذِى طَمَع.

وقيل: إن كَعْبا لقِى عبد الله بن سلام، فقال: يابن سلام، مَنْ أربابُ العلم؟ قال: الذين يعملون به. قال: فما أذهب العلم من قلوب العلماء بعد إذْ عَلِموه ووَعَوْه؟ قال: الطمَعُ، وشَرَهُ النفس، وطلب الحوائج الى الناس. قال الأصْمَعىّ: سمعتُ أعرابيّا يقول: عجبتُ للحريص المستكثِر، المستقِلّ لكثير ما فى يده، المستكثِر لقليل ما فى يد غيره، حتّى طلب الفضل بذهاب الأصل؛ فركِبَ مفاوز البرارى، ولُجَجَ البِحار، معرِّضا نفسَه للمهلات، ومالَه للآفات؛ ناظرا الى من سَلِم، غيرَ معتبر بمن عدِم.

قال يزيد بن الحَكَم الثّقَفِىّ:

رأيتُ السّخِىَّ النفس يأتيه رِزْقُه * هنيئا ولا يُعطَى على الحِرْص جاشعُ
وكلّ حريص لن يُجاوزَ رزقَه * وكم من مُوقًى رزقه وهو وَادِعُ

وقالوا: مصارِعُ الألباب تحت ظلال الطمع. ويقال:

الحرّ عبدٌ ما طَمِع * والعبد حرٌّ ما قَنِع

(١) الزيادة عن الصفدى.

(٢) لم يذكر الصفدى كلام علىّ بن أبى طالب فيه الفقرة الأخيرة، وإنما ذكرها لأرسطاطاليس وعبارته: «لا غنى لمن ملكه الطمع واستولت عليه الأمانى».

وقالوا : أخرِج الطمعَ من قلبك، تَحُلّ القيد من رجلك .

وقال عمرو بن مالك الحارثىّ :

الحِرْصُ للنفسِ فقرٌ والقُنُوعُ غِنًى * والقوتُ إن قَنِعتْ بالقوت يَجزيها

والنفسُ لو أن مافى الأرض حِيزَلها * ما كان إن هى لم تَقْنَعْ بكافيها

وقال ابن هَرْمة (١) : ٥

وفى اليأس عن بعض المطامِعِ راحةٌ * ويارُبَّ خُسْرٍ أدركتْه المطامِعُ

وقال هُدْبَةُ بن خَشْرم :

وبعضُ رَجَاء المرء ما ليس نَائلًا * عَنَاءٌ وبعضُ اليأس أعفى وأرْوَحُ

وقال مُكْنِف بن معاوية التميمىّ (٢) :

تَرى المرءَ يأمُلُ ما لا يرى (٣) * ومن دون ذلك ريبُ الأَجَلْ ١٠

وكم آيسٍ قــد أتاه الرَّجَاءُ * وذِى طَمَعٍ قد لواه الأَمَلْ

وقال آخر :

طَمِعتَ فيا وعدتْك المنى * وليس فيما وَعَدتْ مَطْمَعُ

وثِقْتَ بالباطل من قولها * وليس حقًّا كلُّ ما تسمعُ

وإنمـا مَوْعِدُهـا بارِقٌ * فى كل حين خُلَّبٌ يَلْمَعُ ١٥

ويضرب المثل فى الطمع "بأشعب" . قيل له : ما بلغ من طمعك ؟ فقال للقائل له : لم تقل هذا إلّا وفى نفسك خيرٌ تصنعه بى . وقيل : إنه لم يمت شريف

---

(١) كذا فى تذكرة الصفدى وكتاب الشعر والشعراء وحماسة البحترى . وفى الأصل : « هرمة بن خشرم » وهو تحريف .

(٢) كذا فى الصفدى وحماسة البحترى . وفى الأصول : « التيمى » . ٢٠

(٣) فى الصفدى وحماسة البحترى « ما لن يرى » .

قطّ من أهل المدينة إلا آستعدَى أشعبُ على وصِيِّه أو وارثه وقال له : آحلف أنه لم يُوصِ لى بشىء قبل موته . ووقف على رجل يعمل طبقا من الخَيْزُران، فقال له : وسِّعْه قليلا، قال الخيزرانىّ : كأنك تريد أن تشتريَه ؟ قال : لا، ولكن ربما يشتريه بعض الأشراف فيُهْدِى إلىّ فيه شيئا . وسأله سالم بن عبد الله بن عُمَرَ رضى الله عنه عن طمعه، قال : قلت لصبيان مرةً : آذهبوا، هذا سالم قد فتح بيت صَدَقَة عمر حتى يُطعِمكم تمرا، فلما أحضروا ظننت أنه كما قلت لهم، فعدوْتُ فى إثرهم . وقيل له : ماذا بلغ من طمعك ؟ قال : أرى دخان جارى فأثُرُدُ(١) عليه . وقيل له أيضا : ما بلغ من طمعك؟ قال : ما رأيت عَرُوسا بالمدينة تُزَفّ إلا كنست بيتى ورششته طمعا أن تُزَفّ إلىّ . وقيل له : هل رأيتَ أطمع منك؟ قال : نعم، كلب أمّ حَوْمَل، تبعنى فرسخين، وأنا أمضغ كُنْدُرًا(٢)، ولقد حسدته على ذلك .

ذكر ما قيل فى الوَعْد والمَطْل

رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "العِدة(٣) دَيْن" .

وقال بعض القُرشيِّين : من خاف الكذب أقلّ من المواعيد .

وقيل : أمران لا يَسْلمان من الكذب : كثرة المواعيد، وشدّة الآعتذار .

وقالوا : خُلْف الوعد، خُلُقُ الوَغْد .

وقال المهلَّب لبنيه : يَابَنِىّ، إذا غدا عليكم الرجل أو راح مُسَلِّمًا فكفى بذلك تقاضيا .

---

(١) ثرد الخبز : فته .

(٢) الكندر : ضرب من العلك، وهو اللبان الذكر .

(٣) رواية الجامع الصغير : « عدة المؤمن دين » .

قال الشاعر :

أروح لتسليم عليك وأغتدى * فحسبُك بالتسليم منّى تقاضيا

كفى بِطِلاب المرءِ ما لا يناله * عَنَاءً وباليأس المصرّح ناهيا

(١١٨) وقيل : الوعد إذا لم يشفَعْه إنجاز يُحقِّقُه كان كلفظٍ لا معنى له ، وجسم لا رُوح (١) فيه . وقالوا : الخلف ألأمُ من البخل ، لأنه من لم يفعل المعروف ، لزمه [ذم اللؤم وحده ، ومن وعد فأخلف لزمه ثلاث مذمّات] : ذم اللؤم ، وذمُّ الخلف ، وذمُّ العجز.

قال بعض الشعراء :

وعدتَ فأكذبت المواعيدَ جاهدا * وأقلعتَ إقلاع الجَهَام بلا وَبْلِ

واجرَرْتَ لى حَبْلا طويلا تَبِعتُه * ولم أدرِ أن اليأس فى طَرَف الحبل

وقال أبو تمّام :

وما نفعُ من قد مات بالأمس صادِيًا * اذا ما سماءُ اليوم طال انهمارُهَا

وما العُرْفُ بالتّسويف إلا كخُلّةٍ * تسلّيت عنها حين شَطَّ مَزَارُهَا

والعرب تضرب المثل بمواعيد عُرقوب ، وكان رجلا من العماليق وله فى ذلك حكايات . فمنها : أنه أتاه أخ له : يسأله شيئا ، فقال له عرقوب : إذا أطلعَتْ هذه النخلة فلك طَلْعها ، فلما أطلعت ، أتاه الرجل للعِدَة ، فقال : دعها حتى تصير بلَحا ، فلما أبلحت ، أتاه ، فقال : دعها حتى تصير زَهْوًا ، فلما أزهت ، قال : دعها حتى تصير رُطَبا ، فلما أرطبت ، قال : دعها حتى تصير تمرا ، فلما أتمرت ، عمد إليها عرقوب فجذّها ، ولم يعط أخاه منها شيئا .

---

(١) التكملة عن العقد الفريد .

وفيه يقول الأشجعيّ :

وعدْتَ وكان الخلفُ منك سجيّةً * مواعيدَ عُرْقوب أخاه بيترِبِ[1]

وقال كعب بن زُهَير بن أبى سُلْمى :

كانت مواعيدُ عُرْقوب لها مثلاً * وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

وقال السَّكّيت للمهدىّ : يا أمير المؤمنين، لو كان الوعد يُستنزَل بالإهمال والسكوت لشكرتك القلوب بالضمير، ولنظرت إلى فضلك العيون بالأوهام؛ فقال المهدى : هذا جزاء التفريط فيما يكسب الأجر، ويدخر الشكر؛ وأمر بقضاء حاجته .

وقال أعرابىّ : العُذْرُ الجميل أحسن من المَطْل الطويل ، فإن أردت الإنعام فأنجِح، وإن تعذّرتِ الحاجةُ فأفصِح .

وقال بعض كُرَماء العرب : لأن أموتَ عَطَشا أحبُّ إلىّ من أن أُخلِف مَوْعدا .

وقالوا : من وَعَد فأخلف لزِمتْه ثلاثُ مذمات : ذمُّ اللُّؤم ، وذمُّ الخُلْف، وذم الكذب . وقال بعض الشعراء[2] :

ولا خيرَ فى وَعْدٍ اذا كان كاذبًا * ولا خيرَ فى قول اذا لم يكن فعْلُ

فإن تُجْمَع الآفاتُ فالبخلُ شرُّها * وشَرٌّ من البخل المواعيدُ والمَطْلُ

قال بعض الأعراب : فلان له مواعيدُ عواقبُها المَطْلُ ، وثمارُها الخُلْفُ، ومحصولُها اليأسُ .

---

(١) يترب (بالتاء المثناة وفتح الراء) : قرية باليمامة . انظر اللسان والقاموس . وفى الأصول : يثرب بالثاء المثلثة .

(٢) هو صالح المخىّ كما فى المستطرف ج ١ ص ٢٣٤

وقال آخر : فلان له وعد مُطْمِع . ومَطْلٌ مُؤْيِس ، وأنت منـه أبدا بين يأس وطمع ، فلا بَذْلٌ مُرِيح ، ولا مَنْعٌ صَرِيح .

وقال الثعالبيّ : أوّل من أخلف المواعيدَ ولم يَفِ بشيء منها إسماعيلُ بن صُبَيح كاتبُ الرشيد ، وما كان الرؤساء يعرفون قبله المواعيد الكاذبة .

ذكر ما قيل فى العِىّ والحَصَر

قال الله عزّ وجلّ : ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ . وقال تعالى إخبارا عن فرعون عند افتخاره على موسى بالبيان : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ . قال أهل التفسير : إن موسى عليه السلام لما سمع هذا القول قال : ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ الآية ، فقال الله تعالى : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ :

وقيـل : حدّ العِىّ معنًى قصير يَحْويه لفظٌ طويل . وقال أَكْثَمُ بن صَيْفِيّ : هو أن تتكلّم فوق ما تقتضيه حاجتُـك . وقالوا : الفقير الناطق أغنى من الغنىّ الساكت .

وقال كسرى : الصَّمْتُ خيرٌ من عِىّ الكلام .

وقالوا : فُضِّلَ الإنسانُ على ما عداه من الحيوان بالبيان ، فإذا نطق ولم يُفْصح عاد بَهيما .

وقالوا : العِىُّ داءٌ دواؤُه الخَرَسُ . ومن علامات العِىّ الاستعانة ، وهى أن ترى المخاطِبَ إذا كلّ لسانه عنـد مقاطِع كلامه يقول للمخاطَب : اسمع منّى ، أو سمعت لى ، وافهم عنّى ، وأشباه ذلك .

ومنهم من يقول : قولى كذا، أعنى به كذا، ولا يريد التفسير، ولكنه يعيد كلامه بصيغة أخرى تكون غير مراده الأول ليُفهمَ عنه .

ومن عيوب اللسان التَّمْتَمَةُ ، والفَأْفَأَةُ، والعُقْلة، والحُبْسَةُ، واللَّفَفُ، والرُّتَّةُ، والغَمْغَمة، والطَّمْطَمة ، واللُّكْنَةُ، والغُنَّة، واللُّثْغَة . فالتمتمة، قال الأَصْمَعِيّ : إذا تَعْتَع فى التاء فهو تَمْتَام، وإذا تردّد فى الفاء فهو فَأْفَاء . قال الراجز :

ليس بفَأْفَاءٍ ولا تمتام * ولا كثيرِ الهُجْرِ[1] فى الكلامِ

والعُقْلة : آلتواء اللسان عند الكلام . والحُبْسَةُ : تعذّر النطق، ولم تبلغ حدّ الفأفاء ولا التمتام . ويقال : إنها تعرض أوّل الكلام، فإذا مرّ فيه انقطعت . واللَّفَفُ : إدخال بعض الكلام فى بعض . وقال الراجز :

كأنّ فيه لَفَفًا اذا نَطَقْ * من طول تَحْبِيسٍ وهَمٍّ وأَرَقْ

والرُّتَّةُ : اتصال بعض الكلام ببعض دون إفادة . والغمغمة : أن تسمع الصوت ولا يتبيّن لك تقطيعُ الحروف، ولا تفهم معناه . والطمطمة : أن يكون الكلام شبيها بكلام العجم، وهى حِمْيَرِيّة، وقالوا : هى إبدال الطاء بالتاء لأنهما من مخرج واحد، فيقول : السُّلتان والشَّيتَان، وأشباه ذلك . قيل : وكانت فى لسان زياد بن سَلْمَى، وكان خطيبا شاعرا كاتبا . واللُّكْنَةُ : إدخال بعض حروف العرب فى حروف العجم، وتشترك فيها اللغة التركية والنبطيّة؛ وهى إبدال الهاء حاءً، وآنقلاب العين همزة، وكانت فى لسان عُبَيد الله بن زياد، وصُهَيب الرومىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن مولًى لزياد، قال له : أيها الأمير، أَحْدوا لنا هِمَارَ وَحْشٍ : يريد : أهدوا لنا حمارَ وحشٍ؛ فلم يفهم زياد عنه، وقال : ويلك ! ماذا تقول :

(١) رواية العقد الفريد (ج ١ ص ٢٩٤) فى هذا الشطر :

* ولا محب سقط الكلام *

قال : أحدوا لنا أَيْرًا : يريد عَيْرًا، فقال زياد : أرجعنا إلى الأول فهو خير . والغُنَّة أن يشرب الصـوتَ الخَيْشُومُ . والخُنَّةُ : ضرب منهـا . والترخيم : حذف بعض الكلمة لتعذّر النطق بها . واللُّثْغَة : إبدال ستة حروف بغيرها، وهى : الهمزة والراء والسين والقاف والكاف واللام ؛ أمّا ٱلتى تعرض للهمزة فهى إبدالها عينا، فإذا أراد أن يقول : أنت، قال : عَنْتَ، وهى مستعملة فى لسان التَّكْرُور. وأما التى تعرض فى الراء، فهى ستة أحرف، فمنهم من يجعلها غينا معجمة فيقول (غُمَغ) : يريد عُمَر، وهى غالبة على لسان أهل دمشق ؛ وإذا ٱجتمعت الراء والغين فى كلمة كقولهم : رغيف، قالوا : (غريف) ، وفَغَرْت بمكانِ فرغت، فيبدلون كلّ حرف بالآخر . قيل : وكانت فى لسان محمد بن شَبِيب الخارجىّ، وواصل بن عَطَاء المعتزلىّ، وكان لٱقتداره على الكلام، وغزارة مادّته منه يتجنب النطق بها . وفيـه يقول الشاعر من أبيات :

ويجعـل البُرَّ قَمْحا فى تصـرُّفه * وجانبَ الرَّاء حتى ٱحتال للشَّـعَرِ
ولم يُطِقْ مَطَرًا والقـولُ يُعجله * فعـاذ بالغَيْث إشفاقا من المَطَرِ

ومنهم : من يجعلها عينا مهملة، فيقول فى أزرق : أزعق، وهى فى لسان عوامّ أهل دِمَشق . ومنهم : من يجعلها ياءً، فيقول فى عُمَر : عُمَى . ومنهم : من يبدلها بالظاء أخت الطاء . ومنهم : من يبدلها همزة، فإذا أراد أن يقول : رأيت، قال : أَأَيْتُ . وأما التى تعرض للسـين فإنهم يبدلونها ثاء، فيقولون : باثم الله، ويُثْرة الله، إذا أرادوا باسم الله، ويُسرة الله، أو أشـباه ذلك ؛ وهى مستحسـنة فى الجوارى والغلمان . قال الشاعر :

وأهيف كالهلال شكوتُ وَجْدِى * إليـه لِحُسْـنِه وأطالتُ بَثِّى
وقلت له فدتْك النفسُ صِـلْنِى * تحـزْ فىَّ الثـوابَ فقال بَثِّى

وأما التى تعرض للقاف ، فإن صاحبها يجعل القاف طاءً، فإذا أراد أن يقول : نال، وقلت، نطق: بِطالَ، وطُلْتُ، وهى نبطيّة، وكانت فى لسان أبى مُسْلم صاحب الدعوة، وعُبَيد الله بن زياد . ومنهم من يجعلها كافا فيقول : كَال وكُلْت . وأما التى تعرض للكاف، فمنهم من يجعلها همزة، فيقول : أَأَف . ومنهم من يبدلها تاء، فيقول : تَانَ، إذا أراد : كان . وأما التى تعرض فى اللام، فمنهم من يبدلها ياءً، فيقول : اعتَيَيْتُ ، بمعنى اعتللت ، ويقول فى جَمَل : جمى ، وإذا أقسم بالله، يقول : ويَاه. ومنهم من يبدل الخاء المعجمة حاءً مهملة، فيقول فى خَوْخ : حَوْح، وتُستحسن فى الغِلْمان والجوارى . ومنهم من يبدل الجيم ضادًا ، فإذا اجتمع لأحد فى كلمة جيم وضاد، مثل ضجر، ونضج، قال : جضر، ونجض . والحمد لله وحدَه !

صورة ما ورد بآخر الجزء الثالث فى أحد الأصلين الفتوغرافيين

كمل الجزء الثالث من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب، يتلوه إن شاء الله تعالى فى أول الجزء الرابع منه : "الباب الثالث من القسم الثالث من الفن الثانى فى المجون والنوادر والفكاهات والملح" والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وحسبنا الله ونعم الوكيل

صورة ما ورد بآخر الجزء الثالث فى الأصل الآخر الفتوغرافى

كمل الجزء الثالث من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب على يد مؤلفه، فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكرى التيمى القرشى المعروف بالنويرى عفا الله عنه . ووافق الفراغ من كتابته فى يوم الثلاثاء المبارك لاثنتى عشرة ليلة خلت من صفر عام اثنتين وعشرين وسبعمائة ، يتلوه — إن شاء الله تعالى — فى أول الجزء الرابع : الباب الثالث من القسم الثالث من الفن الثانى فى المجون والنوادر والفكاهات والملح .

والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وحسبنا الله ونعم الوكيل

(مطبعة الدار ٤٨٣ / ١٩٢٧ / ١٠٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر الرابع

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٥

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

فهرس

السفر الرابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

الباب الثالث

صفحة

فى المجون والنوادر والفكاهات والملح ١

ذكر مزاحات رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣ — ذكر من اشتهر بالمزاح من الصحابة رضوان الله عليهم ٣ — ذكر شىء من مجون الأعراب ٧ — من نوادر القضاة ٩ — من نوادر النحاة ١٣ — من نوادر المتنبئين ١٤ — من نوادر المغفلين والحمق ١٦ — من نوار النبيذيين ١٧ — من نوادر النساء والجوارى ١٨ — من نوادر العميان ٢٢ — من نوادر السؤال ٢٣ — من نوادر من اشتهر بالمجون ٢٣ — من نوادر أشعب وأخباره ٢٤ — من نوادر أبى دلامة ٣٦ — من نوادر أبى صدقة ٤٨ — من نوادر الأقيشر ٥٢ — من نوادر ابن سيابة ٥٦ — من نوادر مطيع بن إياس الكنانى وأخباره ٥٧ — من نوادر أبى الشبل ٦٣ — من نوادر حمزة بن بيض الحنفى ٦٥ — من نوادر أبى العيناء عفا الله عنه ٦٨ — ذكر ما ورد فى كراهة المزح ٧٢ — من الشعر المناسب لهذا الباب والداخل فيه ٧٤

الباب الرابع

فى الخمر وتحريمها، وآفاتها، وجناياتها، وأسمائها، وأخبار من تنزّه عنها فى الجاهلية، ومن حدّ فيها من الأشراف، ومن اشتهر بها، ولبس ثوب الخلاعة بسببها، وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيل فى وصف آلاتها وآنيتها، وما قيل فى مبادرة اللذات، وما وصفت به المجالس، وما يجرى هذا المجرى ١٠٢

ذكر ما قيل فى الخمر وتحريمها ٧٦ — ما ورد فى تحريمها فى كتاب الله وبينته السنة ٨١ — ما قيل فى إباحة المطبوخ ٨٢ — آفات الخمر وجناياتها ٨٣ — أسماء الخمر من حيث تعصر الى أن تشرب ٨٦ — أخبار من تنزه عنها فى الجاهلية وتركها ترفعا عنها ٨٨

صفحة

ذكر من حدّ فيها من الأشراف ومن شربها منهم ومن اشتهر بها ولبس فيها ثوب الخلاعة ومن افتخر بشربها : ٩٠

من حدّ فيها من الأشراف ٩٠ — من شربها منهم واشتهر بها ٩٢ — من افتخر بشربها وسبائها ١٠٣

ذكر شيء مما قيل فيها من جيّد الشعر : ١٠٧

ما قيل فيها على سبيل المدح لها ١٠٧ — ما قيل فى وصفها وتشبيهها ١٠٨ — ما قيل فى أفعالها ١١٢ — ما وصفت به غير ما قدّمناه ١١٣ — ما قيل فيها اذا مزجت بالماء ١١٥

ذكر ما قيل فى مبادرة اللذات ومجالس الشراب وطيها : ١١٨

ما وصفت به مجالس الشرب ١١٩ — ما قيل فى طيّ مجالس الشراب ١٢١

ذكر ما قيل فى وصف آلات الشراب وأوانيها : ١٢١

ما قيل فى الراووق ١٢٢ — ما وصفت به زقاق الخمر ١٢٣ — ما وصفت به الأباريق ١٢٣ — ما وصفت به الكاسات والأقداح ١٢٤

الباب الخامس

فى الندمان والسقاة ١٢٦

ما قيل فى السقاة ١٢٩

الباب السادس

فى الغناء والسماع وما ورد فى ذلك من الحظر والإباحة وما استدل به مَن رأى ذلك ومن سمع الغناء من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ومن التابعين ومن الأئمة والعبّاد والزهّاد، ومن غنّى من الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقوّاد والأكابر، وأخبار المغنين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية، ومن أخذ عنهم، ومن اشتهر بالغناء وأخبار القيان ١٦٠

ذكر ما ورد فى الغناء من الحظر والاباحة ١٣٣ — ما قيل فى تحريم الغناء وما استدل به من رأى ذلك ١٣٣ — دليلهم من الكتاب العزيز ١٣٤ — دليلهم من السنة ١٣٤ — أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ١٣٥ — أقوال الأئمة رحمهم الله تعالى ١٣٦ — ما ورد فى إباحة الغناء والسماع والضرب بالآلة ١٣٧ — ما استدلوا به على إباحة الغناء من الأحاديث النبوية ١٣٨ — ما ورد فى الضرب بالآلة ١٤٠ — فى اليراع ١٤٢ — فى القصب والأوتار ١٤٣ — فى المزامير والملاهى ١٤٥ — ذكر ما ورد فى توهين

صفحة

ما استدلوا به على تحريم الغناء والسماع ١٤٧ — ما احتجوا به من الآيات ١٤٧ — ما احتجوا به من الحديث ١٥١ — ذكر أقسام السماع وبواعثه ١٦٧ — ذكر العوارض التى يحرم معها السماع ١٧١ — العارض الأول ١٧١ — الثانى فى الآلة ١٧٢ — الثالث فى نظم الصوت ١٧٢ — الرابع فى المستمع ١٧٣ — العارض الخامس ١٧٤ — ذكر آثار السماع وآدابه ١٧٤ — من سمع الغناء من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ١٩٠ — من سمع الغناء من الأئمة والعباد والزهاد ١٩٤ — من غنى من الخلفاء وأبنائهم ونسبت له أصوات من الغناء تقلت عنه ٢٠٠ — من غنى من الخلفاء ٢٠٠ — وممن غنى من خلفاء الدولة العباسية ٢٠١ — أبناء الخلفاء الذين لهم صنعة ويد فى هذا الفن ٢٠٥ — من غنى من الأشراف والعلماء رحمهم الله ٢٢٧ — من غنى من الأعيان والأكابر والقوّاد ممن نسبت له صنعة فى الغناء ٢٣١

ذكر أخبار المغنين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية ومن أخذ عنهم ومن اشتهر بالغناء : ٢٣٩

أخبار سعيد بن مسجح ٢٣٩ — أخبار سائب خاثر ٢٤٣ — أخبار طويس ٢٤٦ — أخبار عبد الله بن سريج ٢٤٩ — أخبار معبد ٢٦٢ — أخبار الغريض وما يتصل بها من أخبار عائشة بنت طلحة ٢٦٧ — أخبار محمد ابن عائشة ٢٨٠ — أخبار ابن محرز ٢٨٧ — أخبار مالك بن أبى السمح ٢٨٨ — أخبار يونس الكاتب ٢٩٢ — أخبار حنين ٢٩٣ — أخبار سياط ٢٩٥ — أخبار الأبجر ٢٩٧ — أخبار أبى زيد الدلال ٢٩٨ — أخبار عطرّد ٣٠٢ — أخبار عمر الوادى ٣٠٤ — أخبار حكم الوادى ٣٠٥ — أخبار ابن جامع ٣٠٦ — أخبار عمرو بن أبى الكلات ٣٠٨ — أخبار أبى المهنأ مخارق ٣١٢ — أخبار يحيى بن مرزوق المكىّ ٣٢٠ — أخبار أحمد بن يحيى المكى الملقب بطنين ٣٢١ — أخبار هاشم بن سليمان مولى بنى أمية ٣٢٢ — أخبار يزيد حوراء ٣٢٣ — أخبار فليح بن أبى العوراء ٣٢٦ — أخبار إبراهيم الموصلى عفا الله عنه ٣٢٨ — نبذة من أخبار إبراهيم الموصلى مع البرامكة رحمهم الله تعالى ٣٣٥

السفر الرابع

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل أفضل صلاة على أفضل خلقك سيدنا محمد وآله وسلم .

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الثانى

(فى المجون والنوادر والفُكاهات والمُلَح)

وهذا الباب مما تنجذب النفوس اليه ، وتشتمل الخواطر عليه ؛ فإن فيه راحةً للنفوس إذا تعبت وكَلَّتْ ، ونشاطًا للخواطر إذا سئمت وملّت ؛ لأن النفوس لاتستطيع ملازمة الأعمال ، بل ترتاح إلى تنقل الأحوال . فإذا عاهدتها بالنوادر فى بعض الأحيان ، ولاطفتها بالفكاهات فى أحد الأزمان ، عادت إلى العمل الجدّ بنشْطة جديدة ، وراحةٍ فى طلب العلوم مديدة .

وقد رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رَوِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلّت عميت » .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أَحِمُّوا[1] هذه القلوب وآلتمسوا لها طرق الحكمة ، فإنها تَمَلّ كما تمل الأبدان ، والنفس مؤثرة للهوى ، آخذة بالهوينى ، جانحة إلى

---

(١) أى أريحوها من تعبها .

اللهو، أمّارة بالسوء، مستوطنة بالعجز، طالبـة للراحة، نافرة عن العـمل؛ فإن أكرهتها أنضيتها، و إن أهملتها أردَيتها[(١)].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك حتى تبدوَ نواجذه. وكان محمد بن سيرين يضحك حتى يسيل لُعابه.

وقال هشام بن عبد الملك: قد أكلت الحلوا الحامض حتى ما أجد لواحد منهما طعما، وشممت الطِّيب حتى ما أجد له رائحة، وأتيت النساء حتى ما أبالى أمرأةً أتيتُ أم حائطا؛ فما وجدت شيئا ألذّ إلىّ من جليس تسقط بينى و بينه مئونة[(٢)] التحفُّظ.

وقال أحمد بن عبد ربه: المُلَح نُزهة النفس، وربيع القلب، ومَرْتَع السمع، ومجلب الراحة، ومَعدِن السرور. وقال أيضا: إن فى بعض الكتب المترجمة أن يوحنّا وشمعون كانا من الحَوَارِيِّين، فكان يوحنا لايجلس مجلسـا إلا ضحك وأضحـك مَن حوله، وكان شمعون لا يجلس مجلسا إلا بكى وأبكى من حوله. فقال شمعون ليوحنا: ما أكثر ضحكك! كأنك قد فرغت من عملك! فقال له يوحنا: ما أكثر بكاك! كأنك قد يئست من ربك. فأوحى الله إلى عيسى بن مريم عليه السلام: أنّ أحبَّ السيرتين إلىّ سيرة يوحنا.

والعرب إذا مدحوا الرجل قالوا: هو ضحوك السنّ، بسّام العشيّات[(٣)]، هَشٌّ الى الضيف. و إذا ذمّته قالت: هو عَبُوس الوجه، جَهْم المُحيّا، كريه المنظر، حامض الوجه "كأنما وجهه بالخل منضوح". وكأنما أُسعِط خيشومه بالخردل.

وقيل لسفيان: المِزاح مُجْنة؛ فقـال: بل سُنّة، لقوله عليه الصلاة والسلام: « إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق »، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) كذا فى العقد الفريد. وفى الأصل: « فان أكرهتها أنصبتها، و إن أهملتها أدبتها ».
(٢) فى الأصل: « مروءة التحفظ ».
(٣) فى العقد الفريد: « بسام الثنيات ».

ذكر مُزَاحات رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد مزح رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمن ذلك : أنه قال صلى الله عليه وسلم لرجل آستحمله : « نحن حاملوك على ولد الناقة » يريد : البعير . وقال صلى الله عليه وسلم لآمرأة من الأنصار : « الحَقِي زوجَك ففى عينه بياضٌ » . فسعتِ المرأة نحو زوجها مرعوبة؛ فقال لها : مادهاكِ ؟ فقالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ فى عينك بياضا؛ فقال : إن فى عينى بياضا لا لسوء . وأنته عجوز أنصاريّة فقالت : يارسول الله، آدع لى بالمغفرة. فقال لها : « أمَا علمتِ أنّ الجنة لايدخلها العُجُز» ! فصرخت؛ فتبسّم صلى الله عليه وسلم وقال لها : " أمَا قرأتِ ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ .

ونظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أعرابىّ قد صلى صلاة خفيفة ، فلما قضاها قال : اللهم زوّجنى بالحورِ العِينِ ؛ فقال عمر : ياهذا ! أسأت النّقد، وأعظمت الخِطْبة .

ذكر من آشتهر بالمزاح من الصحابة

رضوان الله عليهم

كان أشهرهم بالمزاح رضى الله عنهم نُعَيْمان، وهو أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم البدريّين، وله رضى الله عنه مزاحات مشهورة، منها ماروى : أنه خرج مع أبى بكر الصّدّيق إلى بُصْرَى، وكان فى الحملة سُوَيْبِط، وهو بدرِىّ أيضا، وكان سويبط على الزاد؛ فجاءه نعيمان فقال له : أطعمنى؛ قال : لا، حتى يأتى أبو بكر . فقال نعيمان : والله لأغيظنّك. وجاء إلى أناس جلبوا ظَهْرًا، فقال آبتاعوا منى غلاما عربيا فارها إلا أنه دَعّاء، له لسان، لعله يقول : أنا حرّ؛ فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه،

لا تُفسدوا علىّ غلامى . قالوا : بل نبتاعه منك بعشر قلائص . فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم ! هذا هو . فقالوا : قد اشتريناك . فقال سويط : هو كاذب ، أنا رجل حرّ ، فقالوا : قد أُخبرنا خبرك ، ووضعوا فى عنقه حبلا وذهبوا به . فجاء أبو بكر رضى الله عنه فأخبر بذلك ، فذهب هو وأصحابه ، فردّوا القلائص على أربابها وأخذوه . وأُخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم بالقصة فضحك منها حولا .

ومن مزاحاته : أنه أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جرّةَ عسل اشتراها من أعرابىّ ، وأتى بالأعرابىّ إلى باب النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : خذ الثمن من هاهنا . فلما قسمها النبىّ صلى الله عليه وسلم نادى الأعرابىّ : ألا أُعْطَى ثمنَ عسلى ؟! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "إحدى هَنَاتِ نُعَيمان" . وسأله : لِم فعلتَ هذا ؟ فقال : أردت بِرَّك يارسول الله ، ولم يكن معى شىء . فتبسّم النبىّ صلى الله عليه وسلم وأعطى الأعرابىّ حقّه .

ومن مزاحاته أيضا : أنه مرّ يوما بمَخْرَمة بن نَوْفَل الزُّهرىّ ، وهو ضرير ، فقال له : قُدْنى حتى أبول ، فأخذ بيده حتى إذا كان فى مؤخّر المسجد قال له : اجلس ، فجلس مخرمة ليبول ، فصاح الناس : ياأبا المِسْوَر ، أنت فى المسجد . فقال : من قادنى ؟ فقيل له : نعيمان . قال : لله علىّ أن أضربه بعصاى إن وجدته . فبلغ ذلك نعيمان ، فجاء يوما فقال لمخرمة : يا أبا المِسور ، هل لك فى نعيمان ؟ قال نعم . قال : هو ذا يصلى . وأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفّان رضى الله عنه وهو يصلّى ، فقال : هذا نعيمان ، فعلاه مَخْرَمة بعصاه ، فصاح به الناس : ضربتَ أمير المؤمنين . فقال : من قادنى ؟ قالوا : نعيمان ، فقال : لاجَرَم لاعرّضت له بسوء أبدًا .

ومنهم ابن أبى عَتِيق، وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنهم . وكان ذا ورع وعفاف وشرف، وكان كثير المجون، وله نوادر مستظرفة، منها : أنه لقى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما تقول فى إنسان هجانى بشعر، وهو :

أذهبتَ مالك غير مُتْرِكِ * فى كل مؤنسةٍ وفى الخمرِ[1]

ذهب الإله بما تعيش به * وبقيتَ وحدك غير ذى وَفْرِ

فقال عبد الله بن عمر : أرى أن تأخذ بالفضل وتصفح . فقال له عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن : والله أرى غير ذلك . فقال : وما هو؟ قال : أرى أن أنيكه . فقال ابن عمر : سبحان الله ! ما تترك الهزل ! وافترقا . ثم لقيه بعد ذلك فقال له : أتدرى ما فعلت بذلك الإنسان؟ فقال : أىّ إنسان؟ قال : الذى أعلمتك أنه هجانى . قال : ما فعلت به ؟ قال : كل مملوك لى حرّ إن لم أكن نِكته . فأعظم ذلك عبد الله بن عمر وأضطرب له . فقال له : امرأتى والله التى قالت الشعر وهجتنى به . وكانت امرأته أم إسحاق[2] بنت طلحة بن عبيد الله .

وقد مدح الشعراء اللعب فى موضعه، كما مُدِح الجِدّ فى موضعه؛ فقال أبو تمّام :

الجِدّ شيمتُه وفيه فُكاهةٌ * طورًا ولا جِدّ لمن لم يلعبِ

وقال الأُبَيْرِد رحمة الله عليه :

اذا جدّ عند الجِدّ أرضاك جِدُّه * وذو باطلٍ إن شئت ألهاك باطِلُهْ

(١) رواية البيتين فى كتاب التاج للجاحظ ص ١٣١ :

ذهب الاله بما تعيش به * وقرت لبلك أيما قر

أنفقت مالك غير محتشم * فى كل زانية وفى الخمر

(٢) فى التاج أنها عاتكة بنت عبد الرحمن .

ومن مجون عبـد الله بن محمد بن عبد الرحمن ما حكى أن جاريته قالت له : إن فلانا القارئ ، وكان يظهر النسك ، قد قطع علىّ الطريق وآذانى ويقول لى : أنا أُحبّك . فقال لها : قولى له : وأنا أُحبّك أيضا ، وواعديه المنزل ، ففعلت وأدخلته المنزل ، وكان عبد الله قد واعد جماعةً من أصحابه ليضحكوا من الرجل . ودخلت الجارية الى البيت الذى فيـه الرجل ، فدعاها فاعتلّت عليه ، فوثَب إليها [(١) فاحتملها وضرب بها الأرض ، فدخل عليه آبن أبى عَتيق وأصحابه وقد توزّكها ، فخجل وقام وقال : يافُسّاق ، ما تجمّعتم هاهنا إلا لِريبة . فقال له آبن أبى عتيق : أُستر علينا ستر الله عليك . ثم لم يرتدع عن العبث بها ، فشكَتْ ذلك الى سيّدها ، فقال لها : هَيِّئى من الطعام طِحْن ليلة الى الغداة ففعلت ، ثم قال لها : عِدِيه الليلة ، فإذا جاء فقولى له : إنّ وظيفتى الليلة طَحْن هذا كله ، ثم آخرجى الى البيت وآتركيه ، ففعلت . فلما دخل طحَنت الجارية قليلا ، ثم قالت له : أدِرِ الرحى حتى أفتقد سيّدى ، فاذا نام وأمِنّا أن يأتينا أحد ، صرتُ إلى ما تحبّ ، ففعل ، ومضت الجارية الى مولاها ، وأمر آبن أبى عَتيق عدّة من مَوْلَياته أن يتراوحن على سَهَرِ ليلتِهِنّ ويتفقّدن أمر الطَّحن ويَحْثُثْن عليـه ، ففعلن وجعلن يُنادِين الفتى كلما كفّ عن الطحن : يا فلانة إنّ مولاكِ مستيقظ والساعة يعلم أنك قد كَفَفت عن الطحن ، فيقوم إليك بالعصا كعادته مع من كانت نوبتها قبلك إذا هى نامت وكفّت عن الطحن . فلم يزل كلما سمع ذلك الكلام منهن آجتهد فى العمل والجارية تُتفقّده وتقول له : استيقظ مولاى والساعة ينام فأصير الى ما تحبّ وهو يطحن ، حتى أصبح وفرغ القمح . فأتته الجارية بعد فراغه فقالت له : قد أصبح فانجُ بنفسـك . فقال : أوَ قد فعلتِهـا يا عدوّة الله !

(١) الكلام الذى يبتـدئ بهذا المربع [وينتهى فى صحيفة ١١ بهذا المربع] ساقط من الأصل وموجود بالنسخة الراعية .

وخرج تعبا نصبا ، وأعقبه ذلك مرضا شديدا أشرف منه على الموت، وعاهد الله ألّا يعود الى كلام الجارية، فلم تر منه بعد ذلك شيئا تكرهه . قال : وتعشّى عبد الله ليلة ومعه رجل من الأنصار، فوقع حجر فى الدار ووقع آخر وثالث، فقال للجارية : آخرجى فانظرى : أذّنوا المغرِبَ أم لا ؛ فخرجت وجاءت بعد ساعة ، وقالت : قد أذّنوا وصلّوا. فقال الرجل الذى كان عنده : أليس قد صلّينا قبل أن تدخل الجارية؟ قال: بلى، ولكن لو لم أرسلها تسأل عن ذلك لَرُجمنا الى الغداة، أفهمت ؟! قال : نعم، قد فهمت . قال وسمع عبد الله بن أبى عَتِيق قول عمر بن أبى ربيعة .

مَنْ رسولى الى الثُّرَيّا فإنى (١) ضِقتُ ذرعًا بهجرها والكتابِ

فركب بغلته من المدينة، وسار يريد مكة، فلما بلغ ذا الحُلَيْفة (٢) قيل له : أحرم، قال: ذو الحاجة لا يُحرِم، وجاء حتى دخل على الثريّا . فقال لها : ابن عمك يقول :

* ضِقت ذرعًا بهجرها والكتاب *

ثم ركب بغلته وعاد .

ذكر شىء من مجون الأعراب

سئل أعرابىّ عن جارية له يقال لها زهرة، فقيل له : أيسُرّك أنك الخليفة وأن زهرة ماتت؟ فقال : لا والله ! تذهب الأمَةُ وتضيع الأُمّة. وجد أعرابىّ مِرآة وكان قبيح الصورة ، فنظر فيها فرأى وجهه فاستقبحه، فرمى بها وقال : لشرٍّ ما طرحَك أهلُك . وقيل لأعرابىّ : لِمَ يقال : باعك الله فى الأعراب؟ فقال : لأنّا نُجيع كَبِده، ونُعرِى جلدَه، ونُطيل كدَّه . وتزوّج أعرابىّ على كِبَر سِنه، فقيل له

(١) فى ديوان عمر بن أبى ربيعة : « إنى » .

(٢) ذو الحليفة : ميقات أهل المدينة .

فى ذلك ؛ فقال : أُبادِره باليُتْم ، قبل أن يُبادِرنى بالعقوق . ومرّ أعرابىّ وفى يده رغيف برجل فى يده سيف ، فقال : يعنى هذا السيف بهذا الرغيف ؛ فقال : أمجنون أنت ؟ فقال الأعرابىّ : ما أنكرت منى ؟ أنظر أيهما أحسن أثرًا فى البطن .

وحُكى أن المهدىّ خرج للصيد فغلبه فرسه حتى انتهى به الى خِباء لأعرابىّ ، فقال : يا أعرابىّ ، هل من قِرىً ؟ قال نعم ، وأخرج له فضلةً من خُبْز مَلّةٍ فأكلها وفضلة من لبن فسقاه ، ثم أتى بنبيذ فى زُكْرة[1] فسقاه قَعْبًا[2] . فلما شرب قال : أتدرى من أنا ؟ قال : لا والله . قال : أنا من خَدَم الخاصّة ؛ قال : بارك لك الله فى موضعك . ثم سقاه آخر ؛ فلمّا شرِبه قال : أتدرى من أنا ؟ قال : نعم ، زعمت أنك من خدم الخاصة ؛ قال : بل أنا من قوّاد أمير المؤمنين ؛ فقال له الأعرابىّ : رَحُبت بلادُك ؛ وطاب مزادك ومَرَادك . ثم سقاه قدحا ثالثا ؛ فلما فرغ منه قال : يا أعرابىّ ، أتدرى من أنا ؟ قال : زعمتَ أخيرا أنك من قوّاد أمير المؤمنين ؛ قال : لا ولكنى أمير المؤمنين . فأخذ الأعرابىّ الزكرة فأوكاها[3] وقال : والله لئن شربت الرابع لتقولنّ : إنك لرسول الله ؛ فضحك المهدىّ . ثم أحاطت بهم الخيل ، فنزل أبناء الملوك والأشراف ؛ فطار قلب الأعرابىّ ؛ فقال له المهدىّ : لا بأس عليك ! وأمر له بصلة . فقال : أشهد أنك صادق ، ولو ادّعيت الرابعة لخرجت منها .

ودخل أعرابىّ على يزيد بن المهلَّب وهو على فرشه والناس سِمَاطان ، فقال : كيف أصبح الأمير ؟ قال يزيد : كما تُحِبّ . فقال الأعرابىّ : لو كنتَ كما أُحِبّ كنتَ أنت مكانى وأنا مكانك ؛ فضحك يزيد .

---

(١) الزكرة (بالضم) : زق للخمر .
(٢) القعب : القدح الضخم .
(٣) أوكاها : ربطها .

ذكر شيء من نوادر القضاة

قيل : أتى عَدِيّ بن أرطاة شُرَيْحا القاضى ومعه امرأة له من أهل الكوفة يخاصمها اليه ؛ فلما جلس عَدِيّ بين يدى شُرَيح ، قال عدىّ : أين أنت؟ قال : بينك وبين الحائط . قال : إنى امرؤ من أهل الشام ؛ قال : بعيد الدار . قال : وإنى قدمت العراق ؛ قال : خير مقدم . قال : وتزوجت هذه المرأة ؛ قال : بالرفاء والبنين . قال : وإنها ولدت غلاما ؛ قال : لِيَهْنِك الفارس . قال : وقد أردت أن أنقلها إلى دارى ؛ قال : المرء أحق بأهله . قال : كنت شَرَطت لها دارها ؛ قال : الشرطُ أملك . قال : اقض بيننا ؛ قال : قد فعلت . قال : فعلى من قضيت؟ قال : على ابن أُمّك .

ودخل على الشعبىّ فى مجلس قضائه رجل وامرأته ، وكانت المرأة من أجمل النساء ، فاختصما اليه ، فأدلت المرأة بحجتها ، وقوِيت بيِّنتها . فقال للزوج : هل عندك من دافع ؟ فأنشأ يقول :

فُتِنَ الشَّعْبِيّ لمّا * رفع الطَّرْفَ إليها
فتنته بدلالٍ * وبخَطَّىْ حاجِبَيْها
قال للجلواز(١) قَرِّبْ * بها وقدم شاهِدَيْها
فقضى جَوْرًا على الخَصْـ * ـم ولم يقضِ عليها

قال الشعبىّ : فدخلت على عبد الملك بن مروان ؛ فلما نظر إلىّ تبسّم وقال :

فُتِنَ الشعبىّ لما * رفع الطرف اليها

ثم قال : ما فعلت بقائل هذه الأبيات ؟ قلت : أوجعته ضربًا يا أمير المؤمنين بما آتتك من حرمتى فى مجلس الحكومة وما افترى به علىّ . قال : أحسنت! .

(١) الجلواز : الشرطى .

وأحضر رجل آمرأته الى بعض قضاة البصرة، وكانت حسنة المُنْتَقَب، قبيحة المَسْفَر؛ فمال القاضى لها على زوجها وقال: يعمد أحدكم الى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يسىء اليها . ففطن الرجل لميله اليها فقال : أصلح الله القاضى، قد شككتُ فى أنها آمرأتى، فمُرْها تَسْفِر عن وجهها؛ فوقع ذلك بِوِفاق من القاضى، فقال لها : آسفرى رحمك الله؛ فسفرت عن وجه قبيح . فقال القاضى لمّا نظر الى قبح وجهها : قُومى عليك لعنة الله ! كلامُ مظلوم، ووجهُ ظالم .

قيل : بينا رَقَبة بن مَصْقَلة القاضى فى حَلْقته، إذ مرّ به رجل غليظ العنق؛ فقال له بعض جلسائه : يا أبا عبد الله ، هذا أعبد الناس . فقال رقبة : إنى لأرى لهذا عنقًا ما دقّقتها العبادة[1] . قال : فمضى الرجل وعاد قاصدًا اليهم . فقال رجل لرقبة : يا أبا عبد الله، أخبره بما قلت حتى لا تكون غِيبة؛ قال : نعم، أخبره أنت حتى تكون نميمة . ودخل رَقَبة الى المسجد الأعظم فألقى نفسه الى حلقة قوم، ثم قال : قتيل فالوذج رحمكم الله ! قالوا : عند من ؟ قال : عند من حكم فى الفرقة وقضى فى الجماعة، يعنى : بلال بن أبى بُرْدة .

وآختصم رجلان الى إياس بن معاوية وهو قاضى البَصْرة لعمر بن عبد العزيز فى مِطْرَف خَزّ وأنبجانىّ، وآدّعى كل واحد منهما أن المطرف له وأن الأنبجانىّ لصاحبه . فدعا إياس بمشط وماء، فبلّ رأس كل واحد منهما، ثم قال لأحدهما : سَرِّح رأسك فسرّحه، فخرج فى المشط عفر المطرف، وفى مشط الآخر عفر الأنبجانىّ؛ فقال : ياخبيث ! الأنبجانىّ لك، فأقرّ، فدفع المطرف لصاحبه . وقال رجل لإياس : هل ترى علىّ من بأس إن أكلت تمرا؟ قال لا . قال : فهل ترى علىّ من بأس ان أكلت معه كَيْسوما ؟ قال لا . قال : فإن شربت عليهما ماء ؟ قال : جائز .

(١) فى أحد الأصول : « ماوقدتها » وفى أصل آخر : « مادقتها » .

قال: فلم تحرّم السكر، وإنما هو ماذكرت لك؟ قال له إياس لو صببت عليك ماء هل كان يضرّك ؟ قال لا . قال : فلو نثرت عليك ترابًا هل كان يضرّك ؟ قال لا . قال : فإن أخذت ذلك فخلطته وعجنته وجعلت منه لَبِنةً عظيمة فضربت بها رأسك هل كان يضرّك ؟ قال : كنتَ تقتلنى . قال : فهذا مثل ذاك .

دعا الرشيد أبا يوسف القاضى فسأله عن مسألة فأفتاه، فأمر له بمائة ألف درهم. فقال] إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بتعجيلها قبل الصبح ! فقال : عجّلوها له . (٣) فقيل : إن الخازن فى بيته والأبواب مغلقة . فقال أبو يوسف : وقد كنت فى بيتى والدروب مغلقة ، فلما دُعيت فُتِحت . فقال له الرشيد : بلغنى أنك لا ترى لبس السواد . فقال: يا أمير المؤمنين، ولِم وليس فى بدنى شىء أعزّ منه؟ قال : وما هو؟ قال : السواد الذى فى عينىّ .

وسأل الرشيد الأوزاعىّ عن لُبْس السواد، فقال: لا أحرّمه، ولكنى أكرهه. قال : ولِم ؟ قال : لأنه لا تُجْلَى فيه عَرُوس، ولا يلبِّى فيه مُحْرِم، ولا يُكَفَّن فيه ميت . فالتفت الرشيد الى أبى يوسف وقال : ما تقول أنت فى السواد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، النور فى السواد . فاستحسن الرشيد ذلك . ثم قال : وفضيلة أخرى يا أمير المؤمنين . قال : وما هى ؟ قال : لم يكتب كتاب الله إلا به، فاهتزّ الرشيد لذلك .

تقدّم رجل الى أبى حازم عبد الحميد بن عبد العزيز السَّكُونىّ قاضى المعتمد، وقدّم أباه يطالبه بدَين له عليه، فأقرّ الأب بالدين، وأراد الابن حبس والده . فقال القاضى : هل لأبيك مال ؟ قال: لا أعلمه. قال : فمذكم داينته بهذا المال ؟ قال : منذ كذا وكذا . قال: قد فرضتُ عليك نفقة أبيك من وقت المداينة، فحبس الابن وخلّى الأب .

كان عبد الملك بن عمر قاضى الكوفة، فهجاه هُذَيْل الأشجعىّ بأبيات منها :

اذا ذاتُ دَلَّ كلّمتــه بحـاجةٍ * فهَمَّ بأن يقضى تحنح أو سَعَلْ

فكان عبد الملك يقول : قاتله الله! والله لربما جاءتنى النحنحة وأنا فى المتوضّأ فأذكر ما قال فأردّها .

وقيل: شهد سالمىّ الموسوس عند جعفر بن سليمان على رجل، فقال : هو — أصلحك الله — ناصِبِىّ، رافِضِىّ، قَدَرِىّ، مجبِرِىّ، يشتم الحجـاج بن الزبير الذى يهدم الكعبة على علىّ بن أبى سفيان . فقال له جعفر : ما أدرى على أى شىء أحسدك : على علمـك بالمقالات، أم على معرفتك بالأنساب ! فقال : أصلح الله الأمير، ما خرجتُ من الكُتّاب، حتى حذفت هذا كله ورائى .

وآستُفْتِى بعضُ القضاة، وقد نُسِبت الى القاضى أبى بكر بن قُرَيْعة، فقيل له : مايقول سيدنا القاضى أيده الله فى رجل باع حِجْرًا(١) من رجل، فحين رفع ذنبها ليقلّبه خرجت منها رِيح مصوّتة آتصلت بحصاة ففقأت عين المشترى؟ أفتنا فى الدية والردّ يرحمك الله. فأجاب : لم تجرِ العادة بمثل هذه البدائع، بين مشترٍ وبائع؛ فلذلك لم يثبت فى كتب الفقهاء، ولم يستعمل فى فتوى العلماء؛ لكن هذا وما شاكله يجرِى مجرى الفضول، المستخرج من أحكام العقول، والقول فيه — وبالله العصمة من الزلل والخطل — : أن دِية ماجنته الحِجْر ملغى فى الهدر، عملًا بقول النبىّ المختار، صلى الله عليه وعلى آله الأطهار، « جُرْح العجماء جُبَار »؛ لا سيما والمشترى عند كشفه لعورتها، آستثار كامِن سَـوْرتها . وعلى البائع لها آرتجاعها، وردّ ما قبض من ثمنها، لأنه دلّس حِجْرًا مَضِيقُها مَنْجنِيقُها . وإذا كانت السهام طائشة، فهى من العيوب الفاحشة . وكيف يمتنع ردّها وأغراضها نواظر الحَدَق، وقلّما يَسْتظهِر المقلّبون الخيل بالدَّرَق .

(١) الحجر (بالكسر) : الأنثى من الخيل .

ذكر شيء من نوادر النُّحاة

قدم رجل من النحاة خصما الى القاضى، وقال: لى عليه مائتان وخمسون درهما. فقال لخصمه: ماتقول؟ فقال: أصلح الله القاضى، الطلاق لازم له، إن كان له إلا ثلثمائة، وإنما ترك منها خمسين ليعلم القاضى أنه نَحْوِىّ.

ومرّ أبوعلقمة بأعدال قد كُتِب عليها: رُبَّ سُلَّم لأبو فلان، فقال لأصحابه: لا إله إلا الله! يلحنون ويربحون.

وجاء رجل الى الحسن البصرىّ فقال: ما تقول فى رجل مات فترك أبيه وأخيه؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه. فقال: ما لأباه وأخاه؛ فقال الحسن: ما لأبيه وأخيه. فقال الرجل: إنى أراك كلما طاوعتك تخالفنى! . وقيل سكر هارون بن محمد ابن عبد الملك ليلة بين يدى الموفّق، فقام لينصرف فغلبه السكر فنام فى المضرب. فلما انصرف الناس جاء راشد الحاجب فأنبهه وقال: يا هارون انصرف. فقال: هارون (٤) لا ينصرف. فأعاد راشد القول على هارون، فقال هارون: سل مولاك فهو يعلم أن هارون لا ينصرف. فسمع الموفّق فقال: هارون لا ينصرف؛ فتركه راشد. فلما أصبح الموفّق وقف على أن هارون بات فى مضربه؛ فأنكر على راشد، وقال: يا راشد، بيت فى مضربى رجل لا أعلم به! فقال: أنت أمرتنى بهذا، قلت: هارون لاينصرف. فضحك وقال: ما أردت إلا الإعراب وظننت أنت غيره.

وقيل: قدِم العُرْيان بن الهيثم على عبد الملك، فقيل له: تحفَّظ من مَسْلَمة فإنه يقول: لَأن يُلقِمنى رجل بحجر أحبُّ إلىّ من أن يُسمِعنى رجل لحنا. فأتاه العريان ذات يوم فسلّم عليه. فقال له مَسْلَمة: كم عطاءك؟ قال: ألفين. فنظر الى رجل عنده وقال له: لحن العراقىّ؛ فلم يفهم الرجل عن مسلمة، فأعاد مسلمة القول على

العريان وقال : كم عطاؤك؟ فقال : ألفان . فقال : ما الذى دعاك الى اللحن أولا والإعراب ثانيا؟ قال : لحن الأمير فكرِهت أن أُعرِب، وأعرب فأعربت . فاستحسن قوله وزاد فى عطائه .

ووقف نحوىّ على بقّال يبيع الباذنجان فقال له : كيف تبيع؟ قال : عشرين بدانق، فقال : وماعليك أن تقول : عشرون بدانق؟ فقدّر البقّال أنه يسترِيده، فقال ثلاثين بدانق . فقال : وما عليك أن تقول : ثلاثون؟ فما زال على ذلك الى أن بلغ سبعين، فقال : وماعليك أن تقول : سبعون؟ فقال : أراك تدور على الثمانون وذلك لايكون أبدا .

ذكر شىء من نوادر المتنبئين

قيل : ادّعى رجل النبوّة فى أيام المهدى، فأُدخِل عليه، فقال له : الى من بُعثت؟ فقال : ما تركتمونى أذهب الى من بُعثت اليهم، فإنى بُعثت بالغداة وحبستمونى بالعشىّ . فضحك المهدىّ منه وأمر له بجائزة وخلّى سبيله .

وتنبأ رجل وادّعى أنه موسى بن عِمران . فبلغ خبره الخليفة، فأحضره وقال له : من أنت؟ قال : أنا موسى بن عمران الكليم . قال : وهذه عصاك التى صارت ثعبانا ! قال نعم . قال : فألقِها من يدك ومُرْها أن تصير ثعبانا كما فعل موسى . قال : قل أنت (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) كما قال فرعون حتى أُصَيِّر عصاى ثعبانا كما فعل موسى . فضحك الخليفة منه واستظرفه . وأُحضِرت المائدة، فقيل له : أكلت شيئا ؟ قال : ما أحسَنَ العقلَ ! لو كان لى شىء آكله، ما الذى كنتُ أعمل عندكم ؟ فأعجب الخليفة وأحسن اليه .

وادّعت امرأة النبوّة على عهد المأمون، فأُحضِرت اليه فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا فاطمة النبيّة . فقال لها المأمون : أتؤمنين بما جاء به محمد صلى الله عليه

وسلم ؟ قالت : نعم، كل ما جاء به فهو حق . فقال المأمون : فقد قال محمد صلى الله عليه وسلم « لانبيّ بعدى » . قالت : صدق عليه الصلاة والسلام، فهل قال : لا نبية بعدى ؟ فقال المأمون لمن حضره : أمّا أنا فقد انقطعت، فمن كانت عنده حجة فليأتِ بها، وضحك حتى غطّى على وجهه .

وادّعى رجل النبوّة، فقيل له : ما علاماتُ نبوّتك؟ قال : أنبئكم بما فى نفوسكم. قالوا : فما فى أنفسنا؟ قال : فى أنفسكم أننى كذبت ولست بنبيّ .

وتنبأ رجل فى أيام المأمون، فأُتِى به إليه، فقال له : أنت نبيّ؟ قال نعم . قال: فما معجزتك؟ قال : ماشئت . قال : أخرِج لنا من الأرض بِطّيخة. قال : أمهلنى ثلاثة أيام . قال المأمون : بل الساعة أريدها. قال : يا أمير المؤمنين ، أنصفنى ، أنت تعلم أن الله يُنبِتها فى ثلاثة أشهر، فلا تقبلها منى فى ثلاثة أيام! فضحك منه ، وعلم أنه محتال، فاستتابه ووصله .

وادّعى آخر النبوّة فى زمانه فطالبه بمُعْجِزة، فقال : أطرح لكم حصاةً فى الماء فأُذيبها حتى تصير مع الماء شيئا واحدا . قالوا : قد رضينا. فأخرَج حصاةً كانت معه فطرحها فى الماء فذابت. فقالوا : هذه حيلة، ولكن أَذِبْ حصاةً غيرها نأتيك بها نحن . فقال لهم : لا تتعصّبوا، فلستم أضلّ من فرعون، ولا أنا أعظم من موسى، ولم يقل فرعون موسى: لا أرضى بما تفعله بعصاك حتى أُعطِيك عصا من عندى تجعلها ثعبانا . فضحك المأمون منه وأجازه .

وادّعى رجل النبوّة فى أيام المعتصم، فأُحضر بين يديه، فقال له : أنت نبى؟ قال نعم . قال : إلى من بُعثت ؟ قال : إليك. قال : أشهد إنك لسفيه أحمق. قال: إنما يذهب إلى كل قوم مثلُهم . فضحك منه وأمر له بشىء .

وآدّعى آخر النبوّة فى أيام المأمون، فقال له : ما مُعْجِزتك؟ قال : سل ما شئت، وكان بين يديه قُفْل، فقال : خذ هذا القفل فافتحه. فقال : أصلحك الله، لم أقل إنى حدّاد . فضحك منه وآستتابه وأجازه .

وآدّعى آخر النبوّة، فطُلِب ودُعِى له بالسيف والنِّطْع، فقال : ما تصنعون؟ قالوا : نقتلك. قال : ولِم تقتلونى؟ قالوا : لأنك آدّعيت النبوّة . قال : فلست أدّعيها . قيل له : فأىّ شىء أنت؟ قال : أنا صِدِّيق . فدُعِى له بالسياط، فقال : لم تضربونى؟ قالوا : لآدّعائك أنك صِدّيق، قال : لا أدّعى ذلك . قالوا : فمن أنت؟ قال : من التابعين لهم بإحسان . فدُعِى له بالدِّرة . قال : ولِم ذلك؟ قالوا : لآدّعائك ما ليس فيك، فقال : ويحكم ! أدخل إليكم وأنا نبىّ تريدون أن تحطّونى فى ساعة واحدة الى مرتبة العوام! لا أقلّ من أن تصبروا علىّ الى غد حتى أُصيِّر لكم ما شئتم.[1]

وآدّعى آخر النبوّة، وسمّى نفسه نوحا، فنهاه صديق له عن ذلك فلم ينته، فأخذه السلطان وصلبه، ثم مرّ به صديقه الذى كان ينهاه، فقال : يانوح ! ماحصل لك من السفينة غير الدَّقَل .

ذكر شىء من نوادر المغفّلين والحَمْقى

قال بعضهم : رأيت آبن خلف الهمدانىّ فى صحراء وهو يطلب شيئا، فقلت له : ما تبغى هاهنا ؟ قال : دفنت شيئا ولست أهتدى اليه . قلت : فهلّا علّمت عليه بشىء! قال : جعلت علامتى قطعة من الغيم كانت فوقه، وما أراها الساعة . ونظر مرة فى الحُبّ (وهو الزير) فرأى وجهه، فعدا الى أمّه فقال : يا أمّى فى الحُبّ لِصّ . فجاءت أمه وتطلّعت فيه، فقالت : إى والله ومعه خَبْزة . ورُئى فى وسط داره

(١) فى الأصول : « لا أقل مما تصبروا » .

وهو يعدو عَدْوًا شديدا ويقرأ بصوت عال . فسئل عن ذلك فقال : أردت أن أسمع صوتى من بعيد . ودخل إلى رجل يعزّيه، فقال : عظّم الله مصيبتكم، وأعان أخاك على مايرِد عليه من يأجوج ومأجوج . فضحك الناس . فقال : تضحكون مما قلت ! وإنما أردت هاروت وماروت .

وقيل : كتب المنصور إلى زِياد بن عبد الله الحارثىّ، ليقسّم بين القواعد والعميان والأيتام مالا . فدخل عليه أبو زياد التميمىّ، وكان مغفّلا فقال : أصلحك الله ! آكتبنى فى القواعد ، فقال له : عافاك الله ، القواعد هنّ النساء اللّاتى قعدن عن أزواجهنّ . فقال : فآكتبنى فى العميان . قال : آكتبوه منهم ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ . قال أبو زياد : وآكتب آبنى فى الأيتام ؛ قال : نعم ! من كنتَ أباه فهو يتيم .

وسُئِل بعضهم عن مولده، فقال : وُلِدت رأسَ الهلال للنصف من رمضان بعد العيد بثلاثة أيام، فاحسبُوا الآن كيف شئتم .

ذكر شىء من نوادر النبيذيّين

قال رجل لبعض أصحاب النبيذ : وجّهتُ إليك رسولا عشيّة أمس فلم يجدك ؛ فقال : ذاك وقت لا أجد فيه نفسى .

وقيل لبعضهم : كم الصلاة ؟ فذكر الغداة والظهر . قالوا : فالعصر ؟ قال : تعرِف وتنكر . قالوا : فالعِشاء ؟ قال : يبلغها الجواد . قالوا : فالعَتَمة ؟ قال : ما كانت لنا فى حساب قطّ .

شرِب الأُقَيْشِر فى حانوت خمّار حتى نفِد مامعه، ثم شرِب بثيابه وبقى عُرْيانا، فجلس فى تِبن يستدفىء به . فمرّ رجل ينشُد ضالّة ؛ فقال الأقيشر : اللّهم آردُد عليه ،

وآحفظ علينا . فقال له الحمار : سَخِنتْ عينُك، أىّ شىء يحفظ عليك ربّك ! قال : هذا التبن، لئلا يأخذه صاحبه فأهلِك من البرد .

وباع بعضهم ضَيعةً له ، فقال له المشترى : بالعشىّ أشهد عليك . فقال : لو كنتُ ممن يفرغ بالعشىّ ما بعت ضيعتى .

ذكر شىء من نوادر النساء والجوارى

قال رجل : قلت لجارية أريد شراءها : لا يُريبِك شيبى ؛ فإن عندى قوّة . فقالت : أيسرك أنّ عندك عجوزا مُغْتلِمة !

أُدخِل على المنصور جاريتان فأعجبتاه . فقالت التى دخلت أوّلا : يا أمير المؤمنين، إن الله فضّلنى على هذه بقوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ . وقالت الأخرى : لا، بل الله فضّلنى عليها بقوله : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ .

وعُرِض على المعتصم جاريتان بِكر وثَيِّبٌ ؛ فمال إلى البِكر . فقالت الثيب : ما بيننا إلا يوم واحد . فقالت البكر : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

قيل لامرأة ظريفة : أبِكر أنتِ ؟ قالت : أعوذ بالله من الكساد .

وقال المتوكل لجارية آستعرضها : أنت بكر أم إيش ؟ قالت : أنا إيش يا أمير المؤمنين .

وآستعرض رجل جارية فآستقبح قدميها . فقالت : لا تُبالِ ؛ فإنى أجعلهما وراء ظهرك .

وقال الرشيد لبغيض جاريته : إنك لدقيقة الساقين . قالت : أحوج ما تكون إليهما لا تراهما .

وروى أبو الفرج الأصفهانى عن إسحاق: أن الرشيد أحضره مجلسه ذاتَ ليلة، وقد مضى شَطْر الليل؛ قال: فأخرج جارية كأنها مَهَاة، فأجلسها فى حِجره، ثم قال غنِّينى؛ فغنته:

جِنٌّ من الروم وقَاليقلا[1] * يَرفُلْنَ فى المِرْط ولِينِ المُلَا
مُقَرْطَقَات بصنوف الحُلَى * ياحبذا البِيضُ وتلك الحُلَى

فاستحسنه وشرب عليه.

طُلبت جارية محمود الورّاق للمعتصم بسبعة آلاف دينار، فامتنع من بيعها، واشتريتْ له بعد ذلك من ميراثه بسبعمائة دينار. فذكر المعتصمُ ذلك لها، فقالت: إن كان أمير المؤمنين ينتظر بشهواته المواريث فسبعون دينارا فى ثمنى كثيرٌ، فكيف بسبعمائة!

واستعرض رجل جارية فقال لها: فى يَدَيْك عمل؟ قالت: لا، ولكن فى رجلىّ.

وحُكى أنّ بعض المُجّان كان يعشق جارية أمجن منه. فضاق يوما، فكتب إليها: قد طال عهدى بك ياسيِّدتى، وأقلقنى الشوق إليك. فإن رأيتِ أن تستدركى رمَقى بمُضْغة عِلْك وتجعليه بين دينارين وتُنفذيه إلىّ لأستشفى به فعلتِ إن شاء الله. ففعلتْ ذلك وكتبتْ إليه: ردُّ الظَّرف من الظَّرف، وقد سارعتُ إلى إنفاذ ما طلبتَ؛ فأنعِمْ بردّ الطبق والمكبَّة، واستعملِ الخبر: «استِدرّوا الهدايا بردّ الظّروف».

وطلب آخر من عشيقته خاتما كان معها؛ فقالت: يا سيِّدى، هذا ذهب وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود حتّى تعود.

---

(١) قاليقلا: بلد من أعمال أرمينية.

وكتب رجل الى عشيقته : مُرِى خيالك أن يلم بى . فكتبت اليه : ابعث إلىّ بدينارين حتى آتيك بنفسى .

قدّم بعضهم عجوزا دلّالة الى القاضى وقال : أصلح الله القاضى، زوّجتنى هذه امرأةً، فلما دخلت بها وجدتها عرجاء . فقالت : أصلح الله القاضى ! زوّجته امرأة يجامعها، ولم أعلم أنه يريد أن يحج عليها أو يسابق بها فى الحَلْبة أو يلعب عليها بالكرة والصولجان ! .

كتب رجل الى عشيقته رقعة، قال فى أوّلها : عصمنا الله وإياكِ بالتقوى . فكتبت اليه فى الجواب : يا غليظ الطبع، إن استجاب الله دعاءك لم نلتق أبدا .

قال عقيل بن بلال : سمعتنى أعرابيّة أُنشد :

وكم ليـــلةٍ قد بِتّهـا غيرَ آثمٍ * بمهضومة الكشحين ريّانةِ القُلْبِ[1]

فقالت : هَلّا أَثِمت ! أخزاك الله ! .

كان أبو نواس يوما عند بعض إخوانه ؛ فخرجت عليه جارية بيضاء عليها ثياب خضر . فلما رآها مسح عينيه وقال : خيرا رأيت إن شاء الله تعالى . فقالت : وما رأيت ؟ قال : ألكِ معرفة بعلم التعبير؟ قالت : ولا أعرف غيره . قال : رأيت كأنى راكب دابة شهباء، وعليها جُلٌّ أخضر وهى تمرح تحتى . فقالت : إن صدقت رؤياك فستدخل بخلة . وقد روى أن هذه الحكاية اتفقت له مع عنان جاريةِ الناطفىّ .

وكان بعضهم جالسا مع امرأته فى مَنْظَرة ؛ فمرّ غلام حسن الوجه ؛ فقالت : أُعيذ هـذا بالله ؛ ما أحسنه وأحسن وجهه وقدّه ! فقال الزوج : نعم، لولا أنه خَصِىّ . فقالت : لعنه الله ولعن من خصاه ! .

(١) القلب (بالضم) : سوار المرأة .

قال أبو العيناء : خطبتُ امرأة فاستقبحتني . فكتبت اليها :

فإن تَنْفِرِى من قبح وجهى فإننى * أريب أديب لا غبيّ ولا فُدُمُ

فأجابتنى : ليس لديوان الرسائل أريدك .

وخطب ثُمامة العوفيّ امرأة . فسألت عن حِرفته ؛ فكتب اليها يقول :

وسائلةٍ عن حِرفتى قلت حِرفتى * مقارعة الأبطال فى كل مَأزِقِ

وضربى طُلَى الأبطال بالسيف مُعْلَماً * إذا زحف الصفان تحت الخوافِقِ

فلما قرأتِ الشعر، قالت للرسول : قل له : فديتك! أنت أسد، فاطلب لك لَبُؤة ؛ فإنى ظبية أحتاج الى غزال .

خرجت حُبَّى المدنيّة فى جوف الليل ؛ فلقيها إنسان فقال لها : تخرجين فى هذا الوقت! قالت : ما أبالى، إن لقينى شيطان فأنا فى طاعته، وإن لقينى رجل فأنا فى طلبه . وجاءت الى شيخ يبيع اللبن ، ففتحت ظرفا فذاقته ودفعته إليه وقالت : لا تعجَل بشدّه ؛ ثم فتحت آخر فذاقته ودفعته إليه . فلما أشغلت يديه جميعا، كشفت ثوبه من خلفه، وجعلت تَصْفِق[1] بظاهر قدميها آسته وخصييه ، وتقول : يا ثارات ذات النَّحْيَين، والشيخ يستغيث، فلم يخلُص منها إلا بعد جهد.

غاب رجل عن امرأته فبلغها أنه اشترى جارية، فاشترت غلامين . فبلغه ذلك فجاء مبادرا، وقال لها : ما هذا؟ فقالت : أمَا علمت أنّ الرحَى الى بغلين أحوج من البغل الى رَحَيين! ولكن بع الجارية حتى نبيع الغلامين ؛ ففعل ذلك ففعلت .

ومثل ذلك ما حكى عن الأحنف : أنه اعتمّ ونظر فى المرآة ؛ فقالت له امرأته : كأنك قد هممت بخطبة امرأة! قال : قد كان ذلك . قالت : فإذا فعلت

(١) تصفق : تضرب . والصفق : الضرب يسمع له صوت .

فاعلم أن المرأة الى رجلين أحوج من الرجل الى آمرأتين . فنقض عمته وترك ما كان قد هم به .

ذكر شيء من نوادر العميان

قال إبراهيم بن سَيّابة لبشّار الأعمى : ما سلب الله من مؤمن كريمتيه إلا عوّضه عنهما : إمّا الحِفظ والذكاء ، وإمّا حسن الصوت . فما الذى عوّضك الله عن عينيك؟ قال : فقد النظر لبغيض ثقيل مثلك !(١)

ونظير هذه الحكاية ماحُكِى عن بعضهم ، قال : خرجت ليلة من قرية لبعض شأنى ، فإذا أنا بأعمى على عاتقه جرّة وبيده سِراج ، فلم يزل حتى آنتهى إلى النهر ، وملأ جرّته وعاد . قال : فقلت له : ياهذا ، أنت أعمى ، والليل والنهار عندك سواه ، فما تصنع بالسراج ؟ قال : ياكثير الفضول ، حملته لأعمى القلب مثلك ، يستضىء به لئلا يعثر فى الظلمة ، فيقع علىّ ويكسر جرّتى .

قالوا : بلغ أبا العيناء(٢) أنّ المتوكل يقول : لولا عمى أبى العيناء لاستكثرت منه ؛ فقال : قولوا لأمير المؤمنين : إن كان يريدنى لرؤية الأهلّة ونظم اللآلئ والمواقيت وقراءة نقوش الخواتيم ، فأنا لا أصلُح لذلك ؛ وإن كان يريدنى للحاضرة والمنادمة والمذاكرة والمسامرة ، فناهيك بى . فانتهى ذلك الى المتوكل فضحك منه ، وأمر بإحضاره ، فحضر ونادمه .

تزوّج بعض العميان بسوداء ، فقالت له : لو نظرت الى حسنى وجمالى وبياضى لازددت فىّ حباً . فقال لها : لو كنتِ كما تقولين ما ترككِ لِى البُصَراء .

(١) فى إحدى النسخ : «الراحة من النظر ... »

(٢) فى الأصول : « أبا العناهية » والتصويب عن وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ٧٢٠ طبع بولاق) .

ذكر شيء من نوادر السؤّال

سأل أبو عونٍ رجلا فمنعه، فألحّ عليه فأعطاه؛ فقال: اللهم آجرنا وإياهم، نسألهم إلحافا ويعطوننا كرها، فلا يبارك الله لنا فيها ولا يُؤجرهم عليها.

وقف أعرابيّ سائل على باب وسأل؛ فأجابه رجل وقال: ليس هاهنا أحد. فقال: إنك أحَدٌ لو جعل الله فيك بركة.

ووقف سائل على باب، وكانت صاحبة الدار تبول فى البالوعة؛ فسمع السائل صوت بولتها فظنه نشيش المقلى، فقال: أطعمونا من هذا الذى تَقْلونه؛ فضرطت المرأة وقالت: حَطبُنا رَطْبٌ ليس يُشعل.

ووقف سائل على باب وقال: تصدّقوا علىّ فإنى جائع. قالوا: إلى الآن لم نخبز. (١١) قال: فكفٌّ سويق. قالوا: ليس عندنا سويق. قال: فشربة من ماء فإنى عطشان. قالوا: ما أنانا السقاء. قال: فيسير دهن أجعله فى رأسى. قالوا: من أين لنا دهن. فقال: يا أولاد الزنا، فما قعودكم هنا! قوموا وآشحتوا[1] معى!

ذكر شيء من نوادر من آشتهر بالمجون

كان مُزَبَّد ممن آشتهر بالمجون والنوادر، وله نوادر. فمنها ما قيل: إنه أخذه بعض الولاة وقد أتُّهم بالشُّرب، فاستنكهه، فلم يجد منه رائحة؛ فقال: قيّئوه. فقال مزبّد: ومن يضمن عشائى أصلحك الله؟ فضحك منه وأطلقه. وهبّت ريح شديد فصاح الناس: القيامة، القيامة! فقال مزبّد: هذه قيامة على الريق بلا دابة، ولا دجّال، ولا القائم، ولا عيسى بن مريم، ولا يأجوج ومأجوج. وقيل له:

(١) هذه الكلمة عامية. والفصيح فى هذا المعنى «شحذ» أو «سأل».

لم لا تكون كفلانٍ؟ (يعنون رجلا موسِرا) فقال : بأبى أنتم ! كيف أشبّه بمن يَضْرِط فيُشَمَّت[1] وأعطسُ فأُلطم ! . وقيـل له : ما بال حِمارك يتبلّد إذا توجّه نحو المنزل وحمير الناس إلى منازلها أسرع ؟ قال : لأنه يعرف سوء المنقلَب . ونظرت آمرأته وهى حبلى الى قبح وجهـه ، فقالت : الويل لى إن كان الذى فى بطنى يُشبهك . فقال لهـا : الويل لك إن لم يكن يشبهنى . وسمِـع رجلا يقول عنِ آبن عباس : مَنْ نوى حِجّةً وعاقه عائق ، كُتِبت له . فقال مزبّد : ما خرج العام كِراء أرخص من هذا .

وممن آشتهر بالمجون أشعب .

ذكر شىء من نوادر أشعب وأخباره

هو أشعب بن جُبَير . وآسمه شُعَيب ، وكنيته أبو العلاء . وأمه أم الجلندح ، وقيل : أم حميد[2] حميدة . وهى مولاة أسماء بنت أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنها . وكان أبوه قد خرج مع المختار بن أبى عُبَيـد ؛ فأسره مُصْعَب بن الزبير ؛ فقال له : ويلك ! تخرج علىّ وأنت مولاى ! وقتله صبرا . وقد قيـل فى ولائه : إن أباه مولى عثمان آبن عفّان رضى الله عنه ، وإن أمه كانت مولاة أبى سفيان بن حرب ، وإن ميمونة أم المؤمنين أخذتها لمّـا تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت تدخل على أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فيستظرِفنها ؛ ثم صارت تنقل أحاديث بعضهنّ الى بعض ، وتُغرِى بينهن . فدعا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فماتت . وقد حُكِى

---

(١) التشمت (بالشين المعجمة والسين المهملة) : الدعاء للعاطس .

(٢) فى الأغانى : « كان يقال لأمه أم " الجلندح " وقيل أم جميل وآسمها حميدة » .

عن أشعب : أنه جلس يوما فى مجلس فيه جماعة ، فتفاخروا وذكر كل واحد منهم مناقبه وشرفه أو شجاعته أو شعره وغير ذلك مما يتمدح به الناس ويتفاخرون ؛ فوثب أشعب وقال : أنا ابن أم الجلندح ، أنا ابن المحترشة بين أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم . فقيل له : ويلك ! أو بهذا يفتخر الناس ! قال : وأىّ افتخار أعظم من هذا ! لو لم تكن أمّى عندهن ثقةً لما قبلن روايتها فى بعضهنّ بعضا . وقد حُكى : أنها زنت ، فخُلِقت ، وطِيف بها على جمل ، فكانت تنادى على نفسها : من رآنى فلا يَزْنِيَنَّ . فقالت لها امرأة : نهانا الله عز وجل عنه فعَصَيناه ، ونُطيعك وأنت مجلودة محلوقة ، راكبة على جمل ! . ونشأ أشعب بالمدينة فى دور آل أبى طالب ، وكَفلته وتولّت تربيته عائشة بنت عثمان . وعُمِّر أشعب عمرًا طويلا . وحُكى عنه أنه قال : كنت مع عثمان رضى الله عنه يوم الدارِ لمّا حُصِر ؛ فلما جرّد مماليكه السيوف ليقاتلوا كنت فيهم ؛ فقال عثمان : من أغمد سيفه فهو حرٌّ . فلما وقعت فى أذنى كنت والله أوّل من أغمد سيفه فعُتِقت . وكانت وفاته بعد سنة أربع وخمسين ومائة . وهذا القول يدل على أنه كان مولى عثمان بن عفّان رضى الله عنه .

(١٢) وقد روى أبو الفرج الأصفهانىّ بإسناد رفعه الى إبراهيم بن المهدىّ عن عبيد ابن أشعب عن أبيه : أنه كان مولده فى سنة تسع من الهجرة ، وأن أباه كان من مماليك عثمان بن عفان . وعمّر أشعب حتى هلك فى أيام المهدىّ . قال : وكانت فى أشعب خِلال ، منها : أنه كان أطيب أهل زمانه عِشرة ، وأكثرهم نادِرة ، وكان أقوم أهل دهره لحجج المعتزلة ، وكان امرأً منهم . وقال مصعب بن عبد الله : كان أشعب من القرّاء حسن الصوت بالقراءة ، وكان قد نسك وغزا ؛ وقد روى الحديث عن عبد الله بن جعفر . وقال الأصمعىّ : قال أشعب : نشأت أنا وأبى الزّناد

فى حجر عائشة بنت عثمان، فلم يزل يعلو وأسفل حتى بلغنا هذه المنزلة . وقال إسحاق آبن إبراهيم : كان أشعب مع ملاحته ونوادره يغنّى أصواتا فيُجيدها . وفيه يقول عبد الله آبن مُصْعَب الزبيرى عفا الله عنه :

اذا تمـــززت صُراحِيَّـــةً[1] * كمثل ريح المِسك أو أطيبُ
ثم تَغَـــنَّى لى بأهزاجه * زيد أخو الأنصار أو أشعبُ
حسِبت أنى مَلِكٌ جالسٌ * حَفَّت به الأملاك والموكب
وما أبالى وإله العـــلا[2] * أشَـــرَقَ العـالم أم غَرَّبوا

ولأشعب نوادر مستظرفة وحكايات مستحسنة، وقد آن أن نذكرها . فمنها ما حُكى أنه كان يقول : كلبى كلب سوء، يبصبص للأضياف، وينبح على أصحاب الهدايا . وقيل له : قد لَقِيتَ رجالًا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فلو حَفِظت أحاديث تحدّث بها ! فقال : أنا أعلم الناس بالحديث . قيل : فحدِّثنا . قال : حدّثنى عِكْرِمة عن آبن عبّاس رضى الله عنهم قال : خَلّتان لا تجتمعان فى مؤمن إلا دخل الجنّة، ثم سكت . فقيل له : هات، ما الخلتان؟ قال : نسِى عكرمة إحداهما ونسيت أنا الأخرى . وكان أشعب يحدّث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فيقول : حدّثنى عبد الله، وكان يُبْغضنى فى الله . وكان أشعب يلازم طعام سالم بن عبد الله آبن عمر رضى الله عنهم . فآشتهى سالم أن يأكل مع بناته فخرج الى البستان، فجاء أشعب الى منزل سالم على عادته، فأُخبر بالقِصة، فاكترى جملا بدرهم وجاء الى البستان . فلما حاذى الحائط وثب فصار عليه، فغطّى سالم بناته بثوبه وقال : بناتى بناتى ! فقال أشعب : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) .

(١) الصراحية : آنية للخمر . (٢) فى الأغانى : « وإله الورى » .

قال أشعب : جاءتنى جارية بدينار وقالت : هذا وديعة عندك ؛ فجعلتُه بين ثِنَى الفِراش . فجاءت بعد أيام وقالت : بأبى أنت ! الدينار ؛ فقلت ارفعى فراشى وخذى ولده فإنه قد ولد ، وكنت قد تركت الى جنبه درهما ، فأخذتِ الدرهم وتركت الدينار . وعادت بعد أيام فوجدت معه درهما آخر فأخذته ، وفى الثالثة كذلك . وجاءت فى الرابعة ، فلما رأيتها بكيتُ ؛ فقالت : ما يُبكيك ؟ قلت : مات دينارك فى النفاس . فقالت : وكيف يكون للدينار نفاس ؟ قلت : يا فاسقة ! تُصَدِّقين بالولادة ولا تصدّقين بالنفاس ! .

ومن أخباره المستظرفة ما حكاه المدائنىّ ، قال : قال أشعب : تعلّقت بأستار الكعبة فقلت : اللهم أذهب عنّى الحِرْص والطلبَ إلى الناس ؛ فمررت بالقرشيين وغيرهم فلم يُعطنى أحدٌ شيئا . فجئت الى أُمى ، فقالت : مالك قد جئت خائبا ؟ فأخبرتها بذلك ؛ فقالت : والله لا تدخل حتى ترجع فتستقيل ربك . فرجعت فجعلت أقول : يا ربّ أقِلنى ، ثم رجعت ، فما مررت بمجلس لقريش ولا غيرهم إلا أعطونى ، ووُهِب لى غلام ؛ فجئت الى أمى بجمال موقرة من كل شىء . فقالت : ما هذا الغلام ؟ فخِفت أن أخبرها فتموت فرحا إن قلت : وهبوه لى . فقالت : أىّ شىء هذا ؟ فقلت : غين . قالت : أىّ شىء [غين][1] ؟ قلت : لام . قالت : أىّ شىء [لام][1] ؟ [قلت : ألف . قالت : وأى شىء ألف[1]] ؟ قلت : ميم . قالت : وأىّ ميم ؟ قلت : غلام ؛ فغُشِى عليها . ولو لم أقطّع الحروف لماتت الفاسقة فرحا . قال : وجلس أشعب يوما الى جانب مروان بن أبان بن عثمان ؛ فانفلتت من مروان ريح لها صوت ؛ فانصرف أشعب يوهم الناس أنه هو الذى خرجت منه الريح . فلما انصرف مروان الى منزله جاءه أشعب فقال له : الدية ،

(١) التكملة عن الأغانى (ج ١٧ ص ٨٥ طبع بولاق) .

قال : دية ماذا ؟ قال : دية الضرطة التى تحملتهـا عنك ، و إلا شهرتك ؛ فلم يدعه حتى أخذ منه شيئا صالحه عليه .

(١٣) وقال محمد بن أبى قبيلة : غدّى أشعب جديًا بلبن أمّه وغيرها حتى بلغ غاية ، ثم قال لزوجته أمّ آبنـه وردان : إنى أحبّ أن ترضعيه بلبنك ففعلت . ثم جاء به الى إسماعيـل بن جعفر بن محمـد ، فقال : تالله إنه لآبنى ، رضع بلبن زوجتى ، قد حبـوتك به ، ولم أر أحدا يسـتأهله سواك . فنظر إسماعيل إليـه وأمر به فذُبح وسُمِط . فأقبل عليه أشعب وقال : المكافأة ؛ فقال : ما عنـدى والله اليوم شىء ، ونحن من تعـرف ، وذلك غير فائت لك . فلما يئس أشعب منـه قام من عنـده فدخل على أبيه جعفر ، ثم آندفع فشهَق حتى التقت أضـلاعه ، ثم قال : أَخْلِنى . قال : ما معنا أحد يسمع ، ولا عليك عين . قال : وثب آبنك إسماعيـل على آبنى فذبحه وأنا أنظر اليه . فارتاع جعفـر وصاح : ويلك ! وفيم ؟ وتريد ماذا ؟ قال : أمّا ما أريد فوالله مالى فى إسماعيـل حيلة ولا يسمع هذا سامع أبدا بعدك . فجزاه خيرا وأدخله منزله وأخرج اليه مائتى دينار فقال : خذ هذه ، ولك عندنا ما تحبّ . قال : وخرج الى إسماعيل وهو لا يبصر ما يطأ عليه ، فإذا به مسترسِل فى مجلسه . فلما رأى وجه أبيه أنكره وقام إليـه ؛ فقال : يا إسماعيل ، فعلتها بأشـعب ! قتلت ولده ؟ قال : فاستضحك وقال : جاءنى ، وأخبره الخبر . فأخبره أبوه بمـا كان منـه وما صار إليـه . قال : فكان جعفر يقول لأشعب : رُعْتنى راعك الله ! فيقول : روعة آبنك بنا فى الجدى أكثر من روعتك بالمـائتى الدينار .

قال المدائنىّ : دخل أشعب على الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، وعنده أعرابىّ قبيح المنظر ، مختلف الخِلقة ؛ فسبّح أشعب حين رآه وقال للحسين : بأبى أنت وأمى ، أتأذن لى أن أسلح عليـه ؟ فقال : إن شئت . ومع الأعرابىّ قوس وكِنانة ، ففوّق

نحـوه سهما، وقال : والله لـئن فعلت لتكونن آخر سلحة سلحتها . فقـال أشعب للحسين : جُعِلتُ فِداك، أخذنى القَوْلَنْج[1] . وعنه قال : توضأ أشعب فغسل رجله اليسرى وترك اليمنى . فقيل له : لِم تركت غسل اليمنى؟ فقال : لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : «أمتى غُرٌّ محجّلون من آثار الوضوء»[2] وأنا أحب أن أكون أغرّ محجّلا مطلق اليمين . وقال : سمع أشعب حُبَّى المدنيّة تقول : اللهم لا تمتنى حتى تغفرلى ذنوبى، فقال لها : يا فاسـقة ! أنت لم تسألى الله تعالى المغفرة، وإنمـا سألته عمر الأبد! (يريد : أن الله لا يغفر لها أبدا) .

وقال الزبير بن بكّار : كان أشعب يوما فى المسـجد يدعو، وقد قبّض وجهه فصـيّره كالصُّـبرة[3] المجموعة . فرآه عامر بن عبد الله بن الزبير فحصَـبه وناداه : يا أشعب، إنما أنت تناجى ربك فناجه بوجه طليق . قال : فأرخى لَحْيَيه حتى وقعا على زَوْرِه[4] . قال : فأعرض عنه، وقال : ولا كلّ ذا .

وقال مصعب : بلغ أشعب أنّ الغاضرىّ قد أخذ فى مثل مذهبـه ونوادره ، وأن جماعة آستطابوه، فَرَقَبهم حتى علم أنه فى مجلس من مجالس قريش يحادثهـم ويُضحِكهم، فصار اليهم، ثم قال : قد بلغنى انك قد نحوت نحوى، وشغلت عنى من كان يألفنى، فإن كنت مثلى فافعل كما أفعل . ثم غضّن وجهه وعرّضه وشنّجه، حتى صار عرضُـه أكثرَ من طوله ، وصار فى هيئة لم يعرفه أحد بهـا، ثم أرسل

(١) القولنج (بضم القاف وقد تفتح، وبفتح اللام وقد تكسر) : مرض معوىّ مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح .

(٢) الذى فى الجامع الصغير : «أمتى يوم القيامة غر من السجود محجلون من الوضوء» .

(٣) كذا فى الأغانى . والصـبرة : المناسب من معانيها هنا أن تكون بالضم بمعنى الكومة المجتمعة من الطعام وغيره . وفى الأصول : « كالشعرة» . ولم نجد لها معنى مناسبا .

(٤) الزور : وسط الصدر .

وجهه حتى كاد ذقنه يجوز صدره، وصار كأنه وجه الناظر فى سيف؛ ثم نزع ثيابه وتحادب، فصار فى ظهره حدبة كسنام البعير، وصار طوله مقدار شبر، ثم نزع سراويله، وجعل يمد جلد خصيه حتى حك بهما الأرض، ثم خلاهما من يده، وجعل يميس، وهما يخطان الأرض، ثم قام فتطاول وتمدد وتمطى، حتى صار كأطول ما يكون من الرجال. فضحك القوم حتى أغمى عليهم، وقُطع بالغاضرىّ فما تكلم بنادرة ولا زاد على أن يقول: يا أبا العلاء، لا أعاود ما تكره أبدا، إنما أنا عبدك وتخريجك؛ ثم انصرف أشعب وتركه.

وقال الزبير بن بكّار: حدثنى عمّى، قال: لقِى أشعبَ صديقٌ لأبيه، فقال له: ويلك يا أشعب! كان أبوك الحى وأنت أقطّ(١)، فإلى من خرجت تشبه؟ قال: إلى أُمّى.

وقال الهيثم بن عدىّ: لقيت أشعبَ فقلت له: كيف ترى أهل زمانك هذا؟ قال: يسألونى عن أحاديث الملوك؛ ويعطونى عطاء العبيد.

وقال مصعب بن عثمان: لقِى أشعبَ سالمُ بنُ عبد الله بن عمر، فقال له: يا أشعب، هل لك فى هريس أُعِدّ لنا؟ قال: نعم، بأبى أنت وأمى. فمضى أشعب إلى منزله؛ فقالت له امرأته: قد وجّه عبد الله بن عمرو بن عثمان يدعوك، قال: ويحك! إن لسالم بن عبد الله هريسة قد دعانى اليها، وعبد الله بن عمرو فى يدى متى شئت، وسالم إنما دعْوتُه للناس فلتة، وليس لى بدٌّ من المضىّ اليه. قالت: إذًا يغضب عبد الله. قال: آكل عنده ثم أصير إلى عبد الله. فجاء إلى منزل سالم فجعل يأكل أكلَ متعالِلٍ. فقال له: كل يا أشعب، وابعث ما فضل

(١) الأقط: القصير الشعر.

عنك إلى منزلك . قال : ذلك أردت ، بأبى أنت وأمى . قال : فقال : ياغلام ، (١٤)
احمل هذا إلى منزله ، فحمله ومشى أشعب معه . فقالت امرأته : ثكلتك أمك ، قد حلف عبدالله لايكلمك شهرا ؛ قال : دعينى و إياه ، هاتى شيئا من زعفران ؛ فأعطته ، فأخذه ودخل الحمام ، فمسحه على وجهه وبدنه ، وجلس فى الحمام حتى صفره ، وخرج متوكأ على عصا يرعد حتى أتى دار عبد الله بن عمرو بن عثمان . فلما رآه حاجبه قال : ويحك ! بلغتْ بك العِلّةُ ما أرى . ودخل فأعلم صاحبه ، فأذن له . فلما دخل عليه ، إذا سالم بن عبد الله عنده ، فجعل يزيد فى الرعدة ، ويقارب الخطو ، وجلس وما كاد أن يستقِلّ . فقال عبد الله : ظلمناك يا أشعب فى غضبنا عليك . فقال له سالم : ويلك ! مالك ؟ ألم تكن عندى آنفا وأكلت هريسة ! قال : لقد شُبّه لك ، لاحول ولا قوة إلا بالله . قال : لعل الشيطان يتشبّه بك . قال أشعب : علىّ وعلىّ إن كنت رأيتك منذ شهر . فقال له عبد الله : اعزب ويلك عن خالى ! أتبهته لا أمّ لك ! قال : ماقلتُ إلا حقّا . قال : بحياتى اصدُقْنى وأنت آمن من غضبى . قال : وحياتِك لقد صدق ؛ وحدّثه بالقصة ؛ فضحك حتى استلقى على قفاه .

وقال المدائنىّ والهيثم بن عدىّ : بعث الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان إلى أشعب بعد ما طلّق امرأته سعدة ، فقال له : يا أشعب ، لك عندى عشرة آلاف درهم على أن تُبَلّغ رسالتى سعدة . فقال له : أحضر المال حتى أنظر اليه ، فأحضر الوليد بَدْرة ، فوضعها أشعب على عنقه ، وقال : هات رسالتك . قال : قل لها يقول لك :

أسعدةُ هل اليك لنا سبيلٌ * وهل حتى القيامةِ من تلاقِ
بلى ! ولعلّ دهرًا أن يؤاتى * بموتٍ من حليلِك أو طلاقِ

فأصبحَ شـامتاً وتقرَّ عينى * ويجمعَ شملُنا بعـــد آفتراقِ

قال : فأتى أشعب الباب فأُخبِرتْ بمكانه، فأمرت ففُرِش لها فرش وجلست وأذِنت له ؛ فدخل فأنشدها . فلما أنشد البيت الأوّل :

أسعدةُ هل اليك لنا سبيلٌ * وهل حتى القيامةِ من تلاقِ

قالت : لا والله، لايكون ذلك أبدا . فلما أنشد البيت الثانى :

بلى ! ولعلّ دهرا أن يؤاتى * بموتٍ من حليلك أوطلاقِ

قالت : كلّا إن شاء الله، بل يفعل الله ذلك به . فلما أنشد البيت الثالث :

فأُصبِحَ شامتا وتقـرَّ عينى * ويُجمعَ شملُنا بعـــد آفتراق

قالت : بل تكون الشماتة به . ثم قالت لخدمها : خذوا الفاسِق . فقـال : ياسيِّدتى، إنها عشرة آلاف درهم. قالت : والله لأقتلنّك أو تبلِّغه كما بلّغتنى . قال : وما تَهيين لى ؟ قالت : بساطى الذى تحتى . قال : قومى عنه ؛ فقامت ، فطواه، ثم قال : هاتى رسالتَك، جُعلت فداكِ ! قالت : قل له :

أتبكى على لُبْنَى وأنت تركتَها * فقد ذهبتْ لبنى فما أنت صانعُ ؟

فأقبل أشعب، حتى دخل على الوليد، فأنشده البيت. فقال : أوَه قتلتنى والله ! فما ترانى صانعا بك يا آبن الزانية ! اِختَرْ إمّا أنّ أُدلِيك مُنَكَّسًا فى بئر، أو أرميَك من فوق القصر منكّسا ، أو أضربَ رأسك بعمودى هـذا ضربة . قال له : ما كنتَ فاعلًا بى شيئا من ذلك . قال : ولم؟ قال : لأنك لم تكن لتعذِّب عينين قد نظرتا إلى سُعْدة ! قال : صدقت يا آبن الزانية !

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ بإسناده إلى إبراهيم بن المهدىّ عن آبن أشعب عن أبيه، قال : دُعِى ذات يوم بالمغنّيين إلى الوليد بن يزيد، وكنت نازلًا معهم،

فقلت للرسول : خذنى فيهم؛ قال: لم أؤمر بك، إنما أمرت بإحضار المغنيين، وأنت بَطّال لا تدخل فى جملتهم . فقلت له : أنا والله أحسن غناءً منهم؛ ثم آندفعت فغنّيت. فقال : لقد سمعتُ حسنا، ولكن أخاف . قلت : لاخوف عليك؛ ولك مع ذلك شرط . قال : وما هو ؟ قلت : كل ما أصبت فلك شـطره؛ فاشهد علىّ الجماعة، ومضينا حتى دخلنا على الوليد، وهو لَقِس النفس؛ فغنّـاه المغنّون فى كل فنّ فلم يتحرّك ولم يَنْشَط . فقام الأبجر إلى الخلاء، وكان خبيثا داهيا، فسأل الخادم عن خبره؛ فقال: بينه وبين آمرأته شرّ، لأنه عشق أختها فغضبت عليه، وهو إلى أختها أميل، وقد عزم على طلاقها، وحلف ألّا يذكرها أبدًا بمراسلة أو مخاطبة، فخرج على هذه الحال من عندها . فعاد الأبجر الينا، وجلس ثم آندفع يغنّى : (١٥)

فبِينِى فإنى لا أُبالى وأيْقِـنِى * أصعّـد باقى حبّكم أم تَصَوَّبا

ألم تعلمى أنى عَزُوفٌ عن الهوى * إذا صاحبى من غير شىء تَغَضَّبا

فطَرِب الوليـد وآرتاح ، وقال للأبجر : أصبت والله يا عُبَيد ما فى نفسى ، وأمر له بعشرة آلاف درهم وشرِب حتى سَكِر، ولم يحظَ أحدٌ بشىء سوى الأبجر. فلما أيقنت بانقضـاء المجلس وثبتُّ فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر من يضرب بنى مائة سوط الساعة بحضرتك! فضحك. ثم قال: قبّحك الله! وما السبب فى ذلك؟ فأخبرته بقصّتى مع الرسول، وقلت له : إنه بدأنى بالمكروه فى أوّل يومه فاتصـل علىّ (١) إلى آخره، فأريد أن أضرب مائة سوط ويضرب بعدى مثلها . فقال : لقد لطّفت، بل أعطوه مائة دينار ، وأعطوا الرسول خمسين دينارا من مالنا عوض الخمسين التى أراد أخذها من أشعب، فقبضتُها وآنصرفت .

(١) فى الأغانى : « بما اتصل » .

قال ابن زَبَنّج[1] : كان أبان بن عثمان من أهزل الناس وأعبثهم[2]، فبينا نحن ذات يوم عنده وعنده أشعب، إذ أقبل أعرابىّ معه جمل، والأعرابىّ أشقر أزرق أزعر يتلظّى كأنه أفعى، والشّرّ بيّنٌ فى وجهه، مايدنو منه أحد إلا شتمه ونهره؛ فقال أبان: هذا والله من البادية[3]، ادعوه لى، فدعوه له وقيل: إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك؛ فأتاه فسلّم عليه، فسأله أبان بن عثمان عن نسبه، فانتسب له. فقال له أبان: حيّاك الله يا خال، اجلس، فجلس. فقال له: إنى أطلب جملًا مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده كما أشتهى بهذه الصفة وهذه الهامة والصورة والورك والأخفاف، والحمد لله الذى جعل ظَفَرِى به عند من أُحبّه، أتبيعُنيه؟ فقال: نعم أيها الأمير. قال: فإنى قد بذلت لك به مائة دينار؛ فطمع الأعرابىّ وسُرّ بذلك وانتفخ، وبان الطمع فى وجهه. فأقبل أبان على أشعب ثم قال له: ويلك يا أشعب! إن خالى هذا من أهلك وأقاربك (يعنى: فى الطمع) فأوسِعْ له مما عندك؛ قال: نعم، بأبى أنت وزيادة. فقال له أبان: يا خال، إنما زدتك فى الثمن على بصيرة أنّ الجمل يساوى ستين دينارا، ولكنى بذلت لك مائة دينار لقلة النقد عندنا، وإنى أُعطيك عُروضا تساوى مائة دينار؛ فزاد طمع الأعرابىّ وقال: قد قبلت ذلك أيها الأمير. وأسرّ أبان الى أشعب، فأخرج شيئا مغطًّى، فقال له: أخرج ما جئت به؛ فأخرج جرد عمامة تساوى أربعة دراهم. فقال له: قَوِّمها يا أشعب. فقال: عمامة الأمير يشهد فيها الأعيادَ والجُمَع ويلقَى فيها الخلفاء! خمسون دينارا. قال: ضعها بين يديه،

---

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٧ ص ١٠٢ طبع بولاق). وزبنج بفتح الزاى والباء وفتح النون مشدّدة، راوية ابن هرمة. وفى الأصول «ربيح» وهو تصحيف.

(٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «وأولعهم» وهو تحريف.

(٣) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «البابة».

وقال لابن زَبَنّج: أثبت قيمتها، فكتب ذلك، ووُضعت العمامة بين يدى الأعرابىّ؛ فكاد يدخل بعضُه فى بعض غيظا، ولم يقدِر على الكلام. قال: هات قَلَنْسُوَتى، فأخرج قلنسوةً طويلة خَلَقًا(١) قد علاها الوسخ والدُّهْن وتخرّقت تساوى نصف درهم. قال: قَوِّم؛ فقال: قلنسوة الأمير تعلو هامته، ويصلّى فيها الصلوات الخمس، ويجلس فيها للحكم! ثلاثون دينارا. قال: أثبِتْ، فأثبت ذلك، ووُضعت القلنسوة بين يدى الأعرابىّ فاربَدّ وجهه وجحظت عيناه وهَمّ بالوثوب، ثم تماسك وهو مقلقل. ثم قال لأشعب: هاتِ ما عندك؛ فأخرج خُفَّين خَلَقين قد نُقبا وتقشّرا وتفتّتا، فقال: قَوِّمْ؛ فقال: خُفّا الأمير يطأ بهما الروضة، ويعلو بهما منبر النبىّ صلى الله عليه وسلم! أربعون دينارا، فقال: ضَعْهما بين يديه. ثم قال للأعرابى: أضمم اليك متاعك، وقال لبعض الأعوان: امضِ مع الأعرابىّ وآقبض ما بقى لنا عليه من ثمن المتاع، وهو عشرون دينارا. فوثب الأعرابىّ فأخذ القماش فضرب به وجوه القوم لا يألو فى شدّة الرمى، ثم قال له: أتدرى فى أى شىء أموت؟ قال لا؛ قال: لم أُدرِك(٢) أباك عثمان فأشترك والله فى دمه إذ ولَد مثلك! ثم نهض كالمجنون حتى أخذ برأس بعيره، وضحِك أبان حتى سقط، وضحك من كان معه. فكان (١٦) الأعرابىّ بعد ذلك إذا لقِى أشعب يقول له: هلمّ إلىّ يابن الخبيثة، حتى أكافئك على تقويمك(٣) المتاع يوم قوّمت؛ فيهرُب منه أشعب.

وقال المدائنىّ: حدّثنى شيخ من أهل المدينة قال: كانت امرأة شديدة العين، لا تنظر الى شىء فتستحسنه إلا عانته؛ فدخلت على أشعب وهو فى الموت، وهو

(١) فى الأصل «خلقة» وهو خطأ، يقال: ثوب خلق وجبة خلق بغير هاء.

(٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «كيف لا أدركت».

(٣) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «قيمتك»، وهو تحريف.

يقول لأبنته : يا بنية، إذا أنا مت فلا تندبيني، والناس يسمعونك، وتقولين : وا أبتاه، أندبُك للصوم والصلاة، للفقه والقرآن، فيكذّب الناس ويلعنونني. ثم ٱلتفت فرأى المرأة، فغطّى وجهه بكمه وقال لها : يا فلانة، بالله إن كنت ٱستحسنت شيئا مما أنا فيه، فصلى على النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا تُهلكيني؛ فغضبت المرأة وقالت : سخِنت عينك! وفي أي شيء أنت مما يستحسن ؟ أنت في آخر رمق ! قال : قد علمت، ولكن قلتُ (١) لئلا تكوني قد ٱستحسنت خفة الموت عليّ وسهولة النزع، فيشتدّ ما أنا فيه . فخرجت من عنده وهي تسبّه، وضحك من كان حوله من كلامه ومات.

ذكر شيء من نوادر أبي دُلَامة

هو أبو دُلَامة زَنْد بن الجَوْن. وزند بالنون. وهو كوفيّ، أسود، مولى لبني أسد؛ كان أبوه عبدا لرجل منهم يقال له قصاقص، فأعتقه. وأدرك آخر زمن بني أمية ولم يكن له نباهة في أيامهم، ونبغ في أيام بني العباس، فانقطع الى أبي العباس السفّاح وأبي جعفر المنصور والمهديّ، وكانوا يقدّمونه ويفضّلونه ويستطيبون مجالسته ونوادره .

قال أبو الفرج الأصفهانيّ : كان أبو دُلامة رديء المذهب، مرتكبا للمحارم، مُضيِّعا للفروض، متجاهرا بذلك؛ وكان يُعْلَم هذا منه ويُعْرَف به، فيَتجافَى عنه للطف محلّه. وله أخبار وأشعار ليس هذا موضع ذكرها، وإنما نثبت في هذا الموضع ما له من نادرة أو حكاية مستظرفة . فمن ذلك أنه دخل على أبي جعفر المنصور، وكان المنصور قد أمر أصحابه بلُبْس السواد والقلانس الطوال، تُدعم (٢) بعيدان من

(١) كذا في الأغاني. وفي الأصول : «ولكن قد لا تكونين» وهو تحريف .

(٢) كذا في الأغاني (ج ٩ ص ١ طبع بولاق) . وفي الأصول : «وتدعم» .

داخلها، وأن يعلّقوا السيوف فى المناطق، ويكتبوا على ظهورهم: (فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ). فلما دخل عليه أبو دُلَامة فى هذا الزىّ قال له المنصور: ما حالك؟ قال: شرّ حال يا أمير المؤمنين، وجهى فى نصفى، وسيفى فى آستى، وقد صَبَغتُ بالسواد ثيابى ونبذتُ كتاب الله وراء ظهرى؛ ثم أنشد:

وكنا نرجى منحةً من إمامنا * فجاءت بطُولٍ زاده فى القَلانِسِ
تراها على هام الرجال كأنها * دِنانُ[1] يهودٍ جُلِّلَتْ بالبَرانِسِ

فضحك منه المنصور وأعفاه وحذّره من ذلك، وقال: إياك أن يسمع هذا منك أحد.

وحكى عنه: أنه كان واقفا بين يدى السفاح أو المنصور، فقال له: سلنى حاجتك؛ فقال أبو دلامة: كلب صيد؛ قال: أعطوه إياه. قال: ودابّة أتصيّد عليها. قال: أعطوه. قال: وغلام يقود الكلب ويتصيّد به؛ قال: أعطوه غلاما. قال: وجارية تُصلح لنا الصيد وتُطعمنا منه؛ قال: أعطوه جارية. قال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال[2] فلا بدّ لهم من دار يسكنونها؛ قال: أعطوه دارًا تجمعهم. قال: فإن لم يكن ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال: قد أقطعتك مائة جَرِيب[3] عامرة ومائة جريب غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: مالا نبات فيه. قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافى بنى أسد. فضحك وقال: آجعلوا المائتين كلها عامرة. قال: فأذَنْ لى أن أقبّل يدك؛ قال: أمّا هذه فدعها، فإنى لا أفعل. قال: والله ما منعت عيالى شيئا أقلّ عليهم ضررا منها.

(١) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «ديار» وهو تحريف.
(٢) فى الأغانى: «عيدك».
(٣) الجريب: مقدار معين من مساحة الأرض.

ورُوى : أنه دخل على المنصور فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

إنّ الخليط أجدّوا البين فانجمعوا * وزوّدوك خبالًا بئس ما صنعوا

والله يعلم أن كادت، لبينهم * يوم الفراق، حصاة القلب تنصدع

عجبتُ من صِبْيتى يومًا وأمّهمُ * أمّ الدُّلامة لمّا هاجها الجزع

لا بارك الله فيها من مُنَبَّهةٍ * هَبَّتْ تلوم عيالى بعد ما هَجَعوا

ونحن مُشتبهو الألوان، أوجهنا * سود قباح، وفى أسمائنا شُنَعُ

إذا تَشَكَّتْ إلىّ الجوعَ، قلتُ لها * ما هاج جوعَك إلا الرِّىّ والشِّبَعُ

أذابك الجوع مذ صارت عيالتنا * على الخليفة منه الرىّ والشبع (١)

لاوالذى يا أمير المؤمنين قضى * لك الخلافة فى أسبابها الرَّفَعُ

(١٧) ما زلت أُخلصها كسبى فتأكله * دونى ودون عيالى ثم تضطجع

شوهاءُ مَشْنَأَةٌ (٢) فى بطنها ثَجَلٌ (٣) * وفى المَفَاصِلِ من أوصافها نَدَعُ (٤)

ذَكَّرتُها بكتابِ الله حُرْمَتَنا * ولم تكن بكتاب الله ترتجعُ

فَأَخْرَنْطَمتْ (٥) ثم قالت وهى مُغْضَبَةٌ (٦) * أأنت تتلو كتاب الله يا لُكَعُ!

---

(١) ورد هذا البيت فى الأصول : «قالت أذابك قد صارت الخ ...» . وهو تحريف . وقد أورد صاحب الأغانى هذا البيت على أنه رواية أخرى فى البيت قبله وهى الرواية الجيدة . ولذلك كانا متحدى القافيـــة .

(٢) مشنأة : قبيحة .

(٣) الثجل : عظم البطن واسترخاؤه .

(٤) الندع : اعوجاج الرسغ فى اليد أو الرجل .

(٥) أخرنطمت : رفعت أنفها استكبارا أو غضبا .

(٦) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «مضبة» وهو تحريف .

أخرُجْ تَبَغَّ لنا مالًا ومَزْرعةً * كما لجيرانِنا مالٌ ومُزْدَرَعُ
وٱخْدَعْ خليفتَنا عنّا بمسألةٍ * إنّ الخليفة للسؤّال يخدع

قال : فضحك أبو جعفر وقال : أرضوها عنه بمائتى جريب عامرة — ويروى ستمائة جريب عامرة وغامرة — فقال : أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة فيما بين الحيرة والنّجَف ، وإن شئت زدتُك . فضحك وقال : ٱجعلوها كلها عامرة .

قال : ولمّا توفّى السفّاح دخل أبو دُلامة على المنصور والناس عنده يعزّونه ، فقال :

أمسيتَ بالأنبارِ يابن محمد * لم تَستطِعْ عن عُقْرِها تحويلا
ويلى عليك وويل أهلى كلّهم * ويلًا وعَوْلًا فى الحياة طويلًا
فَلْتَبْكِيَنّ لك السماءُ بعَبْرةٍ * ولتبكينّ لك الرجالُ عويلا
مات الندى إذ متّ يابن محمد * فجعلتَه لك فى التراب عديلا
إنى سألتُ الناسَ بعدك كلّهم * فوجدتُ أسمَح من سألتُ بخيلا
أَلِشقوتى أُخِّرتُ بعدك للتى * تدعُ العزيز من الرجال ذليلا؟
فَلَأَحْلِفَنّ يمينَ حقّ بَرّةٍ * تالله ما أُعطِيتُ بعدك سولا

قال : فأبكى الناس قولُه . فغضِب المنصور غضبًا شديدًا وقال : إن سمعتُك تُنشد هذه القصيدة لأقطعنّ لسانك . قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ أبا العباس أمير المؤمنين كان لى مُكرِما ، وهو الذى جاء بى من البدو ، كما جاء الله بإخوة يوسف اليه ، فقل كما قال يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . فسُرِّىَ عن المنصور وقال : قد أقلناك يا أبا دُلامة ، فسل حاجتك . قال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ولم أقبِضها . فقال المنصور : ومن يعلم ذلك؟ قال : هؤلاء (وأشار الى جماعة ممن حضر) فوثب سليمان ابن مُجالد وأبو الجهم فقالا : صَدَق أبو دُلامة ، نحن نعلم ذلك . فقال المنصور لأبى

أيّوب الخازن [وهو مغيظ(١)] : ياسليمان آدفعها اليـه وسَيِّره الى هـذا الطاغية (يعنى عبد الله بن علىّ ، وكان قد خرج بالشام وأظهر الخلاف) فوثب أبو دلامة وقال : يا أمير المؤمنين، أُعيذُك بالله أن أخرُج معهم، ووالله إنى مشئوم . قال المنصور : امضِ فإن يُمْنِى يغلب شُـؤمَك . فقال : يا أمير المؤمنين، والله ما أُحبّ أن يجرَّب ذلك منّى على مثل هذا العسكر، فإنى لا أدرى أيّهما يغلب : يمنك أو شؤمى؛ إلّا أنى بنفسى أوثق وأعرَف وأطولُ تجربة . فقال : دَعْنى وهذا، فمالك من الخروج بدّ . قال : فإنى أصْـدُقك الان، شهِدت والله تسعةَ عشر عسكرًا كلها هُزمت، وكنت سببها، فإن شئتَ الآن على بصيرةٍ أن يكون عسكرك تمام العشرين فافعل . فضحك المنصور وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

وعن جعفر بن حسين اللّهبىّ قال : حدثنى أبو دُلامة قال : أُتِى بِى المنصور او المهدىّ وأنا سكران، فخلف ليُخْرِجَنّى فى بَعْث حرب؛ فأخرجنى مع رَوْح بن حاتم المهلّبىّ لقتال الشُّراة(٢) . فلمـا آلتقى الجمعان قلت لروح : أما والله لو أنّ تحتى فرسَك ومعى سـلاحك لأثرت فى عدوّك اليوم أثرًا ترتضيه ! فضحك وقال : والله العظيم لأدفعنّ اليك ذلك ولآخذنّك بالوفاء بشَرْطك؛ فنزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفع ذلك إلىّ ، ودعا بغيره فاستبدل به . فلمّا حصل ذلك فى يدى قلت : أيها الأمير، هذا مقام العائذ بك، وقد قلت أبياتا فاسمعها . قال : هات، فأنشدته :

إنى آستجرتُك أن أقدَّم فى الوغَى * لِتَطَاعُنٍ وتَنازُلٍ وضِرَابِ
فهَبِ السيوفَ رأيتُها مشهورةً * وتركتُها ومضيتُ فى الهُـرّاب
ماذا تقول لِمَـا يجىء ولا يُرَى * من بادرات الموتِ بالنُّشّـابِ

(١) زيادة عن الأغانى .
(٢) الشراة : الخوارج الذين شروا أنفسهم [أى باعوها] فى طاعة الله بالجنة .

فقال : دع هـذا عنـك، وبَرَز رجل من الخوارج يدعو الى المبارزة فقال : (١٨)
اخرج اليـه يا أبا دُلامة . فقال : أَنشُـدك اللهَ أيها الأمير فى دمى . فقال : والله لَتَخْرُجنّ! فقلت : أيها الأمير، فإنه أوّل يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا، وأنا والله جائع ما تَنبعِث منى جارحةٌ من الجوع، فمُرْ لى بشىء آكلُه ثم أخرُج؛ فأمر لى برغيفين ودَجاجة ؛ فأخذت ذلك و برزت عن الصفّ . فلما رآنى الشارى أقبـل نحوى وعليـه فروٌ قد أصابه المطر فابتلّ، وأصابته الشمس فانقبض[1] وعيناه تَقِدان، فأسرع إلىّ ؛ فقلت : على رِسْلك يا هذا! فوقف ؛ فقلت : أتقتل من لا يقاتلك؟ قال لا . قلت : أتستحلّ أن تقتل رجلا على دينك ؟ قال لا . قلت : أفتستحلّ ذلك قبـل أن تدعو من تقاتله الى دينك؟ قال : لا، فاذهب عنى الى لعنة الله، فقلت : لا أفعل أو تسمعَ منى. قال : قل. فقلت : هل كانت بيننا عداوة أو تِرَةٌ أو تعرفنى بحالٍ تُحْفِظك علىّ أو تعلم بينى وبين أهلك وِترا؟ قال : لا والله، قلت: ولا أنا والله لك إلا على جميل [الرأى][2]، فإنى لأهواك وأتحل مذهبك وأدين دينك وأريد السوء لمن أرادك. فقال : يا هذا، جزاك الله خيرا فانصرِفْ. قلت : إنّ معى زادًا أريد أن آكله وأُريد مؤاكلتك لتتوكّد المودّة بيننا ويرى أهلُ العسكرين هوانَهم علينا؛ قال : فافعل . فتقدّمت اليه حتى آختلفت أعناق دوابّنا وجمعنا أرجلنا على مَعارِفها وجعلنا نأكل والناس قد غُلِبوا ضحكا . فلما آستوفينا ودّعنى، ثم قلت له : إنّ هـذا الجاهل، إن أقمتَ على طلب المبـارزة نَدَبنى اليك فتتعَب وتُتعبنى، فإن رأيت ألّا تبرز اليوم فافعل . قال : قد فعلت؛ فآنصرف وآنصرفت . فقلت لروح: أمّا أنا فقد كفيتُك قِرْنى ، فقل لغيرى يكفيك قِرْنَه كما كفيتك . وخرج آخر يدعو الى البِراز؛ فقال لى : اخرج اليه، فقلت :

(١) انقبض : تقبض . (٢) زيادة عن الأغانى .

إنى أعوذ بروْح أن يُقَـدِّمَنى * الى القتال فتخزَى بى بنو أسَدِ
إن البِرازَ الى الأقـران أعلمَـه * مما يُفَرِّق بين الرُّوح والجسد
قد حالفتك المنايا إذ رُصِدت لها * وأصبحت لجميع الخلق كالرَّصَد
إنّ المهلَّبَ حُبَّ الموت أورثكم * فما وَرِثْتُ اختيارَ الموت عن أحدِ
لو أنّ لى مهجةً أخرى لجُدْتُ بها * لكنها خُلقت فردًا فلم أَجُدِ

قال : فضحك روح وأعفانى .

قال : وشرب أبو دُلامة فى بعض الحانات وسكر ، فمشى وهو يميل ، فلقيه العَسَس فأخذه ، فقيل له : من أنت؟ وما دينك؟ فقال :

دِينى على دين بنى العبّاسِ * ما خُتِم الطِّين على القِرْطاسِ
إذا اصطحبتُ أربعًا بالكاسِ * فقـد أدار شَرْبُهـا براسى
* فهل بما قلت لكم من باسِ *

فأخذوه وخرقوا ثيابَه وساجه(١) ، وأتى به الى أبى جعفر ، فأمر بحبسه مع الدَّجاج فى بيتٍ . فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرّةً وجاريته أخرى فلا يجيبه أحد ، وهو مع ذلك يسمع صوت الدجاج وزُقاء(٢) الديك . فلمّا أكثر قال له السجّان : ما شأنك ؟ قال : ويلك! من أنت ؟ وأين أنا؟ قال : أنت فى الحبس ، وأنا فلان السجّان . قال : ومَنْ حبَسنى ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ومن خرَق طيلَسانى؟ قال : الحرس . فطلب أن يأتيه بدواة وقرطاس ، ففعل فأتاه ، فكتب الى أبى جعفر المنصور يقول :

أميرَ المؤمنين فَدَتْك نفسى * عَلامَ حبستَنى وخرَقْتَ ساجى

(١) الساج : الطيلسان .
(٢) الزقاء : الصياح .

أمِنْ صهباءَ صافيـــةِ المِزاج * كأنّ شـعاعها لَهَبُ السِّراج
وقد طُبِخَتْ بنـار الله حتى * لقد صارت من اللُّطَفِ النِّضَاج
تَهَشُّ لهـا القلوب وتشتهيها * اذا بَرَزَتْ تَرَقْرَق فى الزُّجَاج
أُقاد الى السجون بغـير جُرْم * كأنى بعضُ عمّـال الخراج!
فلَوْ معهم حُبِستُ لكان سهلا * ولكنى حُبِستُ مع الدجاج
وقد كانت تُخَـبِّرُنى ذنوبى * بأنى من عِقابك غيرُ ناج
على أنّى وإن لاقيتُ شرًّا * لِخيرِكَ بعد ذاك الشرِّ راجى

فاستدعاه المنصور وقال : أين حُبِست يا أبا دُلامة ؟ قال : مع الدَّجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أفوقَ[1] معهم الى الصباح ؛ فضحك وخلّى سبيلَه وأمر له بجائزة . فلما خرج قال الربيع : إنه شرِب الخمر يا أمير المؤمنين ، أمَا سمعتَ قوله : وقد طُبخت بنار الله ؟ (يعنى الشمس) قال : لا والله ، ما عَنَيتُ إلا نار الله (١٩) المُوقَدة التى تَطّلِع على فؤاد الربيع . فضحك المنصور وقال : خذها يا ربيع ولا تعاود التعرّضَ له .

ورُوى عن المدائنىّ قال : دخل أبو دُلامة على المهدىّ وعنده إسماعيل بن على وعيسى بن موسى والعبّاس بن محمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بنى هاشم ؛ فقال له المهدىّ : أنا أُعطِى الله عهدًا إن لم تَهْجُ واحدًا ممن فى البيت ، لأقطعنّ لسانَك أو لأضربنّ عُنُقَك . فنظر اليه القوم ، وكلما نظر إلى أحد منهم غمزه بأنّ علىّ رضاك . قال أبو دلامة : فعلمتُ أنى قد وقعت وأنها عَزْمةٌ من عَزَماته لابدّ منها ، فلم أرَ أحدًا أحقّ بالهجاء منّى ولا أدعى الى السلامة من هجاء نفسى ، فقلت :

ألَا أبلِغْ لديكَ أبا دُلامه * فلست من الكرام ولا كرامَه

(١) أفوقَ : أصبح .

إذا لبس العمامة كان قِـرْدًا[1] * وخـــنزيرًا إذا نزع العمامه
جمعتَ دَمامةً وجمعت لؤمًا * كذاك اللؤم تتبعـه الدمامه
فإن تكُ قد أصبتَ نعيمَ دنيا * فلا تَفْرَحْ فقد دنتِ القيامه

فضحك القوم ولم يبقَ منهم أحد إلا أجازه .

قال : وخرج المهدىّ وعلىّ بن سليمان الى الصيد ، فسنح لهما قطيع من ظباء، فأُرسلت الكلاب وأُجريت الخيـل ، ورمى المهـدىّ سهما فأصاب ظبيا ، ورمى علىّ بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله؛ فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدىّ ظبيًا * شـكّ بالسهم فؤاده
وعلىّ بن سـليما * ن رمى كلباً فصـاده
فهنـيئا لهـما كلّ * امرئ يأكل زاده

فضحك المهدىّ حتى كاد يسقط عن سرجه، وقال : صدق والله أبو دُلامة، وأمر له بجائزة سنية ؛ فلقّب علىّ بن سليمان بعد ذلك صائد الكلب ، فغلب عليه .

قال : وتوفّيت حمادة بنت عيسى، وحضر المنصور جنازتها؛ فلما وقف على حُفْرتها قال لأبى دُلامة : ماأعددت لهذه الحُفرة؟ قال : ابنة عمك يا أمير المؤمنين حمادة بنة عيسى يجاء بها الساعة فتدفن فيها . فضحك المنصور حتى غُلِب وستر وجهه .

قال الهيثم بن عدىّ رحمة الله عليـه : حجّت الخيزُران، فلمـا خرجت، صاح أبو دلامة : جعلنى الله فداك، اللهَ اللهَ فى أمرى ! فقالت : من هذا؟ قالوا : أبو دلامة. فقالت : سلوه ما أمره ؛ قالوا له : ما أمرك ؟ قال : أدنونى من مَحْملها ؛ قالت أدنوه؛ فأُدنى، فقال لها : أيتها السيدة، إنى شيخ كبير وأجرك فىّ عظيم . قالت :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « قلت قردا » .

فمه! قال: تَهَبِنى جاريةً من جَواريك تُؤنسنى، وترفُق بى وتُريحنى من عجوز عندى؛ قد أكلت رِفدى، وأطالت كدّى؛ فقد عاف جلدى جلدَها، وتشوّقتُ فقدَها. فضحكت الخيزران وقالت: سوف آمرُ لك بما سألت. فلمّا رجعت تلقّاها وأذكرها وخرج معها الى بغداد، فأقام حتى غَرِض[1]. ثم دخل على أمّ عَبِيدة حاضنة موسى وهارون فدفع اليها رقعة قد كتب بها الى الخيزران، فيها:

أبلغى سيِّدتى بالله يا أمّ عَبِيدَهْ
أنّها أرشدها الله وإن كانت رشيده
وعدتنى قبل أن تخـ*ـرجَ للحج وليده
فتأنّيتُ وأرسلـ*ـتُ بعشرين قصيده
كلما أخلقن أخلفـ*ـتُ لها أخرى جديده
ليس فى بيتى لتمهيـ*ـد فِراشى من قعيده
غير عجفاء عجوز * ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حو * ت طَرِىٍّ فى عصيده
ما حياة مع أنثى * مثل عِرْسِى بسعيده

فلما قُرئت عليها، ضحكت ودعت بجارية من جواريها فائقة الجمال، فقالت لها: خُذِى كل مالك فى قصرى، ففعلت؛ ثم دعت بعضَ الخدم وقالت له: سلِّمها الى أبى دُلامة. فانطلق الخادم بها فلم يصادفه فى منزله؛ فقال لامرأته: اذا رجع أبودلامة فادفعيها اليه وقولى له: تقول لك السيدة: أحسِنْ صُحْبة هذه الجارية فقد أمرت لك بها. فقالت له نعم. فلما خرج الخادم دخل ابنها دُلامة فوجد أمّه تبكى؛ فسألها عن خبرها فأخبرته وقالت: إن أردت أن تبرّنى يوماً من الأيام فاليوم.

(١) غرض: مل وضجر.

قال : قولى ما شئت فإنى أفعله . قالت : تدخل عليها فتُعلِمها أنك مالكها وتطَؤها فتحرِمها عليه وإلا ذهبتْ بعقله بخفانى وجفاك ، ففعل ودخل الى الجارية فوطِئها ووافقها ذلك منه ، وخرج . فدخل أبو دلامة فقال لامرأته : أين الجارية؟ قالت : فى ذلك البيت ، فدخل اليها شيخ محطَّم ذاهب ، فمدّ يده اليها وذهب ليقبِّلها ، فقالت : مالك ويحك ! تَنَحَّ وإلّا لطمتُك لطمةً دققت منها أنفك . فقال لها : أبهذا أوصتك السيِّدة ؟ قالت : إنها بعثت بى الى فتى من هيئته وحاله كيت وكيت ، وقد كان عندى آنفا ونال منى حاجته . فعلم أنه قد دُهِى من أمّ دُلامة وابنها . فخرج أبو دلامة الى دُلامة فلطمه ولبّبه[1] وحلف ألّا يفارقه إلا الى المهدىّ . فمضى به مُلبِّبا[2] حتى وقف بباب المهدىّ ، فعُرِّف خبره ، وأنه جاء بابنه على تلك الحال . فأمر بإدخاله فلما دخل قال : مالك؟ قال : فعل بى هذا ابن الخبيثة ما لم يفعله ولد بأبيه ، ولا يرضينى إلا أن تقتله . قال : ويحك ! وما فعل بك ؟ فأخبره الخبر ، فضحك حتى استلقى ثم جلس . فقال له أبو دُلامة : أعجبك فعله فتضحك منه؟ ! فقال : علىّ بالسيف والنِّطع . فقال له دُلامة : قد سمعتَ قوله يا أمير المؤمنين ، فاسمع حجّتى . قال : هات ! قال : هذا الشيخ أصفق الناس وجها ، هو يفعل بأمّى منذ أربعين سنة ما غضِبتُ ، وفعلتُ أنا بجاريته مرّةً واحدة غضِب وصنع بى ما ترى . فضحك المهدىّ أشدّ من ضحكه الأوّل ، ثم قال : دَعْها له يا أبا دُلامة ، وأنا أُعطيك خيرا منها ، قال : على أن تخبأها لى بين السماء والأرض وإلا فعَل بها والله كما فعل بهذه ، فتقدّم إلى دُلامة ألّا يعاود مثل فعله ، وحلف أنه إن عاود قتله ، ثم وهب له جارية .

---

(١) كذا فى الأغانى . ولبيه : جمع ثيابه عند صدره ونحره وجره . وفى الأصول : « وتلبب به » وتلبب بالشىء : تحزم به وهى غير لائقة .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول . « متليا به » .

قال عبد الله بن صالح رحمه الله: جاء آبن أبى دُلامة يوما الى أبيه وهو فى محفل من جيرانه وعشيرته بخلس بين يديه ، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم : إنّ شيخى كما ترون قد كبِر سنُّه ورَقّ جلده ودقّ عظمه ، وبنا الى حياته حاجة شديدة ، فلا أزال أُشير عليه بالشىء يُمسك رمقَه ويُبقى قوّته فيخالفنى فيه ، وإنى أسالكم أن تسالوه قضاء حاجة لى أذكرها بحضرتكم فيها صلاح جسمه وبقاء حياته ، فأسعفونى بمسألته معى . فقالوا : نفعل حبًّا وكرامة ، ثم أقبلوا على أبى دُلامة بألسنتهم فتناولوه بالعتاب حتى رضى آبنه وهو ساكت ، قال : قولوا للخبيث فليقل مايريد ، فستعلمون أنه لم يأت إلا ببليّة . فقالوا له : قل ، فقال : إن أبى إنما قتله كثرة الجماع ، فتعاونونى حتى أخصيه ، فلن يقطعه عن ذلك غير الخصاء فيكون أصحّ لجسمه وأطول لعمره . فعجِبوا بما أتى به وضحكوا . ثم قالوا لأبى دُلامة : قد سمعتَ فأجِبْ . قال : قد سمعتم أنتم فعرّفتكم أنه لم يأت بخير . قالوا : فما عندك فى هذا ؟ قال : قد جعلتُ أمّه حكما فيما بينى وبينه ، فقوموا بنا اليها . فقاموا بأجمعهم ودخلوا اليها ، وقصّ أبو دلامة القصة عليها وقال : قد حكّمتك . فأقبلت على الجماعة فقالت : إن آبنى هذا أبقاه الله قد نصح أباه ولم يألُ جهدا ، وما أنا إلى بقاء أبيه أحوج منى الى بقائه ، وهذا أمر لم يقع به تجربة منّا ولاجرى بمثله عادة لنا ، وما أشك فى معرفته بذلك ، فليبدأ بنفسه فليخصها ، فاذا عوفى ورأينا ذلك قد أثّر عليه أثرا محمودا آستعمله أبوه . فضحك أبوه والقوم وآنصرفوا يعجبون من خبثهم جميعا .

ومنهم أبو صدقة .

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « ما أنا إلا الى » .

ذكر شيء من نوادر أبي صدقة

هو أبو صدقة مسكين بن صدقة من أهل المدينة مولى لقريش. قال أبو الفرج: وكان مليح الغناء طيب الصوت كثير الرواية صالح الصنعة، من أكثر الناس نادرة وأخفّهم رُوحا وأشدّهم طمعا وألحّهم مسألة، وهو من المغنّين الذين أقدمهم الرشيد (٢١) من الحجاز فى أيامه. قيل: إنه عوتب على كثرة إلحاحه فى المسألة، فقال: وما يمنعنى من ذلك، وآسمى مسكين وكنيتى أبو صدقة وآبنتى فاقة وآبنى صدقة، فمَنْ أحقُّ بهذا منى؟ وكان الرشيد يعبث به كثيرا؛ فقال ذات يوم لمسرور: قل لآبن جامع وإبراهيم الموصلىّ وزبير بن دحمان وزلزل وبرصوما وآبن أبى مريم المدينىّ: إذا رأيتمونى قد طابت نفسى، فليسأل كل واحد منكم حاجة، مقدارها مقدار صلته، وذكر لكل واحد منهم مبلغ ذلك، وأمرهم أن يكتبوا أمرهم عن أبى صدقة؛ فقال لهم مسرور ما أمر به الرشيد. ثم أذن الرشيد لأبى صدقة قبل إذنه لهم. فلما جلس قال له: يا أبا صدقة، لقد أضجرتنى بكثرة مسألتك وأنا فى هذا اليوم ضجر وأحببت أن أتفرّج وأفرح، ولست آمن أن تنغص علىّ مجلسى بمسألتك، فإما أن تعفينى أن تسألنى اليوم حاجة وإلّا فانصرف. فقال له: لست من يومى هذا الى شهر أسألك حاجة. فقال له الرشيد: أمَا إذ شَرَطت لى هذا على نفسك فقد اشتريت منك حوائجك بخمسمائة دينار وهاهى ذه فخذها طيبة معجلة، فإن سألتنى شيئا بعدها من هذا اليوم فلا لوم علىّ إن لم أصلك سنةً بشىء. فقال: نعم وسنتين. فقال له الرشيد: زدنى فى الوثيقة. فقال: قد جعلت أمر أمّ صدقة فى يدك فطلّقها متى شئتَ، إن شئت واحدة وإن شئت ألفا إن سألتُك فى يومى هذا حاجة، وأشهدتُ الله ومَنْ حضر على ذلك. فدفع اليه المال، ثم أذن للجلساء والمغنّين فدخلوا وشرب القوم. فلما طابت نفس الرشيد، قال له آبن جامع: يا أمير المؤمنين، قد نِلْت منك مالم تبلغه أُمنيّتى،

وكثر إحسانك إلىّ حتى كَبَتَّ أعدائى وقتلتهم، وليس لى بمكة دار تشبه حالى، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لى بمالٍ أبنى به دارا وأفرشها بباقيه لأفقأ عيون أعدائى وأزهق نفوسهم فعل . فقال له : وكم قدّرت لذلك؟ قال : أربعة آلاف دينار، فأمر له بها . وقام إبراهيم الموصلىّ فقال : يا أمير المؤمنين، قد ظهرت نعمتك علىّ وعلى الكبار من ولدى؛ وفى أصاغرهم من أحتاج [إلى][1] ختانه، وفيهم صغار أحتاج أن أتخذ لهم خدما؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يحسن معونتى على ذلك فعل . فأمر له بمثل ما أمر به لابن جامع . وجعل كل واحد منهم يقول فى الثناء ما يحضره ويسأل حاجته على قدر جائزته، وأبو صدقة ينظر إلى الأموال تُفرَّق يمينا وشمالا، فوثب قائما ورمى بالدنانير من كمّه وقال للرشيد : أقِلْنى أقال الله عَثْرَتَك . فقال الرشيد : لا أفعل . فجعل يستحلفه ويضطرب ويلحّ والرشيد يضحك ويقول : مالى إلى ذلك سبيل، الشرط أملَكُ . فلمّا عيل صبرُه أخذ الدنانير ورمى بها بين يدى الرشيد وقال : ها كها قد رددتها عليك وزدتك أمّ صدقة فطلّقها واحدة إن شئت وإن شئت ألفا . وإن لم تلحقنى بجوائز القوم فألحقنى بجائزة هذا البارد عمرو الغزّال — وكانت جائزته ثلاثة آلاف دينار — فضحك حتى استلقى ثم رد عليه الخمسمائة الدينار وأمر له بألف أخرى معها، وكان ذلك أكثر ما أخذه منذ خدمه إلى أن مات، رحمة الله عليهم .

وروى أبو الفرج عن أبى إسحاق قال : مُطِرنا ونحن مع الرشيد بالرَّقّة مع الفجر فاتّصل إلى غد ذلك اليوم، وعرفنا خبر الرشيد أنه مقيم عند أمّ ولده المسماة سحر، فتشاغلنا عنه فى منازلنا . فلما كان من غد جاءنا رسول الرشيد فحضرنا جميعا، وأقبل يسأل كلّ واحد منا عن يومه الماضى وما صنع فيه؛ فيخبره إلى أن انتهى

(١) زيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ١٥٨ طبع أوربا) . وقد جاء الكلام فيه هكذا : «وفى أصاغرهم من قد بلغ وأريد تزويجه، ومن أصاغرهم من أحتاج الى أن أطهره ... الخ» .

إلى جعفر بن يحيى، فسأله عن خبره فقال له: كان عندى أبو زكّار الأعمى وأبو صدقة، وكان أبو زكّار كلّما غنّى صوتا، لم يفرغ منه حتى يأخذه أبو صدقة؛ فإذا انتهى الدور اليه أعاده وحكى أبا زكّار فيه وحركاته وشمائله، ويفطن أبو زكّار لذلك فيُجَنّ ويموت غيظا ويشتم أبا صدقة كلّ الشتم حتى يضجر، وهو لايجيبه ولا يدع العبث به وأنا أضحك من ذلك، إلى أن توسّطنا الشرب وسئمنا من عبثه به؛ فقلت له: دع هذا عنك وغنّ غناءك. فغنّى رَمَلًا ذكر أنه من صنعته، فطربت له والله يا أمير المؤمنين طربا ما أذكر أنى طربتُ مثله منذ حينٍ(١) وهو:

فتنتنى بفاحم اللونِ جَعْدٍ * وبثغرٍ كأنه نظمُ دُرّ

وبوجه كأنه طلعة البـد * روعينٍ فى طرفها نفثُ سِحرِ

فقلت له: أحسنتَ والله يا أبا صدقة! فلم أسكت من هذه الكلمة حتى قال: ياسيدى إنى قد بنيت دارًا أنفقتُ عليها جميع مالى وما أعددت لها فرشا فأفرشها لى. فتغافلت عنه. وعاود الغناء فتعمّدتُ أن قلتُ(٢): أحسنتَ، فسألنى فتغافلت؛ فقال: يا سيدى، هذا التغافل متى حدث لك؟ سألتك بالله وبحقّ أبيك عليك إلا أجبتنى عن كلامى ولو بشتم. فأقبلتُ عليه وقلت له: أنت والله بغيض، اسكت يا بغيض، وآكفُفْ عن هذه المسألة الملحّة. فوثب من بين يدىّ، فقلت: إنه قد خرج لحاجة، فإذا هو قد نزع ثيابه وتجرّد منها خوفا من أن تبتلّ ووقف تحت السماء لا يواريه شىء والمطر يأخذه ورفع رأسه وقال: يا ربّ أنت تعلم أنى مُلْهٍ ولست نائحا، وعبدك الذى قد رفعته وأحوجتنى الى خدمته يقول لى: أحسنتَ لا يقول لى: أسأت، وأنا مذ جلست أقول له: بنيت ولا أقول له: هدمت، فيحلف

(٢٢)

(١) فى الأصول: «منذ حين وزمان» ولا معنى لذكر كلمة «زمان» وهى غير موجودة فى الأغانى.

(٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «لأن قلت».

بك جرأة عليك أنى بغيض، فاحكم بينى و بينه فأنت خير الحاكمين . فغلبنى الضحك وأمرت به فتنحّى، وجهدت به أن يغنّى فامتنع، حتى حلفتُ له بحياتك أنى أفرش له داره يا أمير المؤمنين، وخدعته فلم أُسمِّ له بما أفرشها . فقال له الرشيد : طيِّبٌ والله ! الآن تمّ لنا به اللهو، أدعُه فإنه اذا رآك سوف يتنجّزك الفرش لأنك حلفتَ له بحياتى فهو يقتضيك ذاك بحضرتى ليكون أوفق له ؛ فقل له : أنا أفرشها لك بالبوارىّ[1] وحاكِمْه الىّ . ثم دعا به فحضر، فلما استقرّ فى المجلس قال لجعفر : الفرش الذى حلفت بحياة أمير المؤمنين أنك تفرش به دارى، تقدَّمْ به . فقال له جعفر : اختر، إن شئت فرشتُها لك بالبوارىّ و إن شئت فبالبَرِدىّ من الحصر، فصاح واضطرب . فقال له الرشيد : وكيف كانت القصة ؟ فأخبره، فقال له : أخطأتَ يا أبا صدقة إذ لم تسمِّ النوع ولا حدّدت القيمة[2]، فاذا فرشها لك بالبردىّ أو بما دون ذلك فقد برَّ فى يمينه، و إنما خدعك ولم تفطن أنت ولا توثّقت وضيّعت حقّك . فسكت ثم قال : نوفّر أيضا البردىّ والبوارىّ عليه أعزّه الله . وغنّى المغنّون حتى انتهى الدور اليه، فأخذ يغنّى غناء الملّاحين والبنّائين والسقّائين وما يجرى مجراه من الغناء . فقال له الرشيد : أىّ شىء هذا الغناء ؟ قال : مَن فُرِش داره بالبوارىّ والبردىّ فهذا الغناء كثير منه، [وكثير][3] أيضا لمن هذه صلته . فضحك الرشيد وطرب وصفّق وأمر له بألف دينار من ماله، وقال له : افرش دارك بهذه . فقال : وحياتك يا أمير المؤمنين لا آخذها أو تحكم لى على جعفر بما وعدنى و إلا متُّ والله أسفا لفوات ما حصل فى طمعى ووُعِدتُ به ؛ فحكم له على جعفر بخمسمائة دينار أخرى، فأمر له جعفر بها .

---

(١) البوارىّ جمع بارىّ وهو الحصير المنسوج .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « وحدّ » .

(٣) زيادة عن الأغانى .

ذكر شيء من نوادر الأُقَيْشر[1]

هو أبو مُعرض المغيرة بن عبد الله بن معرض بن عمرو بن معرض بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . والأقيشر لقب غلب عليه لأنه كان أحمر الوجه أقيشر. قال أبو الفرج الأصفهانيّ : وعُمِّر الأقيشر عمرا طويلا ، ولعله ولد فى الجاهلية ونشأ فى الإسلام ، وكان أبعد بنى أسد نسبًا . قال : وكان كوفيًا خليعا ماجنا مدمنا للخمر . وهو الذى يقول لنفسه :

فإنّ أبا معرضٍ إذ حسا * من الرّاح كأسا على المنبر
خطيبٌ لبيبٌ أبو معرضٍ * فإن لِيم فى الخمر لم يصبرِ
أحلّ الحرامَ أبو معرضٍ * فصار خليعا على المكبرِ
يحبّ اللئامَ ويَلْحى الكرام * وإن أقصروا عنه لم يُقصرِ

قال : وشرب الأقيشر فى بيت خمّار بالحِيرة ، فجاءه الشُّرطُ ليأخذوه ، فتحرّز منهم وأغلق الباب وقال : لست أشرب فما سبيلكم علىّ ؟ قالوا : قد رأينا العُسَّ فى كفّك وأنت تشرب . فقال : إنما شربت من لبن لَقْحة لصاحب هذه الدار ، فما برحوا حتى أخذوا منه درهمين . فقال :

إنما لقحتُنا باطيةٌ[2] * فاذا مامُزِجتْ كانتْ عَجَبْ
لبنٌ أصفرُ صافٍ لونُهُ * ينزع الباسور من عَجْبِ[3] الذَّنَبْ
إنما نشرب من أموالنا * فسلوا الشرطىّ ماهذا الغضبْ؟

(١) الأقيشر هو تصغير أقشر وهو الشديد الحمرة .
(٢) الباطية : إناء من الزجاج للخمر يوضع بين الشرب يغترفون منه .
(٣) العجب : أصل الذنب .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ عن أبى عمرو الشيبانىّ وغيره قال : كان الأقيشر لا يسأل أحدا أكثر من خمسة دراهم ، يجعل درهمين للشراب ودرهما للطعام ودرهمين فى كِراء بغل الى الحيرة . وكان له جار يكنى أبا المضاء، له بغل يكريه ، فكان يعطيه درهمين ويأخذ بغله فيركبه الى الحيرة حتى يأتى به بيت الخمّار فينزل عنه ويربطه ، ثم يجلس للشرب حتى يمسى ثم يركبه . وله فى ذلك أشعار كثيرة .

قال وتزوج الأقيشر ابنة عمّ له يقال لها الرَّباب ، على أربعة آلاف درهم — ويقال: على عشرة آلاف درهم (١) — فأتى قومه فسألهم فلم يعطوه شيئا ،فأتى ابن رأس البغل وهو دِهْقان (٢) الصين، وكان مجوسيّا ، فسأله فأعطاه الصَّدَاق كاملا ، فقال :

كفانى المجوسىُّ هَمَّ (٣) الرَّباب * فــدًى للمجوسىّ خالٌ وعمْ
شهدت بأنك رَطْب (٤) اللسان * وأنك بحر جــوادٌ خِضمْ
وأنك ســيد أهــلِ الجحيم * اذا ما تردّيت فيمن ظلَمْ
تجاور هامان (٥) فى قعرها * وفرعون والمكتنى بالحكَمْ

فقال له المجوسىّ : ويحك ! سألت قومك فما أعطوك شيئا ، وجئتنى فأعطيتك فجزيتنى هذا القول ولم أُفلت من شرّك! قال : أو ما ترضى أن جعلتك مع الملوك وقرين أبى جهل؟ . قال : ثم جاء الى عكرمة بن ربعىّ التميمىّ، فسأله فلم يعطه؟ شيئا، فقال فيه :

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٠ ص ٩٢ طبع بولاق) . وفى الأصول : « الى » وهو تحريف .
(٢) الدهقان (بالكسر والضم) : رئيس الإقليم .
(٣) فى الأغانى : « مهر » .
(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «بظر اللسان» .
(٥) فى الأغانى: «قارون» .

سألت ربيعة مَنْ شَرُّها * أبًا ثم أمًّا فقالوا لِمَــهْ
فقلت لأعلم مَنْ شَرُّكم * وأجعلَ للسبِّ فيه سِمَهْ
فقالوا لِعكرِمةَ المخزياتُ * وما ذا يرى الناس فى عِكرِمَهْ
فإن يك عبــدا زكا ماله * فما غيرذا فيه من مكرمَهْ

قال الأصمعى : قال عبد الملك بن مروان للأقيشر : أنشدنى أبياتك فى الخمر، فأنشده قوله :

تُريك القذى من دونها وهى دونه * لوجــه أخيها فى الإناء قطوبُ
كميتٌ اذا شُجَّت[1] وفى الكأس وَرْدةٌ * لها فى عظام الشاربين دبيبُ

فقال له : أحسنت والله يا أبا مُعرض ! لقد أجدت فى وصفها ، وأظنك قد شربتها . فقال : والله يا أمير المؤمنين، إنه ليريبنى معرفتك بها . قال : وكان الأقيشر يأتى إخوانا له فيسألهم فيعطونه ، فأتى رجلا منهم فأمر له بخمسمائة درهم فأخذها ومضى الى الحانة فدفعها الى صاحبها، وقال له : أقم لى ما أحتاج اليه، ففعل . فانضم اليه رفقاء له فلم يزل معهم حتى نفدت الدراهم، فأتاهم بعد إنفاقها فاحتملوه يوما و يوما . فلما أتاهم فى اليوم الثالث نظروا اليه من بعيد ، فقالوا لصاحب الحانة : اصعد بنا الى الغرفة ، وأعلِمْ الأقيشر أنا لم نأت اليوم، ففعل . فلما جاء الأقيشر أعلمه بما قالوا، فعلم أنه لا فرج له عند صاحب الحانة إلا برهنٍ، فطرح اليه بعض ثيابه وقال له : أقم لى ما أحتاج اليه، ففعل . فلما أخذ منه الشراب أخذ يقول :

يا خليلىَّ اسقيانِى كأسا * ثمّ كأسا حتى أخرَّ نُعاسا

(١) فى الأغانى : "فضت" .

إن فى الغرفة التى فوق رأسى * لأُنَاسا يُخادِعون أُناسا
يشربون المعتّق الراح صِرفا * ثم لا يرفعـــون للزُّور[1] راسا

قال : فلما سمع أصحابه هـذا الشعر، فدّوْه بآبائهم وأمهاتهم، ثم قالوا له : إمّا أن تصعد الينا وإما أن نتزل اليك، فصعِد اليهم .

قال : وكان يختلف الى رجل من بنى تميم وكان يجرى عليه فى كل شهر عشرة دراهم، فجاءه مرة فوجده قد أصيب بابنه ، فردّته آمرأته عنه، ثم عاد بعـد ذلك بيومين فردّته عنه أيضا ؛ فكتب اليه بيتى شـعر ودفع الرقعة اليها وقال : أوصليها اليه؛ فقرأها، فاذا فيها :

ألا أبلـــغْ لديك أبا هشـامٍ * فإن الريح أبردُها الشَّمالُ
عِداتُك فى الهلال عِداتُ صدقٍ * فهـل سمنتْ كما سمن الهـلالُ

فلما قرأ الرقعة أمر بردّه وقال : لقد سمنت وما بقى إلا الهزال إن تأخرت، فأمر له بها وزادها خمسة دراهم .

وكان الأقيشر مع شرفه وشعره يرضيه اليسير ويسخطه. وأخباره كثيرة ونوادره مشهورة ، وفيما أوردناه منهـا كفاية . ومات الأقيشر قتيلا . وقيـل : إنه مدح عبد الله بن إسحـاق بن طلحة بن عبيد الله فلم يعطه شيئا فهجاه؛ فزعموا أنّ غلمانا لعبد الله بن إسحاق قتلوه؛ فاجتمع بنوأسد وادّعوا عليه قتل الأقيشر؛ فآفتدى منهم بديتـه . وقال آبن الكلبىّ : كان الأقيشر مولّعا بهجاء عبـد الله بن إسحاق ومدح أخيـه زكريا . فقال لغلمانه : ألا تريحوننى منـه ! فانطلقوا فجمعوا بعرا وقصبا

(١) الزور : جمع زائر، كراكب وركب .

بظهر الكوفة وجعلوه فى وسط إِرَةٍ[1]، وأقبـل الأفيشر سكرانا من الحِيرة على بغـل أبى المضاء المكارى، فأنزلوه عن البغل وشدّوه رباطا ثم وضعوه فى تلك الإرَةِ وألهبوا النار فى القصب والبعر فمات، ولم يُعلَم من قتله. والله أعلم.

ذكر شىء من نوادر ٱبن سَيَّابة

هو إبراهيم بن سَيَّابة مولى بنى هاشم. كان يقال: إن جدّه حجام أعتقـه بعض الهـاشميين. قـدّمه إبراهيم الموصلىّ وٱبنـه إسحاق لأنه مدحهما فرفعا من قدره وغَنَّيا بشعره ونوّها بذكره. وكان خليعا ماجنا حسن النادرة. وله نوادر نذكر منها نُبَـذًا فيما رواه أبو الفرج الأصفهانىّ. منها مارواه عن إسحاق الموصـلىّ قال: أتى إبراهيم ٱبن سيابة وهو سكران ٱبنـا لسوّار بن عبد الله القاضى أمرد، فعانقه وقبّله، وكانت معـه دايةٌ يقال لها رَحَاص، فقيل لهـا: إنه لم يقبّله تقبيل التسليم، وإنما قبّله شهوةً، فلحقته الداية فشتمته وأسمعته كلّ ما يكره، وهجره الغلام بعد ذلك، فقال:

لئن لثمتُـك سِرًّا * فأبصرتنى رَحَاصُ
وقال فى ذاك قومٌ * على ٱنتقاصى حِراصُ
هَجَـرتَنى وأتتـنى * شتيمة وٱنتـقاصُ
فهاك فاقتصّ منى * إنّ الجروحَ قِصاصُ

وقد قيل: إنّ رَحاص هذه كانت مغنّية كان الغلام يهواها، وإنه سكِر ونام، فقبّله ٱبن سيّابة. فلما ٱنتبه قال للمغنّية: ليت شعرى! ما كان خبرك مع ابن سَيّابة؟ فقالت له: سَلْ عن خبرك أنت معه، وحدّثته بالقصة، فهجره الغلام، فقال هذا الشـعر.

(١) الإرة: موضع النار.

وقال إسحاق بن إبراهيم : كان آبن سَيَّابة عندنا يومًا مع جماعة نتحدّث ونتناشد وهو يُنشد شيئا من شعره، فتحرّك فضرط فضرب بيده على آسته غير مكترث وقال: إما أن تسكتنى حتى أتكلّم، وإما أن نتكلّمى حتى أسكت .

وقال جعفر الكاتب : قال لى إبراهيم بن سيّابة الشاعر : اذا كان عند جيرانك جنازة وليس فى بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة، فإن المصيبة عندك أكبر منها عند القوم، و بيتك أولى بالمأتم من بيتهم . وقال سليمان بن يحيى بن معاذ : قدِم علىّ إبراهيم بن سيّابة بنيسابور فأنزلته علىّ، فجاء ليلة من الليالى فجعل يصيح : (٦٦) يا أبا أيّوب، فخشيت أن يكون قد غشيه شىء، فقلت : ما تشاء ؟ فقال :

* أعيانىَ الشادنُ الربيبُ *

قلت بماذا ؟ فقال :

* أكتبُ أشكو فلا يُجيبُ *

فقلت : دَارِه وداوِه، فقال :

من أين أبغى شفاء قلبى * وإنما دائىَ الطبيبُ

فقلت : لا دواء إذًا إلا أن يفرّج الله عزّ وجلّ عنك . فقال :

يا رب فرّج إذًا وعَجِّل * فإنك السامعُ المجيبُ

ثم آنصرف . وقد تقدّمت هذه الحكاية . والسلام .

ذكر شىء من نوادر مطيع بن إياس الكنانىّ وأخباره

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو شاعر من مخضرمى الدولتين الأمويّة والعباسيّة . كان ظريفًا خليعًا ماجنا حلو العشرة مليح النادرة قال : وكان متهما فى دينه بالزندقة . وكان مولده ومنشؤه بالكوفة، وكان منقطعا الى الوليد بن عبد الملك، ثم آتصل بخدمة الوليد بن يزيد . وكان سبب ذلك ما حكى عن حكم

الوادىّ المغنّى، قال : غنّيت الوليد بن يزيد وهو غلام حديث السنّ بشعر مطيع بن أياس وهو :

إكليلُها ألوانُ * ووجهها فتّانُ

وخالُها فريدٌ * ليس له جيرانُ

اذا مشت تثنّتْ * كأنها ثعبانُ

قدجُدِلتْ بفاءتْ * كأنها عِنانُ

فطرِب حتى زحف عن مجلسه الىّ ، واستعادنى الصوت حتى صَحِل[1] صوتى ؛ ثم قال : ويحك ! من يقول هذا ؟ فقلت : عبدك يا أمير المؤمنين أرضاه لخدمتك . قال : ومن هو ؟ قلت : مطيع بن إياس . قال : وأين هو ؟ قلت : بالكوفة ؛ فأمر أن يُحْمَلَ اليه مع البريد ، فحُمِلَ اليه ؛ فسأله عن الشعر فقال : من يقول هذا ؟ فقال : عبدك أنا يا أمير المؤمنين . فقال له : أدن منى ، فدنا منه فضمّه الوليد اليه وقبّل فاه و بين عينيه ، وقبّل مطيعٌ رجليه والأرضَ بين يديه ؛ ثم أدناه حتى جلس فى أقرب المجالس اليه ، وآصطبح معه أسبوعا متوالىَ الأيام على هذا الصوت . وكان فى خلال الدولة الأمويّة ينقطع الى أوليائها وعلمائها ، ثم آنقطع فى الدولة العباسيّة الى جعفر آبن أبى جعفر المنصور فكان معه حتى مات جعفر . ومات مطيع فى خلافة الهادى بعد ثلاثه أشهر مضت منها . وله نوادر وأخبار مستظرفة هذا موضع ذكرها ، فلنقتصر هاهنا من أخباره عليها دون غيرها .

قيل : سقط لمطيع حائطٌ ، فقال له بعض أصحابه : آحمد الله على السلامة . قال : آحمد الله أنت إذ لم تَرُعْك هدته ، ولم يصبك غباره ، ولم تغرم أجرة بنائه .

---

(١) صحل : بح .

ومن أخباره ما رواه أبو الفرج الأصفهانى بإسناده الى عبد الملك المروانى عن مطيع بن إياس، قال: قال لى حماد عَجْرَد يوما: هل لك أن أريك "خُشَّة" صديقتى وهى المعروفة بظبية الوادى! قلت نعم. قال: إنك إن قعدت عندها[1] وخَبُثت عينك فى النظر أفسدتها علىَّ. فقلت: لا والله لا أتكلّم بكلمة تسوءك ولأسرّنك. فمضى بى وقال: والله لئن خالفت ما قلت لأخرجنّك. قال: قلت: إن خالفت إلى ما تكره فاصنع بى ما أحببتَ. قال: آمض بنا فمضينا، فأدخلنى على أحسن خلق الله وأظرفهم وأحسنهم وجها. فلما رأيتها أخذنى الزِّمعُ[2]، وفطن لى فقال: آسكت يابن الزانية، فسكتُّ قليلا، فلحظتنى ولحظتها لحظة أخرى فغضب ووضع قلنسوته عن رأسه، وكانت صلعته حمراء كأنها آست قرد؛ فلما وضعها وجدت للكلام موضعا، فقلت:

(٢٧) وإن السوءة السوءا * ء يا حمّاد عن خُشَّهْ
عن الأُترجّة الغضّـ * ـة والتفّاحة الهشّهْ

فالتفتَ الىّ وقال: فعلتها يابن الزانية! فقالت له: أحسن، فوالله ما بلغ صفتك بعد، فما تريد منه! فقال لها: يا زانية! فسبّته وتناورا، فشقّت قميصه وبصقت فى وجهه وقالت له: ما يُصادقك ويدع مثل هذا إلا زانية، وخرجنا وقد لقى كلَّ بلاء، وقال لى: ألم أقل لك يابن الزانية: إنك ستفسد علىّ مجلسى! فأمسكت عن جوابه، وجعل يهجونى ويسبنى ويشكونى الى أصحابنا؛ فقالوا لى: آهجه ودعنا وإياه؛ فقلت:

ألا يا ظبيةَ الوادى * وذات الجسد الرادى
وزينَ المصرِ والدارِ * وزينَ الحىّ والنادى

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٢ ص ٨٢ طبع بولاق). وفى الأصول: «إنك إن بعدت عنها وحققت عينيك فى النظر... الخ». (٢) الزمع: الدهش.

وذات المبسم العذبِ * وذات المبسم البادى
أما بالله تستحيـ * ـين من خلّة حمّادِ
فحمّادٌ فتى ليس * بذى عزٍّ فتنقادى
ولا مالٍ ولا طِرْفٍ * ولا حظٍّ[1] لمرتادِ
فتوبى واتقى الله * وبُتّى حبلَ عَجْرادِ
فقد مُيِّزتِ بالحسنِ * عن الخَلْق بإفراد
وهذا البينُ قد حُمّ * فجودى لِيَ بالزادِ

قال : فأخذ أصحابنا رقاعا فكتبوا الأبيات فيها وألقوها فى الطريق، وخرجت أنا فلم أدخل عليهم ذلك اليوم، فلما رآها وقرأها قال لهم : يا أولاد الزنا فعلها ابن الزانية وساعدتموه ؟ قال : وأخذها حكم الوادىّ فغنّى بها، فلم يبق بالكوفة سَقّاء ولا طحّان ولامكارٍ إلا غنّى فيها ثم غبتُ مدّة وقدمتُ فأتانى فسلّم علىّ حتى قال لى :

أما بالله تستحيـ * ـين من خلّة حمّادِ

قتلتنى قتلك الله ! والله ما كلمتنى حتى الساعةَ . قال : قلت : اللهم أَدِم هجرها له وسوء رأيها فيه وأسفَه عليها وأغوه بها ؛ فشتمنى ساعة . قال مطيع : ثم قلت له : قم امض بنا حتى أريك أختى — وكانت لمطيع صديقةٌ يسمّيها أختى وتسمّيه أخى، وكانت مغنّية — فلما خرجت الينا، دعوتُ قيِّمةً لها فأسررت إليها فى أن تصلح لنا طعاما وشرابا، وعرفتها أن الذى معى حمّاد فضحكت . ثم أخذت صاحبتى فى الغناء وقد علمت بموضعه وعرفت، فكان أوّل ما غنّت :

أما بالله تستحيـ * ـين من خلّة حمّاد

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «خلط» وهو تحريف .

فقال لها : يازانية ! وأقبل علىّ وقال : وأنت يازانى يابن الزانية ! أسررتِ هذا الى قيِّمتها ! فقلت : لا والله كذبت . وشاتمتُه صاحبتى ساعةً ثم قامت فدخلت ، وجعل يتغيّظ علىّ . فقلت : أنت ترى أنى أمرتها أن تغنّى بما غنّت ؟ فقال : أرى ذلك وأظنّه ظنّا لا والله ولكنى أتيقنه . فحلفت له بالطلاق على بطلان ظنّه وانصرفنا .

وحكى قال يحيى بن زياد المحاربىّ لمطيع وكان صديقا له : انطلق بنا الى فلانة صديقتى ، فإن بينى و بينها مغاضَبة لتُصلح بيننا و بئس المصلح والله أنتَ . قال : فدخلا عليها (١) ، فأقبلا يتعاتبان ومطيعٌ ساكتٌ ، حتى اذا أكثر قال يحيى : مايسكتك ؟ أسكت الله نأمتك (٢) ! قال مطيع :

أنت معتلّة عليــه وما زا * ل مُهِينًا لنفسه فى رضاكِ

فأعجب يحيى وهشّ له . فقال مطيع :

فدعيه وواصلى ابنَ إياسٍ * جعلت نفسُه الغداة فِداكِ

فقام يحيى اليــه بوسادة فى البيت فمــا زال يجلد بها رأسه و يقول : ألهذا جئتُ بك يابن الزانية ! ومطيع يُغوِّث (٣) حتى مَلّ يحيى ، والجارية تضحك منهما ، ثم تركه .

ورُوىَ عن محمد بن الفضل السكونىّ قال : رفع صاحب الخبر الى المنصور أن مطيع بن إياس زنديق وأنه يلازم ابنه جعفر و جماعة من أهل بيته ، و يوشك أن يفسد أديانهم أو يُنسَبوا الى مذهبه . فقال له المهدىّ : أنا به عارف ، أما الزندقة فليس من أهلها ، ولكنه خبيث الدين فاسق مستحلٌّ للمحارم ؛ قال : فأحضره وانهه (٤) عن صحبة جعفر وسائر أهله ؛ فأحضره المهدىّ وقال له : يا خبيث يا فاسق ! لقــد

(١) فى الأصول : « فدخلنا » ، والتصويب عن الأغانى .

(٢) النأمة : الصوت . وأسكت الله تعالى نأمته أى أماته .

(٣) غوّث الرجل : قال واغوثاه .

(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « ونهاه » وهو لا يستقيم مع السياق .

أفسدت أخى ومن تصحبه من أهلى ، والله لقد بلغنى أنهم يتقارعون عليك ، ولا يتم لهم سرور إلا بك ، وقد غرّرتهم وشهرتهم فى الناس ، ولولا أنى شهدت لك عند أمير المؤمنين بالبراءة مما نسبت اليه من الزندقة ، لقد كان أمر بضرب عنقك !

(٢٨) يا ربيع آضربه مائة سوط وآحبسه . قال : ولِم يا سيدى ؟ قال : لانك سِكّير خمّير قد أفسدت أهلى كلّهم بصحبتك . فقال له : إن أذِنت لى وسمعت احتججت . فقال له : قل ؛ فقال : أنا آمرؤ شاعر ، وسوقى إنما تنفُق مع[1] الملوك وقد كسدت عندكم ، وأنا فى أيامكم مُطَّرح[2] ، وقد رضيتُ منها مع سَعتها للناس جميعا بالأكل على مائدة أخيك ، لا يتبع ذلك غيره ، وأصفيته على ذلك شكرى وشعرى ؛ فإن كان ذلك غاليا عندك تبتُ منه . فأطرق المهدىّ ثم رفع رأسه فقال : قد رفع إلىّ صاحب الخبر أنك تُماجن على السؤّال ، وتضحك منهم . قال : لا والله ما ذاك من فعلى ولا شأنى ولا جرى منّى قط إلا مرة واحدة ؛ فإن سائلا أعمى آعترضنى وقد عبرت الجسر على بغلتى ، فظنّنى من الجند فرفع عصاه فى وجهى ، ثم صاح : اللهم سخّر الخليفة لأن يعطى للجند أرزاقهم فيشتروا من التجار الأمتعة وتربح التجار عليهم فتدرّ أموالهم فتجب فيها الزكاة عليهم فيتصدّقوا علىّ منها . فنفرتْ بغلتى من صياحه ورفعه عصاه فى وجهى حتى كدتُ أسقط فى الماء . فقلت : يا هذا ، ما رأيت أكثر فضولا منك ، سَلِ الله أن يرزقك ولا تجعل بينك و بينه هذه الحوالات والوسائط التى لا يحتاج إليها فإن هذه المسائل فضول . فضحك الناس منه ورفع علىّ فى الخبر [قولى له هذا][3] . فضحك المهدىّ وقال : خلّوه ولا يُضرَب ولا يُحبَس . فقال له : أدخل عليك لَمَوْجدة وأخرج عن رضا وتَبْرأ ساحتى وأنصرف بلا جائزة ! قال :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « على » .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « مطوح » بالواو وهو تصحيف .
(٣) زيادة عن الأغانى (ج ١٢ ص ١٠١ طبع بولاق) .

لا يجوز هذا، اعطوه مائتى دينار، ولا يعلم أمير المؤمنين فتُجدّد عنده ذنوبُه؛ وقال له : آخرج عن بغـداد ودع صحبة جعفر حتى ينساك أمير المؤمنين، ثم عد إلىّ . فقال له : فأين أقصـد ؟ قال : أكتبُ الى سليمان بن علىّ فيولّيك عملا ويُحسِن اليك . قال : قد رضِيت . فوفد الى سليمان بكتاب المهدىّ فولّاه الصدقة بالبصرة، وكان عليها داود بن أبى هند فعزلَه به .

وأخباره فى هذا الباب كثيرة أغضينا عن كثير منها .

ذكر شىء من نوادر أبى الشِّبل

هو عاصم بن وهب بن البَرَاجِم . مولده الكوفة . نشأ وتأدّب بالبصرة . وفد الى سامرّاء[1] أيام المتوكل ومدحه . وكان طيّبا كثير الغزل والنوادر والمجون . فنفق عند المتوكل وخدمه وآختصّ به وآمتدحه بقوله :

أقبلى فالخير مُقبِـلْ * وآتركى قول المعَلِّلْ
وثقى بالنُّجح إن * أبصرتِ وجهَ المتوكِّلْ
ملكٌ يُنصف يا ظا * لمتى فينا ويعـدِلْ
فهو الغـاية والمـأ * مول يرجوه المؤمِّلْ

فأمر له بثلاثين ألف درهم . وله أخبار مستظرفة تتضمن شـعرا ونوادر تدلّ على ظرفه سنذكر منها طرفا . فمن ذلك ما حكى عنه : أنه مدح مالك بن طوق، وقدّر أن يعطيه ألف درهم . فبعث اليه بصرة مختومة فيها مائة دينار، فظن أنها دراهم فردها اليه وكتب معها :

فليت الذى جادت به كفُّ مالكٍ * ومالك مدسوسان فى آستِ أمِّ مالكِ

(١) سامرّاء : لغة فى سر من رأى، وهى مدينة كانت بين بغداد وتكريت .

وكان الى يوم القيامة فى آستها * فأيسرُ مفقـودٍ وأيســر هالكِ

وكان مالك يومئذ أميرا على الأهواز . فلما قرأ الرقعة أمر بإحضاره فأحضر وقال : ما هـذا ؟ ظلمتنا وآعتديت علينا . فقال : قدّرت عندك ألف درهم فوصلتنى بمائة درهم . فقال : آفتحها ؛ ففتحها فإذا فيها مائة دينار ؛ فقال : أقِلْنى أيها الأمير . فقال : قد أقلتك ولك كل ماتحب أبدا ما بقيت وقصدتنى .

قال : وكان له جار طبيب أحمق ، فمات فرثاه فقال :

قـد بكاه بولُ المريض بدمع * واكفٍ فوق مقلتيـه ذروفِ

ثم شـقّت جيوبَهن القوارير * رُ عليه ونُحْنَ نَوْحَ اللهيف

يا كساد الخيـار شـنبَر والأقـ * ـراص طرًّا ويا كساد السفوفِ

كنت تمشى مع القوىّ فإن جا * ءَ ضعيفٌ لم تكترث بالضعيفِ

لهف نفسى على صنوف رقاعا * تٍ تولّت منـه وعقل سخيفِ

وقال أبو الشبل : كان خالد بن يزيد بن هُبَيرة يشرب النبيذ ، وكان يغشانا ، وكانت له جارية صفراء مغنية يقال لها لَهَب ، كانت تغشانا معه ، وكنت أعبث بها كثيرا . فقام مولاها يوما الى الخابية (١) يستقى نبيذا ، فاذا قميصه قد آنشقّ ؛ فقلت فيه :

(٣٠) قالت له لَهَبٌ يوما وجاد لهـا * بالشِّعر فى باب فعلانٍ ومفعولِ

أمّا القميصُ فقد أزرى الزمانُ به (٢) * فليت شعرِىَ ما حالُ السراويلِ

قال أبو الشبل : وكانت أمّ خالد هذا ضرّاطة تضرط على صوت العيدان وغيرها فى الإيقاع . فقلت فيه :

فى الحىّ من لاعدِمت خلّته * فتى إذا ماقطعتُـه وصـلا

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٣ ص ٢٣ طبع بولاق) . وفى الأصول : « الجابية » وهو تحريف .

(٢) فى الأغانى : « أردى » .

له عجوزٌ بالحِبَقِ[1] أبصر من * أبصرتُه ضاربا ومرتجلا
نادمتُه مرّة وكنت فتى * مازلت أهوى وأشتهى الغزلا
حتى إذا ما أمالها سَكَرٌ[2] * يبعث فى قلبها لها مثلا
اتكأتْ يَسرة وقد خرفت[3] * أشراجها كى تقوم الرَّمَلا
فلم تزل إستها تطارحنى * اسمعْ إلى من يسومنى العِللا

وقال محمد بن المرزبان : كنت أرى أبا الشبل كثيرا عند أبى، وكان إذا حضر أضحك الثكلى بنوادره . فقال له أبى يوما : حدّثنا ببعض نوادرك وطرائفك . قال نعم . من طرائف أمورى أن ابنى زنى بجارية سِنديّة لبعض جيرانى ، فحبلت وولدت ، وكانت قيمة الجارية عشرين دينارا . فقال : يا أبت ، الصبىُّ واللهِ ابنى ، فساومتُ فيه نقيل لى : خمسون دينارا . فقلت له : ويلك ! كنت تخبرنى وهى حبلى فأشتريها بعشرين دينارا ونربح الفضل بين الثمنين ! وأمسكت عن المساومة بالصبى حتى اشتريته من القوم بما أرادوا . ثم أحبلها ثانيا فولدت ابنا آخر ، فجاء يسألنى أن أبتاعه ، فقلت : عليك لعنة الله ، أى شىء حملك على أن تُحبِل هذه ، هلا عزلت عنها ! فقال : إنى لا أستحلّ العزلَ . ثم أقبل على جماعة عندى فجعل يقول : شيخ كبير يأمرنى بالعزل ويستحلّه . فقلت له : يابن الزانية ! تستحلّ الزنا وتتحرّج من العزل ! فضحكا منه .

ذكر شىء من نوادر حمزة بن بَيْض الحنفىّ

كان شاعرا من شعراء الدولة الأمويّة ، وهو كوفىّ خليع ماجن . وكان منقطعاً إلى المهلّب بن أبى صُفْرةَ وولَدِه ، ثم إلى أبان بن الوليد وبلال بن أبى بُرْدة ،

(١) الحبق : الضراط . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « شعث » .
(٣) خرفت : أمالت وصرفت .

وآكتسب بالشعر من هؤلاء مالًا عظيما . يقال : إنه أخذ بالشعر من مال وشاء ورقيق وحُمْلان وغير ذلك ألفَ ألفِ درهم . وله نوادر ، منهـا ما حكاه أبو الفرج الأصفهانيّ عنه :

أنه كان يسامر عبد الملك بن بشر بن مروان ، وكان عبد الملك يَعبث به عبثا شديدا . فوجّه اليه ليلةً برسول وقال : خذه على أىّ حالة وجدته ، وأحلَفه وغلّظ عليه الأيمان على ذلك . فمضى الرسول فهجَم عليه فوجده يريد أن يدخل الخلاء ، فقال له : أجِب الأمير . فقال : ويحك ! إنى أكلت طعاماً كثيرا وشربت نبيذًا حُلْوًا وأخذنى بطنى . فقال : والله ما تفارقنى أوْ أمضىَ بك اليـه ولو سلحتَ فى ثيابك . فجهد فى الخلاص فلم يَقْدِر عليه . ومضى به ، فوجده قاعدًا فى طارمة[1] له وجاريةٌ جميلةٌ جالسة بين يديه ، وكان يتحظّاها ، تسجر[2] النّدّ . فجلس حمزة يحادثه وهو يعالج ماهو فيه . قال حمزة : فعَرَضتْ لى ريح فقلت : أُسَرِّحها وأستريح لعل ريحها لا يظهر مع هذا النّدّ ، فأطلقتها ، فغلبت والله ريحَ البخور وغَمَرته . فقال : ما هذا ياحمزة ؟ فقلت : علىّ عهد الله وميثاقه وعلىّ المشْىُ والهَدْىُ إن كنتُ فعلتُها ! وماهذا إلاعمل هذه الجارية الفاجرة . فغضب ، وتجلت الجارية فما قَدَرتْ على الكلام . ثم جاءتنى أُخرى فسرّحتها ، فسَطَع والله ريحُها . فقال : ما هذا ؟ ويلك ! أنت والله الآفة . فقلت : امرأتى طالق ثلاثًا إن كنتُ فعلتها . فقال : وهـذه اليمين لازمةٌ إن كنت فعلتها ، وما هو إلا عمل هذه الجارية ، وقال لها : ماقصّتك ؟ ويلك ! قُومى إلى الخلاء إن كنت تجدين شـيئا . فزاد تَجَلُّها ، وطمِعتُ فيهـا فسرّحت الثالثة فسطَع من ريحها مالم يكن فى الحساب . فغضب عبد الملك حتى كاد يخرج من جِلْدِه ، ثم قال : ياحمزة ، خذ بيد الزانيـة فقد وهبتُها لك وآمِض ، فقد نغّصت علىّ ليلتى . فأخذتُ بيدها

(١) الطارمة : بيت من خشب كالقبة .
(٢) تسجر : تحرق .

وخرجتُ . فلقِيني خادم له فقال : ما تريد أن تصنع ؟ فقلت له : أمضى بهذه الجارية . فقال : لاتفعل ، فوالله لئن فعلت لَيُبْغِضنّك بغضًا لاتنتفع به بعده أبدا ، وهذه مائتا دينار خذها ودع هذه الجارية فإنه يتحظّاها ، وسيندَم على هبتـه إيّاها لك . فأبيتُ إلا بخمسمائة دينار . فقال : ليس غير ماذكرت لك . فأخذتها وتركت الجارية . فلما كان بعد ثلاث دعانى عبد الملك . فلمـا قرُبت من داره لقيني الخادم وقال لى : هل لك فى مائة أخرى وتقول مالا يضرّك ولعله ينفعك ؟ قلت : وما ذاك(١) ؟ قال : إذا دخلت فادَّعِ القَسَوات الثلاث وانسبُها إلى نفسك وانضح(٢) عن الجارية ماقرَفتها به . فأخذتُها ودخلتُ على عبد الملك . فلما وقفتُ بين يديه قلت له : الأمان حتى أخبرك بخبر يسرّك ويُضحكك . قال : لك الأمان . فقلت : أرأيتَ ليلة كذا وكذا وما جرى ؟ قال نعم . قلت : فعلىّ وعلىّ إن كان فسا تلك القَسَوات غيرى . فضحِك حتى سقَط على قفاه وقال : ويلك ! فلم لم تخبرنى ؟ قال فقلت : أردت بذلك خصالاً ، منها أنى قمتُ فقضيت حاجتى وقد كان رسولك منعنى من ذلك . ومنها أنى أخذتُ جاريتـك . ومنهـا أنى كافأتك على أذاك لى بمثـله . قال : وأين الجارية ؟ قلت : ما بَرِحَتْ من دارك ولا خرجَتْ حتى سلّمتها الى فلان الخادم وأخذتُ مائتى دينار . فسُرَّ بذلك وأمر لى بمـائتى دينار أخرى ، وقال : هـذه لجميلِ فعلك فىّ وتَرْكِكَ أخذَ الجارية . قال حمزة : ودخلتُ اليه يوماً وكان له غلام لم ير الناس أنتنَ إبطًا منـه . فقال لى : يا حمزة ، سابِقْ غلامى هذا حتى يفوح صُنَانكما ، فأيّكما كان صُنانه أنتن فله مائة دينار . فطمِعتُ فى المـائة ويئستُ منها لمـا أعلمـه من نَتْن إبط الغـلام ؛ فقلت : أفعل . وتعادينا ساعةً فسبقنى ، فسلَحتُ فى يدى ثم طليت إبطى بالسِّلاح ؛ وقد كان عبد الملك جعل بيننا حكما ؛ فلمّا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وماذا» . (٢) انضح ، أى ادفع عنها .

دنا الغلام منه وشمّه وثب وقال : هذا والله لا يُشاكله شيء. فصحت به : لا تعجَل علىّ بالحكم ، مكانك! ثم دنوت منه فالقمت أنفه إبطى حتى علمت أنه قد خالط دماغَه وأنا ممسك رأسه تحت يدى ؛ فصاح : الموت والله ! هذا بالكُنُف أشبه منه بالإبط . فضحك عبد الملك ثم قال: أحكمت له؟ قال نعم . فأخذت الدنانير.

قال : ودخلت يومًا على سليمان بن عبد الملك . فلما مَثلت بين يديه قلت :

رأيتُك فى المنام شتَنتَ[1] خَزًّا * علىّ بَنَفْسَجًا وقضيتَ دَيْنى

فصدِّقْ يافدتك النفسُ رؤيا * رأتها فى المنام لديك عينى

قال سليمان : يا غلام ، أدخِلْه خِزانةَ الكُسْوة وآشتُن عليه كلَّ ثوب خزّ بنفسجىّ ، فخرجتُ كأنى مِشْجَبٌ[2] . ثم قال : كم دَينك؟ قلت : عشرة آلاف ؛ فأمر لى بها وما أعلم والله أنّى رأيت من ذلك شيئا .

ذكر شىء من نوادر أبى العيناء عفا الله عنه

(٣٢) هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان، من بنى حنيفة أهل اليمامة . وأُسِر ياسر فى سِباء فى خلافة المنصور. فلما صار فى يد المنصور أعتقه؛ فهم موالى بنى هاشم . وكان أبو العيناء ضرير البصر ، يقال : إنّ جدّه الأكبر لقى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فأساء مخاطبته فدعا عليه وعلى ولده بالعمى؛ فكلّ من عَمِى منهم فهو صحيح النسب . وهو ممن آشتهر بالمجون، وله نوادر وحكايات مستظرفة، ومراسلات عجيبة، سأورد منها طَرَفا، وأُسَطِّر طُرَفا . فمن ذلك : أنّ بعض الرؤساء قال له : يا أبا العيناء، لو مُتَّ لرقص الناس طَرَباً وسرورا . فقال بديهةً :

أردتَ مَذَمّتى فأجدتَ مَدْحى * بحمد الله ذلك لا بجُهْدِكْ

(١) شتنت : نسجت وحكت . (٢) المشجب : خشبات تنصب لتوضع عليها الثياب .

فلا تك واثقًا أبدًا بعَمْدٍ * فقد يأتى القضاءُ بغير عَمْدِكْ

ثم قال : أجل ! الناس قد ذهبوا، فلو رآنى الموتى لطربوا لدخول مثلى عليهم ، وحلول عقلى لديهم ، ووصول فضلى اليهم ؛ فما زال الموتى يغبطونكم ويرحمونى بكم .

وقال : واتصلت أشغال أبى الصَّقْر الوزير ، فتأخر توقيعه عن أبى العيناء برسومه . فكتب اليه : رقعتى ، أطال الله بقاء الوزير ، رقعة مَنْ عَلِم شُغْلَك فأطَّرح عَذْلَك ؛ وحقَّق أمرك فبَسَط عُذْرَك . أمّا والليل اذا عسعس ، فالبنان لبنات الدِّنان ، ومُلامسات الحِسان ؛ وأمّا والصبح اذا تنفّس ، فالبنان للعِنان ، ومؤامرات السلطان ؛ فَمَنْ أبو العيناء القرنان (١) ! . فوقّع أبو الصَّقْر تحت سطوره : لكل طعام مكان ، ولكل مُعْوِز إمكان ؛ وقد وقّعنا لك بالرسوم ، وجعلنا لك حظًّا من المقسوم ؛ وكَفَينا أنفسَنا عُذْرَك الذى هو تعزير ، ولسانك الذى هو تحذير . والسلام .

ثم لقيه أبو العيناء فى صدر موكبه فقال : طاعة شُيمَك لسلطان كَرَمُك ، ألزمتك الصبر على ذنوبى إليك ، وتجنّى خُلُق عليك . فقال أبو الصقر : كبير حَسناتك ، يستغرق يسير سيئاتك . فدعا له وانصرف شاكرا . قال : وبسط أبو العيناء لسانه على أهله فى بعض الدواوين . فقال له فتى من أبناء الكتّاب كانت فيه جرأة : كلّ الناس لك يا أبا العيناء زوجة ، وأنت زوجة أبى على البصير . فقال له أبو العيناء : قد ملكنا عِصْمتك بيقين فَحْواك ، ثم ننظر فى شكوك دعواك ، وقد طلّقت الناس كلهم سواك ؛ ذلك أدنى ألّا نعول ، وفيك ما يروى الفحول ، ويتجاوز السول . قال : ففضحه بهذا الكلام ، فلم يُجبه . قال : وكان فى بنى الجراح فتى خليع ماجن فأراد العبث بأبى العيناء ؛ فنهاه نصحاؤه فأبى ؛ فقالوا : شأنك . فقال له :

(١) القرنان : من لاغيرة له .

يا أبا العيناء، متى أسلمت؟ فقال : حين آمن أهلُك وأبوك الذين لم يؤدّبوك . فقال له الفتى : إذًا قـد علمتُ أنك ما أسلمت . فقـال أبو العيناء : شهادتُك لأهلك دعوى، وشهادتى عليهم بلوى، وسترى أىّ السلطانين أقوى، وأىّ الشيطانين أغوى؛ وسيعلم أهلُك، ما جنى عليهم جهلُك . قال : فأتاه أبوه فتبرّأ من ذِمّتـه، ودفعه اليه برُمّته . فقال له أبو العيناء : قد وهبتُ جورَه لعَدْلِك، وتصدّقتُ بجُمقه على عقلك .

ومن أخبار أبى العيناء أيضا : أنّ محمد بن عبيد الله بن خاقان حمله على برذون زعم أنه غير فاره، فكتب الى أبيه : أَعلِم الوزير أعزّه الله تعالى أنّ أبا علىّ محمدا أراد أن يبرّنى فعقّنى، وأن يُركِبنى فأرجلنى ! أمر لى بدابّة تقف للنبرة، وتعثُر بالبعرة، كالقضيب اليابس عَجَفا، وكالعاشق المجهود دَنَفا؛ يساعد أعلاه لأسـفله(١)، حُباقه(٢) مقرون بسُعَاله؛ فلو أمسك لترجّيت، أو أفرَد لتعزّيت؛ ولكنه يجمعهما فى الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيب مُرْشِد، أو شاعر مُنْشِد؛ تضحك من فعله النسوان، ويتناغى من فعـله الصبيان؛ فمن صائح يصيح : داوِه بالطباشير، ومن قائل يقول : نقِّ له من الشعير . قد حفظ الأشعار، وروى الأخبار، ولحق العلماء فى الأمصـار؛ فلو أُعين بنطق، لروى بحقّ وصـدق، عن جابر الجُعْفىّ، وعامر الشَّعْبىّ . وإنمـا أُتِيتُ من كاتبه الأعور، الذى اذا آختار لنفسه أطاب وأكثر، وإذا آختار لغيره أخبث وأنزر . فإن رأى الوزير أن يُبدلنى ويريحنى بمركوب يضحكنى كما يُضحَك منى، يمحو بحسنه وفراهته، ما سطّره العيب بقُبحه ودَمامته . ولست أردّ كرامَهْ، سرجَه ولجامَهْ؛ لأن الوزير أكرم من أن يسلب ما يُهديه، أو ينقض ما يمضيه . فوجّه اليـه عبيد الله برذوناً من براذينه بسَرْجه ولجامه. ثم آجتمع محمد

(١) كذا بالأصل . (٢) الحباق : الضراط .

ابن عبيد الله عند أبيه . فقال عبيد الله لأبى العيناء : شكوتَ دابّة محمد، وقد أخبرنى إنه ليشتريه منك الآن بمائة دينار، وما هذا ثمنه فلا يُشتَكَى . فقال : أعزّ الله الوزير لو لم أكذب مستزيدا، لم أنصرف مستفيدا . وإنى وإياه لكما قالت امرأة العزيز: (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ). فضحك عبيد الله وقال : حجّتك الداحضة ، بملاحتك وظَرْفك أبلغ من حجة غيرك البالغة . ودخل أبو العيناء على أبى الصَّقْر وكان قد تأخّر عنه، فقال: ما أخّرك عنا؟ قال: سُرِق حمارى. قال: وكيف سرق ؟ قال : لم أكن مع اللص فأخبرك . قال : فلم لم تأتِ على غيره؟ قال : أبعدنى عن الشراء قلّة يسارى، وكرِهت ذِلّة المُكارى، ومنّة العوارى. قال: وصار يوما الى باب صاعد بن مَخْلَد، فقيل له : هو مشغول يصلّى؛ فقال: لكلّ جديد لذّة. وكان صاعد نَصْرانيّا قبل الوزارة . وقال له صاعد يوما : ما الذى أخّرك عنّا ؟ قال : بنتى. قال : وكيف؟ قال : قالت لى : يا أبت، قد كنت تغدو من عندنا فتأتى بالخِلْعة السَّرِيّة، والجائزة السنيّة، ثم أنت الآن تغدو مُسْدِفاً، وترجع مُعْتِماً، فإلى من؟ قلت: إلى أبى العلاء ذى الدرايتين . قالت : أيُعطيك؟ قلت: لا . قالت : أفيشفّعك؟ قلت: لا . قالت : أيرفع مجلسك؟ قلت: لا . قالت : يا أبت لِم تَعبُدُ ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يغنى عنك شيئا ! .

وقال له رجل من بنى هاشم : بلغنى أنك بغّاء . قال : ولم أنكرت ذلك مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مولى القوم منهم"؟ قال : إنك دعىّ فينا . قال : بِغائى صحّح نسبى فيكم . وسأل أبو العيناء الجاحظَ كتابا الى محمد بن عبد الملك فى شفاعة لصاحبٍ له ؛ فكتب الكتاب وناوله الرجل ؛ فعاد به الى أبى العيناء وقال: قد أسعف . قال : فهل قرأته؟ قال: لا، لأنه مختوم . قال : ويحك! فُضَّه لا يكون صحيفةَ المتلمّس . ففضّه فاذا فيه : مُوَصِّل كتابى سألنى فيه أبو العيناء، وقد عرفتَ

سفهه وبذاء لسانه، وما أراه لمعروفك أهلا . فإن أحسنت اليه فلا تحسبه علىّ يدا، وإن لم تحسن اليه لم أعُدّه عليك ذنبا، والسـلام . فركب أبو العيناء الى الجاحظ وقال له : قد قرأتُ الكتاب يا أبا عثمان . فخجل الجاحظ وقال : يا أبا العيناء، هذه علامتى فيمن أعتنى به . قال : فإذا بلغك أنّ صاحبى قد شتمك فاعلم أنهـا علامته فيمن شكر معروفه . وقال أبو العيناء : مررت يوماً بدرب بسامَرّاء، فقال لى غلامى : يا مولاى، فى الدرب حَمَل سمين والدرب خال . فأمرته أن يأخذه وغطّيته بطيلَسانى وصرتُ به الى منزلى . فلما كان من الغد جاءتنى رُقعة من بعض رؤساء ذلك الدرب مكتوب فيها : جُعلت فداك، ضاع لنا بالأمس حَمَل، فأخبرنى صبيان دَرْبنا أنك أنت سَرَقته، فأُمُرْ بردّه متفضّلا . قال أبو العيناء : فكتبت اليه : أى سبحان الله ! ما أعجبَ هـذا الأمر ! مشايخ دَرْبنـا يزعمون أنك بَغّاء وأُكذّبهم ولا أُصـدّقهم، وتصدّق أنت صبيان دربكم أنى سرقت الحمـل ! . قال فسكت وما عاودنى . ولأبى العيناء أخبار كثيرة وحكايات مشهورة قد أوردنا منها ما يدخل فى هذا الباب وتركنا ما سواه .

ذكر ما ورد فى كراهة المزح

رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ مَزَح اسْتُخِفَّ به" . وقال حكيم : خير المزاح لا يُنـال ، وشرّه لا يُقـال؛ سكرات الموت به مُحدِقة ، وعيون الآجال اليـه محدِّقة . وقال آخر : تجنّب شؤم الهزل ونكد المزاح؛ فإنهـما بابان إذا فُتحا لم يُغْلَقا إلا بعـد عسر ، وخلان إذا لَقَحا لم ينتجا غيرَ ضُرّ . وقالوا : المُزاح يضع قدر الشريف، ويُذهب هيبـة الجليل . وقالوا : لا تقـل ما يسوءك عاجله، ويضرّك آجله . وقالوا : إيّاك وما يُستقبَح من الكلام، فإنه يُنَفّر عنـك

الكرام، ويُحَسِّر عليك اللئام . وقال عمر بن عبد العزيز : اتقوا المزاح ، فإنها حَمْقة تورث ضغينة . وقال حكيم لابنه : يا بنيّ، إياك والمزاح؛ فإنه يذهب بهاء الوجه ويحطّ من المروءة . قال شاعر :

(٣٤) اِكْرَهْ لنفسك ما لغيرك تكرَهُ * وافعل لنفسك فعلَ من يتنزَّهُ

وارفَع بصمتك عنك سُبَّاتِ الورى * خوفَ الجواب فإنه بك أشبَهُ

ودع الفكاهةَ بالمزاح فإنها * تُودى وتُسقط مَنْ بها يتفكّهُ

وقيل :

ألا ربّ قولٍ قد جرى من مِمازِح * فساق اليه الموتَ فى طَرَف الحبل

فإنّ مزاحَ المرء فى غير حينه * دليلٌ على فرط الحماقة والجهل

وقيل :

فإياك إيّاك المزاحَ فإنه * يُجَرِّى عليك الطفلَ والرجلَ النَّذْلا

ويُذهِبُ ماءَ الوجه بعد بهائه * ويورثُ بعد العزّ صاحبَه ذُلّا

وقال بعض البلغاء : المزاح خَرَف ، والاقتصاد فيه ظَرْف ، والإفراط فيه ندامة . وقالوا : من كثر مزحه لم يسلم من استخفافٍ به أو حقد عليه . ويقال : أكثر أسباب القطيعة المزاح . وإن كان لا غنى للنفس عنه للجَمام(١) ، فليكن بمقدار الملح فى الطعام . قال أبو الفتح البستىّ رحمه الله :

أفِدْ طبعَك المكدودَ بالهمّ راحةً * تراحُ وعلّله بشىءٍ من المزح

ولكن إذا أعطيته المزحَ فليكن * بمقدار ما يُعطَى الطعامُ من الملح

(١) الجمام (بالفتح) : الراحة .

وقيـــل :

امزَحْ بمقدار الطلاقة واجتنب * مزحًا تضاف به الى سوء الأدَبْ

لا تُغضبنَّ أخًا إذا مازحتَـــه * إن المزاح على مقـدمة الغضَبْ

وقيـــل :

مازح صديقك ما أحبَّ مزاحا * وتوقَّ منـه فى المـزاح جِماحا

فلربمـا مَزَح الصـديقُ بمزحةٍ * كانت لبـدء عداوةٍ مِفتـاحا

وقال سعيد بن العاص لولده : يابنيّ، اقتصد فى مزحك ؛ فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويُجَرِّئ السفهاء . ويقال : المزاح أوّله فَرَح، وآخره تَرَح . قال أبو العتاهية :

وترى الفتى يَلقَى أخاه وخِدْنَهُ * فى بعض مَنطِقِه بمـا لا يُغفَـر

ويقـول كنتُ ملاعبًا وممازحًا * هيهات! تارُك فى الحشا تتسعّرُ

ألقيتها وطَفِقتَ تضحك لاهيًا * وفـؤادُه ممـا به يتفطّـــرُ

أوماعلمتَ ومثلُ جهلك غالبٌ * أنّ المزاح هو السِّبابُ الأكبرُ

فهذه نبذة مما قيل فى الفكاهات والمجون، يفرح لها قلب المحزون، وتزول عنه الشجون . فلنذكر ما قيل مما يناسب هذا الباب من أشعار المزاحين .

ذكر شىء من الشعر المناسب لهذا الباب والداخل فيه

وسنورد فى هذا الفصل من أشعار هذا الفن، ما رَفَلت معانيه فى حُلَل أنفاسها على صفحات أطـراسها ، وأهلت مغانيـه بما أودعه لسانُ القلم صدرَ قرطاسها من بديع إيناسها . يُضحك سامعَه وإن كان ثَكِلا . ويستوفيه وإن كان عَجِلا . هذا مع ما فيه من خُشُن القول الذى إذا تأملتـه فى موضـعه كان أزين من عقود اللآلى ،

وإن لمحتـه فى غيره كان أقفر من ظُلَم الليالى . نسأل الله المسامحة لكاتبـه وقائله ، ومستمعه وناقله . فمن ذلك ما كتب به ابن حجاج لمن شرب دواء :

يا أبا أحمـد بنفسىَ أفـديـك وأهـلى من سائر الأسواءِ
كيف كان انحطاطُ جَعْسك(١) فى طا * عةِ شـرب الدواء يوم الدواءِ
كيف أمسى سِبالُ مَبْعَرك النَّدْ(٢) * ل غريقا فى المرّة الصـفراء

وقال الحسن بن هانئ :

لَلطمـةُ يلطِمـنى أمَرُّ * تأخذ منّى العين والفكّا
أطيبُ من تُفّاحةٍ من يَدَىْ * ذى لِحيـةٍ مُحْشوّةٍ مسكا

وقال أبو عبد الله محمد بن الحسن الحجاج :

قُومِى تنحّىْ فلستِ من شانى * قُومِى اذهبى لا يراكِ شيطانى
لا كان دهرٌ عليـك حصّنى * ولا زمانٌ اليـكِ ألجانى
قعـدتِ تفسين فوق طِنْفستى * مابين راحى وبين ريحانى
فما عَدِمنـا من الكنيف وقد * حَضَرتِ إلا بناتِ وَرْدَانِ(٣)

وقال أبو بكر محمد الخوارزمىّ :

فسـا الشيخ سهوًا وفى كفّهِ * شرابٌ فلُمْناه لومًا قبيحا
فقـال لِىَ الدخلُ والخرجُ لِى * فأدخلتُ راحا وأخرجتُ ريحا

وقال ابن سكّرة الهاشمىّ :

وبات فى السطح معى صاحبٌ * من أكرم الناس ذوى الفضل
أفسو فيفسو فهو لى مُسعِدٌ * وإنمـا أُمـلِى ويَسـتملى

(١) الجعس : الرجيع . (٢) الندل : الوسخ .
(٣) بنات وردان : دواب حمراء اللون وأكثر ما تكون فى الحمامات وفى الكنف .

البـاب الرابع

من القسم الثـالث من الفنّ الثـانى

فى الخمر وتحريمها وآفاتها وجناياتها وأسمائها، وأخبار من تنزّه عنها فى الجاهليّة، ومن حُدّ فيها من الأشراف، ومن اشتهر بها، ولبس ثوب الخلاعة بسببها، وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيـل فى وصف آلاتها وآنيتها، وما قيل فى مبادرة اللذّات، وما وُصفتْ به المجالس وما يجرى هذا المجرى

ذكر ما قيل فى الخمر وتحريمها

أجمع الناس على أنّ الخمر المحرَّمةَ فى كتاب الله عزّ وجلّ هى المتَّخَذة من عصير العنب بعد أن يَغلِى و يقذف بالزَّبَد من غير أن يمسّها نارٌ. واذا انقلبت بنفسها وتخلّلت طهُرت من غير أن يُتسبّب فى ذلك بشىء يُلقَى فيها. وطهارتها إذا غلبت عليها الحموضةُ وفارقتها النشوة. والخمر المتَّخَذة أيضا من التمر، لقول النبىّ صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه: «الخمر من هاتين الشجرتين النخلةِ والعنبةِ». وفى حديث آخرَ: «من هاتين الشجرتين الكَرْمةِ والنخلةِ». وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت عمر رضى الله عنه على منبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «أمّا بعد، أيها الناس، إنه نزل تحريمُ الخمـر وهى من خمسـةٍ، من التمر والعنب والعسل والحنطة والشعير». والخمر ماخامر العقـلَ. ولا خلاف بين أحدٍ من الأئمة فى أن الخمـر حرام، لمـا ورد فى ذلك من الكتاب والسنة. أما ماورد فى كتاب الله عزّ وجلّ فأربع آيات، منها مايقتضى الإباحة، ومنها مايقتضى الكراهة والتحريم. فأوّل مانزل فيها بمكة قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ

ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾. فكان المسلمون يشربونها (٣٨)
يومئذ وهى حلالٌ لهم . ثم أنزل الله عزّ وجلّ بالمدينة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ نزلت هذه الآية فى عمر بن الخطّاب ومعاذ بن جبل ونفرٍ من الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله، أفتِنا فى الخمر والميسر فإنهما مَذْهَبةٌ للعقل مَسْلبةٌ للمال ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن ربكم تقدّم فى تحريم الخمر» . فتركها قوم للإثم الكبير وقالوا: لاحاجة لنا فى شربها ولا فى شىء فيه إثم كبير، وشربها قومٌ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ . وكانوا يستمتعون بمنافعها ويتجنّبون مآثمها ؛ الى أن صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعا ناسا من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاة المغرب ، فقدّموا بعضهم ليصلّى بهم؛ فقرأ قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون الى آخر السورة بحذف "لا" فأنزل الله عزّ وجلّ. ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ فحرّم السكر فى أوقات الصلاة . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن الله عزّ وجلّ تقارب فى النهى عن شرب الخمر وما أراه إلا سيحرّمها . فلما نزلت هذه الآية تركها قومٌ ، وقالوا : لا خير فى شىء يحول بيننا وبين الصلاة . وقال قوم : نشربها ونجلس فى بيوتنا؛ فكانوا يتركونها وقت الصلاة ويشربونها فى غير حين الصلاة ؛ الى أن شربها رجلٌ من المسلمين، فجعل ينوح على قَتْلَى بدرٍ ويقول :

تُحيّا بالسلامة أمُّ بكرٍ * وهل لى بعد رهطك من سلامِ
ذَرينى أصطبحْ بِكرًا فإنى * رأيت الموت كَفّتَ عن هِشامِ
وودّ بنو المُغيرة لو فدَوْهُ * بألفٍ من رجالٍ أو سَوَامِ

فى أبيات أخر . فبلغ ذلك رسـول الله صلّى الله عليه وسـلّم ، فجاء فزِعا يجرّ رداءه حتى انتهى اليه ، ورفع شَنًّا كان فى يده ليضربه ؛ فلما عاينه الرجل قال : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، والله لا أطعَمها أبدا ؛ ثم نزلت آية التحريم وهى قوله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ . ورُوى أن هذه الآية نزلت فى شأن حمزة بن عبد المطّلب ، وكان نزولها وتحريم الخمر فى شهر ربيع الأوّل سـنة أربع من الهجرة .

وكان من خبر حمزة بن عبد المطّلب ماروَاه مسلم بن الحجاج بن مسلم فى صحيحه عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : أصبتُ شارفًا[1] مع رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم فى مَغْنَم يوم بدر ، وأعطانى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شارفًا أخرى من الخُمُس . قال علىّ : فلما أردت أن أبتنى بفاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واعدتُ رجلا صوّاغا من بنى قَيْنُقَاع[2] يرتحل معى فنأتى بإذْخِرٍ[3] أردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعين به على وليمة عُرْسى . فبينا أنا أجمع لشارفىّ متاعًا من الأقتاب والغرائر والحبال ، وشارفاى مُناختان الى جنب حُجرة رجل من الأنصار ورجعت حين جمعتُ ما جمعتُ ، فاذا شارفاى قد اجُتُبَّتْ أسنمتهما وبُقِرت خواصرهما وأُخِذ من أكبادهما ، فلم أملِك نفسى حين رأيت ذلك المنظر منهما [أن][4] قلت : مَنْ فعل هذا ؟ قالوا : فعله حمزة بن عبد المطلب وهو فى هـذا البيت فى شَرْبٍ من الأنصار ، غنّته قَيْنة وأصحابُه ، فقالت فى غنائها :

* ألَا ياحمزَ للشُّرُفِ النِّواءِ *

(١) الشارف : المسنة الهرمة من النوق .

(٢) بنو قينقاع (بفتح القاف وتثليث النون) : شعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة .

(٣) الإذخر : حشيشة طيبة الرائحة يسقف بها البيوت فوق الخشب . (٤) زيادة يقتضيها السياق .

— لم يذكر مسلم فى صحيحه من الشعر غير ماذكرناه . والأبيات التى غنّت بها :

ألا يا حمز للشُّرُفِ[1] النِّواءِ * وهنّ معقَّلاتٌ بالفِناءِ
ضع السكّين فى اللّبّات منها * فضرّجهنّ حمزةُ بالدماءِ
وعجّلْ من شرائحها كَباباً * ملهوجةً[2] على وهج الصّلاءِ
وأصلِحْ من أطايبها طبيخاً * لشَرْبِك من قَديدٍ أو شِواءِ
فأنت أبا عمارةَ المُرَجّى * لكشف الضرّ عنها والبلاءِ

(٣٩) — فقام حمزةُ بالسيف فاجتبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما . فقال علىّ : فانطلقت حتى أدخل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعنده زيد بن حارثة . قال : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهى الذى لقيت ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "مالك"؟ قلت : يارسول الله ، ما رأيت كاليوم قط ، عدا حمزة على ناقتىّ فاجتبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وها هو ذا فى بيت معه شَرْبٌ . فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بردائه فارتداه ثم انطلق يمشى واتّبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء الباب الذى فيه حمزةُ ، فاستأذن فأذنوا له ، فإذا هم شَرْبٌ ، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوم حمزةَ فيما فعل وإذا حمزةُ محمّرةٌ عيناه ، فنظر حمزةُ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صعّد النظر الى ركبتيه ثم صعّد النظر الى سرّته ثم صعّد النظر فنظر الى وجهه ، فقال حمزة : وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبى ! فعرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه ثَمِلٌ ، فنكص رسول الله صلى الله عليه وسلّم على عقبيه القَهْقرى وخرج وخرجنا معه . وفى حديث آخر : أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لعلىّ : "إنّ عمّك قد ثَمِلَ وهما لك علىّ" فغرمهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

(١) الشرف : جمع شارف وهى الناقة المسنة كما تقدم قريبا .
(٢) ملهوجة : غير ناضجة .

لعلىّ . فلما أصبح حمزة غدا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعتذر . فقال : "مَهْ يا عمّ فقد سألتُ الله فعفا عنك" . قالوا : واتخذ عتبان بن مالك صنيعًا ودعا رجالًا من المسلمين ، منهم سعد بن أبى وقّاص[1] ، وكان قد شوَى لهم رأس بعير فاكلوا منه وشربوا الخمر حتى أخذت منهم ، ثم إنهم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار ، وأنشد سعد قصيدةً فيها هجاء الأنصار وفخرٌ لقومه ؛ فقام رجلٌ من الأنصار فأخذ لَحْيَ البعير فضرب به رأس سعد فشجّه شجّةً مُوضِحةً . فانطلق سعدٌ الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشكا اليه الأنصار . فقال عمر رضى الله عنه : اللهم بيِّنْ لنا رأيك فى الخمر بيانا شافيًا ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ تحريم الخمر فى سورة المائدة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ ﴾ الآية الى ﴿ مُنتَهُونَ ﴾ . فقال عمر : انتهينا ياربِّ . وقيل : إنها حُرِّمت بعد غزوة الأحزاب بأيام فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة . والله أعلم .

قال أنس رضى الله عنه : حُرِّمتْ ولم يكن للعرب يومئذ عيشٌ أعجبُ منها ، وما حُرِّم عليهم شيء أشدُّ من الخمر . قال : فأخرجنا الحِبابَ الى الطريق فصبينا ما فيها ، فمنّا من كسر حُبَّه ، ومنّا من غسله بالماء والطين ، ولقد غودرت أزقّة المدينة بعد ذلك حينًا ، كلّما مُطِرت استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : كنتُ ساقى القوم يوم حُرِّمت الخمر فى بيت أبى طلحة ، وما شرابهم إلا فَضِيخ[2] البسر والتمر ، فاذا منادٍ ينادى ، فقال القوم : أُخرج فانظر ، فاذا منادٍ ينادى : ألا إنّ الخمر قد حُرِّمتْ ، قال : فجَرَت فى سكك المدينة . فقال لى أبو طلحة : أُخرجْ فأهْرِقها فهرقتُها . فقالوا أو قال بعضهم : قُتِل فلان ! قُتِل فلان ! وهى فى بطونهم ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ .

(١) فى الأصل : «فنهم» . (٢) الفضيخ : نبيذ يعمل من البسر والتمر .

* * *

وأما ماورد فى تحريمها فى كتاب الله وبيَّنته السُّنَّةُ، فالأحاديث متضافرة فى تحريمها . فمن ذلك ما رُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : « من مات وهو مدمنُ خمرٍ لقى الله وهو كعابدِ وثن » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايدخل الجنة مدمنُ خمرٍ » . وأمّا من زعم أنها تباح للتَّداوى بها فيردّ عليه ذلك ما صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طارق بن سويد الجُعْفىّ سأل النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عن الخمر فنهاه أو كرِه أن يصنعها، وقال: إنما أصنعها للدواء؛ فقال : «إنها ليست بدواء ولكنه داء» . وعنه صلّى الله عليه وسلّم وقد سأله رجل قدِم من جَيشان (وجَيشان من اليمن) فسأل النبىّ صلى الله عليه وسلم عن شراب يشربونه بأرضهم من الذّرة يقال له المِزْر؛ فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : « أَوَمُسْكِرٌ هو» قال نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلّ مسكر حرام إن على الله عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال » . فقالوا : يا رسول الله، وما طينة الخبال ؟ قال : « عَرَقُ أهل النار » . وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلّ مسكرٍ خمرٌ وكلّ مسكرٍ حرامٌ ومَنْ شربَ الخمرَ فى الدنيا فمات وهو يُدمنها لم يتب لم يشربها فى الآخرة » وفى لفظ : « حُرِمَها فى الآخرة فلم يُسقَها» وفى لفظ : «إلا أن يتوب» . وعن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما قال : حُرِّمتِ الخمر قليلها وكثيرها وما أسكر من كلّ شراب . وعنه رضى الله عنه : من سرّه أن يُحرِّم ماحرّم اللهُ ورسولُهُ فليحرّم النبيذ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : « لا يزنى الزّانى حين يَزْنى وهو مؤمن ولا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» أخرجه البخارىّ فى صحيحه والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ذكر ما قيل فى إباحة المطبوخ

والمطبوخ يسمّى الطّلاء وهو الذى طُبِخَ حتى ذهب ثُلُثاه وبقى ثلثه . سُمِّىَ بذلك لأنه شبيه بطِلاءِ الإبل فى ثُخْنِه[1] وسواده . وقد آختلف العلماء فى المطبوخ ، فقال بعضهم : كلّ عصيرٍ طُبِخَ حتى ذهب نصفه فهو حلالٌ إلا أنه يُكْرَه ، وإن طُبِخَ حتى ذهب ثلثاه وبقى ثلثه فهو حلالٌ مباحٌ شربُهُ وبيعُـهُ إلا أن السكر منه حرام . وحجتهم فى ذلك ماروى : أن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه كتب إلى بعض عماله : أن آرزق المسلمين من الطلاء ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه . وعن عبد الله بن يزيد الخطمىّ قال : كتب الينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أمّا بعد ، فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فى عود الكَرْم ، فإن له اثنين ولكم واحد . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : أنّ نوحا عليـه السلام لمّـا نازعه الشيطان فى عود الكرم فقال : هذا لى ، وقال : هذا لى ، فاصطلحا على أن لنوح ثلثها وللشيطان ثلثيها . وسئل سـعيد بن المسيّب : ما الشراب الذى أحلّه عمر رضى الله عنـه ؟ فقال : الذى يطبخ حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه . وحكى أن أبا موسى الأشعرىّ وأبا الدرداء كانا يشربان من الطلاء ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه . وعلى الجملة فمجموع هذه الأخبار فى مُثَلَّثٍ[2] لم يسكر البتة . ودليل ذلك ماحُكِى عن عبد الله بن عبد الملك ابن الطفيل الخزرجىّ قال : كتب الينا عمر بن عبد العزيز : ألّا تشربوا من الطّلاء حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه ، وكلّ مسـكرٍ حرامٌ . هذا الذى عليه أكثر العلماء . وقال قوم : اذا طُبِخَ العصيرُ أدنَى الطبخ صـار حلالا ، وهو قول إسماعيل بن عُلَيّة

(١) الثخن : الغلظ .

(٢) المثلث من الشراب : الذى طبخ حتى ذهب ثلثاه .

وبشر المِرِّيسيّ وجماعة من أهل العراق . وذهب بعضهم الى أن الطِّلاء الذى رُخِّص فيه إنما هو الرُّبّ[1] والدِّبْس . والله عزّ وجلّ أعلم .

ذكر آفات الخمر وجناياتها

وآفات الخمر وجناياتها كثيرة، لأنها أمّ الكبائر . وأوّل آفاتها أنها تُذهب العقلَ، وأفضل ما فى الإنسان عقلُه، وتحسّن القبيحَ وتقبّح الحسَنَ . قال أبو نُوَاس الحسن ابن هانئ عفا الله عنه ورحمه وغفر له ما أسلف :

اِسقنى حتى ترانى * حَسَنًا عندى القبيحُ

وقال أيضا :

اِسقنى صِرْفًا حُمَيّا * تترك الشيخَ صبيّا
وتريه الغَىّ رُشْدًا * وتُريه الرُّشد غَيّا

وقال أبو الطيّب :

رأيتُ المُدامةَ غلّابةً * تُهيِّج للمرء أشواقَهُ
تسىء من المرء تأديبَه * ولكن تُحَسِّن أخلاقَهُ
وأنفَسُ ما للفتى لبُّهُ * وذو اللبّ يكره إنفاقَهُ
وقد مُتُّ أمسِ بها ميتةً * وما يشتهى الموتَ مَنْ ذاقَهُ

قالوا : وإنما قيل لمُشارب الرجل نديمٌ، من الندامة ؛ لأن الرجل معاقر الكأس اذا سكر تكلّم بما يندَم عليه وفعل ما يندم عليه، فقيل لمن شاربه «نادَمه» لأنه فعل مثل فعله فهو نديم له، كما يقال : جالسه فهو جليس له . والمعاقر : المدمِن، كأنه لزِم عُقْرَ الشىء أى فِناءه . وقد شُهِر أصحابُ الشراب بسوء العهد وقلّة الحِفاظ،

(١) الرب : ما يطبخ من التمر، أو سلافة خثارة كل ثمرة بعد اعتصارها . والدبس : عسل التمر .

وقالوا : صاحب الشراب صديقك ما آستغنيتَ عنه حتى تفتقر، وما عُوفيت حتى تُنكَب، وما غَلَت دِنانُك حتى تُتْرَف، وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك. قال بعض الشعراء عفا الله تعالى عنه :

أرى كلّ قومٍ يحفَظون حريمهم * وليس لأصحابِ النّبيـذ حريمُ
اذا جئتَهم حيّوك ألفًا ورحّبوا * وإن غبتَ عنهم ساعةً فذميمُ
إخاؤهُمُ مادارت الكأسُ بينهم * وكلّهُمُ رَثُّ الوصال سئومُ
فهـذا بيـانى لم أقل بجهالةٍ * ولكننى بالفاسقين عليمُ

قيل : سقى قومٌ أعرابيّـةً مسكرا، فقالت : أيشرب نساؤكم هذا الشراب ؟ قالوا نعم . قالت : فما يدرى أحدُكم مَنْ أبوه . وقال قُصَىّ بن كلاب لبَنِيه : إجتنبوا الخمر فإنه يصلح الأبدان و يفسد الأذهان . وقيل لعدىّ بن حاتم : مالك لاتشرب النبيذ؟ قال : معاذ الله! أُصبحُ حليمَ قوم وأُمسى سفيههم . وقيل لأعرابىّ : مالك لا تشرب النبيذ؟ قال : لا أشرب ما يشرب عقلى . وقيل لعثمان بن عفّان : ما منعك من شرب الخمر فى الجاهليّة ولا حرج عليك؟ قال : إنى رأيتها تُذهِب العقل جملةً وما رأيت شيئا يَذهَب جملةً و يعود جملة . وقال عبد العزيز بن مروان لنُصَيب آبن رَباح : هل لك فيما يُثمر المحادثة ؟ يريد المنـادمة، فقال : أصلح الله الأمير ! الشَّعرُ مغلفلٌ واللون مُرْمَدٌّ ، ولم أقعد اليك بكرم عنصر ولا بحسن منظَر، و إنما هو عقلى ولسانى؛ فإن رأيت ألّا تفرّق بينهما فافعل . ودخل نُصَيبٌ هذا على عبد الملك آبن مروان فأنشده فآستحسن عبدُ الملك شِعْرَه فوصله؛ ثم دعا بالطعام فطَعِم معه. فقال له عبد الملك : هل لك [أن](١) تُنادِم عليه؟ قال : يا أمير المؤمنين، تأمّلنى. قال : قد أراك . قال : يا أمير المؤمنين، جلدى أسـود وخَلْق مشوّه و وجهى قبيح ولست

(١) زيادة يقتضيها السياق .

فى منصب ، وإنما بلغ بى مجالستَكَ ومؤاكلتَكَ عقلى ، وأنا أكره أن أُدخِل عليه ما يَنقُصُه . فأعجبه كلامه وأعفاه .

وقال الحسن : لو كان العقل عَرَضا لتغالى الناسُ فى ثمنه ؛ فالعجب لمن يشترى بماله شيئا ليشربه فيُذهب عقله ! .

وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج بن يوسف فى وَفْدة وفدها عليه وقد أكلا : هل لك فى الشراب؟ قال : ياأمير المؤمنين ، ليس بحرام ماأحللتَ ، ولكن أمنع أهل عملى ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح[1] وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ .

وقالوا : للنبيذ حدّان ، حدّ لا همَّ معه ، وحدّ لا عقلَ معه ؛ فعليك بالأوّل وآتق الثانى .

ومن آفات الخمر أفتضاح شاربها بريحها عند من يَحْتشم منه ويتّقيه ويخافه فلا يستطيع مع وجود ريحها إنكارَ شربها . والوُلاة تَحُدّ بالاستِنْكاه ، لأن خُمارها يثبت فى الفم اليوم واليومين بعد تركها . فمن شربها ساعةً وهو يحتشم من الناس أن يظهر ذلك عليه أحتاج الى الانقطاع فى بيته بعد زوال السكر وأوْبة العقل حتى تزول الرائحة . وقد تحايل الذين يشربون الخمر على قطع ريحها من الفم وعالجوا ذلك بأدوية صنعوها يستعملونها بعد شربها . فأجود ماصنعوه من هذه الأدوية أن يؤخذ من المرّ والبَسْباسة[2] والسَّعْد[3] والجَنَاح[4] والقَرَنْفُل أجزاءٌ متساوية وجزءان من الصمغ ، ويُدَقّ

(١) هو شعيب عليه السلام . (٢) البسباسة : قشر جوزة الهند .
(٣) السعد : نبات له أصل تحت الأرض أسود طيب الرائحة .
(٤) الجناح : نبات طيب الرائحة ، ويقال له : " الراسن " .

ذلك ويُحبل[1] بماء الورد ويستعمل منـه فإنه يقطع رائحة الخمر من الفم ، كما زعموا .

وقد نظم بعض الشعراء هذه المفردات فى أربعة أبيات فقال :

مُرٌّ وبسباسةٌ وسُـعدٌ * الى جَنَـاحٍ وماءِ وَردِ
ينظمها الصمغُ إن تلاه * قرنفُل الهند نظم عِقـدِ
أجزاؤها كلّها سـواءٌ * والصمغ جزآن ، لاتعدّى
فيـه لذى مِرّةٍ شفاءٌ * وصونُ عِرْضٍ وحفظُ ودِّ

ذكر أسماء الخمر من حين تُعصَر الى أن تُشرَبَ

الخمر اذا عُصِرَ فأسم مايسيل منه قبـل أن تطأه الرجل : السُّلَاف ؛ وأصله من السَّلَف وهو المتقدّم من كلّ شىء ، وهو فى مثل ذلك الخُرطوم أيضا . ويقال للذى يعصر بالأقدام : العصير ، والموضع الذى يُعصَر فيه : المَعصرة . والنَّطْل : ما عُصِرَ فيه السلافُ ؛ ويقال للعاصر : الناطِل ، ثم يُترَكُ العصيرُ حتى يغلى فاذا غلا فهو خمر ، وقيل : سمّيت خمرا لأنها تخامر العقول فتخالطها . وقالوا : لأنها تُخَمَّرُ فى الإناء ، أى تُغطَّى وهى مؤنثة . ويقال لها : القهوة ، لأنها تُقْهِى عن الطعام والشراب ، يقال : أقهَى عن الطعام وأقهم عنه اذا لم يشتهه . ومن أسمائها : الشَّـمول ، سمّيت بذلك لأن لها عَصْفة كعصفة الشَّمال ، وقيل : لأنها تشمَل القومَ بريحها . ومنها : السُّلَاف والسُّلافة والخرطوم وقد تقدّم معناها . ومنهـا : القَرْقَف لأن شاربها يُقَرقِف اذا شربها ، أى يَرْعد ، يقال : قَرْقَف وقَفْقَف . وقال أبو عمرو : القرقف آسم للخمر غير صفة وأنكر قولَهم سمّيت بها لأنها تُرْعِد . ومنها : الراح لأنها تكسب صاحبها الأريحيّة أى خفة العطاء . ومنها : العُقَار لأنها عاقرت الدَّنّ ، وقيل : لأنها تعقِر شاربَها

(١) يحبل : يرش .

من قول العرب : كلأ بنى فلان عقار، أى يعقر الماشية . ومن أسمائها : المُدامةُ والمدام لأنها داومت الظَّرف الذى انتُبذت فيه . والرحيق ومعناه الخالص من الغش . وقيل : الصافى . وقيل : العتيق . والكميت سمّيت بذلك للونها اذ كانت تضرب الى السواد . والجِرْيال وهو صِبغٌ أحمرُ سمّيت بذلك للونها أيضا . والسبيئةُ والسِّباء وهى المشتراة وأصلها مَسْبوءة، يقال : سبأتُ الخمر اذا اشتريتها . والمشعشعة وهى الممزوجة . والصهباء وهى التى عُصِرَتْ من العنب الأبيض . والشَّموسُ شبّهت بالدابّة التى تجمح براكبها . والخَندريس وهى القديمة . والحانيّة : منسوبة الى الحانة . والماذيّة : اللينّة يقال : عسل ماذىّ اذا كان ليّنا . والعانيّة : منسوبة الى عانة . والسُّخَامية : اللينّة من قولهم : قطن سُخَامٌ أى ليّن وثوبٌ سُخَامٌ . قال الراجز :

كأنه بالصَّحْصَحان(١) الأنجِلِ * قطنٌ سُخَامىّ بأيدى غُزَّلِ

والمَزَّةُ والمُزَّاءُ لطعمها . والإسفَنْطُ، قال الأصمعىّ : هو بالرومية . والغرب ومعناه الحدّة، وغَرْبُ كلّ شىء حدّه . ولعلها سمّيت بذلك لحدّتها . والحُمَيَّا، وحُمَيَّا كلّ شىء سَوْرته وحدّته . والمُضَطَارُ : الخلّة ويقال : المُضْطار بالضاد أيضا . والخَمْطَةُ : المتغيّرة الطعم . والمعتّقة : التى قد طال مكثها . والإثم : اسم لها لعله وقع عليها لما فى شربها من الإثم . والحمق كذلك . قال الشاعر :

شربتُ الإثم حتى ضلّ عقلى * كذاك الإثم يفعل بالعقولِ

والمُعَرَّق : الممزوج قليلا، يقال : عَرَقٌ من ماء أى ليس بكثير . ومن أسمائها : القِنّدِيدُ والفَيْهَجُ وأمّ زَنْبق والمَقَطَّب والطَّوْس والسَّاسَال والسَّلسَل والزَّرْجُون والكَنْفاء والجَرْباء والعانسة والطَّابَةُ والنَّاجُود والكأس والطِّلاء، قال عَبِيدُ بن الأبرص :

(١) الصحصحان : ماآستوى من الأرض . والأنجل : الواسع .

(٤٢) هى الخمر صرفا تكنّى الطلا * كالذئب يُسمَى أباجعدةِ (١)

والبَاذَق والبُخْتُج : فارسيّان . والجَهْوَرِىّ . والمَقَدِىّ منسوبة الى قرية من قُرَى الشام . والمزاء من قولك : هذا أَمْزَى من هذا أى أفضل . والنبيذ . والبِتْعُ : نبيذ العسل والسُّكْرُكَةُ من الذرة . والجِعَة من الشعير . والفَضِيخ من البسر . والمِزْر من الحبوب

ذكر أخبار من تنزّه عنها فى الجاهليّة وتركها ترفّعا عنها

كان ممن تركها فى الجاهلية عثمان بن عفان رضى الله عنه وعبد المطلب بن هاشم وعبدالله بن جُدعان التيمىّ وكان سيّدا جوادا من سادات قريش ، وسبب تركه لها أنه شرب مع أميّة بن أبى الصلت الثقفىّ فأصبحت عين أميّة مخضرّة فخاف عليها الذهاب ، فسأله عبد الله : مابال عينك ؟ فقال : أنت صاحبها أصبتها البارحة ، قال : وبلغ منّى الشراب ما أبلغ معه من جليسى هذا المبلغ ، فأعطاه عشرة آلاف درهم وقال : الخمر علىّ حرام ، لاأذوقها أبدا ، وقال فيها :

شربت الخمر حتى قال صحبى * ألستَ عن السُّقاة بمستفيقِ ؟
وحتى ما أُوسَّد فى مبيتٍ * أنام به سوى التُّرب السحيقِ

وممّن حرّمها فى الجاهليّة : قيس بن عاصم المنقرىّ ، والسبب فى ذلك أنه سكر فغمز عُكنة ابنته أو أخته فهربت منه ، فلما صحا أخبروه فحرّم الخمر على نفسه ، وقال فى ذلك :

وجدتُ الخمرَ جامحةً وفيها * خصالٌ تفضح الرجلَ الكريما
فلا واللهِ أشربُها حياتى * ولا أدعو لها أبدا نديما

(١) فى اللسان : وقالوا هى الخمر تكنى الطلا * كما الذئب ... الخ .

ولا أعطى لها ثمنا حياتى * ولا أشفى بها أبدا سقيما
فإنّ الخمرَ تفضح شاربيها * وتجشمهم بها أمرا عظيما
اذا دارت حميّاها تعلّت * طوالع تَسْفَه الرجلَ الحليما

ومنهم : عامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ، قال :

سآلةٌ للفتى ماليس فى يده * ذَهّابةٌ بعقول القوم والمالِ
أقسمتُ بالله أسقيها وأشربها * حتى يفرّق ترْبُ القبرِ أوصالى

ومنهم : صفوان بن أميّة بن مُحرِّث الكنانىّ وعُفَيف بن معديكرب الكندىّ والأسلوم بن نامى من همدان ومِقْيَس بن عدىّ السهمىّ وكان سكر بفعل يخط ببوله : أنَعَامةً أو بعيرًا، فلما أفاق وأخبر بذلك حرّمها .

ومنهم : العبّاس بن مرداس السلَمىّ قيل له : لم تركتَ الشراب وهو يزيد فى جرأتك وسماحتك؟ فقال : أكره أن أصبح سيّد قومى وأمسى سفيههم .

ومنهم : سعيد بن ربيعة بن عبد شمس وورقة بن نوفل والوليد بن المغيرة . وقال زيد بن ظبيان :

بئس الشراب شراب حين تشربه * يوهى العظام وطورا يوهى العصبِ[1]
إنى أخاف مليكى أن يعذّبنى * وفى العشيرة أن يُزرى على حسبى

وقال رجل لسعيد بن سلم : ألا تشرب النبيذ ؟ فقال : تركت كثيره لله تعالى وقليله للناس .

(١) كذا بالأصل ، ولعل صوابه "وطورا موهن العصب" .

ذكر من حُدَّ فيها من الأشراف ومن شربها منهم ومن اشتهر بها ولبس فيها ثوب الخلاعة ومن افتخر بشربها

فأما من حُدَّ فيها من الأشراف فالوليـدُ بن عُقبة بن أبي مُعَيط وهو أخو عثمان بن عفّان لأمه ، شهد عليه أهل الكوفة أنه صـلّى بهم الصبح ثلاثَ ركعاتٍ وهو سكران ثم التفت اليهم فقال : وإن شئتم زدتكم ، فجلده عبد الله بن جعفر بين يدى عثمان رضى الله عنه ، وسنذكر الواقعة إن شاء الله تعالى بجملتها فى الباب الثانى من القسم الخامس من الفن الخامس فى التاريخ فى خلافة عثمان رضى الله عنه .

ومنهم : عبيـد الله بن عمر بن الخطاب شرب بمصر فحدّه بها عمرو بن العاص سرًّا ، فلما قدم على أبيه جلده حدّا آخر علانية .

ومنهم : عبد الرحمن بن عمر بن الخطّاب المعروف بأبى شَحْمة[1] ، حدّه أبوه فى الشراب فمات تحت حدّه .

ومنهم : عاصم بن عمر بن الخطّاب ، حدّه بعض ولاة المدينة .

ومنهـم : قُدامة بن مظعون ، حدّه عمـر بن الخطّاب رضى الله عنه بشهادة علْقمة الخصىّ وغيره .

ومنهم : عبد الله بن عروة بن الزبير ، حدّه هشام بن إسماعيل المخزومىّ . (٤٣)

ومنهم : عبد العزيز بن مروان ، حدّه عمرو بن سعيد الأَشْدَق .

ومنهم : أبو مِحْجَن الثقفىّ واسمه عمـرو بن حبيب ، وكان مغرما بالشراب ، حدّه عمر مرارا فى الخمر ، وحدّه سعيد بن أبى وقّاص مرارا وشهد القادسـيّة وأبلى

(١) كذا فى كتاب المعارف لابن قتيبة والقاموس . وفى الأصول : « سحمة » بالسين المهملة وهو تحريف .

بلاء حسنا، ثم حلف بعد القادسيّة ألا يذوق الخمر أبدا ومات تائبا عنها، وأنشد رجل عند عبد الله بن مسلم بن قتيبة قوله :

اذا متُّ فادفنّى الى جنب كَرمةٍ * تُروّى عظامى بعد موتى عروقُها
ولا تدفنّى فى الفلاة فإننى * أخاف اذا مامتّ أن لّا أذوقها

فقال عبد الله : حدّثنى من رأى قبره بأرمينيَة بين شجرات كرم يخرج اليه الفتيان ويشربون عنده ويتناشدون شعره فاذا جاءت كأسه صبّوها على قبره .

ومنهم : إبراهيم بن هَرْمة وكان مغرما بالشراب، حدّه جماعة من عمال المدينة فلما طال ذلك عليه رحل الى أبى جعفر المنصور، وقيل : إنما رحل الى المهدىّ وامتدحه بقصيدته التى يقول فيها :

له لحظاتٌ فى حِفافَىْ سريره * اذا كرّها فيها عِقابٌ ونائلُ
له تربةٌ بيضاءُ من آل هاشم * اذا آسودّ من لؤم التراب القبائلُ

فاستحسن شعره وقال له : سل حاجتك، فقال : تأمر لى بكتاب الى عامل المدينة ألّا يحدّنى على شراب ، فقال له : ويلك ! لو سألتنى عزلَ عامل المدينة وتوليتك مكانه لفعلت، قال : يا أمير المؤمنين، ولو عزلته ووليتنى مكانه أما كنت تعزلنى أيضا وتولّى غيرى ! قال : بلى، قال : فكنت أرجع الى سيرتى الأولى فأُحَدّ، فقال المهدىّ لوزرائه : ماتقولون فى حاجة ابن هرمة وما عندكم فيها من التلطّف ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، إنه سأل مالا سبيل اليه، إسقاطُ حدّ من حدود الله عزّ وجلّ، فقال المهدى : له حيلة اذا أعيتكم الحيل فيه، اكتبوا الى عامل المدينة : مَنْ أتاك بابن هرمة سكرانا فاضربه مائة سوط واجلد ابن هرمة ثمانين، فكان إذا شرب ومشى فى أزقة المدينة يقول : مَنْ يشترى مائةً بثمانين ؟

* * *

وأما من شربها منهم وٱشتهر بها، جماعة من الأكابر والأعيان والخلفاء .

منهم : يزيد بن معاوية شُهر بشربها، وكان يقال له : يزيد الخمور، روى هشام ابن الكلبيّ عن أبيه قال : وجَّهَ معاوية جيشا الى أرض الروم فأصابهم الجُدَرِيّ ، وعند يزيد ٱمرأته أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر فسكر وأنشأ يقول :

إذا ٱرتَفَقْتُ على الأنماطِ فى غُرُفٍ * بدَيْرِ مُرَّانَ عندى أمُّ كلثوم
فما أبالى الذى لاقت جيوشُهُمُ * بالغَذْقَذُونَةِ(١) من حُمّى ومن مُومِ(٢)

فبلغ الخبر معاوية ، فقال : أنت هاهنا ! إلحقْ بهم ، وسيَّره الى قتال الروم .

ومنهم : عبد الملك بن مروان، وكان يسمَّى : حمامة المسجد ، لٱجتهاده فى العبادة، هـذا قبل أن يلى الخلافة، فلما أفضت الخلافةُ اليه شرب، فقال له سعيد بن المسيّب : بلغنى يا أمير المؤمنين ، أنك شربت الطلاء، قال : إى والله والدماء .

ومنهم : يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو صاحب حَبَابة(٣) وسَلَّامة، وأخباره مشهورة .

ومنهم : ٱبنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ذهب به الشراب كلّ مذهب حتى خُلع وقُتل ؛ وله فى ذلك حكايات وأشعار . منها : أنه سمع بُثَيْنَة بن الزَّنْدَبوذ الكوفىّ ، وكان من أهل البَطالة المشهورين باللعب واللهو و إدمان الشراب ؛ فاستدعاه

(١) الغذقذونة : ٱسم جامع للثغر الذى منه المصيصة وطرسوس وغيرهما .
(٢) المومِ : البرسام وأشد الجدرىّ .
(٣) حبابة وسلامة : قينتان مشهورتان كانتا له .

بالكوفة الى دمشق فحمل اليه فلما دخل عليه قال له : ياشرّاعة، ما أرسلت اليك لأسألك عن كتاب الله ولا سنّة نبيّه، قال : لو سألتنى عنهما لوجدتنى فيهما حمارا، قال : وإنما أرسلت اليك لأسألك عن القهوة، قال : أنا دهقانها الخبير، ولقمانها الحكيم ، وطبيبها الماهر ؛ قال : فأخبرنى عن الشراب قال : سل عمّا بدالك قال : ما تقول فى الماء قال : لا بدّ منه ، والحمار شريكى فيه . قال : فاللبن ؟ قال : مارأيته إلا آستحييت من طول ما أرضعتنى أمّى به ، قال : فالسَّوِيق ؟ قال : شراب الحزين والمستعجل والمريض . قال : فشراب التمر ؟ قال : سريع الآمتلاء، سريع الآنفشاش . قال : فنبيذ الزبيب؟ قال : حاموا به على الشراب، قال : فالخمر ؟ قال : تلك والله صديقة روحى ، قال : وأنت والله صديق روحى، قال: فأى المجالس أحسن ؟ قال : ماشرب فيه على وجه السماء؛ ومن شعر الوليد:

(٤٤) خذوا ملككم لاثبّت اللهُ ملككم * ثباتا يساوى ماحييت عقالا
دعوا لِىَ سلمَى والنبيذَ وقينةً * وكأسا ، ألا حسبى بذلك مالا
أبآلملك أرجو أن أخلّد فيكُمُ * ألا ربَّ مُلك قد أزيل فزالا

ومنهم : المأمون بن الرشيد وشُهِر بالشراب وله فيه أخبار، منها : أنه شرب هو ويحيى بن أكثم القاضى وعبد الله بن طاهر ، فتعامل(١) المأمون وآبن طاهر على سكر يحيى، فأشار الى الساقى فأسكره، وكان بين أيديهم رِزَم من الورد والرياحين ، فأمر المأمونُ فشُقّ ليحيى لحدٌ من الورد والرياحين وصيّروه فيه ، وعمل بيتى شعر ودعا قينة فجلست عند رأس يحيى وغنّت بالشعر :

دعوته وهو حىٌّ لاحياةَ به * مكفّنا فى ثياب من رياحينِ
فقلت قم قال رجلى لا تطاوعنى * فقلت خذ قال كفّى لا تواتينى

(١) كذا بالأصول، ولعلها « فتحامل » .

فانتبه يحيى لرنّة العود وصوت الجارية فقال :

ياسـيّدى وأميرَ النـاس كلّهـم * قد جار فى حكمه من كان يسقينى
إنى غفلتُ عن الساقى فصيّرنى * كما ترانى سليبَ العقلِ والدِّينِ
فانظر لنفسـك قاضٍ إننى رجل * أَلراحُ يقتـلنى والرَّوح يُحيينى

ومنهم : العباس بن علىّ بن عبدالله بن العباس وهو عمّ المنصور، كان يأخذ الكأس بيـده ويقول : أما العقل فتُتلفين، وأما المروءة فتمحقين، وأما الدِّين فتُفسدين، ويسكت ساعة ثم يقول : وأما النَّفْس فتُسَخِّين ، وأما القلب فتُشَجِّعين، وأما الهمّ فتطردين، أفتراك منى تُفلتين ! ثم يشربها .

ومنهم : بلال بن أبى بُردة فُضح بالشراب وفيه يقول يحيى بن نوفل الحميرىّ :

وأما بلالٌ فـذاك الذى * يميـل الشرابُ به حيثُ مالا
يبيت يمصُّ عتيـقَ الشراب * كمصّ الوليـد يخاف الفِصالا
ويصـبح مضـطربا ناعسا * تخال من السُّكْر فيـه آحولالا
ويمشى ضعيفا كمشى النزيف (١) * تخالُ به حين يمشى شِكالا

ومنهم : عبد الرحمن بن عبد الله الثقفىّ قاضى الكوفة وفُضِح بمنادمة سعد بن هَبّار وفيه يقول حارثة بن بدر :

نهـارُه فى قضـايا غيرِ عادلةٍ * وليلُهُ فى هَوَى سـعد بن هَبّارِ

ومنهم : آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو الذى يقول :

هاك فاشرب يا خليـلى * فى مَدَى الليل الطويلِ
قهوةً فى ظـلّ كرمٍ * سُبِيتْ من نهر نيـلِ

(١) النزيف : الذى سال دمه بافراط حتى ضعف .

فى لسانِ المرء منها * مثــلُ لَذْعِ الزنجبيل
إنمـا أذهبَ مالى * طولُ إدمانِ الشَّمولِ[1]
وحنينُ العُــودِ شنيـ * ـه يدا ظبى كحيــلِ
فالطويلُ العُنقِ الأ * هيفُ كالسيفِ الصقيل
يا خليــلىَّ اسقيــانى * واهتفا بالشمس زُولى
قل لمن لامك فيهـا * من نصيح أو عذول
يَبْقَ بين البـاب والدا * ر على نَعْبِ الطلولِ

وقيل لأبيه عبد العزيز بن عمر: إن بنيك يشربون الخمر، فقال: صفوهم لى، فقالوا: أما فلان إذا شرب خرق ثيابه وثياب نديمه، فقال: سوف يدَع هذا شربها، قالوا: وأما فلان فاذا شربها تقيأ فى ثيابه، قال: وهذا سوف يدعها، قالوا: وأما آدم فإذا شربها فأسكن ما يكون لاينال أحدًا بسوء، قال: هذا لا يدعها أبدا.

ومنهم: حارثة بن زيد العَدْوانىّ — رجل من تميم — دخل يوما على زياد ابن أبيه و بوجهه أثر، فقال له زياد: ما هذا الأثر بوجهك؟ فقال: أصلح الله الأمير ركبت فرسى الأشقر[2] فجمح بى حتى صدمنى الحائط، فقال: أما إنك لو ركبت فرسك الأشهب[2] لم يصبك مكروه. ولحارثة فيها أشعار كثيرة وأخبار مع الأحنف ابن قيس، وكان الأحنف ينهاه عنها وهو لا ينتهى ويجيبه بشعر فى مدحها وقيل: إن حارثة هذا أدرك النبىّ صلى الله عليه وسلّم بالسنّ فى حال صباه وحداثته.

ومنهم: والبة بن الحُبَاب الأسدىّ وهو الذى ربّى أبا نُوَاس وأدّبه وعلّمه الفَرْوة وقول الشعر. حكى أن المنصور قال له يوما: ادخل إلى محمد — يعنى المهدىّ — وحدِّثْه، فدخل عليه، فأول ما أنشده قوله:

(١) الشمول: من أسماء الخمر. (٢) يريد الأول بالأشقر: الخمر، ويريد الثانى بالأشهب: الماء.

قولا لعمرو لا تكن ناسيا * وسقّنى لا تحبسنْ كاسيا
وٱردد على الهيثم مثل الذى * هجتَ به ويحك وَسْواسيا
وقل لساقينا عـلى خلوة * أَدِنْ كذا رأسَك من راسيا

(٤٥) فبلغ ذلك المنصور ، فقال : لا تعيدوه إليه أردنا أن نصلحه فأراد هو أن يفسده .

ومنهم : أبو الهندىّ وهو عبد المؤمن بن عبد القدّوس بن شبث بن رِبعىّ اليربوعىّ ، حجّ به نصر بن سيّار فلما ورد الحرم قال له نصر : إنك بفِناء بيت الله الحرام ومحل حرمه فدع الشراب ، فلما زال عنه وضعه بين يديه وجعل يشرب ويبكى ويقول :

رضيعُ مدامٍ فارق الراحُ رُوعَه * فظلّ عليها مستهلَّ المدامِع
أديرا علىّ الكأسَ إنى فقدتها * كما فَقَد المفطومُ دَرَّ المراضع

ومرّ به نصر بن سيّار وهو يميل سكرا ، فقال له : أفسدت شرفك ، فقال : لو لم أُفسد شرفى لم تكن أنت اليوم والى خراسان .

ومنهم : سعيد بن وهب وكان شاعرا بصريّا .

ومنهم : الحسين بن الضحّاك النديم صاحب الحسن بن هانئ وكان خليعا ماجنا مليح الشعر وهو الذى يقول :

ألا إنما الدُّنيا وصالُ حبيبِ * وأخذُك من مشمولةٍ بنصيبِ
وعيشُك بين المُسمعاتِ ممتّعا * بفنّين من عزف وشدومصيبِ
وأنسٌ وإنسان تلذّ بقربه * وبذلةُ معشوقٍ ونومُ رقيبِ
وعدّىَ ساعاتِ النهارِ ورِقْبتى * إلى الشمس لما آذنت بمغيبِ

ومنهم : يحيى بن زياد وهو الذى يقول :

أعاذل ليت البحرَ خمرٌ وليتنى * مدى الدهر حوتٌ ساكن لُجّةَ البحرِ

فأضحى وأمسى لا أفارق لجّــة * أروّى بها عظمى وأشفى بها صدرى

طوال الليالى، ليس عنّى بناضبٍ * ولا ناقصٍ حتى أصيرَ الى الحشرِ

ومنهم : أبو نُوَاس الحسن بن هانئ ممن اشتهر بالشراب واللهو والطرب ومنادمة القيان، وله فى الخمر تشبيهات حسنة وحكايات ظريفة، نذكر هاهنا من أخباره طرفا :

حكى أن مسلم بن الوليد عاتبه وقال : يا أبا نواس، قد خلعت عذارك وأطلت الإكباب على المجون حتى غلب على لبّك وما كذلك يفعل الأدباء ! فأطرق ثم قال :

فأقولُ شربك طرحُ الرداء * وآخرُ شربك طرحُ الإزارِ

وما هنّأتك الملاهى بمثل * إماتةِ مجدٍ وإحياءِ عارِ

وما جاد دهرٌ بلذّاته * على من يَضَنُّ بخلع العذارِ

فآنصرف مسلم وقد أيس من فلاحه وهو يقول : جوابٌ حاضر، من كهلٍ فاجر. ومما يحفظ من أخباره، ويروى من أشعاره فى ذلك : أنه بلغ إخوانه عنه أنه ترك الشراب واللذّات وأخذ فى الزهد والصلاة فى أوقاتها فآجتمعوا إليه وأقبلوا يهنّئونه، فوضع بين يديه باطِيَةً وجعل لا يدخل اليه أحد يهنئه إلا شرب بين يديه رطلا وأنشد :

فالوا نزعتَ ولمّا يعلموا وطرى * فى كلّ أغيدَ ساجى الطرف ميّاسِ

كيف النزوع وقلبى قد تقسّمه * لحظُ العيون وقرع السنّ بالكاسِ

لاخير فى العيش إلا فى المجون مع الـ * ـأكفاء والراح والريحان والآسِ

ومسمع يتغنّى والكئوس لها * حَثٌّ علينا بأنماسٍ وأســداسِ
يا مُورِىَ الزند قد أكبت قوادحُه * اِقبِس اذا شئت من قلبى بمقباسِ
ما أقبح الناسَ فى عينى وأسمجَهم * إذا نظرتُ فلم أُبصِرْك فى النـاس

(٤٦) وحدّث الفضـل بن سلمة عن الثورىّ، قال : خرج الحسن بن هانئ ومعه مُطَيط صاحبـه ، حتى أتيا دار خمّار . فقال الحسن لمطيط : ادخل بنا نمزح بهذا الخمّار . فدخلا فسلّما فردّ عليهما . فقال له الحسن : أعندك خمرٌ عتيقةٌ يا خمّار؟ فقال : عندى منها أجناس، فأيها تريد؟ قال : التى يقول فيها الشاعر :

حُجِبَتْ خِيفةً وصِينتْ بحاءت * بجَلاءِ العروس بعـــد الصّيانِ
وكأنّ الأكفَّ تُصْبَغُ من ضو * ءِ سناها بالوَرْسِ والزعفـــرانِ

فملأ له الخمّـار قَدَحا من خمر صفراء ، كأنها ذهبٌ محلولٌ، فشربه الحسن وقال : أحسن من هذا أريد . فقال له الخمـار : أىّ جنسٍ تريد؟ قال : التى يقول فيها الشـاعر :

دفعتْها أيدى الهواجر حتّى * صَيَّرتْ جسمَها بجسم الهواءِ
فهى كالنُّور فى الإناء وكالنّا * ر إذا ما تَصيرُ فى الأحشاءِ

فملا له الخمار قدحا من خمر كأنها العقيق . فشربه وقال : أرفع من هذا أريد. فقال : أىّ جنس؟ قال : التى يقول فيها الشاعر :

وإذا حَسَا منها الوضيعُ ثلاثةً * سَمُحَ الوضيعُ كفعلِ ذى القَدرِ
فى لونِ ماء الغيث إلا أنها * بين الضلوع كواقد الجمـر

فملأ له قَدَحاً من خمر بيضاء ، كأنها ماء المزن . فشرب الحسن وقال للخمار : أتعرفنى؟ قال : إى والله يا سيدى، أنا أعرَف الناس بك . قال : من أنا؟ قال:

أنت الذى يسكر من غير وزن . فضحك الحسن وقال لمطيط : ادفع إليه ما بقى عندك من النفقة، فأعطاه مائة درهم وآنصرف .

وقال الحسين بن الضحّاك : كنت مع أبى نُوَاس بمكة عامَ حجَّ، فسمع صبياً يقرأ (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) . فقال أبو نُوَاس : فى مثل هذا يجىء للخمر صفة حسنة، ففكّر ساعةً ثم أنشدنى :

وسيّارةٍ ضلّت عن القصد بعد ما * ترادفهم أفقٌ من الليل مظلمُ
فأصغوا الى صوتٍ ونحن عصابةٌ * وفينا فتًى من سكره يترنّمُ
فلاحت لهم منّا على النأى قهوة * كأن سناها ضوءُ نار تضرّمُ
إذا ما حسوناها أقاموا مكانهم * وإن مُزجتْ حثّوا الركاب ويمّموا

قال : فحُدّث بهذا الحديث محمدُ بن الحسين فقال : لا ولا كرامة ، ما سرقه من القرآن ولكن من قول الشاعر :

وليلٍ بهيمٍ كلّما قلت غوّرتْ * كواكبُهُ عادت لنا تتذيّلُ
به الركبُ إمّا أومضَ البرقُ يمّموا * وإن لم يَلُحْ فالقوم بالسير جُهّلُ

وقال أبو نُوَاس فيها :

ألَا دارِها بالماء حتى تُلينَها * فما تُكرَمُ الصهباءُ حتى تُهينَها
أُغالِى بها حتى اذا ما مَلِلْتُها * أهنتُ لإكرام النديم مصونَها

وقال أيضا :

نَبّهتُهُ والليلُ ملتبسٌ به * وأزحتُ عنه حُثَائَهُ(١) فانزاحا
قال أبغنى المصباحَ، قلتُ له آئتدْ * حسبى وحسبك ضوءُها مِصباحا

(١) الحثاث : النوم .

فسكبت منهـا فى الزجاجة شَربةً * كانت له حتى الصباح صباحا
من قهوةٍ جاءتك قبـــل مِزاجها * عطـــلا فألبسها المِـــزاجُ وشاحا
شـــكَّ البِزالُ(١) فـــؤادَها فكأنهـا * أبدت اليـــك بريحهـا تُفـاحا

وقال أيضا :

رُدَا عَلَىَّ الكأسَ ، إنكما * لا تدريان الكأسَ ما تُجدى
خوّفتمانى اللهَ جَهـــدَكما * وتخيفَتِيه رجاؤه عنـــدى
لا تعـــذُلَا فى الراح إنكما * فى غفلةٍ عن كنه ما تُسدى
لو نلتما ما نلتُ ما مُزِجتْ * إلا بدمعكما من الوجدِ
ما مثـل نُعماها اذا اشتملت * إلا اشتمالُ فـــمٍ على خـــدِّ
إن كنتما لا تشربان معى * خوف الإله شربتُها وحدى

وأخبار الحسن بن هانئ فيها كثيرة، وفيما أوردناه منها كفاية .

ومنهم : الزَّرْوانىّ، كان شاعرا مطبوعا بليغا، من أهل الخلاعة المشهورين . وكان آخر أمره أن أصيب فى حانة خمّار بين زِقَّىْ خمرٍ وهو ميّتٌ . وهو القائل فيها :

(٤٧) كَرَّ الشرابُ على نشوانَ مضطجع * قد هب يشربهـا والدِّيكُ لم يَصِح
والليـــلُ فى عسكرٍ حُمـــرٍ بوارقُهُ * من النجوم، وضوء الصبح لم يضِح
والعيش لا عيشَ إلا أن تُبا كرها * نشوانَ تقتُـــلُ همَّ النفسِ بالفرح
حتى يظَلَّ الذى قد بات يشربُها * ولا مراحَ به يختـال كالمَـــرِح

(١) البزال : الحديدة يفتح بها مبزل الدن .

ومنهم : مُطِيع بن إياس . وكان شاعرا أديبا ظريفا مشتهرا بالخلاعة واللعب . وكان أصحابه على ذلك ، وهم يحيى بن زياد ، ووالبة بن الحُباب ، وحمّاد عجـرد .

ومنهم : أبو عبد الرحمن العطَوِيّ . كان شاعرا فصيحا ، لا يكاد يتقدّمه أحد لجزالة ألفاظه وحلاوة معانيه . وكان مولعا بالخمر مشتهرًا بها مُدمنًا عليها ، أكثرُ أشعاره فيها . فمن شعره :

أخطبْ لكأسك نَدْمانا تُسَرُّ به * أولَا فنادِمْ عليها حِكمةَ الكتبِ
أخطبهُ حرًّا كريما ذا مُحافظةٍ * ترى مودّتَهُ من أقربِ النسب

وقال أيضا :

وكم قالوا تَمَنَّ ، فقلتُ كأسًا * يطوف بها قضيبٌ فى كثيبِ
ونَدْمانًا يُساقطنى حديثًا * كصدقِ الوعد أو غضِّ الرقيبِ

ومنهم : أبو هفّان . وكان شاعرا محسنا ، وخليعا ماجنا . حكى أنه شرب مع أحمد بن أبى طاهر حتى فنى ما عندهما ، وكانا بجوار العلاء بن أيّوب . فقال ابن أبى طاهر لأبى هفّان : تماوتْ حتى نحتال على أبى العلاء فى أن ينيلنا شيئا . فمضى اليه ابن أبى طاهر فقال : أصلحك الله ! نزلنا جوارك فوجب حقّنا عليك ، وقد مات أبو هفّان وليس له كَفَن . فقال لوكيله : امض معه وشاهد أمره وادفع اليه كَفَنًا . فأتاه فوجده مُلقًى عليه ثوبٌ فنقر أنفه فضرط . فقال : ما هذا ؟ فقال : أصلحك الله عَجّلْتَ له صعقةَ القبر فإنه مات وعليه دين ؛ فضحك وأمر له بدنانير .

ومنهم : الأقيشر . وكان مغرما بالشراب مُدمنا عليه . وهو القائل :

ومُقْعَدِ قومٍ قد مشى من شرابنا * وأعمى سقيناه ثلاثا فأبصرا

كميتٌ كأن العنـــبر الورد ريحُـه * ومسحوق هندىّ من المسك أذفرا

ومنهم : النعمان بن علىّ بن نَضْلة . وكان عاملا لعمر بن الخطّاب رضى الله عنه على مَيْسان، وكان مدمنَ الشراب . وهو القائل :

ألا أبلغ الحســـناء أنّ خليلها * بمَيْسان يُسْقَى فى زُجاج وحَنـــتِم (١)

فإن كنتَ نَدمانى فبالأكبر اسقِنى * ولا تســـقِنى بالأصـغر المتثـــلِّم

لعـــلَّ أميرَ المؤمنين يســـوءه * تَنادُمُنا بالجَوْسَـــقِ (٢) المتهـــدِّم

فبلغ الشعر عمر رضى الله عنه .

فكتب اليه : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، حٰمٓ تَنْزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أما بعد، فقد بلغنى قولك :

لعلَّ أميرَ المؤمنين يســوءه * تنادُمُنـا بالجَوْسَـقِ المتهدِّم

وأيم الله لقد ساءنى ! وعزله . فلمّا قدِم عليه سأله ، فقال : والله ما كان من هذا شىء ، وما كان إلا فضل شعر وجدته وما شربتها قط . فقال عمر : أظنّ ذلك، ولكن لا تعمل لى عملا أبدا . فنزل البصرة، ولم يزل يغزو مع المسلمين حتى مات رحمه الله .

ومنهم : عمـارة بن الوليـد بن المغيرة . خطب امرأة من قومه ، فقالت : لا أتزوجك حتى تدع الخمر والزنا . فقال : أمّا الزنا فإنى أدعه ، وأما الخمر فوجدى بها شديد . ثم اشتدّ وجده بالمرأة فعـاود طلبها ، فقالت : حتى يحلف بطلاق يوم

(٤٨)

(١) الحنتم : الجرّة الخضراء .

(٢) الجوسق : القصر .

يزنى أو يشرب خمرا؛ فخلف لها وتزوجها . ومكث حينا لايشرب، الى أن مرّ بخمّار وعنده قوم يشربون وقَيْنة تغنّيهم وهو على ناقةٍ؛ فطرب اليهم وٱرتاح ورمى بثيابه الى الخمّار، وقال : أسقهم بها؛ ونحر لهم ناقته، ومكث أياما يطعمهم ويسقيهم حتى أنفد مامعه . ثم رجع الى ٱمرأته، فلامته، فأنشأ يقول :

أقلِّى علىَّ اللـومَ يا أمَّ سالم * وكُفِّى فإن العيش ليس بدائمِ
أسرَّكِ لمّا صرَّعَ القومَ نشوةٌ * خروجى منهم سالمًا غير غارِمِ
سليما كأنى لم أكن كنتُ منهُمُ * وليس الخداعُ من تصافى التنادُمِ

ثم قال لها : الحقى بأهلك، وعاد الى ما كان عليه .

* * *

وأما من ٱفتخر بشربها وسِبائها[1]، فقد كانت العرب تفتخر بسبائها، وتضيفه إلى عظيم غنائها، وتقرنه بمذكور بلائها. وشاهد ذلك قول ٱمرئ القيس :

كأنّى لم أركبْ جوادًا للـذّةٍ * ولم أتبطّن كاعبا ذاتَ خَلخالِ
ولم أسبأ الزِّقَّ الروىَّ ولم أقل * لخيلِىَ كُرِّى كَرَّةً بعـدَ إجفالِ

فقرن جودَه فى سِباء الزقّ ببسالتـه فى كرّ الخيل . ولمّا أنشـد أبو الطيب المتنبى سيف الدولة بن حمدان قصيدته التى يقول فيها :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ * كأنك فى جفن الردى وهو نائمُ
تمـرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمـةً * ووجهُـك وضّاحٌ وثغـرُك باسمُ

فقال له سيف الدولة : ٱنتقدنا عليك يا أبا الطيِّب هذين البيتين كما ٱنتُقِد على ٱمرئ القيس بيتاه، وذكرهما، قال : وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما لا يلتئم شطرا هذين البيتين : كان ينبغى لأمرئ القيس أن يقول :

(١) السباء : شراء الخمر .

كأنىَ لم أركب جوادا ولم أقل * لخيـــلىَ كرّى كرّة بعد إجفالِ
ولم أســـبأ الزقّ الروىّ للذّةٍ * ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

وأن تقول أنت :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ * ووجهـك وضّاحٌ وثغـــرك باسمُ
تمـرّ بك الأبطال كَلْمَى هزيمـــةً * كأنك فى جفن الردى وهو نائمُ

فقال : أيّد الله مولانا ! إن كان صحّ أنّ الذى آستدرك على آمرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ آمرؤ القيس وأخطأتُ أنا ، والثوبُ لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك لأن البزّاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفاريقه ، لأنه هو الذى أخرجه من الغزليّة الى الثوبيّة . و إنما قرن آمرؤ القيس لذّة النساء بلذّة الركوب للصيد ، وقرن السماحة فى سباء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ؛ وأنا لما ذكرت الموت فى أوّل البيت أتبعته بذكر الردى وهو الموت ليجانسه . ولما كان الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا وعينه باكية قلت :

* ووجهك وضّاح وثغرك باسم *

لأجمع بين الأضداد فى المعنى و إن لم يتسع اللفظ لجميعها . فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله .

وقال لَقِيط بن زُرارة :

شربتُ الخمرَ حتى خلتُ أنى * أبو قابوسَ أو عبدُ المَدَان

وقال حسّان بن ثابت الأنصارىّ عفا الله عنه ورحمه :

إذا ما الأشربات ذُكرنَ يوما * فهنّ لطيّب الراح الفِداءُ
ونشربها فتتركنا ملوكا * وأُسْـــدًا ما ينهنهها اللّقاءُ

حكى أنّ حسّان بن ثابت عنّف جماعةً من الفتيان على شرب الخمر وسوء تنادمهم عليها وأنهم يُضرَبُون عليها ضربَ الإبل ولا يرجعون عنها ؛ فقالوا : إنا اذا هممنا بالإقلاع عنها ذكرنا قولك :

ونشربها فتتركنا ملوكا * وأُسْدًا ما ينهنهها اللقاءُ

فعاودناها .

وقال الأخطل يخاطب عبد الملك بن مروان :

إذا ما نديمى علّنى ثم علّنى * ثلاثَ زجاجات لهنّ هديرُ
خرجتُ أجرُّ الذيلَ حتى كأننى * عليك أمير المؤمنين أميرُ

وقال آخر :

إذا صدَمتنى الكأسُ أبدت محاسنى * ولم يخش نَدْمانى أذاىَ ولا بخلى
واست بفَحّاش عليه و إن أسَا * وما شكلُ من آذى نداماه من شكلى

وقال آخر :

شربنا من الدّاذِىّ(١) حتى كأننا * ملوكٌ لهم برُّ العراقَيْن والبحرُ
فلما انجلت شمسُ النهار رأيتُنا * تَوَلَّى الغنى عنّا وعاودنا الفقرُ

ومثله لمُنَخَّل اليَشْكُرِىّ :

فإذا سكرتُ فإننى * ربُّ الخورنق والسدير
و إذا صحوتُ فإننى * ربُّ الشُّوَيهة والبعير

وقال عنترةُ :

و إذا سكرتُ فإننى مستهلك * مالى، وعِرضى وافرٌ لم يُكلَم
و إذا صحوتُ فما أُقَصّر عن نَدًى * وكما علمت شمائلى وتكرُّمى

(١) الداذىّ : شراب معروف بجودة إسكاره .

أخذه البحترىّ وزاد عليه فى قوله :

وما زلتَ خِلًّا للندامَى إذا ٱنتشوا * وراحوا بدورا يستحثُّن أنجما

تكرّمت من قبل الكئوس عليهمُ * فما ٱستطعن أن يُحدثن فيك تكرُّما

والزيادة أن عنترة ذكر أنه يستهلك ماله اذا سكر، والبحترى ذكر أن ممدوحه يتكرم قبل الكئوس فيبالغ حتى لا تستطيع الكئوس أن تزيده تكرُّما .

وكان الأعشى ميمون بن قيس مشهورا بتعاطى الخمر مشغوفاً بها كثير الذكر لها فى شعره . ومن ٱشتهاره بها قال المفضّل بين قدماء الشعراء : أشعرهم ٱمرؤ القيس اذا ركب، والنابغة اذا رهب، وزُهَير اذا رغِب، والأعشى اذا طَرِب . وقصد الأعشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُسلم وٱمتدحه بقصيدته التى أوّلها :

ألم تغتمض عيناك ليلةَ أرمَدَا * وبتَّ كما باتَ السليمُ مسهّدَا

فاعترضه فى طريقه من أراد منعه ، فقالوا له : إنه يحرّم عليك الزنا والخمر . فقال : أمّا الزنا فقد كَبِرت فلا حاجة لى فيه، وأمّا الخمر فلا أستطيع تركها . وعاد لينظر فى أمره، وقيل : إنه قال : أعود فأشربها سنة وأرجع، فمات قبل الحول .

قالوا : ونظر الحسن بن وهب الى رجل يَعبِس فى كأسه، فقال : ما أنصفتَها، تضحك فى وجهك وتعبِس فى وجهها . ومن ذلك قول الشريف الرضىّ :

كالخمر يعبِس حاسيها على مِقَةٍ * والكأسُ تجلو عليه ثغرَ مبتسم

وهو مأخوذ من قول عبد الله بن المعتزّ حيث يقول :

ما أنصف النَّدمانُ كأسَ مُدَامةٍ * ضَحِكتْ اليه فشمّها بتعبُّس

ذكر شيء مما قيل فيها من جيّد الشعر

قد أوسع الشعراء فى هـذا المعنى وأطنبوا فيـه وتنوّعوا . فمنهم من مدحها ومنهم من وصفها وشبّهها، ومنهم من ذكر أفعالهـا وتغزّل فيها . وسنورد فى هـذا الموضع نبذة مما طالعناه فى ذلك ؛ إذ لو أوردنا مجموع ماوقفنا عليه لطال، ولاتسعت فيه دائرة المقال .

* * *

فأمّا ما قيل فيها على سبيل المدح لها، فمن ذلك قول ابن الرومى حيث يقول :

تاللّه ما أدرى بأيّة عـلّةٍ * يدعون هذا الراحَ باسم الراحِ؟
أريحها وروْحها تحت الحشا * أم لارتيـاح نديمها المرتاحِ؟
إن حُرِّمت فبحقّها من حُرمةٍ * ما كان مثـلُ حريمها بمباحِ
أو حُلِّلتْ فبحقّها من نَشْوةٍ * تشفى سقامَ قلوبنا بصِحاحِ

وقال أيضا :

خمـرٌ اذا ما نديمى ظلّ يَكْرَعها * أخشى عليـه من اللألاء يحـترقُ
لو رام يحلف أن الشمس ماغَرَبت * فى فيه كذّبه فى وجهه الشفَقُ

ومثله قول الطليق المروانىّ :

فإذا ما غَرَبتْ فى فمـه * أطلعتْ فى الخدّ منه شفقا

وقال الناجم :

وقهوةٍ كشعاع الشمس صافيـةٍ * مثل السراب تُرَى من رقّةٍ شبحا
اذا تعاطيتَها لم تدرِ من فرحٍ * راحًا بلا قدَحٍ أعطيتَ أم قدَحا؟

وقال الناشى :

يا ربّما كأس تناولتها * تسحب ذيلا من تلاليها
كأنها النار ولكنها * منعّمٌ واللهِ صاليها

ومما قيل فى وصفها وتشبيهها، فمن ذلك ما قاله يزيد بن معاوية :

ومُدَامةٍ حمـــراءَ فى قارورةٍ * زرقاءَ تحملها يدٌ بيضاءُ
فالخمر شمسٌ والحَبابُ كواكبٌ * والكفُّ قُطْبٌ والإناءُ سماءُ

وقال السروىّ :

عُنيتُ بالمـدامةِ الشـعراءُ * وصفوها وذاك عنـدى عناءُ
كيف تحصيل علمها وهى موتٌ * وحياةٌ وعـلّةٌ وشـفاءُ
فهى فى باطن الجوانح نارٌ * وهى فى ظاهر المحاجر ماءُ
حُلوةٌ مرّةٌ فما أحـدٌ يد * رى أداءٌ خُصُوصُها أم دواءُ

وقال البحترىّ :

اِشرب على زَهْر الرياض يشوبُه * زهرُ الخـدود وزهرةُ الصهباءِ
من قهوةٍ تُنسِى الهمومَ وتبعث ال * ـشوقَ الذى قد ضلّ فى الأحشاءِ
يُخفى الزجاجةَ لونُها فكأنها * فى الكفّ قائمةٌ بغـير إناءِ
ولها نسـيمٌ كالرياض تنفّستْ * فى أوجـه الأرواح والأنـداءِ
وفواقعٌ مثـل الدموع تردّدت * فى صحن خدّ الكاعبِ الحسناءِ
يسقيكها رشأٌ يكاد يردّها * سكرى بفـترةِ مقـلةٍ حوراءِ
يسعى بها وبمثلها من طَرْفِهِ * عَـوْدًا وإبداءً على النـدماءِ

وقال الوأواء الدمشقىّ :

فامزُج بمائك نار كأسك واسقنى * فلقـد مزجتُ مدامعى بدماءِ

وآشرب على زهر الرياض مُدامةً * تَشفِي الهمومَ بعاجل السّراءِ
لَطُفتْ فصارتْ من لطيف محلِّها * تجرى بجرى الروح فى الأعضاءِ
وكأنّ مِخْنَقَةً عليها جوهرٌ * ما بين نارٍ أُذكِيَتْ وهواءِ
وكأنها وكأنّ حاملَ كأسها * إذ قام يحملوها على النُدماءِ
شمس الضحى رقَصتْ فنقّط وجهَها * بدرُ الدجى بكواكب الجوزاءِ

وقال أبو نُوَاس :

أقول لما تحاكيا شبها * أيّهما للتشابه الذهبُ
هما سواءٌ وفرقُ بينهما * أنهما جامدٌ ومُنسكبُ

وله أيضا :

إذا عَبَّ(١) فيها شاربُ القوم خلتَه * يقبّل فى داجٍ من الليل كوكبا
ترى حيثما كانت من البيت مَشرِقًا * وما لم تكن فيه من البيت مَغرِبا
يدور بها ساقٍ أغنّ ترى له * على مستدار الأذن صُدْغًا مُعَقْرَبَا
سقاهم ومنّانى بعينيه مُنيةً * فكانت الى نفسى ألذَّ وأطيبا

ومثل البيت الأول قول آبن المعتزّ :

كأنه قائم والكأس فى يده * هلالُ أوّلِ شهرٍ غابَ فى شفق

وقال آبن الرومىّ :

ومهفهفٍ تمّت محاسنُه * حتى تجاوز منتهى النفسِ
أبصرتُه والكأسُ بين فم * منه وبين أناملٍ خمسِ
فكأنه والكأس فى فمه * قمرٌ يقبّل عارضَ الشمس

(١) العب : الشرب من غير مص .

وقال الحسين بن الضحّاك :

كأنما نُصْبَ كأسِه قمـرٌ * يكرَع فى بعض أنجم الفلكِ

وقال آخر :

وآكتست من فضّةٍ دُرَرًا * خلتُها من تحتها ذهبا
ككميت اللون قلدها * فارسٌ من لؤلؤ حَبَبا

وقال آخر :

تغشى[1] بياض شاربها * فتخالها بيمين مختضبِ
دارت وعين الشمس غائبة * فحسبتُ عينَ الشمس لم تغب

وقال آخر :

حمـراء ورديّة مشعشعة * كأنها فى إنائها لهبُ
صهباء صِرْفا لو مسّها حجرٌ * من جامد الصخر مسّه طربُ

وقال آخر :

قلت والراح فى أكفّ النّدامَى * كنجومٍ تـلوحُ فى أبراجِ
أمُـدامًا خرطـتُمُ لمُـدامٍ * أم زجاجا سبكتُمُ لزجاجِ

وقال الحسن بن وهب :

وقهـوةٍ صافيـةٍ * كالمسك لمّا نفحا
شربتُ من دِنانهـا * من كلّ دنٍّ قَدَحا
فعـدتُ لا تحملنى * أعوادُ سرجى مَرَحا
من شدة السكر الذى * على فؤادى طفحا

(١) هـذا الشطر مختل الوزن وورد هكذا بكل الأصول . ولعله : « تغشى الكؤوس » أو تغشى المدام » مما يستقيم به المعنى والوزن .

وقال ابن المعتز :

خليليّ قد طار الشرابُ المبرَّدُ * وقد عدتُ بعد النسك والعَوْدُ أحمدُ
فهاتِ عُقارا من قميص زجاجةٍ * كيافوتةٍ فى دُرَّةٍ تتوقَّدُ
يصوغ عليها الماءُ شُبّاكَ فضةٍ * له حَلَقٌ بيضٌ تُحَلّ وتُعقَدُ

وقال التنوخىّ :

وراح من الشمس مخلوقةٍ * بدت لك فى قَدَحٍ من نهارِ
هواءٌ ولكنه ساكنٌ * وماءٌ ولكنه غير جارى
اذا ما تأملتَه وهى فيه * تأملتَ ماءً محيطا بنارِ
فهذا النهاية فى الأبيضاضِ * وهذا النهاية فى الأحمرارِ
وما كان فى الحكم أن يُوجَدَا * لفرطِ تنافيهما والنِّفارِ (٥١)
ولكن تجاوَرَ سطحاهما الـ * ـبسيطان فأتلفا بالحوارِ
كأنّ المديرَ لها باليمين * إذا مال بالسَّقْ أو باليسارِ
تدرَّعَ ثَوْبا من الياسمين * له فردُ كُمٍّ من الجُلَّنارِ

وقال ابن وكيع التنّيسىّ :

حَمَلتْ كفُّه الى شفتيه * كأسَه والظلامُ مُرخى الإزارِ
فالتقى لؤلؤا حَبابٍ وثغرٍ * وعقيقانِ من فم وعُقارِ

وقال آخر :

قم فاسقنى قد تبلّج الغَسَقُ * من قهوةٍ فى الزجاج تأتَلِقُ
كأننا والكئوس نأخذها * نشرب نارًا وليس نحترق

وقال أبو نواس :

غنّنا بالطلول كيف بَلينا * وآسقِنا نُعطِكَ(١) الجزاء الثمينا
من سلاف كأنها كلّ شيء * يتمنى مخيّر أن يكونا
أكل الدهرُ ماتجسّم منها * وتبقّى لنا(٢) بها المكنونا
فإذا ما آجتليتَها فهباءٌ * تمنع الكفّ ماتُبيح العيونا
ثم شُجّتْ فاستضحكت عن لآلٍ * لو تجمّعن فى يدٍ لأقتُنينا
فى كئوسٍ كأنهن نجوم * جاريات ، بُروجها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا * فاذا ما غَرَبْنَ يغرُبْنَ فينا
لو ترى الشَّرْبَ حولها من بعيدٍ * قلتَ قومٌ من قَرَّةٍ يصطلونا

وقال آبن المعتزّ :

ونمّارةٍ من بناتِ المجوسِ * ترى الدَّنَّ فى بيتها شائلا
وزَنّا لها ذَهَبًا جامدًا * فكالت لنا ذَهَبًا سائلا

* * *

وأما ماقيل فى أفعالها، فمن ذلك قول أبى تمّام الطائىّ :

وكأسٍ كمعسول الأمانى شربتُها * ولكنها أجلَتْ وقد شَرِبتْ عقلى
اذا عُوتبت بالماء كان آعتذارُها * لهيبا كوقع النار فى الحطَب الجَزْلِ
اذا اليدُ نالتها بوَتْرٍ توفّرت * على ضِغنها(٣) ثم آستقادت من الرِّجل

(١) فى الأصل : « نقطة الجزاء ... » وهو تحريف . وفى ديوان أبى نواس
* وآسقنا نعطك الثناء الثمينا *
(٢) كذا بالأصل ، وفى الديوان : * وتبقى لبابها المكنونا *
(٣) كذا فى الديوان . وفى الأصل : «صنعها» وهو تحريف .

ومثله قول ديك الجنّ وآسمه عبد السلام :

فقام تكاد الكأس تخضب كفّه * وتحسَبه من وجنتيه آستعارَها
مشعشعة من كفّ ظبي كأنما * تناولها من خدّه فأدارَها
فظلنا بأيدينا نُتعتِعُ رُوحها * وتأخذ من أقدامنا الراحُ ثارَها

وقريب من المعنى الأوّل قول أبي بكر الخالديّ :

كانت لها أرجُل الأعلاج(١) واترةً * بالدوس فآنتصفَت من أرؤس العربِ

[أخذ(٢) هذا المعنى أبو غالب الإصباعيّ الكاتب فقال :

عَقَرتهُم معقورةٌ لو سالمت * شُرَّابها ما سُمِّيتْ بعُقارِ
لَانَتْ لهم حتى آنتشَوْا وتمكّنتْ * منهم فصاحت فيهمُ بالثارِ
ذكرت حقائدَها القديمةَ إذ غدت * صَرْعَى تُداسُ بأرجل العُصّارِ]

وقال آخر :

أسروها وجهَ النهار من الدَّنّ * فأمسَوْا وهم لها أُسَراءُ

وقال عبد الصمد بن بابك عفا الله عنه :

عُقارٌ عليها من دم الصّبّ نفضةٌ * ومن عَبَرات المستهام فواقعُ
معوّدةٌ غصبَ العقول كأنما * لها عند ألباب الرجال ودائعُ

* * *

وأما ماوُصفت به غير ماقدّمناه، فمن ذلك قول أبي الفضل يحيى بن سلامة الحصكفيّ [والحصكفي نسبة الى حصن كيفا] :

وخليع بتّ أعتبه * ويرى عتبي من العبثِ

(١) الأعلاج : جمع علج وهو الرجل من كفار العجم .
(٢) الزيادة التي بين هاتين العلامتين [ ] منقولة عن إحدى النسخ .

قلتُ إن الخمر مَخْبَـــثةٌ * قال حاشاها من الخَبث
قلتُ منها القيء، قال أَجَلْ * طَهُرت عن مخـرج الحَدَثِ
قلتُ فالأرفاث تتبعهـا * قال طِيبُ العيش فى الرفثِ
وسألـــوها فقلت متى * قال عنـد الكونِ فى الحدثِ

وقال آخر :

ثُقلت زجاجاتٌ أتتنـا فُـرَّغا * حتى اذا مُلِئت بصِرفِ الراحِ
خفَّتْ فكادت أن تطيرَ بما حوت * وكذا الجسوم تَخِفُّ بالأرواحِ

[وقريب من المعنى قول الآخر :

وزنًا الكأس فارغةً وملأى * فكان الوزنُ بينهما سواء] (١)

وقال أبو نواس :

قهـوةٌ أُعْمِيَ عنهـا * ناظرا ريبَ المنـونِ
عُتِّقتْ فى الدنّ حتى * هى فى رقّـة دينى
ثم شُجَّت فأدارت * فوقها مثـلَ العيونِ
حَـدَقًا ترنو الينـا * لم تُحَجَّـرْ بجفـونِ
ذهبـا يُثمـر دُرًّا * كلَّ إبّانٍ وحينِ
من يَدَىْ ساقٍ عليه * حلّةٌ من ياسمينِ
غايةٍ فى الظرف والشكل وفردٍ فى المجـونِ

(٥٢)

وقال :

ذُدْ بماء الكَرْمِ والعنبِ * خطراتِ الهمِّ والنُّوَبِ
قهوة لو أنهـا نطقَتْ * ذكرَتْ سامًا أبا العربِ

(١) الزيادة التى بين هاتين العلامتين [ ] منقولة عن بعض النسخ .

وهى تكسو كفَّ شاربها * دستباناتٍ من الذهبِ (١)

وقال تاج الملوك بن أيّوب :

وكم ليلةٍ فيها وصلنا غَبوقَنا * وكم من صباحٍ كان فيه صَبوحُ
تُدار علينا من أكفِّ سُقاتنا * عُقارٌ من الهمِّ الطويلِ تُريحُ
تلوحُ لنا كالشمسِ فى كفِّ أغيدٍ * يلوح لعينى البدرُ حين يلوحُ
مدامٌ تُحاكى خدّه ورُضابَه * ونكهتَه فى الطِّيبِ حين تفوحُ
ولكن لها أفعالُ عينيه فى الحشا * فكلُّ حشًا فيها عليه جَريحُ

وقال أيضا :

والكأس أعطاها عقيقا أحمرا * قانٍ ، فأعطيها لُجَينًا يَقَقَا (٢)
من قهوةٍ ما العيش إلا أن أُرَى * مصطبِحا فى شربها مغتبِقا
أشربها شُربًا هنيئا من يدَىْ * غصنٍ رشيقٍ وغزالٍ أرشقَا

ومما قيل فيها اذا مُزجت بالماء، فمن ذلك قول أبى نواس :

وصفراءُ قبل المزج بيضاء بعده * كأن شعاع الشمس يلقاك دونَها
ترى العين تستعفيك من لمعانها * وتحسُر حتى ما تُقِلّ جفونَها

ومنه أخذ ديك الجنّ فقال :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده * بدت بين ثوبَىْ نرجس وشقائقِ
حكت وجنةَ المعشوقِ صِرْفًا فسلّطوا * عليها مزاجا فاكتستْ لونَ عاشقِ

وقال أبو هلال العسكرىّ :

راحٌ اذا ما الليل مدَّ رواقه * لاحت تُطرِّز حُلّةَ الظلماءِ

(١) الدستبانات : كلمة فارسية ومعناها الأساور . (٢) اليقق : الأبيض .

حتى اذا مُزجتْ أراك حَبابُها * زهراتِ أرضٍ أو نجومَ سماءِ

وقال أيضا :

وكأس تمتطى أطرافَ كفٍّ * كأنَّ بنانها من أُرجوانِ
أنازعها على العلّات شَرْباً * لهنَّ مضاحكٌ من أَقحوانِ
يلوح على مفارقها حَبابٌ * كأنصافِ الفرائد والجُمانِ
وطالعنى الغلامُ بها سُحَيراً * فزاد على الكواكب كوكبان
ووافقها بخدٍّ أُرجوانٍ * وخالفها بفرعٍ أدجوانِ

قوله :

* كأنصافِ الفرائد والجمان

مأخوذ من قول ابن الرومى :

لها صَريحٌ كأنه ذهبٌ * ورغوةٌ كاللآلئ الفُلُق

وقال أبو نواس :

فإذا علاها الماءُ ألبسها * حبباً(١) شبيهَ جلاجلِ المجْلِ
حتى اذا سكنتْ جوانحُها(٢) * كتبتْ بمثلِ أكارع النمل

وهو مأخوذ من قول الأول، ويقال : إنه ليزيد بن معاوية :

وكأسٍ سباها التّجْر من أرض بابلٍ * كرقّة ماء الحُزْنِ فى الأعينِ النُّجلِ
اذا شجّها الساقى حسبت حَبابَها * عيونَ الدَّبا(٣) من تحت أجنحةِ النملِ

وقال أبو نواس أيضا :

قامت تُريني وأمرُ الليل مجتمعٌ * صبحا تولّد بين الماء واللّهبِ

(١) كذا فى ديوانه . وفى الأصول : « نمشا » . (٢) كذا بالأصل . وفى الديوان : «جوانحها» . (٣) الدبا : الجراد .

كأنّ صُغْرَى وكُبْرَى من فقاقعها * حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذهبِ

وقال آبن المعتز :

للماء فيها كتابةٌ عجبٌ * كمثل نقشٍ فى فَصِّ ياقوتِ

وقال العسكرىّ :

ذاب فى الكأس عقيقٌ جُرى * وطفا الدُّرُّ عليه فسبَحْ

نصب الساق على أقداحها * شَبَكَ الفِضّةِ تصطادُ الفرحْ

وقال آبن الساعاتىّ :

وليلةٍ بات بدرُ التمّ ساقِيَنَا * يُدير فى فَلَكٍ من شربها شُهُبا

بكر اذا فُرعتْ بالماء كان بنا * جِدًّا وإن كان فى كاساتها لَعِبا

حمراء من نجلٍ حتى اذا مُزجت * لم تدر ما انجلا تحمرُّ أم غضبا

تزيد بالبارد السلسال جذوتُها * وما سمعت بماء محدِثٍ لهبا

تكسو النديمَ إذا ما ذاقها وَضَحًا * حتى كأنّ شعاعَ الشمس قد شَرِبا

وقال آخر :

فَنبَّهْتنى وساقى القوم يمزُجها * فصار فى البيت للمصباح مصباحُ

قلنا على علمنا والشكُّ يغلبنا * أراحُنا نارُنا أم نارُنا الراحُ

وقال آبن وكيع التِّنِّيسىّ :

وصفراء من ماء الكروم كأنها * فراقُ عدوٍّ أو لقاءُ صديقِ

كأنّ الحبابَ المستديرَ بطوقها * كواكبُ دُرٍّ فى سماءٍ عقيقِ

صببت عليها الماءَ حتى تعوّضت * قميصَ بَهارٍ من قميص شقيقِ (٥٣)

وقال آخر :

حمراء ما آعتصموا بالماء حين طفت * إلا وقد حسبوها أنها لهبُ

وقال الخالديّان :

فهاتها كالعروس محمـــرّة الـ * ـخدّين فى مِعجرٍ(١) من الحبَبِ
كادت تكون الهواءَ فى أرج الـ * ـعنبر لو لم تكن من العنبِ
من كفّ راضٍ عن الصدود وقد * غضِبتُ فى حبّـه على الغضبِ
فلو ترى الكأسَ حين يمزُجها * رأيت شيئا من أعجب العجبِ
نار حواهـا المِـزاج يُلهبها المـــاءُ ودُرٌّ يـــدور فى لهبِ

ذكر ما قيل فى مبادرة اللّذات ومجالس الشراب وطيّها

قال أحمد بن أبى فَنَن :

جدِّد اللّـــذّاتِ فاليومُ جديدُ * وامضِ فيما تشتهى كيف تريدُ
وآلُهُ ما أمكـنَ يومٌ صالحٌ * إن يومَ الشرِّ ـ لا كان ـ عتيدُ

وقال ديك الجنّ :

تمتّـع من الدنيـا فإنك فانى * وإنك فى أيدى الحوادث عانى
ولا تُنظِرنّ اليومَ لهواً إلى غدٍ * ومَنْ لغـدٍ من حادثٍ بأمانِ
فإنى رأيتُ الدهرَ يُسرع بالفتى * وينقـله حالين مختلفان(٢)
فأمّا الذى يمضى فأحلامُ نائمٍ * وأمّا الذى يبـــقى له فأمانى

وقال ابن المعتزّ من أبيات :

وبادِرْ بأيام السرور فإنهـا * سِراعٌ وأيامُ الهمـــوم بِطـاءُ
وخلِّ عتاب الحادثاتِ لوجهها * فإن عتـابَ الحادثاتِ عناءُ
تعالَوْا فسقّوا أنفسا قبل موتها * ليأتىَ ما يأتى وهنّ رِواءُ

(١) المعجر : ثوب تلفه المرأة على أستدارة رأسها . (٢) كذا بالأصل . ولعلها "تختلفان" .

وقال أحمد المارداني :

عاقرِ الراحَ ودَعْ نعتَ الطلَلْ * وآعْصِ من لامك فيها وعذَلْ
غادِها وآسعَ لها وآغْرَ بها * وإذا قيل : تصابَى، قل أجَلْ
إنما دنياك — فآعلم — ساعةٌ * أنت فيها وسوى ذاك أمَلْ

وقال آبن بسّام :

واصلْ خليلك إنما الـ * ـدنيا مواصلةُ الخليلِ
وآنعَمْ ولا تتعجّل الـ * ـمكروهَ من قبل النزول
بادِرْ بما تهوى فما * تدرى متى وقت الرحيل
وآرفُضْ مقالةَ لائم * إن الملامَ من الفُضولِ

ومما وُصفتْ به مجالس الشرب، فمن ذلك قول أبى نواس :

فى مجلسٍ ضحك السرورُ به * عن ناجذيه وحُلّت الخُمُرُ

وقال ديك الجنّ :

كأنما البيتُ بريحانة * ثوبٌ من السندس مشقوقُ

وقال السرىّ :

ألستَ ترى ركبَ الغمامِ يُساقُ * وأدمعُهُ بين الرياض تُراقُ
وقد رقّ جِلبابُ النسيم على الثرى * ولكن جلابيبُ الغيوم صِفاقُ
وعندى من الرَّيحانِ نوعٌ تجسّه * وكأسٌ كَرقْراق الخَلُوقِ (١) دِهاقُ
وذو أدبٍ جلّتْ صنائعُ كفّه * ولكن معانى الشعر منه دِقاقُ
له أبدًا من نثره ونظامه * بدائعُ حَلْىٍ ما لهنّ حِقاقُ

(١) الخلوق : ضرب من الطيب مائع فيه صفرة لأن غالب أجزائه من الزعفران .

وأغيـدُ مهتزٌّ، على صحن خدّه * غلائلُ من صِبغ الحيـاءِ رِقاقُ
أحاطت عيونُ العاشقين بخصره * فهنّ له دون النِّطاق نطاقُ
وقد نظـم المنثور فهـو قلائد * علينا، وعقدٌ مُذْهَبٌ وخنـاقُ
وغرفتنا بين السحائب تلتـقِي * لهنّ علينا كِلّةٌ ورِواقُ
تقسّم زُوّارٌ من الهند سَقفَها * خِفافٌ على قلب الكريم رِشاقُ
أعاجمُ تلتـذُّ الخصامَ كأنها * كواعبُ زَنْج راعهنّ طَلاقُ
أنِسنَ بنـا أنسَ الإماءِ تحبّبتْ * وشيمتها غَـدْرٌ بنـا وإباقُ
مُواصِـلةٌ والورد فى شجـراته * مفارقةٌ إن حان منـه فراقُ
فزُرْ فتيةً، بَرْدُ الشرابِ لديهمُ * حميمٌ اذا فارقتهـم وغَسّاقُ(١)

قـــوله :

أحاطت عيون العاشقين بخصره * فهن له دون النطاق نطاقُ

مأخوذ من قول المتنبّى :

وخصرٍ تثبُت الأحداق فيه * كأنّ عليه من حَدَقٍ نطاقا

وقال أبو هلال العسكرىّ :

وليـــل أبتعثُ به لذّةً * وبعتُ فيه العقـلَ والدّينـا
أصاب فيه الوصلُ قلبَ الجوى * وبات فيـــه الهمُّ مسكينا
وقد خلطنا بنســـيم الصّبا * نسـيم راحٍ ورياحينـا
وأكؤس الراح نجومٌ اذا * لاحت بأيدينـا هوتْ فينـا
تضحك فى الكأس أباريقُنا * وحسبما تضحَك تبكينا

(١) الغساق : المنتن الشديد البرد الذى يحرق من برده كإحراق الحميم .

ومما قيل فى طىّ مجالس الشراب، فمن ذلك قول بعض الشعراء :

حُكم العُقارِ اذا قصدتَ لشربها * فى لذّةٍ من مُسمِع[1] وقيانِ
ألّا تعود لذكر ما أبصرتَ مز * أحدوثةٍ من شاربٍ سكرانِ

وقال آخر :

إذا ذُكر النبيذُ فليس حقًّا * إعادة مايكون على النبيذِ
إعادة مايكون من السّكارى * يكدّر صفوةَ العيش اللذيذِ

وقال آخر :

تنازعوا لذّة الصهباء بينهُمُ * وأوجبوا لرضيع الكأس مايجب
لايحفظون على السكران زلّتَهُ * ولا يُريبك من أخلاقهم رِيَبُ

ذكر ماقيل فى وصف آلات الشراب وأوانيها

من ذلك ماقيل فى وصف مَعصرة الخمر :

قال أبو الفرج البيّغاء :

ومَعصرة أنختُ بها * وقَرنُ الشمس لم يَغِبِ
نخِلْتُ قرارها بالرا * ح بعضَ معادنِ الذهبِ
وقد ذَرَفت لفقد الكَرْ * م فيها أعينُ العنبِ
وجاش عُبابُ واديها * بمنهلٍّ ومُنسَكبِ
وياقوت العصير بها * يلاعبُ لؤلؤ الحببِ
فياعجبا لعاصرها * وما يفنَى به عجبى
وكيف يعيش وهو يخو * ض فى بحرٍ من اللّهب

(١) المسمع : المغنى .

وقال ابن المعتزّ يصف الدِّنان :

ودنانٍ كمثلِ صفِّ رجال * قد أقيموا ليرقصوا دَسْتَبَنْدَا (١)

وقال القُطاميّ يصف حِرارَ الخمر :

وٱستَودَعَتْها رواقيدٌ (٢) مقيرةٌ (٣) * دُكْنُ الظواهرِ قد بُرْنِسن بالطِّينِ

مكالِحاتٌ لحرِّ الشمس قائمةٌ * كأنهنّ نَبِيطٌ (٤) فى تبابِينِ

وقال العلويّ الأصفهانيّ :

مخدَّرةٌ مكنونةٌ قد تَقَشَّفتْ * كراهبةٍ بين الحسانِ الأوانسِ

وأترابُها يلبسن بيضَ غلائلٍ * هى العُرْىُ مغرورٌ بها كلُّ لابسِ

مشعَّثةٌ مَرْهاء (٥) ماخِلتُ أننى * أرى مثلَها عذراءَ فى زِىّ عانسِ

ومما قيل فى الراووق، قال بعض الشعراء :

كأنما الراووقُ وٱنتصابُه * خُرطومُ فيلٍ سقطتْ أنيابُهُ

والبيت منه عَطِرٌ ترابُهُ * كأنَّ مسكًا فُتِّقَتْ عِيابُهُ

وقال آخر :

سماء لاذٍ (٦)، قَطْرُها رحيقُ * رحبُ الذرى يَحُطّ فيه الضِّيقُ

ماءُ عقيقٍ لو جرى العقيقُ * حتى اذا ألهبها التصفيقُ

* صِحْنا الى جيراننا : الحريقُ *

(١) الدستبند : نوع من أنواع رقص المجوس : يأخذ بعضهم بيد بعض و يدورون و يرقصون .

(٢) رواقيد : جمع راقود وهو الدنّ الكبير .

(٣) مقيرة : أى مسيعة بالقار وهو "الزفت" .

(٤) النابين : جمع تبان وهو سراويل صغير يستر العورة .

(٥) المرهاء : التى أبيضت حماليقها من تركها الكحل .

(٦) اللاذ : جمع لاذة وهى ثوب حرير أحمر صينى .

ومما وُصفت به زقاق الخمر ، فمن ذلك قول الأخطل :

أناخوا بخرّوا شاصياتٍ[1] كأنها * رجالٌ من السودان لم يتسربلوا

وقال أبو الهندىّ وأجاد فى شعره :

أتلفَ المالَ وما جمعتُه * طلبُ اللّذاتِ من ماء العنبْ

واستباءُ الزقّ من حانوتها * شائلَ الرجلين مَعْضوبَ[2] الذنبْ

كلما كُبّ لشرب خلتَه * حبشيًا قُطعتْ منه الرُّكبْ

وقال ابن المعتزّ :

وتراها وهى صَرْعَى * فُرّغًا بين الندامَى

مثلَ أبطالِ حروب * قُتِلوا فيها كِرامَا

وقال العلوىّ الأصفهانىّ :

عجبتُ من حبشىّ لا حَراكَ به * لا يُدرك الثأر إلا وهو مذبوحُ

طَوْرًا يُرَى وهو بين الشّرب مضطجعٌ * رخو الصِّفاقِ[3] وطَوْرًا وهو مشبوحُ

ومما وُصفت به الأباريقُ ، فمن ذلك قول شُبرمة بن الطفيل :

كأنّ أباريقَ الشّمول عشيّةً * إوَزٌّ بأعلى الطفّ عُوجُ الحناجر

وقال آخر :

يارُبَّ مجلس فتيةٍ نادمتُهم * من عبد شمسٍ فى ذرى العلياءِ

وكأنما إبريقُهم من حُسنِه * ظبيٌ على شَرَفٍ أمامَ ظباءِ

وقال ابن المعتزّ :

وكأنّ إبريقَ المدام لديهمُ * ظبيٌ على شَرَفٍ أنافَ مدلَّها

(١) الشاصيات : القرب اذا كانت مملوءة أو نفخ فيها فارتفعت قوائمها .

(٢) المعضوب : المقطوع . (٣) الصفاق : جلد البطن .

لمـا استحثّته السُّقاة جثى لها * فبكى على قدح النـديم وقهقها

وقال إسحاق الموصلىّ :

كأن أباريقَ المدام لديهـمُ * ظبـاءٌ بأعلى الرَّقْمتين قِيامُ

وقد شربوا حتى كأنّ رقابَهم * من اللّين لم يُخلَق لهنّ عِظـامُ

وكلّهم نظروا الى قول عَلْقمة بن عَبَدَة :

كأنّ إبريقهم ظبيٌ على شَرَفٍ * مُفَدَّمٌ بسَبا[1] الكَتّان ملثومُ

وقال محمد بن هانئ من أبيات :

والأباريقُ كالظبـاء العواطى * أوجستْ نبأةَ الخيولِ العتـاقِ

مُصغياتٌ إلى الغناءِ مُطـلّا * تٌ عليـه كثيرةُ الإطراقِ

وهى شُمُّ الأنوفِ يشمخن كبرًا * ثم يَرْعُفن بالدّمِ المُهـراق

وقال أبو نواس عفا الله عنه :

والكوب يضحك كالغزال مسبَّحًا * عنـد الركوع بثغـرةِ الفَأْفاءِ

وكأنّ أقداح الرحيـق إذا جرت * وسط الظلامِ كواكبُ الجوزاءِ

وقال بشّار بن بُرْد :

كأنّ إبريقَنا والقَطْرُ من فمه * طـيرٌ تناول ياقوتًا بمنقارِ

ومما وُصفت به الكاساتُ والأقداحُ ؛ فمن ذلك قول ابن المعتزّ :

غدا بها صـفراء كَرْخيّة * تخالها فى كأسها تتّقـدْ

وتحسب المـاءَ زجاجًا لها * وتحسب الأقداحَ ماءً جَمَدْ

وقال ابن المعتزّ أيضا عفا الله عنه :

وكأسٍ تُحْجَبُ الأبصـارُ عنها * فليس لنـاظرٍ فيهـا طريقُ

(١) السب والسبية : الثقة ، وخص بعضهم به الثقة البيضاء . كذا فى اللسان ، وقد استشهد بهذا البيت وعقب عليه قائلا : « إنما أراد بسبائب لحذف » .

كأن غمامةً بيضاءَ بيني * وبين الكأس تخرِقها البروقُ

وقال أبو الفرج الببّغاء :

من كلّ جسم كأنه عَرَضٌ * يكاد لُطفًا بالحظ يُنْتَهَبُ
كأنما صاغه النِّفاق فما * يخلُص منه صدقٌ ولا كذبُ

وقال الرفّاء :

كأنّ الكؤوسَ بفضلاتها * متوّجةٌ بأكاليل نورِ
جيوبٌ من الوشى مَزْرورةٌ * يلوح عليها بياضُ النحورِ

وقال آخر :

وكأنما الأقداحُ مترعة الحشا * بين الشروب كواكبُ الجوزاءِ
وكأنها ياقوتةٌ فضلاتها * مخروطةٌ من دُرّة بيضاءِ

وقال المعوَّج :

يعاطيك كأسًا غير ملأى كأنها * إذا مُزجتْ أحداقُ درعٍ مُزرَّدِ
كأنّ أعاليها بياضُ سوالف * يلوح على توريد خدّ موردِ

وقال أبو نواس :

وكأنما الروضُ السماءُ ونهرُه * فيه المجرّةُ والكؤوسُ الأنجمُ

وقال الثعالبيّ :

ياواصف الكأس بتشبيهها * دونك وصفًا عالِيَ القَدْر
كأنّ عينَ الشمس قد أُفرِغتْ * فى قالَبٍ صِيغ من البدر

وقال آخر :

أقول للكأس إذ تبدَّتْ * بكفِّ أحْوى أغنّ أحورْ
أخربتِ بيتى وبيتَ غيرى * وأصلُ ذا كعبُك المدوَّرْ

الباب الخامس

من القسم الثالث من الفنّ الثانى

فى النُّدمان والسُّقاة

قال سهل بن هارون : ينبغى للنـديم أن يكون كأنما خُلق من قلب الملك يتصرّف بشهواته ويتقلّب بإرادته، لا يَمَلّ المعاشرة، ولا يسأم المسامرة؛ إذا انتشى يحفظ، وإذا صحا يَيقَظ، ويكون كاتما لسرّه، ناشرا لبرّه . قالوا :

فاخَر كاتبٌ نديما، فقال الكاتب : أنا معونة، وأنت مؤونة؛ وأنا للجدّ، وأنت للهزل؛ وأنا للشـدّة، وأنت للرخاء؛ وأنا للحرب، وأنت للسِّـلم . فقال النديم : أنا للنعمة، وأنت للخدمة؛ وأنا للحُظوة، وأنت للهنة؛ تقوم وأنا قاعد، وتحتشم وأنا مؤانِس؛ تدأب لراحتى، وتشقى لما فيه سعادتى؛ فأنا شريك وأنت مُعِين، كما أنك تابع وأنا قرين . فلم يُحِر الكاتبُ جوابا . والله أعلم .

وسئل إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ رحمه الله عن الندماء، فقال :

واحدٌ غَمٌّ، واثنان هَمٌّ، وثلاثةٌ قِوَامٌ، وأربعةٌ تَمَامٌ، وخمسةٌ مجلسٌ، وستّةٌ زحامٌ، وسبعةٌ جَيْشٌ، وثمانيةٌ عَسْكرٌ، وتسعةٌ اضرب طبلك، وعشرة ألقَ بهم مَن شئتَ .

وقال الجمّاز : النبيـذ حرام على اثنى عشر نفسا، مَن غَنّى الخطأ، واتكأ على اليمينِ، وأكثرَ من أكل البقل، وكسر الزجاجَ، وسرق الريحانَ، وبل مابين يديه، وطلب العَشاء، وقطع البَمّ[1]، وحبس أوّل قدح، وأكثر الحديثَ، وامتخط فى منديل الشراب، وبات فى موضع لا يُحتَمَلُ المبيتُ فيه .

(١) البم : الوتر الغليظ من أوتار العود .

قال أبو هلال العسكرى :

ما أعافُ النبيذَ خيفةَ إثم * إنما عفتُه لفقدِ النّديم
ليس فى اللهو والمدامةِ حظٌّ * لكريم دون النديم الكريم
فتخيَّرْ قبلَ النبيذ نديمًا * ذاخلالٍ معطَّراتِ النسيم
وجمال إذا نظرتَ بديعٍ * وضميرٍ إذا آختبرتَ سليم

وقال آخر :

أرى للكأس حقًّا لا أراه * لغير الكأسِ إلا للنديم
هو القطبُ الذى دارتْ عليه * رحَى اللّذاتِ فى الزمنِ القديم

وقال آخر :

ونَدْمانٍ أنى ثقةٍ * كأنَّ حديثَه حِبَرَهْ[1]
يسرُّك حسنُ ظاهرِهِ * وتَحمَد منه مُخْتَبَرَهْ
ويستر عيبَ صاحِبِه * ويستُرُ أنه سَتَرَهْ

وقال آخر :

ونديم حلو الحديث يجاريـ * ـك بما تشتهيه فى مَيدانِكْ
ألمعىّ كأنّ قلبَك فى أضـ * ـلاعه أو كلامَهُ فى لسانِكْ

وقال يحيى بن زياد :

ولستُ له فى فضلة الكأسِ قائلا * لأصرفه عنها[2] : تحسَّ وقد أبَى
ولكن أُحيِّيه وأكرم وجهَهُ * وأشربُ ما أبقَى وأسقيه ما آشتهَى
ولستُ إذا مانام عندى بموقظٍ * ولا مُسمعٍ يقظانَ شيئا من الأذَى

وقال آخر :

ليس من شأنه إذا دارتِ الكأ * س فأزرى إدمانُها بالحلومِ

(١) الحبرة : ضرب من برود اليمن منمر . (٢) هذه رواية الأصل وهى غير مستقيمة ويحتمل أن تكون محرفة عن « لأصرفها عنى » أو « لأصرعه سكرا » أو نحو ذلك .

قولُ مايُسخط النديمَ وإنأسـ * ـخطَه عند ذاك قولُ النـديم

وقال عبد الرحمن العَطَوىّ رحمه الله :

أُخْطُبْ لكأسك نَدمانًا تُسَرُّ به * أو لا فنادِمْ عليها حكمةَ الكتب

أخطُبْه حرًّا كريما ذا محافظة * ترى مودّتَه من أقرب النسب

وقال أبو نُوَاس :

(٥٧) ونَدْمانٍ يَرَى عيبًا عليـــه * بأن يمشى وليس به آنتشاءُ

إذا نبّهته من نوم سكرٍ * كفاه مرّةً منـــك النداءُ

فليس بقائل لك : إيهِ دعنى * ولا مستخبرا لك ما تشاءُ

ولكن سَقِّنى ويقول أيضا * عليك الصَّرْف إن أعياك ماءُ

اذا ما أدركته الظهرُ صلّى * ولا عصرٌ عليـه ولا عِشاءُ

يصلّى هذه فى وقت هذى * وكلّ صـــلاته أبدًا قضاءُ

وقال آخر :

نبهت نُدْمانى فهبّـــوا * بعد المنام لما آستحبّوا

هـــذا أجاب وذا أنا * ب وذا يسير وذاك يحبو

أنشـــدتهم بيتا يعـــلّم ذا الصبابةِ كيف يصبو

«ما العيش إلا أن تُحِبّ وأن يحبّـك من تحبّ»

فتطـــرّبوا والأريحيـــة شأنها طَرَبٌ وشربُ

وقال أبو عُبَادة البحترىّ عفا الله تعالى عنه :

ونديم نبّهتُـــه ودجى الليـ * ـل وضوءُ الصباح يعتلجانِ

قم نبادرْ بها الصيامَ فقد أقـ * ـمر ذاك الهلالُ من شعبانِ

وقال أيضا :

بات نديمًا لِيَ حتى الصباح * أغيدُ مجدولُ مكانِ الوشاح
كأنما يبسم عن لؤلؤ * مُنَضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح
يساقط الوردَ علينا وقد * تبلّج الصبحُ، نسيمُ الرياح
إن لان عِطْفاه قسَا قلبُه * أو ثَبّت الخلخال جال الوشاح (١)
أمزُجُ كأسى بِجَنَى ريقه * وإنما أمزُجُ راحًا براح

ومنهم من كره النديم وآثر الانفراد . قال إبراهيم الموصلىّ عفا الله تعالى عنه ورحمه :

دخلت يوما على الفضل بن يحيى فصادفته يشرب وعنده كلب ، فقلت له : تُنادم كلبا ! قال : نعم ، يمنعنى أذاه ، ويُكُفّ عنّى أذى سواه ، ويشكر قليلى ، ويحفظ مَبيتى ومَقيلى . وأنشد :

وأشرب وحدى من كراهتِى الأذى * مخافةَ شرّ أو سِبَابِ لئيم

انتهى وأستغفر الله العظيم .

ومما قيل فى السُّقاة ، فمن ذلك قول الصنوبرىّ عفا الله عنه :

ومُوَرّد الخدّين يخـ * ـطر حين يخطر فى مورّدْ
يسقيك من جفن اللُّجَيـ * ـن اذا سقاك دموعَ عَسْجَدْ
حتى تظنّ النجم ينـ * ـزلُ أو تظنّ الأرض تصعَدْ
فإذا سقاك بعينه * وبفيه ثم سقاك باليدْ
حيّاك بالياقوت ثم الدُّرّ من تحت الزَّبَرجدْ

(١) هذا البيت ساقط من أبيات هذه القصيدة فى ديوان البحترى .

وقال ديك الجنّ :

ومُزْرٍ بالقضيب اذا تثنّى * ومزهاةٍ على القمـر التمامِ
سـقانى ثم قبّلنى وأومأ * بطرفٍ سُقْمُه يشفى سَقامِى
فبتّ له على الندمان أسقى * مُدامًا فى مُدامٍ فى مدامِ

وقال ٱبن المعتزّ :

(٥٨) تدور علينا الراحُ من كفّ شادنٍ * له لحظُ عينٍ يشتكى السقمَ مُدنَفُ
كأنّ سـلافَ الخمر من ماء خدّه * وعنقودها من شعره الجعدِ يُقطَفُ

وقال أيضا :

بين أقداحهم حديثٌ قصيرٌ * هو سحرٌ وما سـواه الكلامُ
فكأنّ السُّقاةَ بين النـدامَى * ألِفـاتٌ بين السطور قيامُ

وقال أحمد بن أبى فنَن :

بكفّ مُقَرْطَقٍ خَنِثٍ * تطيب بطيبه الرِّيَبُ
تراهـا وهى فى كفّيه * مه من خَدّيه تلتهبُ

وقال الصنوبرىّ :

وساقٍ اذا هم نَدْمانُنـا * بأنْ يُزْجِىَ الكأسَ لم يُزْجِهِ
كلعبة عاج على فرشـه * وليثِ عَرِينٍ على سَرْجِهِ
لطيفِ الممنطق مهـتَّره * ثقيـلِ المؤزَّرِ مرتجّه
سقانى بعينيه أضعافَ ما * سقانى بكفّيه من غُنْجِه

وقال آخر :

ياساقىَ القوم إن دارت إلىَّ فلا * تمزُجْ فإنى بدمعى مازجٌ كامى
و ياقتى الحىّ إن غنّيتَ من طَرَبٍ * فغنِّ : واحَرَبَا مِن قلبه القاسى

وقال ابن المعتز :

وعاقدِ زُنّارٍ على غُصُنِ الآسِ * دقيق المعانى مُخْطَفِ الخصرِ ميّاسِ
سقانى عُقَارًا صَبَّ فيها مِزاجَها * فأضحك عن ثغر الحَباب فَمَ الكاسِ

وقال أيضا :

قام كالغصن فى النقا * يمزُج الشمس بالقمر
وسقانى المدام والليلُ بالصبح مؤتزر
والثريّا كنَوْرِ غصنٍ على الغرب قد نُثِرْ

وقال البحترى :

وفى القهوة أشكالٌ * من الساقى وألوانُ
حَبابٌ مثلُ ما يَضحَـ * ـكُ عنه وهو جذلانُ
ويُسْكِر مثل ما يُسْكـ * ـرُ طَرْفٌ منه وَسْنانُ
وطعمُ الريق إن جاد * به والصبّ هَيمانُ
لنا من كفّه راحٌ * ومن ريّاه ريحانُ

وقال أبو القاسم الهُبيرى الكاتب رحمة الله تعالى عليه :

سقانا الراح ساقٍ، كلُّ راجٍ * سوى ألحاظ عينيه سرابُ
يدير الكأسَ مبتسما علينا * فما ندرى أثغرٌ أم حَبابُ؟
وقد سَفَر الدجى عن ثوب فجر * منير مثل ما سفر النقابُ
نخلتُ الصبح فى أثر الثريا * بشيرًا جاء فى يده كتابُ

وقال أبو الشّيص :

يطوف علينا به أحورٌ * يداه من الكأس مخضوبتانِ
غزالٌ تميل بأعطافه * قناةٌ تعطّف كالخَيْزُران

وقال أبو بكر محمد بن عمّار :

وهَويتــه يســـقى المُدامَ كأنه * قمرٌ يطوف بكوكبٍ فى حِنْدِس
متأرّج الحركات تنـدَى ريحُهُ * كالغصن هزّته الصَّبا بتنفّس
يسعى بكأسٍ فى أنامل سَوْسَنٍ * ويُدير أخرى فى محاجر نَرْجِس

وقال المعوّج يصف ساقية :

لاعيش إلا من كفّ ســاقيةٍ * ذاتِ دلال فى طرفها مَرَضُ
كأنمـا الكأسُ حين تمزُجهـا * نجومُ ليـــلٍ تعـــلو وتنخفضُ

(٥٩) وقال آخر يصف آمرأةً ساقيةً :

وساقيةٍ كأنّ بمَفرِقيهـا * أكاليلًا على طبقاتِ ورد
لها طِيبُ المنى وصفاءُ لونٍ * وحمرةُ وجنـةٍ ومَذاقُ شَهدِ

وقال ديك الجنّ يصف ساقيا وساقيةً :

أفـديكما من حاملَىْ قَـدَحَيْنِ * قمرين فى غصنين فى دِعصَينِ
رُودٌ منعّمةٌ ومهضوم الحشا * للناظرين مُنًى وقُرّة عَينِ
قامت مؤنّثـةً وقام مؤنّثـا * فتناهبا الألحـاظَ بالنظرينِ
صُبًّا علىّ الراحَ إن هلالَنا * قـد صبَّ نعمته على الثّقلين
وإلىّ كأسكما على ماخيّلت * بالتـبر معجوناً بمـاء لُجين

الباب السادس

من القسم الثالث من الفنّ الثانى

فى الغناء والسماع، وما ورد فى ذلك من الحَظْر والإباحة، وما آستدلّ به من رأى ذلك؛ ومن سمع الغناء من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ومن التابعين ومن الأئمة والعبّاد والزّهاد، ومن غنّى من الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقُوّاد والأكابر، وأخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسيّة الى العربيّة، ومن أخذ عنهم، ومن آشتهر بالغناء وأخبار القيان.

ذكر ما ورد فى الغناء من الحَظْر والإباحة

قد تكلم الناس فى الغناء فى التحريم والإباحة وآختلفت أقوالهم وتباعدت مذاهبهم وتباينت آستدلالاتهم؛ فمنهم من رأى كراهته وأنكر آستماعه، وآستدلّ على تحريمه؛ ومنهم من رأى خلافَ ذلك مطلقا وأباحه وصمّم على إباحته؛ ومنهم من فرّق بين أن يكون الغناء مجرّدا أو أضيف اليه آلة كالعود والطنبور وغيرهما من الالات ذوات الأوتار والدفوف والمعازف والقصب، فأباحه على آنفراده وكرهه إذا آنضاف إلى غيره وحرّم سماع الالات مطلقا. ولكل طائفة من أرباب هذه المقالات أدلّة آستدلّت بها. وقد رأينا أن نثبت فى هذا الموضع نبذة من أقوالهم على سبيل الآختصار وحذف النظائر المطوّلة فنقول وبالله التوفيق.

***

أما ما قيل فى تحريم الغناء وما آستدلّ به مَن رأى ذلك، فإنهم آستدلّوا على التحريم بالكتاب والسنّة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة من علماء

المسلمين . أما دليلهم من الكتاب العزيز فقول الله عزّ وجلّ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ . قال ابن عباس : (سَامِدُونَ) هو الغناء بلغة حِمْير ، وقال مجاهد : هو الغناء بقول أهل اليمن ، سَمَد فلان اذا غنّى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى هذه الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ : إنه الغناء ، ومن طريق آخر : إنه الغناء وأشباهه . وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : هو — والذى لا إله إلا هو — الغناء . وعن مجاهد رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قال : صوته الغناء والمزامير . وعنه فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ قال : الغناء .

وأمّا دليلهم من السنّة ، فما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن الله عزّ وجلّ حرّم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع اليها ، ثم قرأت ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ الآية . وروى أبو أُمامة رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ما رفع أحدٌ صوته بغناء إلّا بعث الله عزّ وجلّ اليه شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يُمسك» . وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان إبليس أوّل من ناح وأوّل من تغنّى" . وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله

عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نُهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعمة وصوت عند مصيبة".

وأمّا أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم، فقد روى عن عثمان بن عفّان رضى الله عنه أنه قال: ما تغنّيت قطّ. فتبرّأ من الغناء وتبجّح بتركه. ورُوى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: الغناء يُنبت النفاق فى القلب كما ينبت الماءُ البقلَ. ورُوى أنّ ابن عمر رضى الله عنهما مرّ على قوم محرمين ومعهم قوم ورجل يغنّى فقال: الا لا أسمع والله لكم، ألا لا أسمع والله لكم. ورُوى عن عبد الله ابن دينار قال: مرّ ابن عمر رضى الله عنهما بجارية صغيرة تغنّى، فقال: لو ترك الشيطان أحدًا ترك هذه. وعن إسحاق بن عيسى قال: سألت مالك بن أنس رضى الله عنه عما ترخّص فيه بعض أهل المدينة من الغناء فقال: ما يفعله عندنا إلا الفُسّاق. وقال الشعبىّ: لُعِن المغنّى والمغنّى له. وقال الحكم بن عتيبة: حبُّ السماع ينبت النفاق فى القلب. ورُوى أن رجلا سأل القاسم بن محمد فقال: ما تقول فى الغناء، أحرام هو؟ فأعاد عليه، فقال له فى الثالثة: اذا كان يوم القيامة فأُتى بالحق والباطل أين يكون الغناء؟ قال: مع الباطل. قال القاسم: فأفتِ نفسك. وقال الفُضَيل بن عياض: الغناء رُقْية الزنا. وقال بعضهم: الغناء رائد من رواد الفجور. وقال الضحّاك: الغناء مَفْسَدة للقلب، مَسْخَطة للرب. وقال يزيد ابن الوليد مع اشتهاره بما اشتهر به: يا بنى أُميّة، إيّاكم والغناء، فإنه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر، فإن كنتم لا شكّ فاعلين فجنّبوه النساء، فإن الغناء رقية الزنا. وإنى لأقول ذلك فيه على أنه أحبّ إلىّ من كلّ لذّة، وأشهى الى نفسى من الماء الى ذى الغُلّة الصادى، ولكن الحقّ أحقّ أن يقال.

وأمّا أقوال الأئمة رحمهم الله تعالى فقد قال الإمام الشافعىّ رضى الله عنه فى كتاب أدب القضاة : الغناء لهوٌ مكروه يشبه الباطل . وقال : من استكثر منه فهو سفيه تُرَدّ شهادته . قال القاضى حسين بن محمد : وأمّا سماعُه من المرأة التى ليست بمَحْرم ، فإن أصحاب الشافعىّ قالوا : لا يجوز بحال سواء كانت بارزة أو من وراء حجاب وسواء كانت حرّة أو مملوكة . وقال الشافعىّ : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تُرَدّ شهادته . ثم غلّظ القول فيه وقال : هو دِيَاثَةٌ . قال : وإنما جعل صاحبها سفيها لأنه دعَا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الى باطل كان سفيها فاسقا . وقال مالك بن أنس : اذا اشترى جارية فوجدها مغنّية كان له ردّها بالعيب ، قال : وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده . وكره أبو حنيفة ذلك وجعل سماع الغناء من الذنوب . قال : وذلك مذهب سائر أهل الكوفة وسفيان الثورىّ ، وحمّاد بن سَلَمة ، وإبراهيم النّخعىّ ، والشعبىّ وغيرهم لا خلاف بينهم فى ذلك . قال : ولا يُعْرَف أيضا بين أهل البصرة خلاف فى كراهة ذلك والمنع منه . وقال بعض الزهّاد : والغناء يورث العناد فى قوم ، ويورث التكذيب فى قوم ، ويورث القساوة فى قوم .

وقال بعضهم عن حاله عند السماع :

(٦١) أتذكرُ وقتنا وقد اجتمعنا * على طِيبِ الغناءِ الى الصباحِ
ودارت بيننا كأسُ الأغانى * فأسكرتِ النفوسَ بغير راحِ
فلم ترفيهمُ إلا نشاوَى * سروراً والسرور هناك صاحى
إذا لبّى أخو اللذّاتِ فيه * منادى اللهوِ حىّ على السماحِ
ولم يملك سوى المُهجاتِ شيئا * أرقناها لألحاظٍ مِلاحِ

هـذا ملخص ما ذكروه فى تحريم الغناء . وقـد آستدلّ مَن أباحه بما يناقض ما تقدّم على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى إباحة الغناء .

ذكر ما ورد فى إباحة الغناء والسماع والضرب بالآلة

وقد تكلم الناس فى إباحة الغناء وسماع الأصوات والنغمات والآلات، وهى الدفّ والبراع والقصب والأوتار على آختلافها من العود والطُّنبور وغيره ، وأباحوا ذلك وآستدلّوا عليه وضعّفوا الأحاديث الواردة فى تحريمه، وتكلّموا على رجالها وجرّحوهم وبسطوا فى ذلك المصنّفات ووسّعوا القول وشرحوا الأدلّة . وطالعت من ذلك عدّة تصانيف فى هذا الفنّ مجرّدة له ومضافة الى غيره من العلوم . وكان ممّن تكلّم فى ذلك وجرّد له تصنيفا الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمـد بن طاهر بن على المقدسىّ رحمه الله تعالى، فقال فى ذلك ما نذكر مختصره ومعناه :

آعلم أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة الى الكافّة. قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِـدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِـمُ ٱلْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَالَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِى أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. فبلّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وسنّ وشرع، وأمر ونهى، كما أُمر صلى الله عليه وسلم . فليس لأحدٍ بعده وبعد الخلفاء الراشدين الذين أمر رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم بالآقتداء بهم والآتباع لسنّتهم أن يحرّم ما أحلّ الله عزّ وجلّ ورسوله صلّى الله عليـه وسلّم إلا بدليل ناطق من آية محكمة، أو سنّة ماضية صحيحة ، أو إجماع من الأمة على مقالته .

وأما الآستدلال بالموضوعات والغرائب والأفراد من رواية المكذَّبين والمجرحين الذين لا تقوم بروايتهم حجّة ، وبأقاويل مَنْ فسّر القرآن على حسب مراده ورأيه، فلا يُرْجَع إلى قولهم ولا يُسلك طريقُهم؛ إذ لو جاز ذلك لم يكن قول أحد من الناس أولى من قول غيره ، وإنما يُلْزم بقول من أُيِّد بالوحى والتنزيل ، وعُصم من التغيير والتبديل . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ . فعلمنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر ولم ينهَ عن أمر إلا بوحى من الله تعالى . وكذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا سئل عن أمر لم ينزل فيه وحىٌ توقّف حتى يأتيه الوحى، وليست هذه المنزلة لغيره فيلزم قبول قوله .

ذكر ما آستدلّوا به على إباحة الغناء من الأحاديث النبوية

قد آستدلّوا على إباحة الغناء بأحاديث صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. منها ما رُوى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخل عَلَىَّ أبو بكر رضى الله عنه وعندى جاريتان من جوارى الأنصار تغنّيان بما تقاولتْ به الأنصارُ يوم بُعاثٍ وليستا بمغنيّتين؛ فقال أبو بكر : أمِزْمارُ الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم! وذلك يوم عيد. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا " . ومن طريق آخر عنها رضى الله عنها قالت : دخل عَلَىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنّيان بغناء بُعَاثٍ؛ فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، ودخل أبو بكر فآنتهرنى وقال : مِزْمَارَةُ الشيطان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم ! فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "دعهما". فلما غفَل غمزتُهما فخرجتا، وكان يومُ عيدٍ يلعب فيه السودانُ بالدَّرَق والحِرَاب، فإمّا سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإمّا قال : "تَشْتَهِين تَنْظُرِينَ" فقلت نعم .

فأقامنى وراءه، خدّى على خدّه وهو يقول : "دونكم يابنى أَرْفِدَة"(١) حتى اذا مَلِلت قال . "حسبُكِ؟" فلت نعم . قال : "فاذهبى" . ومن طريق آخر عنها رضى الله عنها: أنّ أبا بكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام مِنًى تُدَفِّفان وتضربان والنبىّ صلى الله عليه وسلم متغشّ بثوبه ؛ فانتهرهما أبو بكر؛ فكشف النبىّ صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : "دعهما يا أبا بكر فإنها أيامُ عيد" . وتلك الأيام أيامُ مِنًى . وقالت عائشة : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم يسترنى وأنا أنظر الى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد فزجرهم عمر، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "دعهم أَمْنًا بنى أَرْفِدَة" (يعنى من الأمن) . قال أبو محمد علىّ بن أحمد بن سعيد ابن حزم رحمه الله عند ذكر هذه الأحاديث : أين يقع إنكار مَنْ أنكر مِنْ إنكار سَيِّدَىْ هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم : أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ! وقد أنكر عليه الصلاة والسلام عليهما إنكارهما ، فرجعا عن رأيهما إلى قوله صلى الله عليه وسلم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت جاريةٌ من الأنصار فى حِجْرِى فزَفَفتُها ؛ فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمع غناء ، فقال : "ياعائشة ألَا تبعثين معها مَنْ يُغَنّى فإن هذا الحىّ من الأنصار يحبّون الغناء" . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : نكح بعضُ الأنصار بعضَ أهل عائشة فأهدتها إلى قُبَاءَ؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أهديتِ عروسَكِ" ؟ قالت نعم . قال : "فأرسلتِ معها بغناء فإن الأنصار يُحبّونه" ؟ قالت لا . قال: "فادركيها يازينب" (امرأة كانت تغنّى بالمدينة) رواه أبو الزبير محمد بن الزبير بن مسلم المكىّ عن جابر . وعنه أيضا قال : أنكحَتْ عائشةُ رضى الله عنها ذاتَ قرابة لها رجلا من الأنصار ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أهديتُم الفتاةَ" ؟

(١) بنو أرفدة : جنس من الحبشة يرقصون .

قالوا نعم. قال: "أرسلتم معها"؟ . — قال أبو طلحة راوى الحديث : ذهب عنى — فقالت لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأنصار قوم فيهـم غَزَلٌ فلو بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم * فحيّانا وحيّاكم"(١)

ورُوى عن فَضَالة بن عُبَيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَلَّهُ أَشَدُّ أَذَنًا إلى الرجل الحَسَن الصوت بالقرآن يَجْهَر به من صاحب القَيْنة الى قَيْنته" . قال أبو عبـد الله الحاكم فى كتابه المستدرك : هـذا حديث صحيح على شرط البخارى ومسلم، ولم يخرجاه، وقد خرّجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينىّ فى سننه . قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ رحمه الله تعالى : ووجه الاحتجاج من هذا الحديث هو أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أثبت أن الله تعالى يستمع الى حَسَنِ الصوت بالقرآن كما يستمع صاحب القَيْنة الى قَيْنته، فأثبت دليل السماع إذ لا يجوز أن يقيس على استماع(٢) محرّم . قال : ولهذا الحديث أصـل فى الصحيحين أخرجاه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صـلى الله عليه وسلم قال : " ما أَذِنَ اللهُ لشىء ما أَذِنَ(٣) لنبىّ يتغنّى بالقرآن" . هذا ما ورد فى السماع .

* * *

وأمّا ما ورد فى الضرب بالآلة، فمن ذلك ما ورد فى الدُّفّ . رُوى عن محمد ابن حاطب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فصل ما بين الحلال والحرام

(١) الذى فى العقد الفريد : "فحيونا نحييكم" وترجمه القافية إذ روى البيت الثانى :

ولولا الحبة السمرا * لم نحلل بواديكم

(٢) فى الأصل هكذا : «الاستماع محرّم» وهو إما محرف عن «استماع محرم» أو «الاستماع المحرم» بتعريفهما معا أو تنكيرهما معا .

(٣) فى نهاية ابن الأثير : « ما أذن الله لشىء كأذنه لنبىّ يتغنى بالقـرآن . أى ما استمع الله لشىء كاستماعه لنبىّ يتغنى بالقرآن، أى تلوه : يجهر به » .

الدُّفّ والصوت فى النكاح" . قال الحافظ أبو الفضل رحمه الله تعالى : هذا حديث صحيح ألزم أبو الحسن الدارقطنىّ مسلماً إخراجه فى الصحيح، وقال : قد روى عنه (يعنى محمد بن حاطب) أبو مالك الأشجعىّ وسِمَاك بن حرب وآبن عون ويوسف بن سعد وغيرهم . قال : وأخرج هذا الحديث أبو عبد الرحمن النسائىّ وأبو عبد الله آبن ماجه فى سُنَنِهما . وروى الحافظ أبو الفضل بسند رفعه إلى جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت دفّ فقال : "ماهذا" ؟ فقيل : فلان تزوج . فقال : "هذا نكاح ليس بالسِّفاح" . وقد ضعّف أبو الفضل إسناد هذا الحديث، وقال : إنما أخرجته على ضعف إسناده لأنه شاهد الحديث الصحيح المتقدّم . وروى أبو الفضل أيضا بسنده إلى خالد بن ذَكْوان عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل علىّ صبيحة (١) بُنِىَ علَىَّ، فجلس على فراشى كمجلسك منِّى، فجعلتْ جُوَيْرِياتٌ يَضرِبْنَ بدُفّ لهنّ ويندُبْن مَن قُتِل من آبائى يوم بدر إلى أن قالت إحداهن : وفينا نبىٌّ يعلم ما فى غد، فقال : "دَعِى (٢) هذا وقولى الذى كنتِ تقولين قبله" . وهذا حديث صحيح أخرجه البخارىّ قال : وقد رواه حمّاد بن سلمة عن خالد بن ذكوان أتمّ من هذا، قال : كنّا بالمدينة يوم عاشوراء وكان الجوارى يضربن بالدُّفّ ويغنّين، فدخلنا على الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ، فذكرنا لها ذلك، فقالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحةَ عُرْسى وعندى جاريتان تُغَنّيان وتندُبان آبائى الذين قُتلوا يوم بدر، وتقولان فيما تقولان : وفينا نبىٌّ يعلم ما فى غد، فقال : "أمّا هذا فلا تقولوه لا يعلم ما فى غدٍ إلا اللهُ عزّ وجلّ". وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سافر سفرا، فنَذَرت

(١) الذى فى البخارى : «فدخل حين بنى على» .

(٢) الذى فى البخارى : «دعى هذه وقولى بالذى كنت تقولين» .

جارية من قريش لئن ردّه الله تعالى أن تضرب فى بيت عائشة بُدُف . فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت الجارية فقالت عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : فلانة آبنة فلان نذرت لئن ردّك الله تعالى أن تضرب فى بيتى بُدُف؛ قال: "فَلْتضرِب" . قال أبو الفضل : وهذا إسناد مُتّصل ورجاله ثِقات، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا نذر فى معصية الله" . فلو كان ضربُ الدف معصيةً لأمر بالتكفير عن نذرها أو مَنَعَها من فعله . وروى عن الشعبىّ قال : مرّ عياض الأشعرىّ فى يومِ عيد فقال : مالى لا أراهم يُفَلِّسون فإنه من السُّنّة ! . والتفليس : الضرب بالدفّ . قاله هُشَيم .

* * *

وأمّا ماورد فى اليَرَاع، فقد آحتجّ بعضهم بحديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وهو ما خرّجه أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتانى فى سُنَنه قال : حدّثنا أحمد بن عبد الله الغُدَانىّ، حدّثنا مسلم، حدّثنا سَعِيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى عن نافع، قال : سمع آبن عمر رضى الله عنهما مزماراً، فوضع إصبعيه على أذنيه ونأى عن الطريق، وقال لى : يا نافع، هل تسمع شيئا ؟ قلت لا . قال : فرفع إصبعيه من أذنيه وقال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع مثل هذا فصنع مثلَ هـذا . قال أبو عبد الله اللؤلؤىّ : سمعت أبا داود يقول : هـذا الحديث منكر . وقال الحافظ محمد بن طاهر : هذا حديث خرّجه أبو داود فى سُنَنه هكذا وقد أنكره . وقد ورد من غير هذا الطريق أن آبن عمر رضى الله عنهما سمع راعيا وذكره . وفساد هـذا الحديث من وجهين : أحدهما فساد طريق الإسناد؛ فإن سليمان هذا هو الأشدق الدمشقىّ تكلم فيه أهل النقل وتفرّد بهذا الحديث عن نافع ولم يَروِه عنه غيرُه . وقال البخارىّ : سليمانُ بن موسى عنده مناكيرُ . والثانى

قول عبد الله بن عمر لنافع رضى الله عنهم : أتسمع؟ ولو كان ذلك منهيًّا عنه لم يأمره بالاستماع . وقوله : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع مثل هذا فصنع مثل هذا . ولو كان حرامًا لنهاه عنه وصرح بتحريمه ؛ لأنه الشارع المأمور بالبيان . قالت عائشة رضى الله عنها : عَلَّقتُ على سَهْوةٍ[1] لى سِتْرًا فيه تصاوير ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تَلَوَّن وجهه وهَتكه . وسمع النبىُّ صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحلف بآبائه فنهاه عن ذلك . ورأى يزيدَ بنَ طَخْفة مضطجعا على بطنه فنهاه وقال : "هذه ضِجْعة يُبْغِضُها الله عزّ وجلّ" . وسمع صلى الله عليه وسلم رجلا يلعن ناقته ، فوقف فقال : "لا يَتْبَعُنا ملعون" ، فنزل عنها وأرسلها . قال الحافظ المقدسىّ : وتأخيرُ البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال ، فثبت فساد هذا الحديث إسنادا ومتنا .

* * *

وأمّا ما ورد فى القصب والأوتار . ويقال له التغبير ، ويقال له القطقطة أيضا . ولا فرق بينه وبين الأوتار ؛ إذ لم يوجد فى إباحته وتحريمه أثر لا صحيح[2] ولا سقيم ؛ وإنما استباح المتقدّمون استماعه لأنه مما لم يرد الشرع بتحريمه ، وكان أصله الإباحة .

وأمّا الأوتار ، فالقولُ فيها القولُ فى القصب ، لم يرد الشرع بتحليلها ولا تحريمها . قال : وكل ما أوردوه فى التحريم فغير ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا خلاف بين أهل المدينة فى إباحة سماعه . ومن الدليل على إباحته أن إبراهيم بن

(١) السهوة : سترة تكون قدام فناء البيت ربما أحاطت بالبيت شبه سور حول البيت . وقيل هو شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشىء . (عن لسان العرب) .

(٢) فى الأصل : « لا صحيحا ولا سقيا » .

سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مع جلالته وفقهه وثقته كان يُفتى بحِلّه ، وقد ضرب بالعود - وسنذكر خبره فى ذلك بعد هذا إن شاء الله تعالى - ولم تسقط عدالته بفعله عنـد أهل العلم ، فكيف تسقط عدالة المستمع ! وكان يبالغ فى هـذا الأمر أتمّ مبالغة . وقد أجمعت الأئمة على عدالته واتفق البخارىّ ومسلم على إخراج حديثه فى الصحيح ؛ وقد عُلِمَ من مذهبه إباحةُ سماع الأوتار . والأئمة الذين رووا عنه أهلُ الحلّ والعقد فى الآفاق إنما سمعوا منه ورووا عنه بعـد استماعهم غناءه وعلمِهم أنه يُبيحه ، ومنهم الإمام أحمـد بن حنبل ، سمع منه ببغداد بعـد حلفه أنه لا يحدّث حديثا إلا بعـد أن يُغنّى على عود ، وذلك أنه لا شك سمع غناءه ثم سمع حديثه . قال : وهـذا أمر لم يرد عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى تحليله ولا تحريمه نصّ يُرجع إليه ، فكان حكمه لحكم الإباحة . وإنما تركه مَن تركه من المتقدّمين تورّعا كما تركوا لُبْسَ اللين وأكلَ الطيّب وشربَ البارد والاجتماع بالنسوان الحسان ؛ ومعلوم أن هذا كلّه حلالٌ . وقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلَ الضبّ وسئل عنـه أحرام هو ؟ قال : " لا ولكن لم يكن بأرض قومى فأجـدنى أعافه " وأُكِلَ على مائدته صـلى الله عليه وسـلم . وقـد رُوى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال : إذا رأيتَ أهلَ المدينة اجتمعوا على شىء فاعلم أنه سنّة . وقد رُوى عن محمـد بن سِيرِين رحمه الله أنّ رجلا قدِم المدينـة بجَوَارٍ ، فنزل على ابن عمـر وفيهنّ جارية تضرب ، فجاء رجل فساومه فلم يهوَ منهنّ شيئا . فقال : انطلق إلى رجل هو أمثل لك بيعا من هـذا ، فأتى إلى عبد الله بن جعفر فعرضهنّ عليه ، فأمر جارية قال : خذى ، فأخذت العود حتى ظنّ ابن عمر أنه قد نظر الى ذلك ، فقال ابن عمر : حسبك سائر اليوم من مزمور الشيطان ، قال : فبايعه . ثم جاء الرجل إلى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى غُبنت بسبعمائة درهم . فأتى

ابن عمر إلى ابن جعفر فقال : إنه قد غُبن بسبعمائة درهم ، فإما أن تُعطيها إياه و إمّا أن ترد عليه بيعه ؛ فقال : بل نعطيها إياه . وهذه الحكاية ذكرها أبو محمد بن حَزْم واستدلّ بها على إباحته فقال : فهذا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما قد سمعا الغناء بالعود ، و إن كان ابن عمر كره ما ليس من الحدّ فلم ينْهَ عنه ، وقد سفر[1] فى بيع مغنّية كما ترى ، ولو كان حراما ما استجاز ذلك أصلا .

* * *

وأما ما ورد فى المزامير والملاهى ، قال الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ : وأما القول فى المزامير والملاهى ، فقد وردت الأحاديث الصحيحة بجواز استماعها . فمن ذلك ما رواه بسند رفعه إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ماهممتُ بشىء مما كان أهل الجاهليّة يفعلونه غير مرّتين كلّ ذلك يحول الله عز وجلّ بينى و بين ما أريده من ذلك ثم ما هممتُ بعدها بشىء حتى أكرمنى الله برسالته فإنى قلت لغلام من قريش ليلةً وكان يرعى معى فى أعلى مكة لو أنك أبصرت غنمى حتى أدخل مكة فأَسْمُر بها كما يَسْمُر الشباب قال أفعل . فخرجت أريد ذلك حتى جئت أول دار من ديار مكة سمعت عَزْفاً بالدفوف والمزامير فقلت ما هذا فقالوا فلان تزوج فلانة بنت فلان فجلست أنظر إليهم فضرب الله عز وجلّ على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مسّ الشمس فرجعت إلى صاحبى فقال ماذا فعلت قلت ما صنعت شيئا ثم خبّرته الخبر [فقال][2] ثم قلت له ليلة أخرى مثل

(١) سفر : سعى وتوسط ، ومنه السفير وهو الرسول المصلح بين القوم . وفى باب البيوع من كتاب المحلى لابن حزم : وسعى فى بيع مغنية .

(٢) هذه الكلمة وردت هكذا بالأصل ، وسياق الكلام لا يقتضيها .

ذلك فقـال أفعل فخـرجت حتى دخلت مكة فسمعت حين دخلت مكة مثـل ما سمعت تلك الليـلة فسألت عنـه فقالوا فلان نكح فلانة فجلست أنظـر فضرب الله على أذنى فمـا أيقظنى إلا مسّ الشمس فخرجت إلى صاحبى فأخبرته الخـبر ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله تعـالى برسالته " . قال الحافظ أبو الفضـل : وكان هـذا قبل النبوّة والرسالة ونزول الأحكام والفرق بين الحـلال والحرام؛ فإن الشرع لمّـا ورد أمره الله تعالى بالإبلاغ والإنذار فأقرّه على ما كان عليه فى الجاهلية ولم يحرّمه كما حرّم غيره . قال: والدليل على أنه باقٍ على الإباحة قول الله عز وجلّ: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ . ثم بيّن الدليل على ذلك بما رواه بسنده إلى جابر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب قائمـا، ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائمـا، يخطب خطبتين . فكانت الجوارى إذا أنكحوهنّ يمرّون فيضربون بالدفّ والمزامير فيتسـلّل[1] الناسُ و يَدَعُونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمـا، فعاتبهم الله عز وجل بقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾. وقال : هذا حديث صحيح أخرجه مسلم فى كتابه عن عبد الله بن حُمَيد عن خالد بن مَخْلَد عن سليمان بن بلال . والله عز وجلّ عطف اللهوَ على التجارة وحُكْمُ المعطوف حُكْمُ ماعطف عليه ، والإجماع على تحليل التجارة، فثبت أن هـذا الحكم مما أقرّه الشرع على ما كان عليـه فى الجاهليّة لأنه غير محتمَل أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّمه، ثم يُمرّ به على باب المسجد يوم الجمعة ثم يعاتب الله عزوجلّ مَن ترك رسوله صلى الله عليه وسلم قائما ثم خرج ينظر إليه ويستمع . ولم ينزل فى تحريمه آية ولا سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سنّة، فعلمنا بذلك بقاءه على حاله .

(١) أى ينطلقون فى استخفاء .

قال: ويزيد ذلك بيانا ووضوحا حديث عائشة رضى الله عنها فى المرأة التى زفتها وقد تقدم ذكر الحديث . وروى أيضا بسند رفعه عن زوج دُرَّة بنت أبى لَهَب قال : دخل علىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تزوجتُ درّةَ فقال : "هل من لهو".

ذكر ما ورد فى توهين ما استدلّوا به على تحريم الغناء والسماع

(٦٥) قد ذكر الحافظ أبو الفضل المقدسىّ رحمه الله تعالى الأحاديث التى استدلوا بها على تحريمه وفسّروا بها الآيات والأحاديث التى استدلّوا بها على تحريمه مما قدمنا ذكر ذلك فى حججهم ومما لم نذكره مما يُستدلّ به على تحريمه وكراهته وضعف رجالها . وتكلم الإمام أبو حامد الغزالىّ رحمه الله أيضا فى ذلك ووهّن احتجاجهم إذا ثبت الحديث على ما نذكر ذلك .

قال الحافظ أبو الفضل :

أمّا ما احتجّوا به من الآيات فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الآية . وما أوردوه فى ذلك من الأسانيد إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم ، فنظرت فى جميعها فلم أر فيها طريقا يثبت إلا واحدا منها رواه يوسف بن موسى القطّان عن جرير بن عبد الحميد عن عَطاء بن السائب عن سَعيد بن جُبَير عن ابن عباس رضى الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال : الغناء وأشباهُه . وسائرها لا يخلو من رواية ضعيف لا تقوم بروايته حجّة .

قال : ورأيت فى بعضها رواية عطيّة العَوْفىّ عن ابن عباس من حديث غير ثابت أصلا ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال : باطل الحديث وهو الغناء

ونحوه ؛ وهو أن رجلا من قريش اشترى جارية مغنّية فنزلت فيـه . قال : وهذا وإن لم يصحّ عنـدى الاحتجاج بسـندهم فيَلْزمهم قَبُولُه لأنهم احتجّوا به فيكون فى حقّ هذا الرجل بعينه .

وقد ورد فى الآية تفسير ثالث يلزمهم قبوله على أصلهم، وذكر حديثا رفعه إلى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله عز وجلّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ "اللعب والباطل وتَشِحّ نفسه أن يتصدّق بدرهم" . قال : وهـذا أيضا غير ثابت عندى وإنمـا أوردت هذين التفسيرين مناقضةً لمـا أوردوه فيما تمسّكوا به .

قال : ولن أركن إلى هذا أبدا ولا أقنع به ولا أحتجّ عليه ولا أُلزمهم إياه، بل أقول صحّ عن عبد الله بن عبـاس رضى الله عنهما إجماع أهل السنّة على أن السنّة تقضى على الكتاب، وأن الكتاب لا يقضى على السنة، وقد جاءت السنّة الصحيحة : أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم استمع للغناء وأمر باستماعه ، وقد أوردنا فى ذلك من الأحاديث ماتقدّم إيراده . قال : وجواب ثانٍ يقال لهؤلاء القوم المحتجين بهذه التفاسير : هل علم هؤلاء الصحابة الذين أوردتم أقاويلهم من هـذه الآية ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم يعلمه؟ فإن قالوا : لم يعلمه وعلمه هؤلاء، كان جهلا عظيما بل كفرا . وإن قالوا : علمه، قلنا : نُقِلَ إلينا عنه فى تفسير هذه الآية مثلُ ما نُقِلَ عن هؤلاء من الصحابة ، وتأخيرُ البيـان عن وقت الحـاجة لا يجوز بحال . ومن المحال أن يكون تفسـير قوله عز وجلّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ هو الغناء، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أما كان معكنّ لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهوُ» .

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : ثلاثة ليس لها أصل : المَغازى ، والملاحم ، والتفسير .

وقال أبو حاتم محمد بن حسان فى كتاب الضعفاء : الله عز وجلّ يؤتى رسوله صلى الله عليه وسلم تفسير كلامه وتأويل ما أنزل عليه حيث قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٥ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

ومن المحال المحال أن يأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يبيّن لخلقه مراده حيث جعله موضع الإبانة عن كلامه ومفسّرا لهم حتى يفهموا مراد الله عز وجلّ فلا يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل أبان مراد الله عز وجلّ من الآى وفسّر لأمّته ، ما تهمّ الحاجة إليه ، وبيّن سنّته صلى الله عليه وسلم . فمن تَتَبَّع السنن ١٠ وحفظها وأحكمها فقد عرف تفسير كتاب الله عز وجلّ وأغناه الله تعالى عن الكلبىّ وذويه ، وما لم يُبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمّته فى معانى الاى التى أنزلت عليه مع أمر الله عز وجلّ له بذلك وجاز ذلك كان لمن بعده من أمّته أجوز ، وترك التفسير لما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرى .

قال : ومن أعظم الدلائل على أن الله تعالى لم يرد بقوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ ١٥ إِلَيْهِمْ ﴾ القرآن كله أن النبىّ صلى الله عليه وسلم نزل عليه من الكتاب متشابه من الآى . فالآيات التى ليس فيها أحكام لم يبين كيفيتها لأمته . فلما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم دلّ ذلك على أن المراد من قوله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ كان بعض القرآن لا الكلّ .

وقال الإمام أبو حامد الغزالىّ رحمه الله فى هذه الآية : وأمّا شراء لهو الحديث ٢٠ بالدين آستبدالا به ليضلّ به عن سبيل الله فهو حرام مذموم ، وليس النزاع فيه .

وليس كل غناء بدلا عن الدِّين مشترى به ومضلاًّ عن سبيل الله وهو المراد فى الآية، ولو قرأ القرآن : ليضل به عن سبيل الله لكان حراما .

حكى عن بعض المنافقين : أنه كان يؤمّ الناس ولا يقرأ إلا سورة " عَبَسَ " لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهمّ عمر بقتله .[و رأى فعله حراما لما فيه من الإضلال(١)] فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم .

وقال الثعلبىّ فى أحد أقواله عن تفسير هذه الآية عن الكلبىّ ومُقاتِل : نزلت فى النَّضْر بن الحارث بن عَلْقمة بن كَلَدَة بن عبد الدار بن قُصَىّ؛ كان يتّجر فيخرج إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها ويُحدِّث بها قريشا ويقول : إن محمدًا يحدّثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدّثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن .

واحتجوا بقوله تعالى : ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ قال ابن عباس : هو الغناء بلغة حمير، يعنى — السمود — قال الغزالىّ رحمه الله : فنقول ينبغى أن يَحْرُم الضحك وعدم البكاء أيضا ، لأن الآية تشتمل عليه، فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم فى معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وأراد به شعراء الكفّار ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر فى نفسه .

واحتجّوا بقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ . قال الثعلبىّ : قال الحسن، عن المعاصى . وقال ابن عباس : الحَلِف الكاذب . وقال مُقاتِل :

(١) الزيادة عن كتاب الإحياء للغزالى .

الشتم والأذى . وقال غيرهم : مالا يحلّ من القول والفعل . قال : وقيل اللغو الذى لا فائدة فيه .

واحتجّوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ . قال الثعلبىّ : أى القبيح من القول . وبقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . قال مقاتل : إذا سمعوا من الكفّار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا ، وبقوله : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ . قال ابن عباس ومُجاهد وقَتَادَة : بدعائك إلى معصية الله تعالى . وكلّ داع إلى معصية الله تعالى فهو من جنود إبليس .

وأما ما احتجّوا به من الحديث فإنهم احتجّوا بحديث رُوى عن أبى أُمامة الباهلىّ رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحلّ بيع المغنّيات ولا شراؤهنّ ولا تحلّ التجارة فيهنّ وأثمانهنّ حرام والاستماع إليهنّ حرام » . قال الحافظ أبو الفضل المقدسىّ رحمه الله : هذا حديث رواه عُبَيد الله بن زَحْر عن علىّ ابن يزيد عن القاسم عن أبى أُمامة ، قال : والصحابة كلهم عدول . وأما عُبَيد الله ابن زَحْر وعلىّ والقاسم فهم فى الرواية سواء لا يُحتجّ بحديث واحد منهم إذا انفرد بالرواية عن ثقة فكيف إذا روى عن مثله . أما عُبَيد الله بن زَحْر فيقال : إنه من أهل مصر . قال أبو مُسْهِر الغسّانى : عُبَيد الله بن زَحْر صاحب كلّ معضلة ليس على حديثه اعتماد . وقال عثمان بن سعيد الدارمىّ : قلت ليَحيَى بن مَعين : عبيد الله ابن زحر كيف حديثه؟ قال : كل حديثه ضعيف ، قلت : عن على بن يزيد وغيره؟ قال نعم . وقال عباس الدُّورِىّ عن يحيى : عبيد الله بن زحر ليس بشىء . وقال أبو حاتم فى كتاب الضعفاء والمتروكين : عبيد الله بن زحر مُنكَر الحديث جدّا ، روى الموضوعات عن الثّقات و إذا روى عن علىّ بن يزيد أتى بالظلمات ، و إذا اجتمع

فى إسنادِ عُبَيدُ الله بن زَحْر وعلىّ بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن لا يكون متنُ ذلك الحديث إلا ممّا عملت أيديهم فلا يحلّ الاحتجاج بهذه الصحيفة .

قال المقدسىّ : وهذا الحديث قد اجتمعوا فى إسناده، قال : وأما علىّ بن يزيد فهو من أهل دمشق يكنى بأبى عبـد الملك روى عن القاسم قال النّسائىّ فى كتاب الضعفاء : علىّ بن يزيد متروك الحديث. وقال أبو عبد الرحمن بن حيّان: علىّ بن يزيد مطروح منكر الحديث جدّا . وأما القاسم بن عبـد الرحمن ويكنى بأبى عبد الرحمن فقال يحيى بن مَعين : القاسم بن عبد الرحمن لا يُسْوَى شيئا . وقال أحمد بن حنبل، وذكر القاسم مولى يزيد بن معاوية فقال : منكر الحديث . وقال أبو حاتم بن حِبّان : القاسم يروى عنه أهل الشام، كان يروى عن الصحابة المعضلات ويأتى عن الثقات بالأسانيد المقلوبات، حتى كان يَسْبِق إلى القلب أنه المتعمِدُ لها .

قال المقدسىّ : فهذا شرح أحوال رواة الحديث الذى احتجّوا به فى التحريم، هل تجوز روايته كما ذكره الأئمةُ حتى يستدلّ به فى التحليل والتحريم .

واحتجّوا بمـا روى عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال : «أمرنى ربى عز وجلّ بنفى الطنبور والمزمار» وهو حديث رواه إبراهيم بن اليَسَع بن الأشعث المكىّ وإسماعيل بن هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها . وإبراهيم هذا — قال البخارىّ — : منكر الحديث. وقال النسائىّ : المكىّ ضعيف .

واحتجّوا بما رُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب الدُّفّ ولعب الصَّنْج وصـوت الزمّارة، وهو حديث رواه عبد الله بن ميمون عن مَطَر بن سالم عن علىّ قال : وعبـد الله هو القـدّاح ذاهب الحديث، ومطر هذا شبه المجهول .

واحتجّوا بما رُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : نهانى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغنّيات والنوّاحات وعن شرائهنّ وبيعهنّ والتجارة فيهنّ وقال : "كسبهنّ حرام" . قال : وهذا حديث رواه علىّ بن يزيد الصُّدَائىّ عن الحارث بن نَبْهان عن أبى إسحاق السَّبِيعىّ عن الحارث عن علىّ رضى الله عنه قال : والحارث بن نَبْهان ليس بشىء ولا يُكتبُ حديثه قاله يحيى بن مَعين . وقال البخارىّ : الحارث منكر الحديث . وقال أحمد بن حنبل : الحارث رجل صالح ولم يكن يَعرِفُ الحديثَ ولا يحفظ ، منكر الحديث . وقال النسائىّ : الحارث بن نَبْهان متروك الحديث . لم يروه عن أبى إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبيعى وغيره ولا رواه عنه غير علىّ بن يزيد الصُّدائىّ . وعلى هذا قال أحمد بن عدىّ : أحاديثه لا تشبه أحاديثَ الثقات . والحارث الذى روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه هو الحارث بن عبد الله أبو زهير الخارفى[1] الأعور ، أجمع أهل النقل على كذبه ، والحمل فى هذا الحديث على (٦٧) الحارث بن نبهان و إن كان فى الإسناد من الضعفاء غيره .

واحتجّوا بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة صَوتُ مِزمارٍ عند نعمة وصَوتُ نُدبةٍ[2] عند مصيبة" وهذا حديث رواه محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ومحمد بن زياد هذا هو الطحّان اليَشْكُرِىّ . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سألت أبى عنه فقال : أعورُ كذّاب خبيث يضع الحديث . وقال يحيى بن معين :

---

(١) كذا فى أنساب السمعانى وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى . والخارفى بكسر الراء وبعدها فاء : نسبة الى خارف بطن من همدان . وفى الأصل : «الخارجى» وهو خطأ .

(٢) فى الجامع الصغير : « رنة » .

أجمع الناس على طرح هؤلاء النفر لا يعتدّ بهم، منهم محمد بن زياد . وكان أبو يوسف الصَّيْدلانىّ يقول : قدم محمد بن زياد الرَّقَّةَ بعد موت ميمون بن مهران .

واحتجّوا بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر خسفا ومسخا وقذفا يكون فى هذه الأمة، قالوا : يارسول الله إنهم يقولون : لا إله إلا الله، قال : " نعم إذا أُظْهِروا الرَّدَ والمعازِفَ وشربَ الخمور ولبس الحرير" قال : وهذا حديث رواه عثمان بن مَطَر عن عبد الغفور عن عبد العزيز بن سَعِيد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وعثمان هو الشيبانىّ من أهل البصرة وكان ضريرًا . قال يحيى بن معين : ليس بشىء . وقال البخارىّ : متروك الحديث .

واحتجّوا بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بعثنى ربى عز وجلّ بمحق المزامير والمعازف والأوثان التى كانت تُعبَدُ فى الجاهلية والخمر وأقسم ربى عز وجلّ بعزّته ألا يشربها عبد فى الدنيا" الحديث . قال : وهذا حديث رواه محمد بن الفُرات عن أبى إسحاق السَّبِيعىّ عن الحارث الأعور عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، ومحمد بن الفُرات هذا من أهل الكوفة . قال أبو بكر بن أبى شَيْبة : هذا شيخ كذّاب . وقال يحيى بن معين : ليس بشىء . وقال النسائىّ : متروك . وقد تقدّم ذكر السبيعىّ والحارث الأعور، ومضى الكلام عليه .

واحتجّوا بما رُوى عن أبى هريرة رضى الله عنه مسندا : " إن الغِناءَ يُنْبِتُ النفاقَ فى القلب" وهو حديث عبد الرحمن بن عبد الله العُمَرىّ ابن أخى عُبَيد الله ابن عمر عن أبيه عن سَعِيد بن أبى سَعِيد المَقْبُرِىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وعبد الرحمن هذا قال أحمد بن حنبل : ليس يَسْوَى حديثه شيئا،

سمعت منه ثم تركناه وكان وَلِيَ قضاء المدينة ، أحاديثه مناكير وكان كذّاباً . قال النسائيّ : وهو متروك الحديث .

واحتجّوا بما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَن استمع إلى قِيَانٍ صُبَّ فى أذنيه الآنُك[1] " وهو حديث رواه أبو نُعَيم الحلبيّ عن عبد الله بن المنذر عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك . وأبو نعيم اسمه عُبَيد بن هشام[2] من أهل حلب ضعيف ولم يبلغ[3] عن ابن المبارك . مرسل .

واحتجّوا بما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لعن الله النائحةَ والمُسْتَمِعةَ والمغنّى والمغنَّى له " وهو حديث رواه عمرو بن يزيد المدائنيّ عن الحسن البصريّ عن أبى هريرة ، وعمرو هذا قال أبو أحمد[4] بن عديّ : منكر الحديث ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة شيئا . وقال ابن عديّ : هذا الحديث غير محفوظ .

واحتجّوا بما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "النظرُ إلى المغنّية حرام وغناؤها حرام وثمنها حرام" وهو حديث يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل النوفليّ المدنى[5] عن يزيد بن خُصَيفة عن السائب بن يزيد عن عمر بن الخطاب رضى

---

(١) الآنك : الرصاص ، ولم يجئ على أفعل مفردا غير هذا .

(٢) كذا فى تهذيب التهذيب وتقريب التهذيب وتذهيب التهذيب . وفى الأصل : «عبيد بن محمد» .

(٣) فى تهذيب التهذيب : أن أبا نعيم حدث عن ابن المبارك عن مالك بن أنس أحاديث لا يتابع عليها ثم قال بعد أن أورد الحديث المروى عنه بالأصل : قال الدارقطنى : تفرد به أبو نعيم ولا يثبت هذا عن مالك ولا عن ابن المنكدر .

(٤) هو أبو أحمد عبد الله بن عديّ بن عبد الله بن محمد المعروف بابن عديّ الجرجانيّ الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ هـ مؤلف كتاب « الكامل فى معرفة ضعفاء المحدّثين وعلل الحديث » فى ستين جزءا وهو أكمل كتب الجرح والتعديل وعليه اعتماد الأئمة . ويوجد منه أجزاء محفوظة بدار الكتب المصرية .

(٥) كذا فى تهذيب التهذيب لابن حجر . وفى الأصل : «المدينى» .

الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويزيد الأوّل قال النسائىّ : متروك الحديث . وقال أحمـد بن حنبل : عنده مناكير . وقال يحيى بن معين : يزيد بن عبد الملك ليس بذاك .

واحتجّوا بما رُوى عن علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إذا عملت أمتى خمسَ عشرةَ خَصـلة حلّ فيها البـلاء " وذكرها وقال فى جملتها : "واتخذت القيانَ والمعازفَ"، وهو حديث رواه فرج بن فَضالة الشيبانىّ من أهل حِمْص عن يحيى بن سعيد الأنصارىّ عن محمد بن علىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه . قال عبد الرحمن بن مهدى : أحاديث الفرج عن يحيى بن سعيد منكرة . وقال يحيى بن معـين : فرج ضعيف . وقال أبو حاتم[1] بن حَبّان : فرج بن فَضالة كان يَقلِبُ الأحاديث الصحيحة ويلصق المتونَ الواهيةَ بالأسانيد الصحيحة، لا يحلّ الاحتجاج به .

واحتجّوا بحديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عبد الرحمن فذكر حديثا قال فيه : "نُهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين صوتٍ عند مصيبة وصوتٍ عنـد نعمة لعب ولهو ومزامير الشيطان" وهذا حديث رواه محمد ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عطاء عن جابر، وأنكر عليـه هذا الحديث وضُعِّف لأجله . قال أبو حاتم[1] بن حَبّان : كان ردىء الحفظ كثير الوهم فاحش الخطأ يروى الشىء على وجه الوهم ويستحق الترك . وتركه أحمـد بن حنبـل ويحيى ابن معين .

(١) هو أبو حاتم محمـد بن حبان مؤلف كتاب الضعفاء والمتروكين وقد مرّ ذكره فى ص ١٧٦ و ١٧٨ من هذا الجزء .

واحتجّوا بأنه صلى الله عليه وسلم سمع صوتا فقال: "انظروا مَن هذا" فنظرتُ فإذا معاوية وعمرو يتغنّيان . الحديث ، وفيه : " اللهمّ اركُسْهما فى الفتنة رَكْسا " وهو حديث رواه يزيد بن أبى زياد(١) عن سليمان عن عمرو بن الأحوص عن أبى بَرْزة (٦٨) الأسلمى . ويزيدُ هذا من أهل الكوفة ، وكان الكَذَبة يلقّنونه على وَفْق اعتقادهم فيتلقّاها ويُحَدِّثُ بها ضَعَفَةَ أهل النقل ، وقد رُوى هـذا الحديث من طريق آخر ليس فيه معاوية هذا، وأنه ابن التابوت(٢) .

قال المقدسىّ : ولم يصحّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر أحداً من أصحابه إلّا بخـير .

واحتجّوا بمـا رُوى عن أبى سَعِيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه رفع الحديث، أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : « يكون فى آخر هذه الأمة خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ فى مُتَخذِى القِيانِ وشاربى الخمور ولابسى الحرير» وهو حديث رواه زياد بن أبى زياد الجَصّاص عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخـدرىّ رضى الله عنه . وزياد هذا متروك الحديث .

واحتجّوا بحديث رُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من مات وله قَيْنَةٌ فلا تصلّوا عليه» وهو حـديث روى بإسناد مجهول عن خارجة بن مصعب عن داود بن أبى هنـد عن الشعبىّ عن علىّ. وخارجة متروك الحديث من أهل سَرْخَس .

---

(١) فى الأصل : «زياد» . وهو تحريف والتصويب عن تهذيب التهذيب .

(٢) كذا بالأصل ولم نعثر عليه فيما بين أيدينا من كتب التراجم .

واحتجّوا بما روى عبد الرحمن بن الجَنَدىّ قال : قال عبد الله بن بُسْر[1] صاحب النبىّ صلى الله عليه وسلم : يا ابن الجندىّ ، فقلت : لبّيك يا أبا صفوان ، قال : والله ليُمسخَنّ قوم و إنهم لفى شرب الخمور وضرب المعازف حتى يكونوا قردة أو خنازير. والحديث موقوف وابن الجندىّ مجهول . والنبىّ صلى الله عليه وسلم سأل ربه ألّا يعذّب أمّته بما عذّب به الأمم قبلها فأعطاه ذلك .

واحتجّوا بما رُوى عن أبى أمامة رضى الله عنه وقد تقدّم بعضه ، وفيه زيادة أخرى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يَحلّ بيع المغنّيات ولا شراؤهنّ ولا الجلوسُ إليهنّ" ثم قال : "والذى نفسى بيده مارَفع رجلٌ عقيرته بغناءٍ إلا ارتدفَ على ذلك[2] شيطانٌ على عاتقه هذا وشيطانٌ على عاتقه هذا حتى يسكتَ" وهذا حديث قد تقدّم أوّله من حديث عُبَيد الله بن زَحْر ، وهذه الزيادة من رواية مَسْلَمَةَ بن علىّ الدمشقىّ عن يحيى بن الحارث عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة . ومسلمة هـذا ، قال ابن معين : ليس بشىء . وقال البخارىّ : منكر الحديث . وقد تقدّم القول فى القاسم بن عبد الرحمن .

واحتجّوا بحـديث رُوى عن عبد الله بن مسعود من رواية سَلّامِ بنِ مِسكين قال : حدّثنى شيخٌ سمعَ أبا وائل يقول : سمعت ابن مسعود يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الغِناءُ يُنبِتُ النفاقَ فى القلب" هكذا رواه سَلّامٌ عن شيخ مجهول لا يُعرفُ . ورواه جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبى سليم عن محمد ابن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود[3] وقوله ، ولم يذكر النبىّ صلى

(١) كذا فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة . وفى الأصل : « بشر » وهو خطأ لأنه ليس فى الصحابة من اسمه عبد الله بن بشر بالشين المعجمة .

(٢) كذا فى شرح الإحياء للسيد مرتضى . وفى الأصول : « إلا ارتدف على ذلك جلوس شيطان على عاتقه » .

(٣) كذا فى الأصول . ولعل الأصل : « من قوله » .

الله عليه وسلم . ورواه الثقات عن شعبة بن الحجاج عن مغيرة عن إبراهيم ، قوله[1] ، ولم يذكر أحدا تقدمه فيه وهذا أصحّ الأقاويل فيه[2] من قول إبراهيم . قال الغزالى رحمه الله تعالى : قول ابن مسعود : يُنبِتُ النفاقَ أراد به فى حقّ المغنّى فإنه فى حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروّج صوته عليه ، ولا يزال ينافق ويتودّد إلى الناس ليرغبوا فى غنائه ، وذلك أيضا لا يوجب تحريما ، فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المُهَمْلَجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع يُنبِت الرياءَ والنفاقَ فى القلب ولا يُطلَقُ القول بتحريم ذلك كله . فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب المعاصى فقط . بل المباحات التى هى مواقع نظر الخلق أكثرُ تأثيرا . ولذلك نزل ابن عمر[3] رضى الله عنهما عن فرس هَمْلَجَ تحته وقطع ذَنَبه لأنه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مشْيَته ، فهذا النفاق من المباحات .

واحتجّوا بحديث رُوى عن صفوان بن أمية قال : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه عمرو بن قُرَّةَ فقال : يا نبىّ الله إن الله عز وجلّ كتب علىّ الشِّقوةَ ولا أَرَانِى أُرْزَقُ إلّا من دُفٍّ[4] بكفّى أفتأذن لى فى الغناء من غير فاحشة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا إذنَ ولا كرامةَ ولا نُعْمَةَ" وذكر حديثا طويلا ، وهو حديث رواه عبد الرزاق بن همّام الصَّنْعانى عن يحيى بن العَلَاء عن بشر بن نُمَير عن مكحول قال : حدّثنى يزيد بن عبد الملك عن صفوان بن أمية . ويحيى بن العلاء هذا مدنىّ الأصل رازىّ . قال يحيى بن معين : يكنى ابا عمرو ليس بثقة . وقال عمرو بن على الصيرفىّ : يحيى بن العلاء متروك الحديث والله أعلم .

(١) كذا فى الأصول . ولعل الأصل : «من قوله» . (٢) فى نسخة : «الأسانيد» .

(٣) كذا بالأصول والمعروف أن عمر رضى الله عنه عند ما ذهب الى الشام ركب برذونا فهملج به فنزل عنه وضرب وجهه وقال له : لعن الله من علمك ذلك .

(٤) فى الأصل : «إلا دفى» بدون من . والتصويب عن شرح الإحياء للسيد مرتضى .

واحتجّوا بما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمّارة ، وهو حديث نقله سليمان بن أبى سليمان الداودىّ البصرىّ عن محمد ابن بشر عن أبى هريرة . وسليمان هذا متروك الحديث غير ثقة .

واحتجّوا بقول عثمان رضى الله عنه : ما تغنّيتُ ولا تمنّيتُ[1] ولا مَسستُ ذكرى بيمينى منذ بايعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم . وهذا حديث رواه صقر بن عبد الرحمن عن أبيه عن مالك بن مِغْوَلٍ عن عبد الله بن إدريس عن المختار بن فُلْفُلٍ عن أنس بن مالك فى حديث القُفّ والصيد .

قال المقدسىّ : هذا حديث لم أر فيه تحاملا ، ورأيته ذكر من هذا أشياء لم يأت بها غيره تُوجبُ تركَ حديثه والله أعلم . وقال الغزالىّ رحمه الله تعالى وذكر هذا الحديث : قلنا فليكن التمنّى ومَسّ الذكر باليمين حراما إن كان هذا دليلَ تحريم الغناء ، فمن أين ثبت أن عثمان كان لا يترك إلا الحرام .

قال الحافظ أبو الفضل المقدسىّ رحمه الله تعالى : فهذه الأحاديث وأمثالها احتجّ بها من أنكر السماع جهلا منهم بصناعة علم الحديث ومعرفته ، فترى الواحدَ منهم إذا رأى حديثا مكتوبا فى كتاب جعله لنفسه مذهبا واحتجّ به على مخالفه ، وهذا غلط عظيم بل جهل جسيم . هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى وفيه من الزيادات ماهو منسوب الى الثعلبىّ والغزالىّ على ما بيّناه فى مواضعه .

وقد تكلم الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالىّ الطوسىّ رحمه الله تعالى على السماع فى كتابه المترجم بـ "إحياء علوم الدين" وبيّن دليل الإباحة وذكر بعد ذلك آداب السماع وآثاره فى القلب والجوارح فقال :

---

(١) أى ما كذبت . والتمنى : الكذب من منى يمنى اذا قدر لأن الكاذب يقدّر فى نفسه الحديث ثم يقوله (انظر اللسان مادة منى) .

اعلم أن السماع هو أول الأمر، ويُثمر السماع حالةً فى القلب تسمَّى الوجدَ ويُثمر الوجد تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمّى الاضطراب، وإما موزونة فتسمّى التصفيق والرقص. ثم بدأ بحكم السماع وبيّن الدليلَ على إباحته ثم ذكر ماتمسّك به القائلون بتحريمه وأجاب عن ذلك بما نذكره أو مختصره إن شاء الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى: نقل أبو طالب المكىّ إباحةَ السماع عن جماعة وقال: سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وابن الزُّبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية وغيرهم. وقد فعل ذلك كثير من السلف صحابىّ وتابعىّ. قال: ولم يزل الحجازيّون عندنا بمكة يسمعون السماعَ فى أفضل أيام السنة وهى الأيام المعدودات التى أمر الله عز وجلّ عباده فيها بذكره كأيام التشريق. ولم يزل أهل المدينة ومكة مواظبين على السماع إلى زماننا هذا فأدركنا أبا مروان القاضى وله جوارٍ يُسْمِعْنَ [النَّاس](١) التلحينَ قد أعدّهنّ للصوفية. قال: وكان لعطاء جاريتان تُلَحِّنَانِ وكان إخوانه يستمعون إليهما. قال: وقيل لأبى الحسن بن سالم: كيف تُنكر السماعَ وقد كان الجُنيد وسَرِىّ السَّقَطِىّ وذو النون يسمعون! فقال: كيف أُنكِرُ السماعَ وأجازه وسمعه مَنْ هو خير منّى. وقد كان عبد الله بن جعفر الطيّار يسمع. وإنما أُنكِر اللهوَ واللعبَ فى السماع.

وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال: فقدنا ثلاثة أشياء فلا نراها ولا أراها تزداد إلا قِلّة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

قال الغزالىّ: ورأيت فى بعض الكتب هذا بعينه محكيا عن المحاسبىّ وفيه مايدلّ على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجدّه فى الدين وتشميره.

(١) الزيادة عن الإحياء.

وحكى عن مِمْشاد الدِّينَوَرِىّ أنه قال : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت : يا رسول الله ، هل تنكر من هذا السماع شيئا ؟ فقال : "ما أنكر منه شيئا ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن" . قال الغزالىّ : وعن ابن جُرَيج أنه كان يرخص فى السماع فقيل له : تقدّمه يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لا فى الحسنات ولا فى السيئات لأنه شبيه باللغو ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾؛ ثم بيّن الغزالىّ رحمه الله الدليل على إباحة السماع فقال : اعلم أن قول القائل : السماع حرام ، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه وهذا أمر لا يُعرفُ بمجرّد العقل بل بالسمع ، ومعرفة الشرعيّات محصورة فى النصّ أو القياس على المنصوص . قال : وأعنى بالنصّ ما أظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله ، فإن لم يكن فيه نصّ ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطَل القولُ بتحريمه ويبقى فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات ، ولا يدلّ على تحريم السماع نصّ ولا قياس . قال : وقد دلّ القياس والنصّ جميعا على إباحة السماع .

أما القياس فهو أن الغناء اجتمع فيه معانٍ ينبغى أن يُبحثَ عن أفرادها ثم عن مجموعها فإن فيه سماعَ صوتٍ طيّبٍ موزون مفهوم المعنى محرِّكٍ للقلب . فالوصف الأعمّ أنه صوتٌ طيّب ، ثم الطيب ينقسم الى الموزون وغيره . والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وأصوات سائر الحيوانات .

أما سماع الصّوتِ الطيّب من حيث إنه طيّب فلا ينبغى أن يُحرَّمَ بل هو حلال بالنصّ والقياس .

أمّا القياس فإنه يَرجِع إلى تلذّذ حاسّة السمع بإدراك ما هو مخصوص به . وللإنسان عقل وخمس حواس ولكلّ حاسّة إدراك . وفى مُدركَات تلك الحاسة

ما يُستلذّ . فلذّة البصر فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن وسائر الألوان الجميلة وهى فى مقابلة ما يُكره من الألوان الكدرة القبيحة . وللشمّ الروائح الطيّبة وهى فى مقابلة الأنتان المستكرهة . وللذّوق الطعوم اللذيذة كالدُّسُومة والحلاوة والحموضة وهى فى مقابلة المرارة والمَرازة المستبشعة . وللمسّ لذّة اللين والنعومة والملاسة وهى فى مقابلة الخشونة والضَّراسة . وللعقل لذّة العلم والمعرفة وهى فى مقابلة الجهل والبلادة . فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذّة كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحُمُر وغيرها، فما أظهرَ قياسَ هذه الحاسّة ولذّتها على سائر الحواس ولذّاتها . ٧٠

وأما النصّ فيدلّ على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله على عباده به إذ قال تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ فقيل : هو حسن الصوت . وفى الحديث : "ما بعث الله نبيًا إلا حسنَ الصوت" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَلَّهُ أشدُّ أَذَنًا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنة إلى قَيْنته" وفى الحديث فى معرض المدح لداود عليه السلام : "أنه كان حسنَ الصوت فى النياحة على نفسه وفى تلاوة الزَّبُور حتى كان يجتمع الإنس والجنّ والوحش والطير لسماع صوته، وكان يُحمَلُ من مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب من ذلك فى الأوقات" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدح أبى موسى الأشعرىّ : "لقد أُعطى مزمارًا من مزامير آل داود" وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن . ولو جاز أن يقال : إنما أُبيحَ ذلك بشرط أن يكون فى القرآن للزمه أن يُحَرِّمَ سماعَ صوت العندليب لأنه ليس بقرآن . وإذا جاز سماع صوتٍ غُفْلٍ لا معنى له، فلم لا يجوز سماعُ صوتٍ يُفهم منه الحكمةُ والمعانى الصحيحةُ! وإن من الشعر لحكمة . قال : فهذا نظر فى الصوت من حيث إنه طيّبٌ حسن .

الدرجة الثانية : النظر فى الصوت الطيّب الموزون فإنّ الوزن وراء الحسن ، فكم من صوت حسن خارجٌ عن الوزن ، وكم من صوت موزون غيرُ مستطاب . والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة ، فإنها إمّا أن تكون من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره . وإمّا أن تخرج من حنجرة حيوان وذلك الحيوان إما إنسانٌ وإما غيره . فصوتُ العَنَادل والقَمَارىّ وذوات السجع من الطيور مع طيبها موزونةٌ متناسبةُ المَطَالع والمقاطع فلذلك يُستلذّ سَمَاعُها . والأصل فى الأصوات حناجر الحيوانات . وإنما وُضعت المزامير على صورة[1] الحناجر وهى تشبيه الصَّنْعة بالخِلْقة . وما من شىء تَوصّل أهلُ الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال فى الخلقة التى آستأثر الله تعالى باختراعها ، منه تعلَّم الصُّنَّاع وبه قصدوا الآقتداء . فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يَحْرُمَ لكونها طيّبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور . ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان . فينبغى أن يُقاس على صوت العنادليب الأصواتُ الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمىّ كالذى يخرج من حلْقه أو من القضيب والطبل والدُّفّ وغيره . ولا يستثنى من هذا إلا الملاهى والأوتار والمزامير ، إذ ورد الشرع بالمنع منها لا للذّتها إذ لو كان للذّة لقيس عليها كل ما يلتذّ به الإنسان ولكن حُرِّمت الخمور واقتضت ضراوة[2] الناس بها المبالغة فى الفِطام عنها حتى انتهى الأمر فى الآبتداء الى كسر الدِّنان ، فحُرِّم معها ما هو شعار أهل الشرب وهى الأوتار والمزامير فقط . وكان تحريمه من قبيل الإتباع كما حُرِّمت الخلوة[3] لأنها مقدّمة الجماع . وحُرِّم النظر الى الفخذ

(١) فى نسخة من كتاب الإحياء : «على صوت» .

(٢) الضراوة : الاعتياد لها والاجتراء عليها .

(٣) كذا بالأصل . وفى الإحياء للغزالى : «الخلوة بالأجنبية» .

لاتصاله بالسوأتين . وحُرِّم قليل الخمر وإن كان لا يُسْكِرُ لأنه يدعو إلى المسكر . وما من حرام إلا وله حَرَم يُطِيفُ به . وحكم الحُرْمة ينسحب على حريمه ليكون حِمًى للحرام ووِقايةً له وحِظَارًا(١) مانعًا حوله كما قال صلى الله عليه وسلم : "إن لِكُلِّ ملكٍ حِمًى وإن حِمَى الله مَحَارِمُهُ" فهى محرمة تبعا لتحريم الخمر .

الدرجة الثالثة : الموزون المفهوم وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فَيُقَطَّعُ بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوما . والكلام المفهوم غير حرام . والصوت الطيّب الموزون غير حرام . فإذا لم يَحْرُم الآحادُ فمن أين يَحرُم المجموعُ؛ نعم يُنظر فيما يُفهم منه، إن كان فيه أمر محظور حَرُم نثره ونظمُه وحَرُم التصويت(٢) به سواء كان بألحان أو لم يكن .

والحقّ فيه ما قاله الشافعىّ رحمه الله إذ قال : الشعرُ كلامٌ فحَسَنه حسنٌ وقبيحُه قبيح . ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز مع الألحان . فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان مباحًا، ومهما انضمّ مباحٌ الى مباح لم يحرم إلا إذا تضمّن المجموعُ محظورًا لا تتضمّنه الآحاد، ولا محظور هاهنا . وكيف يُنكر إنشادُ الشعر وقد أُنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال صلى الله عليه وسلم : «إنّ من الشِّعرِ لَحِكْمَةً» وساق رحمه الله فى هذا الموضع الأحاديث الصحيحة التى تضمّنت إنشادَ الشعر والحُدَاء به وهى أشهر من أن يُحتاجَ إلى سردها . ثم قال بعد سياق الأحاديث : ولم يزل الحُدَاء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة ، وما هو إلا أشعار تُؤدَّى بأصواتٍ طيّبة وألحانٍ موزونةٍ . ولم يُنقلْ عن أحد من الصحابة إنكارُه . بل ربما كانوا يلتمسون ذلك (٧١)

(١) الحظار : الحائط وكل ما حال بينك وبين شىء .

(٢) كذا بالأصل . وفى إحياء الغزالى : «النطق به» .

تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ، فلا يجوز أن يُحَرَّم من حيث إنه كلام مفهوم مؤدًّى بأصواتٍ طيِّبة وألحانٍ موزونةٍ .

الدرجة الرابعة: النظر فيه من حيث إنه محرِّك للقلب ومُهيِّج لما هو الغالب عليه، قال أبو حامد : فأقول : لله سبحانه وتعالى سرٌّ فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا . فمن الأصوات مايُفرِحُ ومنها مايحزِنُ ومنها ماينوّم ومنها ما يُضْحِكُ ويُطرِبَ ومنها ما يَستخرِجُ من الأعضاء حركاتٍ على وزنها باليد والرجل والرأس . ولا ينبغى أن يُظنّ أن ذلك لفهم معانى الشعر بل هذا جارٍ فى الأوتار حتى قيل : من لم يُحرِّكه الربيعُ وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المِزَاج ليس له علاج . وكيف يكون ذلك بفهم المعنى، وتأثيرُه مشاهدٌ فى الصبىّ فى مهده فإنه يُسكته الصوتُ الطيِّبُ عن بكائه، وتنصرف نفسه عما يُبكيه الى الإصغاء إليه. والجملُ مع بلادة طبعه يتأثر بالحُدَاءِ تأثيرًا يَستخِفُّ معه الأحمالَ الثقيلةَ ويَستقصِرُ لقوّة نشاطه فى سماعه المسافاتِ الطويلةَ ، وينبعث فيه من النشاط ما يُسكره ويُولِهه، فتراها إذا طالت عليها البوادى وآعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال اذا سمعت مُنادِى الحداء تَمُدّ أعناقَها وتُصْغِى إلى الحادى ناصبةً آذانها وتُسرِعُ فى سيرها حتى تنزعزعَ عليها أحمالُها ومحاملها، وربما تُتلِفُ أنفسَها فى شدّة السير وثقل الحمل وهى لا تَشعُر به لنشاطها .

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدِّينَوَرى المعروف بالرَّقِّى، قال :

كنت فى البادية فوافيتُ قبيلةً من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباء فرأيت فى الخباء عبدًا أسودَ مقيّدا بقيد، ورأيت جمالا قد ماتت بين يدى البيت[1] وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه يَنزِعُ رُوحَه . فقال لى الغلام :

(١) فى الرسالة القشيرية : «بفناء البيت» .

أنت ضيفٌ ولك حقّ فتشفَّعْ فى حقّى إلى مولاى فإنه مُكرِمٌ لضيفه فلا يردّ شفاعتك فعساه يحلّ القيدَ عنّى . فلما أحضروا الطعام آمتنعت وقلت : لاآكل ما لم أُشَفَّعْ فى هـذا العبد، فقال : إن هذا العبدَ قد أفقرنى وأهلك جميع مالى، فقلت : ماذا فعل ؟ فقال : إن له صوتا طيِّبا، وإنى كنت اعيش من ظهور هذه الجمال فحمَّلها أحمالا ثقالا وكان يَحدُو بها حتى قطعتْ مسيرةَ ثلاثِ ليال فى ليلةٍ من طِيبِ نغمته فلما حُطَّت أحمالُها مَوَّتَتْ كُلُّها إلا هذا الجمل الواحد، ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبتُه لك قال : فأحببت أن أسمعَ صوته، فلما أصبحنا أمره أن يَحدُوَ على جمل يَستق الماء من بئر هناك، فلما رفع صوته هام ذلك الجملُ وقطع حباله ووقعتُ أنا على وجهى، فما أظنّ أنى قط سمعتُ صوتا أطيبَ منه .

قال : فإذًا تأثيرُ السماع فى القلب محسوسٌ . ومن لم يحرّكه السماع فهو ناقص مائل عن الآعتدال بعيـد عن الروحانية ، زائد فى غِلَظِ الطبع وكثافته على الجمـال والطيور بل على سـائر البهائم فإن جميعها تتأثّر بالنغمات الموزونة . ومهما كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلوب لم يجز أن يُحكَمَ فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم ، بل يختلفُ ذلك بالأحوال والأشخاص وآختلاف طرق النغمات، فحكمه حكم ما فى القلب .

قال أبو سليمان : السماع لايجعل فى القلب ما ليس فيه، ولكن يُحرّك ماهو فيه .

ذكر أقسام السماع وبواعثه

وأقسام السماع تختلف بآختلاف الأحوال : فإن منه ما هو مستحبّ وما هو مباح وما هو مكروه وما هو حرام . أما المستحبّ فهو لمن غلب عليه حبُّ الله تعالى ولم يُحرّك السماع منـه إلا الصفاتِ المحمودةَ . وأما المبـاح فهو لمن لاحظّ له من السماع إلا التلذّذ بالصوت الحسن، وأما المكروه فهو لمن لايتزله على صورة المخلوقين

ولكن يتخذه عادة له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو . وأما الحـرام فهو لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليـه شهوة الدنيا فلا يُحرّك السماعُ منهـم إلا ماهو الغالب على قلوبهـم من الصفات المذمومة . وقد تكلم على هذه الأقسـام الإمام أبو حامد الغزالىّ فقال رحمه الله ما مختصره ومعناه : (٧٢)

الكلمات المسجعة الموزونة تُعتادُ فى مواضعَ لأغراض مخصوصة تَرتبطُ بها آثارٌ فى القلب وهى سبعة مواضع :

الأول : غِناء الحجيج فإنهـم يدورون أولا فى البلاد بالطبل والغناء وذلك مباح لمـا فيه من التشويق إلى الحجّ وأداء الفريضة وشهود المشاعر .

الثانى : ما يعتاده الغُزاة لتحريض الناس على الغزو وهو مباح أيضا لمـا فيه من آستثارة النفس وتحريكها على الغزو وإثارة الغضب على الكفّار وتحسين الشجاعة وتقبيح الفرار .

الثالث : ما يرتجزه الشُّجعانُ عند اللقاء فى الحرب وهو مباحٌ ومندوب لمـا فيه من تشجيع النفس وتحريك النشاط للقتال والتمدّح بالشجاعة والنجدة وقد فعله غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهـم ، منهم علىّ بن أبى طالب وخالد بن الوليد وغيرهما .

الرابع : أصوات النَّيَاحة ونغماتها وتأثيرها فى تهييج البكاء وملازمة الحزن والكآبة وهذا قسمان : محمود ومذموم .

فأمّا المذموم فالحزن على ما فات . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ (١) . والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه يُغْضِبُ اللهَ جلّ جلاله وتأسُّفٌ على ما لا تدارك فيه .

(١) فى الإحياء : «فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف الخ» .

وأمّا المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره فى أمر دينه وبكاؤه على خطاياه. والبكاء والتباكى والحزن والتحازن على ذلك محمود لأنه يبعث على التشمير للتدارك. ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودةً، فقد كان يَحْزَنُ ويُحْزِنُ ويَبكى ويُبكى حتى كانت الجنائز تُرفَع من مجالس نياحته وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه، وذلك محمود لأن المُفضى إلى المحمود محمود. وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيِّب الصوتِ أن يُنشِدَ على المنبر بألحانه الأشعارَ المحزِنةَ المرقِّقَة للقلب ولا أن يَبكى ويتباكى ليَتوصَّل به الى بكاء غيره وإثارة حزنه.

الخامس: السماع فى أوقات السرور تأكيدًا للسرور وتهييجًا له إن كان ذلك السرورُ مباحا كالغِناء فى أيام العيد وفى العُرْس وفى وقت قدوم الغائب ووقت الوليمة والعقيقة وعند الولادة والختان وعند حفظ القرآن، وكل ذلك معتاد لأجل إظهار السرور. قال: ووجه جوازه أنّ من الألحان ما يُثير الفرحَ والسرورَ والطربَ وكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه، ويدلّ على هذا إنشادهم بالدفّ والألحان عند مَقْدَم النبىّ صلى الله عليه وسلم يقولون:

طلع البدرُ علينا * من ثَنِيَّاتِ الوداع
وجب الشكر علينا * ما دعا لله داعى

فإظهارُ هذا السرور بالنغمات والشعر والرقص والحركات محمودٌ. فقد نُقل عن جماعة من الصحابة أنهم حَجَلوا فى سرور أصابهم كما سيأتى فى أحكام الرقص وهو جائز فى قدوم كل غائب وكل ما يجوز الفرح به شرعا. ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم فى موضع واحد على طعام أو كلام.

السادس: سماع العُشّاق تحريكا للشوق وتهييجًا للعشق وتسليةً للنفس؛ فإن كان فى حال مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذّة، وإن كان مع المفارقة فالغرض

تهييج الشوق . والشوق و إن كان مؤلما ففيه نوعُ لذّة إذا آنضاف اليه رجاء الوصال ؛ فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم ، وقوّة لذّة الرجاء بحسب قوّة الشوق والحبّ للشيء المرجوّ ، ففى هذا السماع تهييج للعشق وتحريك للشوق وتحصيل للذة الرجاء المقدّر فى الوصال مع الإطناب فى وصف حسن المحبوب . قال :

وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يُباحُ وِصالُه كمن يَعشق زوجتَه أو سُرِّيتَه فَيُصْغِي إلى غِنائها لتتضاعفَ لذّتُه فى لقائها ، فيحظى بالمشاهدة البصرُ و بالسماع الأذُنُ و يَفهمُ لطائفَ معانى الوصال والفراق القلبُ ، فتترادف أسباب اللذّة . فهذا نوع تَمتُّع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها ، وما متاع الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وهذا منه . وكذلك إن غُصِبت منه جاريةٌ أوحِيلَ بينه و بينها بسبب من الأسباب فله أن يُحرِّكَ بالسماع شوقَه وأن يَستثيرَ به لذّةَ رجاء الوصال . فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصل واللقاء . وأما من يتمثّل فى نفسه صورةَ صبىّ أو آمرأة لا يجوز له النظر إليها وكان يُنزّل ما يسمع على ما يتمثّل فى نفسه فهو حرام لأنه محرّك للفكر فى الأفعال المحظورة ومهيّج للداعية إلى مالا يباح الوصول إليه لا لأمر يرجع إلى نفس السماع . وقد سئل بعض الحكماء عن العشق فقال : دخان يصعد الى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيّجه السماع .

(٧٣) السابع : سماع من أحبّ الله سبحانه وتعالى وعشقه وآشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلّا رآه فيه ، ولا يقرعُ سمعَه قارعٌ إلّا سمعه منه أو فيه ، فالسماع فى حقه مهيّج لشوقه ، ومؤكّد لعشقه وحبّه ، ومُورِ زنادَ قلبه ، ومُستخرجٌ منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها مَنْ ذاقها ويُنكِرُها مَنْ كَلَّ حِسُّه عن ذَوَاقها ؛ وتسمّى تلك الأحوال بلسان الصوفيّة وَجْدًا — مأخوذ من الوجود — وللصوفية على هذا كلامٌ يطول شرحه ليس هذا موضعَ إيراده . والله أعلم .

ذكر العوارض التى يحرُم معها السماع

قال أبو حامد رحمه الله تعالى: والسماعُ يحرُم بخمسة عوارض: عارض فى المُسْمِع وعارض فى آلة السماع، وعارض فى نظم الصـــوت، وعارض فى نفس المُســتمِع أو فى مواطنه، لأن أركان السماع هى المُسْمِعُ والمستَمِعُ وآلة السماع.

العارض الأوّل: أن يكون المُسْمِعُ امرأةً لا يَحِلّ النظر إليها وتُخْشى الفتنةُ من سماعها، وفى معناها الصبىّ الذى تُخْشى فتنتُه، وهـذا حرام لمـا فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل الغناء بل لو كانت المرأة بحيث تَفْتِنُ بصوتها فى المحاورة فى غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماعُ صوتها فى القرآن أيضا، وكذلك الصبىّ الذى تُخَافُ فتنتُه. فإن قلت: فهل تقول: إن ذلك حرام بكل حال حسما للباب، أولا يحرم إلا حيث تُخافُ الفتنةُ. فأقول: هذه مسئلة محتملة من حيثُ الفقه يتجاذبها أصلان:

أحدهمـا: أن الخلوةَ بالأجنبيّة والنظرَ إلى وجهها حرامٌ ســواء خيفت منها الفتنة أو لم تُخَفْ لأنها مَظِنَّةُ الفتنة على الجملة. فقضى الشرع بحسم الباب من غير ٱلتفات إلى الصورة.

والثـانى: أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يُلحقُ الصبيانُ بالنساء فى عموم الحَسْم بل يَنبغى أن يُفَصَّـلَ فيه الحـالُ. وصوتُ المرأة دائرٌ بين هذين الأصلين، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظـر فى أوّل هيجانها ولا تدعو إلى سماع الصوت. وليس تحريك النظر لشهوة المماسّة كتحريك السماع بل هو أشـدّ. وصوتُ المرأة فى غير الغناء ليس بعورة ولكن للغناء مزيد أثر فى تحـريك الشهوة،

فقياسُ هـذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنّهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تُؤمر النساءُ بستْر الأصوات، فينبغى أن يُتّبَع مَثارُ الفتن ويُقصَرَ التحريمُ عليه، هذا هو الأقيس عندى . قال : ويتأيّد بحديث الجاريتين المغنّيتين فى بيت عائشة رضى الله عنها إذ يُعلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يَسمعُ صوتَهما ولم يحترز عنه ولكن لم تكن الفتنةُ مخوفةً عليه فلذلك لم يَحترِزْ . فإذًا يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل فى كونه شابا وشيخا ولا يبعد أن يختلف الأمر فى مثل هـذا بالأحوال . فإنا نقول : للشيخ أن يُقَبِّلَ زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك . والقُبلةُ تدعو إلى الوِقاع فى الصوم وهو محظور . والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام، فيَختلِفُ ذلك أيضا بالأشخاص .

العارض الثانى فى الآلة — بأن تكون من شعائر أهل الشرب أو المخنّثين وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة، فهذه ثلاثة أنواع وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدُّفّ وإن كان فيه الجلاجلُ وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث فى نظم الصوت — وهو الشعر فإن كان فيه شىء من الخَنا والفحش والهجاء أو هو كذبٌ على الله عز وجلّ أو على رسوله أو على الصحابة كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم ، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان ، والمستَمِعُ شريكُ القائل وكذلك مافيه وصف امرأة بعينها فإنه لايجوز وصف المرأة بين يدى الرجال . وأمّا هجاء الكفّار وأهل البدع فذلك جائز .

فقد كان حسان بن ثابت يُنافِحُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُهاجِى الكفارَ، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلّم بذلك .

فأما النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القَدّ والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر . والصحيحُ أنه لايحرم نظمُه وإنشاده بلَحْن وغير لَحْن[1]، وعلى المستمع ألّا يُنَزِّلَه على آمرأة معيّنة إلّا على من تحلّ له من زوجة أو جارية ، فإن نزّله على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل وإجالة الفكر فيه . ومِنْ هذا (٧٤) وَصْفُه فينبغى أن يَجتنِبَ السماعَ رأسا فإن مَنْ غلب عليه عشقٌ نزّل كلَّ مايسمعه عليه سواء كان اللفظ مناسبا أو لم يكن ، إذ مامِن لفظٍ إلا ويُمكن تنزيلُه على معانٍ بطريق الآستعارة فالذى غلب عليه عِشقُ مخلوقٍ ينبغى أن يَحترز من السماع بأىّ لفظ كان، والذى غلب عليه حبّ الله تعالى فلا تَضرّه الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعانى اللطيفة المتعلّقة بمجارى همته الشريفة .

العارض الرابع فى المستَمِع — وهو أن تكون الشهوةُ غالبةً عليه وكان فى غِرّة الشباب وكانت هذه الصفةُ أغلبَ مِن غيرها عليه، فالسماعُ حرامٌ عليه سواء غلب على قلبه حبّ شخصٍ معيّنٍ أو لم يغلب . فإنه كيفما كان فلا يسمعُ وصفَ الصُّدْغ والخدّ والوصال والفراق إلا ويُحرّكُ ذلك شهوَتَه ويُنزّله على صورة معيّنة ينفخ الشيطان بها فى قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتدّ بواعثُ الشرّ . وذلك هو النُّصرةُ لحزب الشيطان والتخذيلُ للعقل المانع منه الذى هو حزب الله تعالى . والقتال فى القلب دائم بين جنود الشيطان وهى الشهواتُ، وبين حزب الله وهو نورُ العقل إلا فى قلب قد فتحه أحد الجُنْدين وآستولى عليه بالكلّية . وغالبُ القلوب قد فتحها جندُ الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ الى أن تستانف أسباب القتال لإزعاجه فكيف يجوز تكثير أسلحته وتشحيذ سيوفه وأسنّته ، والسماع مُشَحِّذ

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «بصوت وبغير صوت» .

لأسلحة جند الشيطان فى حقّ مثل هـذا الشخص . فليخرج مثل هـذا عن جميع السماع فإنه يَسْتَضِريه والله أعلم .

العارض الخامس — أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حبّ الله فيكون السماع له محبوبا ولا غلبت عليه الشهوة فيكون فى حقّه محظورا، ولكنه أبيح فى حقه كسائر أنواع اللذّات المباحة إلا أنه اتخذه دَيْدَنه وهِجِّيراه وقصر عليه أكثر أوقاته، فهذا هو السفيه الذى تُرَدّ شهادته فإن المواظبة على اللهو جناية. وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تَصير كبيرةً ؛ فبعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة وهو كالمواظبة على متابعـة الزنوج والحبشـة والنظر إلى لعبهم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعا إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هذا القبيل اللَّعِبُ بالشِّطْرَنْج فإنه مباح، ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة، ومهما كان الغرضُ اللعبَ والتلذّذَ باللهو فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب ؛ إذ راحة القلب معالجةٌ له فى بعض الأوقات لتنبعث دواعيه. هذا ملخص ما أورده فى أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته، ثم ذكر بعد ذلك آثار السماع وآدابه .

ذكر آثار السماع وآدابه

قال أبو حامد رحمه الله : اعلم أن أول درجة السماع فهمُ المسموع وتنزيلُه على معنى يقع للمستمع ثم يُثمِرُ الفهمُ الوجدَ . ويُثمر الوجدُ الحركةَ بالجوارح . فلينظر إلى هذه المقامات الثلاثة :

المقام الأول — فى الفهم، وهو مختلفٌ باختلاف أحوال المُستَمِع. وللمستمع أربعة أحوال :

إحداها — أن يكون سماعه بمجرّد الطبع أى لاحظّ له فى السماع إلا آستلذاذ الألحان والنغمات فهذا مباح وهو أخسّ رُتَبِ السماع؛ إذ الإبل شريكة له فيه وكذا سائر البهائم . ولكل حيوان نوع تلذّذ بالأصوات الطيّبة .

الحالة الثانية — أن يسمع بفهم ولكن يُنَزِّله على صورة إما معيّنة أوغيرمعيّنة وهو سماع الشباب وأربابِ الشهوة و يكون تَنزيلُهم المسموعَ على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم . وهذه الحالة أخسّ من أن يُتَكَلّم فيها إلا ببيان خِسّتها والنهى عنها .

الحالة الثالثة — أن يُنَزِّلَ ما يسمعه على أحوال نفسه فى معاملة الله تعالى وتقلّب أحواله فى التمكّن منه مرّة وبُعْدِه منه أخرى[1]، وهذا سماع المُريدين لا سيّما المبتدئين . فإن للمريد لا محالة مرادًا هو مَقْصدُه، ومَقْصدُه معرفةُ الله تعالى ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسرّ وكشف الغطاء؛ وله فى مَقْصِده طريقٌ هو سالكه، ومعاملاتٌ هو مثابرٌ عليها، وحالاتٌ تستقبله فى معاملاته . فإذا سمع ذكرَ عتاب أوخطاب أو قبول أو ردّ أووصلٍ أو هجر أوقُرْب أو بُعْد أو تلهُّف على فائت أو تعطّش إلى مُنتظَرٍ أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس أو وحشة أو آستئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أوخوف فراق أو فرح بوصال أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو هموم العبَرات أو تَرادُف الحَسرات أو طول الفراق أوعِدة الوصال[2] أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار، فلا بدّ أن يوافق بعضُها حالَ المريد فى طلبه، فيجرى ذلك مَجْرَى القَدّاح الذى يُورى زنادَ قلبه، فتشتعلُ به نيرانُه، ويقوَى به آنبعاثُ الشوق وهيجانه، وتَهجُمُ عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته،

(١) فى الإحياء : « وتعذره أخرى » .

(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « عزة الوصال » .

ويكون له مجالٌ رَحْبٌ فى تنزيل الألفاظ على أحواله . وليس على المستمع مراعاةُ مراد الشاعر من كلامه ؛ بل لِكلّ كلام وجوهٌ ولكلّ ذى فهـم فى ٱقتباس المعنى منه حظٌّ . وضرب الإمام الغزالىّ لذلك أمثلة يطول شرحها .

الحالة الرابعـة — سمـاعُ مَنْ جاوز الأحوالَ والمقاماتِ فَعَزَب عن فهم ما سـوى الله تعالى حتى عَزَبَ عن نفسه وأحوالهـا ومعاملاتها وكان كالمدهوش الغائص فى عين الشهود الذى يُضاهى حالهُ حال النِّسْـوة اللاتى قَطَّعْنَ أيديهنّ فى مشاهدة جمال يُوسُفَ حتى بُهِتْنَ وسقط إحساسُهنّ . وعن مثل هذه الحالة تُعبِّر الصوفية بأنه فنِى عن نفسه . ومهما فَنِىَ عن نفسه فهو عن غيره أفنى ؛ فكأنه فَنِىَ عن كلّ شىء إلا عن الواحد المشهود، وفَنِىَ أيضا عن الشهود فإنّ القلب إن ٱلتفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مُشاهِدٌ فقد غَفَل عن المشهود . فالمسـتهتر بالمرئىّ لا ٱلتفات له فى حال ٱستغراقه إلى رؤيته و[لا][(١)] إلى عينه التى بها رؤيتـه ولا إلى قلبه الذى به لذّته . فالسكران لا خُبْرَ له فى سكره[(٢)] ، والملتـذّ لا خُبْرَ له[(٢)] فى ٱلتذاذه ، إنمـا خُبْره من الملتذّ به فقط ، ولكن هذا فى الغالب يكون كالبرق الخاطف الذى لا يثبت ولا يدوم وإن دام لم تُطقه القوّة البشريّة فربمـا يضـطرب تحت أعبائه ٱضطرابا تهلك فيه نفسُه كما رُوِىَ عن أبى الحسن النورى أنه سمع هذا البيت :

مازِلتُ أَنزِل من ودادك منزلًا * تتحيَّرُ الألباب دون نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه ووقع فى أَجَمَة قَصَبٍ قد قُطِعت وبقيت أصولها مثل السيوف فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يجرى من رجليه حتى ورِمت قدماه وساقاه ومات بعد أيام رحمه الله .

(١) الزيادة عن كتاب الإحياء . (٢) فى الإحياء « من » فى الموضعين بدل « فى » .
(٣) عبارة الإحياء : «فكان يغدو فيها ويروح» .

قال أبو حامد : وهذه درجة الصدّيقين فى الفهم والوجد وهى أعلى الدرجات ، لأن السماع على الأحوال وهى ممتزجة بصفات البشرية نوع قُصُور ، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله . أعنى أنه ينساها فلا يبقى له آلتفاتٌ إليها كما لم يكن للنِّسْوَة آلتفاتٌ الى اليد والسِّكِّين . فيسمع بالله ، ولله ، وفى الله ، ومن الله ؛ وهذه رتبة مَنْ خاض لُجَّة الحقائق وعَبَر ساحل الأحوال والأعمال وآتّحد بصفاء التوحيد وتحقّق بمحض الإخلاص فلم يبق فيه منه شىء أصلا ، بل خَمَدت بالكلّية بَشَرِيَّته وفَنِيَ آلتفاته إلى صفات البشرية رأسا . قال : ولستُ أعنى بفنائه فناءَ جسده بل فناء قلبه ، ولستُ أعنى بالقلب اللحم والدم بل سِرٌّ لطيفٌ له إلى القلب الظاهر نسبةٌ خفيّةٌ وراءها سرُّ الرُّوح الذى هو من أمر الله عَرَفها مَنْ عَرَفها وجَهِلها من جَهِلها ولذلك السرّ وجودٌ . وصورة ذلك الوجود ما يحضُرُ فيه فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر . ومثاله المرآة المجلوّة ، إذ ليس لها لَوْنٌ فى نفسها بل لونها لَوْن الحاضر فيها . وكذلك الزجاجة فإنها تحكى لَوْن قرارها ولونها لَوْن الحاضر فيها وليس لها فى نفسها صورةٌ بل صورتها قَبُول الصُّوَر ولونها هو هيئة الآستعداد لقبول الألوان . قال : وهذه مَغَاصَةٌ من مغاصات علوم المكاشَفَة منها نشأ خَيَالُ من آدّعى الحلول والآتحاد . هذا مُلَخَّص ما أورده فى مقام الفهم والله سبحانه وتعالى أعلم .

المقام الثانى — بعد الفهم والتنزيل الوجدُ .

قال الإمام الغزالىّ رحمه الله تعالى :

وللناس كلامٌ طويلٌ فى حقيقة الوجد أعنى الصوفيّة والحكماء الناظرين فى وجه مناسبة السَّماع للأرواح فلننقل من أقوالهم ألفاظا ثم لنكشف عن الحقيقة فيه .

أما الصوفيّة، فقد قال ذو النون المصرىّ رحمه الله فى السماع : إنه واردُ حقّ جاء يُزعج القلوبَ إلى الحقّ ، فمن أصغى إليــه بحقّ تحقّق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق . فكأنه عبّر عن الوجد بأنزعاج القلوب إلى الحق وهو الذى يجده عند ورود وارد السماع، إذ سَمّى السماعَ واردَ حقّ . وقال أبو الحسين الدرّاج مُخْبِراً عمّا وَجَده فى السماع : (٧٦)

والوجدُ عبارةٌ عما يُوجَد عند السماع،وقال : جال بى السماع فى ميادين البهاء، فأوجدنى وجود الحقّ عنــد العطاء ، فسقانى بكأس الصفاء، فأدركت به منــازل الرِضاء، وأخرجنى إلى رياض النزهة والفضاء .

وقال الشِّبْلِىُّ : السماع ظاهره فِتْنة وباطنه عِبْرة ، فمن عَرَف الإشارة حلّ له آستماع العِبْرة وإلا فقد آستدعى الفتنة وتعرّض للبليّة . وأقوال الصوفيّة فى هــذا النوع كثيرة .

وأما الحكماء ، فقال بعضهم :

فى القلب فَضيــلةٌ شريفةٌ لم تقــدِر قوّة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان ، فلما ظَهَرت سُرّت وطَرِبت إليها ، فآستمعوا من النفس وناجُوها ودَعُوا مُناجاة الظواهر . وقال بعضهم :

نتائجُ السماع آستنهاضُ العاجز من الرأى وآستجلابُ العازب من الفكر وحِدّة الكالّ من الأفهام والآراء حتى يثوبَ ما عَزَب وينْهَض ما عَجَز ويَصْفو ما كَدَر ويَمْرَح فى كل رأى ونيّــة فيصيب ولا يخطئ ويأتى ولا يبطئ . ثم ذكر المعنى الذى الوجد عبارة عنه فقال : هو عبارةٌ عن حالةٍ يُثمرها السماع وهو واردُ [حق][2] جديد عقيب السماع

(١) فى بعض نسخ الإحياء : «ويخرج من» . (٢) الزيادة عن كتاب الإحياء، وفسره الزبيدى شارح الإحياء بقوله : «أى وارد ورد من الحق تعالى وهو وارد قوى لا يشوبه الباطل» .

يجده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو من قسمين : فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفاتٍ ومشاهداتٍ هى من قبيل العلوم والتنبيهات ؛ وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحـوالٍ ليست من العلوم والتنبيهات بل هى كالشوق والخوف والحزن والقـلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض . وهذه الأحوال يهيّجها السماع ويقوّيها فإن ضعفت بحيث لم تؤثّر فى تحريك الظاهر أو تسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرّك على خلاف عادته أو يطرُق أو يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يُسَمّ وجدا . وإن ظهر على الظـاهر سُمِّىَ وجدا إما ضعيفا وإما قويّا بحسب ظهوره وتغييره الظاهر وتحريكه بحسب قوّة وروده وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوّة الواجد وقدرته على حفظ جوارحه ، فقد يقوَى الوجد فى الباطن ولا يتغيّر الظاهر لقوّة صاحبه وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحلّ عُقَد التماسك . وإلى المعنى الأوّل أشار أبو سعيد بن الأعرابىّ حيث قال فى الوجد : إنه مشاهدَة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ولا يبعد أن يكون السماع منشأ لكشف ما لم يكن مكشوفا قبله ؛ فإنّ الكشف يحصل بأسباب : منها التنبيه ، والسماع منبّه . ومنها تغيّر الأحوال ومشاهدتها وإدراكها ، فإنّ إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمورٍ لم تكن معلومة قبل الورود .

ومنها صفاء القلب ، والسماع مؤثّر فى تصفية القلوب ، والصفاء سبب المكاشفة .

ومنها انبعاث نشاط القلب بقوّة السماع فيقوَى على مشاهدة ما كان تقصر عنه [قبل ذلك](١) قوّته كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله ، وهـذا الاستكشاف من ملاحظة أسرار الملكوت . وكما أنّ حمـل الجمل يكون بواسطة ، فبواسطة هـذه الأسباب يكون سبب الكشف ؛ بل القلب إذا صفا تمثّل له الحقّ

(١) الزيادة عن كتاب الإحياء .

فى صورةٍ مشاهدةٍ أو فى لفظٍ منظومٍ يَقرَعُ سمعه يعبّر عنه بصوت الهاتف إذا كان فى اليقَظَة و بالرؤيا إذا كان فى المنام وذلك جزء من النبوّة؛ وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة . وذلك كما روى عن محمد بن[1] مسروقٍ البغدادىّ أنه قال: خرجت يوما فى أيام جهلى وأنا نشوانُ وكنت أُغنّى هذا البيتَ :

بِطِـــيزَناباذَ[2] كَرْمٌ ما مررتُ به * إلا تعجّبتُ ممن يشرب المـاءَ

فسمعت قائلا يقول :

وفى جهـــنّم ماءٌ ما تجـــرّعهُ * خَلْقٌ فأبقى له فى الجوف أمعاءَ

فقال : وكان ذلك سبب توبتى وٱشتغالى بالعلم .

قال أبو حامد: فانظر كيف أثّر الغناء فى تصفية قلبه حتى تمثّل له حقيقة الحقّ فى صفة جهنم وفى لفظٍ منظومٍ موزونٍ وقرع ذلك سمعه الظاهر. وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب . ويشاهد أيضا بالبصر صورة الخَضِر عليه السلام فإنه يخيّل لأرباب القلوب بصورٍ مختلفةٍ ،وفى مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الٱطلاع على ضمائر القلوب؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ٱتّقُوا فِراسةَ المؤمنِ فإنه يَنْظر بنور الله تعالى" . قال : فحاصل الوجد يَرْجع إلى مكاشفاتٍ و إلى حالاتٍ ينقسم كل واحدٍ منهما إلى ما لا يمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه وإلى ما لا تمكن العبارة عنه أصلا . وضرب لذلك أمثلة ، منها أن الفقيه قد تعرض عليه مسألتان متشابهتان فى الصورة و يُدرِك بذوقه أن بينهما فَرْقا فى الحُكْم ، فإذا كُلِّف ذكرَ وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير عنه و إن كان من أفصح الناس ، فيُدرِك بذوقه

(١) فى معجم يافوت : «محمد بن عبد الله الكاتب» .

(٢) طيزناباذ : موضع بين الكوفة والقادسية على حافة الطريق على جادّة الحاج و بينها و بين القادسية ميل ، كانت إقطاعا للأشعث بن قيس من عمر بن الخطاب وكانت من أنزه المواضع محفوفة بالكروم والشجر والحانات والمعاصر وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة «عن معجم البلدان لياقوت» .

الفرق ولا يمكنه التعبير عنه . وإدراكه الفرق علمٌ يصادفه فى قلبه بالذوق . ولا شك أنّ لوقوعه فى قلبه سببا، وله عند الله تعالى حقيقة، ولا يمكنه الإخبار عنه لقصورٍ فى لسانه بل لدقة المعنى أن تناله العبارة .

وأمّا الحال فكم من إنسانٍ يُدرِك فى قلبه فى الوقت [الذى يصبح فيه](١) قبضا أو بسطا ولا يعلم سببه ، وقد يتفكر فى شىء فيؤثّر فى نفسه أثرا فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر فى نفسه وهو يَحُسّ به . وقد تكون الحالة التى يُحِسّها سرورا يثبت فى نفسه بتفكره فى سبب موجب للسرور ؛ أو حُزْنا فينسى المتفكر فيه ويحس بالأثر عقيبه . وقد تكون تلك الحال حالة غريبة لا يُعرِب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مُفصِحةً عن المقصود؛ بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختصّ به بعض الناس دون بعض،وهى حالة يُدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها (أعنى التفرقة بين الموزون والمتزحف) ولا يمكنه التعبير عنها بما يَتّضِح به مقصوده لمن لا ذوق له . وفى النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعانى المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصُل فى السماع عن غناء مفهومٍ . فأمّا الأوتار وسائر النغماتِ التى ليست مفهومة فإنها تؤثّر فى النفس تأثيرا عجيبا، ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الأوتار، وقد يعبرّ عنها بالشوق، ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه، فهذا عجيب . والذى اضطربت نفسه بسماع الأوتار والشاهين وما أشبهه ليس يدرى إلى ماذا يشتاق، ويجد فى نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرا ليس يدرى ما هو، حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه لا حبّ آدمىٍّ ولا حبّ الله تعالى . وهذا له سِرّ، وهو أنّ كل شوقٍ فله ركنان : أحدهما صفة المشتاق وهو نوع مناسبةٍ مع المشتاق إليه . والثانى معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة

(١) الزيادة عن الإحياء .

الوصول إليه . فإن وُجِدت الصفة التى بها الشوق ووُجِد العلم بالمشتاق ووُجِدت الصفة المشوّقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نارها ، أورث ذلك دهشة وحيرة لا محالة . ولو نشأ آدمىّ وحده حيث لم ير صورة النساء ولا عرف صورة الوِقاع ثم راهق الحُلُمَ وغلبت عليه الشهوة لكان يُحِسّ من نفسه بنار الشهوة ولا يدرى أنه يشتاق إلى الوِقاع لأنه ليس يدرى صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء ؛ فكذلك فى نفس الآدمىّ مناسبة مع العالَم الأعلى واللذّاتِ التى وُعِد بها فى سِدرة المنتهى والفراديس (١) العُلا ، إلا أنه لم يتخيّل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء كالذى يسمع [لفظ] الوقاع و [اسم] (١) النساء ولم يشاهِد صورة امرأةٍ قط ولا صورة رجلٍ ولا صورة نفسِه فى المرآة ليعرف بالمقايسة . فالسماع يحرّك منه الشوق ؛ والجهل المفرط والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقرّه الذى إليه حنينه واشتياقه بالطبع ، فيتقاضاه قلبه أمرًا ليس يدرى ما هو فيدهش ويضطرب ويتحيّر ويكون كالمختنق (٢) الذى لا يعرِف طريق الخلاص . فهذا وأمثاله من الأحوال التى لا يُدرَك تمام حقائقها ، ولا يمكن المتّصِفُ بها أن يعبّر عنها . فقد ظهر انقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره . قال :

واعلم أيضا أنّ الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلّف يسمى التواجد . وهذا التواجد المتكلف ، فمنه مذموم وهو الذى يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها ؛ ومنه ما هو محمود وهو التوصّل الى الاستدعاء للأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة ؛ فإن للكسب مدخلا فى جلب الأحوال الشريفة ؛ ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء فى قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازنَ ،

(١) الزيادة فى كليهما عن الإحياء .

(٢) فى الأصل : « كالمتجنيق » والتصويب عن الإحياء .

فإن هذه الأحوال قد تُتكلّف مباديها ثم تتحقق أواخرها . وكيف لا يكون التكلّف سببا فى أن يصير المتكلّف بالآخرة طبعا ، وكل من يتعلّم القرآن أوّلا يحفظه تكلّفا ويقرؤه تكلّفا مع تمام التأمل وإحضار الذهن ثم يصير ذلك دَيْدَنا للسان مُطّرِدا حتى يجرى به لسانه فى الصلاة وغيرها وهو غافل فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه الى آخرها ويعلم أنه قرأها فى حال غفلته . وذكر أبو حامد أمثلة نحو ذلك ثم قال : وكذلك الأحوالُ الشريفة لا ينبغى أن يقع اليأس منها عند فقدها ، بل ينبغى أن يُتكلّف اجتلابها بالسماع وغيره ؛ فلقد شُوهِد فى العادات مَن اشتهى أن يعشَق شخصا ولم يكن يعشَقه فلم يزل يردّد ذكره على نفسِه ويديم النظر إليه ويقرّر على نفسه الأوصافَ المحبوبة إليه والأخلاقَ المحمودة فيه حتى عَشِقه ورسخ ذلك فى قلبه رسوخا خرج عن حدّ اختياره ، واشتهى بعد ذلك الخلاصَ منه فلم يتخلّص ، فكذلك حبُّ الله تعالى والشوقُ إلى لقائه والخوفُ من سخطِه وغير ذلك من الأحوال الشريفة إذا فقدها الإنسان فينبغى أن يتكلّف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ، ومشاهدةِ أحوالهم ، وتحسينِ صفاتهم فى النفس ، وبالجلوس معهم فى السماع ، وبالدعاء والتضرّع إلى الله تعالى فى أن يرزقه تلك الحالةَ بأن يُيسّر له أسبابها ؛ ومن أسبابها السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحبّين والمشتاقين والخاشعين ؛ فمن جالس شخصا سَرَت إليه صفاته من حيث لا يدرى . ويدلّ على إمكان تحصيل الحبّ وغيره من الأحوال بالأسباب قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه : "اللهمّ ارزقنى حبّك وحبّ من أحبّك وحبّ مَن يُقرّبنى إلى حبّك" . فقد فزع[1] إلى الدعاء فى طلب الحبّ . قال : فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفاتٍ وإلى أحوالٍ ، وانقسامه الى ما يمكن الإيضاح عنه وإلى ما لا يمكن ، وانقسامه إلى المتكلّف وإلى المطبوع .

(١) فى الأصل : «نزع» والتصويب عن الإحياء .

المقام الثالث — فى آداب السماع ظاهرًا و باطنا ، وما يُحمد من آثار الوجد ويُذمّ .

قال الإمام أبو حامد رحمه الله تعالى : فأما الآداب فهى خمس جمل :

الأوّل — مراعاة الزمانِ والمكانِ والإخوانِ . قال الجُنَيد : السماع يحتاج الى ثلاثة أشياء و إلا فلا تسمع : الزمان والمكان والإخوان . قال الغزالىّ : ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور طعامٍ أو خصامٍ أوصلاةٍ أو صارفٍ من الصوارف مع آضطراب القلب لا فائدة فيه ، فهذا معنى مراعاة الزمان ، فيراعى فراغ القلب . والمكان قد يكون شارعا مطروقا أو موضعا كريه الصورة أو فيه سبب يشغل القلب فيُتجنّب ذلك . وأما الإخوان فسببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكِر السماع متزهّدِ الظاهر مفلسٍ من لطائف القلوب كان مستثقَلًا فى المجلس وآشتغل القلب به ، وكذا إذا حضر متكبّر من أهل الدنيا فيحتاج إلى مراقبتِه ومراعاتِه ، أو متكلّف متواجِد من أهل التصوّف يرائى بالوجد والرقص وتمزيق الثوب ، فكل ذلك مشوّشات ، فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى .

الثانى — وهو نظر للحاضرين ، أن الشيخ إذا كان حوله مُريدون يضرّهم السماع فلا ينبغى أن يسمع فى حضورهم ؛ فإن سمِع فليشغلهم بشغل آخر . والمريد الذى لا يستفيد بالسماع أحدُ ثلاثةٍ : أقلّهم درجة هو الذى لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع ؛ فآشتغاله بالسماع آشتغال بما لا يعنِيه ؛ فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ، ولا من أهل الذوق فيتنعّم بذوق السماع ؛ فليشتغل بذكرٍ أو خدمةٍ و إلا فهو مضيّع لزمانه . الثانى : هو الذى له ذوق ولكن فيه بقية من الحظوظ والآلتفات إلى الشهوات والصفات البشريّة ولم ينكسِر بعدُ آنكسارًا تُؤمَنُ غوائله ، فربما يُهيّج السماع منه داعيةَ اللّهو والشهوة فينقطع طريقه ويصدّه عن الآستكمال .

الثالث : أن يكون قد آنكسرت شهوته وأُمنت غائلته وآنفتحت بصيرته وآستولى على قلبه حبّ الله تعالى ، ولكنه لم يُحكِمْ ظاهرَ العلم ولم يعرِف أسماء الله وصفاتِه وما يجوز عليه وما يستحيل ، وإذا فُتِح له باب السماع نزل المسموع فى حقّ الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز ، فيكون ضرره من تلك الخواطر التى هى كفر أعظم عليه من نفع السماع . قال سهل : كلُّ وجدٍ لا يشهد له الكتاب والسنّة فهو باطل . فلا يصلح السماع لمثل هذا ولا لمن قلبه بعدُ ملوّث بحبّ الدنيا وشهوةِ المحمدةِ والثناءِ ، ولا من يسمع لأجل التلذّذ والآستطابة بالطبع ، فيصير ذلك عادة له ويشغله عن عبادتِه ومراعاةِ قلبِه وتنقطع عليه طريقة الأدب ؛ فالسماع مَزِلّة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه .

الأدب الثالث — أن يكون مُصغيا إلى ما يقوله القائل ، حاضرَ القلب ، قليلَ الآلتفات إلى الجوانب ، متحرزًا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد ، مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبِه ومراقبةِ مايفتح الله له من رحمته فى سِرّه ، متحفّظا عن حركةٍ تُشوّش على أصحابه قلوبهم ؛ بل يكون ساكنَ الظاهر ، هادئَ الأطراف متحرزا عن التنحنح والتثاؤب ، يجلس مُطرِقًا رأسَه لخلوسِه فى فكرٍ مستغرقٍ لقلبه ، متماسكا عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجهِ التصنّع والتكلّف والمراءاة ، ساكتا عن النطق فى أثناء القول بكل ما عنه بدّ . فإن غلبه الوجد وحرّكه بغير آختيار فهو فيه معذور وغير ملوم ؛ ومهما رجع إليه آختياره فليعُد إلى هدوّه وسكونه . ولاينبغى أن يستديمه حياء من أن يقال : انقطع وجده على القرب ، ولا أن يتواجد خوفا من أن يقال : هو قاسى القلب عديم الصفاء والرقّة . قال : وقوّة الوجد تحرّك ، وقوّة العقل والتماسُك تضبط الظواهرَ . وقد يغلب أحدهما الاخر إما لشدّة قوّته ، وإما لضعف مايقابله ، ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك . فلا

تظنن أن الذى يضطرب بنفسه على الأرض أتمّ وجدا من الساكن باضطرابه، بل ربّ ساكنٍ أتمّ وجدا من المضطرب؛ فقد كان الجنيـد يتحرّك فى السماع فى بدايته ثم صار لا يتحرّك فقيل له فى ذلك فقال : (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل فى الملكوت، والجوارح متأدبة فى الظاهر ساكنة .

الأدب الرابع — ألّا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه؛ ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة؛ لأن التباكى استجلاب للحزن، والرقص سبب فى تحريك السرور والنشاط، وكل سرور مباح فيجوز تحريكه؛ ولو كان ذلك حراما لما نظرت عائشة رضى الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون(١) . وقد رُوِىَ عن جماعةٍ من الصحابة أنهم حجلوا لمّا ورد عليهم سرور أوجب ذلك [وذلك](٢) فى قصة ابنة حمزة بن عبدالمطلب لما اختصم فيها علىّ بن أبى طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضى الله عنهم، فتشاحّوا فى تربيتها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ : "أنتَ مِنّى وأنا منك" فحجل علىّ . وقال لجعفـر : "أشبهتَ خَلْقِى وخُلُقِى" فحجل . وقال لزيد : "أنت أخونا ومولانا" فحجل . الحديث . قال : والحجل(٣) : الرقص، ويكون لفرح أو شوقٍ، فحكمه حُكْم مهيِّجه إن كان فرحه محمـودا؛ والرقصُ يزيده ويؤكده فهو محمـود، فإن كان مباحا فهو مباح، وإن كان مذموما فهو مذموم. نعم لا يليق ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة لأنه فى الأكثر يكون عن لهو ولعبٍ ، وما له صورة اللعب فى أعين الناس

(١) يزفنون : يرقصون . (٢) الزيادة عن الإحياء .

(٣) فى النهاية لابن الأثير : الحجل أن يرفع رجلا ويقفز على الأخرى من الفرح وقد يكون بالرجلين إلا أنه قفز .

فينبغى أن يجتنبه المقتدَى به لئلا يصغُر فى أعين الخلق فيُتْرَكَ الاقتداءُ به . وأما تخريق الثياب فلا رُخْصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار . ولا يبعُدُ أن يغلب الوجد بحيث يمزّق ثوبه وهو لا يدرِى لغلبة سكر الوجدِ عليه أو يدرِى ولكن يكون كالمضطر الذى لا يقدر على ضبط نفسه، وتكون صورته صورة المكرِه، إذ يكونُ له فى الحركة أو التمزيق متنفّس فيضطرّ إليه اضطرار المريض الى الأنين؛ ولو كلّف الصبرَ عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختيارىّ؛ فليس كلّ فعلٍ حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه؛ فالتنفّس فعلٌ يحصُل بالإرادة، ولو كلّف الإنسان نفسه أن يمسك النفس ساعة اضطر من باطنه إلى أن يختار التنفّس، فكذلك الزعقة وتخريق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم .

الأدب الخامس — موافقةُ القوم فى القيام إذا قام واحد منهم فى وجدٍ صادق من غير رِياءٍ وتكلّف، أوقام باختيارٍ من غير إظهار وجدٍ وقام له الجماعة فلا بدّ من الموافقة، فذلك من آداب الصحبة. وكذلك إن جرت عادة طائفةٍ بتنحيةِ العمامة على موافقةِ صاحب الوجد إذا سقطت عمامته أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتخريق (١) . فالموافقة فى هذه الأمور من حُسْن الصحبة والعِشرة، إذ المخالفة موحشة. ولكلّ قومٍ رسمٌ؛ ولا بدّ من مخالقةِ الناسِ بأخلاقهم كما ورد فى الخبرِ لاسيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن المعاشرة والمجاملة وتطييب القلب بالمساعدة . وقول القائل : إنّ ذلك بدعة لم تكن فى الصحابة، فليس كلّ ما يحكم بإباحتهِ منقولا عن الصحابة ولم ينقل النهىُ عن شىء من هذا . والقيامُ عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب، بل كان الصحابةُ لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحوال كما رواه أنس رضى الله عنه ، وإن كان لم يثبت فيه نَهْىٌ عامٌّ، فلا نرى

(١) فى الإحياء . «بالتمزيق» .

به بأسا فى البلاد التى جرت العادةُ فيها بإكرام الداخل بالقيام؛ فإنّ القصد منه الاحترام والإكرام وتطييب القلب به؛ كذلك سائرُ أنواع المساعدة إذا قُصِدَ بها طيبةُ القلب واصطلح عليها جماعةٌ فلا بأس بمساعدتهم عليها؛ بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نَهْىٌ لا يقبل التأويل. ومن الأدب ألّا يقوم للرقص[1] مع القوم إن كان يُستثقل رقصه ويشوّش عليهم أحوالهم؛ إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح، والمتواجد هو الذى يلوح للجمع منه أثر التكلّف؛ ومن يقوم عن صدقٍ لا تستثقله الطباع؛ فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محكٌّ للصدق والتكلُّف. سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال: صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أضداد. هذا ملخّص ما أورده الغزالىّ رحمه الله تعالى فى معنى السماع وقسمه الى هذه الأقسام التى ذكرناها.

وأما أبو محمد علىّ بن أحمد بن سعيد بن حَزْم فقد ذكر مسألة السماع وبيّن إباحته، فبدأ بذكر الأحاديث التى احتجّوا بها وضعّف رُوَاتها نحو ما تقدّم وذكر الآية: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وأنه قيل: إنه الغناء، فليس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ثَبَتَ عن أحد من أصحابه رضى الله عنهم، فإنما هو قول بعض المفسّرين ممن لا يقوم بقوله حُجّة؛ وما كان هكذا فلا يجوز القول به. ثم لو صحّ لما كان فيه متعلَّق؛ لأنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وكلّ شىء اقتُنِىَ لِيُضَل به عن سبيل الله فهو إثم وحرام ولو أنه شراء مصحف أو تعليم قرآن. فإذًا لم يصحّ فى هذا شىء فقد قال الله عز وجلّ: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾. وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ

(١) كذا فى الإحياء. وعبارة الأصل: «ومن الأدب ألا يقوم المرقص مع القوم الرقص اذا كان ... الخ».

لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعظم الناس جُرْمًا في الإسلام مَنْ سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّم فَحُرِّم من أجل مسألته"، فصحّ أن كل شيءٍ حرّمه الله عزّ وجلّ علينا فقد فصّله لنا، وكل مالم يُفصّل تحريمه لنا فهو حلال. وآستدلّ رحمه الله على إباحته بالأحاديث التي ذكرناها، حديث عائشة عن خبر أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما في غناءِ الجاريتين، وآستدلّ أيضا بحديث نافع أن آبن عمر سَمِع مزمارا فوضع إصبعيه في أذنيه ونأى عن الطريق وقال : يا نافع، هل تسمع شيئا؟ قلت لا، فرفع إصبعيه عن أذنيه وقال : كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسَمِع مثل هذا وصنع مثل هذا . قال : فلو كان حراما ما أباح عليه الصلاة والسلام لآبن عمر سماعه ولا أباح آبن عمر لنافع سماعه؛ ولكنّه عليه الصلاة والسلام كرِه لنفسه كلّ شيء ليس من التقرّب إلى الله عز وجلّ، كما كرِه الأكل مُتّكئا، والتنشّف بعد الغسل في ثوبٍ بعدَ لذلك، والستر الموشّى على سَهْوة عائشة وعلى باب فاطمة رضي الله عنهما، وكما كرِه صلى الله عليه وسلم أشدّ الكراهة أن يبيت عنده دينار أو درهم . وإنما بُعِث عليه الصلاة والسلام مُنكِرا للمنكَر، آمرا بالمعروف . (٨٠) فلو كان ذلك حرامًا لما آقتصر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يسدّ أذنيه عنه دون أن يأمر بتركه وينهى عنه، ولم يفعل عليه الصلاة والسلام شيئا من ذلك بل أقرّه وتنزّه عنه، فصحّ أنه مباح وأن الترك له أفضل كسائر فضول الدنيا المباحة .

قال : فإن قال قائل : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ ففي أيّ ذلك يقع الغناء؟ قيل له : حيث يقع الترويح في البساتين وصباغ ألوان الثياب، ولِكُلِّ آمْرِئٍ مَا نَوَى فإذا نوى المرء ترويح نفسه وإجمامَها لتقوى على طاعة الله فما أتى ضلالا . قال : ولا يحلّ تحريم شيءٍ ولا إباحته إلا بنص من الله عز وجلّ أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنه إخبار عن الله عز وجلّ، ولا يجوز

عنه تعالى إلا بالنصّ الذى لا شكّ فيه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ كَذَبَ علىّ مُتعمِّدًا فليتبوّأ مقعدَهُ من النـار" . وقد تكلّم على إباحةِ السماعِ جماعة من العلماء . وفيما أوردناه من هذا الفصل كفاية . فلنذكر من سَمِـع الغناء من الصحابة رضى الله عنهم .

ذكر من سمع الغناء من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم

قد رُوِى أن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم سمعوا الغناء .

منهـم النعمان بن بَشير الأنصارىّ الخزرجىّ رضى الله عنه . روى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتابه المترجم : «بالأغانى» بسَنَدٍ رفعه إلى أبى السائب المخزومىّ وغيره ، قال : دخل النعمان بن بَشِير المدينة فى أيام يَزِيد بن معاوية وآبن الزُّبَير فقال : والله لقد أخفقت أذناىَ [من](١) الغناء فأسمعونى . فقيل له : لو وَجّهت إلى عَزَّة المَيْلاء . فإنها مَن قَد عرفت ؛ فقال : إى وربِّ هذه البَنِيَّة(٢) ! إنها لمن يَزِيد(٣) النفس طِيبا والعقل شَحْذا ، ابعثوا إليها عن رسالتى ، فإن أبت صرتُ إليها . فقال له بعض القوم : إنّ الثُّقْلة تشتدّ عليها لثقل بدنها ، وما بالمدينة دابّة تحملها . فقال النعمان : وأين النجائب عليها الهوادج ؟ فوجّه إليها بنجيبة فذكرت علّة ؛ فلما عاد الرسـول إلى النعمان قال لجليسِهِ : أنت كنت أخبرَ بهـا ، قوموا بنا(٤) . فقام هو مع خواصّ أصحابه حتى طرقوها ، فأذِنت وأكرمت وآعتذرت ، فقبل النعمان عذرها وقال لها : غَنِّى ، فغنّت :

---

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ١٤ ص ١٢١ طبع بولاق) .

(٢) فى الأغانى (ج ١٤ ص ١٢١) : «ورب الكعبة» .

(٣) فى الأصل : «لمن» والتصويب عن الأغانى (ج ١٤ ص ١٢١) .

(٤) كذا بالأصل . وفى الأغانى : «إليها» .

أَجَدَّ بعَـمْرةَ غُنْيانُهـا[1] * فتهجُرَ أم شأنُها[2] شانُها؟
وعَمْرةُ من سَرَواتِ النسا * ء تَنْفَحُ بالمسكِ أردانُها[3]

قال : وهذا الشعر هو لقَيْس بنِ الخطِيم فى أمّ النعمان بن بشير، وهى عَمْرة بنت رَوَاحة أخت عبدالله بن رواحة، قال : فأُشير الى عَزّة أنها أمه فأمسكت ؛ فقال : غنّنِى فوالله ما ذكر إلا كرما وطِيبا ولا تغنّى سائر اليوم غيرَه، فلم تزل تغنّيه هذا اللحن حتى آنصرف .

ومنهم حسان بن ثابت الأنصارىّ رضى الله عنه . روى أبو الفرج الأصفهانىّ بسنده الى محرز بن جعفر قال : خَتَن زَيْد بن ثابت بنيه وأولم وآجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامّة أهل المدينة، وحضر حسان بن ثابت وقد كُفّ بصره يومئذ وثقُل سمعه فوُضِع بين يديه خُوَانٌ ليس عليه غيره إلا عبد الرحمن آبنه، وكان يسأله كلما وُضِعت صحفة أطعام يد أم يدين[4] ؟ فلم يزل يأكل حتى جِىء بشِواء، فقال : أطعام يد أم يدين؟ فقال : بل طعام يدين، فأمسك يده، حتى إذا فُرِغ من الطعام ثُنِيت وِسادة وأقبلت عَزّة المَيْلاء وهى إذّا شابّة، فوُضع فى حجرها مِزْهَرٌ فضربت به وتغنّت، فكان أوّل ما آبتدأت به شِعر حسان :

فلا زال قَصْرٌ بين بُصْرَى وجِلّقٍ[5] * عليه من الوَسْمِىّ جَوْدٌ ووابِلُ

فطَرِب حسان وجعلت عيناه تتضحان على خدّيه وهو مُصغٍ لها .

(١) غنيانها : أى آستغناؤها . وفى الأصل : « عينانها » والتصويب عن الأغانى واللسان وديوان قيس بن الخطيم المطبوع فى ليبسيك سنة ١٩١٤ م . (٢) كذا فى الأصل . وفى الأغانى واللسان والديوان : « أم شأننا شانها » وكلاهما ذو معنى ، والأوّل أوجه .

(٣) جمع ردن بضم فسكون وهو مقدّم كم القميص أو القميص كله وهو أيضا ضرب من الخز الأحمر .

(٤) فى الأصل : « قال : أطعام يد أم يدين » وظاهر أن « قال » لامعنى لها .

(٥) جلق هى دمشق أو غوطتها وزنتها كحمص وقنب .

وروى أيضا بسنده إلى خارجة بن زيد أنه قال : دُعِينا الى مأدُبة فى آل بُنَيط، فحضرنا وحضر حسان بن ثابت، فجلسنا جميعا على مائدة واحدة وهو يومئذ قد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن ، وكان إذا أُتِى بطعام سأل ابنه عبد الرحمن أطعام يد أم طعام يدين؟ (يعنى بطعام اليد الثريد، وطعام اليدين الشواء لأنه ينهش نهشا) فإذا قال : طعام يد أكل، واذا قال : طعام يدينِ أمسك يده . فلما فرغوا من الطعام أتَوْا بجاريتين مغنّيتين إحداهما "رائقة" والأخرى "عَزّة" فجلستا وأخذتا مِزْهَرَيهما وضربتا ضربا عجيبا وغَنّتا بقول حسان بن ثابت :

أنظر خليلى بباب جِلّقَ هل * تُؤْنِس دون البلقاءِ من أَحَدِ

قال : فأسمعُ حسانَ يقول : قد أرانِى هناك[1] سميعًا بصيرًا، وعيناه تدمعان، فإذا سكتتا سكن عنه البكاء واذا غَنّتا يبكى . قال : وكنت أرى عبد الرحمن ابنه إذا سكتتا يشير إليهما أن غنّيا، فيبكى أبوه، فيقال : ماحاجته إلى بكاء أبيه ! . (٨١)

وروى أيضا بسندهِ الى عَبّاد بن عبد الله بن الزُّبَير عن شيخ من قريش قال : إنى وفِتْيَة من قريش عند قَيْنة ومعنا عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت إذ آستأذن حسان، فكرِهنا دخوله وشقّ علينا، فقال لنا عبد الرحمن ابنه : أيسرّكم ألّا يجلس ؟ قلنا نعم . قال : فمُرُوا هذه إذا نظرت اليه أن تُغنّى :

أولادُ جَفْنةَ حَوْل قبرِ أَبِيهِمُ * قبرِ ابنِ مارِيَةَ الكريم المُفْضِلِ

يُغْشَوْن حتى ما تَهِرُّ كلابُهم * لايسألون عن السواد المقبِلِ

قال : فغنّته، فوالله لقد بكى حتى ظننّا أنه سيلفظ نفسه . ثم قال : أفيكم الفاسِقُ؟ لعَمْرى لقد كرِهتم مجلسى اليوم . وقام فآنصرف . وهذا الشعر لحسان بن

(١) فى الأغانى (ج ١٦ ص ١٥) : « بها » .

ثابت وهو مما امتدح به جَبَلَة بن الأَيْهم، وهو من قصيدة طويلة منها قوله فى مدح آلِ جفنة :

بِيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم * شمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ

وروى أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى الحارث بن عبد الله بن العباس : أنه بينما هو يسير مع عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه بطريق مكة فى خلافته ومعه من معه من المهاجرين والأنصار، ترنّم عمر ببيت فقال له رجل من أهل العراق — ليس معه عراقىّ غيره — : غيرك فليقلها يا أمير المؤمنين ! قال : فاستحيا عمر وضرب راحلته حتى انقطعتْ مِنَ الرَّكْب . قال المقدسى : ويزيد ذلك وضوحا — وساق حدينا بسند رفعه الى يحيى بن عبد الرحمن — قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الحجّ الأكبر، حتى اذا كان عمرُ بالرُّوحاء[1] كلّم الناسُ رَبَاحَ بنَ المعترِف[2]، وكان حسنَ الصوت بغناءِ الأعراب، فقالوا : أَسْمِعْنا وقَصِّر عنّا الطريق؛ فقال : إنّى أَفْرَقُ من عمرَ . قال : فكلّم القومُ عمرَ . إنا كلّمنا رباحا أن يُسمِعَنا ويُقصِّر عنا طريقَ المسير فأبى إلّا أن تأذن له . فقال له : يارباح، أسْمِعهم وقصِّر عنهم المسير، فإذا أسْحرت فارفع وأحْدُهم بشعر ضِرار بن الخطّاب؛ فرفع عقيرتَه يتغنّى وهم محرمون .

وروى أيضا بسنده الى يَزِيدَ بن أسلم عن أبيه : أن عمر رضى الله عنه مرّ برجل يتغنّى فقال : إن الغناءَ زادُ المسافرِ .

وروى سُفْيان الثَّوْرِىّ وشُعْبة كلاهما عن أبى إسحاق السَّبِيعِىّ عن عامر بن سعد البَجَلِىّ : أن أبا مسعود البدرِىّ، وقَرَظَةَ بن كعبٍ، وثابتَ بن يزيد، وهم فى عُرُسٍ

(١) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة .

(٢) فى الأصل : « المعرف » . والتصويب عن أسد الغابة .

وعندهم غناء ، فقلت : هـذا وأنتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ! فقالوا : إنه رُخِّص لنا فى الغناء فى العرس والبكاء على الميّت فى غير نوح . إلا أن شعبة قال : ثابت بن وديعة مكان ثابت بن يزيد، ولم يذكر أبا مسعود .

وقال الإمام أبو حامد الغزالىّ رحمه الله تعالى عن أبى طالب المكىّ : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شُعْبة، ومعاوية وغيرهم، وقال : قد فعل ذلك كثير من السَّلَف صحابىّ وتابعىّ بإحسان .

وروى الحافظ أبو الفضل المقدسىّ بسند رفعه إلى عمر بن أبى زائدة قال : حدّثتنى امرأة عمر[1] بن الأصمّ قالت : مررنا ونحن جَوَارٍ بمجلس سَعِيد بن جُبَير ومعنا جارية تغنّى ومعها دُفّ وهى تقول :

لئن فَتَنَتْنى فهى بالأمس أَفْتَنَتْ * سَعِيدًا فأمسَى قد قَلَى كلّ مسلمِ
وألقَى مفاتيحَ القِراءةِ وآشترى * وِصال الغوانِى بالكتاب المُنَمْنَمِ

فقال سعيد : تكذِبين تكذِبين .

ذكر من سمع الغناء من الأئمة والعُبّاد والزّهاد

قالوا : وقد سمع الغناء من الأئمة الإمام الشافعىّ ، وأحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى، وغيرهما من أصحابهما . روى الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علىّ المقدسىّ رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى المَرِيسِىّ ، قال: مررنا مع الشافعى وإبراهيم ابن إسماعيل على دار قوم وجارية تغنّيهم :

خليلىَّ ما بالُ المطايا كأنها * نراها على الأعقاب بالقوم تَنْكُصُ[2]

(١) الذى فى شرح الإحياء (ج ٦ ص ٤٦١) : « عمرو » .

(٢) تنكص : ترجع . وقد ورد هذا البيت فى الأغانى (ج ٤ ص ١٦٤) هكذا :
خليلى ما بال المطايا كأنما * نراها على الأدبار بالقوم تنكص

فقال الشافعيّ: مِيلُوا بنا نسمع . فلما فَرَغت قال الشافعيّ لإبراهيم : أيُطرِبك هذا ؟ قال لا . قال : فما لك حِسّ !

وروى أيضا بسندٍ رفعه إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال: كنتُ أُحبّ السماع وكان أبى يكره ذلك، فواعدتُ ليلةً آبنَ الخبّازة، فمكث عندى إلى أن عَلِمتُ أنّ أبى قد نام، فأخذ يُغنّى، فسمعتُ خشْفةً فوق السطح، فصَعِدتُ، فرأيتُ أبى فوق السطح يسمع ما يغنّى وذيله تحت إبطِه وهو يتبختر كأنه يرقص. قال: وقد رويتُ هذه الحكاية أيضا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل — وساق سندا إليه — قال: كنت أدعو آبنَ الخبّازة وكان أبى ينهانا عن الغناء، وكنت إذا كان عندى كتمته من أبى لئلا يسمع. فكان ذات ليلةٍ عندى وهو يقول، فعرَضَتْ لأبى عندنا حاجةٌ — وكانوا فى زقاق — بفاء وسَمِعه يقول، فوقع فى سَمْعه شىء من قولِه، فخرجتُ لأنظر فإذا بأبى يترجح[1] ذاهبا وجائيا، فرددتُ الباب ودخلت. فلما كان من الغد قال أبى: يابنىّ، إذا كان مثل هذا فنعم الكلام، أو معناه. قال أبو الفضل: وآبن الخبّازة هذا هو أبو بكر (٨٣) محمد بن عبد الله بن يحيى بن زكريا الشاعر، وكان عاصَرَ أحمد ورثاه حين مات.

وروى أبو الفضل أيضا بسند رفعه الى [أبى] مُصْعَب[2] الزُّهْرِىّ أنه قال: حضرتُ مجلس مالك بن أنَس فسأله أبو مصعب عن السماع، فقال مالك: ما أدرى، أهلُ العلم ببلدنا لا يُنكرون ذلك ولا يقعدون عنه ولا ينكره إلا غبىٌّ جاهل أو ناسك عِراقى غليظ الطبع. وقال أيضا: أخبرنا أبو محمد التميمىّ ببغداد قال: سألتُ الشريف أبا علىّ محمد بن أحمد بن أبى موسى الهاشمىّ عن السماع فقال: ما أدرى ما أقول فيه، غير أنى حضرت دار شيخنا أبى الحسن عبدالعزيز بن الحارث التميمى سنة سبعين وثلثمائة

(١) يترجح: يتمايل.

(٢) أبو مصعب: كنية أحمد بن أبى بكر الزهرى المدنى أحد رواة الموطأ عن الامام مالك.

فى دعوة عَمِلها لأصحابه ؛ حضرها أبو بكر الأَبْهَرِىّ شيخ المالكية ، وأبو القاسم الدّارِكى شيخ الشافعية ، وأبو الحسن طاهر بن الحسن شيخ أصحاب الحديث ، وأبو الحسن ابن سمعون شيخ الوعّاظ والزهّاد ، وأبو عبد الله محمد بن مجاهد شيخ المتكلّمين ، وصاحبه أبو بكر الباقلانى فى دار شيخنا أبى الحسن التميمىّ شيخ الحنابلة ؛ فقال أبو علىّ : لو سقط السقف عليهم لم يبق بالعراق مَنْ يُفتِى فى حادثة يشبه واحدا منهم ، ومعهم أبو عبد الله غلام تامٌّ ، وكان هذا يقرأ القرآن بصوت حَسَن ، وربما قال شيئا . فقيل له : قل لنا شيئا ؛ فقال لهم وهم يسمعون :

خَطَّتْ أناملُها فى بطن قرطاس * رسالةً بعَبِير لا بأنقاس[1]

أن زُرْ فَدَيتك لى من غير مُحتَشِم[2] * فإنّ حبّك لى قد شاع فى الناس

فكان قولى لمن أدّى رسالتها * قف لى لأمشى على العينين والراس

قال أبو على : فبعد أن رأيت هذا لا يمكننى أن أُفْتِىَ فى هذه المسألة بحَظْر ولا إباحة .

وممن أحبّ السماع والغناء وسمعه من الزهّاد والعبّاد والعلماء أبو السائب المخزومىّ . روى أبو الفرج الأصبهانىّ بسنده الى صفيّة بنت الزُّبير بن هشام قالت : كان أبو السائب المخزومىّ رجلا صالحا زاهدا مُتقلِّلا يصوم الدهر ، وكان أرقّ خلق الله قلبا وأشدّهم غَزَلا . فوجّه غلامه[3] يوما يأتيه بما يُفطِر عليه ، فأبطأ الغلام الى العَتَمة . فلما جاء قال له : ياعدوَّ نفسه ، ما أخّرك إلى هذا الوقت ؟ قال : اجترت بباب فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته . فقال : هاته يا بُنَىّ ، فوالله لئن كنتَ أحسنتَ لأَحْبُوَنّك ، وإن كنت أسأت لأضربنّك . فاندفع يُغنّى بشعر كُثَيِّر :

(١) بأنقاس : جمع نقس وهو المداد . (٢) الذى فى شرح الإحياء للسيد مرتضى :
* أن زر فديتك قف لى غير محتشم *
(٣) فى الأغانى (ج ٧ ص ٣٠ طبع بولاق) : «ابنه» .

ولمّا علَوْا شَغْبًا[1] تبيّنتُ أنه * تقطّعُ من أهل الحجاز علائق
فلا زِلنَ حَسْرَى ظُلّعًا لم حَملْنها * الى بلد ناءٍ قليلِ الأصادقِ

فلم يزل يغنّيه ويستعيده الى نصف الليل . فقالت له زوجته : يا هذا ، قد انتصف الليل وما أفطرتَ . فقال لها : أنتِ الطلاقُ إن أفطرنا على غيره . فلم يزل يغنّيه ويستعيده حتى أسحر . فقالت له : هذا السَّحَر وما أفطرنا . فقال لها : أنت الطلاق إن كان سَحُورنا غيرَه . ثم قال لابنه : يابُنَيّ ، خذ جُبّتي هذه وأعطني خَلَقَك ليكون الحِباءُ فضلَ ما بينهما . فقال له : يا أبتِ ، أنت شيخ وأنا شابّ وأنا أقوى على البرد منك ، فقال له : يابُنَيّ ، ما ترك هذا الصوتُ للبرد عليّ سبيلا ما حييتُ .

ويؤيّد هذه الحكاية ماحكاه أبو طالب المكّي في كتابه ، قال : كان بعض السامعين يقتات بالسماع ليقوى به على زيادة طَيّه ، كان يَطْوِي اليوم واليومين والثلاثة ، فإذا تاقت نفسه الى القوت عدل بها الى السماع ، فأثار تواجدَه ، فاستغنى بذلك عن الطعام .

وروى أبو الفرج بسنده إلى عبد الله بن أبي مُلَيكة عن أبيه عن جدّه قال : كان بالمدينة رجل ناسك من أهل العلم والعفّة ، وكان يَغْشَى عبدَ الله بن جعفر ، فسمع جاريةً مُغَنّية لبعض النخّاسين تُغنّي :

بانت سعادُ وأمسى حَبْلُها انقطعا * واحتلّت الغَوْرَ فالجَدَّينِ فالفَرَعَا
وأنكرتْني وما كان الذي نَكِرت * من الحوادثِ إلا الشّيبَ والصّلَعَا

فهام الناسك وترك ما كان عليه ، حتى مشى إليه عطاء وطاوُس ولاماه ، فكان جوابُه لهما أن تمثّل :

يلومني فيك أقوامٌ أُجالسهم * فما أبالي أطارَ اللّومُ أم وَقَعَا

(١) شغب : منهل بين طريق مصر والشام . (عن معجم ما استعجم للبكري) .

فبلغ عبـدَ الله بن جعفر خبرُه، فبعث إلى النخاس، فآعترض الجارية وسمع غِناءها بهذا الصوت وقال : ممن أخذتيه ؟ قالت : مِن عَزَّةَ المَيْـلاء، فآبتاعها بأربعين ألف درهم . ثم بعث إلى الرجل فسأله عن خبرها فأعلمـه إياه، فقال : أتحبّ أن تسمع هذا الصوتَ ممن أخذتُه عنه تلك الجاريةُ ؟ قال نعم . فدعا عَزَّةَ المَيْلاء فقال : غنِّيه إياه . فغنّته، فصَعِق الرجل [وخرّ](١) مَغْشِياً عليه . فقال آبن جعفر : أَثْمِنَا فيه، المـاءَ المـاءَ ! فنُضح على وجهِهِ . فلمـا أفاق قال له : أكلُّ هذا بلغ بك عشقُها ؟ قال : وما خَفِيَ عليك أكثر . قال : أفتحبّ أن تسمعه منها؟ قال : قد رأيتَ ما نالني حين سمعتُه من غيرها وأنا لا أحبّها، فكيف يكون حالى إن سمعتُه منهـا وأنا لا أقدِر على مِلْكها ! فأخرجها إليـه وقال : خذها فهى لك ؛ ووالله ماتظرتُ إليها إلا عن عُرُض . فقبّـل الرجل يديهِ ورجليـهِ وقال : أَنَمْتَ عَيْنِي، وأحييتَ نفسى، وتركتنى أعيش بين قومى، ورددتَ إلىّ عقلى، ودعا له دعاء كثيرا. فقال عبد الله : ما أرضى أن أُعطِيكَها هكذا، ياغلام، آحمِلْ معه مثل ثمنها، ففعل.

٨٣

قال الغزالىّ رحمه الله فى « إحياء علوم الدين» : كان آبن مجاهد لا يُجيب دعوةً إلا أن يكون فيها سماع . قال : وكان أبو الخير العسقلانىّ الأسود من الأولياء يسمع ويَوْلَهُ عند السماع، وصنّف فيه كتابا وردّ فيه على مُنكِريه . وحُكى عن بعض الشيوخ أنه قال : رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام، فقلت : ما تقول فى هذا السماع الذى آختلف فيه أصحابنا ؟ قال : هو الصَّـفَا(٢) الزَّلَّال الذى لاتثبُت عليه إلا أقدامُ العلمـاء .

---

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ١٦ ص ١٩ طبع بولاق) .

(٢) الصفا : العريض من الحجارة الأملس .

وروى الأصفهانىّ بسند رفعه إلى ابن كُنَاسة قال : اصطحب شيخ مع شابّ فى سفينة فى الفُرَات ومعهم مغنّية . فلما صاروا فى بعض الطريق قالوا للشيخ : معنا جاريةٌ وهى تغنّى، فأحببنا أن نَسمع غناءها فهِبْناكَ، فإن أَذِنتَ فَعلْنا . فقال: أنا أصعَدُ على أطلال[1] السفينة، فاصنعوا أنتم ماشئتم ؛ فصَعِد وأخذت المغنّيةُ عودَها وغنّت :

حتى إذا الصبح بدا ضوءُهُ * وغابت الجـوزاءُ والمِرْزَمُ
أقبلتُ والوطءُ خَـفِىٌّ كما * ينسـابُ من مَكْمَنه الأَرْقَمُ[2]

فطرِب الشـيخ وصاح ، ثم رمى بنفسِه وبثيابِه فى الفُرَات وجعـل يغوص و يطفو و يقول : أنا الأرقم أنا الأرقم ! فألقَوْا أنفسهـم خلفه، فبعد لأْيٍ ما آستخرجوه ، وقالوا : ياشيخ، ماحملك على ما فعلت؟ فقال : إليكم عنّى، فإنى أعرِف من معانى الشعر ما لا تعرِفون . فقالوا له : ما أصابك؟ قال : دبّ من قدمى شىء إلى رأسى كدبيب النَّمْل ونزل من رأسى مثلُه ، فلمـا آجتمعا على قلبى عَمِلتُ ماعَمِلتُ .

وقال أحمد بن أبى دُواد : كنتُ أعِيبُ الغناءَ وأطعُنُ على أهله ؛ فخرج المعتصم يوماً إلى الشَّمَّاسِيّة فى حَرّافة، ووجّه فى طلبى فصِرتُ إليه . فلما قَرُبتُ منـه سمعتُ غناء حيَّرنى وشَغَلنى عن كلّ شىء، فسقط سَـوْطى عن يدى ، فالتفتّ إلى غلامى أطلب منه سوطا ؛ فقال لى : قد والله سقط منّى سوطى . فقلت له : أىّ شىء كان سببَ سقوطه؟ قال : صـوت سمعته فحيّرنى، فما علمتُ كيف سـقط ، فإذا قِصّـتُه قِصّتى . قال : وكنتُ أُنكر أمر الطرب على الغناء وما يستفزّ الناسَ منـه

(١) فى الأصل : « فى ظلال السفينة » والتصويب عن الأغانى (ج ٤ ص ٤١٨ طبع دار الكتب المصرية) والأطلال : جمع طلل ، وطلل السفينة : شراعها .

(٢) كذا فى الأغانى (ج ٨ ص ١٧١ طبع بولاق) وفى الأصل : « فى » .

فيغلب على عقولهم، وأناظر المعتصمَ عليه . فلما دخلتُ عليـه يومئذ أعلمته بالخبر، فضحك وقال : هذا عمّى كان يغنّينى :

إنّ هذا الطويل من آل حَفْصٍ * أَنْشَرَ المجدَ بعد ما كان ماتا

فإن تُبتَ مما كنتَ تناظر عليه من ذمّ الغناء سألته أن يُعيده ، ففعلتُ وفعل، فبلغ بى الطربُ أكثر مما يبلغه من غيرى ، ورجعتُ عن رأيى منذ ذلك اليوم . وعمّه الذى أشار إليه هو إبراهيم بن المهدىّ .

ذكر مَنْ غنّى من الخلفاء وأبنائهم ونُسِبت له أصواتٌ من الغناء نُقِلَتْ عنه

كان مَنْ غَنَّى من الخلفاء — على ما أورده أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتابه المترجم «بالأغانى» — ونسِبت له أصواتٌ جماعةٌ، منهم عمر بن عبد العزيز قد نُسِبَتْ له أصواتٌ، ومنهم من أنكر ذلك . ولعلّ مانُقل عنـه كان منه قبل الخلافة . وكان رحمه الله من أحسن الناس صوتا . فكان ممـا نسب إليه من الغناء :

عَلِقَ القلبُ سُـعَادا * عادت القلبَ فعـادا

كُلّمـا عُوتب فيهـا * أو نُهِى عنهـا تمـادى

وهو مشغوفٌ بسُعْدَى * وعَصَى فيهـا وزادا

ومما نُسِب إليه من الغناء ماقيل إنه غنّاه من شعر جرير :

قِفا يا صاحِبىّ نَزُرْ سُعَادَا * لِوَشْك فِراقها ودَعَا البِعادا (١)

(١) ورد هذا البيت فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١ أدب ش هكذا :

ألما صاحبى نزر سـعادا * لقرب مزارها وذرا البعادا

وورد هكذا أيضا فى الأغانى (ج ٨ ص ١٥٠) عدا الشطر الثانى فانه هكذا :

* لوشك فراقها وذرا البعادا *

لعَمْرُكَ إنّ نفع سعاد عنّى * لمصروف ونفعى عن سعادا
إلى الفاروق ينْتسِب آبنُ ليلى[1] * ومَرْوان الذى رفع العمادا

ومن ذلك ما قيل إنه غنّاه من شعر الأشهب بن رُمَيلة[2] :

ألا يا دِينَ قلبُك من سلَيمى * كما قد دِينَ قلبُك من سعادَا
هما سَبَتا الفؤاد وهاضتاه[3] * ولم يُدرِك بذلك ما أرادَا
قِفا نَعرِف منازلَ من سُليمى * دَوارِسَ بين حَوْمَلَ أو عُرَادَا
ذكرتُ لها الشباب وآل ليلى * فلم يزد الشبابُ بها مَزَادَا
فإن تَشِب الذوائبُ أمّ عمرو * فقد لاقيتُ أياما شدادَا

٨٤

وممّن غنّى من خلفاء الدولة العباسية، ممن دُوِّنت له صنعة، الواثق بالله أبو جعفر هارون بن المعتصم بالله بن الرشيد. حكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ قال : دخلتُ يوما دار الواثق بالله بغير إذن إلى موضع أمَر أن أدخله إذا كان جالسا، فسمعت صوت عود من بيت وترنُّما لم أسمع أحسن منه . فاطّلع خادم رأسه ثم ردّه وصاح بى، فدخلت و إذا أنا بالواثق بالله . فقال: أىَّ شىء سمعتَ ؟ فقلت : الطلاق كامل لازمٌ له وكلّ مملوك له حرّ، لقد سمعتُ ما لم أسمع مثله قطُّ حُسْنا ! فضحك وقال : وما هو ؟ إنما هذه فَضْلة أدب وعلم مدحه الأوائل وآشتهاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون بعدهم وكَثُر فى حَرَم الله عز وجلّ ومُهَاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتحبّ أن تسمعه ؟ قلت : إى والله الذى شرّفنى بخطابك وجميل رأيك . فقال : ياغلام، هات العود وأعط

(١) فى الأصل : "لبنى" . والتصويب عن الأغانى والديوان .
(٢) فى الأصل : رسلة . والتصويب عن الأغانى (ج ٨ ص ١٥٨) .
(٣) فى الأغانى (ج ٨ ص ١٥٨) : «رأصباه» .

إسحاق رطلا؛ فدفع الرطل إلىّ وضرب وغنّى فى شعر لأبى العتاهية بلحن صنعه فيه :

أضحتْ قبـــورُهم من بعـــدِ عِزّتهم * تَسْفِى عليها الصَّبا والحَرْجَفُ الشَّمِلُ
لا يَدفعون هـــوامًّا عن وُجُوهِهِـــمُ * كأنهـــم خَشَبٌ بالقاعِ مُنْجَـــدِلُ

فشربتُ الرطل ثم قمتُ . فدعوتُ له ، فاحتبسنى وقال : أتشتهى أن تسمعه بالله ؟ فقلتُ : إى والله، فغنّانيه ثانية وثالثة، وصاح ببعض خدمه وقال : احمل إلى إسحاق الساعةَ ثلاثمائة ألف درهم . قال : يا إسحاق، قد سَمِعتَ ثلاثة أصوات وشربتَ ثلاثة أرطال وأخذتَ ثلاثمائة ألف درهم، فانصرف إلى أهلك مسرورًا لُيسُرّوا معك ، فانصرفتُ بالمال . وقال أبو الفرج بسنده إلى عَرِيب المأمونيّة قالت : صنع الواثق بالله مائة صوت ما فيها صوت ساقط . ولقد صنع فىّ هذا الشـــعرَ :

هل تَعلَمين وراءَ الحبِّ منزلةً * تُدنِى إليك فإن الحبّ أقصانى
هـــذا كتابُ فتًى طالت بليّتُه * يقـــول يامُشتَكَى بثّى وأحزانى

قال : وكان الواثق بالله إذا أراد أن يَعرض صنعته على إسحاق نسبها إلى غيره فقال: وقع إلينا صوتٌ قديمٌ من بعض العجائز فاسمعه، وأمر مَن يغنّيه إياه . وكان إسحاق يأخذُ نفسه بقول الحقّ فى ذلك أشدّ أخذ، فإن كان جيّدا رَضِيَهُ واستحسنه وإن كان فاسدًا أو مُطَّرَحًا أو متوسّطًا ذكر ما فيه . فإن كان للواثق فيه هوًى سأله تقويمَه وإصلاحَ فاسدِه وإلّا اطّرحه . وقال إسحاق بن إبراهيم : كان الواثق أعلم الناس بالغناء، وبلغت صنعته مائة صوت، وكان أحذقَ مَنْ غنّى بضرب العود، ثم ذكر أغانيَه . وذكر أبو الفرج الأصفهانىّ منها أصواتا؛ منها :

ولم أرَ لَيْـــلَى غيرَ مَوْقِفِ لَيْـــلةٍ * بخَيْفِ مِنًى تَرْمِى جِمارَ المُحَصَّبِ
ويُبْدِى الحصى منها إذا خَذَفَتْ به * مِن البُرْدِ أطرافَ البنانِ المُخَضَّبِ

ألا إنما غادَرْتِ يا أمَّ مالكٍ * صدًى أيّمَا تَذْهَبْ به الريحُ يَذْهَبِ
وأصبحتُ مِن لَيْلَى الغَدَاةَ كناظرٍ * مع الصبح فى أعجاز نَجْمٍ مُغَرِّبِ

وذكر أصواتا كثيرة غير هذا تركنا ذكرها اختصارا .

قال : ولما خرج المعتصم إلى عَمُّورِيَّةَ استخلف الواثقَ . فوجّه الواثقُ إلى الجلساء والمغنّين أن يُبكّروا إليه يوما حدّده لهم، ووجّه إلى إسحاق ، فحضر الجميع . فقال لهم الواثق : إنى عزمتُ على الصّبوح، ولستُ أجلس على سريرٍ حتى أختلط بكم ونكون كالشيء الواحد، فاجلسوا معى حَلْقة ، وليكن إلى جانبِ كلّ جليسٍ مُغنّ، فجلسوا كذلك . فقال الواثق : أنا أبدأ، فأخذ العود فغنّى وشربوا وغنّى مَن بعده، حتى انتهى إلى إسحاق وأعطى العودَ فلم يأخذه، فقال : دعوه . ثم غنّوا دورا آخر، فلما بلغَ الغناءُ إلى إسحاق لم يُغنّ وفعل ذلك ثلاث مرّات . فوثب الواثق فجلس على سريره وأمر بالناس فأُدخلوا، فما قال لأحد منهم : اجلس . ثم قال : علىّ بإسحاق . فلما رآه قال : يا خُوزِىّ(١) يا كلبُ ، أتبَذّل لك وأُغنّى فترتفع علىّ ! أترانى لو قتلتك كان المعتصم يُقيدنى بك! اِبطَحوه ، فبُطِح وضُرب ثلاثين مِقْرعة ضربًا خفيفا وحلف لا يُغنّى سائر يومه سِواه ، فاعتذر وتكلّمت الجماعةُ فيه ، فأخذ العود ، وما زال يغنّى حتى انقضى مجلسه . وللواثق بالله فى الغناء أخبار وحكايات يطول بذكرها الشرح .

ومنهم المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكل على الله أبو الفضل جعفر . (٨٥)
قال يَزِيد المهلّبىّ : كان المنتصر حَسَنَ العلم بالغناء ، وكان إذا قال الشعر صَنَع فيه

(١) الخوزىّ : نسبة الى الخوز، وهى بلاد خوزستان، وأهلها ألأم الناس وأسقطهم نفسا ، كما جاء فى معجم البلدان لياقوت .

وأمر المغنّين بإظهاره . فلما وَلِىَ الخلافةَ قطع ذلك وأمر بستر ماتقدّم منه؛ فلذلك لم تظهر أغانيه .

ومنهـم المعتزّ بالله أبو عبد الله محمد بن جعفر المتوكل . ذُكر أيضا أنه كان يغنّى أصواتا . فمما غنّى به فى شعر عدىّ بن الرِّقاع :

لَعَمْرى لقد أَصْحَرتْ[1] خَيْلُنا * بأكنافِ دِجْـلةَ لِلْمُصْعَبِ

فمَن يك منّا يَبِتْ آمنا * ومَن يك من غيرنا يَهْـرُبِ

وهـذه الأبيات من قصيدة لعدىّ بن الرِّقاع قالها فى الوقعة التى كانت بين عبد الملك بن مروان ومُصْعَب بن الزُّبَير وقُتِل فيها مصعب بن الزبير، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار عبد الله بن الزبير .

ومنهـم المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله . هو ممن له يدٌ فى الغناء وصنعةٌ حسنة . ومما نُقِل من أغانيه أنه غنّى فى شعر الفرزدق :

ليس الشفيعُ الذى يأتيك مؤتزِرًا * مِثلَ الشفيع الذى يأتيك عُرْيَانَا

وقال[2] عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر : إن المعتضد جمع النغم العشر فى صوت صنعه فى شعر دُرَيد بن الصِّمّة وهو :

ياليتنِى فيهـا جَذَعْ * أَخُبّ فيهـا وأَضَعْ

قال : وآستعلمنى هـل هو صحيح القسمة والأجزاء أم لا ، فعرّفتـه صحّته ودللته على ذلك حتى تيقّنه فسرّ به . قال عبيد الله : وهو لَعَمْرى من جيّد الصنعة ونادرها . قال : وقد صنع ألحانًا فى عدّة أشعار[3] قد صنع فيهـا الفحول من القدماء والمُحْدَثين

(١) أصحرت : برزت إلى الصحراء .

(٢) من هنا ابتدأ المؤلف فى الحديث عن المعتضد الذى هو ابن المعتمد ولم يترجم له كما فعل فى سابقه

(٣) كذا فى كتاب الأغانى (ج ٩ ص ٢٠) وفى الأصل : « فى هذه الأشعار صنع » الخ .

وعارضهم بصنعتِهِ فأحسن وشاكل وضاهى فلم يعجز ولا قصّر، ولا أتى بشيءٍ يُعتذر منه . قال : فمن ذلك أنه صنع فى قول الشاعر :

أما القَطاةُ فإنى سوفَ أنعتُها * نعتًا يوافق نعتِى بعضَ مافيها

جاء فى نهاية الجَوْدة وهو أحسن ما صُنِع فى هذا الشعر على كثرة الصنعة فيه واشتراك القدماء والمُحْدَثين فى صنعته مثل مَعْبد ونَشِيط ومالك وابن مُحْرِز وسِنَان وعُمَر الوادى وابن جامع وإبراهيم وابنه إسحاق وعلّويه .

قال : وصنع فى :

تَشَكّى الكُمَيتُ الجَرْىَ لمّا جَهَدتُهُ * وبَيْنَ لو يَسْطِيع أن يَتَكَلّما

فما قَصّر فى صنعته ولا عَجَز عن بلوغ الغاية فيها مع أصوات له صنعها تُنَاهِز مائة صوت ما فيها ساقط ولا مرذول . فهؤلاء الذين لهم صنعة فى الغناء من الخلفاء .

* * *

وأما أبناء الخلفاء الذين لهم صنعة ويدٌ فى هذا الفنّ .

فمنهم إبراهيم بن المهدىّ وأخته عُلَيّة بنت المهدىّ رحمهما الله تعالى، وإبراهيم يكنى أبا إسحاق أمّه شَكْلَة أَمَةٌ مولّدة كان أبوها من أصحاب المازيار يقال له : شاه أفرند[1] قتل مع المازيار وسُبِيَت شكلة فحُمِلت إلى المنصور فوهبها لمُحَيّاة أمّ ولدِهِ فربّتها وبعثت بها إلى الطائف فنشأت هناك، فلما كَبِرَت رُدّت إليها. فرآها المهدىّ فأعجبته فطلبها من مُحَيّاة فأعطته إياها فولدت له إبراهيم .

(١) كذا بالأصل والأغانى (ج ٩ ص ٤٩) وفى الطبرى : شكلة أم إبراهيم بن المهدى وهى بنت خزاسان قهرمان المصمغان ؛ وكتب مصححه : خزبادان ، (أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب القسم الثالث ص ١٤٠ طبع أوربا) .

قال أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم قال :

كان إبراهيم بن المهدىّ أشـدَّ خَلْق الله إعظاما للغناء وأحرصَهم عليه وأشدّهم منافسةً فيه . قال : وكانت صنعته ليّنة فكان إذا صنع شيئا نسبه إلى غيره لئلا يقع عليـه طعن أو تقريع فَقَلَّتْ صنعته فى أيدى النـاس مع كثرتها . وكان إذا قيل له فيها شىء يقول : إنما أصنع تطرّبا لا تكسّبا وأُغنّى لنفسى لا للناس فأعملُ ما أشتهى . قال : وكان حُسْن صوته يستر عَوَارَ ذلك . وكان الناس يقولون : لم يُرَ فى جاهليّة ولا إسلام أخٌ وأخت أحسن غناءً من إبراهيم بن المهدىّ وأخته عُلَيّة . وكان إبراهيم يجادِل إسحاقَ ويأخذ عليـه فى مواطن كثيرة إلّا أنه كان لا يقوم له[1] ويُظهِر إسحاقُ خطأه . ووقع بينهما فى ذلك بين يدى الرشيد وفى مجلسه كلامٌ كثير أفضى إلى أمور نذكرها إن شاء الله تعالى فى أخبار إسحاق بن إبراهيم .

وكان إبراهيم بن المهدىّ فى أوّل أمرِه يتستّر فى الغناء بعض التستّر إلا أنه يذكره فى مجلس الرشيد أخيه . فلما كان من أمره فى الوثوب على الخلافة ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة العباسيّة عند ذكرنا لخلافة المأمون بن الرشيد ، ثم [لـما][2] أمّنه المأمون بعـد هربه منه تَهتّك بالغناء ومشى مع المغنّين ليلا إذا خرجوا من عند المأمون ، وإنما أراد المأمون بذلك ليظهِر للناس أنه قد خلع رِبقةَ الخلافة من عنقه وأنه تهتّك فلا يصلح للخلافة . وكان من أعلم الناس بالنغم والوَتَرِ والإيقاعاتِ وأطبعِهم فى الغناء وأحسنهم صوتا . وكان مع علمـه وطبعه ومعرفته يقصّر عن الغناء القديم وعن أن يَنْحُوَه فى صنعته . فكان يحـذِف نغم الأغانى الكثيرةَ العمل حذفا شديدا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «لا يقوم به» وهو تصحيف .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

ويحقّقها على قدر ما يصلح له ويفى بأدائه فاذا عِيب ذلك عليه قال : أنا ملِك وآبن ملِكٍ و إنما أغنّى على ما أشتهى وكما ألتذّ . فهو أوّل من أفسد الغناء القديم .

ورُوِى عن حمدون بن إسماعيل قال : قال إبراهيم بن المهدىّ : لولا أنّى أرفع نفسى عن هذه الصناعة لأظهرتُ منها ما يعلم الناسُ معه أنهم لم يرَوْا قبلى مثلى .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ عن جعفر بن سليمان الهاشمىّ قال : حدّثنا إبراهيم آبن المهدىّ قال :

دخلت يوما على الرشيد و بى فَضْلَةُ خُمارٍ[1] وبين يديه آبن جامع و إبراهيم الموصلىّ (٨٦) فقال : بحياتى يا إبراهيم غنّ ، فأخذتُ العود ولم ألتفتْ إليهما لما فى رأسى من الفَضْلة فغنّيتُ :

أَسْرَى بخالِدَةَ[2] الخيالُ ولا أرَى * شيئا ألذّ من الخيال الطارقِ
إن البليّةَ من تَمَلّ حديثَه * فآنفَعْ فؤادَك من حديث الوامق
أهْواكِ فوق هَوَى النفوس ولم يزل * مذ بِنتِ قلبى كالجَناح الخافقِ
شوقًا إليك ولم تجازِ مودّتى * ليس المكذّب كالحبيب الصادقِ

فسمعتُ إبراهيم يقول لآبن جامع : لو طلَب هذا بهذا الغناء ما نطلب لما أكلنا خبزًا أبدا فقال آبن جامع : صدقتَ ، فلما فرغتُ من غنائى وضعتُ العود ثم قلت : خذا فى حقّكما ودعا باطلَنا .

ورُوِىَ عن إبراهيم قال :

كان الرشيد يحبّ أن يَسمَعنى فخلا بى مَرّات إلى أن سَمِعنى ، ثم حضرتُه مرّةً

(١) كذا فى الأغانى (ج ٩ ص ٥٠) وفى الأصل : « طربة خمار » .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « لخالدة » باللام .

وعنده سليمان بن أبى جعفر فقال لى : عمُّك وسيّدُ ولد المنصور بعد أبيك وقد أحبَّ أن يَسمعك، فلم يتركنى حتى غنّيتُ بين يديه :

سَقْيًا لربعِك من رَبعٍ بذى سَلَمِ * وللزمانِ بهِ إذ ذاك من زمنِ
إذ أنتِ فينا لمن يَنهاكِ عاصيةٌ * وإذ أجُرُّ إليكم سادِرًا رَسَنى (١)

فأمر لى بألف ألف درهم ، ثم قال لى ليلةً ولم يَبْق فى المجلس عنده إلا جعفر ابن يحيى : أنا أحبّ أن تُشرّف جعفرًا بأن تُغنّيَه صوتا فغنّيتُه لحنا صنعتهُ فى شعر الدّارِمىّ :

كأنّ صورتها فى الوصفِ إذ وُصِفت * دينارُ عَيْنٍ من المضروبةِ العُتُقِ

فأمر لى الرشيد بألف ألف درهم .

وحُكِىَ عن إسحاق بن ابراهيم قال : لما صنعت صوتى الذى هو :

قُلْ لمَنْ صدّ عاتِبًا * ونأى عنك جانِبًا
قد بلغتَ الذى أرد * تَ وإن كنتَ لاعِبًا
وٱعترفنا بما ٱدّعيـ * ـتَ وإن كنتَ كاذبا
فٱفعل الآن ما أرد * تَ فقد جئتُ تائبًا

اتصل خبرُه بإبراهيم بن المهدىّ فكتب إلىّ يسألنى عنه ، فكتبتُ إليه الشعر وإيقاعَه وبسيطه (٢) ومجْراه وإصبعَه وتجزِئتَه وأقسامَه ومخارجَ نغمه ومواضعَ مقاطعه ومقاديرَ أدواره وأوزانه فغنّاه ثم لقِينى فغنّانِيه، ففضّلنى فيه بحسن صوته .

وقال ٱبن أبى طيبة : كنت أسمع إبراهيم بن المهدىّ يتنحنح فأطرب .

(١) السادر : المتحير، والرسن : الحبل .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « وبساطه » وهو تحريف .

وعن محمد بن خير عن عبد الله بن العباس الرَّبيعىّ قال :

كنّا عند إبراهيم بن المهدىّ ذاتَ يوم وقد دعا كلَّ محسن من المغنّين يومئذ وهو جالس يُلاعب أحدَهم بالشَّطْرَنج فترنّم إبراهيم بصوت فريدةَ فى شعر أبى العتاهية :

قال لى أحمدُ ولم يَدْرِ ما بى * أتحبُّ الغَداةَ عُتْبَةَ حقّا

فتنفّستُ ثم قلتُ نعم حبًّا جرى فى العروق عِرْقًا فعِرقًا

وهو متكئ(١)، فلما فرغ ترنّم به مخارق فأحسن فيه وأطربنا(٢) وزاد على إبراهيم، فغنّاه إبراهيم وزاد فى صوته على غِناءِ مخارِق . فلما فرغ ردّه مخارِقٌ وغنّاه بصوته كلّه وتحفّظ فيه وكِدنا نطير سرورًا . فاستوى إبراهيم جالسًا وكان مُتّكئًا وغنّاه بصوته كلّه ووفّاه نغمه وشذوره ونظرتُ إلى كتفيه تهتزّان وبدنه أجمع يتحرّك إلى أن فرغ منه ومخارِقٌ شاخِص نحوه يُرْعَد وقد انتُقِع لونه وأصابُعه تختلج فخُيِّل إلىّ أن الإيوان يسير بنا، فلما فرغ منه تقدّم إليه مخارق فقبّل يده وقال : جعلنى الله فِداك أين أنا منك ! ثم لم يَنْتفع مخارق بنفسه بقيّة يومه فى شىءٍ من غنائه، والله لكأنما كان يتحدّث .

ورُوِى عن منصور بن المهدىّ قال :

كنت عند أخى إبراهيم فى يوم كانت عليه فيه نَوْبة لمحمد الأمين، فتشاغل بالشرب فى بيته ولم يمضِ، وأرسل إليه الأمين عدّةَ رسل فتأخّر . قال منصور : فلمّا كان من غَدٍ قال لى : ينبغى أن نعمل على الرواح إلى أمير المؤمنين فنترضّاه ، فما أشُكّ فى غضبه علينا . فمضينا فسألنا عن خبره فأُعلِمنا أنه مشرف على حير(٣) الوحش وهو مخمور ، وكان من عادته ألّا يشرب إذا لحِقه الخُمَار . فدخلنا ، وكان طريقنا على

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « يبكى » وهو تحريف .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « فأطربه » .

(٣) كذا فى الأغانى . والحير : شبه الحظيرة . وفى الأصل : « حاشر الوحش » وهو تحريف .

حُجْرة تُصنع فيها الملاهى ، فقال لى : اذهب فاختر منها عودا ترضاه وأصْلِحه غايةَ الإصـلاح حتى لا يُحتاجَ إلى إصلاحه وتغييره عنـد الضرب به ؛ ففعلتُ وجعلته فى كُمِّى . ودخلنا على الأمين وظَهْرُه إلينا . فلمـا بَصُرْنا به من بُعْـدٍ قال : أخْرِج عودك فأخرجته ، فاندفع يُغنِّى :

وكأسٍ شَرِبتُ على لَذّةٍ * وأُخرى تداويتُ منها بها
لِكى يعلَمَ الناسُ أنى امرؤٌ * أتيتُ الفُتُوّةَ من بابها
وشاهـدُنا (١) الوردُ والياسَمِيـ * ـنُ والمُسْـمِعات بقُصّابها (٢)
وبربطُنا (٣) دائمٌ مُعْـمَلٌ * فأىّ الثلاثةِ أزرَى بهـا

فاستوى الأمين جالسـا وطَرِب طَرَبًا شـديدا وقال : أحسنتَ والله يا عمّ وأحييتَ لى طربا . ودعا برطل فشربه على الريق وابتدأ (٤) شربه . قال منصور : وغَنّى إبراهيم يومئـذ على أشَـدّ طبقة يُتناهَى إليهـا فى العود ، وما سَمِعت مثـل غنائه يومئـذ قط . ولقـد رأيتُ منـه شيئًا عجيبـا لو حُدِّثْتُ به ما صَدَّقْتُ : كان إذا ابتدأ يغنّى صَغَتِ الوحوش إليه ومدّت أعناقها ، ولم تزل تدنو حتى تكاد تضع رءوسها على الدُّكّان الذى نحنُ عليه ، فإذا سَكَت نَفَرتْ وبَعُدتْ عنّا حتى تنتهى إلى أبعدِ غاية يمكنها التباعدُ عنّا فيها ، وجعل الأمين يَعْجَب من ذلك . وانصرفنا من الجوائز بمـا لم يُنْصَرف بمثله قطّ .

وعن الحسن بن إبراهيم بن رَبَاح قال :

كنتُ أسأل مُخَارِقًا : أىّ الناس أحسنُ غناء؟ فكان يجيبنى جوابا مجملا ، حتى

(١) فى الأغانى واللسان : « وشاهدنا الجل » . وقال صاحب اللسان : والجل الذى فى شعر الأعشى هو الورد ، فارسىّ معرب .
(٢) القصاب : الأوتار التى سوّيت من الأمعاء . وقيل : جمع قاصب وهو الزامر .
(٣) البربط : العود .
(٤) فى الأغانى (ج ٩ ص ٥٦ طبع بولاق) : « وامتدّ فى شربه » .

حقّقت عليه يوما فقال : كان إبراهيم الموصِلِيّ أحسن غِناءً من آبن جامع بعشر طبقات ، و إبراهيم بن المهدىّ أحسن غناءً منى بعشر طبقات . ثم قال لى : أحسنُ الناسِ غناءً أحسنُهم صوتا . و إبراهيم بن المهدىّ أحسن الإنسِ والجنّ والوحشِ والطيرِ صوتًا ، وحسبُك هذا ! .

وعن إسحاق بن إبراهيم قال :

غَنّى إبراهيم بن المهدىّ ليلةً محمدا الأمينَ صوتا لم أرضَه فى شعر لأبى نُوَاس ، وهو :

يا كثيرَ النّوح فى الدِّمَنِ * لا عليها بل على السَّكَنِ
سُنَّةُ العشّاقِ واحدةٌ * فإذا أحببتَ فآستَنِ (١)
ظنّ بى مَن قد كَلِفتُ به * فهو يخفونى على الظَّنَنِ
رَشَأٌ لولا ملاحتُه * خَلَتِ الدُّنيا من الفِتَنِ

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار . فقال له إبراهيم : يا أمير المؤمنين . أجزتَنى إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم ! فقال : وهل هى إلا خراج بعض الكُوَر (٢) . هكذا رواه إسحاق ، وقد حُكيت هذه الحكايةُ عن محمد بن الحارث ، وفيها أن إبراهيم لما أراد الآنصراف قال : أوقِرُوا زورق عمّى دنانير فأوقروه ، فآنصرف بمال جليل .

قال : وكان محمد بن موسى المنجّم يقول : حكمت أنّ إبراهيم بن المهدىّ أحسنُ الناسِ كلهم غناء ببرهان ، وذلك أنّى كنتُ أراه فى مجالس الخلفاء مثل المأمون والمُعْتَصِم يغنّى المغنّون ويُغَنّى ، فإذا آبتدأ بالصوت لم يبق من الغلمان أحد إلا ترك ما فى يديه وقرُب من أقرب موضع يمكنه أن يسمعه فلا يزال مُصْغيا إليه لاهيا عما

(١) فى الأغانى : " فاستكن " .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «بعض الكوفة» وهو تحريف .

كان فيه ما دام يغنّى، حتى إذا أمسك وتَغَنَّى غيرُه رجعوا إلى التّشاغُلِ بما كانوا فيه ولم ينبعثوا إلى شيءٍ . فلا برهان أقوى من هذا [فى مثل هذا من](١) شهادة الفِطَن به وٱتّفاق الطبائع مع ٱختلافها وتشعُّب طرقها على الميل اليه والانقياد نحوه .

ولإبراهيم بن المهدىّ أصوات معروفة . منها ما غنّاه بشعر مَرْوان بن أبى حَفْصة :

هل تَطْمِسون من السماءِ نجومَها * بأكُفِّكم أو تستُرون هِلالَها
أو تدفَعون مقالةً من ربكم * جـبريلُ بلّغها النبىَّ فقالها
طرقَتْـك زائرةٌ فحَىَّ خيالَها * زهراء تخلِط بالدّلال جمالَها

وأمّا عليّة بنت المهدىّ . فقد قيل : ما ٱجتمع فى جاهليّةٍ ولا إسلامٍ أخٌ وأخت أحسنُ غناء من إبراهيم بن المهدىّ وأخته عليّة . ورُوى عن أبى أحمد ابن الرشيد قال : كنت يوما بحَضْرة المأمون وهو يشرَب ، ثم قام وقال لى : قم ؛ فدخل دار الحُرَم ودخلت معه ، فسمعت غناءً أذهل عقلى ولم أقدِر أن أتقدّم ولا أتأخّر ؛ وفَطِن المأمون لما بى فضحك وقال : هذه عمّتك عليّة تُطارِح عمّك إبراهيم .

قال أبو الفرج : وأمّ عليّة أمّ ولدٍ مغنّية يقال لها مكنونة ، كانت من جوارى المَرْوانيّة المغنّية . والمروانيّة هذه ليست من آل مروان بن الحكم ، وإنما هى زوجة الحسن بن عبد الله بن عُبَيد الله بن العباس . وكانت مكنونة من أحسن جوارى المدينة وجهًا ، وكانت رسحاء(٢) ، وكانت حسنة البطن والصدر . فاشتُريت للمهدىّ فى حياة أبيه بمائة ألف درهم ؛ فغلبتْ عليه حتى كانت الخَيْزُرانُ تقول : ما مَلَك

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٩ ص ٧٢ طبع بولاق) .
(٢) رسحاء : قليلة لحم العجيزة .

أَمَةً أغلظ علىّ منها . ولما اشتُريتْ للمهدىّ ستَر أمرَها عن أبيه المنصور حتى مات، وولدتْ للمهدىّ عليّة هذه .

وكانت عليّة بنت المهدىّ من أجمل الناس وأظرفهم ، تقول الشعر الجيِّد وتصوغ فيه الألحان الحسنة . وكان فى جبينها فضلُ سَعة ، فاتّخذت العصائب المكلّلة بالجوهر لتستُرَ بها جبينَها ؛ فهى أوّل من أحدث ذلك .

قال : وكانت عليّة حسنةَ الدِّين، وكانت لا تغنّى ولا تشرب النبيذَ إلّا إذا كانت مُعترلة الصلاة ؛ فإذا طَهُرت أقبلت على الصلاة وقراءة القرآن وقراءة الكتب . ولم تَلْهُ بشىءٍ غير قول الشعر فى الأحيان ، إلّا أن يدعوها الخليفة إلى شىءٍ فلا تَقدِر على خلافه . وكانت رحمها الله تقول : ما حرّم الله شيئا إلا وقد جعل فيما حلَّل منه عِوَضا، فبأىِّ شىءٍ يحتجّ عاصِيه والمُنتهِك لحُرُماته ! . وكانت تقول : لا غَفَر الله لى فاحشةً ارتكبتها قطُّ ، وما أقول فى شعرى إلّا عبثا .

وعن سَعيد بن هُرَيم قال : كانت عليّة بنت المهدِىّ تحبّ أن تراسل بالأشعار من تختصّه، فاختصّت خادمًا يقال له طَلٌّ من خدم الرشيد، تُراسله بالشعر . فلم تره أيّاما ؛ فمشت على ميزاب وحدّثته ثم قالت فى ذلك :

قد كان ما كُلِّفْتُه زمنا * ياطلُّ من وَجْدٍ بكم يكفى
حتى أتيتُك زائرا عَجِلا * أمشِى على حَتْفٍ إلى حَتْفى[1]

فحلف عليها الرشيد ألّا تُكلِّم طَلًّا ولا تُسمِّيه باسمه ، فضَمِنت له ذلك . واستمع عليها يومًا وهى تقرأ آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله عز وجل : ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾ فأرادت أن تقول : (فَطَلٌّ) فقالت : فالذى نهى عنه أمير المؤمنين . فدخل

(١) فى الأصل : "أمشى على حتفى الى حتفى" .

الرشيد فقبّل رأسها وقال : قد وهبتُ لكِ طَلًّا ولا أمنعكِ بعدها من شيءٍ تُرِيدينَه. ولها فى طلّ هذا عدّة أشعار صنعت فيها ألحانا، وكانت فى بعضها تصحّف آسمه وتَكْنِى عنه بغيره. وكانت أيضا تقول الشعر فى خادم لها يقال له : رَشَا وتَكْنِى عنه بزينبَ. فمن شعرها فيه :

وَجَدَ الفؤادُ بزينبَا * وَجْدًا شـــديدًا مُتْعِبَا
أصبحتُ مِن كَلَفٍ بها * أُدْعَى شَـــقِيًّا مُنْصَبَا
ولقد كَنَيتُ عن آسمها * عمـدًا لكى لا تَغْضَبا
وجعلتُ زينبَ سُـتْرَةً * وكَتَمتُ أمرًا مُعْجِبا
قالت وقد عَزّ الوِصا * لُ ولم أجِدْ لى مَذْهَبا
واللهِ لا نِلتَ المـــوَدَّةَ أو تنالَ الكوكبا

فصحّفت آسمه فى قولها : "زينبا"، وهذا من الجناس الخطّى. قال : وكانت لأمّ جعفر جارية يقال لهـا طُغْيان ، فوشتْ بعليّـة إلى رَشَا وحكت عنها ما لم تقل . فقالت عليّة :

لِطُغيانَ خُفٌّ مُذْ ثلاثين حِجَّةً * جديدٌ فلا يَبْـلَى ولا يَتَخَـرَّقُ
وكيف يَبِلَى خُفٌّ هو الدهرَ كلَّه * على قدميهـا فى السماءِ(١) معلَّقُ
فما خَرَقتْ خُفًّا ولم تُبْلِ جَوْرَبًا * وأمّا سَـــراويلاتها فتُمَـزَّقُ

ورُوِى عن أبى هَفّان قال :

أُهديت للرشيد جاريةٌ فى غاية الجمال، فخلا معها يوما وأخرج كلَّ قَيْنة فى داره وأصطبح. وكان مَنْ حضر من جواريه الغناءَ والخدمةَ فى الشراب زُهاء ألفى جارية فى أحسن زِىٍّ من كل نوعٍ من أنواع الثياب والجوهر . وآتصل الخبر بأمّ جعفر

(١) رواية الأغانى (ج ٩ ص ٨٥ طبع بولاق) : "فى الهواء" .

فعظم عليها ذلك ؛ فأرسلت إلى عليّة تشكو إليها . فأرسلت إليها عليّة : لا يهولنّك هذا ، والله لأردّنه إليك . قد عزمتُ أن أضع شعرًا وأصوغ فيه لحنًا وأطرحه على جَوَارِيّ ، فلا تُبْقِي عندكِ جاريةً إلا بعثتِ بها إليّ وألبسيهنّ أنواعَ الثّيابِ ليأخذن الصوت مع جوارِيّ ؛ ففعلت أمّ جعفر ما أمرتها به . فلما جاء وقت صلاةِ العصرِ لم يشعر الرشيد إلا وعليّة وأمّ جعفر قد خَرجتا إليه من حُجرتيهما معهما زُهاء ألفى جارية من جوارِيهما وسائر جوارى القصر عليهنّ غرائب اللّباس وكلهنّ فى لحن واحد هَزَج صنعته عليّة وهو :

مُنْفصِلٌ عنّى وما * قلبيَ عنه مُنْفصِلْ
يا هاجرِى اليومَ لمن * نَوَيْتَ بعدِى أن تَصِلْ

فطَرِب الرشيد وقام على رجليه حتى آستقبل أمّ جعفر وعليّة وهو على غاية السرور ، وقال : لم أر كاليوم قطّ . يا مسرور ، لا تُبْقينّ فى بيت المال درْهمًا إلا نَثَرته . فكان ما نُثِر يومئذ ستة آلاف ألف درهم ، وما سُمِع بمثل ذلك اليوم .

ورُوِى عن عَريب أنها قالت : أحسنُ يوم رأيتُه فى الدنيا وأطيبُه يوم آجتمعت فيه مع إبراهيم بن المهدىّ عند أخته عليّة وعندها أخوهما يعقوب بن المهدىّ ، وكان أحذق الناس بالزّمْر . فبدأت عليّة فغنّت من صنعتها وأخوها يعقوب يزمُر عليها :

تَحبَّبْ فإنّ الحبّ داعيةُ الحبِّ * وكم من بعيدِ الدارِ مُستوجبُ القربِ
تَبَصّرْ فإنْ حُدِّثْتَ أنّ أخا هوًى * نجا سالمًا فارْجُ النجاةَ من الحبّ
إذا لم يكن فى الحبّ سُخْطٌ ولا رِضًا * فأين حلاواتُ الرسائلِ والكُتْب

وغنّى إبراهيم فى صنعته و زمّر عليه يعقوب :

لم يُنْسِنِيكِ سرورٌ لا ولا حَزَنٌ * وكيف لا ، كيف يُنْسَى وَجْهُكِ الحَسَنُ
ولا خلا منكِ قلبي لا ولا جَسَدِى * كُلّى بكُلّكِ مشغولٌ ومُرْتَهَنُ

يافردةَ الحُسْنِ مالى منك مذ كَلِفَتْ * نفسى بحُبّك إلّا الهمُّ والحَزَنُ
نُورٌ تولّد من شمس ومن قَمَرٍ * حتى تكامل فيك الروحُ والبَدَنُ (١)

قالت عَريب : فما سَمِعتُ مثل ما سَمِعتُ منها قط وأعلم أنى لا أسمع مثله أبدا .

(٨٩) ورُوِى عن خَشْف الواضحيّة قالت : تَمارَيْتُ أنا وعَريب فى غِناء عُلَيّة بحَضْرة المتوكل أو غيره من الخلفاء . فقلت أنا : هى ثلاثة وسبعون صوتا ، وقالت عَريب : هى آثنان وسبعون صوتا . فقال المتوكل : غنّيا غناءها ؛ فلم أزَلْ أُغَنّى غناءها حتى مضى آثنان وسبعون صوتا ، ولم أدرِ الثالثَ والسبعين . قالت : فقُطِع بى وآستعلتْ عَريب وآنكسرتُ . قالت خَشْف : فلما كان الليل رأيت عُلَيّة فيما يرى النائم ، فقالت : ياخَشْف خالفتك عَريب فى غنائى . قلت : نعم يا سيّدتى . قالت : الصواب معك ، أفتدرين ما الصوت الذى أُنْسِيتِيه ؟ قلت : لا والله ، ولَوددتُ أنّى فَدَيتُ ما جرى بجميع ما أملك . قالت : هو :

بُنِى الحُبُّ على الجَوْرِ فلو * أنصف المعشوقُ فيه لَسَمُجْ
ليس يُستَحسَن فى وصف الهوى * عاشقٌ يَعْرِف تأليفَ الحُجَجْ
وقليلُ الحبِّ صِرْفًا خالصًا * لك خيرٌ من كثيرٍ قد مُزِجْ

وكأنها قد آندفعت تغنّى به ، فما سَمِعتُ أحسن مما غنّته ، وقد زادتنى فيه أشياء فى نومى لم أكن أعرفها ، فآنتبهتُ وأنا لا أعقِل فَرَحًا به . فباكرتُ الخليفة وذكرت له القِصّة . فقالت عَريب : هذا شىء صَنعتِه أنتِ لما جَرَى أمس ، وأمّا الصوت فصحيح . فحلفتُ للخليفة بما رَضِىَ به أنّ القِصّة كما حكيتُ . فقال : رؤياكِ والله أعجب ، رحِم الله عُلَيّة ! فما تركتْ ظَرْفها حيّة ولا ميّتة . وأجازنى جائزة سَنِيّة .

(١) فى الأغانى (ج ٩ ص ٨٩ طبع بولاق) : « منه » .

وروى أبو الفرج أيضا بسنده إلى محمد بن جعفر بن يحيى بن خالد قال :

شَهِدتُ أبى جعفرًا وأنا صغير وهو يحدّث جَدّى يحيى بن خالد فى بعض ما كان يُخبره به من خَلْوته مع هارون الرشيد، قال: يا أبتِ، أخذ بيدى أمير المؤمنين وأقبل فى حُجَرِهِ يخترقها حتى آنتهى إلى حُجْرةٍ مُغْلَقة، ففتحها بيده ودخلها ودخلت وأغلق بابها من داخلٍ بيده، ثم صِرْنا إلى رِوَاق ففتحه، وفى صدره مجلس مُغْلَق فقعد على باب المجلس، ونَقَر الباب بيده نَقَرات فسمعنا حِسًّا، ثم أعاد النَّقْرَ ثانيةً فسمِعنا صوت عود، ثم أعاد النقر ثالثةً فغنّت جارية ما ظننتُ واللهِ أنّ الله جلّ وعزّ خلق مثلها فى حسن الغناء وجودة الضرب . فقال [لها](1) أمير المؤمنين بعد أن غنّت أصواتا : غَنِّى صوتى؛ فغنت صوته، وهو :

ومُغَنِّثٍ شهِد الزِّفافَ وقبلَه * غَنَّى الجَوَارِى حاسِرًا ومُنَقَّبَا
لَبِس الدَّلَالَ وقام ينقُر دُفَّه * نَقْرًا أقرّ به العيونَ وأطربا
إنّ النساءَ رأينه فعَشِقْنَه * فشَكَوْنَ شِدّة ما بِهِنّ فأكذبا

قال : فطَرِبتُ واللهِ طَرَبًا هَمَمتُ معه أن أنطَح برأسى الحائط . ثم قال : غنِّى :

* طال تكذيبى وتصديق *

فغنّت :

طال تكذِيبى وتصدِيقِى * لم أجِدْ عهدًا لمخلوقِ
إنّ ناسًا فى الهوى غَدَرُوا * حَسَّنُوا نقضَ المواثيقِ
لا تَرَانِى بعدهمْ أبدًا * أشتكِى عِشْقًا لمعشوقِ

قال : فرَقَص الرشيدُ ورقصتُ معه ؛ ثم قال : آمِض بنا ، فإنى أخشى أن يبدو منّا ما هو أكثر من هذا، فمَضَينا . فلمّا صِرْنا إلى الدِّهْليز قال وهو قابضٌ على يدى :

(1) زيادة عن الأغانى .

هل عرفتَ هذه المرأة؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : فإنّى أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتم ذلك وأنا أُخبرك بهـا ، هذه علية بنت المهدىّ . ووالله لئن لفظتَ به بين يدى أحد و بلَغنى لأقتلنّك . قال : فسمعت جَدّى يقول لأبى : فقد والله لفظتَ به ؛ ووالله ليقتلنّك ، فاصنَعْ ما أنت صانع .

وأخبار عُلَيّة وأغانيها كثيرة ، وقد ذكرنا منها ما يُكْتَفَى به .

قال أبو الفرج : وكان مولد عليّة سنة ستين ومائة ، وتوفّيت سـنة عشرة ومائتين ، وقيل : سنة تسع ومائتين ، ولها خمسون سنة . وكانت عند موسى بن عيسى ابن موسى بن محمد بن على بن عبـد الله بن عبّاس رضى الله عنهـما . وكان سبب وفاتهـا أنّ المأمون ضمّها اليه وجعل يقبّل رأسها ووجهها مُغَطًّى ، فشَرِقت من ذلك وسَعَلَتْ ثم حُمّت بعقب هذا أيّامًا يسيرةً وماتت . رحمها الله .

ومنهم أبو عيسى بن الرشيد . هو أبو عيسى أحمد ، وقيل : بل اسمه صالح بن هارون الرشيد[1] . وأمّه أمّ ولد بربريّة . كان من أحسنِ الناسِ وجها ومجالسة وعِشْرةً وأُبَّهم وأحدّهم نادرةً وأشدّهم عبثًا . وكان أبو عيسى جميلَ الوجه جِدّا ؛ فكان إذا عزَم على الركوب جلس الناسُ له حتى يروه أكثر مما كانوا يجلسون للخلفاء . وكانت عَريب المأمونيـة تقول : ما سَمِعتُ غِناءً أحسنَ من غِنـاء أبى عيسى بن الرشيد ، ولا رأيتُ وجهًا أحسنَ من وجهه .

ورُوِى أنّ الرشـيد قال يوما لأبى عيسى وهو صبىٌّ : ليت جمالَك لعبد الله ! (يعـنى المأمون) فقال له : يا أمير المؤمنين ، على أنّ حظّه منك لى . فعجِب الرشيد من جوابه على صِباه وضمّه إليه وقبّله .

(١) للرشيد عدّة أولاد منهم أبو عيسى وصالح وغيرهما . (انظر كتاب المعارف لابن قتيبة) .

قال أبو الفرج : وكان أبو عيسى جَيِّد الصَّنْعة، وله أغانٍ منسوبةٌ إليه ومعروفةٌ به . منها :

رَقَدت عنكَ سَلْوتى * والهوَى ليس يَرْقُدُ
وأطار السهادُ نَوْ * مِى فنومى مُشَرَّدُ
أنتَ بالحُسْنِ منك يا * حَسَنَ الوجهِ يُشْهَدُ
وفُؤادِى بحُسْنِ وجـ * ـهِك يَشْقَى ويَكْمَدُ

وله غير هذا من الأصوات . قال : وكان كثير البَسْط والمُجُونِ والعَبَث . وكان المأمون أشدّ الناس حبًّا له ، وكان يُعِدّه للأمر بعده ويذكر ذلك كثيرا . حتى لقد حُكِىَ عنه أنه قال يوما : إنه ليسهُل علىّ أمرُ الموتِ وفَقْدُ المُلْكِ، ولا يسهل شىء منهما على أحد، وذلك لمحبّتى أن يَلِى أبو عيسى الأمرَ بعدى لِشدّة حبِّى إياه. (٩٠) وكانت وفاة أبى عيسى فى سنة سبع ومائتين .

رُوِىَ عن عبد الله بن طاهر قال : حدّثنى من شَهِد المأمون ليلةً وهم يتراءون هِلالَ شهر رمضان وأبو عيسى أخوه معه وهو مُستلقٍ على قفاه، فرأوه وجعلوا يدعون . فقال أبو عيسى قولا أُنْكِرَ عليه ؛ كأنه يسخَط لورود الشهر، فما صام بعده . ونُقِل عنه أنه قال :

دهانِى[1] شهرُ الصوم لا كان من شهرِ * ولا صمتُ شهرًا بعدَه آخرَ الدهرِ
فلو كان يُعْدِينى الإمامُ بقُدْرةٍ * على الشهر لاستَعْدَيتُ[2] جُهْدِى على الشهرِ

فناله بعقب هذا القول صَرْعٌ ، فكان يُصْرَع فى اليوم مرّات حتى مات . ولمّا مات وَجَدَ المأمون عليه وجدا شديدا .

(١) كذا فى الأغانى (ج ٩ ص ٩٦ طبع بولاق) . وفى الأصل : «دعانى» .
(٢) يقال : استعديت على فلان الأمر فأعدانى أى استعنت به عليه فأعانى .

رُوى عن محمد بن عبَّاد المُهَلَّبِيّ قال :

لمّا مات أبو عيسى بن الرشـيد دخلتُ على المأمون فخلعتُ عمامتى ونبذتها ورائى — والخلفاءُ لا تُعَزَّى فى العمائم — فقال لى : يا محمد، حالَ القَدَرُ، دون الوَطَر. فقلت : يا أمير المؤمنين، كُلُّ مُصيبة أخطأتْك شَوًى[1]، فجعل الله الحزنَ لك لا عليك! .

قال : فركب المأمون إلى دار أبى عيسى فحضر جِهازه وصلّى عليـه ونزل فى قبره . وآمتنع من الطعام أياما حتى خِيف أن يَضُرّ ذلك به. قال : وما رأيت مصاباً حزينا قطُّ أجمل أثرًا فى مُصيبته ولا أحرق وجدًا منـه ، صامتٌ ودموعُه تهمى على خَدّيه من غير كلح[2] ولا آستئثار .

ورُوى عن أحمد بن أبى دُوَاد قال : دخلتُ على المأمون وقد تُوُفِّىَ أخوه أبو عيسى وهو يبكى و يمسَح عينيه بِمِنْدِيل، فقعدتُ الى جنب عمرو بن مَسْعَدة وتمثّلت قولَ الشاعر :

نقصٌ من الدُّنيا وأسبابها * نقصُ المنايا من بنى هاشِم

فلم يزل على تلك الحال يبكى ثم يمسَح عينيه، وتمثّل :

سأَبكيك ما فاضتْ دُمُوعى فإنْ تَغِضْ * فحَسْبُكَ مِنّى ما تُجِنّ الجَـوَانِحُ[3]

كأنْ لم يَمُتْ حَيٌّ سِـواكَ ولم تَقُمْ * على أحَـدٍ إلا عليـكَ النـوائحُ

ثم آلتفت إلىَّ وقال : هِيه يا أحمد ! فتمثّلتُ بقول عَبْدَةَ بن الطبيب :

عليكَ سلامُ اللهِ قَيْسَ بنَ عاصِمٍ * ورحمتُه ما شاء أن يتَرحَّما

تَحِيّةَ من أوليتَه منـك نعمةً * إذا زار عن شَحْطٍ بلادَكَ سَلَّما

---

(١) شوى : هينـة . يقال : كل شىء شوى ما سـلم لك دينك، أى هين . (٢) كذا فى الأصـل والأغانى . والذى فى معاجم اللغة : كلح (وزان منع) كلوحا وكلاحا (بضمهما) : تكشر فى عبوس . (٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «الجوارح» .

فما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ واحدٍ * ولكنّه بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّما

فبكى ساعة ، ثم آلتفت إلى عمرو بن مَسْعَدة فقال : هِيه يا عمرو ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين :

بَكُوا حُذَيْفَةَ لم تَبْكُوا مثلَه * حتى تعودَ قبائلٌ لم تُخْلَقِ

قال : فإذا عَرِيب وجوارٍ معها يسمعن ما يدور بيننا ، فقالت : اجعلوا لنا معكم فى القول نصيبا . فقال المأمون : قولى ، فرُبّ صوابٍ منك كثير . فقالت :

كَذَا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأمرُ * فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

كأنّ بنى العبّاسِ يومَ وفاتِه * نجومُ سماءٍ خَرَّ من بينها البدرُ (١)

فبكى وبكينا . ثم قال لها المأمون : نُوحى ، فناحت وردّ عليها الجوارى . فبكى المأمون حتى قلت : قد فاضت نفسه وبكينا معه أحَرَّ بكاء ، ثم أمسكتْ . فقال المأمون : آصنعى فيه لحنًا على مذهب النَّوْح وغنّى به ، ففعلت وغنّته إياه على العود . فوالذى لا يُحْلَف بأعظمَ منه لقد بكينا عليه غِناءً أكثرَ مما بكينا عليه نَوْحا .

ومنهم عبد الله بن موسى الهادى . قال أبو الفرج : كان له فى الغناء صنعة حسنة ، وله أصوات مذكورة ، منها قوله :

تقاضاكَ دهرُكَ ما أسلفا * وكَدَّر عيشَك بعد الصَّفا

فلا تَجْزَعَنّ فإن الزمان * رهينٌ بتشتيتِ ما ألّفا

ولما رآك قليلَ الهمومِ * كثيرَ الهوى ناعمًا مُتْرَفا

ألحّ عليك برَوْعاته * وأقبل يرميك مُستهدِفا

(١) هذان البيتان من قصيدة لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى يرثى بها محمدا وخطبة وأبا نصر بنى حميد الطوسى . وقد غيرت فيهما عريب « بنى نبهان » بـ « بنى العباس » .

قال : وكان عبد الله هذا من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناء . وكان له غلام أسود يقال له «قَلَم» ، فعلّمه الضربَ فحذق فيه ، فاشترته منه أمّ جعفر بثلاثمائة ألف درهم .

ورُوى عن سليمان بن داود كاتب أمّ جعفر قال :

كنت جالسا مع عبد الله بن موسى الهادى ، فمرّ به خادم لصالح بن الرشيد ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : اسمى لاتَسَلْ . فأعجبه حسنُه وحسن منطقه ، فقال لى : قم بنا حتى نشرب اليوم ونذكر هذا البدر ، فقمت معه . فأنشدنى فى ذلك اليوم :

وشادِنٍ مَرّ بنا * يجرَح باللَّحْظ المُقَلْ
مظلومُ خَصْرٍ ظالمٌ * منه إذا يمشى الكَفَل
اِعتدلت قامتُه * والطرف منه ماعَدَل
بدرٌ تراه أبدًا * طالعَ سعد ما أفَل
سألتُه عن اسمه * فقال : إسمى لاتَسَلْ
وطلعتْ فى وَجْنَتَيـ * ـه وردتان من خَجَل
فقلت ما أخطأ الذى * سمّاك بل قال المَثَل
لاتسألنْ عن شادنٍ * فاقَ جمالًا وكَمَل

وقال فيه :

عزّ الذى تهوَى وذَلّ * صبّ الفؤاد مُختبَلْ
جدّ به الهجرُ وذا آل * هجرُ اذا جَدّ قتل
من شادن مُمَنْطَق * فاق جمالًا وكَمَل
تناصف الحسنُ به * فلا تَسَلْ عن لاتَسَلْ

وعن أحمد بن المكيّ قال : دعانى عبد الله بن موسى يوما فقال لى : أتقوّم غلامًا ضاربا مغنّيا قيمةَ عَدْل لا حَيْفَ فيها على البائع ولا على المشترى ؟ فقلت نعم . فأخرج إلىّ ابنه القاسم ، وكنت قد عرفت خبره وهو أحسن من القمر ليلة البدر ، فأخذ عودا يضرب به ؛ فأكببت على يديه أُقبّلهما فقال لى عبد الله : أتقبّل يد غلام مملوك ! فقلت : بأبى وأمى هو مِنْ مملوكِك ! وقبّلت رجله أيضا . فقال : أمّا إذ عرفتَه فأحبُّ أن تُضارِبه ، ففعلت . فلما رأى الغلام زيادتى فى الضرب عليه أغتمّ وأقبل على أبيه فقال له كالمعتذر إليه : يا أبت ، أنا متلذّذ وهذا متكسّب . فضحكت وقلت : هو كذلك يا سيّدى . وعجبت من حدّة جوابه معتذرًا على صغر سنه .

قال عبد الله بن حبيب :

كان عبد الله بن موسى الهادى مُعَرْبِدا ، وكان قد أعضل[1] المأمون مما يُعربد عليه إذا شرب معه ؛ فأمر به أن يُحْبَس فى منزله فلا يخرج منه ، وأقعد على بابه حرسا ؛ ثم تذمّم من ذلك فأظهر له الرضا وصرَف الحرسَ عن بابه . ثم نادمه فعربد عليه أيضا وكلّمه بكلام أحفظه . وكان عبد الله مُغْرَما بالصيد ؛ فأمر المأمون خادما من خواصّ خدمه يقال له حسن[2] فسمّه فى دُرّاج ؛ فلما أكله أحسّ بالسمّ ، فركب فى الليل وقال لأصحابه : هو آخر ماترونى ، ومات بعد أيام . وأكل معه خادمان ، فمات أحدهما لوقته ، وضَنِىَ الآخر ثم مات بعد مدّة .

ومنهم عبد الله بن محمد الأمين . قال أبو الفرج الأصفهانىّ :

كان عبد الله بن محمد الأمين ظريفا غَزِلا يقول شعرًا ليّنا ويصنعه صنعةً صالحة . وكان بينه وبين أبى نَهْشَل بن حُمَيْد مودّة ؛ فاعترض عبد الله جاريةً مغنّية

(١) كذا فى الأغانى . وأعضل : أعيا . وفى الأصل : « أحفظ » .

(٢) فى الأغانى : « حسين » .

لبعض نساء بنى هاشم وأعطى بها مالا عظيما. وعَرَفت مولاتها منه رغبةً فيها فزادت عليــه فى السَّوْم فتركها ؛ فاشتراها أخ لأبى نهشل ، فتبعتْها نفسُ عبد الله ، فسأل أبا نهشل أن يسأل أخاه النزولَ عنها ؛ فسأله ذلك فوعده ودافعه . فكتب عبد الله إلى أبى نهشل :

يا ابنَ حُمَيْــد يا أبا نَهْشَلِ * مفتاح باب الحَدَثِ المُقْفَلِ
يا أكرمَ النـاسِ ودادًا وأر * عاهم لحــقٍّ ضائع مُهْمَلِ
أحسنتَ فى ودِّى وأجملتَ بل * جُزْتَ فعالَ المحسن المُجْمِلِ
بيتُــك فى ذى يَمَنٍ شـامخٌ * تَقْصُر عنــه قُنَّـا يَذْبُلِ
خَلَفتَ فينا حاتمًا ذا النَّدى * وجُدْتَ جودَ العارض المُسبِلِ
أىّ أخ أنت لذى وَحْـدةٍ * تركته بالعــزِّ فى جَحْفَـلِ
نجومُ حظِّى منك مسعودةٌ * فـيما أُرَجِّى ليس بالأُفَّــلِ
فصَــدِّقِ الظنّ بمـا قلتَــه * وسَهِّلِ الأمرَ به يَسْهُلِ
لا تَحْــرِمَنِّى ولديك المُنَى * بالله صيدَ الرِّئَا الأكحَلِ
رُمِيتُ منه بسهام الهــوَى * وما دَرَى ما الرَّمْىُ فى مَقْتَلِ
أدنيتَنى بالوعد فى صـيده * إدناءَ[1] عَطْشانٍ من المَنْهَلِ
ثم تناسيتَ وأسلمتَــنى * إلى مِطَالٍ مُوحِشِ المـنزِلِ
تركتَنى فى لُجَّـة عائمـا * لا أعرِف المُدْبِرَ من مُقْبِلِ
صَرِّحْ بأمرٍ واضح بيِّنٍ[2] * لاخيرَ فى ذى لَبَسٍ مُشْكِلِ

قال : فلم يزل أبو نهشل بأخيه حتى نزل له عنها . ولعبد الله هذا صنعةٌ منها قوله :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «اذ أنا» .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « بينا » .

أَلَا يادِيرَ حنظلةَ المُفَدَّى * لقد أورثتنى سُقْمًا وكَدًّا
أزِفّ من الفُرات اليك زِقًّا * وأجعل حوله الوردَ المُنَدَّى (١)

ومنهم أبو عيسى بن المتوكل . قال عبد الله بن المعتز :

جُمِع لأبى عيسى بن المتوكل صنعةٌ مقدارها أكثر من ثلثمائة صوت ، منها الجيِّد الصنعة ومنها المتوسّط . وقال النُّميرىّ : سمعت أبا عيسى بن المتوكل يقول : إذا أتممت صنعة ثلثمائة وستين صوتا عدد أيام السنة تركت الصنعة . فلما أتمها ترك الصنعة . فمنها قوله فى شعر علىّ بن الجَهْم :

هى النفسُ ما حَمَّلتَها تتحمّلُ * وللدهرِ أيّامٌ تجور وتَعدِلُ
وعاقبةُ الصبر الجميل جميلةٌ * وأفضلُ أخلاقِ الرجال التجمُّلُ

قال أبو الفرج الأصفهانى : وهو لَعَمْرى من جيِّد الغناء وفاخر الصنعة ، ولو لم يصنع غيره لكفى (٢) .

ومنهم عبد الله بن المعتز . هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله العباسىّ . قد وصفه أبو الفرج الأصفهانى فقال : وأمره مع قُرب عهده بعصرنا مشهورٌ فى فضائله وأدبه شهرةٌ يشترك فى أكثرها الخاصّ والعامّ ، وشعره و إن كان فيه رقّة الملوكية وغَزَل الظرفاء وهلهلة المُحْدَثين ، فإنّ فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تقصُر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ، ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهلية . وأطنب فى وصفه وتقريظه ، وهو فوق ما قال . ثم قال :

(١) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وفى الأصل : «تحته» . ورواية الأغانى (ج ٩ ص ١٠٢) :
أزف من العقار اليك دنا * وأجعل تحته الورق المندّى

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وما لو لم يصنع» .

وكان عبـد الله حسنَ العلم بصناعة الموسـيقى والكلام على النَّغَم وعِلَلها ؛ وله فى ذلك و فى غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه و بين عبيد الله آبن عبد الله بن طاهر و بين بنى حمدون وغيرهم تدلّ على فضله وغزارة أدبه . وذكر منها شيئا ليس هذا موضع إيراده . ثم قال : ومن صنعة عبد الله بن المعتز فى شعره :

هل تَرْجعنّ ليالٍ قد مَضَيْنَ لنا * والدارُ جامعـةٌ أزمان أزمانا

قال أبو الفرَج : ومن صنعته الظريفة الشكل مع جودتها :

وا بَلَائى مِنْ مَحْضَرٍ ومَغِيبِ * وحبيبٍ منّى بعيـدٍ قـرِيبِ
لم تَرِدْ ماءَ وجهـه العينُ إلّا * شَرِقتْ قبـل ِيّهـا برقيب

قال : ومن صَنْعته التى تَظَارف فيها ومَلُح :

زاحـمَ كُمّى كُمّـه فالتَوَيَا * وافقَ قلبى قلبَه فاستَوَيَا
وطالما ذاقا الهوى فاكتَوَيَا * يا قرّةَ العين ويا هَمّى وَيَا

وحُكِى عن جعفر بن قُدَامة قال : كان لعبد الله بن المعتز غلام يحبّه ، فغضب الغلام عليه ، فجَهد أن يترضّاه ، فلم يكن له فيه حيلة . ودخلت عليه فأنشدنى فيه :

بأبى أنتَ قـد تَمَا * دَيتَ فى الهجر والغَضَبْ
واصطبارِى على صدو * دِكَ يومًا من العَجَبْ
ليس لى إن فَقَدتُ وجـ * ـهَك فى العيش من أرَبْ
رحِم الله مَنْ أعا * نَ على الصُّلْح واحتسبْ

قال : فمضيت إلى الغـلام ، فلم أزل أداريه وأرفُق به حتى ترضّيته له وجئته به ؛ فمرّ لنا يومئذ أطيب يوم وأحسنه .

ذكر مَن غنّى من الأشراف والعلماء رحمهم الله

كان ممن غنى من الأشراف والعلماء على ما نُقل إلينا من أخبارهم :

عبد العزيز بن المطلب[1] . روى الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن على المقدسىّ رحمه الله بسند رفعه إلى محمد بن مَسْلَمة قال حدّثنى أبى قال : أتيتُ عبد العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجنّ للنبىّ صلى الله عليه وسلم بمسجد الأحزاب ما كان بدؤها ، فوجدته مستلقيًا وهو يغنّى :

فما روضةٌ بالحَزْنِ طيّبةُ الثَّرَى * يَمُجّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وعَرَارُها[2]

بأطيبَ من أردانِ عَزَّةَ مَوْهِنًا * وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها

من الخفِراتِ البِيضِ لم تلقَ شِقْوةً * وبالحَسَبِ المكنونِ صافٍ نِجارُها

فإن برزتْ كانت لعينيك قُرّةً * وإن غِبتَ عنها لم يَغُمَّك عارُها[3]

فقلت له : تغنّى أصلحك الله وأنت فى جَلالتك وشَرفك ! أمَا والله لأحدُوَنّ بها رُكبانَ نجد . قال : فوالله ما أكترثُ وعاد يتغنّى :

فما ظبيةٌ أدماءُ خفّاقةُ الحشى * تجوب بِظِلْفيها بطونَ الخمائلِ

بأحسن منها إذ تقول تدلُّلًا * وأدمُعُها يُذرين حَشْوَ المكاحلِ

تَمَتَّعْ بذا اليوم القصيرِ فإنه * رهينٌ بأيّام الشهور الأطاولِ

---

(١) فى الأصل «عبد العزيز بن عبد المطلب» والتصويب عن كتب التراجم والأغانى (ج ١٥ ص ٦٨ طبع بولاق) . وهو عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن حنطب ولى قضاء المدينة لعهد المنصور ثم المهدى وولى قضاء مكة .

(٢) الجثجاث : شجر له زهر أصفر طيب الرائحة . والعرار : النرجس البرى .

(٣) رواية الأغانى (ج ١٤ ص ٥٩ طبع بولاق) :

فإن خفيت كانت لعينيك قرّة * وإن تبد يوما لم يعمك عارها

قال : فندمت على قولى له ، فقلت : أصلحك الله ، أتحدّثنى فى هذا بشىء! فقال: نعم ، حدّثنى أبى قال : دخلتُ على سالم بن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهم — وأشعب يغنّيه :

مُعَقَّرَبَةٌ كالبدر سُنَّةُ وَجْهِها (١) * مُطَهَّرَةُ الأثوابِ والعِرْضِ وافرُ

لها نَسَبٌ زاكٍ وعِرْضٌ مُهَذَّبٌ * وعن كل مكروهٍ من الأمر زاجرُ

مِنَ الخَفِرات البِيضِ لم تلقَ رِيبةً * ولم يَستِمْلها عن تُقَى اللهِ شاعرُ

فقال له سالم رضى الله عنه : زدنى . فقال :

ألمّتْ بنا واللّيلُ داجٍ كأنه * جَناحُ غُرابٍ عنه قد نَفَضَ القَطْرا

فقلتُ أعطّارٌ ثَوَى فى رِحالنا * وما احتملتْ ليلى سوى رِيحها عِطْرا

فقال سالم : أمَا والله لولا أن تَداوله الرُّواةُ لأجزلتُ جائزتَك ، فلك من هذا الأمر مكانٌ .

ومنهم ابراهيم بن سعد (٢) . هو أبو إسحاق إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهْرىّ . كان من العلماء الثِّقات المحدّثين . سمع أباه وابنَ شِهاب الزهرىّ وهشام بن عُرْوة وصالح بن كَيْسان ومحمد بن إسحاق بن يسار . روى عنه يزيد بن عبد الله بن الهاد وشعبة بن الحجاج والليث بن سعد ، وابناه يعقوب وسعد (٢) ابنا إبراهيم وعبد الرحمن بن مهدىّ ويزيد بن هارون ويونس المؤدّب وأبو داود الطيالسىّ وسليمان بن داود الهاشمى وعبد العزيز الآدمىّ وعلىّ بن الجعد ومحمد بن جعفر الوَرَكانىّ وأحمد بن حنبل وغيرهم . كان يُبيح السماع

(١) فى الأصل : « يشبه وجهها » . وظاهر أنه محرف عما أثبتناه . وسنة الوجه : صورته .

(٢) فى الأصول : « سعيد » . والتصويب عن تهذيب التهذيب والخلاصة فى أسماء الرجال .

ويضرب بالعود ويغنّى عليه . وله فى ذلك قصّة رواها أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ بسند رفعه إلى سعيد بن كثير بن عُفَير قال :

قدِم إبراهيم بن سعد الزهرىّ العراق سنة أربع وثمانين ومائة، فأكرمه الرشيد وأظهر بِرّه . وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله ؛ فأتاه بعض أهل الحديث ليسمع منه أحاديث الزهرىّ، فسمعه يتغنّى، فقال: لقد كنتُ حريصًا على أن أسمع منك، فأمّا الآن فلا سمعتُ منك حديثا أبدا . قال : إذًا لا أفقِد إلّا شخصك . علىّ وعلىّ ألّا أُحدِّث ببغداد ما أقمتُ حديثًا واحدًا حتى أغنّى قبله . وشاعت هذه الحكاية ببغداد، فبلغت الرشيد، فدعا به فسأله عن حديث المخزوميّة التى قطعها النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سرقة الحلىّ، فدعا بعود، فقال الرشيد : أعود المِجْمَر؟ قال: لا ولكن عود الطَّرَب، فتبسّم . ففهمها إبراهيم بن سعد فقال : لعلك بلغك يا أمير المؤمنين حديث السَّفِيه الذى آذانى بالأمس وألجأنى إلى أن حلفتُ . قال نعم . فدعا له الرشيد بعود فأخذه وغنّى :

يا أمّ طلحةَ إنّ البينَ قد أَفِدَا * مُلَّ الثَّواءُ لِأن كان الرحيلُ غدا

فقال له الرشيد : من كان من فقهائكم يُنكر السماع ؟ قال : مَنْ رَبَط الله على قلبه . قال : فهل بلغك عن مالك فى هذا شىء؟ فقال: لا والله، إلا أن أبى أخبرنى أنهم اجتمعوا فى مَدْعاة كانت فى بنى يربوع وهم يومئذ جِلّة[1]، ومالكٌ أقلُّهم فى فِقه وقَدْر، ومعهم دفوف ومَعَازف وعِيدان يغنّون ويلعبون . ومع مالك دُفّ مربّع وهو يغنيهم :

سُلَيْمَى أزمعتْ بَيْنَا * وأينَ لقاؤها أينا
وقد قالت لأترابٍ * لها زُهْرٍ تَلَاقَيْنَا
تَعالَيْنَ فقد طاب * لنا العيشُ تَعالَيْنَا

(١) الجلة : العظام والسادة .

فضحك الرشيد ووصله بمـال عظيم . ومات إبراهيم فى هذه السنة وهو آبن خمس وسبعين سنة . قال : وكان ابراهيم بن سعد يبالـغ فيه إلى هذا الحدّ . وقد أجمعت الأئمة على ثقتـه وعدالته والرواية عنه . وآتفق البخارىّ ومسـلم على إخراج حديثه فى الصحيح . ولم تسـقط عدالته بفعله عنـد أهل العلم ، بل قُلِّد قضاءَ بغداد على جلالتها ، وقُلِّد أبوه القضاءَ بالمدينة على شرفها .

وروى أبو الفرج الأصفهانى بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال :

شَهِدتُ إبراهيم بن سعد يحلف للرشيد وقدسأله عمن بالمدينة يُنكر الغناء، فقال: مَنْ قَنَّعه الله خِزْيَه : مالك بن أنس ؛ ثم حلف أنه سمع مالكا يغنّى :

سليمى أزمعت بينا * فأين لقـاؤها أينـا

فى عُرْس لرجل من أهل المدينة يُكْنَى أبا حَنْظَلة .

وروى أيضا بسنده إلى الحسين بن دَحْمان الأشقر قال :

كنت بالمدينة، فخلا لى الطريق فى نصف النهار، فجعلت أتغنّى :

مابالُ أهلكِ يا رَبَابُ * خُزْرًا كأنهـمُ غِضابُ

قال : فإذا خَوْخةٌ قـد فُتحت وإذا وجهٌ قد بدا تتبعـه لحيـةٌ حمراء ، فقـال : يا فاسق ! أساءَتَ التأديةَ ، ومنعتَ القائلة، وأذعتَ الفاحشـة ؛ ثم آندفع يغنّيه؛ فظننتُ أنّ طُوَيسا قد نُشر يغنّيه، فقلتُ : أصلحك الله! من أين لك هذا الغناء ؟ قال : نشأتُ وأنا غلام أتبع المغنّـين وآخذ عنهـم؛ فقالت لى أُمّى : يا بنىّ، إن المغنّى إذا كان قبيح الوجه لم يُلتفَت إلى غنائه ، فدع الغناء وآطلب الفقه فإنه لا يَضُرّ معه قبح الوجه . فتركتُ المغنّـين وآتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى ما ترى . فقلت : فأعِدْ جُعِلتُ فداءك . فقال : لا ولا كرامة ! أتريد أن تقول أخذتُه عن مالك بن أنس! وإذا هو مالك ولم أعلم .

ومنهم محمد بن إسماعيل بن علىّ بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما. كان عالما بالفقه والغناء جميعا . وكان يحيى بن أكثم وصفه للمأمون بالفقه ، ووصفه أحمد بن يوسف بالغناء. فقال المأمون : ما أعجبَ ما آجتمع فيه العلم بالعلم والغناء ! .

ذكر مَنْ غنّى من الأعيان والأكابر والقوّاد ممن نُسِبت له صَنعةٌ فى الغناء

منهم أبو دُلَف العِجْلىّ . هو أبو دُلَف القاسم بن عيسى بن إدريس أحد بنى عِجْل بن لُجَيم بن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل . كان محلّه من الشجاعة وبُعد الهمة وعلوّ المحلّ عند الخلفاء وعظم الغَنَاء فى المشاهد وحُسْن الأدب وجَوْدة الشعر محلا كبيرا ليس لكثير من أمثاله .

قال أبو الفرج الأصبهانىّ : وله صنعة حَسَنة . فمن جيّد صنعته قوله — والشعر له أيضا — :

بنفسى يا جِنَانُ وأنتِ منّى * مكانَ الرُّوح من جَسَد الجَبَانِ
ولو أنى أقول مكانَ نفسى * خَشِيتُ عليك بادرةَ الزمانِ
لإقدامى إذا ما الخيل حامت * وهاب كُمَاتُها حَرَّ الطِّعانِ

قال : وكان أحمد بن أبى دُواد يُنكر أمر الغِناء إنكارًا شديدًا ؛ فأعلمه المعتصمُ أن أبا دُلَف صديقَه يغنّى . فقال : ما أُراه مع عقله يفعل ذلك ! فستر المعتصم أحمد بن أبى دواد فى موضع وأحضَر أبا دُلَف وأمره أن يغنّى ففعل ذلك وأطال ، ثم أخرج أحمد بن أبى دواد عليه ، فخرج والكراهة ظاهرة فى وجهه . فلما رآه أحمد

قال: سَوْءَةً لهذا مِن فعل ! أبعد [هذه][1] السنّ وهذا المحلّ تصنع[2] بنفسك ما أرى ! فخجِل أبو دلف وتشوّر[3] وقال : إنهم لَيُكْرِهونى على ذلك . فقال : هبهم أكرهوك على الغِناء أهم أكرهوك على الإحسان فيه والإصابة ! .

قال : وكان أبو دلف يُنادم الواثق . فوُصِف للمعتصم فأحبّ أن يسمَعه، وسأل الواثق عنه فقال له : يا أميرالمؤمنين، أنا على نيّة القَصْد غدًا وهو عندى . وفُصِد الواثق فأتاه أبودُلَف وأنته رسل الخليفة بالهدايا، فأعلمهم الواثق حصولَ أبى دُلَف عنده . فلم يلبث أن أقبل الخدم يقولون : قد جاء الخليفة . فقام الواثق وكلّ مَن كان عنده حتى تَلَقّوه، وجاء حتى جلس، وأمر بندماء الواثق فرُدّوا إلى مجالسهم . وأقبل الواثق على أبى دُلَف فقال : يا قاسم، غَنّ أمير المؤمنين . فقال : صوتًا بعينه أو ما آخترتُ ؟ قال : بل من صَنْعتك فى شعر جرير . فغنّى :

بانَ الخَليطُ برامَتَينِ فَودّعوا * أوكلّما آعتزموا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ

كيف العزاءُ ولم أجِدْ مذ غِبتُمُ * قلبًا يَقِرّ ولا شرابًا يَنْقَع

فقال المعتصم : أحسن أحسن — ثلاثا — وشرب رطلًا . ولم يزل يستعيده حتى شرب تسعة أرطال . ثم دعا بحمار فركبه، وأمر أبا دُلَف أن ينصرف معه، فخرج معه فثُبِّتَ فى ندمائه، وأمر له بعشرين ألف دينار .

قال : وكان أبو دُلَف جوادا ممدّحا . وفيه يقول علىّ بن جَبَلة من قصيدة يقول فيها :

ذادَ وِرْدَ الغَىِّ عن صَدَرِهْ * وآرعوَى واللّهوُ من وَطَرِهْ

نَدَمِى أنّ الشبابَ مضى * لم أُبَلِّغْه مدى أشَرِهْ

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٧ ص ١٥٥ طبع بولاق). (٢) فى الأغانى : « تضع نفسك كما أرى » . (٣) يقال : شوّرت الرجل و بالرجل فتشوّر، اذا عجلته فخجل .

حَسَرتْ عنّى بشاشتُه * وذوَى المحمودُ من ثمَرِهْ
ودَمٍ أهدرتُ من رَشَأ * لم يُرِدْ عَقْلًا على هَدَرِهْ

جاء منها :

دَعْ جَدَا قَحْطانَ أو مُضَرٍ * فى يَمَانِيهِ وفى مُضَرِهْ
وٱمتدحْ من وائلٍ رجلًا * عصمُ(١) الآفاقِ من عَصَرِهْ

ومنها :

المنايا فى مَقَانبه * والعطايا فى ذَرَا حُجَرِهْ
مَلِكٌ تندَى أنامله * كٱنبلاج النَّوْءِ عن مَطَرِهْ
مُستهِلٌّ عن مواهبه * كٱبتسام الرَّوْض عن زَهَرِهْ

ومنها :

إنما الدنيا أبو دُلَف * بين باديه ومُحْتَضَرِهْ
فإذا ولّى أبو دُلَف * وَلّتِ الدنيا على أثَرِهْ
كلُّ مَنْ فى الأرض من عَرَب * بين بادِيهِ إلى حَضَرِهْ
مستعيرٌ منه مكرمةً * يكتسيها يوم مُفْتَخَرِهْ

وهذان البيتان اللذان أحفظا المأمون على علىّ بن جبلة حتى سلّ لسانَه من قفاه.

وقوله فيه :

أنت الذى تُنزِل الأيامَ منزِلَها * وتنقُلُ الدهرَ من حالٍ إلى حالِ
وما مَدَدتَ مدَى طَرْفٍ إلى أحَدٍ * إلّا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالِ
تَزورُ سُخْطًا فتُضْحِى البِيضُ ضاحكةً * وتَستهِلّ فتبكى أعينُ المالِ

وكان سبب مدح علىّ بن جبلة أبا دُلَف بقوله :

* إنما الدنيا أبو دلف *

(١) العصم : الحمى والملجأ .

ما رواه أبو الفرج الأصفهانى بسنده عن علىّ بن جبلة قال : زرتُ أبا دُلف بالجبل، فكان يُظهر من بِرّى و إكرامى والتحفّى بى أمرًا عظيما مُفرِطا حتى تأخرت عنه حياء. فبعث إلىّ مَعْقِلا وقال : يقول لك الأمير : قد آنقطعتَ عنّى، وأظنّك قد آستقللتَ بِرّى، فلا يُغضبنك ذلك فإنى سأزيد فيه حتى ترضى . فقلت : والله ما قطعنى إلا الإفراط فى البرّ، وكتبت إليه :

هجرتُكَ لم أهجُرْكَ من كفرِ نعمةٍ * وهل يُرْتَجَى نيلُ الزيادة بالكفرِ
ولكننى لمّا أتيتُـك زائرًا * فأفرطتَ فى بِرّى عجزتُ عن الشكر
فَمِ الآن لا آتيكَ إلا مسلِّمًا * أزورك فى الشهرين يومًا وفى الشهر
فإن زدتنى بِرًّا تزايَدتُ جفوةً * ولم تلقنى طولَ الحياة إلى الحشر

فلما قرأها مَعْقِل آستحسنها وقال : أحسنت والله ! أمَا إن الأمير يُعجبه هذا من المعانى . فلما أوصلها إلى أبى دُلَف قال : قاتله الله ! ما أشعره وأرقّ معانيه! وأجابنى لوقته — وكان حسن البديهة حاضر الجواب — :

ألَا ربّ طيفٍ طارقٍ قد بسطتُه * وآنسته قبل الضّيافة بالبِشْرِ
أتانى يُرجّينى فما حال دونه * ودون القِرَى والعُرْف من نائلى سترى
وجدتُ له فضلًا علىّ بقصده * إلىّ وبِرًّا زاد فيه على بِرّى
فزوّدته مالا يدوم بقاؤه * وزوّدنى مدحًا يدوم على الدهر

قال : وبعث بالأبيات وصيفا وبعث إلىّ معه بألف دينار . فقلت حينئذ :

* إنما الدنيا أبو دلف *

الأبيات .

وروى أبو الفرج عن أحمد بن عبيد الله بن عمّار قال : كنا عند أبى العبّاس المبرّد يوما وعنده فتى من ولد أبى البَخْتَرِىّ وهب بن وهب، أمرد حسن الوجه،

وفتًى من ولد أبى دُلَف العِجْلىّ شبيه به فى الجمال . فقال المبرّد لآبن أبى البَخْتَرِىّ : أعرف لجَدّك قصّة ظريفة من الكرم حَسَنة لم يُسْبَق إليها . قال : وما هى؟ قال : دُعِىَ رجل من أهل الأدب إلى بعض المواضع فسقَوْه نبيذا غير الذى يشربون منه ؛ فقال فيهم :

نَبِيذانِ فى مجلسٍ واحدٍ * لإيثار مُثْرٍ على مُقْتِرِ
فلو كان فعلُك ذا فى الطعام * لزمتَ قياسَك فى المسكرِ
ولو كنتَ تفعل فعلَ الكرام * صنعتَ صنيعَ أبى البَخْتَرِى
تتبّع إخوانَه فى البلاد * فأغنَى المُقِلَّ عن المُكْثِرِ

فبلغت الأبيات أبا البخترىّ فبعث إليه ثلثمائة دينار . قال آبن عمار : فقلت وقد فعل جَدّ هذا الفتى فى هذا المعنى ما هو أحسن من هذا . قال : وما فعل ؟ قلت : بلغه أنّ رجلا آفتقر من ثروة ، فقالت له امرأته ، آفترِضْ فى الجند ، فقال :

إليكِ عنّى فقد كلّفتِنى شَطَطًا * حملَ السلاح وقولَ الدّارعِين قِفِ
تمشى المنايا إلى قومٍ فأكرهها * فكيف أمشى إليها عارِىَ الكتِفِ
حَسِبتِ أنّ نفادَ المال غيّرنى * أو أنّ رُوحِىَ فى جنبَىْ أبى دُلَفِ

(٩٥)

فأحضره أبو دلف وقال : كم أمّلتِ آمرأتك أن يكون رزقك؟ قال : مائة دينار ، قال : كم أمّلتَ أن تعيش ؟ قال : عشرين سنة . قال : فذلك لك على ما أمّلت وأمّلتِ آمرأتك فى مالنا دون مال السلطان ، وأمر بإعطائه إياه . قال : فرأيت وجه آبن أبى دُلَف يتهلّل وآنكسر آبن أبى البخترىّ . وهذه الأبيات رُويت لآبن أبى فنن .

ومنهـم أخوه مَعْقِـل بن عيسى . كان فارسا شاعرا جـوادا مغنّيا فهِمًا بالنَّغَم والوَتَر، ذكره الجاحظ مع ذكر أخيه أبى دُلَف . وهو القائل لمخارق — وقد كان زار أبا دلف بالجبل ثم رجع الى العراق، وله فى ذلك غناء — :

لعمرى لئن قَرَّتْ بقُربك أعيُنٌ * لقـد سَخِنت بالبُعـد عنك عيون
فسِرْ أو أقِمْ، وقفٌ عليك مودّتى * مكانُك من قلبى عليك مصونُ
فما أوحشَ الدنيا إذا كنتَ نازحًا * وما أحسنَ الدنيا بحيث تكونُ

ومنهم عبـد الله بن طاهر بن الحسين وآبنه عبيد الله . فأمّا عبد الله فكان محلُّه من علوّ المنزلة وعظم القدر والتمكّن عنـد الخلفاء ما هو مشهور مذكور فى أخبارهم . وتقلّد الولايات الكبيرة مثل مصر والجزيرة وما يلى ذلك، ثم نُقل إلى خُراسان. وله عطايا وهِبات وصِلات لا يُنكرها أحد . ومحلّه من الشجاعة والإقدام معروف . وكان يعتنى بالغناء و يصنعه ، إلا أنه كان يترفّع عن ذكره والاعتراف به ونسبته إليه .

قال أبو الفرج : والأصوات التى غَنّى فيها عبـد الله بن طاهر كثيرة . وكان آبنه عُبَيد الله إذا ذكر شيئا منهـا من صَنْعته قال : الغناء للدار الكبيرة، و إذا ذكر شـيئا من صنعة نفسه قال : الغناء للدار الصغيرة . فمن الأصوات التى صنع فيهـا عبد الله بن طاهر قوله :

هَـلّا سَـقَيتم بنى حزم (١) أسـيرَكُم * نفسى فداؤك من ذى غُلّةٍ صادى
الطاعنِ الطَّعْنةَ النجلاءَ يتبعُها * مُضَرِّجٌ بعـد ما جادت بإزباد

قال : فقد جاء به عبـد الله صحيح العمـل مزدوج النغم [بين] (٢) لِين وشدّة على رسم

(١) فى الأغانى (ج ١١ ص ١٤ طبع بولاق) : «بنى مهم» ثم قال : «وهم بطن من هذيل» . وذكر فى موضع آخر بلفظ «بنى جرم» .
(٢) الزيادة عن الأغانى .

الحذّاق القدماء . قال عبيد الله — وذكر صوتا من أصواته — : لمّا صنع أبي هذا الصوت لم يحبّ أن يُسْمَع عنه شيء من الغناء ولا ينسب إليه ؛ لأنه كان يترفّع[1] عن ذلك ، وما جسّ بيده وترًا قطّ ولا تعاطاه ، ولكنه كان يعلم من هذا الشأن بطول الدُّرْبة وحُسْن الثقافة ما لا يعرفه كثير . قال : وبلغ من علم ذلك إلى أن صنَع فى أبيات أصواتا كثيرة ، فألقاها على جواريه ، فأخذنها عنه وغنّين بها وسمعها الناس منهنّ [وممن أخذ عنهنّ . فلما أن صنَع هذا الصوت :

هـلّا سقيتُم بنى سهمٍ أسـيركُمُ * نفسى فداؤك من ذى غُلّةٍ صادى[2]]

نسبه إلى مالك بن أبى السمح . وكانت لآل الفضل بن الربيع جارية يقال لها راحة[3] ، وكانت ترغَب إلى عبد الله لمّا ندَبه المأمون إلى مصر ، وكانت تغنّيه ؛ وأخذت هـذا الصوت عن جواريه ، وأخذه المغنون عنها ، ورُوِى لمالك بن أبى السمح مدّة . ثم قدِم عبد الله العراق ، فحضر مجلِس المأمون وغُنّى الصوت بحضرته ونسِب إلى مالك ؛ فضحك عبد الله ضحكا كثيرا ؛ فسُئِل عن القصة فصدّق فيها[4] واعترف بصنعة الصوت . وكشَف المأمون عن القصة ؛ فلم يزل كلّ من سُئل عنه يُخبر عمن[5] أخذه ، فينتهى بالقصة إلى راحة ويقف فلا يعدوها . فأُحضِرت راحة وسُئِلت فأخبرت بقصته ؛ فعلم أنه من صنعته حينئذ بعد أن جاز على إسحاق وطبقته أنه لمالك . ويقال : إنه لم يعجَب من شيء عَجَبَه من حِذْق عبد الله بمذاهب الأوائل وحكاياتهم .

وأمّا عُبَيد الله ، ويكنى أبا أحمد . قال أبو الفرج الأصبهانى : له محلّ من الأدب والتصرّف فى فنونه ورواية الشعر وقوله والعلم باللغة وأيام الناس

(١) كذا فى الأغانى : وفى الأصل . «يرتفع» . (٢) التكملة عن الأغانى .
(٣) فى الاغانى : «داحة» . (٤) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «عنها» .
(٥) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « من سئل عنه عن أخذه » .

وعلوم الأوائل من الفلاسفة[(١)] فى الموسيقى والهندسة وغير ذلك [مما][(٢)] يجلّ عن الوصف ويكثر ذكره . وله صنعةٌ فى الغناء حسنة مُتقنة عجيبة [تدلّ على ما ذكرناه هاهنا من توصّله[(٣)]] إلى ما عجز عنه الأوائل من جمع النَّغَم كلها فى صوت واحد تتبّعه هو[(٤)] وأتى به على ما فصّله فيها وطلبه منها .

وكان المعتضد بالله ربما أراد أن يصنع فى بعض الأشعار غناء ويحضُره أكابر المغنّين فيعدِل عنهم إليه فيصنع فيه أحسن صَنْعة، ويترفّع عن إظهار نفسه بذلك فيومئ[(٥)] إلى أنه من صنعة جاريته ساجى[(٥)] . وسنذكر ساجى إن شاء الله تعالى فى أخبار القِيان، وكانت تخريجَ عبيد الله وتأديبه .

قال : ولمّا اختلّت حال عُبَيد الله كان المعتضد بالله يتفقّده بالصِّلات . ومن أصوات عبيد الله التى جمع فيها النَّغَم العشر قوله فى شعر إبراهيم بن علىّ بن هَرْمة :

وإنك إذ أطمعتَنى منك بالرِّضا * وأيأستَنى من بعد ذلك بالغضب

كُمُكِنةٍ مِن دَرّها كفَّ حالب * ودافقةٍ من بعد ذلك ما حَلَبْ

وأخبار عُبيد الله كثيرة سنذكر منها فى هذا الباب فى أخبار ساجى طَرَفا، ونورد منها إن شاء الله تعالى فى فنّ التاريخ ما يناسب . وأستغفر الله العظيم .

---

(١) كذا بالأغانى (ج ٨ ص ٤٤ طبع بولاق) . وفى الأصل : «الطبقة» .

(٢) الزيادة عن الأغانى .

(٣) فى الأصل : « متقنة عجيبة الى ما يعجز عنه ... » . والتكملة والتصويب من الأغانى (ج ٨ ص ٤٤ طبع بولاق) .

(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « فى صوت واحد حتى بلغه هو » .

(٥) فى الأغانى : « شاجى » .

ذكر أخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسيّة إلى العربيّة ومن أخذ عنهم ومَن اشتهر بالغناء

والغناء قديم فى الفرس والروم، ولم يكن للعرب قبل ذلك إلا الحُدَاء والنشيد، وكانوا يُسمّونه «الركبانية». وأوّل من نقل الغناء العجمىّ إلى العربىّ من أهل مكة "سَعِيد بن مِسْجَح" ومن أهل المدينة "سائب خاثِر". وأوّل من صنع الهَزَج "طُوَيس". ولنبدأ بذكر أخبار هؤلاء ثم نذكر مَنْ أخذ عنهم إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار سعيد بن مِسْجَح

هو أبو عثمان سَعِيد بن مِسْجَح، مولى بنى جُمَح، وقيل: مَوْلى بنى مخزوم، وقيل: مولى بنى نَوْفل بن الحارث بن عبد المطّلب. مكىّ أسود — وقيل: أصفر — حسن اللّون. وقيل: كان مولّدا، يُكْنَى أبا عيسى. وقيل: كان هو وابن سُرَيج لرجل واحد. مغنّ متقدّم من فحول المغنّين وأكابرهم. وهو أوّل مَنْ وضع الغناء منهم، وأوّل مَنْ غنّى الغناء العربىّ بمكة، وذلك أنه مرّ بالفُرْس وهم يبنون المسجد الحرام فى أيام عبدالله بن الزُّبَير، فسمع غناءهم بالفارسيّة فقلبه فى شعر عربىّ، ثم رحل إلى الشام فأخذ ألحان الرُّوم والبربطية والأسطوخوسيّة[1]، وانقلب

---

(١) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «الأسطرخوسية». وقد رأى العلامة الأب أنستاس مارى الكرملى أن تكون كلمة «البربطية» مصحفة عن «البزنطية» (بضم الباء الموحدة وفتح الزاى يليها نون ساكنة بعدها طاء مكسورة ثم ياء مثناة مشدّدة وفى الآخر هاء): نسبة الى بزنطية وهى مدينة القسطنطينية قبل أن تبنى. ويراد بالبزنطية قوم من الروم الشرقيين عرفوا بهذا الاسم منذ عهد قسطنطين الكبير الى سقوط القسطنطينية بيد الترك.

ثم قال: وأما الأسطوخوسية فيراد بهم قوم آخرون من أسطوخوس أو أسطوخادس، وهى جزيرة فى جنوبى فرنسا، كان أهلها معروفين بالقصف والغناء والأنس، كما هم عليه الى هذا العهد، وكان سكانها خليطا من الروم واليونانيين والقلطيين وبقايا الفلسطينيين. (انظر المجلد الثانى من مجلة الزهراء ص ٣٥٨ — ٣٦١).

إلى فارس فأخذ غناءً كثيرا وتعلّم الضرب، ثم قدِم إلى الحجاز وقد أخذ محاسنَ تلك النَّغَم وألقى منها ما آستقبحه من النَّبَرات والنَّغَم؛ وكان أوّل مَنْ فعل ذلك، وتبِعه الناس بعدُ؛ وعلّم آبنَ سُرَيج، وعلّم آبنُ سريج الغَرِيضَ. قالوا: وكان فى صِباه فَطِنا ذكيًّا، وكان مولاه مُعْجَبا به، فكان يقول: لَيكوننّ لهذا الغلام شأن، وما يمنعنى من عِتْقه إلّا حُسْنُ فِراستى فيه، ولئن عشتُ لأتعرّفنّ ذلك، وإن مُتُّ قبله فهو حرّ. فسمعه مولاه يومًا يتغنّى بشعر آبن الرِّقَاع يقول:

أَلِمْ على طَلَلٍ عفا مُتقادِمِ * بين الذُّؤَيْبِ(١) وبين غَيْب النَّاعم

لولا الحياءُ وأنّ رأسى قد عَسَا * فيه المشِيبُ لزرتُ أُمَّ القاسِمِ

فدعاه مولاه فقال: أعِدْ يا بنىّ؛ فأعاده فإذا هو أحسن مما آبتدأ به، وقال: إنّ هذا لَبعضُ ما كنتُ أقول. ثم قال له: أنّى لك هذا؟ قال: سمعتُ هذه الأعاجم تتغنّى بالفارسيّة فقلبتُها فى هذا الشعر. قال: فأنت حُرٌّ لوجه الله. فلزم مولاه وكثُر أدبه وآتّسع فى غنائه وشُهِر بمكة وأُعْجِبوا به. فدفع إليه مولاه عُبَيْدَ بن سُرَيج وقال: يابنىّ علّمه وآجتهِدْ فيه. وكان آبن سُرَيج أحسنَ الناس صوتا، فتعلّم منه ثم بَرَز عليه. وقد قيل: إنه إنما سمع الغناء من الفُرْس لمّا أمر معاويةُ ببناء دُوره بمكة التى يقال لها «الرُّقْط»، وكان قد حمل إليها بَنّائين من الفُرس الذين كانوا بالعراق فكانوا يبنونها، وكان سَعِيد بن مِسْجَح يأتيهم فيسمع غناءهم على بنائهم؛ فما آستحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربىّ، ثم صاغ على نحو ذلك. وكان من قديم غنائه الذى صنعه على تلك الألحان شعر الأحْوَص، وهو:

أسلامَ إنك قد ملكتِ فأسْجِحى * قد يملك الحُرَّ الكريم فيُسْجِحُ

مُنّى على عاتٍ أطلتِ عَناءَه * فى الغُلّ عندك والعُناةُ تُسَرَّحُ

(١) فى الأصل: «الديك». والتصويب عن معجم ياقوت (ج ٢ ص ٧٢٥ طبع أوربا).

إنى لأنصحكم وأعلم أنه * سيّان عندك من يَغُشُّ ويَنصَحُ
وإذا شكوتُ إلى سَلَامةَ حبَّها * قالت أجِدَّ منك ذا أم تَمزَحُ

وهذا من أقدم الغناء العربىّ المنقول عن الفارسىّ . قال : وعاش سَعِيد بن مسجح حتى لقيه مَعْبَد وأخذ عنه فى أيام الوليد بن عبد الملك .

ومن أخبار سعيد ماروَاه أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه قال : كتب عامل لعبد الملك بن مروان بمكة إليه أنّ رجلا أسود يقال له سعيد بن مسجح قد أفسد فتيان قريش وأنفقوا عليه أموالهم . فكتب إليه : أن اقبض ماله وسيِّره إلىّ . فتوجّه ابن مسجح الى الشام ، فصحبه رجل له جوارٍ مغنّيات فى الطريق . فقال له : أين تريد؟ فأخبره الخبر وقال : أُريد الشام ، فصحبه حتى بلغا دمشق ، فدخلا مسجدها فسألا : مَنْ أخصُّ الناس بأمير المؤمنين؟ فقالوا : هؤلاء النفر من قريش وبنو عمّه . فوقف ابن مسجح عليهم فسلّم ، ثم قال : يا فتيانُ ، هل فيكم مَنْ يُضيف رجلا غريبا من أهل الحجاز ؟ فنظر بعضهم إلى بعض وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قَيْنة يقال لها «برق الأُفُق» ، فتثاقلوا به إلّا فتًى منهم تَذَمَّم[1] فقال له : أنا أُضيفك ، وقال لأصحابه : انطلقوا أنتم وأنا أذهب مع ضيفى . فقالوا : لا ، بل تجىء معنا أنت وضيفك . فذهبوا جميعا الى بيت القَيْنة . فلما أُتُوا بالغَداء قال لهم سَعِيد : إنى رجل أسود ، ولعل فيكم من يَقْذَرنى ، فأنا أجلس وآكل ناحيةً وقام ، فاستحيوا منه وبعثوا له بما أكل . فلما صاروا إلى الشَّراب قال لهم مثل ذلك ففعلوا . ثم أخرجوا جاريتين ، فجلستا على سرير قد وُضِع لهما فغنّتا إلى العشاء ثم دخلتا ، وخرجت جارية حسنة الوجه والهيئة وهما معها فجلستا أسفل السرير عن يمينه وشماله وجلست هى على السرير . قال ابن مسجح : فتمثلت هذا البيت :

(١) تذمم : خشى الذم واللوم .

فقلتُ أشمسٌ أم مصابيـحُ بِيعـةٍ * بدتْ لك خَلْفَ السِّجْفِ أم أنتَ حالمُ

فغَضِبتْ الجارية وقالت : أيضرب مثلُ هذا الأسـود بى الأمثال ! فنظروا إلىّ نظـرًا منكرا ، ولم يزالوا يُسَكِّنونها . ثم غنّت صوتا . قال ابن مسجح : فقلت : أحسنتِ والله ! فغضب مولاها وقال : أمثـلُ هذا الأسود يُقْدِم على جاريتى ! فقال لى الرجل الذى أنزلنى عنده : قُمْ فانصرف إلى منزلى ، فقد ثَقُلْتَ على القوم . فذهبت أقوم . فتذمّم القوم وقالوا : بل أقِمْ وأحسِنْ أدبك : فأقمتُ . فغنّت ، فقلتُ : أخطأتِ والله وأسأتِ ! ثم اندفعتُ فغنّيت الصـوت ، فوثبت الجـارية فقالت لمولاها : هذا أبو عثمان سعيد بن مسجح . فقلت : إى والله ، أنا هو ، والله لا أُقيم عندكم ووثبت ، فوثب القرشيون : فقال هذا : تكون عندى ، وقال هذا : تكون عنـدى ، [وقال هذا : بل عنـدى (١)] . فقلت : والله لا أُقيم إلا عنـد سيِّدكم ! (يعنى الرجل الذى أنزله منهـم) وسألوه عما أقدمه . فأخبرهم . فقال له صاحبه : إنى أسمرُ الليلة عند أمير المؤمنين ، فهل تُحسِن أن تحدو؟ فقال : لا والله ، ولكنى أصنع حُداءً . فقال له : إنّ منزلى بحذاء منزل أمير المؤمنين ، فإذا وافقتُ منه طِيبَ نفس أرسلتُ إليك . ومضى إلى عبد الملك . فلما رآه طيِّب النفس أرسل إلى ابن مسجح ، فأخرج رأسه من وراء شُرَف القصر ثم حدا :

إنك يا مُعاذُ يابنَ (٢) الفُضَّلِ * إن زُلْزِل الأقـدامُ لم تُزَلْزَلِ

عن دين موسى والكتابِ المُنْزَلِ * تُقيم أصداغَ (٣) القرون المُيَّلِ

* للحق حتى ينتحوا للأعدَلِ *

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٣ ص ٢٨٣ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) فى الأصل : * إنك يا معاوى المفضل * والتصويب عن الأغانى .

(٣) فى الأصل : «أضراع» . وفى الأغانى : «أصداع» ، وظاهر أن كليهما محرّف عما أثبتناه ، لأنه من صدغ يصدغ صدوغا وصدغا بمعنى مال ، ومنه لأقيمن صدغك أى ميلك .

فقال عبد الملك للقرشىّ : مَنْ هذا ؟ فقال : رجل حجازىّ قدِم علىّ . قال : أحضِره، فأحضره . ثم قال له : [هل][(١)] تغنّى غناء الرُّكبان ؟ فغنّى . فقال له : هل تغنّى الغناء المتقَن؟ قال نعم . قال: هِيه، فغنّى، فاهتزّ عبد الملك طربًا، ثم قال: أُقسم بالله إنّ لك فى القوم آسما كبيرا، مَنْ أنت ؟ ويلك ! قال : أنا المظلوم المقبوض مالُه المسيَّر عن وطنه «سَعِيد بن مِسْجَح»، قبض مالى عامل الحجاز ونفانى . فتبسّم عبد الملك ثم قال : قد وَضَح عُذْر فِتيان قريش فى أن يُنفِقوا عليك أموالهم ؛ وأمّنه ووصَله وكتب إلى عامله بالحجاز أن أردُدْ إليه ماله، ولا تتعرّض اليه بسوء . والله أعلم .

ذكر أخبار سائب خاثر

هو أبو جعفر سائب خاثِر بن يَسَار، مولى لبنى ليث . وأصله من فَيْء كسرى، واشتراه عبد الله بن جعفر فأعتقه . وقيل : بل كان على ولائه لبنى ليث، ولكنه انقطع إلى عبد الله بن جعفر ولزِمه وعُرِف به . وهو أوّل مَنْ عمل العود بالمدينة وغنّى به . قال : وكان عبد الله بن عامر بن كُرَيز سبى[(٢)] إماءً صَنّاجات[(٣)] فأتى بهنّ المدينة . فكنّ يلعبن فى يوم الجمعة ويسمع الناس منهنّ، فأخذ عنهنّ . وقدِم رجل فارسىّ يُعْرَف بنَشِيط، فغنّى، فعجِب عبد الله بن جعفر منه . فقال له سائب خاثِر : أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسىّ بالعربيّة . ثم غدا على عبد الله بن جعفر وقد عمل فى :

---

(١) الزيادة عن الأغانى .

(٢) فى الأغانى (ج ٧ ص ١٨٨ (طبع بولاق) : «اشترى» .

(٣) هنّ اللاعبات بالصنج، وهو صفيحة مستديرة من نحاس تضرب بأخرى مثلها، وقيل : الصنج ذو الأوتار الذى يلعب به .

لِمَنِ الديارُ رسومُها قَفْـرُ * لعبتْ بها الأرواحُ والقَطْرُ
وخلا لها من بعد ساكنها * جَمَجُ مَضَينَ ثمانٍ أوْ عَشْرُ
والزعفرانُ على ترائبها * شَرِقٌ به اللَّبَـات والنحرُ

(٩٨) قال ابن الكلبيّ : وهو أوّل صوت غُنِّيَ به فى الإسلام من الغناء العربىّ المتقن الصّنعة . قال : ثم اشترى عبد الله بن جعفر نشيطا بعد ذلك ؛ فأخذ عنه سائب خاثر الغناء العربىّ ، وأخذ عنه ابن سُرَيج وجميلة ومَعْبَد وعَزّة المَيْلاء وغيرهم . وقيل : إنه لم يكن يضرب بالعود وإنما كان يقرع بالقضيب ويغنّى مرتجلا . قال ابن الكلبى : وكان [سائب تاجرا](١) موسرا يبيع الطعام بالمدينة ، وكان تحتـه أربع نسوة . وكان انقطاعه إلى عبد الله بن جعفر ، وهو مع ذلك يُخالط سَرَواتِ الناس وأشرافهم لظَرْفه وحلاوته وحُسْن صوته . وكان قد آلى على نفسه ألّا يغنّى أحدا سوى عبد الله بن جعفر إلا أن يكون خليفةً أو ولىَّ عهد أو ابن خليفة ؛ فكان على ذلك الى أن قُتل ، على ما نذكره . وأخذ عنه مَعْبَد غناء كثيرا . قال : وسمع معاوية غناء سائب خاثر مرارا ، فالمرّة الأولى لمّا وفَد عبد الله بن جعفر إلى معاوية وهو معه ، فسأل عنه معاوية ، فأخبره عبد الله خبره واستأذنه فى دخوله عليه ، فأذِن له . فلما دخل قام على الباب ثم رفع صوته فغنّى :

* لمن الديارُ رسومُها قَفْرُ * الأبيات

فالتفت معاوية إلى عبـد الله وقال : أشهد لقد حسّـنه . وقضى معاوية حوائجه وأحسن اليه ووصله . وقيل : أشرف معاوية ليلةً على منزل يزيد ، فسمع صوتا أعجبـه ، واستخفّه السماع فاستمع حتى ملّ ؛ ثم دعا بكرسىّ فجلس عليـه واشتهى الاستزادة ، فاستمع بقيّة ليلته . فلما أصبح غدا عليه يزيد ؛ فقال : يا بنىّ ، مَنْ كان

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٧ ص ١٨٨ طبع بولاق) .

جليسَك البارحة؟ قال : أىّ جليس ياأمير المؤمنين؟ وٱستعجم عليه . فقال : عَرِّفنى به فإنه لم يخفَ علىّ شىء من أمرك . قال : هو سائب خاثر . قال معاوية : فأكثِرْ له يا بنىّ من بِرِّك وصِلتك ، فما رأيتُ بمجالسته بأسا .

قال ٱبن الكلبىّ : وقدِم معاوية المدينة فى بعض ما كان يَقْدَمُ ، فأمر حاجبه بالإذن للنّاس ، فخرج ثم رجع فقال : ما بالباب أحد . فقال معاوية : وأين الناس؟ قال : عند عبد الله بن جعفر . فركب معاوية بغلته ثم توجّه اليهم . فلما جلس قال بعض القرشيّين لسائب خاثر : مِطْرَفِى هذا لك إن ٱندفعتَ تغنّى (وكان المطرف من خز) ؛ فقام بين السِّماطين وغنّى فقال :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعن بالضحى (١) * وأسيافُنا يَقْطُرنَ من نَجْدةٍ دَمَا

فسمع منه معاوية وطَرِب وأصغى اليه حتى سكت وهو مُستحسِن لذلك ، ثم ٱنصرف ، وأخذ سائب خاثر المِطْرَف (٢) .

وكان مقتل سائب خاثر بالمدينة يوم الحَرَّة . قال : وكان يخشى على نفسه من أهل الشأم . فخرج اليهم وجعل يقول : أنا مغنٍّ ، ومن حالى ومن قصتى كَيْتَ وكَيْتَ ، وقد خدمتُ أمير المؤمنين يزيد وأباه قبله . فقالوا له : غنِّ لنا ، ففعل . فقام أحدهم فقال : أحسنت والله ، ثم ضربه بالسيف فقتله . وبلغ يزيد خبره ومرّ به ٱسمه فى أسماء من قُتِل فلم يعرفه وقال : من سائب خاثر؟ فعُرِّف به ، فقال : ويله ما له وما لنا ! ألم نُحْسِن إليه ونَصِله ونخالطه بأنفسنا ! فما الذى حمله على عداوتنا ! لا جَرَمَ أنّ بَغْيَه علينا صَرَعه . وقيل : إنه لمّا بلغه قتله قال : إنا لله ! أوَ بلغ

(١) كذا فى الأغانى (ج ٧ ص ١٩٠ طبع بولاق) وكامل المبرد وديوان قائله سيدنا حسان بن ثابت المطبوع فى أوربا . وفى الأصل : «فى الدجى» .

(٢) روى المبرد فى الكامل حكاية لمعاوية مع عبد الله بن جعفر تشبه هذه من بعض الوجوه (انظر صفحة ٣٩٠ طبع أوربا) .

القتـلُ إلى سائب خاثر وطبقته ! ما أرى أنه بقى بالمدينة أحد، وقال . قبحكم الله يأهل الشأم ! تجدهم وجدوه فى حائط أو حديقة مستترا فقتلوه . وقد قيل : إنه تقدّم يوم الحَرّة وقاتل حتى قُتِل . والله أعلم .

ذكر أخبـار طُوَيس

هو عيسى بن عبـد الله . وكنيته أبو عبد المنعم، وغيَّرها المخنَّثون فقالوا : أبو عبد النعيم . وطُوَيس لقبٌ غلب عليه، وقيل : اسمه طاوُس، مولى بنى مخزوم. وكان أيضا يلقَّب بالذائب؛ لأنه غَنَّى :

قـــد برانى الحبُّ حتى * كِدتُ من وجدى أذوبُ

وهـذا أوّل غناء غنّاه وهَزَج هَزَجه . وقد ضُرب المثـل به فى الشـؤم فقالوا : "أشأم من طُوَيس" لأنه وُلِد يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفُطِم يوم مات أبو بكر رضى الله عنه ، وخُتِن يوم مات عمر رضى الله عنه، وتزوّج يوم قُتِل عثمان، ووُلِد له يوم مات علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وكان مخنَّثا أحول طويلا؛ وقيـل : إنه وُلد ذاهبَ العين اليمنى . قالوا : وكانت أمّه تمشى بين نساء الأنصار بالنمائم . وطُوَيس أوّل مَنْ صَنَع الهَزَج والرَمَل فى الإسلام ، وكان الناس يضربون به المثـل فيقولون : « أهْزَج من طُوَيس » . وكان لا يضرب بالعـود وإنمـا ينقُر بالدُّفّ . وكان ظريفا عالمـا بأمر المدينة وأنساب أهلها .

(٩٩)

حكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسنده إلى المدائنىّ قال: قدِم ابن سُرَيج المدينة ، فجلس يوما فى جماعة وهم يقولون له : أنت والله أحسن الناس غناء ، إذ مرّ بهم طُوَيس فسمعهم وما يقولون ، فاستلّ دُفّه من حِضْنه ونقره وغنّى؛ فلما سمعه

ابن سُرَيج قال : هذا والله أحسنُ الناس غناءً لا أنا . وقال المدائنىّ[1]، قال مسلمة ابن محارب : حدّثنى رجل من أصحابنا قال : خرجنا فى سفر ومعنا رجلٌ من أصحابنا فانتهينا إلى واد، فدعونا بالغداء، فمدّ الرجل يده إلى الطعام فلم يَقدِر عليه، وكان قبل ذلك يأكل معنا ؛ فخرجنا نسأل عن حاله فنلقى[2] رجلا طويلا أحول مضطرب الخَلْق فى زِىّ الأعراب ؛ فقال لنا : مالكم؟ فأنكرنا سؤاله لنا ؛ فأخبرناه خبر الرجل فقال : ما اسم صاحبكم؟ فقلنا : أُسَيْد ؛ فقال : هذا واد قد أُخِّذَتْ[3] سِباعُه فارتحلوا ، فلو قد جاوزتم الوادى استمرّ[4] صاحبكم وأسِد[5] وأكل . قلنا فى أنفسنا : هو من الجنّ ، ودخلتنا فَزْعة . ففهم ذلك وقال : لِيُفْرِخْ رَوْعُكم فأنا طُوَيس . فقال له رجل منّا : مرحبًا بك أبا عبد النعيم ، ما هذا الزِّىّ؟! فقال : دعانى بعض أوِدّائى من الأعراب فخرجتُ إليهم وأحببتُ أن أتخطّى الأحياء فلا يُنْكِرونى . فسأله رجل منّا أن يغنّينا ؛ فاندفع ونقر بدُفّ كان معه مربَّع ، فلقد خُيِّل لى أنّ الوادى ينطق معه حسنًا . وتَعَجَّبنا من علمه وما أخبرنا به من أمر صاحبنا .

قال المدائنىّ : وكان طُوَيس وَلِعًا بالشعر الذى قالته الأَوْس والخَزْرَج فى حروبهم ، وكان يريد بذلك الإغراء ؛ فقلّ مجلسٌ اجتمع فيه هذان الحيّان فغنّى فيه طُوَيْس إلا وقع فيه شىء . فنُهِىَ عن ذلك ، فقال : والله لا تركتُ الغناءَ بشعر الأنصار حتى يُوَسِّدونى الترابَ ؛ وذلك لكثرة تولُّع القوم به ، وكان يُبْدِى السرائر ويُخرِج الضغائن ؛ وغناؤه يُستحسن ولا يُصْبَر عن حديثه .

(١) كذا فى الطبرى والأغانى (ج ٣ ص ٣٦ طبع دار الكتب المصرية) وهو مسلمة بن محارب بن سلم بن زياد الراوى . وفى الأصول : « مسلم » وهو تحريف .

(٢) عبارة الأغانى : « فلقينا رجلا ... » . (٣) أخذت سباعه : سحرت .

(٤) استمر : قوى واستقام أمره .

(٥) كذا فى الأصل . والذى فى الأغانى : « استمر صاحبكم وأكل » بدون « أسد » .

وحكى الأصبهانىّ عفا الله عنـه قال : كان بالمدينـة مخنّث يقال له النُّغاشى. فقيل لمروان بن الحَكَم : إنه لايقرأ من كتاب الله تعالى شيئا . فبعث إليه فاستقرأه أُمّ الكتاب، فقال : والله ما معى بناتُهـا ، أوَ ما أقرأ البناتِ فكيف أقرأ أُمّهنّ ! فقال : أتهزأ لا أُمّ لك ! فأمر به فقُتِـل ببُطْحان(١)، وقال : من جاءنى بمخنّث فله عشرة دنانير . فأُتِى طُوَيْس وهو فى بنى الحارث بن الخزرج فأُخبِر بمقالة مروان ؛ فقال: أمَا فضّلنى الأميرُ عليهم بفضلٍ حتى جعل فىّ وفيهم شيئا واحدا ! . ثم خرج حتى نزل السويداء (على ليلتين من المدينة فى طريق الشأم) فنزلها ، فلم يزلْ بها بقيّة عمره . وعُمِّر حتى مات فى ولاية الوليد بن عبد الملك . ثم ساق الأصفهانىّ هـذه القصة فى موضع آخر بسند آخر قال : خرج يحيى بن الحَكَم وهو أمير على المدينـة، فبَصُر بشخص فى السَّبَخة ممـا يلى مسجد الأحزاب ؛ فلما نظـر إلى يحيى جلس ؛ فاستراب به ، فوجّه إليه أعوانَه ، فأُتِى به كأنه آمرأة فى ثيـاب مُصَبَّغة مصقولة وهو ممتشط مُختضِب. فقال له أعوانه : هذا آبنُ نُغاش المخنث . فقال : ما أحسبك تقرأ من كتاب الله تعالى شيئا ! اِقرأ أُمّ القرآن ؛ فقال : لو عَرَفتُ أُمّهن عرفتُ البناتِ. فأمَر به فضُرِبتْ عنقُه. وساق نحو ما تقدّم، إلا أنه قال : جعل فى كل مخنّث ثلثمائة درهم .

وحكى أيضا بسند رفعـه إلى صالح بن كَيْسان وغيره : أنّ أبَان بن عثمان لمّـا أمّره عبد الملك على الحجاز أقبل ، حتى [اذا](٢) دنا من المدينـة تلقّاه أهلهـا وخرج إليه أشرافها، فخرج معهم طُوَيس . فلما رآه سلّم عليه ، ثم قال له : أيها الأمير ،

(١) بطحان (بفتح الباء ، وأكثرهم يضمها . قال ابن الأثير : ولعـله الأصح) : اسم وادى المدينة ، واليه ينسب البطحانيون . (انظر اللسان مادة « بطح ») .

(٢) الزيادة عن الأغانى (ج ٤ ص ٢١٩ طبع دار الكتب المصرية) .

إنى كنتُ قد أعطيتُ الله تعالى عهدًا إن رأيتُك أميرًا لأخضبن يدى إلى المِرْفَقين (١٠٠)
ثم أزْدُو(١) بالدّف بين يديك. ثم أبدى عن دفّه وتغنّى [بشعر ذى جَدَنٍ الحِمْيرىّ](٢) :

ما بالُ أهلك يا رَبَابُ * خُزْرًا كأنهمُ غِضابُ

فطرِب أبَان حتى كاد يطير، ثم جعل يقول : حَسْبُك يا طاوُس ! — ولم يقل له طويس لنبله فى عينه — ثم قال له : آجلس، بخاس. فقال له أبَان : قد زعموا أنك كافر. فقال له : جُعِلتُ فِداءك! والله إنى لأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله [صلى الله عليه وسلم] وأصلّى الخمس وأصوم رمضان وأحجّ البيت. قال: أفأنت أكبر أم عمرو بن عثمان ؟ — وكان عمرو أخا أبان لأبيه وأمه — فقال طويس : جُعلت فداءك ! أنا والله مع جلائل نساء قومى أُمسِك بذيولهن يوم زُفّت أمّك المباركة(٣) إلى أبيك الطيب. فاستحيا أبَان ورمى بطَرْفه الى الأرض.

ذكر أخبار عبد الله(٤) بن سريج

هو أبو يحيى عبد الله بن سُرَيْج، مولى بنى نَوْفَل بن عبد مَنَاف. وقال ابن الكلبى: إنه مولى لبنى الحارث بن عبد المطلب. وقيل: إنه مولى لبنى ليث، ومنزله بمكة. وقال الحسن بن عُتْبة اللّهبىّ : إنه مولى لبنى عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم. وحكى أبو الفرج الأصبهانىّ أنه كان آدَمَ أحمرَ ظاهرَ الدم سُنَاطا(٥)، فى عينيه قَبَلٌ(٦)، وبلغ خمسا وثمانين سنة، وكان منقطعا إلى عبد الله بن جعفر.

(١) أزدو : أضرب.
(٢) الزيادة عن الأغانى (ج ٤ ص ٢١٩ طبع دار الكتب المصرية).
(٣) فى الأصول : « على أبيك ». والتصويب عن الأغانى.
(٤) هكذا بالأصول. وسيأتى قريبا أنه يسمى « عبيد بن سريج ». واضطربت فيه أصول الأغانى، فورد فى بعضها : « عبيد ». وفى بعضها : « عبيد الله ». وفى بعضها : « عبد الله ».
(٥) السناط : الذى لا لحية له أصلا أو الخفيف العارض أو من له لحية وليس فى عارضيه شىء.
(٦) القبل : مثل الحول فى العين أو هو أحسن منه.

ونقل أيضا عن ٱبن الكلبيّ أنه كان مخنّثا أحول أعمش، يلقّب وجهَ الباب. وكان لا يغنّى إلا متنقّبا، مُسْبِلَ القِناع على وجهه. قال: وكان أحسن الناس غناء، وكان يغنّى مُرْتجِلا ويُوقِع بقضيب، وقيل: كان يضرب بالعود. وغنّى فى زمن عثمان بن عفّان، ومات فى خلافة هشام بن عبد الملك. وقيل: كان ٱسمه عُبَيد بن سريح من أهل مكة. وقال ٱبن جُرَيْج: كان عُبَيد بن سُرَيْج مولى آل خالد بن أَسِيد، وقيل: كان أبوه تركيّا. وقيل: كان عُودُه على صنعة عيدان الفُرْس، وهو أوّل مَنْ ضرب به على الغناء العربىّ بمكة؛ وذلك أنه رآه مع العجم الذين قدِم بهم ٱبن الزبير لبناء الكعبة، فأعجَبَ أهلَ مكة غناؤهم. فقال ٱبن سُرَيج: أنا أضرب به على غنائى، فضرب به فكان أحذقَ الناس. وأخذ الغناء عن سَعِيد بن مِسْجَح، وقد تقدّم ذكر ذلك. وأوّل ما ٱشتهر بالغناء فى خِتان ٱبن مولاه عبدِ الله بن عبد الرحمن بن أبى حُسَين. قال ٱبن سُرَيْج لأمّ الغلام: خَفِّضى عليك بعضَ المغرَم والكُلْفة، فوالله لأُلْهِيَنّ نساءك حتى لا يدرين ما جئتِ به. وكان مَعْبَد إذا أعجبه غناء نفسه قال: أنا اليوم سُرَيْجىّ.

ومن أخباره أيضا أن عَطاء بن أبى رَبَاح لقِيه بذى طُوًى وعليه ثياب مُصَبَّغة وفى يده جَرادة مشدودة الرِّجل بخيط يُطيرها ويَجذبها كلما تخلّفت؛ فقال له عطاء: يا فتَى، ألَا تَكُفّ عما أنت فيه! كفى الله الناسَ مئونتك. فقال له ٱبن سُرَيج: وما على الناس من تلوينى ثيابى ولَعِبى بجرادتى! فقال: تُغَنّيهم أغانيَك الخبيثة. فقال له ٱبن سُرَيج: بحقّ من تَبِعته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحق رسول الله صلى الله عليه وسلم عليك إلّا سمعتَ منّى بيتا من الشعر، فإن سمعتَ منكرًا أمرتَنى بالإمساك عما أنا عليه، وأنا أقسم بالله وبحقّ هذه البَنِيّة إن أمرتَنى

بعد آستماعك منّى بالإمساك عما أنا عليه لأفعلنّ . فأطمع ذلك عطاءً فى آبن سُرَيج وقال له : قل . فآندفع يغنّى بشعر جرير :

إنّ الذين غَدَوْا بُلُبِّكَ غادروا * وَشَلًا بعينكَ لا يزال مَعِينَا

غَيَّضْنَ مِنْ عَبَراتِهنّ وقلن لى * ماذا لَقِيتَ من الهوى ولَقِينا

قال : فلما سمعه عطاء آضطرب آضطرابا شديدا وداخلته أَرْيَحِيَّةٌ ، فحلف ألّا يكلّم أحدًا بقيّة يومه إلا بهذا الشعر، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كل من يأتيه يسأل عن حلال أو حرام أو خبر لا يُجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى ويُنشِد هذا الشعر حتى صلّى المغرب ، ولم يُعاوِد آبنَ سريج بعدها ولا تعرّض له . (١٠١)

وحُكِىَ عنه أيضا أنّ عمر بن أبى ربيعة حجّ فى عام من الأعوام ومعه آبن سُرَيج، فلما رَمَوُا الجمراتِ تقدّما الحاجّ إلى كثيب على خمسة أميال من مكة مشرف على طريق المدينة وطريق الشام والعراق ، وهو كثيب شامخ مُفْرَد عن الكُثْبان، فصارا إليه فأكلا وشربا . فلما آنتشيا أخذ آبن سريج الدفّ فنقره وجعل يتغنّى وهم ينظرون إلى الحاجّ. فلما أمسيا رفع آبن سُرَيج صوتَه وتغنّى بشعر لعمر بن أبى ربيعة، فسمعه الرُّكبانُ، فجعلوا يَصيحون به: يا صاحب الصوت، أمَا تتّقى الله ! قد حبست الناس عن مناسكهم، فيسكت قليلا حتى إذا مضوْا رفع صوتَه فيقف آخرون، إلى أن وقف عليه فى الليل رجل حسن الهيئة على فرس عتيق حتى وقف بأصل الكَثيب، ثم نادى : يا صاحب الصوت، أيسهُل عليك أن تردّد شيئا مما سمعتُه منك ؟ قال : نعم ونِعمة عينٍ، فأيّها تريد؟ فآقترح صوتا فغنّاه . ثم قال له آبن سريج : اِزْدَدْ إن شئتَ ؛ فآقترح صوتًا آخر فغنّاه ، فقال له : والثالث ولا أستزيدك ، فغناه الثالث . وقال له آبن سريج : أبَقِيتْ[1] لك حاجة ؟ قال نعم ، تنزل لأُخاطبَك؛ فنزل إليه فإذا هو يزيد

(١) فى الأصول هكذا : (أتعبت الزجاجة) . والتصويب عن الأغانى (ج ١ ص ١٠٣) .

ابن عبد الملك، فأعطاه حُلّته وخاتمه وقال : خذهما ولا تُخْدَع فيهما فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار؛ فعاد آبن سريج بهما فأعطاهما لعمر بن أبى ربيعة وقال : هما بك أشبهُ منهما بى، فأخذهما وعوّضه عنهما ثلثمائة دينار؛ وغدا فيهما إلى المسجد، فعرفهما الناسُ وجعلوا يتعجّبون و يسألون عمرَ عنهما، فيُخبرهم أن يزيد بن عبدالملك كساه ذلك . وقيل : إن عمر بن عبد العزيز مرّ به فسمع آبنَ سريج وهو يغنّى، فقال : لله درّ هذا الصوت لو كان بالقرآن ! .

قال إبراهيم بن المهدىّ : كان آبن سريج رجلا عاقلا أديبا، وكان يعاشر الناس بما يشتهون فلا يغنّيهم بما مُدِح به أعداؤهم ولا بما فيه عارٌ عليهم أو غَضاضة منهم .

ومن أخباره ما حكاه أبو الفرج الأصبهانى بإسناده، قال : كتب الوليد بن عبد الملك إلى عامل مكة أن أَشْخِصْ إلىّ آبنَ سريج، فأشخصه إليه . فلما قدم مكث أياما لا يدعوه ولا يلتفت إليه، ثم ذكره فآستحضره، فدخل عليه وسلّم فأذن له بالجلوس وآستدناه حتى كان قريبا منه؛ فقال : وَيْحَك يا عُبَيْد ! لقد بلغنى عنك ما حملنى على الوِفادة بك من كثرة أدبك وجودة آختيارك مع ظرف لسانك وحلاوة مجلسك . قال : جُعِلت فِداءك يا أمير المؤمنين ! « تسمّع بالمُعَيْدِىّ لا أن تراه »(١)، قال الوليد : إنى لأرجو ألا تكونَ أنتَ ذاك، ثم قال : هاتِ ما عندك؛ فآندفع يغنّى بشعر الأحوص :

وإنّى إذا حَلّت بَيْشِ(٢) مقيمة * وحَلّ بوَجٍّ(٣) جالسًا أو تَنَهّما

(١) هذى إحدى روايات المثل، حكاها الميدانى فى مجمع الأمثال، والرواية المشهورة وهى التى صدّرت بها هذه الروايات (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) .

(٢) بيش (بالفتح) : أحد مخاليف اليمن . و بيش (بالكسر) : من بلاد اليمن أيضا قرب دهلك .

(٣) كذا فى الأغانى (ج ١ ص ٢٩٨ طبع دار الكتب المصرية) ووج : اسم واد بالطائف بالبادية وفى الأصول : «بوح» بالحاء المهملة . ووح : قيل إنها ناحية بعمان . وجالسا : أتى الجلس وهو نجد . وتنهم : أتى تهامة .

يمانيةً شطّت وأصبح نفعُها * رجاءً وظنًّا بالمَغيب مرجّما
أُحِبّ دنوَّ الدّار منها وقد أبى * بها صَدْعُ شَعْبِ الدار إلّا تَثَلُّما
بكاها وما يَدْرِى سوى الظنّ ما بكى * أحيًّا يُبَكَّى أم ترابًا وأعظُما
فدَعْها وأخلِفْ للخليفة مِدْحةً * تُزِلْ عنك بُؤسَى أو تفيدُك مَغْنَما (١)
فإن يكفّيه مفاتيح رحمةٍ * وغيثَ حيًا يحيا به الناسُ مُرْهِما (٢) (١٠٢)
إمامٌ أتاه الملكُ عفوًا ولم يُثب * على ملكه مالا حرامًا ولا دَما
تخيّره ربُّ العباد لخَلْقه * وليًّا وكان اللهُ بالناس أعلما
ينال الغِنى والعزَّ مَنْ نال ودَّه * ويَرْهب موتًا عاجلا من تَشَأما (٣)

فقال الوليد : أحسنتَ والله وأحسن الأحوصُ . ثم قال : يا عُبَيْد هِيه ! فغنّاه بشعر عَدِى بن الرِّقاع العامِلىّ يمدح الوليد :

طار الكرى وألمّ الهَمُّ فاكتَنَعا (٤) * وحِيل بينى وبين النوم فامتنعا
كان الشبابُ قِناعًا أستكِنُّ به * وأستظِلُّ زمانًا ثُمّت انقشعا
واستبدل الرأسُ شيبًا بعد داجيةٍ * فَيْنانةٍ ما ترى فى صُدْغها نَزَعا (٥)
فإن تكن مَيْعةٌ من باطل ذهبتْ * وأعقب اللهُ بعد الصَّبْوة الوَرَعا
فقد أبيتُ أُراعِى الخَوْدَ رابيةً (٦) * على الوسائد مسرورًا بها ولِعا

(١) فى الأغانى : «أنها» . ورفع الفعل هنا على توهم أن الأول مرفوع ، كأنه قيل : تزل عنك بؤسى أو تفيدك مغنما ، أو على أنه مستأنف كأنه قيل : أو هى تفيدك مغنما .
(٢) يقال : أرهمت السماء إذا أتت بالرهام ، جمع رهمة وهى المطر الضعيف الدائم .
(٣) فى الأصول : « تشئما » . والتصويب عن الأغانى .
(٤) ألم : نزل . واكتنع : دنا وحضر .
(٥) فينانة : حسنة الشعر طويله . والنزع : انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبى الجبهة .
(٦) فى الأغانى : « راقدة » .

بَرّاقةَ الثغر يشفِى القلبَ لذَّتُهـا * إذا مُقَبِّلها فى ريقها كَرَعا
كالأُقْحُوانِ بضاحِى الروض صبّحه * غيثٌ أَرَشَّ بتَنْضاج وما نقعـا
صلى الذى الصلواتُ الطيِّبات له * والمؤمنون إذا ما جمّعوا الجُمَعـا
على الذى سـبق الأقوام ضاحيةً * بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذى جمع الرحمنُ أمّتَـه (١) * على يديه وكانوا قبـلـه شِـيَعا
عُدْنا بذى العرش أن نحيا ونَفْقِدَه * وأن نكون لراعٍ بعـده تبعا
إن الوليـد أمير المؤمنين له * مُلْك أعان عليـه الله فارتفعا
لا يمنـع الله (٢) ما أعطى الذين هُمُ * له عباد ولا يُعْطَوْن ما منعا

فقال الوليـد : صدقت يا عُبَيْد ، أنّى لك هـذا ؟ قال : (هو مِن عِنْـدِ اللهِ) . قال الوليد : لو غيرَ هذا قلتَ لأحسنتُ أدبك . قال ابن سريج : (ذَلِك فضل اللهِ يؤتيه من يشاء) قال الوليد : (يزِيد فِى الخلقِ مايشاء) . قال ابن سريج : (هذا مِن فضلِ ربى لِيبلُوَنِى أأشكر أم أكفر) . قال الوليد : لعلمُك والله أكثر وأعجبُ إلىّ من غنائك ! غنّنى ؛ فغنّاه بشعر عَدِىّ بن الرِّقاع يمدح الوليد (٣) فقال :

عرَف الدِّيارَ توهمـا فاعتـادهَا * من بعـد ما شَمِل البِـلى أبلادها (٤)

(١) كذا فى الاغانى (ج ١ ص ٢٩٩ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصول : « صـلى الذى ... الخ » .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « لا يمنع الناس » .

(٣) رأينا أن نثبت هـذه القصيدة كاملة ، وقد نقلناها عن مجلة الآثار السنة الثانية ص ٤٤٤ وقد نشرها فيها المرحوم أحمد تيمور باشا وقال : إنه لا يوجد منها فى كتب اللغة والأدب إلا أبيات متفرقة و إنه عثر عليها تامة فى مجموع مخطوط قديم بخزانة المرحوم أحمد زكى باشا مكتوب عليه بخط حديث أنه للثعالبى . والأبيات الموضوعة بين قوسين مربعين غير موجودة بالأصل .

(٤) أبلادها : آثارها . وفى رواية أخرى « درس » بدل « شمل » .

[إلا رواسِيَ كلهنّ قد اصطلى * جمـرًا وأشعل أهلُها إيقادها (١)
كانت رواحلَ للقدور فعُرِّيت * منهـنّ واستلب الزمانُ رمادَها
وتنكّرتْ كلَّ التنكّر بعـدنا * والأرض تعرف بعلَها وجمادها (٢)]
ولربّ واضحةِ العـوارض حُرّة (٣) * كالرِّيم قـد ضربت به أوتادها
تصطاد بهجتُها المعلَّل بالصبا * عَرَضًا فتُقصِده ولن يَصطادها (٤)
كالظّبيـة البكر الفريدة تَرْتعِي * من أرضها قُفّاتِها وعِهادها (٥)
خضبت لها عقد البراق جبينها * من عَرْكها عَلَجانها وعَرَادها (٦)
كالزَّيْن فى وجه العروس تبذّلت * بعـد الحياء فلاعبتْ أُرْآدَها
تُزْجِى أغنَّ كأن إبرةَ رَوْقه * قلمٌ أصاب من الدّواة مِدادها
ركبتْ به من عالج متحيِّرا * قفـرًا تُرِيبُ وحشُـه أولادَها (٧)
فترى محانيَـه التى تَسِقُ الثرى * والهَـبْرُ يُونِق نبتُها رُوّادها (٨)
بانت سـعاد وأخلفت ميعادَها * وتبـاعَدَتْ عنا لِتمنع زادَها

(١) رواية الأغانى « رواكد » بدل «رواسى» ، و«حمراء أشعل» بدل « جمرا وأشعل » .

(٢) البعل : الأرض المرتفعة التى لا يصيبها مطر إلا مرة واحدة فى السنة ، والجماد : اليابسة التى لم يصبها مطر ولا شىء فيها .

(٣) فى الأغانى (ج ١ ص ١١٩) : « طفلة » .

(٤) المعلل بالصبا : المشغول به المتلهى . وأقصده : رماه بسهم فقتله .

(٥) القفات : جمع قفة ، وهى — كما قال الأزهرى — : شجرة مستديرة ترتفع عن الأرض قدر شبر وتيبس . والعهاد : جمع عهد بالفتح وعهدة (بالفتح والكسر) وهى مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوّله .

(٦) فى الأصل :

خصبت لها عقد البراق جنينها * عن عكرها علجانها وعرادها

والبراق : جمع برقة وهى أرض غليظة مختلطة بحجارة ورمل . والعلجان والعراد نباتان .

(٧) عالج : اسم موضع .

(٨) محانيه : معاطفه وثناياه ، وتسق : من الوسق وهو الجمع ، والهبر : المطمئن من الأرض .

إنى إذا ما لم تَصِلْنى خُلَّتى * وتباعدت عنّى اغتفرتُ بِعادها (١)
[إمّا تَرَىْ شَيْبى تَقَشَّع لِمّتى * حتى علا وضَحٌ (٢) يلوح سوادها
فلقد ثنيتُ يدَ الفتاة وسادةً * لى جاعلا يُسرى يَدَىّ وِسادها
وأُصاحِب الجيشَ العَرَمْرم فارسًا * فى الخيل أُشهِد كَرّها وطِرادها
وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينها * حتى أقوّم ميلَها وسِنادها (٣)
نَظَرَ المثقِّف فى كُعوب قَناته * حتى يُقِيمَ ثِقافُه مُنآدها (٤)
فسترتُ عيبَ معيشتى بتكرّم * وأتيتُ فى سَعَةِ النعيم سِدادها (٥)
وعلمتُ حتى ما أُسائل واحدًا * عن علمِ واحدةٍ لكى أزدادها]
صلّى الإلهُ على امرئ ودّعتُه * وأتمّ نعمتَه عليه وزادها
وإذا الربيعُ تتابعت أنواؤه * فسقى خُناصِرةَ الأحَصّ (٦) بفادها
نزل الوليد بها فكان لأهلها * غيثًا أغاث أنيسَها وبلادَها
أوَلَا ترى أن البريّة كلّها * ألقتْ خزائمها إليه فقادها
ولقد أراد الله إذ ولّاكها * من أمّةٍ إصلاحَها ورشادها
أعمرتَ أرضَ المسلمين فأقبلت * وكَفَفْتَ عنها من يروم فسادها
وأصبتَ فى أرض العدوّ مصيبةً * عَمّت أقاصىَ غَوْرها ونِجادَها
ظَفَرًا ونصرًا ما تناول مثلَه * أحدٌ من الخلفاء كان أرادها

(١) الخلة بالضم : الخليلة . (٢) يلوح سوادها : يغيره .
(٣) السناد : هو اختلاف الحركات التى تلى الأرداف فى الروى .
(٤) منآدها : معوجها . (٥) السداد : ما تسدّ به الخلة . (٦) الأحص : كورة كبيرة مشهورة ذات قرى ومزارع بين القبلة وبين الشمال من مدينة حلب قصبتها « خناصرة » مدينة كان ينزلها عمر بن عبد العزيز وهى صغيرة وقد خربت الآن إلا اليسير منها كذا فى ياقوت ، وقد أورد البيت هكذا :

وإذا الربيع تتابعت أنواؤه * فسقى خناصرة الأحص وزادها

فإذا نشرتَ له الثناءَ وجدتَه * جمع المكارِمَ طِرْفَها وتِلادَها
[غَلب المساميحَ الوليدُ سَماحةً * وكفى قريشَ المُعْضِلاتِ وسادَها
تأتيه أسلابُ الاعِزّة عَنْوةً * قَسْرًا ويجمع للحروب عَتادَها
وإذا رأى نارَ العدوّ تضرّمت * سامى جماعةَ أهلها فأقتادها
بِعَرَمْرَمٍ تبدو الرَّوابى ذى وَعًى * كالحَرّة احتمل الضحى أطوادَها (١)
أطفأتَ نارًا للحروب وأُوقِدت * نارٌ قدحت براحتيك زِنادَها
فبدت بصيرتُها لمن يبغى الهدى * وأصاب حُرُّ شديدها حُسّادَها
وإذا غدا يومًا بنَفْحة نائل * عرضت له الغدَ مثلُها فأعادها
واذا عدت خيلٌ تُبادِر غايةً * فالسابق الجالِى يقود جِيادَها]

فأشار الوليدُ إلى بعض الخدم فغطّوه بالخِلَع، ووضعوا بين يديه كيس الدنانير (١٠٣)
وبِدَر الدراهم، ثم قال الوليد: يا مولى بنى نَوْفَل بن الحارث لقد أُوتِيتَ أمرًا جليلا فقال آبن سريج: وأنت يا أمير المؤمنين لقد آتاك الله ملكا عظيما وشرفًا عاليا وعزا بسط يدك فيه فلم يَقْبِضه عنك ولا يفعل إن شاء الله، فأدام الله لك ما وَلّاك وحفظك فيما آسترعاك، فإنك أهل لما أعطاك، ولا ينزِعه منك إذ رآك له مَوْضعا.
قال: يا نوفلىّ، وخَطِيبٌ أيضا! قال آبن سريج: عنك نطقت، وبلسانك تكلّمت، وبعزّك بيّنت، وكان قد أمر بإحضار الأحوص بن محمد الأنصارىّ وعدِىّ بن الرِّقاع العامِلىّ، فلما قدِما عليه أمر بإنزالهما حيث آبن سريج فأنزِلا منزلا بجوار منزله. فقالا: والله لقربُ أمير المؤمنين كان أحبَّ إلينا من قربك يا مولى بنى نوفل، وإن فى قربك لما يَلَذّنا ويشغلُنا عن كثير مما نريد. فقال لهما آبن سريج: أوقِلّة شكر!

(١) الوعى: الجلبة، والحرة بالفتح الأرض الصلبة الغليظة. والمعنى أن الروابى التى يحارب فيها هذا الجيش تبدو للناظر كأنها حرة حمل سراب الضحى أطوادها وجبالها العالية.

فقال له عدىّ : كأنك يابن اللَّخناء تَمُنّ علينا ، [علىّ وعلىّ] (١) إن جمعنا وإياك سقفُ بيت أو صحنُ دار عنـد أمير المؤمنين ، فقال الأحوص : أولا تحتـمل لأبى يحيى الزّلّة والهفـوة ، وكفّارةُ يمينٍ خيرٌ من لَجاج فى غير منفعة . فتحوّل عدىّ وبقى الأحوصُ . وبلغ الوليدَ ما جرى بينهم ، فدعا آبنَ سريج فأدخله بيتًا وأرخى دونه سِترًا ثم أمره إذا فرغ الأحوصُ وعدىٌّ من كلمتيهما أن يغنّى ، فلما دخلا وأنشداه مدائحَ لهما فيـه ، رفع آبنُ سريج صـوتَه من حيث لا يَرَوْنه وضرب بعود . فقـال عَدِىّ : يا أمير المؤمنين ، أتأذَن لى أن أتكلّم ؟ قال : قل يا عاملىّ ، قال : مثلُ هذا عنـد أمير المؤمنين ويبعث إلى آبن سريج يتخطّى رقابَ قريش والعرب من تهامة إلى الشام ترفعه أرضٌ وتخفِضه أخرى ليسمع غناءَه ! قال : ويحك ياعدىّ ! أولا تعرف هـذا الصوتَ ؟ قال : لا والله ما سمعتُـه قط ولا سمعتُ مثلَه ، ولولا أنه فى مجلس أمير المؤمنين لَقُلْت طائفةٌ من الجنّ يتغنّون ، فقال : آخرج عليهم ، فخرج فإذا آبن سريج . فقال عدىّ : حَقَّ لهـذا أن يُحْمل ! حقَّ لهذا أن يحمل ! ثلاثا ، ثم أمر لهما بمثل ما أمر به لآبن سريج وآرتحل القومُ .

وروى أبو الفرج أيضا عن سهل بن بركة وكان يحمل عودَ آبن سريج قال :

كان على مكة نافعُ بن عَلْقمة الكِنانىّ فشـدّد فى الغناء والمغنّين والنبيذ ونادَى فى المخنّثين . فخرج فِتيـةٌ من قريش إلى بطن مُحَسِّر (٢) وبعثـوا برسـول لهم ، فجاءهم براوِيةٍ من شراب الطائف ، فلما شربوا وطـرِبوا قالوا : لو كان معنا آبنُ سريج تم سرورُنا ، فقلت : هو علىّ لكم ، فقال لى بعضُهم : دونَك هذه البغلة فاركبها وآمض إليه ، فأتيتُه فأخبرتُه بمكان القوم وطلبهم إيّاه ، فقال لى : ويحك ! وكيف لى بذلك

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ١ ص ١١٩) .

(٢) بطن محسر : موضع بين مكة وعرفة ، وقيل : بين منى وعرفة .

مع شدّة السلطان فى الغناء وندائه فيه . فقلت له : أتردّهم؟ قال : لا والله! فكيف لى بالعود، فقلت : أنا أخبؤه لك فشأنك . فركب وسترتُ العودَ فأردفنى . فلما كنّا ببعض الطريق إذا بنافع بن عَلْقمة قد أقبل ، فقال لى : يآبن بركة ، هذا الأمير . فقلت له : لا بأس عليك! أرسِل عِنانَ البغلة وآمِض ولا تَخَفْ ، ففعل . فلما حاذيناه عرفنى ولم يعرف آبنَ سريج ، فقال لى . يآبن بركة ، من هذا أمامك ؟ قلت : من ينبغى أن يكون ! هذا آبنُ سريج ، فتبسّم ثم تمثّل :

فإن تَنْجُ منها يا أبَانُ مُسَلَّمًا * فقد أفلت الحجّاجُ خيلَ شبِيبِ

ثم مضى ومضينا . فلما كنّا قريبا من القوم نزل إلى شجرة يستريح . فقلتُ له : غنِّنى مرتجِلا ، فرفع صوته تخيّل إلىّ أن الشجرة تنطق معه ، فغنّى وقال :

كيف الثَّواءُ ببطن مكّة بعد ما * هَمَ الذين تُحِبّ بالإنجاد

أم كيف قلبُك إذ ثَوَيتَ مخمَّرا * سَقَمًا خِلافَهمُ وكربُك بادِى (١)

هل أنتَ إن ظعن الأحبّةُ غادِى * أم قبل (٢) ذلك مُدْلِجٌ بسوادِ

قال : فقلت : أحسنتَ والذى فلق الحبّةَ و برأ النَّسَمةَ ! ولو أن كانة كلّها سمعتك لاستحسنتْك (٣)، فكيف بنافع بن علقمة! المغرورُ من غرّه نافع . ثم قلت : زِدْنى و إن كان القوم متعلّقة قلوبهم بك ، فغنّى وتناول عودا من الشجرة فوقّع به على الشجرة ؛ فكان صوتُ الشجرة أحسنَ من خفق بطون الضّأن على العيدان إذا أخذتها عيدان الدَّفْلَى (٤)، وغنّى :

لا تجمِعى هَجْرًا علىّ وغُربةً * فالهجرُ فى تَلَفِ المحبّ سريعُ

(١) كذا فى الأغانى (ج ١١ ص ٢٠ طبع بولاق) . وفى الأصل : « ولونك » .

(٢) فى الأصل : « من قبل ذلك » . والتصويب عن الأغانى .

(٣) فى الأصل : « لاستحسنت » والتصحيح عن الأغانى .

(٤) الدفلى : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية .

مَنْ ذا فديتُكِ يستطيع لبه ... دَفْعًا إذا آشتملت عليه ضلوعُ

فقلت : بنفسى أنت والله، من لا يُكَلّ ولا يُمَلّ! والله ما جهل مَنْ فَهِمَك، اركب بنا فَدتْك نفسى . قال : أمهلنى كما أمهلتُك أقضِ بعض شأنى . فقلت : وهل عما تريد مَدْفعٌ! . فقام فصلّى ركعتين ثم ضرب بيده إلى الشجرة وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . ثم مضينا والقوم مستشرِفون . فلما دنونا منهم إذا الغرِيضُ يغنّيهم :

مِن خَيْل حَيَّ لا تَزال مُغيرةً * سَمِعتْ على شَرَف صَهِيلَ حِصانِ

فبكى آبن سريج حتى ظننت أن نفسه قد خرجت . فقلت : ما يُبكيك يا أبا يحيى ؟ جُعِلتُ فِداك لا يسوءك الله ولا يُريك سوءًا[1]! قال : أبكانى هذا المخنَّثُ بحسن غنائه وشجا صوته، والله ما ينبغى لأحد أن يغنّى وهذا الصبىّ حىٌّ، ثم نزل وآستراح وركِب . فلما سرنا هُنيهةً آندفع الغرِيضُ يغنّى لهم بلحنه :

يا خليلَىَّ قـد مللتُ ثَوائى * بالمُصَلَّى وقد سئمتُ البَقيعا

بلِّغانى ديارَ هندٍ وسُعدَى * وآرجِعانى فقد هَوِيتُ الرجوعا

قال : ولصوته دوىٌّ فى تلك الجبال . فقال آبن سريج : يآبن بركة، أسمِعتَ مثل هذا الغناء قط؟ ! قال : ونظروا إلينا فأقبلوا نَشَاوَى يسحَبون أعطافَهم وجعلوا يقبِّلون وجه آبن سريج . فنزل فأقام عندهم ثلاثًا، والغرِيض لا ينطِق بحرف، وأخذوا فى شرابهم وقالوا : ياحبيب النفس وشقيقها، أَعْطِها بعضَ شأنها[2] . فضرب بيده إلى جيبه[3] فأخرج منه مِضرابًا ثم أخذه بيده ووضع العود فى حجره — فما رأيتُ [يدًا][4] أحسنَ من يده

(١) فى الأصول : « والله لا يسوءك هذا ولا يريك سوءا » . والتصويب عن الأغانى .

(٢) فى الأغانى : « بعض مناها » .

(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « الى جنبه » .

(٤) الزيادة عن الأغانى .

ولا خشبةً تخيّلتْ لى أنها جوهرةٌ إلّا هى — ثم ضرب فلقد ضجّ[1] القومُ جميعا، ثم غنّى فكلٌّ قال : لبّيْك لبّيْك! فكان ممّا غنّى به [واللحن له][2] هزجٌ :

لبّيـك يا سـيّدتى * لبّيـك ألفـا عدّدا
لبّيـك من ظالمـةٍ * أحببتُهـا مجتهـدا
قُـومى إلى ملعبنا * نَحْكِ الجوارى الخُرّدا
وضْـعَ يَدٍ فوق يَدٍ * نرفعهـا يدًا يـدا

فكلٌّ قال : نفعل ذاك؛ فلقد رأيتنا نستبق أيّنا تقع يده على يده . ثم غنّى :

ما هاج شوقَك بالصَّرائمْ * رَبْـعٌ[3] أحال لآل عاصِمْ
ربعٌ تقـادَم عهـده * هاج المحبَّ على التقادم
فيـه النواعمُ والشبا * بُ النّاعمون مع النواعم
مِن كل واضحـة الجبيـ * ـن عَميمةٍ ريّا المَعاصِم

ثم غنّى بقوله :

شجانى مغانى الحىّ وآنشقتِ العصا * وصاح غرابُ البين أنتَ مريضُ
ففاضت دموعى عند ذاك صبابةً * وفيهنّ خَوْدٌ كالمهاة غَضِيضُ
وولّيت محزونَ الفؤادِ مُرَوَّعًا * كئيبًا ودمعى فى الرداء يَفِيض

قال : فلقـد رأيتُ جماعةً من الطير وقَعْن بقربنـا وما نُحِسّ من قبـل ذلك منها شيئا . فقالت الجماعة : ياتَمام السرور وكمالَ المجالس ، لقد سعِد من أخذ بحظّه[4] منك وخاب من حُرِمك ، ياحياةَ القلوب ونسيمَ النفوس جعلنا الله فداءَك ، غنّنا . فغنّى :

(١) فى الأغانى : « سبح » . (٢) زيادة عن الأغانى . (٣) فى الأغانى : « لأم عاصم » . (٤) فى الأصول : « بحظك » . والتصويب عن الاغانى .

ياهند إنك لو علمـ * ـتِ بعَاذِلَيْن تتابعا

قال : فبدَرْتُ من بينهم فقبَّلت عينيه، فتهافت القومُ عليـه يقبِّلونه ، ولقد رأيتُنى وأنا أرفعهم عنه شفقةً عليه .

وكانت وفاةُ ابن سريج بالعـلّة التى أصـابته من الجُذام بمكة فى خلافة سليمان ابن عبد الملك أو فى خلافة الوليد، ودُفن فى موضع يقال له «دسم»[1] . رحمة الله عليه وعفا عنه وغفر له . والحمد لله ربّ العالمين .

(١٠٥) حُكِى أنه لمـا احتُضِر نظر إلى ابنته تبكى فبكى وقال : إنه مِن أكبر همّى أنتِ وأخشى أن تضيعى بعدى . فقالت : لا تَخَفْ فما غنّيتَ شيئا إلا وأنا أغنّيه . فقال : هاتى، فاندفعت فغنّت وهو مصغ إليهـا . فقال : قد أصبتِ ما فى نفسى وهوّنتِ علىَّ أمرَكِ . ثم دعا سعيدَ بن مسعود الهُذَلِى فزوّجه إيّاها ؛ فأخذ أكثرَ غناء أبيها وانتحله .

ذكر أخبار معبـد

هو معْبَد بن وهب، وقيل : ابن قَطَنىّ مولى ابن قَطَن ؛ وقيل : إن قَطَنا مولى العاص بن واقِصة[2] المخزومىّ، وقيل : مولى معاوية بن أبى سفيان . غنّى معبد فى أيام بنى أميّة فى أوائلها، ومات فى أيام الوليد بن يزيد بدمشق .

قال أبو الفرج الأصفهانى :

إنه لمّا مات خرجت سَلامة جاريةُ الوليد بن يزيد بن عبد الملك وأخذت بعمود السرير والناسُ ينظرون إليها وهى تَنْدُبه وتقول شعرَ الأحوص :

---

(١) دسم : موضع قرب مكة .

(٢) فى الأغانى (ج ١ ص ٣٦ طبع دار الكتب المصرية) : « رابصة » بالباء الموحدة .

قد لَعَمْرِى بتُّ لَيلِى * كأُخِى الداءِ الوَجِيعِ
ونجِىُّ الهمِّ مِنِّى * بات أدنى من نَجِيعِى
كلما أبصرتُ ربعًا * خالِيًا فاضت دموعِى
قد خلا من سيِّدِ كا * ن لنا غيرَ مُضِيعِ
لا تَلُمْنا إن خشعنا * أو همَمْنا بخشُوعِ

وكان معبد قد علّمها هذا الصوت فندَبته به . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ : كان معبد من أحسن الناس غِناءً ، وأجودهم صنعة ، وأحسنهم خُلُقًا[1] ؛ وهو إمام أهل المدينة فى الغناء ، وأخذ عن سائب خاثِر ونَشِيط الفارسىّ مولى عبدالله بن جعفر ، وعن جَميلة مولاة بَهْز (بطن من بنى سليم) . وفى معبدٍ يقول الشاعر :

أجاد طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِىُّ بعده * وما قصَبَاتُ السَّبْق إلا لمعبدِ

وحكى أبو الفرج أيضا :

أن الوليد بن يزيد آشتاق إلى معبد ، فوجّه اليه البريدَ إلى المدينة فأحضره . فلما بلغ الوليدَ قدومُه أمر ببركة مُلِئتْ ماء وَرد وخُلِط بمسك وزعفران ، ثم جلس الوليد على حافَة البركة وفُرِش لمعبدٍ مُقَابِلَه وضُرِب بينهما سِترٌ ليس معهما ثالث . وجىء بمعبد فقيل له : سلِّم على أمير المؤمنين وآجلس فى هذا الموضع ؛ فسلّم فردّ عليه من خَلْف السِّجف ، ثم قال له : أتدرى لم وجّهتُ إليك ؟ قال : الله أعلم وأمير المؤمنين . قال : ذكرتُك فأحببتُ أن أسمع منك . فقال له معبد : أأُغَنِّى ماحضر أو مايقترحه أميرُ المؤمنين ؟ قال : [بل][2] غَنِّ :

مازال يعدو عليهم رَيْبُ دهرهمُ * حتى تفانَوْا وريبُ الدهر عَدَّاء

(١) كذا فى الأغانى (ج ١ ص ٣٨ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصل : «خلقا» بالخاء المعجمة وهو تصحيف .
(٢) الزيادة عن الأغانى .

فغنّاه . فرفع الجوارى السِّجَف ، ثم خرج الوليدُ فألقى نفسه فى البركة فغاص فيها، ثم خرج منها، فاستقبله الجوارى بثياب غيرِ الثياب التى كانت عليه، ثم شرب وسقى معبدًا ثم قال له : غنِّنى يا معبد :

يا رَبْعُ مالك لا تُجِيبُ متيَّمًا * قد عاج نحوَك زائرًا ومسلِّما
جادتك كلُّ سحابةٍ هطَّالةٍ * حتى تُرى عن زَهْرةٍ(١) متبسِّما
لو كنتَ تدرى من دعاك أجبتَه * و بكيتَ مِن حُرَقٍ عليه إذًا دما

قال : فغنّاه . وأقبل الجوارى فرفعن السِّتر، وخرج الوليد فألقى نفسه فى البركة فغاص فيها ثم خرج ، فلبِس ثياباً غير تلك الثياب ، ثم شرب وسقى معبدًا وقال له : غنِّنى يا معبد :

(١٠٦) عَجِبتُ لمّا رأتنِى * أندُب الربع المُحِيلا
واقفًا فى الدار أبكى * لا أرى إلّا الطلولا
كيف تبكى لأناسٍ * لا يَمَلُّون(٢) الذَّمِيلا
كلما قلتُ اطمأنتْ * دارُهم جَدّوا(٣) الرحيلا

قال : فلما غنّاه ألقى نفسه فى البركة ثم خرج فردّوا عليه ثيابَه، ثم شرب وسقى معبدا وقال له : يا معبد، من أراد أن يزداد حُظوةً عند الملوك فليكتم أسرارَهم . فقال : ذلك ممّا لا يَحتاج أميرُ المؤمنين إلى إيصائى به . فقال الوليد : يا غلام احمل إلى معبد عشرةَ آلاف دينار تُحَصَّل(٤) له فى بلده وألفىْ دينار لنفقة طريقه ؛ فحُمِلت إليه كلّها، وحُمِل على البريد من وقته إلى المدينة . وقد قيل : إنه أعطاه فى ذلك المجلس خمسة عشر ألف دينار .

(١) كذا فى الأغانى . والزهرة : البهجة والنضارة والحسن . وفى الأصل : «ترى عن زهره» . وصححه المرحوم الأستاذ الشنقيطى فى نسخته من الأغانى : « يرى عن زهره » . (٢) الذميل : ضرب من السير . (٣) فى الأغانى (ج ١ ص ٥٤) : «قالوا» . (٤) أى تدفع وتسلم .

وقال أبو الفرج بسند رفعه :

إن معبدا كان قد علّم جارية من جوارى الحجاز الغناءَ تدعى "طيبة"[1] وعُنِى بتخريجها، فاشتراها رجل من أهل العراق وأخرجها إلى البصرة وباعها هناك، فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأُعجب بها وذهبت به كلَّ مذهبٍ وغلبت عليه، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهةً من الزمان ؛ فأخذ جواريه أكثرَ غنائِها عنها. فكان لمحبّته إيّاها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقرُّه، ويُظهر التعصّبَ له والميلَ إليه والتقديمَ لغنائه على سائر الأغانى من أهل عصره، إلى أن عُرِف ذلك منه وبلغ معبدًا خبرُه . فخرج من مكة حتى أتى البصرةَ؛ فلما وردها صادفَ الرجلَ قد خرج عنها فى ذلك الوقت واليوم إلى الأهواز. فجاء معبدٌ فى طلب سفينة تحمله إلى الأهواز، فلم يجد غيرَ سفينة الرجل، فركب فيها وكلاهما لا يعرف الآخرَ، وانحدرت السفينةُ . فلما صاروا بفم نهر الأُبُلّة[2]، أمر الرجلُ جواريَه بالغناء فغنّين، إلى أن غنّت إحداهنّ صوتا من غناء معبد فلم تُجِدْ أداءَه؛ فصاح بها معبد: يا جارية، إن غناءَك هذا ليس بمستقيم . فقال مولاها وقد غضب : وأنت ما يُدريك الغناء ما هو! ألا تُمسِكُ[3] وتلزمُ شأنَك! فأمسك . ثم غنّت أصواتا من غناء غيره وهو ساكتٌ لا يتكلّم حتى غنّت من غنائه فأخذت ببعضه ؛ فقال لها معبد : ياجارية، قد أخللتِ بهذا الصوت إخلالا كثيرا . فغضب الرجل وقال له : ويلك! ما أنتَ والغناءَ! ألا تَكُفّ عن هذا الفضول! فأمسك معبدٌ. وغنّى الجوارى

(١) فى أكثر أصول الأغانى المخطوطة والمطبوعة : « ظبية » .

(٢) الأبلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : اسم بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة، كما فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) كذا فى أكثر أصول الأغانى . وفى بعض أصوله : « لم لا تمسك ... » وفى الأصل هنا : « ... وأنت مايدريك ما الغناء ماهو إلا أن تمسك ... » .

مليًّا، ثم غنّت إحداهنّ صوتًا من غنائه فلم تَصْنَع فيـه شيئًا . فقال لها معبد: يا هذه، أمَا تَقُومين[1] على أداء صوتٍ واحد! فغضب الرجلُ وقال له: ما أراك تَدَعُ هـذا الفضولَ بوجهٍ ولا حيلةٍ! فأُقسِم بالله إن عاودتَ لأُخرِجنّك من السفينة . فأمسك معبدٌ، حتى سكتت الجوارى سَكْتةً، فاندفع يغنّى الصوت الأوّل حتى فرغ منه . فصاح الجوارى: أحسنتَ والله يارجل، فأَعِده . قال: لا والله ولا كرامةَ . ثم آندفع يغنّى الثانى، فقلن لسيّدهن: ويحك! هذا والله أحسن الناس غناءً، فسَلْه أن يُعيده علينا ولو مرّة واحدة لعلنا نأخذه منـه، فإنه إن فاتنا لم نَجِدْ مثلَه أبدا . قال: قد سمعتنّ سوءَ ردّه عليكنّ وأنا خائف مثلَه منه، وقد آستقبلناه بالإساءة، فآصْبِرْن حتى نُداريَه . قال: ثم غنّى الثالثَ فزلزل عليهم الأرضَ . فوثب الرجل فقبّل رأسَه، وقال: يا سـيّدى أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك . فقال له: وهَبْك لم تعرِف موضعى، قد كان ينبغى لك أن تتثبّت ولا تُسرِعَ إلى سوء العِشرة وجفاءِ القول . فلم يزل يرفُق به حتى نزل إليه، وكان معبدٌ قـد أُجلس فى مؤخّر السفينة . فقال له الرجل: ممن أخذتَ هـذا الغناء؟ قال: من بعض أهـل الحجاز، فمن أين أخذه جواريك؟ قال: أخذنه من جارية كانت لى، كانت قد أخذت الغناءَ عن أبى عَبّاد معبد وكانت تَحُلّ منى مكانَ الروح من الجسد، ثم آستأثر اللهُ بها وبقى هؤلاء الجوارى وهنّ [من][2] تعليمها، فأنا إلى الآن أتعصّب لمعبد وأفضّله على المغنّين جميعا، وأفضّل صنعَته على كل صنعة . فقال له معبـد: وإنك لأنت هو! أفتعرِفنى؟ قال لا . قال: فصكّ معبد بيـده صلعَته ثم قال: فأنا[3] والله معبدٌ وإليك قدِمتُ من الحجاز ووافيتُ البصرةَ ساعةَ نزلتُ السفينةَ لأقصدك بالأهواز، ووالله لا قصّرتُ فى جواريك

(١٠٧)

(١) فى بعض أصول الأغانى: «أما تقوين» . (٢) الزيادة عن الأغانى .
(٣) فى الأصول: «فانه» والتصويب عن الأغانى .

هؤلاء ولأجعلنّ لك فى كل واحدة خَلَفًا من الماضية . فأكبّ الرجلُ والجوارى على يده ورجليه يقبّلونها ويقولون : كتَمْتَنا نفسَك حتى جَفَوْتَك فى المخاطبة وأسأنا عشرتَك وأنت سيّدُنا ومن نتمنّى أن نلقاه . ثم غيّر الرجلُ أثواب معبد وخلع عليه عدّة خِلَع وأعطاه فى ذلك الوقت ثلثمائة دينار وطِيبًا وهدايا مثلها ، وٱنحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رضِى حِذْقَ جواريه ، ثم ودّعه وٱنصرف إلى الحجاز .

ذكر أخبار الغريض

وما يتّصل بها من أخبار عائشة بنت طلحة

هو عبد الملك ، وكنيتُه أبو زيد ،(١) وقيل : أبو مروان . والغَرِيض لقبٌ لقّب به ؛ لأنه [كان](٢) طَرِىّ الوجه نَضِرًا غَضّ الشباب حسن المنظر ، فلُقّب بذلك . والغريض : الطّرىّ من كل شىء . وقال ٱبن الكلبى : شُبِّه بالإغريض وهو الجُمّار ثم ثَقُل ذلك على الألسنة فحذفت الألف فقيل : الغَرِيض . وهو من مُوَلَّدِى البَرْبَر . وولاؤه للثريّا (صاحبةِ عمر بن أبى ربيعة) وأخواتها الرُّضَيّا وقُرَيبة وأم عثمان بنات علىّ بن عبد الله بن الحارث بن أميّة الأصغر . قالوا : وكان يضرب بالعود وينقر بالدّف ويُوقِع بالقضيب . وكان قبل الغناء خيّاطا . وأخذ الغناءَ فى أوّل أمره عن عُبيد بن سُرَيج ، لأنه كان قد خدمه ؛ فلما رأى ٱبن سريج طبعَه وظَرْفَه وحلاوةَ منطقه ، خشِى أن يأخذ غناءَه فيغلبَه عليه ويفوقَه بحسن وجهه ، وحسَده ، فٱعتلّ عليه وشكاه الى مَوْلياته ، وكنّ دفعنَه اليه ليعلّمه الغناءَ ، وجعل يتجنّى عليه ثم طرده . فعَرَّف مَوْلَياته غرضَ ٱبن سريج فيه وأنه حسَدَه ؛ فقلن له : هل لك أن تسمع

(١) الذى فى الأغانى (ج ٢ ص ٣٥٩ طبع دار الكتب المصرية) : « أبو يزيد » .

(٢) الزيادة عن الأغانى .

نَوْحَنا على قتلانا فنأخذه وتغنّى عليـه ؟ قال نعم . فأسمعنه المراثى فأحتذاها وخرَّج غناءه عليها . وكان ينوح مع ذلك فيدخل المآتمَ وتُضْرَب دونه الحُجُب ثم ينوح فيفتِن كلَّ من سمعه . فلما كثر غناؤُه عدَل الناسُ إليه لما كان فيه من الشَّجا(١)، فكان آبن سريج لا يغنّى صوتا إلا عارضَه فيه فيغنّى فيه لحنا آخر . فلما رأى آبنُ سريج موقع الغَرِيض اشتدّ عليه وحسده، فغنّى الأرمالَ والأهزاجَ ، فأشتهاها الناسُ . فقال له الغَرِيض : يا أبا يحيى قصّرتَ الغناء وحذفتَـه . قال : نعم يا مخنّثُ حين جعلتَ تنوح على أبيـك وأمّك . قال : ولم يُفَضِّل آبنُ سريج عليـه إلا بالسَّبْق، وأما غير ذلك فلا .

وقال بعضُهم : كان الغرِيضُ أشجى غناءً ، وآبن سريج أحكم صَنعةً . وحكى أبو الفرج الأصفهانى بسند رفعه إلى أيّوب بن عَبَاية عن مولى لآل الغَرِيض قال : حدّثنى بعضُ مولياتى وقد ذَكَرْن الغَرِيضَ فترحَّمْن عليه وقلن : جاءنا يوما فحدّثنا بحديث أنكرناه عليه ثم عرفناه بعد ذلك حقيقةً . قالت : وكان آبنُ سُرَيج بجوارنا فدفعناه إليـه ولُقِّن الغناء، وكان من أحسن الناس صوتًا ، ففتَن أهـلَ مكة بحسن وجهه مع حسن صوته . فلما رأى ذلك آبنُ سريج نحّاه(٢) عنـه . فكان بعضُ مولياته تعلّمه النِّياحة فبرَّز فيهـا . فجاءنى يوما فقال : نَهَتْنى الجنّ أن أنوح وأسمعتنى صوتا عجيبا، فقد آبتنيتُ عليه لحنًا فأسمعِيه منى، فأندفع فغنّى بصوتٍ عجيبٍ فى شعرِ لمَرَّار الأسدىّ :

حلَفتُ لها بالله ما بِن ذى الغَضَا ✻ وهَضْبِ القَنَان(٣) من عَوَانٍ ومن بِكْرِ

---

(١) كذا فى الاغانى . وفى الأصول : « عدل الناس اليه لشجانه » .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « جلاه عنه » . (٣) كذا فى الأغانى . والقنان : جبل لبنى أسد فيه ماء يدعى العسيلة . وفى الاصل : « هضب العنان » وهو تحريف .

أحبُّ إلينا منكِ دَلّا وما نرى * به عند ليلى من ثواب ولا أجرِ

قالت : فكذّبناه وقلنا : شيءٌ فكّر فيه وأخرجه على هذا الجنس . فكان فى كل يوم يأتينا فيقول : سمعت البارحةَ صوتًا من الجنّ بترجيع وتقطيع ، فقد بنيتُ عليه صوت كذا وكذا بشعر فلان ، فلم يزل على ذلك ونحن نُنكر عليه . فإنا لكذلك ليلةً وقد اجتمع جماعةٌ من نساء أهل مكة فى جمع لنا سَمَرْنا فيه ليلتَنا والغريضُ يغنّينا بشعر عمر بن أبى ربيعة حيث يقول :

أمِن آل زينب جدّ البكورُ * نَعَمْ فَلأَىّ هواها تَصيرُ

إذ سمعنا فى بعض الليل عَزيفًا عجيبا وأصواتا ذعرتْنا وأفزعتْنا . فقال لنا الغريضُ : (١٠٨) إن فى هذه الأصوات صوتًا إذا نِمتُ سمعتُه وأُصبِح أبنى عليه غِنائى ، فأصغينا إليه فإذا نغمتُه نغمةُ الغَريض بعينها ، فصدّقناه تلك الليلة .

وكانت وفاةُ الغريض باليمن فى خلافة سليمان بن عبد الملك أو عمر بن عبد العزيز ، وكان قد هرَب من نافع بن عَلْقمة لمّا ولِى مكةَ من مكة إلى اليمن واستوطنها ومات بها .

وللغريض أخبارٌ مستظرفة وحكايات مستحسنة قد رأينا أن نُثبِت فى هذا الموضع ماسنقف عليه إن شاء الله تعالى .

فمن ذلك ما حكاه أبو الفرج الأصبهانىّ فى كتابه المترجم بالأغانى فى أخبار الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المُغيرة المَخْزومىّ ، بعد أن ساق قطعة من أخباره مع عائشة بنت طلحة بن عُبيد الله ، وأنه كان يهواها ويشبِّب بها فى شعره ، ثم قال فى أثناء ذلك : لمّا قدِمتْ عائشةُ بنت طلحة مكة أرسل إليها الحارثُ وهو أمير مكة يومئذ ، وكان وَلِيها من قِبَل عبد الملك بن مروان ، فأرسل إليها : إنى أريد السلام عليك ؛ فإذا خفّ ذلك عليكِ أَذِنتِ ، وكان الرسولُ الغريضَ .

فأرسلت إليه: إنّا حُرُمٌ، فإذا أحللنا أتيناك . فلما أحلّت خرجت سرًّا على بغلتها، ولحقها الغَريضُ بعُسْفانَ أو قريب منه ومعه كتاب الحارث إليها، وفيه :

ما ضَرّكم لو قلتُمُ سَدَدًا * إنّ المطايا عاجلٌ غَدُها

ولها علينا نعمةٌ سلفَت * لسنا على الأيام نجحَدُها

لو أتممتْ أسبابَ نِعمتها * تَمّتْ بذلك عندنا يَدُها

فلما قرأت الكتابَ قالت: ما يَدَع الحارثُ باطلَه ! . ثم قالت للغريض: هل أحدثتَ شيئا ؟ قال : نعم فاسمعى ، ثم اندفع يغنّى فى هـذا الشعر . فقالت عائشـةُ : والله ما قلنا إلا سَـدَدًا (١) ولا أردنا إلا أن نشترىَ لسانَه ؛ واستحسنت الشعرَ، وأمرت للغَريض بخمسـة آلاف درهم وأثوابٍ ، [وقالت] (٢) : زِدْنى . فغنّى فى قول الحارث أيضا حيث يقول :

زعَمـوا بأنّ البَيْن بعـد غَدٍ * فالقلبُ ممّـا أحدثوا يَجِفُ

والعينُ مُنْذ أُجِدَّ بينُهمُ * مثلَ الجُمَان دموعُها تَكِف

نشكو وتشكو ما أشَتّ بنا * كلٌّ بوَشْـك البين مُعْترِف

ومقالهـا ودموعُها سُجُـمٌ * أَقْلِلْ حنينَك حين تنصرف

فقالت عائشـة : يا غريضُ ، بحقّى عليك أهو أمرك أن تغنّينى فى هـذا الشعر ؟ قال : لا وحَياتِك يا سيّدتى ؛ فأمرت له بخمسـة آلاف درهم ، ثم قالت : غنّنى فى [غير] (٢) شعره ؛ فغنّاها بشعر عمر بن أبى ربيعة — وكان عمرُ قد سأله ذلك — فقال:

أَجْمعتْ خُلّتى مع الهجر بَيْنَا * جَلّل اللهُ ذلك الوجهَ زَيْنـا

أجمعتْ بَيْنَها ولم نَكُ منهـا * لذّةَ العيشِ والشبابِ قَضَيْنا

(١) فى الأصل : « والله ما قال » . والتصويب عن الأغانى (ج ٣ ص ٣٢٠ طبع دار الكتب المصرية) . (٢) التكملة عن الأغانى .

فتولّت حُمولُها وٱستقلّت * لم تُنِلْ طائلًا ولم تَقْضِ دينا
ولقد قلتُ يوم مكّة لمّا * أرسلتْ تقرأ السلام علينا
أنعم اللهُ بالرسول الذى أُر * سِل والمُرْسِلِ الرسالةَ عَيْنا

قال: فضحكت ثم قالت: وأنت يا غريضُ فأنعم الله بك عينًا وأنعم بٱبن أبى ربيعة عينا، لقد تلطّفتَ(١) حتى أدّيتَ إلينا رسالتَه، وإنّ وفاءك له لمما يزيدنا رغبةً فيك وثقةً بك. وكان عمر سأل الغريضَ أن يغنّيها بشعره هذا لأنه كان قد ترك ذكرها لمّا غضِبت بنو تَيْم من ذلك، فلم يُحِبّ التصريحَ بها وكرِه إغفالَ ذكرها. فقال له عمرُ بن أبى ربيعة: إنْ أبلغتَها هذه الأبيات فى غناءٍ فلك خمسة آلاف درهم، فوفّى له، وأمرتْ له عائشةُ بخمسة آلاف درهم. ثم ٱنصرف الغريضُ من عندها، فلقِى عاتكةَ بنتَ يزيد بن معاوية ٱمرأةَ عبد الملك بن مروان وقد كانت حجّت فى تلك السنة؛ فقال لها جواريها: هذا الغريضُ. فقالت لهنّ: علىّ به؛ فجِئْن به إليها(٢). قال الغريض: فلما دخلتُ سلّمتُ فردّت علىّ وسألتنى عن الخبر، فقصصته عليها. فقالت: غنّنى بما غنّيتَها به، ففعلتُ؛ فلم أرها تَهَشّ لذلك؛ فغنيتُها معرِّضا ومذكّرا بنفسى فى شعر مُرّة بن مَحْكان السَّعْدِىّ يخاطب ٱمرأته وقد نزل به أضياف: (١٠٩)

أقول والضيفُ مخشىٌّ ذِمامَتُه(٣) * على الكريم وحقُّ الضيف قد وجبا
يا ربّة البيت قُومِى غيرَ صاغرةٍ * ضُمِّى إليكِ رِحال القوم والقِربا
فى ليلةٍ من جُمادى ذات أندية * لا يُبصِر الكلبُ فى ظَلْمائها الطُّنُبا
لا ينبَح الكلبُ فيها غيرَ واحدة * حتى يَلُفّ على خَيْشُومه الذَّنَبا

(١) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «بم لطفت».
(٢) كذا فى الأغانى (طبع دار الكتب المصرية). وفى الأصل: «فأقصته».
(٣) الذمامة (بفتح الذال وكسرها): الذمة والعهد.

فقالت وهى مبتسمة : نعم وقد وجب حقّك يا غريض، فغنّى؛ فغنّيتها :

يادهرُ قد أكثرتَ بجْعتنا (١) * بسَـراتنا ووقرْتَ (٢) فى العَظْم

وسلبتنا ما لستَ (٣) مُخْلِفَـه * يادهر ما أنصفتَ فى الحُكْم

لو كان لى قِرنٌ أناضلـه * ما طاش عند حَفِيظةٍ سَهْمى

لو كان يُعْطِى النَّصْفَ (٤) قلتُ له * أحرزتَ قِسمك فالْهُ عن قِسْمى

فقالت : نُعطيك النَّصْفَ فلا يضيع سهمكُ عندنا ونُجزل لك قِسْمك، وأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عَدَنيّة وغير ذلك من الألطاف . قال الغريض: فأتيتُ الحارث بن خالد فأخبرتُه الخبرَ وقصَصْتُ عليه القصة؛ فأمر لى بمثل ما أمرتا لى جميعا؛ وأتيتُ ابن أبى ربيعة فأعلمتُه بما جرى، فأمر لى بمثل ذلك . فما انصرف أحدٌ من ذلك الموسِم بمثل ما انصرفتُ به : نظرة من عائشة، ونظرة من عاتكة — وهما أجمل نساء عالَمِهما — وبما أمرتا لى به، والمنزلةُ عند الحارث — وهو أمير مكة — وابنِ أبى ربيعة وما أجازانى به جميعا من المال .

ولنَصِل هـذا الفصلَ بشىء من أخبار عائشة بنت طلحة؛ لأن الشىء بالشىء يذكر .

هى عائشـةُ بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم . وأمّها أمّ كلثوم بنت أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه . وكانت عائشةُ لا تستـر وجهَها من أحد . فعاتبها مُصْعَب فى ذلك فقالت : إن الله تبارك وتعالى وَسَمنى بِميسَم جمال أحببتُ أن يراه الناس و يعرفوا فضلى عليهم فما كنتُ لأستره ، ووالله ما فِىّ وَصْمةٌ يقدِر أن يذكرنى بها أحد .

(١) فى الأصول : « كثرت بجيعتنا » . والتصويب عن الأغانى ولسان العرب (مادة «وقر») .
(٢) وقر العظم : صدعه . (٣) فى الأصل : « ما كنت » والتصويب عن الأغانى .
(٤) النصف (مثلثة) : اسم بمعنى الانتصاف .

قال أبو الفرج الأصبهانىّ : وكانت شِرسةَ الخُلُق، وكذلك نساءُ بنى تيم، هنّ أشرسُ خلق الله خُلُقا وأحظاهنّ عند أزواجهنّ . قال : وآلت عائشةُ من زوجها مصعب بن الزبير ، فقالت : أنتَ علىّ كظهر أُمّى، وقعدتْ فى غرفةٍ وهيّأت ما يُصلِحها . فجهد مصعبٌ أن تكلّمه فأبت . فبعث إليها ابنَ قيس الرُّقَيّات فسألها كلامَه . فقالت : كيف بيمينى؟ فقال: ها هنا الشَّعْبىّ نقيه أهل العراق فاستفتِيه . فدخل الشّعبىّ عليها فأخبرتْه، فقال: ليس هذا بشىء، فأمرت له بأربعة آلاف درهم .

وحكى أبو الفرج أنّ مصعب بن الزبير لمّا عزَم على زواج عائشة بنت طلحة، جاء هو وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق وسَعيد بن العاص إلى عزّة المَيْلاء — وكانت عزّة هذه يألفها الأشرافُ وغيرُهم من أهل المرُوءات، وكانت من أظرف النساس وأعلمهم بأمور النساء — فقالوا لها : إنّا خطبنا فانظرى لنا . فقالت لمصعب : يابن أبى عبد الله، ومَنْ خطبتَ ؟ قال : عائشة بنت طلحة . قالت : فانت يابن أبى أُحَيْحَة ؟ قال : عائشة بنت عثمان بن عفّان . قالت : فانت يابن الصّدّيق ؟ قال : أمّ الهيثم بنت زكريا بن طلحة . فقالت : ياجارية، هاتى مِنْقَلىً (تعنى خفّيها)، فلبستهما وخرجت ومعها خادمٌ لها، فبدأت بعائشة بنت طلحة، فقالت : فديتُك، كنّا فى مأدبة أو مأتم لقريش، فتذاكروا جمالَ النساء وخَلْقَهن فذكروك فلم أدرِ كيف أصِفُك، فديتك، فألقِ ثيابك، ففعلت فأقبلت وأدبرت فاربجّ كلُّ شىء منها . فقالت لها عزّة : خُذى ثوبك . فقالت عائشة : قد قضيتِ حاجتك وبقيت حاجتى . فقالت عزّة : وما هى ؟ فديتُك ! قالت : تغنّينى صوتا . فاندفعت تغنّى لحنها فى شعرِ لجميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْرِىّ :

خَلِيلىّ عُوجَا بالمحلّة من جُمْلِ * وأترابِها بين الأُصَيْفِرِ فالحَبْل

نَقِفْ بمَغَانٍ قد عفا رسمَها البِلَى * تَعاقَبُها الأيامُ بالرّيح والوَبْل

(١١٠) فلو دَرَج النَّمـلُ الصـغار بجلدها * لأَنْدَب أعلى جلدها مَدْرَجُ النَّمل

وأحسن خلق الله جِيدًا ومُقْـلةً * تُشَبَّه [فى النسوان بالشادِن الطَّفل][1]

فقبّلت عائشةُ ما بين عينيها ودعت لهـا بعشرة أثواب وطرائف من أنواع الفضّة، فدفعته إلى مولاتها . وأتت النِّسوةَ على مثـل ذلك تقول ذلك لهنّ . ثم أتت القومَ فى السقيفة . فقالوا : ماصنعتِ ؟ فقالت : يآبن أبى عبد الله ، أمّا عائشةُ فلا والله ما رأيتُ مثلها مُقْبِـلةً ولا مُدْبرة ، محطوطةَ[2] المتنين ، عظيمةَ العجيزة ، ممتلئةَ الترائب ، نقيّـةَ الثغر وصفحة الوجه ، فرعاءَ الشعر ، ممتلئةَ الصدر ، خميصةَ البطن ذات عُكَنٍ ، ضخمةَ السُّرّة ، مُسَرْولةَ الساق ، يرتجّ ما بين أعلاها إلى قدميها ؛ وفيها عيبان ، أمّا أحدُهما فيواريه الخِمارُ ، وأما الآخرُ فيواريه الخُفّ : عِظمُ الأُذن والقدم . وكانت عائشة بنت طلحة كذلك . ثم قالت عزّة : وأمّا أنت يآبن أبى أُحَيْحة فإنى والله ما رأيتُ مثل خَلْق عائشـة بنت عثمان لامرأةٍ قط ! ليس فيها عيب والله لكأنمـا أُفرِغتْ إفراغًا ولكن فى الوجه رَدَّةٌ ، وإن آستشَرتَنى أشرتُ عليك . قال : هاتِ . قالت : عليك بوجه تستأنس به . وأمّا أنت يآبن الصدِّيق : فو الله ما رأيتُ مثل أمّ الهيثم ، كأنها خُوط بانة تنثنى ، أو كأنها جانٌّ يتثنّى على رمل ، لو شئتَ أن تعقِد طَرَفيها لفعلتَ ، ولكنها شَخْتَةُ[3] الصـدر وأنت عريض الصـدر ، فاذا كان كذلك كان قبيحًا ، لا والله حتى يملأ كلُّ شىء مثلَه . قال : فوصلها الرجال والنساء وتزوّجوهنّ .

وحكى أبو الفرج أيضا : أنّ مصعبَ بن الزبير إنمـا تزوجها بعد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر . وقال : وكانت عائشةُ بنت طلحة تُشَبّه بخالتها عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها ، فزوّجتها عائشةُ من آبن أخيها عبدِ الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، وهو

(١) التكملة عن الأغانى (ج ١٠ ص ٥٥ طبع بولاق) .

(٢) محطوطة المتنين : ممدودتهما . (٣) شختة الصدر : دقيقه .

أوّل من تزوّجها . ولم تَلِد عائشةُ بنت طلحة من أحد من أزواجها غيره، ولدت له عِمران وبه كانت تُكْنَى(١)، وعبدَ الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة، ولكلّ من هؤلاء عَقِبٌ . وأنا من عقب طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر من ولده ليث ابن طلحة . وليس هذا موضع سرد نسبى فأسرده .

قال أبو الفرج : وصارمت عائشةُ بنت طلحة زوجَها عبد الله بن عبد الرحمن وخرجت من داره مُغْضَبة تريد عائشةَ أمّ المؤمنين رضى الله عنها . فرآها أبو هريرة فسبّح الله تعالى وقال : كأنها من الحُور العِين . فمكثت عند عائشة قريبا من أربعة أشهر . وكان عبد الله قد آلى منها ؛ فأرسلت عائشة إليه : إنى أخاف عليك الإيلاءَ ؛ فضَمّها إليه وكان مُولِيًا منها(٢) . فقيل له : طلِّقها ؛ فقال :

يقولون طَلِّقْها لِأُصبِح ثاوِيًا * مُقِيمًا علىّ الهمُّ ، أحلامُ نائِم
وإنّ فِراقى أهلَ بيت أُحِبّهم * لهم زُلْفةٌ عندى لإحدى العظائم

وتُوفِّى عبد الله بعد ذلك وهى عنده ، فما فتحتْ فاهَا عليه ؛ وكانت عائشةُ أمّ المؤمنين رضى الله عنها تَعُدّ هذا عليها فى ذنوبها التى تعتدّها . ثم تزوّجها بعده مصعب بن الزبير، فمهَرها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك .

وكانت عائشة تمتنع على مصعب فى غالب الأوقات . فحُكى أنه دخل عليها يوما وهى نائمة ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار، فأنبهها ونثر اللؤلؤ فى حجرها . فقالت : نومتى كانت أحبّ الىّ من هذا اللؤلؤ . ولم تزل حالُها معه على مثل ذلك (١١١) حتى شكا ذلك الى كاتبه ابن أبى فَرْوة . فقال له : أنا أكفيك هذا إن أذِنتَ لى . قال : نعم ! افعلْ ما شئتَ . فأتاها ليلًا ومعه أسودانِ فاستأذن عليها . فقالت : أفى

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « وبه كان يكنى » .
(٢) فى الأصول : «ملق فيها» . والتصويب عن الأغانى .

مثل هـذه الساعة ؟ قال نعم ؛ فأذنت له فدخل . فقال للأسودين : آحفرا هاهنا بئرا . فقالت له جاريتها : وما تصنع بالبئر؟ قال : شُؤمُ مولاتك، أمرنى هذا الظالمُ أن أدفنها حيّة ، وهو أسْفَكُ خلقِ الله لدَمٍ حرام . قالت عائشـة : فأنظِرْنى أذهبْ اليه ؛ قال : هيهات لاسبيلَ إلى ذلك، وقال للأسودين : آحفرا . فلمـا رأت الجِدَّ منه بكت وقالت : يآبن أبى فروة، إنك لقاتلى ما منه بدّ ؟ قال : نعم، وإنى لأعلم أن الله عزّ وجلّ سيُخْزيه بعدك ، ولكنّه قد غَضِب وهو كافرُ الغضب . قالت : وفى أى شىء غضبُه؟ قال : مِن آمتناعك عليه وقد ظنّ أنك تُبْغِضينه وتَتَطلّعين إلى غيره، فقد جُنّ . فقالت : أَنْشُدُك اللهَ إلّا عاودتَه . قال : أخاف أن يقتلنى؛ فبكت وبكى جواريها . فقال لها : قد رَقَقْتُ لك وحلَف لها إنه يغرّر بنفسه، وقال لها : فما أقول؟ قالت : تضمّن له عنّى أنى لا أعود أبدًا . قال : فمـالى عندك؟ قالت : قيامٌ بحقّك ماعِشت . قال : فأعطينى المواثيق فأعطته . فقال للأسودين : مكانكما . وأتى مصعبًا فأخبره . فقال : آستوثِق منها بالأيمان ؛ فآستوثق منها ففعلت، وصلحت بعد ذلك لمصعب .

قال : وكان مصعب من أشدّ الناس إعجابًا بها . ولم يكن لها شبيه فى زمانها حُسْنا ودِيانةً[1] وجمالا وهيئةً وشارةً وعِفّة . وإنها دعت يومًا نِسوةً من قريش، فلمـا جِئْنها أجلستهن فى مجلس قد نُضد فيه الريحان والفواكه والطِّيب والمجامرُ، وخلعت على كلّ آمرأة منهن خلعة من الوَشْى والخزّ ونحو ذلك، ودعت عَزّةَ المَيْلاء ففعلت بها مثـل ذلك وأضعفته ؛ ثم قالت لعزّة : هاتِ ياعزّةُ فغنّينا . فغنّتهن فى شـعر آمرئ القيس فقالت :

وثغر أغرّ شَنِيب اللّثـاتِ * لذيذ المُقَبَّـل والمُبْتَسَمْ

(١) فى الأغانى : « دماثة » .

وما ذقتُــه غيرَ ظنٍّ به * وبالظنِّ يَقضى عليك الحَكَم

وكان مصعب قريبًا منهن ومعــه إخوانٌ له ، فقام فانتقل حتى دنا منهنّ والسـتور مُسْبَلةٌ ، فصاح بها : ياهذه ، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفتِ ، فبارك الله فيك ياعزة . ثم أرسل إلى عائشة : أمّا أنت فلا سبيل لنا اليك مع من عندكِ ، وأمّا عزّةُ فتأذنين لها أن تغنّينا هذا الصوتَ ثم تعود إليك ، ففعلت وخرجت عزّة اليهم فغنّتهم هذا الصوتَ مرارًا ، وكاد مصعب أن يذهب عقلُه فرحا . ثم قال لها : ياعزّة ، إنك لتُحسِنين القول والوصفَ ، وأمرها بالعَوْد إلى مجلسها .

قال : ولم تزل عند مصعب حتى قُتِل عنها . فخطبها بِشر بن مروان ، وقدِم عمر ابن عبيد الله بن مَعْمَر التَّيْمى من الشام فنزل الكوفةَ ، فبلَغه أن بشرًا خطبها ، فأرسل إليها جارية لها وقال : قُولى لابنــة عمّى : إبنُ عمك يُقرئك السلام و يقول لكِ : أنا خير لك من هذا المَبْسـور المَطْحول ، وأنا ابن عمك أحقّ بك ، و إن تزوجتُ بك ملأتُ بيتــك خيرًا . فتزوجته فبنى عليهـا بالحِيرة ، فمَهَّدت له سـبعة أفرِشة عَرْضُها أربع أذرع ؛ فأصبح ليلةَ بنى بهـا عن تسعة . فلقيته مولاة لها فقالت : أبا حفص ، فديتُك ! قد كَمُلتَ فى كلّ شىء حتى فى هذا . وقيل إنه لمـّا تزوجها حمل إليها ألف ألف درهم ، خُمسمائة ألف مهر ، وخمسمائة ألف هديّة ، وقال لمولاتها : لك علىّ ألف دينار إن دخلتُ بها الليلة ، وأمر بالمـال فحُمِل فأُلقِى فى الدار وغُطّى بالثياب ؛ وخرجت عائشة فقالت لمولاتها : ما هــذا ؟ أفرشٌ أم ثيابٌ ؟ قالت : أُنظرى إليه ؛ فنظرت فاذا هو مال ، فتبسّمت . فقالت الجارية : أجزاءُ من حملَ هذا المـال أن يبيت عَزَبا ! قالت : لا والله ، ولكن لا يجوز دخولهُ إلا بعد أن أتزيّن له وأستعدّ . قالت : وماذا ؟ فوالله لَوَجْهُك أحسنُ من كلّ زينة وما تَمُدّين يديك إلى طِيب أو ثوب أو مال أو فراش إلا وهو عندك ، وقد عزَمتُ عليك أن تأذنى له .

فقالت : آفعلى . فذهبت إليه فقالت له : بِتْ بنا الليلةَ . فجاءهم عند العِشاء الآخرة فأُدنِى إليه طعام فأكل الطعام كلَّه حتى أعرى الخوانَ وغسل يده وسأل عن المُتَوَضَّأ فأُخبر به ، فقام فتوضّأ وقام يصلّى حتى ضاق صدرى ونمتُ ، ثم قال : أعليكم آذَن؟ قلت : نعم فآدخُل ، فأدخلتُه وأسبلتُ السِّتر عليهما . فلما أصبحنا وقفتُ على رأسه فقال : أتقولين شيئا ؟ قلتُ : نعم والله ما رأيت مثلك ! فضحك وضرب بيده على منكب عائشة وقال لها : كيف رأيتِ آبنَ عمّك؟ فضحكت وغطّت وجهها وقالت :

قد رأيناك فلم تَحْفُلْ لنا * وبلوناك فلم نَرْضَ الخَبَرْ

ومكثت عائشةُ عند عمر بن عبيد الله ثمانىَ سنين حتى مات سنة آثنتين وثمانين . ولما مات ندبته قائمةً ، ولم تندُب أحدًا قبله من أزواجها إلا جالسة . فقيل لها فى ذلك فقالت : إنه كان أكرَمهم علىّ وأمسّهم بى رَحِمًا ، فأردتُ ألّا أتزوج بعده . وكانت المرأةُ إذا ندبت زوجَها قائمةً لا تتزوج بعده أبدا . ولم تتزوج عائشةُ بنت طلحة بعد زوجها عمر بن عبيد الله .

ومن أخبار عائشة بنت طلحة أيضا ما رواه أبو الفرج الأصبهانىّ بسنده إلى يزيد آبن عِياض ، قال :

آستأذنت عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية عبدَ الملك فى الحجّ ، فأذِن لها وقال : آرفعى حوائجَك وآستَظهِرى ، فإن عائشة بنت طلحة تُحِجّ ، ففعلت وتجهزت بهيئة جَهَدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكِبٌ قد جاء فضَغَطها[1] وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشةَ بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه جاريتُها[2] . ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة عائشة ، فضَغَطَهم فسألت عنها ،

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٠ ص ٦٠ طبع بولاق) . وفى الأصل : «فضعضعها» .

(٢) فى الأغانى : « خازنتها » .

فقالوا : هذه ما شِطتُها . ثم جاءت مواكبُ على هذا لحاشيتها، ثم أقبلت فى ثلثمائة راحلة عليها القِباب والهوادج؛ فقالت عاتكةُ: ما عند الله خير وأبقى . قال: ووفَدَت عائشةُ بنت طلحة على هشام بن عبد الملك، فقال لها : ما أوفدك؟ قالت: حبَسَتِ السماء مطرَها ومنع السلطان الحقَّ. قال : فأنا أصِل رحمك وأعرف حقَّك. ثم بعث إلى مشايخ بنى أميّة فقال: إن عائشة عندى فاسمُروا عندى الليلة فحضروا؛ فما تذاكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارها وآثارها إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجمٌ ولا غار إلا أسمَتْه . فقال لها هشام : أمّا الأول فلا أنكره، وأمّا النجوم فمن أين لك؟ قالت : أخذتُه(١) عن خالتى عائشة رضى الله عنها؛ فأمر لها بمائة ألف درهم وردّها إلى المدينة .

قال: ولما تأيّمت عائشة كانت تُقيم(٢) بمكة سنة وبالمدينة سنة، وتخرج إلى مالها بالطائف عظيم وقصرٍ لها هناك فتتنزه وتجلس فيه بالعشيّات ، فتتناضل بين [يديها](٣) الرُّماةُ. فمرّ بها الثُّمَيْرى الشاعر، فسألت عنه فانتسب لها؛ فقالت: ائتُونى به، فجِىء به. فقالت له : أنشِدنى مما قلتَ فى زينب ؛ فامتنع وقال : بنتُ عمّى وقد صارت عظاما بالية . قالت : أقسمتُ عليك لمّا فعلت؛ فأنشدها قوله :

نَزَلْنَ بفَخٍّ(٤) ثم رُحْنَ عشِيَّةً * يُلَبِّين للرحمن مُعْتَمِرات
يُحَرِّرن أطرافَ الأكُفّ من التّقى * ويَخرجن جُنْحَ اللّيل مُعْتَجِرات(٥)
ولما رأت ركب الثُّمَيْرىّ راعها * وكنّ مِنَ أنْ يَلْقَينه حَذِرات
تضوّع مِسْكا بطنُ نَعْمانَ أنْ مَشَتْ * به زينبٌ فى نِسوةٍ خفِرات

(١) هكذا بالأصول . وفى الأغانى : «أخذتها» .
(٢) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «مقيمة» . (٣) زيادة يقتضيها السياق .
(٤) اسم واد بمكة . (٥) فى الكامل للبرد (ص ٢٩٠ طبع أوربا) ورد هذا البيت هكذا :
يخبّئن أطراف البنان من التقى * ويخرجن شعار الليل معتجرات

— وزينبُ هذه هى زينب بنت يوسف الثَّقفىّ أختُ الحجّاج، وكان النميرىُّ يهواها ويُشبّب بها، وله معها أخبارٌ يطول شرحُها ليس هذا موضع إيرادها — قال : فقالت له عائشة لما أنشدها هذا الشعر : والله ما قلتَ إلا جميلا، ولا وصفتَ إلا كرما وطِيبًا ودينا وتُقًى، أعْطُوه ألف درهم . فلما كانت الجمعةُ الأخرى تعرّض لها، فقالت : علىّ به ؛ فجاء فقالت له : أنشدنى من شعرك فى زينب ؛ قال : فأُنْشِدُكِ من قول الحارث فيك . فوثب مواليها إليه ، فقالت : دعوه فإنه أراد أن يَستقيد لابنة عمّه، هاتِ؛ فأنشدها : (١١٣)

ظَعَن الأميرُ بأحسنِ الخَلْقِ * وغدا بلبّـك مَطْلَعَ الشرقِ
وتَثُـوء تُثقِلها عجِيزتُها * نهضَ الضعيف ينوء بالوَسْقِ
ما صبّحت زوجًا بطلعتها * إلا غدا بكواكب الطَّلْقِ
بيضاءُ من تَيْم كَلِفتُ بها * هذا الجنونُ وليس بالعِشقِ

فقالت : والله ما ذكر إلا جميلا ، ذكر أنى إذا صبّحتُ زوجا بوجهى غدا بكواكب الطَّلْق ، وأنى غدوتُ مع أمير تزوّجنى الى الشرق ، أعطوه ألف درهم وآكسوه حُلّتين ولا تَعُد لإتْيَاننا يانميرىّ؛ والله أعلم [ولنرجع إلى أخبار المغنين](١) .

ذكر أخبار محمد بن عائشة

يكنى أبا جعفر ولم يكن له أبٌ يعرف فنُسِب الى أمه ؛ وكان يزعم أن آسم أبيه جعفر . وعائشة أمه مولاةٌ لكَثِير بن الصَّلْت الكِندىّ حليف قريش، وقيل: هى مولاة لآل المطلب بن [أبى](٢) وَداعة السَّهْمى . وقال آبن عائشة — وقد سأله

(١) هذه الزيادة فى إحدى النسخ .
(٢) الزيادة عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٣ طبع دار الكتب المصرية) .

الوليد بن يزيد فقال : يا محمد أَلِبُغَيَّةٍ[1] أنت؟ — : كانت أمى يا أمير المؤمنين ماشطةً وكنت غلاما، وكانت إذا دخلت إلى موضع قالت[2]: آرفعوا هذا لآبن عائشة، فغلبت على نسبى . قالوا : وكان آبن عائشة يفتن كلَّ من سمعه ، وكان فتيان [من][3] المدينة قد فسدوا فى زمانه بمحادثته ومجالسته . وأخذ عن معبد ومالك بن أبى السَّمْح، ولم يموتا حتى ساواهما على تقديمه لهما وآعترافه بفضلهما . وكان تيّاهًا سيئ الخُلُق ، إن قال له إنسان : تغنَّ قال : ألمثلى يقال هذا ! فإن غنّى وقال له إنسان : أحسنت، سكت ؛ فكان قليلا ما يُنتفع به .

وكان آبن عائشة مُنْقطِعًا إلى الحسن بن الحسن، وكان الحسن مُكْرِما له . فسأله الحسن أن يخرج معه إلى البُغَيْبِغة[4] ، فآمتنع آبنُ عائشة ؛ فأقسم عليه وأظهر الجِدّ . فلما عاين ما ظهر عليه قال : أَخرُج طائعا لا كارِها ؛ فأمر له ببغلة فركبها ومَضَيا الى البُغَيْبِغة، فنزلا الشِّعبَ ثم أكلوا . وقال له : غنِّى، فآندفع فغنّاه صوتا فآستحسنه . فقال ابن عائشة : والله لا غنّيتُك فى يومى هذا شيئا . فأقسم الحسنُ ألّا يفارقَ البغيبغةَ ثلاثةَ أيام . فآغتمّ آبن عائشة ليمينه ونَدِم . فلما كان فى اليوم الثانى قال له : غَنِّ فقد برّت يمينُك ؛ فنظر إلى ناقةٍ تَقْدُم جماعةَ إبلٍ فآندفع يغنّى :

تَمُرّ بِحَنْدَلةِ المِنجنِيـ * ـقِ يُرْمى بها السُّورُ يوم القتال

وهى أبيات لأميّة بن أبى عائذ الهذلىّ يصف حمارا وحشيًّا ؛ والبيت «يمر» بالياء. وقيل : سال العقيق مرّةً فدخل عَرْصَةَ سعيد بن العاص [الماء][5] حتى ملأها،

(١) فى الأصل بعد هذه العبارة : «قال» وهى مكررة مع قوله : «وقال ابن عائشة» .

(٢) رواية الأغانى (ج ٢ ص ٦٢) «قالوا» .

(٣) الزيادة عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٣ طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) ضيعة بالمدينة أو عين غزيرة كثيرة النخل لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما فى القاموس .

(٥) الزيادة عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٥ طبع دار الكتب المصرية) .

فخرج الناس إليها ، وخرج آبن عائشة فجلس على قرن البئر . فبينا هم كذلك إذ طلع الحسن على بغلة ومعه غلامانِ أسودانِ ، فقال لهما : امضيا رويدا حتى تقفا بأصل القَرْن الذى عليه آبنُ عائشة ، ففعلا ذلك . ثم ناداه الحسن : كيف أصبحْتَ يا آبن عائشة قال : بخير . قال : آنظر مَنْ تحتك ، فنظر فإذا العَبْدانِ . قال : أتعرفهما ؟ قال نعم . قال : فهما حُرّانِ لئن لم تُغَنِّنى مائة صوت لآمرنّهما بطَرْحك فى البئر ، وهما حُرّان لئن لم يفعلا لأقطعنّ أيديهما[1] . فآندفع آبن عائشة وغنّى بشعر الهُذَلىّ :

ألَا للهِ دَرّك مِنْ * فتًى قومٍ إذا رَهِبوا
وقالوا مَنْ فتًى للحر * ب يَرْقُبنا ويَرْتَقِب[2]
فكنتَ فتاهمُ فيها * إذا تُدْعَى لها تَئِبُ
ذكرتُ أخى فعاودنى * صُداعُ الرأس والوَصَبُ
كما يَعتادُ ذاتَ البوِّ بعد سلوها الطَّربُ
على عبد بن زُهْرةَ بتُّ طول الليل أنتحبُ

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه إلى حمّاد الراوية :

أن الوليد بن يزيد آستقدمه من العراق إلى الشأم على دَوابّ البريد . وكان ممّا حكاه عنه قال : قدِمتُ عليه فأذِن لى ، فدخلتُ فإذا هو على سريرٍ مُمَهّد وعليه ثوبانِ أصفرانِ وعنده معبدٌ ومالك بن أبى السَّمْح وأبو كامل مولاه ، فآستنشدنى :

* أمِن المنونِ وريبها[3] تتوجّعُ *

(١) كذا فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٦) وفى الأصل : « فهما أحرار إن لم تغن مائة صوت لآمرهما بطرحك فى البئر وهما حران ان لم يفعلا إن لم أقطع أيديهما » .

(٢) فى الأصل : « فترتقب » والتصحيح عن الأغانى وديوان الهذليين .

(٣) ويروى : « وريبه » وكلاهما صحيح ، لأن المنون يذكر ويؤنث .

فأنشدتُه حتى أتيتُ على آخرها . ثم قال : يا مالك، غنّنى :

أَلَا هل هاجك الأظعا * نُ إذ جاوزن مُطّلَحا

فغنّاه . ثم قال : غنّنى :

جَـلَا أميّـةُ عنّى كلَّ مَظْلِمةٍ * سهلَ الحجاب وأوفى بالذى وعَدَا

فغنّاه . ثم قال : غنّنى :

أتَنْسَى[1] إذ تُودّعُنـا سُلَيْمى * بِفرعِ بَشَامةٍ، سُقِيَ البَشامُ !

فغنّاه، ثم أتاه الحاجبُ فقـال : يا أمير المؤمنين ، الرجلُ الذى طلبت بالباب، فأذِن له فدخل شابٌّ لم أرَ أحسنَ وجهًا منه . فقال له : غنّنى :

وهى إذ ذاك عليهـا مِئْزَرٌ * ولها بيتُ جَوارٍ مِن لُعَب

فغنّاه، فنبذ إليه الثوبين، ثم قال : غنّنى :

طاف الخيالُ فمرحبا * ألفًـا برؤية زينبـا

فغضِب معبدٌ وقال : يا أمير المؤمنين ، إنّا مُقْبِلون عليك بأقْدارنا وأسناننا وإنك تركتنا بمَزْجَر الكلب وأقبلتَ على هذا الصبىّ . فقال : يا أبا عبّاد، ما جهِلتُ قدرَك ولا سنَّك، ولكن هذا الغلام طَرحنى فى مثل الطَّنَاجير من حَرارة غِنائه . قال حمّاد : فسألت عن الغلام فقيل لى : هو ابن عائشة .

وحُكِى عن شـيخ من تَنُوخ قال : كنتُ صاحبَ سِتْر الوليد بن يزيد، فرأيت ابن عائشة عنده وقد غنّاه :

إنى رأيتُ صبيحةَ النَّفْـر * حُورًا تَمَـيْن عزيمةَ الصبرِ

مثلَ الكواكب فى مطالعها * بعد العِشاء أطفن بالبـدرِ

(١) رواية اللسان : «أتذكر» بدل «أتنسى» . وروى بوجه آخر والشعر لجرير :

* أتذكر يوم تصقل عارضيها *

وخرجتُ أبغى الأجرَ مُحتسِبا * فرجَعتُ موفورًا من الوِزْرِ

فطرب الوليد حتى كفر وألحد، وقال : ياغلام، أسقِنا بالسماء السابعة[1]، ثم قال : أحسنتَ والله يا أميرى، أعِد بحقّ عبد الشمس فأعاد، ثم قال : أحسنت يا أميرى والله، أعِد بحق أميّة فأعاد، ثم قال : أعِد بحق فلان حتى بلغ من الملوك نفسَـه، فقال : أعِدْ بحياتى فأعاده ؛ فقام فأكبّ عليه ، فلم يَبْق عضوٌ من أعضائه إلّا قبّله ؛ ثم نزَع ثيابه فألقاها عليـه وبقى مجرّدا إلى أن أتَوْه بمثلها ، ووهب له ألف دينـار وحمَـله على بغلة وقال : أركبها بأبى أنتَ وانصرِفْ، فقد تركتنى على مثل المِقْلَى من حرارة غنائك . فركِبها على بساطه وانصرف .

وحُكِى أيضا أن ابن عائشة انصرف من عند الوليد وقد غنّاه :

أبعـدَكَ مَعقِلًا أرجو وحِصنًا * قَدَ اعيتنى[2] المعـاقلُ والحصونُ

فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثـل كارَةِ القصّار[3] كسوةً . فبينا ابن عائشة يسير إذ نظر إليه رجلٌ من أهل وادى القُرى، وكان يَشتهى الغناءَ ويشرب النبيذَ، فقال لغلامه : مَن هـذا الراكب ؟ قال : ابنُ عائشة المغنّى ، فدنا منه فقـال : جُعلت فِداءك ! أنتَ ابن عائشة أمّ المؤمنين؟ قال : لا أنا مولًى لقريش وعائشةُ أمى، وحسبُك هذا. قال : وما هذا الذى أراه بين يديك من المـال والكُسْوة؟ قال : غنّيتُ أمير المؤمنين صوتا فأطربه فكفَر وترك الصـلاةَ وأمر لى بهذا المـال وهذه الكسوة . قال : جُعلتُ فداءك ! فهل تَمُـنّ علىّ أن تُسمِعَنى ما أسمعتَهُ إيّاه ؟ فقال : ويلك !

(١) فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٢٦ طبع دار الكتب المصرية) : « الرابعة » .

(٢) كذا فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٢٧) . وفى الأصل : « وراعنى » .

(٣) القصار هو الذى يحوّر الثياب ويدقها . والكارة : ما يحمله من الثياب . قال صاحب اللسان : وسميت بذلك لأنه يكوّر ثيابه فى توب واحد ويحملها فيكون بعضها على بعض .

أمثلى يُكلّم بهذا فى الطريق! قال: فما أصنع؟ قال: ألحقنى بالباب. وحرّك ابنُ عائشة بغلته لينقطعَ عنه، فعدا معه حتى وافيا الباب كفَرَسَىْ رِهانٍ. ودخل ابنُ عائشةَ فمكث طويلا طمَعًا ان يضجَرَ فينصرفَ، فلم يفعل حتى أعياه. فقال لغلامه: أدخِله، فلما دخل، قال له: ويلك! مِن أين صبّك اللهُ علىّ! قال: أنا رجل من أهل وادى القُرى أشتهى هذا الغناءَ. فقال له: هل لك فيما هو أنفع لك منه؟ قال: وما ذاك؟ قال: مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرفُ بها الى أهلك. فقال له: جُعِلتُ فداءك! والله إن لى بُنيّةً ما فى أُذنها — علم الله — حَلْقةٌ من الوَرِق فضلا عن الذهب، وإن لى زوجةً ما عليها — شهد الله — قميصٌ، ولو أعطيتَنى جميعَ ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الحالة والفقر اللّذين عَرَّفْتُكهما وأضعفتَ لى هذا لكان الصوتُ أعجبَ إلىّ. فتعجّب ابن عائشة وغنّاه الصوت، فجعل يحرّك رأسه ويطرَب له طربًا شديدا حتى ظنّ أن عنقَه ستَنْقصف؛ ثم خرج من عنده ولم يَرْزَأه شيئا. وبلغ الخبرُ الوليدَ بن يزيد، فسأل ابنَ عائشة عنه، فجعل يغيب عن الحديث؛ فلم يزل به حتى صدَقَه الحديثَ، فطلب الرجلَ، فطُلِب حتى أُحضِر إليه ووصله صِلةً سنيّةً وجعله من ندمائه ووكّله بالسَّقْى؛ فلم يزل معه حتى قُتل رحمه الله.

وعن علىّ بن الجهم الشاعر قال: حدّثنى رجل أن ابن عائشة كان واقفا بالموسم مُهَجِّرًا[1]. فمرّ به بعضُ أصحابه فقال: ما يُقيمك هاهنا؟ قال: إنى أعرف رجلا لو تكلم لحبس الناسَ هاهنا فلم يذهب أحدٌ ولم يجئ. فقال له الرجل: ومن ذاك؟ قال: أنا؛ ثم اندفع يغنّى:

جَرَتْ سُنُحًا فقلت لها أجيزى ✻ نوًى مشمولةً فمتى اللّقاءُ

بنفسى مَن تذكّره سَقامٌ ✻ أُعانِيه ومَطْلَبُه عناءُ

(١) فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٨ طبع دار الكتب المصرية): «متحيرا».

قال : فحبس النـاسَ وآضـطربت المحاملُ ومدّت الإبلُ أعناقَها ، فكادت الفتنة أن تقع . فأُتِى به هِشام بن عبد الملك ، فقال له : ياعدوالله ! أردتَ أن تَفتِنَ الناسَ ! قال : فأمسك عنـه وكان تيَّاهًا ، فقال له هشام : أُرفُقْ بتيهك . فقال : يَحِقّ لمن كانت هذه مقدرتَه على القلوب أن يكون تيّاها ! فضحك هِشامٌ وخلّى سبيله .

وآختُلِف فى وفاة آبن عائشة وسببها . فقيـل : كانت وفاتُه فى أيام هشام بن عبد الملك ، وقيل : فى أيام الوليد بن يزيد وهو أشبه ، لأنه قد تقدّم أنه نادم الوليدَ وغنّاه . والذى يقـول : إنه تُوفّى فى أيام هشام يزعُم أنه نادمَ الوليدَ فى أيام ولايته العهدَ . وكانت وفاتُه بذى خُشُبٍ ، وهو على أميال من المدينة . قيل : كان سببُ وفاته أن الغمر بن يزيد خرج إلى الشام ؛ فلما نزل قصرَ ذى خشبٍ جلس على سطحه ، فغنّى آبنُ عائشـة صوتًا طرِب له الغمر ، فقال : أعِدْه فأبَى ، وكان لا يردّد صـوتا لسوء خُلُقه . فأمر به فطُرِح من أعلى السطح فمات . وقيل : بل قام من الليل يبول وهو سكرانُ فسقط من السطح فمات . وقيل : بل كان قد رجع من عند الوليد بن يزيد ، فلما قَرُب من المدينة نزل بذى خُشُب ، وكان والى المدينة إبراهيم بن هشام آلمخزومىّ وكان فى قصره هناك ، فدعاه فأقام عنده ذلك اليوم . فلما أخذوا فى الشّرب أخرج المخزومىّ جوارِيَه ، فنظر إلى آبن عائشة وهو يغمز جاريةً منهنّ ؛ فقال لخادمه : إذا خرج آبن عائشة يريد حاجتَه فأرْمِ به من القصر ، وكانوا يشربون فى سطح القصر . فلما قام رماه الخادم فمات . وقيل : بل أقبل من الشام فنزل بقصر ذى خُشُب فشرب فيه ثم صعِد إلى أعلى القصر فنظر إلى نسوة يمشين فى ناحية الوادى ، فقال لأصحابه : هل لكم فيهنّ ؟ فقالوا : وكيف لنا بهنّ ! فلبس مُلاءةً مدلوكةً ثم قام على شُرْفة من شُرُفات القصر وتغنّى بشعر آبن أُذَيْنة :

وقد قالت لأترابٍ * لهـا زُهْـرٍ تلاقَيْنا

تعالَيْن فقد طاب * لنا العيشُ تعالَيْنا

فأقبلن عليه، فطرِب وٱستدار فسقط فمات، عفا الله تعالى عنه ورحمه. وقيل : بل مات بالمدينة . وأوّل هذه الأبيات :

(١١٦) سُلَيْمَى أزمعت بَيْنا * وأين لقاؤُها أينا

وقد قالت لأتْرابٍ * لها زُهْرٍ تلاقينا

تعالَيْن فقد طاب * لنا العيش تعالينا

فأقبلن إليها مُسْـ * ـرِعات يتهادينا

إلى مثل مَهَاة الرمـ * ـل تكسو المجلس الزَّيْنا

إلى خَوْدٍ مُنَعَّمة * حَفَفْنَ بها وفَدَّينا

تمنَّين (١) مُناهنّ * فكلّا ما تمنّينا

ذكر أخبار ٱبن مُحْرِز

هو مسلم، وقيل: عبد الله بن مُحرز. ويُكْنى أبا الخطاب. مولى عبد الدار بن قُصَيّ . وكان أبوه من سَدَنة الكعبة، وأصلُه من الفرس . وكان يسكن المدينةَ مرّةً ومكة مرّةً . فكان إذا أتى المدينةَ أقام بها ثلاثة أشهر يتعلّم الضربَ من عَزّة الميلاء ثم يرجع إلى مكة فيُقيم بها ثلاثةَ أشهر. ثم شخَص إلى فارس فتعلّم ألحانَ الفرس وأخذ غناءَهم ، ثم صار إلى الشام فتعلّم ألحان الروم (٢) وأخذ غناءهم . وأسْقَط من ذلك مالا يُستحسن من غناء الفريقين ونغمهم وأخذ محاسنَها، فمزَج بعضَها ببعض وألّف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب، فأتى بما لم يُسْمع مثلُه . وكان يقال له صَنّاج العرب .

(١) فى الأصل : «فنين» . والتصويب عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٣٧ طبع دار الكتب المصرية).

(٢) كذا فى الأغانى (ج ١ ص ٣٧٨ طبع دار الكتب المصرية). وفى الأصل : «ألحان الشأم» .

وقيـل : إنه أوّل من أخذ الغناء عن آبن مِسْجَح . وهو أوّل من غنّى بالرَّمَل وما غُنّى قبله . وكان آبنُ محرز قليلَ المُلابَسة للناس ، فأخمل ذلك ذكرَه . وأخذ أكثرَ غِنائه جاريةٌ كانت لصـديق له من أهل مكة كانت تألفه فأخذه الناسُ عنهـا . ومات بعلّة الجُذام ، وكان ذلك سببَ آمتناعه من معاشرة الخلفاء ومخالطة الناس .

وحُكِى أنه رحل إلى العراق ، فلما بلغ القادسيّةَ لَقِيه حُنَيْنٌ فقال له : كم مَنّتك نفسُك من العراق ؟ قال : ألف دينار ؛ قال : هذه خمسمائة دينار فخذها وآنصرِف وآحلِف ألّا تعود ، ففعل . فلما شاع ما فعل حنينٌ لامه أصحابُه : فقال : والله لو دخل العراق ما كان لى معه خبزٌ آكله ولأُطُرِحتُ ثم سقطتُ إلى آخر الدهر . ولم أقِفْ من أخبار آبن محرز على أكثر من هذا فأُورِده . والسلام .

ذكر أخبار مالك بن أبى السَّمْح

هو أبو الوليد مالك بن أبى السَّمْح . وآسم أبى السمح جابر بن ثعلبة الطائى ، وأمّه قرشيّةٌ من بنى مَخْزوم ؛ وقيل : بل أمّ أبيه [منهم](١) ؛ وقيل فيه : مالك بن أبى السمح بن سليمان . وكان أبوه منقطعًا إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ويتيمًا فى حِجْره أوصى به أبوه إليه . وكان مالكٌ أحولَ طويلا . وأخذ الغناءَ عن جميلة ومعبد وعمر ، وأدرك الدولة العباسيّة . وكان منقطِعًا إلى بنى سليمان بن علىّ ، ومات فى خلافة أبى جعفر المنصـــور .

وروى الأصفهانىّ بسنده إلى الوَرْدانىّ ، قال :

كان مالك بن أبى السمح المغنّى من طيّ ، فأصابتهم حُطْمة(٢) فى بلادهم بالجبلين ،

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠١ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) الحطمة : السنة الشديدة .

فقدِمت به أمّه وبإخوة له وأخواتٍ أيتامٍ لا شيء لهم . وكان يسأل الناسَ على باب حمزة بن الزبير . وكان معبدٌ منقطعا إلى حمزة يكون عنده فى كل يوم . فسمع مالكٌ غناءَه فأعجبه وأشتهاه . وكان لا يفارق باب حمزة يسمع غناءَ معبد إلى الليل ولا يطوف بالمدينة ولا يطلب من أحد شيئا ولا يَرِيم[1] موضعَه ، فينصرف إلى أمه ولم (١١٧) يكسب شيئا فتضربه ، وهو مع ذلك يترنّم بألحان معبد فيؤدّيها نغمًا بغير لفظ . وجعل حمزةُ كلما غدا أو راح رآه ملازِما لبابه ، فقال لغلامه يوما : أدخِل هذا الغلامَ إلىّ فأدخله الغلام اليه ، فقال له حمزة : من أنت ؟ قال : غلام مِن طيّ أصابتنا خُطْمة بالجبلين فهبطنا إليكم ومعى أمٌّ لى وإخوةٌ ، وإنى لزِمتُ بابك فسمعت من دارك صوتًا أعجبنى ولزِمت بابك من أجله . قال : فهل تعرف منه شيئا ؟ قال : أعرف لحنه كلَّه ولا أعرف الشعر . فقال : إن كنت صادقًا إنك لَفَهِمٌ . ودعا بمعبد فأمره أن يغنّى صوتا فغنّاه ، ثم قال لمالك : هل تستطيع أن تقوله ؟ قال نعم . قال : هاته ، فاندفع فغنّاه فأدّى نغمه بغير شعر[2] ، يُؤدّى مَدّاته ولِيّاته وعَطَفاته ونَبَراته ومتعلقاته لا يخْرِم منه حرفا . فقال لمعبد : خذ هذا الغلام إليك وخرِّجه فَلَيَكوننّ له شأنٌ . قال معبد : ولِمَ أفعل ذلك ؟ قال : لِتكونَ محاسنُه منسوبةً إليك وإلّا عَدَاك إلى غيرك فكانت محاسنُه منسوبةً إليه . فقال معبد : صدق الأمير ، وأنا أفعل ما أمرتنى به . قال حمزة لمالك : كيف [وجدتَ][3] مُلازمتَك لبابنا ؟ قال : أرأيتَ إن قلتُ فيك غير الذى أنتَ له مستحقّ من الباطل أكنتَ ترضى بذلك ؟ قال لا . قال : وكذلك لا يسرّك أن نُحمّد بما لم تفعل ، قال نعم . قال : فوالله ما شبِعت على بابك شَبْعةً قط ، ولا انقلبتُ إلى أهلى منه بخير . فأمر له ولأُمّه ولإخوته بمنزل

(١) لا يريم : لا يبرح . (٢) فى الأصول : « شىء » والتصحيح عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠٣ طبع دار الكتب المصرية) . (٣) الزيادة عن الأغانى .

وأجرى عليهـم رِزقًا وكُسوةً وأمر لهم بخادم يخدُمهم وعبدٍ يسقِيهم المـاء، وأجلس مالكا معه فى مجالسه، وأمر معبدًا أن يطارِحه فلم يَنْشَب أن مَهَر . فخرج مالك يوما فسمع امرأة تنوح على زيادةَ الذى قتله هُدْبَةُ بن خَشْرم ـ والشعرُ لأخى زيادة ـ :

أبعدالذى بالنَّعْف نعف كُوَيْكب * رهينـةَ رمسٍ ذى تُرابٍ وجَندلِ
أُذَكِّر بالبُقيا على من أصابنى * وذلك أنّى جاهِـدٌ غـيرُ مُؤْتَلِ (١)
فـلا يَدْعُنِى قومِى لزيدِ بن مالكٍ * لئن لم أُعَجِّلْ ضربةً أو أُعَجَّلِ
وإلّا أنَلْ ثأرى من اليوم أو غدٍ * بنى عمّنـا فالدهرُ ذو مُتطـوَّلِ
أنَخْتُمْ علينـا كَلْكَلَ الحرب مرّةً (٢) * فنحن مُنِيخُوها (٣) عليـكم بكَلْكَلِ

فغنّى فى هـذا الشعر لحنَيْن، أحدُهما نَحَا فيـه نحو المرأة فى نَوْحها ورقّقه وأصلحه، والآخرُ نحا فيه نحو معبد فى غنائه . ثم دخل على حمزة فقال له : أيها الأمير، إنى قد صنعتُ غناءً فى شعر سمعتُ أهلَ المدينة يُنشدونه وقد أعجبنى، فإن أذِن الأميرُ غنّيتُه . قال : هاتِ، فغنّى اللحنَ الذى نحا فيه نحو معبـدٍ، فطرب حمزة وقال : أحسنتَ ياغلام، هـذا الغِناءُ غناءُ معبـدٍ بطريقته . قال : لا تَعْجَلْ أيها الأمير واسمع مِنّى شيئا ليس من غناء معبد ولا طريقته، فغنّاه اللحنَ الذى تشبّه فيه بنوح المرأة . فطرِب حمزةُ حتى ألقى عليه حُلّةً كانت عليه قيمتُها مائتا دينار . ودخل معبدٌ فرأى حُلّة حمزة على مالكٍ فأنكرها . وعلِم حمزةُ بذلك فأخبر معبدًا بالسبب، وأمر مالكا فغنّاه الصوتين . فغضِب معبد لمّـا سمِـع الصوت الأوّل وقال : قد كرِهت أن آخُذ هذا الغلام فيتعلّم غنائى فيدّعِيه

(١) فى الأغانى : « وبقياى أنى ... » وورد البيت فى اللسان (مادة « بق ») منسوبا الى أبى القمقام الأسدى هكذا :

أذكر بالبقوى على ما أصابنى * وبقواى أنى جاهد غير مؤتلى

(٢) فى الأصول : « الدهر » . والتصويب عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠٤) .

(٣) فى الأصول : « سننخوها » . والتصويب عن الأغانى .

لنفسه . فقال حمزة : لا تَعْجَلْ وآسمع غِناءَ[صنعه](١) ليس من شأنك ولا غنائك ، وأمرَه أن يغنّى الصوتَ الآخر فغنّاه ، فأطرق معبدٌ . فقال له حمزة : والله لو آنفرد بهذا لضَاهَاك ثم تزايد على الأيام ، وكلما كبِر وزاد شِخْتَ أنت وآنتقصتَ ، فلأن يكون منسوبًا إليك أجملُ . فقال له معبدٌ وهو مُنْكَسِر : صدق الأمير . فأمر حمزةُ لمعبدٍ بخلعة من ثيابه وجائزة حتى سكَن وطابت نفسُه . فقام مالكٌ على رجليه وقبّل رأس معبد وقال له : ياأبا عبّاد ، أساءك ما سمعتَ منى؟ والله لا أُغنّى لنفسى شيئا أبدًا ما دمتَ حيًّا ! وإن غلبتنى نفسى فغنّيتُ فى شعر آستحسنتُه لا نسبتُه إلا إليك ، فطِبْ نفسا وآرْضَ عنّى . فقال له معبد : أتفعل هـذا وتفى به؟ قال : إى والله وأزيد . فكان مالك (١١٨) إذا غنّى صوتًا وسُئِل عنه قال : هذا لمعبد ، ماغنّيتُ لنفسى شيئًا قط ، وإنما آخذ غناءَ معبـد فأنقُلُه إلى الأشعار وأحسّنه وأزيد فيه وأنقص منه . وحضر مالكٌ بن أبى السَّمْح عند يزيد بن عبد الملك مع معبد وآبن عائشة فغنّوْه ، فأمر لكلّ واحد منهم بألف دينار .

وحكى عن آبن الكلبىّ قال : قال الوليد بن يزيد لمعبد :

قد آذَتْنِى وَلْولَتُك هذه ، وقال لآبن عائشة : قد آذانى آستهلالُك هذا ، فآطلُبا لى رجلا يكون مذهبُه متوسِّطا بين مَذْهبَيْكما . فقالا له : مالك بن أبى السمح ؛ فكتب فى إشخاصه إليـه وسائرِ من بالحجاز من المغنّين . فلما قدِم مالك على الوليـد بن يزيد فيمن معه نزَل على الغَمْر بن يَزيد ، فأدخله على الوليد فغنّاه فلم يُعْجِبه . فلما آنصرف قال له الغمر : إنّ أمير المؤمنين لم يُعْجِبه شىءٌ من غنائك ، فقـال له : جعلنى الله فِدَاك ! اطلُبْ لى الإذن عليه مرّة أخرى ، فإن أعجبه شىءٌ ممّـا أغنّيه وإلا آنصرفتُ إلى بلادى . فلما جلس الوليد فى مجلس اللهو ذكره الغمرُ له ، فأذن له فشرب مالكٌ

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠٥) .

ثلاث صُراحيّات[1] صِرْفا، ودخل على الوليـد وهو يَخْطِـر فى مشيته، فلما بلغ بابَ المجلس وقف ولم يُسَلِّم وأخذ بحَلْقة الباب ثم رفع صوتَه فغنّى :

لا عيشَ إلا بمـالك بن أبى السَّمْح فـلا تَلْحَـنى ولا تَـلُمِ
أبيضُ كالبـدر أو كما يلمع الـ ـبارق فى حالِك من الظُّلَمِ
فليس يَعصيك إن رشَدتَ ولا يَهْتِك حقّ الإسـلامِ والحُرَمِ
يُصيبُ من لذّة الكرام ولا يجهل آىَ الترخيص فى اللَّمَمِ
يارُبّ ليلٍ لنـا كحاشـيةِ الـ ـبُرْدِ ويوم كذاك لم يَدُمِ
نَعِمتُ فيـه ومالكَ بن أبى السَّمح الكريمَ الأخلاقِ والشِّيَمِ

فطرِب الوليد ورفع يديه حتى بان إبطاه وقام فاعتنقه، ثم أخذ فى صوته ذلك فلم يزالوا فيه أياما، وأجزل له العطيّةَ حين أراد الانصرافَ . قال : ولما أتى مالكٌ على قوله : « أبيض كالبدر » قال الوليد :

أحولُ كالقِـرد أو كما يَرْقُب السَّارقُ فى حالكٍ من الظُّـلَمِ

قالوا : وكان مالكُ بن أبى السمح مع الوليد بن يزيد يوم قُتِل هو وابنُ عائشةَ. قال ابن عائشة : وكان مالكٌ من أحمق الخَلْق، فلما قُتِل الوليد قال : اهْرُبْ بنا؛ قلت : وما يُريدون منّا؟ قال : وما يؤمِّنك أن يأخذوا رأسينا فيجعلوا رأسَه بينهما ليحسِّنوا أمرهم بذلك! .

ذكر أخبار يونس الكاتب

هو يونس بن سليمان بن كُرْد بن شَهْرِيار من ولد هُرْمُز،[2] مولًى لعمرو بن الزبير، ومنشؤه ومنزلُه بالمدينة، وكان أبوه فقيهاً فأسْلَمه فى الديوان وكان من كُتّابه . وأخذ

(١) جمع صراحية وهى آنية للخمر .

(٢) فى الأغانى (ج ٤ ص ٣٩٨ طبع دار الكتب المصرية) : « وقيل : إنه مولى ... » إلخ .

الغناءَ عن معبد وابن سريج وآبن مُحْرِز والغريض، وكان أكثرُ روايته عن معبد. ولم يكن فى أصحاب معبد أحذقُ منه ولا أقومُ بما أُخِذ عنه منه. وله غناءٌ حسن، وصنعة كثيرة، وشعر جيِّدٌ. وهو أوّل من دوّن الغناءَ. وله كتاب فى الأغانى نسبها إلى من غنّى فيها. وخرج إلى الشام فى تجارة، فبلغ الوليدَ بن يزيد مكانُه فأحضره والوليدُ إذ ذاك ولىُّ العهد. قال: فلما وصلتُ إليه سلّمتُ عليه، فأمرنى بالجلوس، ثم دعا بالشراب والجوارى. قال يونس: فكنّا يومَنا وليلتَنا فى أمر عجيب، وغنّيتُه فأُعْجِب بغنائى إلى أن غنّيتُه:

إن يَعِشْ مُصْعَبٌ فنحن بخير * قد أتانا من عيشنا ما نُرَجّى

ثم تنبهتُ فقطعتُ الصوتَ وأخذتُ أعتذر من غنائى بشعرٍ فى مصعب، فضحك ثم قال: إن مُصْعَبًا قد مضى وآنقطع أثرُه ولا عداوة بينى وبينه وإنما أُريد الغناء، فأمضِ الصوتَ؛ فعُدْتُ فيه فغنّيته ولم يَزل يَستعيده حتى أصبح فشرب مُصْطَبِحًا وهو يَستعيدنى هذا الصوت ولا يَتجاوزه. فلما مضت ثلاثةُ أيام قلت: جعلنى الله (١١٩) فداك إنى رجل تاجر خرجتُ مع تُجّارٍ وأخاف أن يرتحلوا فيضيع مالى، فقال: أنت تغدو غدًا، وشرب باقى ليلته وأمر لى بثلاثة آلاف دينار. فحُمِلَتْ إلىّ وغدوتُ إلى أصحابى. فلما آستُخلف بعث إلىّ فأتيتُه فلم أزَلْ معه حتى قُتِل.

ذكر أخبار حُنَيْن

هو حنين بن بَلْوَعَ الحِيرى. وآختُلف فى نسبه، فقيل: هو من العِبادِيّين من تَميم، وقيل: إنه من بنى الحارث بن كعب، وقيل: إنه من قوم بَقُوا من طَسْم وجَديس، فنزلوا فى بنى الحارث بن كعب فعُدّوا فيهم. ويُكْنى أبا كعب. وكان شاعرًا مُغَنّيًا من فحول المُغَنّين، وكان يَسكن الحِيرةَ ويُكْرِى الجمال إلى الشام، وكان

نَصْرانيًّا. وعن المدائنيّ قال: كان حُنينٌ غلاما يَحمل الفاكهةَ بالحِيرة، وكان إذا حمل الرياحين إلى بيوت الفتيانِ[1] ومياسيرِ أهل الكوفة وأصحاب القِيان والمُتَطَرِّبين ورأوا رشاقته وحسنَ قدّه وحلاوتَه وخِفّةَ رُوحه آستحلوه وأقام عندهم، فكان يَسمع الغناءَ ويُصْغِي له، حتى شدا منه أصواتًا فآستمعه الناسُ، وكان مطبوعًا حسنَ الصوت. وآشتهر غناؤه وشُهِر بالغناء ومهَر فيه وبلَغ فيه مبلغا كبيرا. ثم رحل إلى عمر[2] بن داود الوَادِيّ وإلى حكم الوَادِيّ وأخذ منهما وغنّى لنفسه وآستولى على الغناء في عصره، وهو الذي بذل لآبن مُحْرِزٍ خمسمائة دينار حتى رجع عن العراق، كما قدّمناه في أخبار آبن محرز. وبلغ من الناس بالغناء مبلغًا عظيما، حتى قيل له فيما حُكي: إنك تغنّى منذ خمسين سنة فما تركتَ لكريم مالا ولا دارا ولا عَقارا إلا أتيتَ عليه. فقال: بأبي أنتم! إنما هي أنفاسي أقسمها بين الناس، أفتلومونني أن أُغلِي بها الثمن.

وحكى المدائنيّ قال: حجّ هشام بن عبد الملك وعديلُه الأبرش الكلبيّ؛ فوقَف له حنينٌ بظهر الكوفة ومعه عودٌ وزامِر له. فلما مرّ به هشام عرَض له فقال: من هذا؟ قيل: حنين؛ فأمر به هشام فحُمِل في مَحْمِلٍ على جمل وعديلُه زامِرُه وسيّره أمامه، فغنّاه:

أمِن سَلْمى بِظهرِ الكو * فةِ الآياتُ والطَّلَلُ
تلوح كما تلوح عـلى * جفون الصَّيْقَلِ الخِلَلُ

فأمر له هشام بمائتي دينار وللزّامر بمائة دينار.

وحُكي أن خالد بن عبد الله القَسْريّ حرّم الغناءَ بالعراق في أيامه ثم أذن للناس يوما في الدخول عليه عامّةً؛ فدخل عليه حنين في جملة الناس ومعه عودٌ تحت ثيابه

(١) كذا في الأغاني (ج ٢ ص ٣٤٥ طبع دار الكتب المصرية). وفي الأصل: «بيوت القيان».
(٢) كذا في الأغاني. وفي الأصل: «عمرو» وهو تحريف.

فقال : أصلح الله الأمير! كانت لى صِناعةٌ أعود بها على عيالى فحزمها الأميرُ فأضرّ ذلك بى وبهم . فقال : وما كانت صِناعتُك ؟ فكشف عن عوده وقال : هذا . فقال له خالد : غَنِّ ؛ فعرك[1] أوتارَه وغنّى :

أيّها الشّامتُ المُعَيِّر بالدهـ * ـر أأنتَ المُبَرَّأُ الموفورُ
أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيـ * ـام بل أنتَ جاهلٌ مغرورُ
من رأيتَ المنونَ خَلّدن أم مَنْ * ذا عليه مِن أن يُضامَ خَفيرُ

قال : فبكى خالد وقال : قد أذِنتُ لك وحدك خاصّةً ، ولا تجالِس سفيهًا ولا مُعَربِدًا . فكان إذا دُعِى قال : أفيكم سفيه أو معربِدٌ ؟ فإذا قالوا لا ، دخل .

وقال بشر بن الحسين بن سليمان بن سَمُرة بن جُنْدب : عاش حنين بن بَلْوَع مائة سنة وسبع سنين .

ذكر أخبار سياط

هو عبد الله بن وهب ويُكْنى أبا وهب ، وسياطٌ لقب غلَب عليه . وهو مَكّىٌّ مولى خزاعة . كان مقدّمًا فى الغناء رِوايةً وصنعةً ، مقدّمًا فى الطرب . وهو أستاذ آبن جامع وإبراهيم الموصلىّ وعنه أخذا ، وأخذ هو عن يونس الكاتبِ . وكان سياط زوج أمّ آبن جامع . قيل : وإنما لُقّب سِياطٌ بهذا اللقبِ لأنه كان كثيرا ما يغنّى :

كأنّ مزاحفَ الحيّاتِ فيها[2] * قُبيلَ الصبح آثارُ السّياطِ

حُكى أن إبراهيم الموصلىّ غنّى صوتا لِسياط ، فقال آبنه إسحاق : لِمَنْ هذا الغناء يا أبت ؟ قال : لِمن لو عاش ما وجد أبوك خبزا يأكله ، سياط . (١٢٠)

(١) فى الأغانى : « فحرك » .
(٢) فى الأغانى (ج ٦ ص ١٥٢ طبع دار الكتب المصرية) : « فيه » .

وحكى أن سِياطا مرّ بأبى رَيْحانةَ فى يوم بارد وهو جالسٌ فى الشمس وعليه سَمَلُ ثوبٍ رقيق رثّ، فوثب إليه أبو ريحانة المدنىّ وقال : بأبى أنت ياأبا وهب! غَنّنِي صوتك فى شعر ابن جُندَب :

فؤادِى رهينٌ فى هواك ومُهجتِى * تَذوبُ وأجفانى عليك هُمولُ

فغنّاه إياه، فشقّ قميصَه ورجع إلى موضعه من الشمس وقد ازداد بردا وجَهْدا . فقال له رجل : ما أغنى عنك هذا مِن شقّ قميصك؟ ! فقال : يابن أخى، إن الشعر الحسن من المغنّى المحسِنِ ذى الصوت المطرِبِ أدفأ للقرور من حمّام مُحْمًى . فقال له رجل : أنت عندى من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فقال : بل أنا ممّن قال الله تعالى فيهم : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ . وقد حكيت هذه الحكاية أيضا من طريق آخر : أنّه لمّا غنّاه هذا الصوت شقّ قميصَه حتى خرج منه وبَقِى عَارِيًا وغُشِى عليه واجتمع الناسُ حوله، وسِياطٌ واقف يتعجّب مما فعل، ثم أفاق فقام إليه . فقال له سياطٌ : مالك(١) يامشئوم! أىّ شىء تريد؟ قال : غنّنِي بالله عليك ياسيدى :

وَدِّع أُمَامةَ حان منك رحيلُ * إنّ الوداع لمن تُحِبّ قليل

مِثل القضيب تمايَلَتْ أعطافُه * فالرِّيح تَجْذِب مَتْنَه فيَميل(٢)

إن كان شأنُكم الدّلال فإنه * حسنٌ دلالكِ يا أُمَيم جميلُ

فغنّاه، فلطَم وجهه حتى خرج الدَّمُ مِن أنفه ووقع صريعًا . ومضى سياطٌ وحمل الناسُ أبا ريحانة إلى الشمس . فلما أفاق قيل له فى ذلك فقال نحو ماتقدّم . قال : ووجّه إليه سياطٌ بقميص وسراويل وجبّةٍ وعمامة .

(١) فى الأصل : « مالك أيضا » . ولا معنى لكلمة « أيضا » وهى غير موجودة فى الأغانى .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل :

... ... أعطافها * والريح تجذب متنها فتميل

وكانت وفاةُ سياط فى أيام موسى الهادى . ودخل عليه آبن جامع وقد نَزَل به الموت فقال له : ألك حاجة؟ قال : نعم لا تَزِدْ فى غنائى شيئا ولا تَنْقُص منه ، فإنما هو ثمانية عشر صوتًا دَعْه رأسا برأس . وقيل : بل كانت وفاتُه فجأةً ، وذلك أنه دعاه بعض إخوانه فأتاهم وأقام عندهم وبات ، فأصبحوا فوجدوه ميتًا فى منزلهم ، فجاءوا إلى أمه وقالوا : ياهذه إنا دعونا آبنكِ لِنُكرمه ونُسَرّ به ونأنَس بقربه فمات فجأة ، وها نحن بين يديكِ ، فآحكمى ما شِئتِ ، وناشَدْناكِ الله أن [لا][1] تُعرِّضينا للسلطان أو تدّعى علينا ما لم نفعله . قالت : ما كنتُ لأفعل ، وقد صدَقتم ، وهكذا مات أبوه فجأةً ، وتوجّهتْ معهم فحملَته إلى منزله ودفنته .

ذكر أخبار الأبجر

هو عبيد الله بن القاسم بن مُنبِّه[2] ، ويكنى أبا طالب . وقيل : آسمه محمد بن القاسم ، والأبجر لقب غلَب عليه . وهو مولى لكنانة ثم لبنى ليث بن بكر[3] . وكان يلقّب بالحَسْحاس . وكان مَدنيًّا منشؤه مكة أو مكيًّا منشؤه المدينة . قال عَوْرَك اللَّهبىّ :

لم يكن بمكة أحدٌ أظرف ولا أسرى ولا أحسن هيئة من الأبجر ، كانت حُلّته بمائة دينار وفرسُه بمائة دينار ومركبُه بمائة دينار ، وكان يقف بين المأزِمين ويرفع عقيرته ، فيقف الناسُ له فيركب بعضُهم بعضًا . وروى الأصفهانىّ بسنده إلى اسحاق ابن إبراهيم الموصلىّ قال :

---

(١) التكملة عن الأغانى .

(٢) فى ترجمته فى الأغانى (ج ٣ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب المصرية) : « ضبية » . وورد فى بعض أصول الأغانى : « ضبة » و « ضبية » .

(٣) الذى فى الأغانى « وهو مولى لكنانة ثم لبنى بكر ، ويقال : إنه مولى لبنى ليث » .

جلس الأبجر فى ليلة اليوم السابع من أيام الحجّ على قريب من التَّنْعيم فإذا عسكر جرّار [قد أقبل](١) فى آخر الليل وفيه دوابُّ تُجْنَبُ ومنها فرس أدهمُ عليه سرجٌ حليته ذهَب، فاندفع يغنّى :

عرَفتُ ديارَ الحىّ خاليةً قَفْرا ٭ كأن بها لمّا توهّمتُها سطرا

فلما سمعه من فى القِباب والمحامل أمسكوا وصاح صائحٌ : ويحك أعِدِ الصوتَ ! فقال : لا والله إلا بالفرس الأدهم بسَرْجه ولجامه وأربعمائة دينار، وإذا الوليد بن يزيد صاحبُ العسكر. فنُودِى : أين منزلُك؟ ومن أنتَ؟ فقال : أنا الأبجرُ، ومنزلى على زُقاق باب الخرّازين(٢). فغدا عليه رسولُ الوليد بذلك الفرس وأربعمائة دينار وتخت ثياب وَشْىٍ وغير ذلك، ثم أُتِى به الوليدُ، فأقام وراح مع أصحابه عشيّةَ التَّرْوِية (١٢١) وهو أحسنُهم هيئة، وخرج معه أو بعده إلى الشام.

وحكى عن عمرو بن حفص بن أُمّ كلابٍ(٣)، قال :

كان الأبجرُ مولانا وكان مكيًّا، وكان إذا قدِم من مكة نزل علينا. فقال لنا يوما : أسمِعونا غِناء آبن عائشتكم هذا ؛ فأرسلنا إليه فجمعنا بينهما فى بيت آبن هبّار. فغنّى آبن عائشة ؛ فقال الأبجرُ : كلُّ مملوكٍ له حرّ إن غنّيت معك إلّا بنصف صوتى، ثم أدخل إصبعه فى شِدْقِه وغنّى فسمِع صوتَه من فى السوق، فحشر الناس علينا، فلم يفترِقا حتى تشاتَما.

ذكر أخبار أبى زيد الدَّلَال

هو أبو زيد ناقِدٌ مَدَنِىٌّ، مولى عائشة بنت سعيد بن العاص، وكان مُخَنَّثًا.

قال إسحاق :

(١) الزيادة عن الأغانى. (٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل : « الجزارين ». وهو تصحيف. (٣) الذى فى الأغانى : « عن عمر بن حفص بن أبى كلاب ».

لم يكن فى المخنّثين أحسن وجهًا ولا أنظف ثوبًا ولا أظرف من الدَّلَال . قالوا : ولم يكن بعد طُوَيْس أظرف منه ولا أكثر مُلَحًا . وكان كثيرَ النوادر نَزْرَ الحديث ، فإذا تكلم أضحك الثكالى ، وكان ضاحكَ السنّ ، ولم يكن يغنّى إلّا غناءً مُضَعَّفًا (يعنى كثير العمل) .

وقال أيوب بن عَبَاية :

شهِدتُ أهلَ المدينة إذا ذكروا الدَّلَال وأحاديثَه طوَّلوا رقابَهم وفخروا به ، فعلمتُ أن ذلك لفضيلةٍ كانت عنده . قالوا : وكان مُبْتَلًى بالنِّساء والكونِ معهنّ ، فكان يُطلَب فلا يُقْدَر عليه . وكان صحيحَ الغِناء حسنَ الحِرْم . قالوا : وإنما لُقِّب بالدّلال لشكله وحسن ظَرْفه ودلّه وحلاوةِ مَنْطِقه وحسنِ وجهه . وكان مشغوفًا بمخالطة النساء يُكثر وصفهنّ للرجال . وكان يُشاغِل كلَّ من يجالسه عن الغناء بأحاديث النساء كراهةً منه للغناء . وكان إذا غنّى أجاد ، كما حكاه ابن المَاجِشُون عن أبيه قال : غنّانى الدّلالُ يوما بشعر مجنون بنى عامر ، فلقد خِفْتُ الفتنةَ على نفسى . واستحضره سليمانُ بن عبد الملك من المدينة سرًّا وغنّاه وأقام عنده شهرا ثم صرفه إلى الحجاز مكرما .

قال الأصمعىّ :

حجّ هشامُ بن عبد الملك ، فلما قدِم المدينة نزل رجلٌ من أشراف أهل الشأم وقوّادِهم بجَنْب دارِ الدَّلال ، فكان الشامىُّ يَسمع غناءَ الدلال ويُصغى إليه ويصعَد فوق السطح ليقرب من الصوت ، ثم بعث إلى الدّلال : إمّا أن تزورنا وإمّا أن نزورَك . فبعث إليه الدّلالُ بل تزورنا . فبعث الشامىّ ما يَصْلُح ومضى إليه بغلامين من غِلمانه كأنهما دُرّتان مكنونتان . فغنّاه الدّلالُ ، فاستحسن الشامىُّ غناءَه فقال : زِدْنى ؛ قال : أوَ ما يكفيك ما سمعتَ ! قال : لا والله ما يَكفينى . قال : فإنّ لى حاجة .

قال : وما هى ؟ قال : تَبيعنى أحدَ هذين الغلامين أوكليهما ، فقال : اختَرْ أيَّهما شئت ، فاختار أحدهما ، فقال له الشامىّ : هو لك ، فقبله منه الدّلالُ ، ثم غناه وغنّى :

دَعَتْنى دَواعٍ مِن أُرَيّا فهيّجتْ * هوًى كان قِدْمًا مِن فؤاد طَروب

لعل زمانًا قد مضى أن يعودَ لى * فتغفِرَ أرْوَى عند ذاك ذنوبى

سَبَتْنى أُرَيّا يوم نَعْفِ مُحَسِّرٍ * بوجهٍ جميلٍ للقلوب سَلُوبِ

فقال له الشامىّ : أحسنتَ . ثم قال له : أيّها الرجل الجميلُ ، إن لى [إليك] حاجةً ، قال الدّلّال : وما هى ؟ قال : أُريد وصيفةً ولِدتْ فى حِجْر صالح ونشأت فى خير ، جميلةَ الوجه مجدولةً وضيئةً جَعْدةً فى بياض مُشرَبةً حُمْرةً حسنةَ الهامةِ سَبْطةً أسيلةَ الخدّ عذبةَ اللّسان لها شَكْلٌ [ودَلٌّ] تملأ العين والنفس . فقال له الدّلال : قد أصبتُها لك ، فما لى عندك إن دللتُك عليها ؟ قال : غلامى هذا . قال : إذا رأيتَها وقبلتها فالغلام لى ؟ قال نعم . قال : فأتى امرأةً كَنَّى عن اسمها ، فقال لها : جُعلتُ فداءك ! نزل بقربى رجلٌ من قوّاد هشام ، له ظَرْف وسخاءٌ ، وجاءنى زائرا فأكرمتُه ، ورأيتُ معه غلامين كأنهما الشمسُ الطالعة المنيرة والكواكب الزاهرة ما وقعتْ عينى على مثلهما ولا يطول لسانى بوصفهما ، فوهب لى أحدَهما والآخرُ عنده ، وإن لم يَصِر إلىّ فنفسى ذاهبةٌ . قالت : وتُريد ما ذا ؟ قال : طلب منى وصيفةً على صِفةٍ لا أعلمها إلا فى ابنتك ، فهل لك أن تُريه إيّاها ؟ قالت : وكيف لك بأن يَدْفع الغلام إليك إذا رآها ؟ قال : إنى قد شرطتُ عليه ذلك عند النظر لا عند البيع . قالت : شأنَك ، لا يعلم هذا أحد . فمضى الدّلال وأتى بالشامىّ . فلما صار إلى المرأة وُضِع له كرسىٌّ وجلس . فقالت له المرأة : أمِن العرب أنتَ ؟ قال نعم . قالت :

(١٢٢)

(١) كذا فى الأغانى (ج ٤ ص ٢٨٧ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصل : «لعل زمانا للرضا» .

مِن أيّهم ؟ قال : مِن خُزَاعة . قالت : مرحبا بك وأهلا ! أىّ شىء طلبتَ ؟ فوصف لها الصِّفةَ . قالت : قد أصبتَها ؛ وأسرّت إلى جارية لها فدخلتْ فمكثت هنيهة ثم خرجت فنظرت فقالت : آخرجى ، فخرجت وصيفةٌ ما رأى [الراءون][1] مثلَها . فقالت لها : أقبِلى فأقبلتْ ، ثم قالت : أدبِرى فأدبرت تملأ العينَ والنفسَ ، فما بَقِى منها شىء إلا وضَع يدَه عليه . فقالت له : أتحبّ أن نؤزّرَها لك ؟ قال نعم . قالت : آئتزِرى ؛ فضمّها الإزارُ وظهرت محاسنها الخفيّة ؛ فضرب بيده إلى عَجِيزتها وصدرِها . ثم قالت : أتحب أن نجرّدها لك ؟ قال نعم . قالت : [أى حبيبتى][1] وضَحِّى ؛ فألقت الإزارَ فإذا أحسنُ خَلْق الله كأنها سبيكةٌ . فقالت : ياأخا العرب ، كيف رأيتَ ؟ قال : منيةُ المتمنّى . قال : بِكم تقولين ؟ قالت : ليس يوم النظر يوم البيع ، ولكن تعود غدًا حتى نُبايعك فلا تَنْصرف إلا عن رضًا ، فآنصرف من عندها . فقال له الدَّلالُ : أرضِيتَ ؟ قال : نعم ، ما كنتُ أحسب أن مثل هذه فى الدنيا ، وإن الصفة لتَقْصُر دونها ، ثم دفع إليه الغلامَ الثانى . فلما كان من الغَدِ قال له الشامىّ : آمض بنا . فمضَيا حتى قرعا البابَ ، فأُذِن لهما فدخلا فسلّما ، فرحّبت المرأة بهما ثم قالت للشامىّ : أعْطِنا ما تَبْذُل ؛ فقال : ما لها عندى ثمنٌ إلا وهى أكثرُ منه ، فقولى أنت يا أمَةَ الله . قالت : بل قل أنتَ ، فإنا لم نُوطِئك أعقابَنا ونحن نُريد خِلافَك وأنت لها رضًا . قال : ثلاثة آلاف [دينار][1] . قالت : والله لقبلةٌ منها خيرٌ من ثلاثة آلاف [دينار][1] . قال : أربعة آلاف [دينار][1] . قالت : غفر الله لك أعْطِنا أيّها الرجل . قال : والله مامعى غيرها — ولو كان لزِدتُك — إلا رقيقٌ ودوابّ . قالت : ما أراك إلا صادقًا ، أتدرى مَنْ هذه ؟ قال : تُخبِرينى . قالت : هذه

(١) الزيادة عن الأغانى .

أبتى فلانة بنت فلان وأنا فلانة بنت فلان، قم راشدًا . فقال للدلال : خدعتنى. قال : أو ما ترضى أن ترى ما رأيتَ من مثلها وتهبُ مائة غلام مثل غلامك ؟ قال: أمّا هذا فنعم . وخرجا من عندها .

والدلال أحدُ من خُصِيَ من المخنّثين بالمدينة لمّا أمر سليمانُ بن عبد الملك عامله على المدينة أبا بكر بن عمرو بن حزم بخَصْيهم .

ذكر أخبار عَطَرَّد

(١٣٣) هو أبو هارون[1] عطرّد، مولى الأنصار [ثم مولى][2] بنى عمرو بن عوف، وقيل : إنه مولى مُزَيْنَة . مدنىٌّ كان ينزل قُباء . وكان جميلَ الوجه حسنَ الغناء طيِّبَ الصوت جيِّد الصنعة حسنَ الزىّ والمروءة فقيهًا قارئا للقرآن . وقيل : إنه كان مُعَدَّل الشهادة بالمدينة . وأدرك دولةَ بنى أميّة وبقِى إلى أوّل أيام الرشيد. وكان يُغنّى مرتجلا .

وحكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه قال :

لمّا استُخْلِف الوليدُ بن يزيد كتب إلى عامله بالمدينة فأمره بإشخاص عَطَرّدٍ المغنّى إليه، ففعل . قال عَطرّدُ : فدخلتُ على الوليد وهو جالسٌ فى قصره على شَفِير بركة مُرَصَّصَة مملوءةٍ خمرا ليست بالكبيرة ولكنّها يدور الرجلُ فيها [سِباحةً][2]. قال : فوالله ما تركنى أسلّم حتى قال : أعَطَرّد؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين. قال : مازلتُ إليك مشتاقًا يا أبا هارون، غنِّنى :

---

(١) كذا فى الأغانى (ج ٣ ص ٣٠٣ طبع دار الكتب المصرية) وسيأتى قريبا . وفى الأصل هنا : «أبو مروان» وهو تحريف .

(٢) الزيادة عن الأغانى .

حَيِّ الحُمُولَ بجانب العَزْلِ (١) * إذ لا يلِيقُ لنا كل شكلُها شكلى
الله أنجحُ ما طلبت به * والبِرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّحْلِ
إنى بحبْلِكِ واصلٌ حبلى * وبريش نَبْلِكِ رائشٌ نَبْلِى
وشمائلى ما قد عَلِمتِ وما * نجحتْ كلابُكِ طارقًا مثلِى

قال : فغنّيتُه إياه ، فوالله ما أتممتُه حتى شقّ حُلّة وَشْى كانت عليه لا أدرى كم قيمتُها ، فتجرّد منها كما ولدته أمّه ، وألقى نفسه فى البركة فنهل منها حتى تبيّنتُ أنها قد نقصت نقصانًا بيّنا ، وأُخرِج منها وهو كالميت سكرا ، فأُضْجِع وغُطّى ، فأخذت الحُلّة وقمتُ وآنصرفتُ إلى منزلى متعجّبًا من فعله . فلما كان فى غد ، جاءنى رسولُه فى مثل الوقت فأحضرنى . فلما دخلتُ عليه قال : يا عَطَرَّد ! قلت : لبّيْك يا أمير المؤمنين ! قال : غنّنِى :

أيذهب عمرِى هكذا لم أَنَلْ به * مجالسَ تَشْفِى قَرْحَ قلبى من الوجدِ
وقالوا تَدَاوَ إنّ فى الطبّ راحةً * فعلّلتُ نفسى بالدواء فلم يُجْدِ

فغنّيتُه إيّاه ، فشقّ حُلّة وَشْى كانت تَلْمَع عليه بالذهب احتقرتُ والله الأولى عندها ، ثم ألقى نفسه فى البركة فنهل منها حتى تبيّنتُ نُقْصانها وأُخرِج كالميت سكرا ، فأُلقِىَ وغُطّى ونام ، وأخذتُ الحُلّة وآنصرفت . فلما كان اليوم الثالث ، جاءنى رسولُه فدخلت إليه وهو فى بَهْوٍ قد أُلقِيتْ ستورُه ، فكلّمنى من وراء الستور وقال : يا عطَرّد ! قلت : لبّيْك يا أمير المؤمنين ! قال : كأنى بك الآن قد أتيتَ إلى المدينة فقمتَ فى مجالسها وقعدتَ وقلتَ : دعانى أميرُ المؤمنين فدخلتُ عليه فاقترح علىّ فغنّيتُه فأطربتُه فشقّ ثيابَه وأخذتُ سَلَبه وفعل وفعل ! ووالله يابن الزّانية إن تحرّكت شَفَتاك بشىءٍ مما جرى لأَضربنّ عُنُقَك . يا غلام أعطِه ألف دينار ، خذها

(١) هو ماء بين البصرة واليمامة .

وانصرف إلى المدينـة . فقلتُ : إنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى تقبيل يده ويزوّدنى نظرة منه وأغنّيه صوتًا ! فقال : لاحاجةَ بى ولا بك إلى ذلك ، فانصرِفْ . قال عطَرَّد : فخرجتُ من عنده وما علم الله أنّى ذكرتُ شيئا ممـا جرى حتى مضت من دولة بنى هاشم مدّةٌ . ودخل عطرّد على المهدىّ وغنّاه . قيـل : ودخل على الرشيد وغنّاه . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

ذكر أخبـار عمر الوادىّ

هو عمر بن داود بن زَاذَان . وجَدُّه زاذان مولى عمرو بن عثمان بن عفّـان . وأخذ الغناءَ عن حكم ، وقيل : بل أخذ حكمٌ عنـه . وهو من أهل وادى القُرى . قدِم الحَرَم وأخذ من غناء أهله فحذق وصنع فأجاد . وكان طيّبَ الصـوت شجيًّا مُطْرِبا . وهو أوّل من غنّى من أهل وادى القُرى ، واتصل بالوليد بن يزيد فى أيام إمارته فتقدّم عنده جدًا ، وكان يسمّيه « جامع لذّاتى ومُحْيِى طربى » . وقُتِل الوليدُ وهو يغنّيه ، وكان آخرَ الناس به عهدًا . قال : وكان يجتمع مع معبد ومالك بن أبى السَّمْح وغيرهما من المُغنّين عند الوليد بن يزيد ، فلا يمنعه حضورُهم من تقديمه والإصغاءِ إليه والاختصاص به . وفى عمر هذا يقول الوليدُ بن يزيد :

إنمـا فكّرتُ فى عُمَـرٍ * حين قال القولَ واختلجا
إنه للمُسْتَنِـير بـه * قمرٌ قـد طمّس السُّرُجا
ويغنّى الشـعرَ يَنْظِمه * سيّدُ القوم الذى فَلَجا
أكل الوادِىُّ صـنعته * فى كتاب الشـعر فاندمجا

أراد الوليد بن يزيد بقوله : « سيّدَ القوم » نفسَه .

ذكر أخبار حكم الوادىّ

هو أبو يحيى الحكم بن ميمون، وقيل : الحكم بن يحيى بن ميمون. مولى الوليد بن عبد الملك، كان أبوه حلّاقا (١) يحلق رأس الوليد، فاشتراه فأعتقه . وكان حكمٌ طويلا أحولَ، يُكْرى الجمال يَنْقُل [عليها] (٢) الزيت من الشام إلى المدينة. وقيل : كان أصلُه من الفُرس . وكان واحدَ عصره فى الحِذْق، وكان يغنّى بالدُّفّ ويغنّى مرتجلا. وعُمِّر عمرا طويلا، غنّى الوليدَ بن عبد الملك، وغنّى الرشيدَ، ومات فى الشَّطر من خلافته. وأخذ الغناء عن عمر الوادىّ، وقد قيل : إن عمر أخذ عنه . قال حمّاد بن إسحاق قال لى أبى: أربعةٌ بلَغت فى أربعة أجناس من الغناء مبلغًا قَصّر عنه غيرهم: «معبدٌ» فى الثقيل، و«ابن سريج» فى الرَّمَل، و«حكم» فى الهَزَج، و«إبراهيم» فى الماخُورىّ. (١٢٤)

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : وزار حكمٌ الوادىّ الرشيدَ، فبَرّه ووصله بثلثمائة ألف درهم، وخيّره فيمن يكتُب له بها عليه؛ فقال: اكتب لى بها على إبراهيم بن المهدىّ — وكان إبراهيم إذ ذاك عاملا له بالشام — فقدِم عليه حكمٌ بكتاب الرشيد؛ فأعطاه ما كتَب له به، ووصلَه بمثل ذلك، إلّا أنه نَقَصه ألف درهم من الثلثمائة ألف، وقال له : لا أَصِلُك بمثل ما وصلَك أمير المؤمنين . قال إبراهيم بن المهدىّ : وأقام عندى ثلاثين يومًا أخذت عنه فيها ثلثمائة صوت، كلُّ صوت أحبُّ إلى من الثلثمائة ألف التى وهبتُها له . وقيل: إنه لم يَشْتهِر بالغناء حتى صار إلى بنى العبّاس، فانقطع إلى محمد بن أبى العباس، وذلك فى خلافة المنصور، فأُعْجِب به واختاره على المغنّين وأعجبته أهزاجُه. وكان يقال: إنه أهزجُ الناس . ويقال: إنه غنّى الأهزاجَ فى آخر عمره؛ فلامه ابنُه على ذلك وقال : أبعدَ الكبَر تغنّى غناءَ المخنَّثين! فقال له : اسكت

(١) كذا فى الأغانى (ج ٦ ص ٢٨٠ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصلين : « غلاما » .
(٢) الزيادة عن الأغانى .

فإنّك جاهل، غنّيتُ [الثقيل][1] ستين سنة فلم أَنَلْ إلا القوت، وغنّيتُ الأهزاجَ منذ سنتين فكَسَبتُك ما لم تر مثله قطّ. والله أعلم.

ذكر أخبار ابن جامع

هو أبو القاسم إسماعيل بن جامع بن عبد الله بن المطلب بن أبي وَدَاعَة ابن صُبَيْرة بن سهم بن هُصَيْص بن كعب بن لُؤَيّ. قالوا: وكان ابنُ جامع من أحفظِ خلق الله لكتاب الله تعالى، كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلّي الصبح ثم يَصُفُّ قدميْه حتى تَطْلُع الشمس، فلا يصلّي الناسُ الجمعةَ حتى يختم القرآنَ ثم ينصرف إلى منزله. وكان حسنَ السَّمْت، كثيرَ الصلاة. وكان يعتمّ بعمامة سوداء على قَلَنْسُوة ويلبس لباسَ الفقهاء ويركب حمارًا مَرِيسيًّا[2] في زيّ أهل الحجاز. ورُوِي عنه أنه قال: لولا أن القِمارَ وحبَّ الكلاب قد شغَلاني لتركتُ المغنّين لا يأكلون الخبزَ. قال ابن جامع: أخذتُ من الرشيد بيتين غنّيتُه إياهما عشرةَ آلاف دينار. قالوا: وكان إبراهيمُ بن المهدي يفضّل ابنَ جامع فلا يقدّم عليه أحدا. قال: وكان ابن جامع مُنقطِعًا إلى موسى الهادي في أيام أبيه، فضربه المهدي وطردَه. فلما مات المهدي بعث الفضلُ بن الربيع إلى مكة فأحضَر ابنَ جامع في قُبّة ولم يُعْلِم به أحدا. فذكره موسى الهادي ذاتَ ليلةٍ فقال لجلسائه: أمَا فيكم أحدٌ يُرسل إلى ابن جامع وقد عرفتم مَوْقِعَه مني؟ فقال الفضل بن الربيع: هو والله عندي يا أمير المؤمنين وأحضره إليه. فوَصَل الفضلَ في تلك الليلة بعشرة آلاف دينار وولّاه حِجابتَه.

---

(١) التكملة عن الأغاني.

(٢) في الأصول: «مرسا» والتصويب عن الأغاني (ج ٦ ص ٢٩١ طبع دار الكتب المصرية).
والمريسيّ: نسبة الى مريس وهي أدنى بلاد النوبة التي تلي أرض أسوان، وهي معروفة بجودة الحمير.

وحُكى أنه دخل على الهادى فغنّاه فلم يُعجبه ؛ فقال له الفضلُ : تركتَ الخفيفَ وغنّيتَ الثقيل . قال : فأَدْخِلنى عليه أُخرى فأدخله ؛ فغنّاه الخفيفَ ، فأعطاه ثلاثين ألف دينار . قال أحمد بن يحيى المكىّ : كان آبن جامع أحسنَ ما يكون غناءً إذا حزِن . وأحبّ الرشيدُ أن يَسمع ذلك ، فقال للفضل بن الربيع : ابْعَثْ بخريطة فيها نَعْىُ أمّ آبن جامع — وكان بَرًّا بأمّه — ففعل . فقال الرشيد : يآبن جامع ، فى هذه الخريطة نَعْىُ أمّك ؛ فآندفع آبن جامع يغنّى بتلك الحُرْقة والحزنِ الذى فى قلبه :

كم بالدروب وأرضِ السِّنْدمن قَدَم (١) * ومن جَماجِم صَرْعى ما بها قُبِروا
بُقَنْدهارَ (٢) ومن تُكْتَبْ منيّتُه * بُقَنْدهارَ يُرَجَّمْ دونه الخبرُ

قال : فوالله ما ملكنا أنفسنا ، ورأيت الغلمانَ يضربون برءوسهم الحيطانَ والأساطين ، وأمر له الرشيدُ بعشرة آلاف دينار .

وروى أبو الفرج بسنده إلى عبد الله بن علىّ بن عيسى بن مَاهَان قال : سمعتُ يزيد يحدِّث عن أمّ جعفر أنه بلغها أنّ الرشيد جالسٌ وحده وليس معه أحد من النُدماء ولا المسامرين ، فأرسلت إليه : يا أميرَ المؤمنين ، إنّى لم أَرَكَ منذ ثلاث وهذا اليومُ الرابع . فأرسل إليها : عندى آبنُ جامع . فأرسلتْ إليه : أنتَ تعلم أنى لا أتهنّأ بشرب ولا سماعٍ ولا غيرهما إلا أن تَشْرَكَنى فيه ، ما كان عليك أن أشْرَكَك فى هذا الذى أنتَ فيه ! فأرسل إليها : إنى صائرٌ إليك الساعة . ثم قام وأخذ بيد آبن جامع وقال للخادم : امضِ إليها وآعلمها أنّى قد جئت . وأقبل الرشيد ، فلما نظر

(١) فى الأغانى : « وأرض الروم » . وورد هذا البيت فى معجم البلدان لياقوت عند الكلام على « قندهار » هكذا :

كم بالجروم وأرض الهند من قدم * ومن سرابيل قتلى ليتهم قبروا

(٢) جاء فى معجم البلدان : أنها مدينة من بلاد السند أو الهند مشهورة فى الفتوح .

إلى الخدم والوصائف قد استقبلوه علم أنّها قد قامت تستقبله؛ فوجّه إليها : إن معى ابن جامع، فعدلت إلى بعض المقاصير . وجاء الرشيدُ وصيّر ابنَ جامع فى بعض المواضع التى يُسمع منه فيها، ثم أمر ابن جامع فاندفع يغنّى :

ما رَعَدَتْ رَعْدَةً ولا بَرَقَتْ * لكنها أنشئت لنا خَلِقَهْ[1]

اَلماءُ يَجْرى ولا نِظامَ له[2] * لو يجد الماءُ مَخْرَقًا خَرَقَهْ

بِتنا وباتت على نَمارِقِها * حتى بدا الصبح عينُها أرِقَهْ

أنْ قيل إن الرحيل بعد غدٍ * والدّار بعد الجميع مُفْتَرِقه

فقالت أم جعفر للرشيد : ما أحسنَ ما اشتهيتَ والله يا أمير المؤمنين ! ثم قالت لمسلم خادمها : ادْفع إلى ابن جامع بكل بيت مائة ألف درهم . فقال الرّشيد : غَلَبتِنا يابنة أبى الفضل وسبقتِينا إلى برّ ضيفنا وجليسنا . فلما خرج حمَل الرشيدُ إليها مكان كل درهم دينارا .

ذكر أخبار عمرو بن أبى الكَبَّات[3]

(١٢٥)

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو أبو عثمان، وقيل : أبو معاذ عمرو بن أبى الكَبَّات، مولى بنى جُمَح . وهو مكىٌّ مُغَنّ حسنُ الصوت، من طبقة ابن جامع وأصحابه . وفيه يقول الشاعر :

أحسنُ الناسِ فاعلموه غناءً * رجلٌ من بنى أبى الكَبَّاتِ

---

(١) يقال : نشأت لهم سحابة خلقة وخليقة أى فيها أثر المطر .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : «على نظام له» .

(٣) فى الأصول : «الكبات» بالباء الموحدة بدل النون وهكذا ورد فى هذا الفصل كله . والمثبت هنا هو ما ورد فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٦ طبع بولاق وما بعدها الى آخر الترجمة) .

قال محمد بن عبد الله بن قَرْوة : قلت لإسماعيل بن جامع يومًا : هل غلَبك أحدٌ من المغنّين قط؟ قال : نعم، كنتُ ليلة ببغداد إذ جاءنى رسولُ أمير المؤمنين هارون الرشيد فأمرنى بالرّكوب، فركِبتُ حتى صرتُ إلى الدار، فإذا أنا بالفضل بن الربيع ومعه زَلْزَل العوّاد وبَرْصوما؛ فسلّمت وجلست يسيرا . فطلع خادمٌ فقال للفضل : هل جاء؟ قال لا . قال : فابعث إليه. ولم يزل المغنّون يدخلون واحدًا واحدًا حتى كنّا ستةً أو سبعةً . ثم طلَع الخادم فقال : هل جاء ؟ فقال لا ؛ فقال : قم فابعثْ فى طلبه؛ فقام فغاب غيرَ طويلٍ فإذا هو قد جاء بعمرو بن أبى الكنّات . فسلّم وجلس إلى جَنْبى، فقال لى : مَنْ هؤلاء ؟ قلتُ: مُغَنّون، هذا «زلزلٌ» وهذا «برصوما» . فقال : لأُغَنّيَنّك غناءً يخرِق هذا السقف وتجيبه الحيطانُ . ثم طلع الخَصِىّ فدعا بكراسىّ، وخرج الجَوارى. فلما جلسن قال الخادم : شُدّوا فشدّوا عيدانَهم؛ ثم قال: يغنّى ٱبنُ جامع ، فغنّيت سبعة أو ثمانية أصوات؛ قال : ٱسكت ، وليغنّ إبراهيم الموصلىّ؛ فغنّى مثل ذلك أو دونه ثم سكتَ، وغنّى القوم كلُّهم واحدا بعد واحد حتى فَرَغوا . ثم قال لٱبن أبى الكنّات : غَنّ ؛ فقال لزلزل : شُدّ طبقتك فشَدّ ؛ ثم قال له : شُدّ فشَدّ ، ثم أخذ العودَ من يَده بجسّه حتى وقف على الموضع الذى يريده ، ثم قال : على هذا . وٱبتدأ الصوت الذى أوّلُه «ألالا» ؛ فوالله لقد خُيِّل إلىّ أن الحيطان تجاوبه؛ ثم رجّع النّغمةَ فيه؛ فطلع الخصىّ فقال : ٱسكت لا تُتِمّ الصوتَ فسكت . ثم قال : يجلس عمرو بن أبى الكنّات وينصرف سائرُ المغنّين ؛ فقمنا بأسوأ حال وأكسفِ بال ، ولا والله ما زال كلُّ واحد منّا يسأل صاحبَه عن كلّ ما يرويه من الغناء الذى أوّلُه « ألالا » طمَعًا فى أن يعرفه وأن يوافقَ غناءَه فما عرَفه منا أحدٌ . وبات عمرو عند الرشيد ليلتَه وٱنصرف من عنده بجوائز وصِلاتٍ وطُرَفٍ سنيّة .

وقال موسى بن أبى المهاجر : خرج آبن جامع وآبن أبى الكنّات حين دفع الإمامُ[1] من عرفة ، حتى إذا كانوا بين المأزِمَيْن جلس عمرو على طَرف الجبل ثم آندفع يغنّى ، فركب الناسُ بعضُهم بعضًا حتى صاحوا به وآستغاثوا : يا هذا ، اللهَ اللهَ ! أُسكُتْ عنا يَجُزِ الناسُ ؛ فضبط آبن جامع بيده على فِيه حتى مضى الناسُ إلى مُزْدَلِفة .

قال علىّ بن الجهم : حدّثنى من أثِق به قال : واقفتُ آبنَ أبى الكنّات على جسر بغداد أيام الرشيد فحدّثتُه بحديث آتّصل بى عن آبن عائشة أنه وقف فى الموسم فى أيام هشام ، فمرّ به بعضُ أصحابه فقال : ما تصنع ؟ فقال : إنى لأعرف رجلا لو تكلم لحبَس الناسَ فلم يَذْهَب منهم أحدٌ ولم يَجِئْ . فقلت له[2] : من هذا الرجل ؟ قال : أنا ، ثم آندفع فغنّى فحبَس الناسَ ، فآضطربت المحامل ومدّت الإبلُ أعناقَها . فقال آبن أبى الكنّات وكان مُعْجَبا بنفسه : أنا أفعل كما فعل وقدرتى على القلوب أكثرُ من قدرته . ثم آندفع فغنّى الصوت الذى غنّى فيه آبن عائشة ، وهو :

جَرَتْ سُنُحًا فقلت لها أَجِيزِى * نوًى مشمولةً فمتى اللّقاءُ
بنفسى مَنْ تذكّرُه سَقَامٌ * أُعالجه ومطلُبه عناءُ

قال : فغنّاه ، وكنا إذ ذاك على جسر بغداد ، وكان على دجلة ثلاثةُ جسور ، فآنقطعت الطُّرقُ وآمتلأت الجسورُ بالناس فآزدحموا عليها وآضطربت حتى خيف عليها أن تنقطع لثِقَل من عليها من الناس . فأُخِذ فأُتِى به الرشيد ، فقال له : ياعدوّ الله ، أردت أن تَفْتِن الناس ! قال : لا والله يا أمير المؤمنين ولكنّه بلغنى أن آبن عائشة فعل مثل هذا فى أيام هشام ، فأحببتُ أن يكون فى أيامك مثله . فأعجبه ذلك ،

(١) فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٧ طبع بولاق) : « حين دفعا من عرفة حتى اذا كانا » .

(٢) كذا فى الأصل والأغانى . وكان مقتضى السياق أن يكون : « فقال له » : اذ مرجع الضمير بعض أصحابه الذى مرّ به .

وأمر له بمال وأمره أن يغنّى فغنّى؛ فسمع شيئا لم يَسْمَع مثله، فآحتبسه عنده شهرا يَستزيده، وكلّ يوم يُستأذَن له فى الآنصراف فلا يأذَن له حتى تمّم شهرا، وآنصرف بأموال جسيمة.

وقال عثمان بن موسى: كنّا على شَراب يوما ومعنا عمرو بن أبى الكنّات إذ قال لنا قبل طلوع الشمس: مَنْ تحبّون أن يَجيئكم؟ قلنا: منصور الحَجَبىّ. فقال: أمهلوا حتى يكون الوقتُ الذى يَنْحدِر فيه إلى سوق البقر. فمكثنا ساعةً ثم آندفع يغنّى:

أحسنُ الناسِ فآعلموه غِناءً * رجلٌ من بنى أبى الكنّاتِ
عَفَتِ الدّارُ فالهِضابُ اللّواتى * بين (١) ثَوْرٍ فملتقى عَرَفاتِ

فلم نلبث أن رأينا منصوراً من بُعْد قد أقبل يركُضُ دابّته نحونا. فلما جلس إلينا قلت له: من أين علِمتَ بنا؟ قال: سمعتُ صوت عمرو وأنا فى سوق البقر، فخرجت أركض دابّتى حتى صِرتُ إليكم. قال: وبيننا وبين ذلك الموضع ثلاثةُ أميال. (١٢٦)

وقال يحيى بن يَعْلَى بن سعيد: بينا أنا ليلةً فى منزلى فى الرَّمْضَة بأسفل مكة، إذ سمعتُ صوت عمرو بن أبى الكنّات كأنّه معى، فأمرتُ الغلامَ فأسرج لى دابّتى وخرجت أُريده، فلم أزل أتبع الصوتَ حتى وجدتُه جالسًا على الكثيب العارِض ببطن عرفة يغنّى:

خُذِى العَفْوَ منّى تَسْتديمى مَوَدّتى * ولا تَنْطِقى فى سَوْرتى حين أغضَبُ

(١) فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٧ طبع بولاق): * بسوار فملتقى عرفات *

وثور: جبل بمكة فيه الغار الذى اختفى فيه النبى صلى الله عليه وسلم. وأما سوار فمن قرى البحرين. (انظر ياقوت ج ١ ص ٩٣٨ وج ٣ ص ١٨٠).

ولا تَنْقُرِينِي نَقْـــرةَ الدَّفّ مرّةً * فإنّك لا تَدْرين كيف المُغَيَّبُ
فإنى رأيتُ الحبَّ فى الصدر والأذى * إذا آجتمعا لم يَلْبِثِ الحب يذهب

ذكر أخبـار أبى المُهَنَّا مُخارِق

هو أبو المُهَنَّا مخارِق بن يحيى بن ناووس الجزّار مولى الرشـيد . وقيـل : بل ناووس لقبُ أبيه يحيى ؛ وإنما لُقّب بناووس لأنه بايع رجلا أنه يمضى إلى ناووس الكوفة فيطبخ فيه قِدْرا بالليل حتى تَنْضَجَ ، فطرح رهنَه بذلك ؛ فدسّ الرجل الذى راهنَه رجلا فألقى نفسَه فى الناووس بين الموتى . فلما فرغ ناووس من الطبخ مدّ الرجلُ يدَه من بين الموتى وقال له : أطْعِمنى ؛ فغرف بالمِغرفة من المَرَق وصبّها فى يد الرجل فأحرقها وضربها بالمغرفة وقال له : اصْبِر حتى نُطْعِمَ الأحياء أوّلا ثم نتفرّغ للموتى ؛ فلُقّب ناووسًا لذلك .

قال : وكان مخارقٌ لعاتكة بنت شهدة ، وهى من المغنّيات المُحْسنات المتقدّمات فى الضرب . نشأ مخارِقٌ بالمدينة ؛ وقيل : كان منشؤه بالكوفة . وكان أبوه جزّارًا مملوكا ، وكان مخارقٌ وهو صبىّ ينادى على ما يبيعه أبوه من اللحم . فلما بان طِيبُ صوته علّمته مولاتُه طَرَفًا من الغناء ، ثم أرادت بيعَه ، فآشتراه إبراهيم الموصلىّ منها وأهداه للفضل بن يحيى ، فأخذه الرشيد منه ثم أعتقه . وقيل : آشتراه إبراهيم من مولاته بثلاثين ألف درهم وزادها ثلاثة آلاف درهم . قال : ولما آشتراه قال له الفضل بن يحيى : ما خبرُ غلام بَلَغنى أنك آشتريتَه ؟ فقال : هو ما بَلَغك . قال : فأَرِنيه ، فأحضره ، فغنّى بين يديه ؛ فقال له : ما أرى فيه الذى رأيتَ . قال : تريد أن يكون فى الغناء مثلى فى ساعةٍ واحدةٍ ! فقال : بكم تَبِيعُه ؟ قال : آشتريتُه بثلاثين ألف درهم ، وهو حرّ لوجه الله تعالى إن بعتُه إلا بثلاثة وثلاثين ألف دينار . فغضِب

الفضـل وقال : إنمـا أردتَ ألّا تبيعَه أو تجعلَه سببا لأن تأخذ منّى ثلاثة وثلاثين ألف دينار . فقال إبراهيم : أنا أصـنع بك خَصْلة واحدة ، أبيعك نصفه بنصف هذا المـال وأكوْن شريكَك فى نصفه [وأُعلّمه](١) ، فإن أعجبك إذا علمتُه أتممتَ لى باقى المـال و إلا بعتُه بعدُ ، وكان الرِّبحُ بينى و بينك . فقال الفضلُ : إنمـا أردتَ أن تأخذ منّى المـالَ الذى قدّمتَ ذكرَه ، فلما لم تَقْـدِرْ على ذلك أردتَ أن تأخذ نصفَه ، وغضِب . فقال إبراهيم له : فأنا أَهَبُه لك على أنه يساوى ثلاثة وثلاثين ألف دينار ، قال : قد قبلتُه ، قال : وقد وهبتُه لك . وغدا إبراهيم على الرشيد ، فقال له : يا إبراهيم ، ما غلامٌ بلغنى أنك وهبتَه للفضل ؟ قال : غلام يا أمير المؤمنين لم تَمْلِك العربُ ولا العجمُ مثـلَه ، ولا يكون مثلُه أبدا . قال : فوجّه إلى الفضـل بأمره بإحضاره . فوجّه به إليه ، فغنّى بين يديه ، فقال له : كم يُساوِى ؟ قال إبراهيم : يساوى خراجَ مصر وضِياعَها . قال : ويحك ! أتدرى ما تقول ! مبلغُ هذا المـال كذا وكذا ! قال : وما مِقدارُ هذا المـال فى غلام لم يَمْلِك أحدٌ مثلَه قطُّ ! قال : فالتفت الرشيدُ إلى مسرور الكبير وقال : قد عرفتَ يمينى أنى لا أسأل أحدًا من البرامكة شيئا . فقال مسرور : فأنا أمضى إلى الفضل فأستَوْهِبه منه ، فإذا كان عندى فهو عندك . فقال له : شأنَك . فمضى مسرور إلى الفضل وآستوهَبه منه ، فوهَبه له . وقيل : بل إبراهيمُ هو الذى أهداه للرشيد ، فأمره الرشـيدُ بتعليمه فعلّمه حتى بَلَغ ما بلَغه . قال : وكان مخارقٌ يقف بين يدَى الرشيد مع الغِلمان لا يجلس ويغنّى وهو واقف . فغنّى ابنُ جامع ذاتَ يوم بين يدى الرشيد :

كأنّ نِيرانَنا(٢) فى جَنْبِ قَلْعتِهم * مُصَبَّغاتٌ على أرْسانِ قَصّار(٣)

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٢) . (٢) فى الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٣) : «نيرانها» . (٣) القصار (كالقصر) : المحور للثياب .

هَوَتْ هِرَقْلةُ لمّا أن رأتْ عجبًا * جوائمًا[1] تَرْتمى بالنِّقط والنّار

فطرِب الرشيد واستعاده مرارًا ؛ وهو شعر مُدِح به الرشيدُ فى فتح هِرَقْلة . فأقبل الرشيد على آبن جامع دون غيره . فغمز مخارِقٌ إبراهيمَ بعينه وتقدّمه إلى الخلاء، فلما جاء قال له : مالى أراك مُنكسِرًا ؟ فقال له : أمَا ترى إقبالَ أمير المؤمنين على آبن (١٢٧) جامع بسبب هذا الصوت ! فقال مخارِقٌ : قد والله أخذتُه . فقال : ويحك ! إنه الرشيد ، وآبنُ جامعٍ من تَعْلَم ، ولا يُمكن معارضته إلا بما يزيد على غنائه وإلا فهو الموت ! فقال : دعنى وخَلاك ذَمٌّ ، وعَرِّفْه أنى أُغَنّى به ، فإن أحسنتُ فإليك يُنْسَب ، وإن أسأتُ فإلىّ يعود . فقال إبراهيم للرشيد : يا أمير المؤمنين ، أراك مُتَعَجّبًا من هذا الصوت بغير ما يستحقّه وأكثر مما يستوجبه ! فقال : لقد أحسن فيه آبن جامع ما شاء . قال : أَوَ لآبنِ جامع هو ؟ قال : نعم ، كذا ذكَر . قال : فإنّ عبدَك مخارقًا يغنّيه . فنظر إلى مخارق ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : هاتِه ، فغنّاه وتحفّظ فيه فأتى بالعجائب ، وطرِب الرشيدُ حتى كاد يطير ، ثم أقبل على آبن جامع فقال : ويلك ! ما هذا ؟ فآبتدأ يحلِف بالطلاق وكلِّ مُحْرِجة أنه لم يسمع ذلك الصوتَ قطّ من غيره وأنه صنعه وأنها حيلةٌ جَرَتْ عليه . فأقبل على إبراهيم وقال : أُصْدُقْنى بحياتى ، فصدَقه عن قصّة مخارق . فقال لمخارق : اجلس إذًا مع أصحابك ، فقد تجاوزتَ مرتبةَ من يقوم . وأعتقه ووصلَه بثلاثة آلاف دينار وأقطعه ضَيْعةً ومنزلا .

وقد روى أبو الفرج الأصفهانىّ عن هارون بن مخارق ، قال : كان أبى إذا غنّى هذا الصوت :

يارَبْع سلمى لقد هيَّجْتَ لى طَرَبا * زدتَ الفؤادَ على عِلّاته وَصَبا

رَبْعٌ تبدّل ممن كان يسكنه * عُفْرَ الظباء وظُلمانًا به عُصَبا

(١) فى الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٣) : «حوائما» .

يبكى ويقول : أنا مولى هذا الصوت . فقلت له : كيف يا أبتِ؟ فقال : غنّيته مولاى الرشيد ، فبكى وشرب عليه رطلا ثم قال : أحسنتَ يا مخارق ! فسَلْنى حاجتَك؛ فقلت : تُعْتِقُنى يا أمير المؤمنين أعتَقَك الله من النار؛ فقال : أنت حرٌّ لوجه الله تعالى، فأعِدِ الصوتَ فأعدتُه؛ فبكى وشرب رطلا، ثم قال : أحسنتَ يا مخارق! فسلنى حاجتَك؛ فقلتُ : ضَيْعَةٌ تُقيمنى غَلّتُها[1]؛ فقال : قد أمرتُ لك بها، أعِدِ الصوتَ فأعدتُه ؛ فبكى وقال : سل حاجتَك ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين، تأمر لى بمنزل وفرس وخادم؛ فقال: ذلك لك، أعِدِ الصوت فأعدتُه ؛فبكى وقال: سل حاجتَك؛ فقبّلتُ الأرضَ بين يديه وقلت : حاجتى أن يُطيل اللهُ بقاءَك ويُديم عزَّك ويجعلنى من كل سوءٍ فداءك؛ فأنا مولى هذا الصوت بعد مولاى .

ويُروى أيضا عن الحسين بن الضحّاك عن مُخارق أنّ الرشيد قال يوما للمغنّين وهو مصطبح : مَن منكم يغنّى :

* ياربعَ سَلْمَى لقد هيّجْت لى طربا *

فقمتُ وقلت: أنا يا أمير المؤمنين . فقال : هاتِه؛ فغنّيتُه فطرِب وشرب ثم قال : علىّ بِهَرْثَمَةَ؛ فقلت فى نفسى : ماذا يريد منه! بجاء هرثمةُ فقال له : مخارق الشّارىّ الذى قتلناه بنواحى المَوْصِل ما كانت كنيتُه؟ فقال : أبو المُهَنّا؛ فقال : انصرِفْ فانصرف؛ ثم أقبل الرشيد علىّ فقال : قد كنّيتُك أبا المهنّا لإحسانك ؛ وأمر لى بمائة ألف درهم؛ فانصرفتُ بها وبالكُنْية .

قال أبو عبد الله بن حمدون : كنّا عند الواثق وأمّه عليلةٌ. فلما صلّى المغربَ دخل إليها وأمر ألا نبرح، فجلسنا فى صَحْن الدار ، وكانت ليلةً مقمِرةً وأبطأ الواثقُ علينا ؛ فاندفع مخارق يغنّى، فاجتمع علينا الغِلْمان، وخرج الواثقُ فصاح : يا غلام، فلم يُجِبْه

(١) كذا فى الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٤) . وفى الأصل : «عليها» وهو تصحيف .

أحد، ومشى فى المجلس الى أن توسّط الدار؛ فلما رأيتُه بادرتُ إليه؛ فقال لى : ويلك ! هل حدَث فى دارى شىءٌ؟ فقلتُ : لا ياسيِّدى . قال : فما بالى أُصيح فلا أُجاب ؟ فقلت : مخارق يغنّى والغِلْمان قد آجتمعوا اليه فليس فيهم فَضْلٌ لسماع غير ما يسمعونه . فقال : عذرٌ والله لهم يآبن حمدون وأىّ عذر! ثم جلس وجلسنا بين يديه الى السَّحَر . وقد رُوى نحو هـذه الحكاية فى أمر الغِلْمان مع مخارق عند المعتصم . وقال محمد بن عبد الملك الزيّات : قال لى الواثق : ما غنّانى مخارق قط إلا قَدّرت أنه من قلبى خُلِق . وكان يقول : أتُريدون أن تنظروا فضلَ مخارق على جميع أصحابه؟ أُنظروا الى هؤلاء الغِلْمان الذين يقفون فى السِّماط، فكانوا يتفقّدونهم وهم وقوفٌ فكلّهم يسمع الغناء من المغنّين جميعا وهو واقفٌ مكانه ضابطٌ لنفسه، فاذا تغنّى مخارق خرجوا عن صُوَرِهم فتحرّكت أرجلُهم ومناكبهُم و بانت أسبابُ الطرب فيهم، وآزدحموا على الحبل الذى يقفون من ورائه .

وحكى أنّه خرج مرّة الى باب الكُناسة بمدينة السلام والناسُ يرحلون الى مكة؛ فنظر إلى كثرتهم وآزدحامهم ، فقال لأصحابه الذين معه : قد جاء فى الخبر أنّ آبن سريج كان يغنّى فى أيام الحجّ والناسُ يمشون فيستوقفهم بغنائه، وسأستوقف لكم هؤلاء الناس وأستلهيهم جميعًا لتعلموا أنّه لم يكن لِيَفْضُلَنى إلّا بصنعته دون صوته؛ ثم اندفع يؤدّن، فآستوقف أولئك الخلقَ واستلهاهم، حتى جعلت المحامِلُ يَغْشَى بعضُها بعضًا .

قالوا : وجاء أبو العتاهية الى باب مخارق وطَرَقه فخرج اليه؛ فقال له : ياحُسّان هذا الإقليم، ياحكيمَ أرض بابل، أُصْبُبْ فى أذنى شيئا يفرَح به قلبى وتتنعّم به نفسى — وكان فى جماعة منهم محمد بن سعيد اليَزيدىّ — فقال : أنزِلوا ، فنزلوا ، فغنّاهم . (١٢٨) فقال محمد بن سعيد : فكدتُ أسعى على وجهى طربًا . قال : وجعل أبو العتاهية

يبكى، ثم قال : يادواءَ المجانين، لقد رقَقْتَ حتى كِدتُ أن أحْسُوَك، فلوكان الغناء طعامًا لكان غناؤك أُدْما، ولو كان شرابًا لكان ماءَ الحياة .

وقال أبو الفرج عن عمر بن شبّة قال : حدّثنى بعض آل نُوبَخْت قال : كان أبى وعبد الله بن أبى سهل وجماعةٌ من آل نوبخت وغيرُهم وقوفا بكُناسة الدوابّ فى الجانب الغربىّ ببغداد يتحدّثون، وإنهم لكذلك إذ أقبل مخارقٌ على حمار أسود وعليه قميصٌ رقيقٌ وردأٌ مُسَهَّم، فقال : فيم كنتم ؟ فأخبروه. فقال : دعونا من وَسْواسِكم هذا، أىُّ شىء لى عليكم إن رميتُ بنفسى بين قبرين من هذه القبور وغطّيتُ وجهى وغنّيت صوتا فلم يَبْقَ أحد بهذه الكُناسة ولا فى الطريق من مُشْتَرٍ ولا بائع ولا صادرٍ ولاوارد إلا ترك عملَه وقَرُب منّى واتّبع صوتى؟ فقال عبد الله : إنى لأُحِبّ أن أرى هذا ، فقل ماشئتَ. فقال مخارق : فرسَك الأشقرَ الذى طلبتُه منك فمنعتنيه. قال : هو لك إن فعلتَ ماقلتَ . قال : فرمى بنفسه بين قبرين وتغطّى بردائه، ثم اندفع يغنّى بشعر أبى العتاهية :

نادَتْ بوَشْكِ رحيلِكَ الأيّامُ * أفلستَ تسمَعُ أم بك اسْتِصْمامُ
ومضى أمامك مَنْ رأيتَ وأنتَ للـ * ـباقين حتى يلحقوك أمامُ
مالى أراك كأنّ عَيْنَك لا تَرى * عِبَرًا تمرّ كأنهنّ سِهام
تمضى الخطوبُ وأنتَ منتبهٌ لها * فإذا مضت فكأنها أحلامُ

قال : فرأيتُ الناس يأتون إلى المَقْبُرة أرسالا بين راكبٍ وراجل وصاحب شغل ومارّ فى الطريق حتى لم يَبْقَ أحد. ثم قال لنا من تحت ردائه : هل بقى أحدٌ؟ قلنا : لا، وقد وجَب الرّهن . فقام فركِب حماره، وعاد الناسُ إلى صنائعهم، وقال لعبد الله : أحضِر الفرس، قال : على أن تُقيم عندى، قال نعم ! فسلّم الفرس إليه وبرّه وأحسن رِفْدَه .

ورُوِى عن يحيى المكىّ قال: خرج مخارِقٌ مع بعض إخوانه إلى بعض المُتنزَّهات، فنظر إلى قوس مُذْهَبة مع بعض من خرج معـه، فسأله إيّاها، وكان المسئولُ ضَنّ بها، وسنحت ظِباءٌ بالقرب منه، فقال لصاحب القوس: أرأيتَ إن تغنّيتُ صوتا فعطَفتْ علىّ به خدودُ هـذه الظباء أتدفع إلىّ القوسَ؟ قال نعم! فاندفع يغـنّى:

ماذا تقول الظبـاءُ * أفُـرْقَةٌ أم لِقاءُ
أم عهدُها بسُلَيْمَى * وفى البيـان شِـفاء
مرّت بناسانِحاتٍ * وقد دنا الإمساءُ
فـما أحارَتْ جوابا * وطال فيهـا العَناءُ

قال: فعطَفتِ الظباءُ راجعةً إليـه حتى وقفت بالقرب منـه تُنظر إليه مُصْغِيةً إلى صوته. فعجِب من حضَر من رجوعها ووقوفها، وناولَه الرجلُ القوسَ، فأخذها وقطع الغناء [فعاودت الظباء نِفارَها ومضت راجعةً على سَنَنِها][1].

ورُوِى عن إسحـاق بن إبراهيم قال: دخلت على أبى وهو جالسٌ بين بابين له ومخارقٌ بين يديه وهو يغنّيه:

يا ربعَ بِشْرةَ إن أضرّبك البِلَى * فلقد رأيتُـك آهِلًا معمورا

قال: فرأيتُ أبى ودموعُه تجرى على خدّيه من أربعةِ أماكن وهو يَنْشِج أحرَّ نشِيج. فلمـا رآنى قال: يا إسحاق، هذا والله صاحبُ اللّواء غدًا إن مات أبوك.

ورُوى عن مخارق قال: رأيتُ وأنا حَدَثٌ كأنّ شيخا جالسا على سرير فى روضة حسنة، فدعانى فقال لى: غنِّى يامخارق، فقلت: أصوتًا تقترحه أو ماحضَر؟ فقال: ماحضَر. فغنّيتُه:

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ٢٣٧).

دَعِي القلبَ لا يَزْدَدْ خَبالًا مع الذى * به منكِ أو داوِى جَوَاهُ المُكَتَّمَا

وليس بترويق اللسان وصَوْغه * ولكنّه قد خالط اللحمَ والدَّما

فقال لى : أحسنتَ يا مخارق ! ثم أخذ وترًا من أوتار العود فلفّه على المِضْراب ودفعه الىّ ، فجعل المِضرابُ يطول و يغلُظ والوتر ينتشر و يَعْرُض حتى صار المِضرابُ كالرمح والوتر كالعَذَبة [عليه](١) وصار فى يدى علماً ، ثم انتبهت فحدّثت برؤياى إبراهيم الموصلىّ ؛ فقال لى : الشيخ بلا شك إبليسُ ، وقد عقد لواء صنعتك فأنتَ ما حييتَ رئيسُ أهلها .

وقال أحمد بن حمدون : غضِب المعتصمُ على مخارق فأمر أن يُجْعَل فى المؤذّنين ويَلْزمهم ففُعل ذلك ؛ وأمْهل حتى علِم أن المعتصم يشرب ، فأذّنت العصر ، فدخل الى السِّتر حيث يقف المؤذّنُ للسلام ، ثم رفع صوته جهدَه وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين و رحمةُ الله و بركاته ، الصلاةَ يرحمك الله . فبكى حتى جرت دموعُه وبكى كلُّ من حضر ، ثم قال : أدْخِلوه علىّ وأقبل علينا ؛ ثم قال : سمعتم هكذا قط ! هذا الشيطانُ لا يترك أحدًا يغضب عليه ! . فدخل اليه فقبّل الأرض بين يديه ؛ فدعاه المعتصم اليه فأعطاه يدَه فقبّلها وأمَره بإحضار عوده فأحْضره ، وأعاده الى مَرْتَبته .

وأخباره كثيرة ، وفيما أوردناه منها كفاية . وكانت وفاتُه فى أوّل خلافة المتوكّل ؛ وقيل : بل فى آخر خلافة الواثق . وغنّى خمسةً من الخلفاء : الرشيدَ والأمينَ والمأمونَ والمعتصمَ والواثقَ . رحمهم الله تعالى .

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ٢٣٣) .

(١٢٩) ذكر أخبار يحيى بن مَرْزوق المَكّىّ

هو أبو عثمان يحيى بن مرزوق المكىّ، مولى بنى أميَّة، وكان يكتُم ذلك لخدمته للخلفاء من بنى العبّاس؛ وكان إذا سُئِل عن ولائه آنتمى الى قريش، ولم يذكر البطنَ الذى ولاؤُه له، ويَستعفِى من يسأله عن ذلك .

قال الأصفهانىّ :

وعُمِّر يحيى المكىّ مائة وعشرين سنة، وأصاب بالغناء مالم يُصِبْه أحدٌ من نظرائه ومات وهو صحيحُ العقل والسمع والبصر . وكان قدِم مع الحجازيّين الذين قدِموا على المهدىّ فى أوّل خلافته فبَقِى بالعراق . وكان آبن جامع و إبراهيم الموصلىّ وفُلَيْح يفزَعون اليه فى الغناء القديم فيأخذونه عنه، ويُعَابِى بعضُهم بعضا بما يأخذونه منه . فإذا خرجت لهم الجوائزُ أحْذَوْه[1] منها ووفّروا نصيبَه . وله صنعة عجيبةٌ نادرة متقدِّمة . قال : وله كتاب فى الأغانى ونِسَبها وأجناسها كبير جليل مشهور، إلّا أنّه كالمطروح عند الرواة لكثرة تخليطه فى رواياته؛ والعمل على كتاب آبنه أحمد، فإنه صحّح كثيرا مما أفسده وأزال ماعرفه من تخاليط أبيه، وحقّق مانسبه من الأغانى الى صانعه . قال : وهو يشتمل على نحو ثلاثة آلاف صوت .

قال أحمد بن سعيد :

كانت صنعةُ يحيى ثلاثةَ آلاف صوت، منها زُهاءَ ألف صوت لم يُقارِبْه فيها أحدٌ . وسُئِل آبنه أحمد عن صنعة أبيه فقال : الذى صحّ عندى منها ألفُ صوت وثلثمائة صوت، منها مائة وسبعون صوتا، غَلَب[2] فيها على الناس جميعا من تقدّم منهم و[من][3] تأخّر، فلم يَقُم له أحد فيها .

---

(١) أحذاه : أعطاه مما أصاب من غنيمة أو جائزة . (٢) فى الأصل : «خطب»، والتصويب عن الأغانى (ج ٦ ص ١٧٨) . (٣) الزيادة عن الأغانى .

قال أحمد بن يحيى قال لى إسحاق : يا أبا جعفر لأبيك مائة وسبعون صوتًا من أخذها عنه بمائة وسبعين ألف درهم فهو الرّابح . والله أعلم .

ذكر أخبار أحمد بن يحيى المكىّ المُلقّب بطَنِين[1]

هو أبو جعفر أحمد بن يحيى المكىّ، وكان يُلقّب طنينا[1] . وهو أحد المحسنين المُبَرِّزين الرّواةِ للغناء المُحْكِمِى الصنعة . كان إسحاقُ يقدّمه ويُؤْثِره ويَشْدُو[2] بذكره ويَجْهَر بتفضيله .

قال أبو الفرج : وكتابُه المجرَّد فى الأغانى ونِسَبها أصلٌ من الأصول المعوّل عليها . قال : وكان مع جودة غنائه وحسنِ صنعته أحدَ الضَّرّاب الموصوفين المتقدّمين .

قال علىّ بن يحيى : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلىّ — وقد جرى ذكر أحمد ابن يحيى المكىّ — : ياأبا محمد لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى مملوكًا كم كان يُساوِى؟ قال : أخبرك عن ذلك، انصرفتُ ليلةً من دار الواثق فآجتزتُ بدار الحسن بن وهب فدخلتُ اليه فإذا أحمدُ عنده . فلما قاموا لصلاة العِشاء الآخرةِ قال لى الحسن بن وهب : كم يُساوى أحمد لو كان مملوكًا؟ قلت : يساوى عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع فغنّى صوتًا، فقال لى الحسن : كم يساوى أحمد لو كان مملوكًا؟ قلتُ : يساوى ثلاثين ألف دينار . ثم تغنّى صوتا آخر، فقلت للحسن : يا أبا علىّ أضعفها . ثم أردتُ الآنصرافَ فقلت لأحمد : غنِّنى

لولا الحياءُ وأنّ السِّتْرَ[3] من خُلُقى * إذًا قعدتُ إليك الدهرَ لم أَقُمِ

(١) فى الأغانى (ج ١٥ ص ٦٥ طبع بولاق) : « ظنين » بالظاء المعجمة .

(٢) الذى فى الأغانى : « ويشيد » .

(٣) الذى فى الأغانى (ج ١٥ ص ٦٥ طبع بولاق) : « السير » .

أليس عنـدك سكرٌ[1] للتى جعلتْ * ما أبيضّ من قادمات الرأس كالحُمَمِ

فغنّاه فأحسن فيه كلّ الإحسان . فلما قمتُ للانصراف قلتُ : يا أبا علىّ، أضْعِف الجميع . فقال له أحمد : ما هذا الذى أسمعكما تقولانه ولستُ أدرى ما معناه؟ فقال : نحن نَبيعك ونَشتريك منذ الليلة وأنتَ لا تدرى . وقال محمد بن عبد الله بن مالك : سألنى إسحاقُ بن إبراهيم الموصلىّ يوما : مَنْ بَقِى من المغنّين؟ قلت : وجْهُ القَرْعة محمد بن عيسى . فقال : صالح كَيْسٌ ؛ ومَنْ أيضا ؟ قلت : أحمد بن يحيى المكىّ . قال : بَخٍ بَخٍ ! ذاك المحسنُ المُجْمِل الضارب المغنّى ، القائمُ بمجلسه لا يُخْوِج أهلَ المجلس الى غيره . وكانت وفاتُه فى أوّل خلافة المستعين .

ذكر أخبار هاشم بن سليمان مولى بنى أميّة

يُكْنَى أبا العباس . وكان موسى الهادى يسمّيه أبا الغريض . قال أبو الفرج : وهو حسنُ الصنعة غزيرُها ؛ وفيه يقول الشاعر :

يا وَحْشتى بعـدك يا هاشمُ * غِبتَ فشَجْوِى بكَ لِى لازِمُ[2]

اللّهـوُ واللّـذّةُ يا هاشم * ما لم تكن حاضرَهُ ماتَمُ

وقال الأصبهانىّ بسند رفعه إلى هاشم :

أصبح موسى أمير المؤمنين يوما وعنده جماعةٌ فقال : يا هاشمُ غنّنى :

* أبَهارُ قد هيّجتِ لى أوجاعا *

فإن أصبتَ مرادى فيه فلك حاجةٌ مقضية . قال : فغنّيتُه، وهو :

أبَهارُ قـد هيّجتِ لى أوجاعا * وتركتِنى عبـدًا لكم مِطْـواعا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « شكر » .

(٢) فى الأغانى (ج ١٤ ص ٤٤ طبع بولاق) : « دائم » .

بحديثك الحسن الذى لو كُلِّمتْ * وحشُ الفلاة به لحثَّ سِراعا
وإذا مررتُ على البَهارِ مُنَضَّدًا * فى السوق هيّج لى إليك نِزاعا
والله لو علِمِ البهارُ بأنها * أضحتْ سميَّته لصار ذراعا

فقال : أصبتَ وأحسنتَ ، سَلْ حاجَتك ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، تأمر بأن يُملأ هذا الكانون دراهم — وكان بين يدَيه كانون عظيم — فأمر به فمُلِئ فوسِع ثلاثين ألف درهم . فلمّا حصّلتُها قال لى : يا ناقص الهمة ، والله لو سألتَ أن أملأه لك دنانير لفعلتُ . فقلت : أقِلْنى يا أمير المؤمنين . قال : لا سبيلَ الى ذلك ولم يُسْعِدك الجَدّ به . وقد رُوِيتْ هذه الحكايةُ فى موضع آخر ، وذُكِر أنّ الذى غنّاه غيرُ هذا الشعر ، وأن الكانون وَسِع ستّ بِدَر ، فدفعها اليه . (١٣٠)

ذكر أخبار يزيد حَوْراء

هو رجل من أهل المدينة من موالى بنى ليث بن بكر بن عبد مَنَاة بن كِنانة ؛ ويُكْنى أبا خالد . مُغنّ محسنٌ كثيرُ الصنعة ، من طبقة ابن جامع وإبراهيم الموصلىّ . وكان ممن قدِم على المهدىّ فى خلافته فغنّاه . وكان حسنَ الصوت حلوَ الشمائل . فحسده إبراهيمُ الموصلىّ على شمائله وإشاراته فى الغناء ، فاشترى عدّة جوار وشاركه [فيهنّ](١) ، وقال له : علِّمهنّ ، فما رزق اللهُ تعالى من ربح فيهنّ فهو بيننا . وأمرهنّ أن يَجْعلن وَكْدَهنّ(٢) أخذَ إشاراته ففعلن ذلك . فكان إبراهيم يأخذها عنهنّ هو وابنُه ويأمرهنّ بتعليم كل من يعرِفنه ذلك حتى شهَرها فى الناس ، فأبْطَل عليه ما كان منفرِدًا به من ذلك .

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٣ ص ٢٥١ طبع دار الكتب المصرية) .
(٢) الوكد : الهم والقصد .

قال عبد الله بن العباس الرَّبيعيّ :

كان يزيد حَوْراء نظيفًا ظريفًا حسنَ الوجه شَكِلًا ، لم يقـدَم علينا من الحجاز أنظفُ منه ولا أشكلُ ، وما كنتَ تَشاءُ أن ترى خَصْلةً جميلة لا تَراها فى أحد منهم إلا رأيتَها فيه . وكان يتعصّب لإبراهيم الموصلىّ على آبن جامع ، فكان إبراهيمُ يرفع منه ويُشيع ذكره بالجميل و ينبِّه على مواضع تقدُّمه [و إحسانه](١)، ويبعث بآبنه إسحاق [إليه](١) يأخذ عنه .

وحكى أبو الفرج بسَنَدٍ رفعه الى يزيد حوراء قال :

كلّمنى أبو العتاهية فى أن أكلّم المهدى فى عُتْبَة، فقلت : إن الكلام لا يُمكننى، ولكن قل شعرًا أُغنّيه به، فقال :

نفسى بشىء من الدنيا معلّقةٌ * اَللهُ والقـائمُ المهـدىُّ يكفيها
إنى لَأيأسُ منهـا ثم يُطْمِعُنِى * فيها آحتقارُك للدّنيا وما فيها

قال : فعملتُ فيـه لحنًا وغنّيتُـه . فقال : ما هـذا ؟ فأخبرتُه خبر أبى العتاهية، فقال : ننظرُ فيما سأل، فأخبرتُ بذلك أبا العتاهية . ثم مضى شهر فجاءنى فقال : هل حدَث خبرٌ ؟ قلت لا . قال : فآذْكُرْنى للمهدىّ . فقلتُ : إن أحببتَ ذلك فقل شعرا تحرِّكه به وتذكّره وعدَه حتى أغنّيه به، فقال :

ليتَ شعرى ما عندكم ليتَ شعرى * فلقـد أُخّر الجـوابُ لأمْرِ
ما جوابٌ أولى بكل جميلٍ * مِن جـوابٍ يُرَدّ مِن بعـد شهر

قال يزيد : فغنّيت المهدىّ، فقال : علىّ بعتبة فأحضرت، فقال : إن أبا العتاهية كلّمنى فيك، فما تقولين ولك عندى وله ما تُحبّان ممـا [لا](١) تبلُغه أمانيكما ؟ فقالت :

(١) الزيادة عن الأغانى .

قد علِم أميرُ المؤمنين ما أوجب الله عليّ من حقّ مولاتى، وأريد أن أذكر هذا لها . قال : فافعلى . قال : فأعلمتُ أبا العتاهية . ومضت أيام فسألنى معاودةَ المهدىّ؛ فقلتُ : قد عرفتَ الطريق، فقل ما شئتَ حتى أغنّيه به؛ فقال :

أَشْرَبْتُ قلبى مِن رجائك ما له * عَنَقٌ يُحِبّ إليك بى ورَسِيم
وأَمَلْتُ نحو سماء جَوْدك ناظرى * أَرْعَى مخايِلَ بَرْقِها[1] وأَشِيم
ولقد تنسّمتُ الرّياحَ لحاجتى * فإذا لها مِن راحتيك نَسِيم
ولربما آستيأستُ ثم أقول لا * إن الذى وعدَ النّجاحَ كريم

قال يزيد : فغنّيتُه الشعر، فقال : علىّ بعتبة فجاءت؛ فقال : ما صنعت؟ فقالت : ذكرتُ ذلك لمولاتى فكرِهَتْه وأبتْ أن تفعل، فليفعل أميرُ المؤمنين ما يريد . قال : ما كنتُ لأفعل شيئا تكرهه . فأعلمتُ أبا العتاهية بذلك، فقال :

قطّعتُ منك حبائلَ الآمالِ * وأرَحْتُ مِن حِلّ ومن تَرْحالِ
ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلى * وبناتُ وعدك يَعْتَلِجن ببالى
ولئن طَمِعتُ لربّ بَرْقةِ خُلّبٍ * مالت بذى طمع ولَمْعةِ آلِ

وقد حكى أبو الفرج أيضا هذه الحكاية وآختصرها، ولم يذكر الأبيات التى منها

* أشرَبْت قلبى من رجائك ما له *

إلا أنّه غيّر قولَه : "أشربت قلبى" بقوله : "أعلمتُ نفسى من رجائك" . وقال : فصنع فيه يزيد لحنًا وغنّاه المهدىّ . فدعا بأبى العتاهية وقال له : أما عُتْبةُ فلا سبيلَ إليها، لأن مولاتها قد مَنعتْ منها، ولكن هذه خمسون ألف درهم فآشْتَرِ ببعضها خيراً من عتبة فحُمِلت إليه، فأخذها وآنصرف .

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « قربها » .

وحُكى عن حماد بن إسحاق قال :

قال يزيد حوراء : كنتُ أجلِس بالمدينـة على أبواب قريش، وكانت تمرّ بى جاريةٌ تختلف الى الزرقاء لتتعلّم منهـا الغناء . فقلت لها يوما : افْهمى قولى وردّى جوابى وكونى عند ظنّى ؛ فقالت : هاتِ ما عندك . فقلتُ : بالله ما اسمك؟ فقالت : مُمنّعة . فأطرقتُ طِيَرةً من اسمها مع طمعى فيهـا، ثم قلتُ : بل باذِلةٌ ومبـذولةٌ إن شاء الله فاسمعى منّى . فقالت وهى تتبسّم : إن كان عندك شىء فقُلْ . فقلت :

لِيَهْنِـك منّى أنّنى لستُ مُفْشِيًا * هواك إلى غيرى ولو مُتّ من كربى

ولا مانحًا خَلْقًا سِـواك محبّـةً * ولا قائلًا ما عشتُ من حبكم حسبى

فنظـرت إلىّ طويلا ثم قالت : أنْشُـدُك الله ، أعن فَرْط محبّـة أم احتياج غُلْمةٍ [تكلمت](١) ؟ فقلتُ : لا والله إلا عن فرط محبّة . فقالت :

فوالله ربّ الناس لا خُنْتُك الهوى * ولا زلتَ مخصوصَ المحبّة من قلبى

فثِقْ بى فإنى قـد وَثِقْتُ ولا تكن * على غير ما أظهرتَ لى يا أخا الحبّ (١٣١)

قال : فوالله لكأنمـا أضرمتْ فى قلبى نارًا . فكانت تلقانى فى الطريق الذى كانت تسلُكه فتحدّثنى فأتفرّج بهـا ؛ ثم اشتراها بعضُ أولاد الخلفاء، وكانت تكاتبُنى وتلاطفنى دهرا طويلا .

ذكر أخبار فُلَيْح بن أبى العَوْراء

هو رجل من أهل مكّة مولى لبنى مخزوم، وهو أحد مُغَنّى الدولة العبّاسية ؛ له محلٌّ كبير من صناعته، وهو أحد الثلاثة الذين اختاروا المـائة الصوت للرّشيد التى بنى أبو الفرج الأصفهانى كتابَه المترجمَ بالأغانى عليهـا . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : ما سمعتُ أحسنَ من غناء فليح وابن جامع . وكان المهدى لا يُغنّيه مُغَنّ

(١) الزيادة عن الأغانى .

إلا من وراء الستارة إلا فليح فإن الستارة كانت تُرفع بينه وبين المهدىّ . وهو أوّل مُغَنّ نظر وجهَ المهدىّ .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ عن يوسف بن إبراهيم عن إبراهيم بن المهدىّ قال : كتب إلىّ جعفر بن يحيى وأنا عامل الرشيد على [جُنْد](١) دمشق : قد قدم علينا فُلَيْح بن أبى العوراء ، فأفسد علينا بأهزاجه وخفيفه كلَّ غناءٍ سمعناه قبله . وأنا محتال لك فى تخليصه إليك لتسمع منه كما أسمعنا . فلم ألبث أن ورد علىّ فليحٌ بكتاب الرشيد يأمر له بثلاثة آلاف دينار ؛ فورد علىّ منه رجلٌ أذكرنى لقاؤه الناسَ وأخبرنى أنه قد ناهز المائة . فأقام عندى ثلاث سنين ، وأخذ جوارى عنه كلَّ ما كان معه من الغناء ، وانتشر بعضُ غنائه بدمشق .

وروى أيضا بسنده إلى أحمد بن يحيى المكّىّ عن فُلَيْح بن أبى العوراء قال : كان بالمدينة فتًى يعشَق ابنةَ عمّ له ، فوعدتْه أنها تزوره ؛ وشكا إلىّ أنها تأتيه ولا شىء عنده ؛ فأعطيتُه دينارا للنفقة . فلما زارتهُ قالت له : من يُلْهِينا ؟ قال : صديقٌ لى ، ووصفنى لها ؛ ودعانى فأتيتُه ؛ وكان أوّل ما غنّيتُه :

مِن الخَفِرات لم تَفْضَحْ أخاها * ولم تَرْفَعْ لوالدها شَنارا

فقامت إلى ثوبها فلبستْه لتنصرف . فتعلّق بها وجَهِد كلَّ الجهد فى أن تُقيم فلم تفعل وانصرفتْ . فأقبل يلومنى فى أن غنّيتُها ذلك الصوتَ . فقلت : والله ما هو شىءٌ اعتمدتُ به مساءَتك ولكنّه شىء اتّفق . قال : فلم نَبْرَح حتى عاد رسولُها ومعه صُرّة فيها ألف دينار ، فدفعها إلى الفتى وقال : تقول لك ابنةُ عمّك : هذا مَهْرى ، فادفعه إلى أبى واخطُبْنى ، ففعل وتزوّجها .

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٤ ص ٣٦٥ طبع دار الكتب المصرية) . والجند : المدينة وخص به أبو عبيدة مدن الشام . وأجناد الشام خمس كور : دمشق وحمص وقنسرين والأردن وفلسطين .

ذكر أخبار إبراهيم الموصلىّ عفا الله عنه

هو إبراهيم بن مَاهان بن ميمون، وأصلُه من فارس، ومولِدُه فى سنة خمس وعشرين ومائة بالكوفة، ووفاتُه ببغداد فى سنة ثمان وثمانين ومائة . قالوا : ومات ماهان وترك إبراهيمَ صغيرًا، فكَفَله آلُ خزيمة بن خازم، فكان ولاؤُه لبنى تميم . وكان السببُ فى نسبه إلى المَوْصِل أنه لما كبِر وآشتدّ وأدرك صَحِب الفِتيانَ وآشتهى الغناءَ وطلبَه؛ فاشتدّ أخوالُه بنو عبد الله بن دارم عليه فى ذلك و بلغوا منه، فهرب منهم إلى الموصِل فأقام بها سنة ؛ فلما رَجع إلى الكوفة قال له إخوانُه من الفتيان : مَرْحبًا بالفتى الموصلىّ، فغلب عليه[1] ثم آرتحل إلى الرّىّ فى طلب الغناء، فطال مقامه هناك، وأخذ الغناء الفارسى والعربى .

قال إسحاق : حدّثنى أبى قال :

أوّل شىء أُعطِيته بالغناء أنى كنت بالرىّ أنادِم أهلها بالسويّة لا أرزؤهم شيئا ولا أُنفِق إلا من بقيـة مال كان معى . فمرّ بنا خادم أبو جعفر المنصور إلى بعض عُمّاله برسالة، فسمعنى عند رجل من أهل الرّىّ فشُغِف بى وخلَع علىّ دُوَّاجَ[2] سَمُّورٍ له قيمة، ومضى بالرسالة فرجع وقد وصله العامل بسبعة آلاف درهم وكُسوةٍ كثيرةٍ، فجاءنى إلى منزلى الذى كنتُ أسكنه، فأقام عنـدى ثلاثة أيام ووهب لى نصف الكسوة [التى معه][3] وألفى درهم . وكان ذلك أوّل مالٍ كسبته من الغناء . فقلت : والله لا أنفق هذه الدراهم إلّا على الصناعة التى أفادتْنِيها . ووُصِف لى رجلٌ بالأُبُلّة[4]

(١) فى الأغانى (ج ٥ ص ١٥٦ طبع دار الكتب المصرية) : « فلقب به » .

(٢) ضرب من الثياب . والسمور : دابة معروفة تسوّى من جلودها فراء غالية الأثمان .

(٣) الزيادة عن الأغانى .

(٤) الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة .

اسمه : "جُوانُويَه"[1] وكان حاذقا، فخرجت إليه، وصحبت فتيانها وأخذت عنهم وغنّيتهم فشُغفوا بى .

قال إبراهيم : ولما أتيت "جُوانُويه" لم أُصادِفه فى منزله فأقمت حتى جاء. فلما رآنى احتشمنى وكان مجوسيا ؛ فأخبرته بصناعتى والحال التى قصدتُه فيها ؛ فرحّب بى وأفرد لى جَناحًا فى داره ووكّل بى جاريةً[2]، فقدّمتْ لى ما أحتاج إليه . فلما كان العِشاء عاد إلى منزله ومعه جماعة من الفرس ممن يغنّى ؛ فنزلت إليه فجلسنا وأخذوا فى شأنهم وضربوا وغنّوا ؛ فلم أجِدْ فى غناء أحد منهم فائدة ؛ وبلغت النَّوْبة إلىّ فضربتُ وغنّيت ؛ فقاموا جميعا إلى فقبّلوا رأسى وقالوا : سَخِرتَ بنا، نحن إلى تعليمك إيّانا أحوج منك إلينا . فأقمت على تلك الحال أياما حتى بلغ [محمد بن][3] سليمان بن علىّ خبرى، فوجّه إلىّ فأحضرنى وأمرنى بملازمته . فقلتُ : أيها الأمير، لستُ أتكسّب بهذه الصناعةِ و إنما ألتذّ بالغناء فلذلك تعلّمتُه، وأريد العَوْد الى الكوفة ؛ فلم أنتفِعْ بذلك عنده وأخذنى بملازمته وسألنى : من أين أنا؟ فانتسبتُ الى المَوْصِل، فلزِمتنى وعُرِفتُ بها . ولم أزل عنده مُكَرَّمًا، حتى قدِم عليه خادمُ المهدىّ . فلما رآنى عنده قال له : أميرُ المؤمنين أحوجُ إلى هـذا منك، فَدافَعه عنّى . فلما قدِم الخادمُ على (١٣٢) المهدىّ سأله عمّا رأى فى طريقه ومَقْصِده، فأخبره بما رأى، حتى انتهى إلى ذكرى فوصَفنى له . فأمره المهدىّ بالرجوع و إشخاصى إليه، فجاء وأشخصنى إلى المهدىّ، وحَظِيتُ عنده وقدّمنى .

قال : وما سمِع المهدىُّ قبلى أحدًا من المُغَنّين سوى فُلَيْح بن أبى العوراء وسِياط ؛ فإن الفضل بن الربيع وصفهما له .

---

(١) جوانويه : مغن مجوسى . (٢) فى الأغانى « أخته » .

(٣) الزيادة عن الأغانى .

قال : وكان المهدىّ لا يَشرب ، فأرادنى على ملازمته وترك الشُّرب، فأبيتُ عليه . وكنتُ أغيب عنه الأيام، فاذا جئتُه جئتُه مُنْتَشيا ؛ فغاظَه ذلك منّى وضرَبنى وحبَسنى ؛ فحَذِقت القراءةَ والكتابة فى الحبس . ثم دعانى يوما فعاتبنى على شربى فى منازل الناس والتبذّل معهم . فقلت : يا أمير المؤمنين، إنما تعلّمتُ(١) هذه الصناعةَ للذّتى وعشرةِ إخوانى ولو أمكننى تركُها تركتُها وجميعَ ما أنا فيه لله تعالى . فغضِب غضبًا شديدا وقال : لا تَدْخل على موسى وهارون، فوالله لئن دخلتَ عليهما لأفعلنّ وأصنعنّ(٢) . فقلت نعم . ثم بلغنه أنّى دخلتُ عليهما وشربتُ معهما وكانا مشتهِرين بالنّبيذ، فضربنى ثلاثمائة سوط وستين سوطا . فقلتُ له وأنا أُضْرَب : إن جُرمِى ليس من الأجرام التى يَحِلّ بها سفك دمى ، ووالله لو كان سرُّ ابنيك تحت قدمىّ ما رفعتُهما عنه ولو قُطِعتا، ولو فعلتُ ذلك كنت فى حالة أبانٍ العبدِ(٣) الساعى . فلما قلتُ ذلك ضربنى بالسيف فى جفنه(٤) فشجّنى، فسقطت مَغْشِيًّا علىّ . وقال لعبد الله ابن مالك : خُذْه إليك واجعله فى مثل القبر . فدعا عبدُ الله بكبش فذبَحه وسلَخه وألبَسنى جلدَه ليسكن الضّربُ عنى، ودَفعنى الى خادم له يقال له أبو عثمان سعيد التركىّ، فجعلنى فى قبر ووكّل بى جارية . فأذيت بَقّ(٥) كان فى القبر وبَقّ . فقلت للجارية : أصْلِحى لى مِجْمرةً وكُنْدُرا(٦) ليذهب عنى هذا البَقّ ففعلتْ . فلما دخّنت أظلم القبرُ وكادت نفسى تذهب، ثم خفّ ذلك وزال البَقّ، وإذا حيّتان مُقْبِلتان نحوى من شَقّ فى القبر تَدُوران حولى، فهمَمْتُ أن آخُذَ واحدةً بيدى اليمنى

(١) فى الأصل « فعلت » . والتصويب عن الأغانى (ج ٥ ص ١٦٠ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) فى الأغانى : « مستهترين » .

(٣) هو العبد الذى سعى به و بموسى وهارون إلى المهدى وحدثه بما كانوا فيه .

(٤) جفن السيف : غمده .

(٥) المراد بالبق هنا ما يسميه أهل مصر الناموس ، وأهل العراق يسمونه البق ، ويطلقون الناموس على ما يسميه أهل مصر بالبق .

(٦) الكندر : اللبان .

والأخرى بيدى اليسرى، فإمّا علىّ و إمّا لِى، ثم كُفِيتُهما، فدَخلتا فى الثَّقْب الذى خرجتا منه . فمكثتُ فى ذلك القبر ما شاء الله، ثم أُخرِجتُ منه . وأحْلَفنى المهدىّ بالطّلاق والعِتاق و كلّ يمينٍ لا فسحةَ لى فيها ألّا أدخلَ على ابنيه موسى وهارون أبدا ولا أغنّيهما، وخلّى سبيلى . قال إبراهيم : وقلتُ وأنا فى الحبس :

ألَا طال ليلى أُراعِى النجوم * أُعالج فى السَّاقِ كَبْلًا ثقيلا
بدارِ الهوانِ وشرّ الديارِ * أسامُ بها الخَسْفَ صَبْراً جميلا
كثيرُ الأخِلّاء عنـد الرخاء * فلمـا حُبِستُ أراهم قليلا
لطول بلائىَ مَلَّ الصـديق * فلا يأمَنَنّ خليلٌ خليلا

قال : فلمّا ولِى موسى الهادى الخلافةَ استتر إبراهيم منه ولم يَظْهر له بسبب الأيمان التى حلَف بها للمهدىّ . فلم يزل يطلبه حتى أُتِى به فلما عاينه قال : يا سيّدى، [فارقتُ(١)] أمّ ولدى أعز الخلق علىّ؛ ثم غنّاه :

يابنَ خيرِ المـلوك لا تَتْركنّى * غَرَضًا للعـدوّ يَرْمِى حِيَالِى
فلقـد فى هواك فارقتُ أهلى * ثم عرّضتُ مهجتى للـزوال
ولقد عِفْتُ فى هواك حياتى * وتغرّبت بين أهلى ومالى

قال إسحاق بن إبراهيم : فمَوْله الهادى وخوّله ؛ وبحَسْبِك أنه أخذ منه مائة ألف وخمسين ألف دينـار فى يوم واحد، ولو عاش لنا لبنَيْنا حيطانَ دُورنا بالذهب والفضّـة .

قال حمّاد بن إسحاق قال لى أبى :

والله ما رأيتُ أكلَ مروءةٍ من جدّك، وكان له طعام يُعَدّ أبدًا فى كل وقت . فقلت لأبى : كيف كان يُمكنه ذلك ؟ قال : كان له فى كل يوم ثلاثُ شِيَاهٍ ،

(١) الزيادة عن الأغانى .

واحدةٌ مقطّعة فى القـدور، وأخرى مسلوخةٌ معلّقة، وأخرى قائمة فى المطبخ؛ فإذا أتاه قوم طَعِموا ممّا فى القدور، فإذا فرغت القـدورُ قُطِّعَت الشّاةُ المعلّقةُ ووُضِعَتْ فى القدور وذُبِحَتِ القائمة وأُتى بأُخرى فأُقيمت فى المطبخ . وكانت وظيفتُه لطعامه وطِيبـه وما يتّخـذ له فى كل شهر ثلاثين ألف درهم سـوى ما كان يُجرِى وسوى كُسوته . ولقد كان مرّةً عندنا من الجوارى الودائع لإخوانه ثمانون جارية، ما فيهنّ واحدة إلا ويُجرِى عليها من الطعام والكُسوة والطِّيب مثل ما يُجرِى لأخصّ جواريه، فإذا رُدّت الواحدةُ الى مولاها وصلَها وكساها . ومات وما فى ملكه إلا ثلاثة آلاف دينار وعليه من الدّين سبعمائة دينار قُضِيَتْ منها .

وروى عن إسحاق بن إبراهيم قال :

اِشترى الرشيد من أبى جاريةً بستة وثلاثين ألف دينار، فأقامت عنده ليلة ثم أرسل الى الفضل بن الربيع وقال له : إنا اشترينا هذه الجاريةَ من إبراهيم ونحن نحسَب أنها على صفةٍ وليست كما ظنّنا وما قَرِبْتُها، وقد ثَقُلَ علىّ الثمنُ و بينك و بينه ما بينكما؛ فاذهب اليه فسَله أن يَحُطَّنا من ثمنها ستة آلاف دينار . قال : فأتاه الفضل، فخرج اليه وتلقّاه ؛ فقال له : دعنى من هذه الكرامة التى لا مَـؤونة فيها، قـد جئتُك فى أمر، ثم أخبره الخبر . فقال له إبراهيم : إنما أراد أن يبلُوَ قدْرَكَ عندى . قال : هو ذاكَ؟ قال : فمالى فى المساكين صدقةٌ إن لم أُضْعِفْه لك، قد حططتُك اثنى عشرَ ألف دينار . فرجع الفضل اليه بالخبر؛ فقال : ويحك! اِحمل اليه المـالَ بجملته، فما رأيت سُوقةً أنبل(١) منه نفسا . قال إسحاق : وكنتُ قد أتيت أبى فقلت : ما كان لحطيطة هذا المـال معنًى ولا هو قليل يُتغافل عنه، قال لى : يا أحمقُ، أنا أعرف الناس به، والله لو أخذتُ المـالَ منه كَمَلًا ما أخذته إلا وهو كاره ولحَقَدَ ذلك، وكنت أكون

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «أمثل» .

عنده صغيرَ القدر ، وقد مَنَنتُ عليه وعلى الفضل وآنبسطتْ نفسُه وعَظُمَ قدرى عنده ، وإنما آشتريتُ الجارية بأربعين ألف درهم وقد أخذت بها أربعة وعشرين ألف دينار . فلما حُمِلَ اليه المالُ بكماله دعانى وقال : كيف رأيتَ يا إسحاقُ ، مَنِ (١٣٣) البصيرُ أنا أم أنتَ؟ فقلت : أنت ، جعلنى الله فداك . قال : وإبراهيمُ أوّل من علّم الجوارى المثمّنات الغناء فإنه بلغ بالقيان كلّ مبلغ ورفع من أقدارهنّ .

ومن أخباره مع الرشيد ما رُوى عن إسحاق قال حدّثنى أبى قال :

إنّ الرشيد غضب علىّ فقيّدنى وحبسنى بالرَّقّة وجلس للشرب يوما فى مجلس قد زينه وحسّنه . فقال لعيسى بن جعفر : هل لمجلسنا عيبٌ؟ قال : نعم ، غيبةُ إبراهيم الموصلىّ عنه . فأمره باحضارى ، فأحضِرتُ فى قيودى ، ففُكّت عنّى بين يديه ، وأمرهم فناوَلونى عودا ، ثم قال : غنّ يا إبراهيم ، فغنّيته :

تَضَوَّعَ مِسكًا بطنُ نَعمانَ أن مَشَتْ * بـه زينبٌ فى نسـوةٍ عَطِـرَاتِ

فاستعاده وشرب وطرِب وقال : هَنأْتَنِى وسأهنِئك بالصلة ، وقد وهبت لك الهنىء والمرئ (٢) ، فانصرفتُ ، فلما أصبحتُ عُوِّضتُ منهما مائتى ألف درهم .

قال إبراهيم : دخلت على موسى الهادى فقال لى : يا إبراهيم ، غنّ من الغناء ما ألَذُّ وأطرَب عليه ولك حكمُكَ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن لم يقابلنى زُحَلُ ببرده رجوتُ ذلك ، فغنّيته :

وإنى لَتعـرُونى لذِكراكِ هِزةٌ * كما آنتفض العُصفورُ بلّله القطرُ

---

(١) فى الأصل «أو» .

(٢) الهنىء والمرىء : نهران بازاء الرقة والرافقة حفرهما هشام بن عبد الملك وأحدث فيهما «واسط الرقة» . يريد أنه أقطعه ضيعتهما (أنظر معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٩٩٤ طبع أوروبا) .

فضرب بيده إلى جيب دُرّاعته[1] فحطّه ذراعا، ثم قال: أحسنتَ والله! زدنى، فغنّيتُ:

فيا حُبَّها زِدْنى جَوًى كلَّ ليلةٍ * ويا سَلوةَ الأيام مَوعِدُكِ الحشرُ

فضرب بيده الى دُرّاعته فحطها ذراعا آخر وقال: زدنى ويلك! أحسنتَ والله ووجب حكمك، فغنّيتُ:

هجرتُكِ حتى قيل ما يعرف الهوى * وزُرتُكِ حتى قيل ليس له صبرُ

فرفع صوته وقال: أحسنت والله! لله أبوك! هات ما تريد. فقلت: يا سيِّدى عَيْن مروان بالمدينة. فدارت عيناه فى رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان وقال: يابن اللخناء! أردت أن تَشْهَرنى بهذا المجلس فيقول الناس: أطربه فحكم عليه فتجعلنى سَمْرًا وحديثا! يا إبراهيم[2] الحرّانى، خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت مال الخاصة، فإن أخذ كلَّ ما فيه فخَلِّه وإياه. فدخلت فأخذت خمسين ألف دينار. وهذا الشعر لأبى صخر الهذلىّ، وأوّلُه:

عَجِبتُ لسعى الدّهر بينى وبينها * فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدّهْرُ

فيا حبَّها زِدْنى جَوًى كلّ ليلةٍ * ويا سَلْوةَ الأيام مَوْعِدُكِ الحشرُ

ويا هجرَ ليلى قد بلغتَ بىَ المَدَى[3] * وزدتَ على ما ليس يبلغه الهجرُ

وإنى لتعرونى لذكراكِ هِزّةٌ * كما انتفض العصفورُ بلّله القطرُ

هجرتُكِ حتى قيل لا يعرفُ الهوى * وزرتُكِ حتى قيل ليس له صبرُ

---

(١) الدراعة: جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف.

(٢) فى نسخة من الأصل: «الجدانى». وفى أخرى: «الحدانى» والتصويب عن الأغانى. وهو من ندماء الهادى وكان قيما على خزائن الأموال فى أيامه.

(٣) ورد هذا الشطر هكذا فى الأغانى وأمالى القالى (ج ١ ص ١٥٠ طبع دار الكتب المصرية). وفى الأصل: * وزدت على ما لم يكن بلغ الهجر *

أمَا والذى أبكى وأضحك والذى * أمات وأحيا والذى أمره الأمرُ
لقد تركتنى أحسُدُ الوحشَ أن أرَى * إليفَيْنِ منها لا يروعُهما الذُّعْرُ

ذكر نبذة من أخبار إبراهيم الموصلى مع البرامكة رحمهم الله تعالى

كان لإبراهيم الموصلىّ مع البرامكة أخبار مستحسنة، سنُورد منها طرفا . منها ما حكى عن مُخَارِق قال :

أذِن لنا أمير المؤمنين الرشيدُ أن نُقيمَ فى منازلنا ثلاثة أيام وأعلمنا أنه يشتغل فيها مع الحُرَم . فمضى الجلساء أجمعون الى منازلهم وقد أصحبت السماء مُتَغَيِّمةً تطِشّ طِشيشا خفيفا . فقلت : والله لأذهبنّ الى أستاذى إبراهيم فأعرف خبره ثم أعود، وأمرتُ مَنْ عندى أن يسوّوا لنا مجلسا الى وقت رجوعى . فجئتُ الى إبراهيم، فدخلت اليه، فإذا هو جالس فى رِواق له والستارةُ منصوبةٌ والجوارى خلفها؛ فدخلت أترنّم ببعض الأصوات وقلت له : ما بالُ السّتارة لست أسمع من ورائها صوتا؟ فقال : اقعد ويحك! إنى أصبحت فجاءنى خبرُ ضَيعةٍ تُجاورنى قد والله طلبتها زماناً وتمنّيتُها ولم أملكها، وقد أُعطى بها مائةَ ألف درهم . فقلت له : ما يمنعك منها؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعافَ هذا المال وأكثر . قال : صدقت، ولكن لستُ أطِيبُ نفسا بأن أُخرِجَ هذا المال . فقلت : فمن يُعطيك الساعةَ مائة ألف درهم؟ قال[1] : والله ما أطمع فى ذلك من الرشيد، فكيف بمن دونه! ثم قال : اجلس، خذ هذا الصوت . ثم نَقَر بقضيب على الدّواة وألقى علىّ هذا الصوتَ :

نام الخليّونَ من همٍّ ومن سَقَمِ[2] * وبِتُّ من كثرة الأحزان لم أنَم

(١) كلمة «قال» غير موجودة فى الأغانى، وسياق كلامه أن ما بعدها من كلام مخارق .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «من همى ومن حزنى» .

يا طالبَ الجودِ والمعروف مجتهـداً * اِعْمِدْ ليحيى حليفِ الجود والكرم

قال : فأخذت الصوت وأحكمتُـه . ثم قال لى : آنصرف الى الوزير يحيى بن خالد فإنك تجد الناس على بابه قبل أن يُفتح البابُ، ثم تجد الباب قد فُتح ولم يجلس بعدُ، فآستأذِنْ عليـه قبل أن يصل اليه أحدٌ، فإنه يُنكر مجيئكَ ويقول : مِن أين أقبلتَ فى هذا الوقت ؟ فحدِّثه بقصدك إيّاى وما ألقيتُ إليك من خبر الضيعة وأعلمه أنى قد صنعت هذا الصوت وأعجبنى ولم أر أحداً يستحقه إلا جاريته فلانة، وأنى ألقيتُه عليك [حتى أحكمته](١) لتطرحه عليها؛ فسيدعوها ويأمر بالستارة فتُنصبُ ويوضع لها كرسىّ ويقول لك : اِطْرَحْه عليها بحضرتى؛ فآفعل وأْتنى بما يكون بعد ذلك من الخبر . قال مخارق : فجئت الى باب يحيى بن خالد فوجدته كما وصف . وسألنى فأعلمته بما أمرنى به؛ ففعل كل شىء قاله لى إبراهيمُ وأحضر الجارية فألقيتُه عليها . ثم قال لى : تُقيم عندنا يا أبا المهنّأ أو تنصرف؟ فقلت : بل أنصرف، أطال الله بقاءك، فقد علمتَ ما أُذِنَ لنا فيـه . فقال يا غلام، اِحْمِل مع أبى المهنّأ عشرة آلاف درهم واحمل الى أبى إسحاق مائة ألف درهم ثمنَ هذه الضيعة . فحملت عشرة الآلاف معى، وأتيتُ منزلى وقلت : أُسَرُّ يومى هـذا وأُسَرُّ مَنْ عندى . ومضى الرسول بالمـال الى إبراهيم؛ فدخلتُ منزلى ونثرتُ على مَنْ عندى دراهم من تلك البَدْرة وتوسَّدتُها وأكلتُ وشربت وطربت وسُررتُ يومى كلّه . فلمـا أصبحت قلت : والله لآتينّ أستاذى ولأعرفنّ خبره؛ فأتيته فوجدته كهيئته بالأمس ملى مثـل ما كان عليـه، فترنّمت وطربت فـلم يتلَقَّ ذلك بمـا يجب؛ فقلت : ما الخـبر؟ ألم يأتك المـال بالأمس؟ ! فقال : بلى، فما كان خبرك أمس؟ فأخبرتُه بما كان وقلت : ما تنتظر؟ فقال : ارفع السِّجف، فرفعتُه فإذا عشر بِدَر؛ فقلت : فأىّ شىء بقى عليك فى أمر

(١) الزيادة عن الأغانى .

الضيعة؟ فقال : ويحك ! ما هو والله إلا أن دخلتُ منزلى حتى شَحَحتُ عليها وصارت مثل ماحويتُ قديما . فقلت : سبحان الله! فتصنع ماذا؟ قال : قم حتى ألقِيَ عليك صوتا صنعتُه يفوق ذاك . فقمت فجلست بين يديه؛ فألقى علىّ :

ويَفرَحُ بالمولود من آل بَرْمَكٍ * بُغَاةُ النَّدَى، والسيفُ والرمحُ والنصلُ
وتنبسِطُ الآمالُ فيه لفضله * ولا سيما إن كان والدَه الفضلُ

قال مخارق : فلما ألقى علىّ الصوتَ سمعتُ ما لم أسمع مثلَه قطّ وصَغُرَ فى عينى الأوّل، فأحكمته . ثم قال : امض الساعة إلى الفضل بن يحيى، فإنك تجده لم يأذن لأحد بَعْدُ وهو يريد الخلوةَ مع جواريه اليوم؛ فاستأذِن عليه وحدِّثه بحديثنا وما كان من أبيه إلينا، وأعلمه أنى صنعتُ هذا الصوت وكان عندى أرفعَ منزلةً من الصوت الأوّل الذى صنعته بالأمس، وأنى ألقيتُه عليك حتى أحكمتَه ووجّهتُ بك قاصدًا لِتُلْقِيَه على فلانة جاريتِه . فصرتُ إلى باب الفضل فوجدتُ الأمر على ما ذكر، فاستأذنتُ فوصلت إليه؛ وسألنى عن الخبر، فأعلمتُه بخبرى وماوصل إلىّ وإليه من المال؛ فقال : أخزى الله إبراهيم ! ما أبخله على نفسه ! ثم دعا خادما فقال له : اِضرب السِّتارةَ، فضربها؛ فقال لى : ألقِه . فلما ألقيته وغنّته الجاريةُ لم أُتِمَّه حتى أقبل يجرّ مِطْرَفَه، ثم قعد على وِسادة دون الستارة وقال : أحسنَ والله أستاذُك وأحسنتَ أنتَ يا مخارق . ولم أبرح حتى أحكَمَتْه الجاريةُ؛ فسُرَّ بذلك سرورا عظيما وقال : أقِم عندى اليومَ . فقلت : يا سيِّدى إنما بقى لنا يوم واحد، ولولا أنّى أحِبّ سرورَكَ لم أخرج من منزلى . فقال : يا غلام، اِحمل مع أبى المهنّا عشرين ألف درهم وإلى أبى إسحاق مائتى ألف درهم . فانصرفتُ إلى منزلى بالمال، وفتحتُ بَدرةً ونثرت منها على الجوارى وشربت وسُرِرتُ أنا ومَنْ عندى يومنا . فلما أصبحت بكّرت إلى إبراهيم أتعرّف خبره وأعرّفه خبرى، فوجدته على الحال

التى كان عليها أوّلا وآخرا؛ فدخلت أترنّم وأصفّق . فقال لى : أُدنُ؛ فقلت : ما بقى عليك؟ فقال : اجلس وآرفع سَجْفَ هـذا الباب؛ فرفعته فاذا عشرون بدرةً مع تلك العشر . فقلت : ما تنتظر الآن ؟ فقال : ويحك! ما هو إلا أن حَصلتْ حتى جرت مَجْرى ما تقدّم . فقلت : والله ما أظن أحدًا نال من هذه الدولة ما نلتَ ! فلِمَ تبخل على نفسك بشىء تمنيتَه دهرًا وقد ملّكك الله أضعافه! ثم قال : اجلس فخذ هذا الصوت . فألقى علىّ صوتا أنسانى صوتى الأوّلين وهو :

أفى كلّ يومٍ أنتَ صَبٌّ وليلةٍ * إلى أمِّ بكرٍ لا تُفيـق فتُقصِرُ
أُحِبُّ على الهِجرانِ أكنافَ بيتها * فيالكَ مِن بيتٍ يُحَبُّ ويُهْجَـرُ
إلى جعفرٍ سارتْ بنا كلُّ جَسْرةٍ * طواها سُراهـا نحـوَه والتهجُّرُ
إلى واسـعٍ للمجتدين فِنَاؤُهُ * تروح عطاياه عليهـم وتَبْـكُرُ

— وهو شعر مروان بن أبى حفصة يمدح جعفر [بن يحيى](١) — قال مخارق : ثم قال لى إبراهيم : هل سمعتَ مثلَ هـذا قطّ ؟ فقلتُ : ما سمعتُ قط مثـله ! فلم يزل يردّده علىّ حتى أخذته، ثم قال لى : امضِ إلى جعفر فافعـل به كما فعلتَ بأبيـه وأخيه . قال : فمضيت ففعلت مثل ذلك وأخبرته بما كان وعرضت عليه الصوت؛ فسُرّ به ودعا خادمًا فأمره أن يضرب السِّتارةَ، وأحضر الجاريةَ وقعد على كرسىّ؛ ثم قال : هاتِ يا مخارقُ؛ فألقيتُ الصوتَ عليهـا حتى أخذته؛ فقـال : أحسنتَ يا مخارق وأحسن أستاذُك، فهل لك فى المُقام عندنا اليوم؟ فقلت : يا سيّدى، هذا آخرُ أيامنا، وإنما جئتُ لموقع الصوت منّى حتى ألقيته على الجارية . فقال : يا غلام، احْمِل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصلىّ ثلثمائة ألف درهم . فصرتُ إلى منزلى بالمـال وأقمتُ ومَن عندى مسرورين نشرب طولَ يومنا ونطرَب . ثم بكّرتُ إلى إبراهيم

(١) زيادة عن الأغانى .

(١٣٥) فتلقّانى قائما، ثم قال لى : أحسنتَ يامخارق! فقلتُ : ما الخبر؟ قال : اجْلِس فجلستُ، فقال لمن خلف الستارة : خذوا فيما أنتم عليه[(١)] ثم رفع السَّجفَ فإذا المالُ. فقلت ماخبر الضَّيْعة؟ فأدخل يده تحت مِسْورة[(٢)] وهو متكئ عليها فقال : هذا صَكُّ الضَّيْعة اشتراها يحيى بن خالد وكتب إلىّ : "قد علمتُ أنك لا تسخو نفسُك بشراء هذه الضَّيْعة من مال يحصُل لك ولو حويتَ الدنيا كلَّها، وقد ابتعتها من مالى". ووجّه إلىّ بصكها، وهذا المال كما ترى، ثم بكى وقال : يا مخارقُ، إذا عاشرتَ فعاشِرْ مثلَ هؤلاء، وإذا خنكرت[(٣)] فخَنْكِرْ لمثل هؤلاء، ستمائة ألف، وضيعة بمائة ألف، وستون ألف درهم لك، حَصّلنا ذلك أجمع وأنا جالس فى مجلسى لم أبرح منه، متى يُدْرَك مثلُ هؤلاء! .

ورُوِى عنه قال : أتيتُ الفضلَ بن يحيى يوما فقلت له : يا أبا العبّاس، جُعِلتُ فداك! هَبْ لى دراهم فإن الخليفة قد حبس بِرّه . فقال : ويحك يا أبا إسحاق ماعندى ما أرضاه لك . ثم قال : هاه! إلا أنّ هاهنا خَصْلةً، أتانا رسولُ صاحب اليمن فقضينا حوائجَه، ووجّه [الينا][(٤)] بخمسين ألف دينار يَشترى لنا بها محبَّتنا . فما فعلتْ ضياءُ جاريتُك؟ قلت : عندى جعلتُ فداك . قال : فهو ذا، أقول لهم يَشْتَرُونها[(٥)] منك فلا تَنْقُصْها من خمسين ألف دينار، فقبّلتُ رأسه ثم انصرفتُ . فبكّر علىّ رسول صاحب اليمن ومعه صديقٌ له ولى، فقال : جاريتُك فلانة [عندك][(٦)]؟ قلتُ : عندى. قال : أعْرِضها علىّ فعرضتُها عليه، فقال : بكم؟ فقلت : بخمسين ألف دينار ولا أنْقُصُ منها دينارا واحدا، وقد أعطانى الفضلُ بن يحيى أمس هذه العطيّةَ،

(١) فى الأغانى : «فيما أنتم فيه» . (٢) المسورة : الوسادة من الجلد .

(٣) كذا فى الأغانى (ج ٥ ص ١٨٤ طبع دار الكتب المصرية) ومعناها : إذا أردت أن تغنى فغن لمثل هؤلاء . وفى الأصل : «واذا احتكرت فاحتكر» وهو تحريف . (٤) الزيادة عن الأغانى . (٥) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «حتى يشترونها» . (٦) الزيادة عن الأغانى .

فقال : هل لك فى ثلاثين ألف دينار مُسَلَّمة؟ وكان مشترى الجارية أربعمائة دينار، فلما وقع فى أُذُنى ذكرُ ثلاثين ألف دينار أُرتِجَ علىّ ولَحِقنى زَمَعٌ(١)، وأشار علىّ صديق الذى معه بالبيع، وخِفْت والله أن يَحْدُث بالجارية حَدَثٌ أو بى أو بالفضل بن يحيى(٢)، فسلّمتُها وأخذتُ المـال . ثم بكّرت على الفضل، فإذا هو جالسٌ وحده . فلما نظر إلىّ ضَحِك وقال لى : ياضيّق العَطَنِ والحَوْصلة، حَرَمْتَ نفسَك عشرين ألف دينار. فقلت له : جُعِلتُ فِداك ، دَعْ ذا عنك، فوالله لقد دخلنى شىء أَعجَز عن وصفه وخِفتُ أن تحدُث بى حادثةٌ أو بالجارية أو بالمشترى أو بك أعاذك الله من كل سوء، فبادرتُ بقَبول الثلاثين ألف دينار. فقال : لاضَيْر، ياغلام جِئْ بجاريته، فجىء بها، فقال : خُذْ بيدها وانصرف بارك الله لك فيها، ما أردنا إلّا منفعتك ولم نُرِد الجَارية. فلما نهضتُ قال لى : مكانَك، إن رسول صاحب أَرْمِينية قد جاءنا فقضينا حوائجه ونَفَّذْنا كُتُبَه، وقد ذكر أنه قد جاء بثلاثين ألف دينار يشترى لنا بها ما نُحِبّ، فاعْرِض عليه جاريَتك هذه ولا تَنْقُصْها من ثلاثين ألف دينار؛ فانصرفتُ بالجارية. وبكّر علىّ رسولُ صاحب أَرْمِينية ومعه صديقٌ لى آخَرُ، فقاولنى بالجارية؛ فقلت : لن أنقصها من ثلاثين ألف دينار . فقال لى : معى عشرون ألف دينار مُسَلَّمة خذها بارك الله لك فيها . فدَخَلنى والله مثلُ الذى دخلنى فى المرّة الأولى وخِفْتُ مثلَ خوفى الأوّل، فسلّمتُها وأخذت المـال. وبكّرتُ على الفضل، فإذا هو وحده. فلما رآنى ضحك وضرب برجله ثم قال : ويحك، حَرَمْتَ نفسَك عشرةَ آلاف دينار . فقلتُ : أصلحك الله، خِفْت والله مثلَ ما خِفْتُ فى المرّة الأولى . فقال : لا ضيرَ، [أَخْرِجْ](٣) يا غلام جاريتَه فجىء بها، فقال : خُذْها، ما أردناها وما أردنا إلا

(١) كذا فى الأغانى . والزمع : شبه الزعدة تأخذ الانسان . وفى الأصل : « بزع » .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « أن يحدث بالجارية حدث أو فى أمر الفضل » .
(٣) الزيادة عن الأغانى .

منفعتَك. فلما ولّت الجاريةُ صِحْتُ بها: ارْجعى فرجَعتْ، فقلت: أُشْهِدكَ جُعِلتُ فداكَ هى حرّة لوجه الله تعالى، وإنى قد تزوّجتُها على عشرة آلاف درهم، كسبَتْ لى فى يومين خمسين ألف دينار فما جزاؤها إلا هذا. فقال: وُفّقت إن شاء الله تعالى.

وأخبارُه مع البرامكة كثيرةٌ وصِلاتُهم له وافرةٌ. وقد ذكرنا منها ما فيه غُنْيةٌ عن زيادة. فَلْنذكر وفاةَ إبراهيم. كانت وفاتُه ببغداد فى سنة ثمان وثمانين ومائة، ومات فى يوم وفاته العباسُ بن الأحنف الشاعر، وهُشَيْمةُ الخمّارة؛ فَرُفِع ذلك إلى الرشيد فأمر المأمونَ أن يصلّى عليهم، فخرج وصلّى عليهم.

قال إسحاق: لمّا مَرِض إبراهيم مرضَ موْته ركب الرشيد حمارا ودخل على إبراهيم يعودُه وهو جالس فى الأَبْزَن(١)، فقال له: كيف انتَ يا إبراهيم؟ فقال: أنا والله يا سيّدى كما قال الشاعر:

سَقِيمٌ مَلَّ منه أقْرَبوه * وأسْلَمه المُدوِاى والحميمُ

فقال الرشيد: إنّا لله! فخرج، فما بَعُدَ حتى سَمِعَ الواعيةَ(٢) عليه.

---

(١) الأبزن مثلثة الأول: حوض يغتسل فيه، وقد يتخذ من نحاس، معرب آب زن.

(٢) الواعية: الصراخ على الميت ونعيه.

صورة ما ورد بآخر الجزء الرابع فى أحد الأصلين الفتوغرافيين :

هـذا آخر الجزء الرابع من نهـاية الأرب فى فنون الأدب .
والحمد لله وحده، وصلى الله على سـيّدنا محمد وآله وصحبه وسـلم؛
وحسبنا الله ونعم الوكيل .

صورة ما ورد بآخر الجزء الرابع فى الأصل الآخر الفتوغرافى :

كمل الجزء الرابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب على يد
مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم
البكرىّ التيمىّ القرشىّ المعروف بالنويرى عفا الله عنهم .

تمّ الجزء الرابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجـزء الخامس وأوّله
ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ

(مطبعة الدار ٦٢/١٩٣٣/١٥٠٠)

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

From the Library of
George C. Miles
Gift of Marian Miles McCredie

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University